

بيكرداكو

# انتصار التحليل النفسي

ترجمة  
وجيه أسعد



الشركة المتحدة للنشر

اَبْصَارُ الْمُتَحَلِّلِ النَّفْسِي

# بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م

مقوق الطبع محفوظة

مطبعة الرسالة

« عدد الطبع ٣٠٠٠ »



سوريا - دمشق - شارع مقام البارودي - بناء خوري وصلاحي رقم ٣٧

هاتف ٢١٢٧٧٣ - ص.ب ١١٧٢١ - برتيا : بيروت - تلکس ٤١١٥٢٩ ویرل

الشركة للتأجير والإستوديو

تأليف  
بيرداكو

# انْتِصَارُ الْإِنْسَانِ عَلَى النَّفْسِ

ترجمة  
وجيه أسعد

الشركة المتحدة للتوزيع



العنوان الاصلي للكتاب :

**PIERRE DACO**

**LES  
TRIOMPHES  
DE LA  
PSYCHANALYSE**

**DU TRAITEMENT  
PSYCHOLOGIQUE  
A L'EQUILIBRE  
DE LA PERSONNALITE**

## الهدى

أهدي هذا الكتاب الى :

• أعضاء اللجنة التي تدير المؤسسة العالمية لعلم النفس وعلم النفس العلاجي (جنيف)، تلك المؤسسة التي تحتفظ ببصمة مؤسسها الراسخة :

شارل بودوان ؛

• الدكتور رولان كاهن ، عضو المؤسسة العالمية لعلم النفس التحليلي اليونفي ( زوريخ ) ، الذي انتشرت بفضله مؤلفات يونغ في البلدان الناطقة بالفرنسية ؛

• السيدة جيلبرت إغريس على وجه الخصوص ، عضواتين المؤسستين ، لقاء ما قدمته لي من عون ؛

• وأهدي هذا الكتاب بصورة خاصة الى مرضاي ، شاكرًا لهم مساهمتهم في العمل التحليلي .

أئمة « انتصارات » للتحليل النفسي ؟ بالتأكيد : ذلك أنه يجعل الأبعاد الانسانية تتجلى ، ويتيح تفتح أخلاق جديدة ، ويلقي بالناس صوب الآخرين ، ويحقق ، أخيرا ، هذه « الرابطة » وهذا الوفاق اللذين لا غنى عنهما في قرن أريد له أن تسوده روح الجماعة وأن يكون أصيلا أكثر فأكثر . وإذا كان التحليل النفسي لا يزال يخيف بعض الناس ، فالسبب أنهم لا يخشون ما يأتي ، وإنما ما يمضي .

انني أرفض ، في كتاب للتحليل النفسي ، أن يكون التأليف تأليفا « تبسيطيا » . فمثل هذا الأمر غير مطروح على بساط البحث في علم انساني هو على هذه الدرجة من الصعوبة في ايصاله الى الآخرين . ومع ذلك ، فالتحليل النفسي يزداد اتساعا وعمقا ودقة . انه يرتاد الفرد والمجتمع . وينبغي ، بوصفه كذلك ، أن يوضع في متناول الجميع . وعلى هذا النحو ، ينهل منه كل فرد ما يستطيع ، بحسب ما هو عليه ، أو بحسب ما يرغب أن يصير .

ومن المفيد ، على ما يبدو ، أن نرسم مخطط كتاب . ولكن مخطط ماذا ؟ هل هو مخطط الوجود الانساني الذي نسجناه في التعريفات ، وفي دروج تحمل لاصقات متعددة الألوان ؟

ومن المؤكد أنكم ستشعرون أحيانا بأنكم تقرأون أفكارا مكررة ، ولكنها ستكون مسوغة ، ذلك أننا لا نستطيع تحديد لانهاية الوجود

## الانساني<sup>(١)</sup> .

ومن خلال هذا الكتاب ، سنرى الانسان الذي ينطلق لاكتشاف نفسه . وسنحاول ، بأخوة واحترام ، أن تتبعه في بحثه الشغوف عن كليته . وسنرى ضربا من التحليل العمقي ينسبط في خطوطه الكبرى . وسنرى كيف يدمر الانسان نفسه وكيف يكتشفها . وسنرى أيضا كيف يجد نفسه غالبا للمرة الأولى في حياته . وسنراه من خلال ضروب خضوعه ، وإثميته ، ومشاعر الدونية لديه ، وإخفاقه ، وتعجرفه ، ومازوخيته . وسنلاحظ الترسانة الهائلة التي يعرضها محاولا أن يتلاءم مع الواقع ، محاولة يائسة في بعض الأحيان .

فالى من يتوجه هذا المؤلف ؟ إنه يتوجه الى جميع أولئك الذين يبحثون ، ويتألمون ، ويرببون ، ويحاولون معرفة أنفسهم والمضي نحو أنفسهم ونحو الآخرين . وذلك ما يشكل إذن عددا كبيرا من الناس الذين يمكنهم أن يرددوا الكلمات الرائعة ، كلمات هذه الطالبة الصبية : « أرغب في إجراء تحليل حتى أفلح في أن أحيا حياة سعيدة ، وأن أساعد مساعدة طيبة ، وأن أحب حبا خالصا ، وأن أموت وأنا مطمئنة البال » .

ذلك أن كل شخص يبحث عن نفسه بحثا شريفا يحول التحليل النفسي ، في نهاية المطاف ، الى ضرب من الانسانية العميقة التي لن يبقى بدونها غير التقنية ، لا علم النفس بالمعنى الأسمى للمصطلح .

## بيير داکو

---

(١) من المؤكد أننا سنستعيد في هذا الكتاب بعض المعطيات التي تكلمنا عليها في مؤلفنا الاول: الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث ( نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، ٩١٨١ ، ترجمة وجيه اسعد ) . ومع ذلك ، ستكون وجهة النظر مختلفة كل الاختلاف . فالمشكلات سنبحثها في هذا المؤلف من زاوية التحليل النفسي ، في حين انها مجبونة في المؤلف المذكور على نحو أكثر وصفية وعمومية . ومع ذلك ، فقد اشرت ، لكي انجنب التكرار ، الى الرجوع الى كتابي الاول مرات عديدة . وعلى الرغم من ان كلا منهما يؤلف كلاهما ، فان الكتاب الذي أنا بصدد تأليفه يكمل الكتاب الاول .



# المقدمة

## وجهة نظر إنسانية النزعة ومسيحية

### بقلم : جامون .

من المتعذر على وجه التقريب أن لا تثير قراءة هذا الكتاب مسائل ذات أهمية كبيرة . الن تقلب - أو ألا ينبغي أن تقلب - كشوف فرويد ، ثم يونغ وبودوان ، تصورنا للأخلاق والدين ؟ أن تبكيت الضمير لدى المجرم وشعوره بالاثم كانا بعد أن ، منذ العصور السحيقة ، على أنهما البقية الأخيرة من كرامة كانت قد انحطت ، وخير أمل في ضرب من التجديد . ويعلم الناس كم يبدو المخلعون ، في محكمة الجنايات ، حساسين للعواطف التي يعبر عنها المتهم . والحال أن الشعور بالاثم ، في نظر المحللين النفسيين ، يتصف بأنه ، بالحري ، موضع اتهام .

ولقد رغب بيير داکو في أن يعرض هنا رد فعلي : رد فعل قارئ أول ، معنيّ ، منذ زمن طويل ، بالتحليل النفسي من كتب ، ولكنه غير اختصاصي في هذا المجال ، قارئ أول يتصف بأنه ، فضلا عن ذلك ، مسيحي مقتنع .

ودور المحلل النفسي أن يصبح محل اللقاء : المحل الذي يمكن للآخر أن يلتقي بحقيقته . وليس لهذه المقدمة ، ولا للحوار الذي ينهي هذا

الكتاب (١) ، من مطمح آخر غير ان يمهّد للقاء بين مؤلف هذا الكتاب وبين القارئ ، ولكن على مستوى غير مستوى المجال السيكلوجي .

ولهذا السبب ، فان الملاحظات التي تلي لا تدّعي مطلقاً صوغ حقيقة نهائية ، ولا التوضيح على اي نحو يتصف علم نفس الاعماق بأنه على وفاق مع الحقيقة . فلا يمكن لاي شخص ان يزعم بأنه يمتلك الحقيقة . بل بالعكس ، ان على الحقيقة ان تمتلكنا تدريجياً . ويبقى ذلك صحيحاً بالنسبة الى المسيحي : فنحن لا نتصف ابداً باننا مسيحيون . وبوسعنا ، على الأكثر ، ان نحاول بتواضع ان نصبح مسيحيين . كان ميغل دو إونامونو(\*) يقول : « اي ايمان لا يشك ايمان لا حياة فيه » .

وعلى هذا النحو إذن ، ثمة رجل يحاول في هذه المقدمة ان يقول كيف يتصف بأنه مهتم ، حول بعض النقاط الاساسية ، بان يدمج كشوف التحليل النفسي في تصويره للعالم وفي ايمانه ، آملاً ان يرى القارئ في المقدمة مجرد دعوة الى الشروع بدوره في تأمل مماثل . ومن الممكن ، مع ذلك ، ان يفضي هذا التأمل الى نتائج مختلفة كل الاختلاف . ولكن « من يختلف عني ، في حضارتنا ، يغنييني ولا يسبب لي الغبن مطلقاً » ، كما يقول سان اكروبري .

## اولاً - هدف هذا المؤلف

على الرغم من ان هذا المؤلف مكتوب بلغة يمكن للجميع ان يفهمها ، فانه ليس مؤلفاً مبسطاً . وببيرة دأكو يؤكد ذلك ، والملاحظة تبدو لي اساسية .

لقد استبعد المؤلف ، عن قصد ، اداة علمية كاملة ، وهذه اللغة الحسنة الاعداد ، التي صاغها علم نفس الاعماق على غرار العلوم الاخرى

---

(١) انظر في نهاية هذا الكتاب تبادلاً في وجهات النظر بين جامون ودأكو .

(\*) Unamino ( Miguel ) : كاتب اسباني عاش بين ( ١٨٦٤ - ١٩٣٦ ) . كان

فيلسوفاً ومؤلف محاولات تناولت جميع مشكلات عصره ، وكان روائياً وشاعراً « م » .

جميعها بوصفها أداة لا غنى عنها . ويرفض المؤلف أن يقتصر على تقديم فكرة تقريبية عن تحديد التحليل النفسي بوصفه علما وبوصفه تقنية . بل أن المفهوم ذاته ، مفهوم التبسيط ، بالنسبة إليه ، مفهوم ينطوي على الالتباس ، وعلى ضرب من الحطّ من قيمة العلم ، وعلى احتقار القارئ.

وغاية بيير دافو مختلفة كل الاختلاف : أنه يريد أن يدخلنا في رؤية معينة للانسان والعالم ، وفي ضرب من الخط الانساني الذي يوشك عالمنا الحديث أن يبدعه لنفسه ، والذي يمثل التحليل النفسي بعدا اساسيا من ابعاده . ذلك أن من المهم أن نشير الى أن هذا الاسلوب في **النظر** الى ما نحن عليه وفي **الاحساس** به **وتخيله وعيشه** ، هذه الوجهة النظر الجديدة وجدت تعبيرها في كثير من الصور الاخرى غير التحليل النفسي . فالفيثومينولوجيا ، وبعض اللاهوت الراهن ، والماركسية ( بمعنى من المعاني على الاقل ) ، وشتى الصور الفنية ( في الادب والموسيقى والرسم ) ، والرياضيات ، عبرت عن هذه الرؤية الواسعة في مختلف قطاعات الوجود .

وثمة عبارتان يمكن أن تحدّدا هذا التصور الجديد للانسان والمجتمع: **انفجار النظام القديم وتأليف جديد** . فكما أن العلماء فتتوا الذرة ، وكما أن الرسامين فككوا صورة الواقع لكي يؤلفوا منها لوحة في منتهى التعقيد ، كذلك فرويد فجّر الحياة النفسية : ولكن هذا كان من اجل أن يجعل طاقة ، لا زالت مجهولة ، تنبجس منها ، طاقة أكثر فاعلية بما لا يقاس .

ولكي تقتصر على علم قريب من علم النفس كل القرب ، لا يبدو لي أن ثمة أفضل من هذه الصفحة ، لكاتبها **مرسيا إيليا** في مؤلفه **مظاهر الأسطورة** ، ص ١١ - ١٢ ، في قدرتها على تحديد هذا الاتجاه ، **اتجاه الوعي** ، الذي يدعونا اليه التحليل النفسي . كتب **مرسيا إيليا** ، مذكراً بالتصرفات « البربرية » التي دمغت استقلال الكونفو ، يقول :

« ما يعيننا قبل كل شيء هو إدراك معنى هذه التصرفات الغريبة ،



وفهم السبب لهذه الضروب من المبالغات ولبررها . ذلك أن فهمها يكافئ الاعتراف بها على أنها حوادث انسانية ، وحوادث ثقافية ، ومن خلق الفكر ، لا على أنها طفق مرضي للفرائز ، وتصرفات همجية أو صبيانية . فليس ثمة من خيار ثالث : أما أن نسعى الى انكار مثل هذه المبالغات ، ونقتل من شأنها أو ننساها ، اذ نعدّها حالات منفردة من « الوحشية » تختفي اختفاء كلياً عندما تصبح القبائل « متمدنة » ؛ وأما أن تكلف أنفسنا جهد الفهم ، فهم السوابق الأسطورية التي تشرح مبالغات من هذا النوع وتبررها ، وتعزو إليها قيمة دينية . والاتجاه الأخير ، في رأينا ، هو الاتجاه الوحيد ، الجدير بأن نأخذ به . ففي منظور تاريخي ديني على سبيل الحصر ، إنما يحتمل أن تتجلى تصرفات مماثلة من حيث هي حوادث ثقافية ، وأن تفقد خاصتها الشاذة أو الشنيعة ، خاصة لعب طفلي أو خاصة فعل غريزي على نحو صرف » .

وسلوكات الانسان المصاب بالعصاب ، المريض أو المنحرف ، تفتح لنا ، على النحو نفسه ، منظورات فريدة على ما نبحت عنه ، جميعنا ، في الاعماق . « فكثير من السلوكات الانسانية ، كما يقول بيري داکو في هذا الكتاب ، سواء كانت مجيدة أم مشوّهة ، مسحوقة أم « منحرفة الى حد الرعب » ، تمثل بحثاً لاشعوريا واحداً : ايجاد السلام العميق ، والامن ، والوافق مع الذات ومع الرموز الاشعورية ، ومع بحث راشد عن الاله » .

وذلك ما يتصف بأنه ذو أهمية رئيسة اذا شئنا أن نتوصل الى « أن تتفجّر » الإبعاد الانسانية . فلنقتصر على التفكير بالجنسية : « الاعماق السحيقة متطابقة ، سواء لدى رجل طفل يريد « العودة الى امه » ليجد عندها القبطة مرة أخرى دون مشكلة ، أم لدى رجل حقق قدراته الكامنة وجعلها منسجمة مع الطبيعة ( الام العظيمة ! ) انسجاماً سعيداً » (\*) .

---

(\*) هذه العبارة واردة في الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب « م » .

ومن المؤكد أن هذه الجنسية ذاتها تتخذ عندئذ دلالة أوسع على نحو فريد . وأستشهد أيضا ببيير داکو ، في هذا الكتاب : « بين جاك بقتار البطون وبين العاشقين الابدیین ، ليس ثمة غير فرق في المستوى . فجاك بقتار البطون يبحث بصورة لاشعورية عن « العودة » الى جسم أمه هو ، لكي يجد فيه السلام السعيد مرة أخرى ، سلام ما قبل ولادته ، والاحساس بالابدیة الذي يرتبط به . والعاشقان يعودان ، متشابكين ، صوب الاحساس بابدیة وسلام تم ايجادهما ثانية ، اذا كانا قد حققا اتحادهما على نحو صحيح بحيث لا يكونان سوى شخص واحد . انه الفرق بين مستوى طفالي بصورة كلية ومستوى الانجاز الراشد ، النادر جدا » .

ونود أن نشير الى أن الانتقال من مستوى الى آخر ينطوي على « تحول فجائي » حقيقي ، على فرق نوعي في اتجاهات الشعور . وهنا نستطيع ان نرى الآن كيف يتصف التحليل النفسي بأنه ذو علاقة عميقة بالدين . فليس بوسعنا ، من جهة ، أن نمضي نحو الآخرين الا في الحدود التي نتخلص بها من « الانوات المزيفة » الطفالية . ومن جهة أخرى ، عندما نبلغ دائرة الدين ، فإن الانا الراشدة ذاتها ، انا ، هي التي ينبغي تركها بين يدي الرحمة الالهية . واذا كان صحيحا أن بإمكان حتى أحد العصاة أن يكون « ابن الرب » على نحو حقيقي ، فإن ذلك انما يتحقق بقدر ما تكون لديه القدرة على تبني موقف حقيقي من هذا العصاب ذاته .

واذا كان العلم بالمعنى الصحيح للكلمة ، بلغته الاصطلاحية واجهزته المتخصصة ، لا بديل له مطلقا في اعداد هذا المذهب الانساني الجديد اعدادا نظريا ، فالامر مختلف كل الاختلاف عندما يتعلق بادخال انسان مشخص في منظور حياة جديدة . وبوسع لغتنا اليومية وحدها - تلك اللغة التي تدخل فيها طموحاتنا الاكثر غموضا ، وتلك اللغة التي « توافق بصورة وثيقة » ما نحن عليه واقعا - أن تنقل مثل هذه « الرسالة » الى هذا المركز من الوجود ، المركز الذي يوجه فكرنا وسلوكنا .

يضاف الى هذا - وجهة النظر تلك لا يمكن اهمالها قطعا - انه كان بإمكان لغة مباشرة ، وحدها ، لغة يسهل فهمها ، ان تتيح تهئية القارئ ، على وجه الاحتمال ، الى ان يفكر بعمل سيكولوجي في الاعماق : اما لكي يفجر « العقدة » التي تغزو تدريجيا كل مجال وجوده ، مثلها مثل ورم سرطاني ينتشر على حساب العضوية ؛ واما على سبيل الاحتراز : فيمكن مثلا لزوجين يفكران بالطلاق ان يجدا في علم نفس الاعماق عونا لا يضمن فيما يتعلق بمسلكهما الخاص والموقف الذي ينبغي ان يتنباه بخصوص الاطفال ؛ او ، اخيرا وببساطة ، بهدف القيام بمهمتنا الانسانية على نحو افضل . ذلك انه لا وجود لراشد لا يبقى لديه بعض الاثر من صراعات تعود الى الطفولة او الى المراهقة . ونحن نفترب دائما اغترابا قليلا او كثيرا في المهمة التي تتصف بانها مهمتنا . واخيرا ، انها « حرية » مختلفة تلك التي ينبغي ان يتصرف بحسبها العازب والزوجان ورئيس المشروع ورجل الدولة . فكما ان علم الحمية يقترح نظاما غذائيا مختلفا للرياضي والعامل اليدوي والانسان المنفرغ للدراسة او الدبلوماسي ، كذلك علم النفس يمكن ان يساعدنا على اكتساب هذه الحرية الداخلية التي تتطلبها المهمة التي اخذناها على عاتقنا .

واخيرا ، يبرز التأكيد ، من خلال لغة المؤلف ، ان المحلل ليس تقنيا ولا يمكن ان يكون . والعلاقة التي تنمقد بين المحلل والانسان الذي يأتي صوبه تتصف بانها ، بادئ ذي بدء وقبل كل شيء ، علاقة انسانية . ومن المؤكد ان في الخلفية علما حقيقيا وتقنية كاملة يبقيان : ولكن على المحلل ان « ينسأهما » منذ ان يتصل بمريضه ، شأنه في ذلك شأن عازف البيانو الذي ينبغي ان « ينسى » كل تقنيته منذ ان يضع اصابعه على المجسة : هذه الاصابع التي كانت قد اصبحت ماهرة بسلام الانغام التي لا يحصى عددها . والموسيقى هي الملكة الآن . وعلى هذا النحو ، فان العلاقة الانسانية وحدها هي التي تبقى في اثناء « جلسات » التحليل . بل ان ضروب صمت المحلل ( وعلى وجه الخصوص ؟ ) ينبغي ان تكون انسانية .

## ثانيا - الاخلاق والتحليل النفسي

### ١ - الاخلاق والانا العليا

كتب بيار داکو في كتابه(\*) هذا يقول : « ليس ثمة في علم النفس اخلاق بالمعنى الذي يفهمه الناس بصورة عامة . فالاخلاق في علم النفس هي الانا العليا » . وتكون قد اسانا فهم المؤلف اساءة تامة اذا استنتجنا من ذلك ان عالم النفس غير معنيّ بالاخلاق . وينبغي ، على العكس ، ان نؤكد بان التحليل النفسي يمكن ان يقدم عوناً لا مثيل له من اجل اعداد انسانية بصورة حقيقية - وانا اتكلم على تحليل نفسي صحيح ، تحليل نفسي لا ينزلق في اللاانساني ، انزلاق يحدث اما لانه يريد لنفسه ان يكون مجرد تقنية ، واما ان يتجاوز حدوده على نحو غير مشروع .

هذا القصد في اصلاح معنى المسؤولية وتألقه لدى الانسان يبدو بجلاء عندما يتكلم عالم النفس على دينامية الانا العليا . ( ان جزءا من الانا اندمج ، خلال الطفولة والمراهقة ، بالوامر والممنوعات الخارجية ، وتتصف هذه « المحرمات » منذئذ بان لها فينا وجودا مستقلا على وجه التقريب ) « بيار داکو » .

### الانا العليا ، إنها القانون

من المعلوم ان القانون الاخلاقي الطبيعي يقتصر على انه يصوغ بنية الواقع الانساني ، مثله في ذلك مثل القوانين الفيزيائية التي تعبر عن بنية المادة . وفيما يخص القانون الوضعي ، فانه يوضح اي نمط من انماط الحياة شاء المتحد ان يعزوه لنفسه . ومثال القانون الطبيعي : الحياة الجماعية متمثلة بدون احترام مصلحة الغير . ومثال القانون الوضعي : يقرر المتحد المسيحي ان يمتنع عن تناول اللحم يوم الجمعة احياء لذكرى

---

(\*) العبارة مأخوذة من إحدى الحواشي في الفصل الرابع « م » .

موت المسيح . فالقانون ، على هذا النحو الآن ، يعتبر دائما عن واقع ،  
وصيفته الطبيعية في التعبير هي الفعل المضارع وليس الامر .

ومن المهم ان نشير الى ان القانون لا يمكن اطلاقا أن يغطي الواقع برمته:  
اولا ، لان معرفة الواقع لدينا هي دائما معرفة قاصرة ومتنامية . ثانيا ،  
لان أي قانون يتوجه الى الجميع لا بد له من أن يهمل الجانب الوحيد ،  
الذي لا يوصف ، من الشخص الانساني . وهذا هو السبب الذي من  
اجله كان على القانون أن يتبدل : ينبغي له أن يتبدل بمقدار ما نعرف على  
نحو افضل ما هو الانسان ، ووفقا لتطور المتحد . يضاف الى هذا ان  
على القانون ان يكون معبرا بعمق عن الفروق الدقيقة عندما يضيفي الصفة  
الشخصية كل فرد على القانون العام بهدف دمج في وضعه الواقعي ،  
بكل ما يحتويه هذا الوضع من غريب وما يتصف بأنه لا مثيل له .

والحال اننا نزاعون بفضل سيرورة غريبة ، لاننا نخشى بصورة  
غريزية تلك المغامرة الكبيرة ، مغامرة الحياة ، الى ان نجعل من هذا  
القانون ، على نحو مستمر ، ضربا من الوجود الفاض جدا ، الذي نجعل  
موقعه فوقنا ، في البعيد ، والذي ينتهي ، في آخر المطاف ، الى أن يتوحد  
بالاله . وعندئذ انما يبدل القانون أيضا من تصريف الفعل ، فيتخلّى عن  
المضارع ، ويتبنى صيغة الامر : « ينبغي عليك » . وبدلا من أن يبقى  
القانون وسيلة ( ضرورية ) ليدخلنا في كثافة الواقعي كلها وفي متطلباته ،  
وبدلا من أن يبقى دعوة لكي نتلاءم باستمرار مع هذا الواقعي الذي يتصف  
دائما بأنه غير متوقع وسيّال ، فانه يصبح قاعدة الواقع عوضا عن أن  
يكون تعبيرا متواضعا عنه .

واحد اهداف التحليل النفسي الرئيسة ان يعيد الحياة الى هذا القانون  
الديكتاتوري ، والمصاب بالتصلب ، الذي يعتبر عن حالة متحجرة الى  
الابد ، لا عن دينامية .

## الشعور المذبذب

وعندما يستحيل القانون ، على هذا المنوال ، الى اله كلي القدرة ، وقاض صارم ، كيف لا يشعر الموجود الانساني — الذي لا تزال اناة سريعة العطب وغير ذات قوام — بالرعب اذا احس بأن في ذاته دافعا جنسيا يصعد ، او دافع كره لابويه على سبيل المثال ؟ في حين أن الابوين هما ، على نحو من الانحاء ، تجسيد هذا القانون ، تجسيده ذاته ! وهذا الرعب الذي تتعذر مواجهته ، يكبت حالا في الظلام . اما وقد أصبحت هذه العاطفة ، عاطفة الاثمية ، عاطفة غفلا ، فانها ستغزو السيرة كلها قريبا : من هنا منشأ الجمهور الكبير العدد من جميع أولئك الذين يعذبهم ويرهقهم شعور مرضي بعدم الجدارة ، واثمية معمنة .

ونحن نرى السيورة : فلكي لا يوجب المرء على نفسه ان يواجه وضعاً شاقا الى حد كبير جدا ، يعترف لنفسه بأنه آثم بسبب كل شيء ، اي لا شيء . والتخلي أمام وضع يبدو مخيفاً جدا ( كره الاب ) ، على سبيل المثال ( يتحول بالتدريج الى التخلي ازاء الحياة برمتها .

ودور التحليل النفسي ان يرافق هذه النفس المذبذبة حتى امام هذه « الجريمة الخفية » ، كما يرافق المرء طفلا في غرفة مظلمة ليبين له ان ليس ثمة شيء يخشاه . وهكذا فان الفرد يستطيع ، وقد عاش مجددا هذا الحدث المرعب وتحمل تبعته ، ان يستأنف انطلاقته في الحياة بقلب غير مثقل ، وأن يقوم بالتبعات التي تنتظره .

## السلام الكثيف لشعور ممتاز

ان اليهود ، الذين لم يكونوا بالتأكيد دون خطيئة ، والذين كان القانون القدوسي يسود حياتهم كلها ، كانوا فيما مضى قد حلتوا المسألة على طريقتهم . « ويضع هارون يديه على رأس التيس ويقرّ عليه بكل ذنوب بني اسرائيل ، وكل سيئاتهم ، مع كل خطاياهم ، ويجعلها على رأس التيس ، ويرسله بيد من يلاقيه الى البرية ، ليحمل التيس عليه

كل ذنوبهم الى ارض مقفرة ، فيطلق التيس في البرية (لاويين ١٦ ، ص ١٤٢ من الكتاب المقدس) (\*) . فموسى كان حقا عالم نفس كبير . ولاسيما ان هذا الطقس يمثل خطوة واسعة الى الامام بالنسبة الى التضحيات الانسانية التي كانت تمارسها القبائل المحيطة باسرائيل في ذلك العهد » .

وهذه الحاجة نفسها ، حاجة ان يعزو المرء الى الغير خطاه الخاص ، هي التي تحرّض في ايماننا هذه تلك الصحف التي تدفعها بصورة منتظمة حاجة الى السخط . وتحرض الجمهور الجاهل دائما الى انزال العقوبة بـ « مجرم » . وتحرض هذا المعادي للكهنة الذي يرى ان الكنيسة اصل جميع الشرور التي ترهقنا . وتحرض هذا الكاثوليكي الذي يكشف في كل مكان عن ظل من نزعة الحداثة ، وعن بعض من دسائس الماسونية او عن جوايسيس موسكو ايضا .

والتحليل النفسي يفجّر هذا الوجدان المزيّف . فهو يردّتنا الى واجبنا الواضح ، ويعلمنا أن نجعل المسؤوليات ، التي هي مسؤولياتنا ، تقع على عاتقنا .

## ما وراء القانون والأنا العليا

القانون ( الأنا العليا ) يصنعه الانسان الذي يبحث عن ذاته . ودور القانون هو دور دماغ باحث طيلة هذه المغامرة المترامية الاطراف ، التي هي تاريخ الانسانية . ولكن المهم ليس القانون ، وانما الانسان .

المهم هو الانسان الذي بدأ تاريخه مع بداية اصول الحياة ، والانسان الذي لم يكن سوى ممكن في العصر الجوراسي ، والانسان الذي أصبح محتملا بظهور القرود ، والانسان الذي ما ان « ابدع » حتى كان عليه أن يخترع بدوره حياته الخاصة : اللغة والنار والادوات والكتابة ، والانسان الذي ينبغي له في ايماننا هذه أن يخلق المتحد العالمي الكبير ، وربما الكوني .

---

(\*) جميعات الكتاب المقدس في الشرق الأدنى ، بيروت ١٩٧٦ .

وكان **القانون** ( الأنا العليا ) ، دائما ، هو الذي يسجل القفزة التي كان الإنسان يقفزها الى الامام .

ولكن ، اذا كان السير الى الامام يظل ممكنا ، فذلك على وجه الدقة لان الانسان ، بالقياس الى هذا القانون ، أغنى بكثير دائما . ويصبح ولاؤنا للقانون خيانة عندما نرغب ، بفعل السام والخوف من المفامرة ، في تحنيط هذا القانون ( وهذه الأنا العليا ) والادعاء بأننا حدّدنا المطلق .

والمرمى الاخير للتحليل النفسي أن يحرّر منابع الحياة، منابع ابداعيتنا، وأن يختصها من الوحول ، لكي يكون بوسع الإنسانية دائما ان تمضي الى الامام . وليس من قبيل المصادفة بالتأكيد ظهور التحليل النفسي عند يونغ في الفترة التي انطلقت المشكلات الإنسانية بالمعنى الصحيح للكلمة انطلاقة فريدة في تاريخ الإنسانية ، في الفترة التي كانت تبرز النزعة الى توحيد جميع الكنائس بصورها المختلفة ، اي الرغبة بالحوار الحقيقي : العناية بالثنائي ، ودينامية الجماعة ، والتفاهم بين الشعوب والعروق والمتحدات الدينية .

## اكل هذا الوحل يحرّكه التحليل النفسي ؟

كان بول ريكور قد كتب عام ١٩٤٩ يقول: « ثمة في الفرويدية ، بالنسبة الى الوجدانات الضعيفة ، شيء ساحر يعتبر عنه نجاحها العالمي خير تعبير » ( **فلسفة الإرادة** « منشورات أوبيه ) . انها ولأريب تجربة طريفة جدا ان يشهد المرء ، بوصفه مراقبا ، محاضرة عامة يحاول فيها احد الاختصاصيين ان يشرح الآليات الدقيقة ، التي تثير عصابا وتتممهده بالرعاية ، لمن يجهلون التحليل النفسي ، ثم يشرح لهم سيرورات علاج التحليل النفسي .

ويصير جو الصالة مريحا وغير متوتر ، فيما يتكلم عالم النفس على هذه الحثيات الداخلية التي تحكم في الاغلب سلوكنا : فكل مستمع من المستمعين يمسك عابرا ، والخطاب مستمر ، تفصيلا معينا يشرح له ،



أو يعتقد على الأقل انه يشرح له ، بعض السلوكات وبعض ردود الفعل التي كانت تبدو له حتى ذلك الحين غير مفهومة بصورة كلية . ويندر أن لا يسمع المرء ضربا من « أوف » الانفراج تصدر من هنا وهناك . ذلك أن المستمعين لا يفوتهم تأويل هذه التحليلات كما يلي : « ولكن لا ، انك غير مسؤول عن هذه الحركات العبثية ! » فشرح تصرف من التصرفات الانسانية ، انطلاقا من دافعيات سيكولوجية أو من حركة ردود الفعل الهرمونية ، سبان في رأي من يجهل التحليل النفسي . ونحن ، على أي حال ، لسنا مسؤولين ( في اعتقادهم ) ، وذلك لا يمكن الا ان يروق لخوفنا أمام الالتزامات الشاقة التي تتطلبها الحياة .

ثم يحس المرء ، احساسا يكاد يكون ماديا ، بأن صمت الصلاة اصبح صمنا ثقيلا ومتوترا منذ أن يتناول المحاضر من عرضه الجزء الثاني ، أي منذ أن يتناول غشيان المحارم والفائض ( ايها التهوين ) ( \* ) الرائع ! ) والخضاء وتمنيات الموت : ولم يعد الامر ، في هذه المرة ، ضربا من اللعب ، بل ثمة اطاحة بالمحرمات . ويحس الحاضرون بقشعريرة خفيفة تدب على طول فقار الظهر وهم يفكرون ( بصورة مبهمة جدا ) بما يمكن هم انفسهم أن « يخرجوا » لو كان عليهم ، بدورهم ، ان يتمددوا على الديوان . فكل هذا الكتب ، وهذه الضروب من التفرغ ( تعبير بالكلام يرافقه الانفعال عن تصورات جنسية وعدوانية كانت شحنتها الانفعالية قد خنقت ) ، تبدو وكأنها تقيؤ .

وليست خاصة من الخصائص الدنيا لهذا الكتاب ان يكون الجو الذي ينتشر على طول هذه الصفحات مختلفا اختلافا جذريا ، وأن يتيح لنا هذا الكتاب اكتشاف معنى الحياة الحقيقي من خلال العدد الكبير من مستخلصات الجلسات التي عرضها علينا ، بالرغم من ان المؤلف يسمي الاشياء بأسمائها دائما .

---

(\*) التهوين : استعمال مجاز ملطف في مكان كلمة أو عبارة موجعة أو بغيفية . مثال ذلك ذلك « لفظ أنفاسه الأخيرة » بدلا من « مات » . وفي على ذلك استعمال « فشيان المحارم والفائض » « م » .

« الحياء ، كان موبه قد كتب على نحو رائع يقول ، يشغل موقعا بالنسبة الى التقزّر شبيها بالموقع الذي تحتله الحفاوة بالنسبة الى رفض الغير . انه ضرب من التراجع ، ممزوج ببعض الخشية ، ولكن حركته تحمي اكثر مما ترفض . والحياء ، بوصفه عكس النزعة الطبيعية الى الظهور ، هو الوزن المقابل الطبيعي الذي يمسك باضفاء الخارجية على حدود التلقائية وبالتواصل على حدود التشوش ... فان يرى المرء او ان يرى ، كذلك ان يلمس او ان يلمس ، امر يتصف في جميع الاديان بأنه مقدس ، لانه يمنح ضربا من التعالي ... والحياء الحقيقي يرى ابواب ضرب من المقدس . انه ، بوصفه كاهنا لا بواب بناية ، غير بخيل ، وغير عبوس، ولا عنيف كالتصلب البوريتاني(\*) . ولا يرفض، بل يتحفظ . وفي مرونة حركته من الحفاوة بقدر ما فيها من الانسحاب ، وفيها اكثر من انذار ، ان فيها دعوة الى وقار اسمى . والحياء يتميز من هذه الضروب من الحياء الزائفة ، المتعجرفة والمرضية ، التي تتسم بأنها اصناف من التعويض المغالي لحساسية عطوب الى حد الافراط ، تعترف بسرعة عطوبها بواسطة السرعة التي تنهار فيها ، من وقت لآخر ، انهيارا مفاجئا ، كما تنهار جميع الزخارف . » ( المطول في الطبع ، ص ٤٩٢ . )

ولماذا هذا الاختلاف في الجو الذي يرافق كثيرا من هذه المؤلفات التي تعالج التحليل النفسي ، كهذا المؤلف ؟

السبب في ذلك ان بير داکو تلميذ يونغ وبودوان . وهو معجب على على نحو عميق بالكشوف الفرويدية المبتكرة . ولكن ثمة لديه خلفية كاملة من الرموز الرائعة تتدخل « فتعالج » كلا من ردود الفعل الجنسية او العدوانية لدى المريض ، معالجة في اتجاه مختلف كل الاختلاف .

ومثال من الامثلة يجعل ذلك مفهوما على نحو افضل . فمن المعلوم ان الرغبة في العودة الى رحم الام تتخذ ، على نحو يسير ، شكلا يتصف

---

(\*) المذهب البوريتاني : مذهب قوامه عبادة التوراة والايمان بالقدر السابق ، ويعتمد على القوانين الاخلاقية الصارمة « م » .

بانه في منتهى الوضوح والمادية لدى المريض : ضع ذلك في صور لفظية تحصل على مشهد يتخذ طابعا يصعب احتماله بالنسبة الى حساسية اريد لها ان تكون انسانية . ولا ينكر يونغ اطلاقا وجود مثل هذه التصورات الخيالية . ولكن صورة جنس الام ، في رأي يونغ ، ليست سوى تجسيد لصور اخرى اكثر اتساعا واكثر عمقا بما لا يقاس : ذلك ان امنا من لحم ودم تجسد نمطا اوليا كليا .

او في المثال الآخر : عندما يسقط احد المرضى ، الذين تستحوذ عليهم عقدة الخشاء ، احباطه على المحلل النفسي ، فانه يحسد هذا الرجل الذي يبدو له قويا كل القوة ، وهو يحسد فيه آلة هذه القوة : جنسه وعضوه التناسلي . فاذا لم نذهب الى ابعد من ذلك ، فان تفريغ المريض ( وشرح المحلل الذي ينبغي ان لا ننساه ) يتخذان مظهرا كريها الى حد ما ، ووقحا بالمعنى الاصلي لهذه الكلمة . اما من وجهة نظر يونغ ، فان الامر يمضي على نحو مختلف كل الاختلاف ، ذلك ان الجنس المذكور هو التجلي الاقرب الينا ، تجلي النمط الاول **للآب والابن** ( اي لهذه الخلفية التي تغير وجه كل حركة من حركاتنا ، فاضلة كانت ام منحرفة ، تغييرا بصورة خفية ) .

وقد فهم يونغ ان هذه الاندفاعات الجنسية او العدوانية تخفي ضربا من « التعالي » . ومن المؤكد ان هذا التعالي نسبي ، وسنقول فيما بعد ان من المضحك ان ندعي توحيد الانماط الاولى بالوقائع الدينية بالمعنى الصحيح للكلمة . ومع ذلك ، فان الجنسية والعدوانية لم تعد تبدوان ، بفضل الانماط الاولى ، على انها منظومة مغلقة بخصر المعنى على ذاتها ، بل على انها واقع مفتوح على الاستطلاات الروحية والدينية .

ونستطيع منذئذ ان نكرر قول باسكال امام أسوأ الانحرافات : « جميع ضروب الشقاء هذه تبرهن على عظمتها ( عظمة الانسان ) . انها تعاسات السيد العظيم .. » .

## ثالثا - التحليل النفسي والدين

### ١ - الإثمية العصابية ومعنى الخطيئة

مجرد الاعتقاد بأن التحليل النفسي يمكن أن يضع مفهوم الخطيئة موضع التساؤل ، حين يشرع في مهاجمة الإثمية العصابية ، واقعة تبين تماما الى أي حد يمكن لمعنى الخطيئة المسيحي أن ينحطّ مقامه أحيانا . وليس في وسعنا ، هنا ، إلا أن نقترح على القارئ بعض الموضوعات للبحث والتأمل .

نحن لا نعرف خطيئتنا إلا بمقدار ما نعرف الله ، أعني الإ بمقدار ما يتجلى الله لنا ، وبمقدار ما نتجلى نحن لأنفسنا . فليس ثمة خطيئة إلا بالنسبة لله . « انني اخطأت تجاهك وحدك ، وامامك يا الهي انما فعلت الشر » ، رتل صاحب المزامير .

والبحث عن الوجود يقود الآن الى ضرب من الماوراء ، الى انت المطلق . ولكن هذا الاله يظل مجهولا ، انه يصمت . وعندما يكون الانسان مكرها ، وهو يتحاور مع ذاته في الحالة التي يبلغ فيها وجدانه أقصى يقظته ، على أن يلاحظ انه يجعل من حياته ، في بعض الفترات ، ضربا من المحاكاة التهامية للحب ، فهو في الحقيقة لا يعترف على هذا المنوال بخطيئة ، وانما ، بالحري ، يعترف بخطأ تجاه نفسه وتجاه المتحد . وبوسعنا التكهن ، على الأكثر ، أن هذا التواطؤ الأصم ، فينا ، مع الفوضى ، يتخذ جدية مطلقة اذا صح القول .

ففي الدائرة المسيحية انما تتخذ الخطيئة كل بعدها . فيسوع ، الحب اللانهائي يصنع انسانا ، مات من اجل خطيئتنا . كذلك فان :

— **الخطيئة موضوع ايمان** ، شأنها شأن الحب الذي يحمله الله لنا وشأن استجابتنا لهذا الحب .

- الخطيئة ، موضوع الايمان ، لا يمكن ان تكون موضوع تجربة مباشرة ؛
- الشعور بخطيئتنا ليس سوى الجانب الآخر من حبنا لاله ؛
- الشعور بالخطيئة نعمة منحناها في البرهة التي منحنا الحب ؛
- الشعور بالخطيئة يقين بالفقران في الوقت نفسه ، وهو يجلب السلام ؛
- الشعور بالخطيئة صورة من صور الصلاة .

## الإثمية العصائية      المعنى الحقيقي للخطيئة

- الانتباه مثبت على الانا      - الانتباه مثبت على الغير ، على الله .
- تحس « الانا » بأنها في خطر      - اهتمام بالشر الموجه للآخرين وبالإساءة الموجهة لله
- اهتمام متشنج بـ « طهارة » المرء - نسيان الذات الخاصة
- عودة لا محدودة الى الماضي      - اعتقاد بفقران الله
- الإثمية تتجه على وجه الخصوص - رفض لكل داخلية وسواسية الى الأفكار والرغبات      « انني أسكن في أفعالي »
- روحية خيالية      - روحية مشخصة جدا
- هجوم على الغير بلون الفضيلة      - حفاوة وفهم
- حسد خفي      - اتجاه نحو الآخر بما هو آخر
- أولية القانون      - أولية الحب
- خوف من العمل خشية الدنس      - الحب التزام كلي
- خوف من الغير      - الغير منبعي

وعلى هذا النحو ، تتصف المشاعر المرضية للإثمية بأنها تقيض معنى الخطيئة الحقيقي . وعلم النفس ، اذ يستبعد هذه الإثمية المزيفة وينظف **الخطأ** ، يمهّد الدروب لديانة صحيحة .

## ٢ - الاعتراف والإثمية العصابية

ليس ثمة ما يدهش اذا كان ضرب من الاثمية المزيغة يلوّث على الغالب سر التوبة ويحوّله الى ممارسات شكلية ، سحرية وفيتيشية(\*) .

ان **اكرأها على الاقرار** ، غير ذي صلة بالندم الحقيقي ، يمكن أن يكون سبب بعض الاعترافات ، وبخاصة عندما تكون الاخطاء ذات علاقة بالمجال الجنسي . فسر التوبة ليس مخرجا بوسعنا أن نلقي فيه بالوزر الذي لا يحتمل ، وزر بعض الاثمية . وعلى أي حال ، يؤدي المعرّف أسوأ خدمة للتائب ، حتى على المستوى الديني بالمعنى الصحيح للكلمة ، اذا اشترك في هذه اللعبة ، واذا حسب أن بعض الشكاوى من الاستمناء ، وبعض الحركات من الجنسية المثلية ، وبعض الرغبات في القسوة ، لدى أحد المراهقين ، أمر « خطير جدا » . فليست هذه سوى اعراض ، والمشكل في جانب آخر .

خصّص القديس توما الاكويني مقالا كاملا من كتابه **المجمل** ليبين أن امكان تسمية الخطيئة بـ **دنس النفس** إنما هو ، على سبيل الحصر ، بمعنى أنها تفسد رؤية العقل والايمان . فكثير من التائبين يشعرون بالدنس ، على نحو مختلف كل الاختلاف ، من اخطائهم ، ويشعرون بأنهم غير جديرين بتناول القربان المقدس .

**والندم** الذي يقتضيه سر التوبة مختلف عن تبكيت الضمير ( الحديث) : أسف عبث على الماضي وجرح عاطفي صلف . فالماضي ينبغي قبوله والاضطلاع به ، بوصفه تجربة متجهة نحو المستقبل ، ومفعمة كلها

---

(\*) الفيتيشية مشتقة من الفتيش ، وهو شيء مؤله معبود لدى القبائل المسماة بدائية ( اصنام ) . والفتيش شيء يعزو اليه بعضهم ضربا من القدرة على جلب الحظ والسعادة . فالفيتيشية هنا ضرب من عبادة الاصنام . ولهذا المصطلح مدلول في علم النفس ، ننصح لفهمه بالرجوع الى « الانتصارات الملهة لعلم النفس الحديث » « م » .

بالامل ، حتى ولو كانت اخفاقا . ويصبح الندم كذبا عندما نعد باننا « لن نستأنف ابدا » ، في حين اننا نعرف انفسنا عاجزين عن أن نتغير ، في اللحظة الحالية على الاقل . والوعد بالعمل على جعل مسلكنا سليما بالتدريج ، امر يختلف كل الاختلاف . فهذا المفهوم ، مفهوم تبيكت الضمير ، أصبح الى هذا الحد من اللبس بحيث ان اللاهوتي كارل راهنر كتب يقول : « ربما سيكون امرا حسنا لو ان الناس يتجنبون استخدام كلمة ندم خلال ما يقارب الخمسين عاما . ذلك اننا نفهم بسهولة قصوى من كلمة « ندم » اسفا ، ورغبة ليست ذات اهمية كبيرة ، على ان الاشياء كانت مختلفة ، كما لو اننا نكابد الاسف على اشياء نتمنى لو كانت مختلفة ، في حين اننا لا يمكننا تغييرها اطلاقا . »

والمسيحية الواضحة والقوية تذكر اول الامر بان تعبري « اعتراف المرء بايمانه » و « اعتراف المرء بخطيئاته » متوازيان . فالاعتراف هو تأكيد ايماننا بأن الله يحبنا ، قبل ان يكون الاقرار بشقائنا . ولا يمكن لهذا الاقرار ان يكون مشحونا بالخزي : فالخزي يبدو بمقدار ما يكون الحب غائبا . ومن المؤكد ان علي ان اضطلع بأفعالي مع النتائج التي تترتب عليها : ولكن الله لا يدينني ما دام يحبني . فالاعتراف ينبغي ان يكون قبل كل شيء **تسبحة البتول(\*)** ، وصيحة شكر وحب .

فلماذا نتجه الى انسان في الاعتراف ؟ ولماذا لا يدمدم كل منا ، ربما وهو راكم ، بكل ذلك وحيدا امام الرب ، ولكن في خبيثة قلبه ؟ ان المعترف يمثل المتحد . « وليس ثمة سلام خارج الكنيسة ! » . ولا تعني هذه الصيغة الرائعة ان اولئك الذين لا يشكلون جزءا من الكنيسة الكاثوليكية تأثيرون الى الابد . بل يعني ان ليس بوسعنا اتقاذا انفسنا وحيدين . فنحن بحاجة الى جميع اخوتنا . فسر سلام المسيح ، سره العجيب ، يأتينا من خلال الآخرين ( كاثوليك وغير كاثوليك ) . وليس بوسعنا ان نخرج من شقائنا الا بالاندماج بالمتحد الذي نشكل جزءا منه ، اندماجا تدريجيا .

(\*) « فليطعم نفسي الرب » .

ومثال ذلك أن الزوجين انما يستطيعان تحطيم حلقات الشر المفرغة عندما يعيشان علاقاتهما الزوجية على نحو افضل ما يمكن ، وعندما يصبحان اكثر قربا واقل غربة . فليس بالهرب ابدا ، وليس بلجونا الى عزلة صلغة ، وبالتالي مذبذورة ، انما نستطيع الخروج من مستنقعاتنا . فليس ثمة غير خطيئة واحدة : رفض الحب ، رفض الآخر .

## رابعاً - الأنماط الاولى

لنختار ، من هذا المؤلف ، فقرتين يمكن أن تظهرا على وجه الخصوص انهما « تجرحان الاحساس » .

● - **الاولى حول موضوع الحب الانساني** : « وتكتشف على هذا النحو دلالة امثال تريستان وإيزولد (\*) ، وروميو وجوليت ، وامثال دون جوان الذين كانوا يبحثون عن الـ امرأة بصورة يائسة . وتعتقد هذه الشخصيات انها تحب الآخر ، في حين انها تبحث عن نفسها من خلال الآخر ، وتحاول ان تصبح كاملة مرة ثانية ( رجلا وامراة معا ) . فنقع هكذا على عاشقين - لا يؤلفان - غير - شخص - واحد - ويمضيان - متحدين - في - الموت ، في ضروب الحب المتعذر المحرم ( كالحب بين الاخوة والاخوات ، اليائس على الغالب والمأساوي ) « الفصل الثالث عشر » .

● - **والفقرة الثانية حول موضوع الدين** : « كان آدم يريد ان يصبح قويا وقادرا قوة رؤساء القبيلة وقدرتهم ( اذا تم اسقاطهم » الى أعلى » كانوا بمثابة اله ) . فاكل ثمرة شجرة ( شجرة المعرفة ) . وهو اذ يفعل ذلك ، فانه ياكل الاب ( من الناحية الرمزية ) لكي يصبح مثله

---

(\*) تريستان وإيزولد اسطورة من اساطير العصر الوسيط ، ولها عدة روايات فرنسية وغير فرنسية . شرب تريستان وإيزولد من شراب سحري ، فاحب احدهما الآخر حبا ابديا وحتميا . فلم يستطع أي شيء ان يفصل بينهما ، لا ضروب الاصطهاد التي مارسها عليهما زوج إيزولد ، الملك ، ولا الكائد . وبقيتا متحدين حتى في الموت « م » .



( لا يقهر ، قادرا ) . ان ذلك اذن ضرب من اكل لحم البشر ومن قتل الاب ، مع يرافق هذا من الاثمية المترامية الاطراف التي تنشأ منه . ونجد مجددا ، من جهة اخرى ، هذا الطقس من اكل لحم البشر في القربان المقدس ( اكل القربان ) ← ان يكون الإله في ذات المتناول ← ان يصبح قويا كالاله ( « الفصل الثالث عشر » .

لماذا كانت هاتان الفقرتان « تجرحان الاحساس » ؟ لاننا نشعر بان المؤلف يكشف عن ان الحب والدين ليسا سوى اوهام . فبين السطور المطبوعة ، نظن باننا نكشف عن نص آخر ، نص ربيبي وهدام . ولكننا اذا قرأنا الفصل الذي يخصه بير داکو للأنماط الاولى ، قراءة هادئة وفطنة ، نقتنع سريعا بان قصد المؤلف ، وقصد علم النفس التحليلي ، ليس نفس الحب الانساني والدين على الاطلاق .

والهدف مزدوج : ١ ) ان يكشف عن حب انساني مزيف وعن دين مزيف ؛ ٢ ) ان يبين كم هو اساسي ان يكون نور الانماط الاولى غير باهت حتى يكون بوسع الحب والدين ان يزدهرا على نحو صحيح .

**فالمجنون هو شخص فقد كل شيء باستثناء العقل، يقول شسترتون(\*) .**

وفي التجربة الدينية كما في الحب ، نلمس حضورا يتصف معا بانه يغزونا ويتجاوزنا . والامر هو على هذا النحو ، من جهة اخرى ، كلما اتصلنا بالواقع . وهذا الواقعي ، الذي ندخل في تواصل معه ، حاضر بالنسبة الينا بالتاكيد ، ولكنه ينبغي في الوقت نفسه ان يظل الآخر ، اي المجهول والسر الغامض والذي لا ينفد . ويسفر لنا ضرب من الحضور في المعرفة والدين والحب . ولكن هذا الحضور يبقى في الوقت ذاته محجوبا لانه يمتد الى ما لا نهاية . ولن ننتهي ابدا من كشفه .

---

(\*) شسترتون ( جلبرت ) : كاتب انكليزي ولد في لندن ( ١٨٦٤ - ١٩٣٦ ) ، روائي فكاهي وصاحب محاولات « م » .

ولهذا السبب ، فان من المحتم ان يكون الى جانب الافكار الواضحة ،  
والمحددة تحديدا جيدا ، التي تعبّر عما ادركناه من هذا الحضور ،  
« صور » و « رموز » تتصف بأنها شبيهة بجبل السرة والرحم الذي  
تتوالد فيه افكارنا الواضحة .

وعظمة يونغ تكمن في انه اكتشف الانماط الاولية في اعماق هذا  
الكون الذي هو حياتنا ، تلك الانماط الاولية الشبيهة بضروب سديم  
الكون النجمي التي تنشأ منها شتى مجموعات الكواكب . فالانماط  
الاولية انما هي الوجود الذي يبدأ الان في ان يجعل من نفسه موضوعا .  
انه المادة الاولى لافكار المستقبل . وهو كتلة الخشب الخام التي يمكن  
ان تصبح بين يدي العامل اثانا او تمثالا او رمحا . ولهذا السبب ، ليس  
ثمة ما يدعو الى الدهشة ان نلقى ، في اصل الظاهرات الدينية ، تلك  
الانماط الاولية نفسها والرموز ذاتها التي نكتشفها في اصل تجارب  
انسانية اخرى ، كالحب ، والحياة الاجتماعية ، والفن ، الفخ .

وبوسعنا الآن ان نفهم عبارة شسترتون . فالمجنون شخص يدعي  
صنع اثاث دون اي مادة اولية ، يدعي صنعه بمجرد الصورة . انه ذلك  
الذي يريد ان يبدع اثرا فنيا ، منطلقا من لا شيء . والمجنون هو ذلك  
الذي بنى حائطا يفصل بين عقله وبين الانماط الاولية التي يمكن لها  
وحدها ، في قاع وجودنا ، ان توصلنا بالواقعي وان تمنح محتوى لافكارنا .

ومن وجهة النظر هذه ، لنقرأ الجمل « الكارثية » : القربان المقدس  
صورة من صور اكل لحم البشر . واكل القربان  $\longleftrightarrow$  ان يكون الله في ذات  
المتناول  $\longleftrightarrow$  ان يكون قويا قوة الله . او ايضا : خطيئة آدم هي ( من الناحية  
الرمزية ، ومن خلال واقعة اكل ثمرة الشجرة ) ضرب من اكل لحم البشر  
وقتل الاب .

وليس ثمة في ذلك اي محاولة لارجاع سر القربان المقدس الى طقس  
بدائي لاكل لحم البشر . ولا يريد المؤلف مطلقا ان يؤكد ان خطيئة آدم  
ترتد الى محاولة وحشية من اكل لحم البشر وقتل الاب . ويقول المؤلف

ببساطة ان طقس القربان المقدس و « اسطورة » ( بالمعنى القوي للكلمة )  
الخطيئة الاصلية يؤلفان نمطين اولين ، اعني يؤلفان رمزين متعددي  
الدلالة ، يتصافران في تحديدهما عدد كبير من الشروط ، ومفتوحين على  
دلالات اسمى فاسمى . ولكن علينا ايضا ان نحذر من نفي الدلالة الاكثر  
تواضعا ومن نفيها مجددا . فنحن لسنا ملائكة .

وثمة هنا تذكير رفيع القيمة لمن يريد ان يعيش ديننا اصيلا . فالدين  
يلفنا كما نحن ، وحتى في اساسنا البيولوجي . والى قعر ذواتنا يتطلب  
لفظ السلام ان يغزونا . وارى هنا عبرة مزدوجة . اولا ، ثمة خطر حقيقي  
بالنسبة لكل مسيحي ، خطر التراجع ، خطر حقيقي من ان يعيش الاسرار  
على مستوى بدائي جدا . فمن يجرؤ على الادعاء ، مثلا ، بان بين اولئك  
الذين يتناولون سر القربان المقدس ليس ثمة من يجعلون منه ضربا من  
الطقس السحري ، متوهمين ان تناول القربان سيمنحهم ، بصورة آلية ،  
قوة يفتقرون اليها ليحسنوا قيادة وجودهم ، ودون ان يكون عليهم ان  
يتكروا حياتهم ؟ تلك هي العبرة الاولى : فنحن مدعوون الى تطهير  
مقاصدنا العميقة . والعبرة الثانية هي ان بلوغ معنى الاسرار الاسمى  
يتطلب منا عملا حقيقيا . وسأحاول ان اقول ، في الفقرة التي تلي ، اي  
نوع من العمل يتطلب .

بيد انني اود ، اول الامر ، ان اؤكد باننا ينبغي لنا ، من وجهة النظر  
هذه ، ان نرور بعض الارتباطات التي تبدو عبثا بسهولة : عندما ، على  
سبيل المثال ، يرى علم النفس نمطا اوليا واحدا ( المنقذ ) تحت وقائع  
متنافرة تنافر المسيح والصحون الطائفة وهتزر . ولكن مثل هذه التأكيدات  
تعني ، على سبيل الحصر ، ان تجربة تناهينا ، اي تجربة عجزنا الجذري  
عن ان ننقد انفسنا بانفسنا ، ستدفع الناس جميعا الى ان يبحثوا لانفسهم  
عن منقذ . فمن سمع كلام يسوع ، يبحث عن سلامة في الايمان . ولكن  
الجمهور الذي تم تحريضه على التعصب سيصبح « يحيا هتزر ! » ويضع  
البخيل كل امله في المال . ومن المثير بصورة فريدة ان يرى المرء طموحا ،  
بهذا المقدار من العمق في صفته الانسانية ، ينحرف على هذا النحو .

## الأنماط الأولية والطقوس

لا يمكن للإنسان أن يستغني عن الطقوس ، لان الأنماط الأولية ( الرموز ) موجودة في قاعدة كل حياة انسانية . وهو لا يستغني عن الطقوس ايا كان بعد الوجود الذي ننظر اليه : العلاقات الاجتماعية وعلاقات الحب والحياة الدينية .

ودراسة بول ريكور حول علم التأويل ( تفسير الرموز ) مفيدة في هذا الأمر . ان الرموز العظيمة ، يقول بول ريكور ، تعبّر في الوقت نفسه عن خفايا رغبتنا وعن المرمى الاساسي لوجودنا . انها الوجوه العظيمة للرغبة الانسانية ، وهذا هو السبب الذي من أجله نفوس الرموز في ما يتصف بأنه أكثر تكوصا فينا ، ولكنها في الوقت نفسه ، تستخدم هذا التكوص لكي تكشف عن امكاناتنا . انها تجعلنا نعيش طفولتنا مجددا ( طفولتنا الفردية وطفولة الانسانية ) وتسقط امكاناتنا في الوقت ذاته . وهذا هو السبب الذي من أجله ايضا ثمة ، في الرموز ، ضرب من قلب اللغة . « أقول ان على المرء أن ينتقل تقريبا من لغة محكية ، لغة نتكلمها نحن ، الى لغة موحية حيث يتجه الوجود اليها ... وليس هذا ببساطة ضربا من المفتاح الذي نستخدمه لكي نفتح ، ولكنه الوجود ، بالحري ، الذي يفتحنا بمفتاح اللغات الرمزية » .

ولهذا السبب لا جدوى من تأمل الرموز فكريا ، ولا من دراستها فكريا ومن الخارج : ولا بد من الاعتقاد بها ، ولا بد من ان نعيشها ، لكي نفهمها .

وليس الطقوس شيئا غير رمز من الرموز او نمط أولي معاشين . اننا انما ندخل في الشعر بطقس حقيقي . والموسيقا طقس تعزيمي . والمداعبات الغرامية طقوس حضور . والاسرار طقوس تجعل الله حاضرا .

أن المذهب العقلاني انحدر وجمّد علاقة العاشقين بسبب احتقاره  
طقوس الحب ، وبسبب انفصاله عن الطقوس الحية والمعاشة . وهي  
نزعة عقلانية واحدة تلك التي تأمر باهمال الممارسة الدينية ، واهمال  
الاسرار المقدسة .

وبفعل ضرب من القلب الغريب ، نرى على هذا النحو أن هذا التحليل  
النفسي ، المنحط القدر كثيرا في بعض الاحيان وموضع الظن لكونه يعادي  
الدين بصورة خفية ، ينصح بالتواضع من الممارسات الدينية . فالانسان  
التقني يتعرض باستمرار الى خطر أن يصبح عقلا محضا ، ومنطقا صرفا  
( للمذهب الكانتي ، كان بيغوي يقول ، يدان طاهرتان ، ولكن ليس له  
يدان ) . ومع غياب الطقوس ، نضبت الينابيع ذاتها ، ينابيع الحياة .

اننا ، بفضل الرموز ، بفضل الانماط الاولى - وبالتالي بفضل  
الطقوس - « انما نملك الحركة دائما لكي نمضي الى ما هو أبعد »  
( مالبرانش ) .

# الفصل الأول

## من علم النفس إلى التحليل النفسي

انهم يبنون بحجارة، ولا يرون ان كل حركة  
من حركاتهم لوضع الحجر في الملاء يرافها  
ظل حركة يضع ظلا من حجر في ظل من ملاط .  
والاهمية هي لبناء الظل .

( جان جيونو )

الالم النفسي يؤس وعذاب . واللاشعور واسع . كذلك لا تبحثوا عن  
اي « نصيحة صغيرة » في هذا الكتاب ، فقد لا تجدوها . والسبب  
ببساطة ان لا شيء سطحي لدى الوجود الانساني . فاذا كان أحد الناس  
فريسة العصاب أو الحصر ( القلق ) ، ثمة بالتأكيد أدوية مسكنة قيّمة .  
ولكن من الضروري ، على وجه الخصوص ، ان نعرف ما الحصر وما  
العصاب ، ومن أي الاعماق يصعدان . واذا كان ثمة هزة من الهزات  
الارضية متوقعة ، فاننا نجلي السكان . ولكن دواء مسكنا لن يعادل  
الوقاية النهائية من الاذى أبدا .

والالم النفسي يؤس كبير . ذلك ما يعرفه معرفة جيدة أولئك الذين  
يرهقهم الوجل الحاد ، ومشاعر الدونية والاثمية ، وضروب الرهاب  
والحصر ، والافكار الثابتة ، وانحرافات أخرى من انحرافات الشخصية .

وليس من اليسر أبدا أن نمضي الى مصدر عصاب ، ولا أن نشفي منه . وهذا هو السبب في أن تجار الحلول السهلة يسرحون ويمرحون . « ينبغي قتل تجار الإرادة » ، كان يقول لي رجل نشيط يرهقه عصاب . وكان المحيطون به يدستون ( بابتسامة ! ) بين يديه « مؤلفات » من نوع : « كيف تكتسب الإرادة في ثلاثين درساً » . وكان هذا الرجل قاب قوسين من الانتحار ، لان زوجته كانت تعتقد بأنها ذات ارادة في حين أنها كانت سلطوية متشنتجة ، ولان أباه كان يظن في نفسه أنه صاحب ارادة ، في حين أنه لم يكن سوى عدواني ، ومذعور ، ومصاب بالحصر . ولكن أي شخص لم يتساءل ما اذا كان رهاب الخلاء ليس سوى التمرق السطحي لعصاب عميق ، استغرق الوقت الكافي لكي ينمو .

واستئصال جذر عصاب مهمة شاقة . ولهذا السبب ، يمنع تجار الحلول السهلة علاوة مجانية هي الخيبة واليأس .

فلن تصاب بالدهشة اذن من دخولك عيادة محلل نفسي ، ولا من قراءة السطور الكبرى لعلاج سيكولوجي . واذا اخترت هذا الدرب ، فلان غالبية السلوكات العميقة تتركز في تحليل نفسي . وبوسع كل فرد على هذا النحو ، في اعتقادي ، ان يجد نفسه بصورة افضل ، وبصورة افضل ان يفهم ذاته . يضاف الى هذا أننا نستطيع ، من خلال حالات عديدة ومن خلال العديد مما نستخلصه من الجلسات ، أن نفحص أنفسنا ، بدءا من أننا الشعورية الى لاشعورنا العميق .

وهكذا نمضي الى الكشف عن الاغوار الانسانية الكبرى من خلال مهمة المحلل النفسي ومرضاه ، مهمتهم الشاقة والرائعة . فاذا كان الانسان مريضا ، سنرى بروز العصاب مع كل ما يرافقه من ضروب الحصر ، ومشاعر الدونية والاثمية ، وحالاته الاكتئابية ، وآلاف اعراضه . وسنرى ، اذا كان الانسان غير مريض ، أنه على الغالب يحتفظ بالباب الذي يوصل الى ثرواته وطاقاته الداخلية مغلقة اغلاقا محكما .

أمل أن يساعد هذا الكتاب على أن يفهم المرء نفسه فهما أفضل ،  
وعلى أن يتنبأ بالنتائج ( القريبة والبعيدة ) لبعض السلوكات . وليس  
ثمة ، بعد كل شيء ، أناس يبحثون عن أنفسهم دون أن يقولوا شيئا  
لاي شخص ؟

أتمنى كذلك أن يتيح هذا الكتاب فهم الأهمية الواسعة لعلم أصبح  
في منتهى الوضوح ، ولكنه ظل مجهولا : **سيكولوجية الاعمال** .

## **التحليل النفسي ينتشر : مشكلة !**

الناس يعرفون استطاعة التحليل النفسي (١) معرفة تزداد اتساعا .  
انه الوسيلة المثالية للنزول في الاشعور الانساني . فمن جهة ، تتعاضد  
الحاجة الى التحليل النفسي . وكل فرد يفهم أهميته العلاجية ،  
والوقائية ، والفردية ، والاجتماعية ، والفنية ، والدينية ، ويفهم  
الامكانات التي يقدمها لنمو الذات . ولكن ، ليس ثمة ، من جهة أخرى ،  
ما يكفي من المحللين (١) ، لاننا بصدد مهنة من أكثر المهن صعوبة ( وأكثرها  
روعة ) . فنحن اذن امام المشكلة التالية : ثمة كثير من النيران ، ولكن  
ليس ثمة ما يكفي من المداخن لامتصاصها .

فماذا تفعل اذن ، اذا طلبت موعدا من محلل نفسي لكي تسمعه يجيب  
ان ليس بإمكانه ان « يبدأ » قبل أربعة أشهر او خمسة ، لا لانه « متخم »  
بالمرضى ، بل لان التحليل النفسي يتطلب ان يقدم المريض نفسه مرة في  
الاسبوع على الأقل ، خلال زمن معين ؟

واذا باشر المرء تحليلا نفسيا لا يهدف الشفاء ، بل بهدف ان تمتد  
أبعاد شخصيته ، فلا شيء يقتضي الاستعجال . ولكن ما العمل اذا كان

---

(١) أشير الآن الى أنني ، طيلة هذا الكتاب ، اسمي على الغالب تحليلا سيكولوجية الاعمال  
( التحليل النفسي او علم النفس التحليلي ) ، واسمي محطلا عالم النفس المختص  
( محلل نفسي او عالم نفس محتل ) .



ثمة شخص يعاني عصابا ( والله يعلم ان كان موجودا ) ، او اذا لاحظ احد الآباء ان سلوكه معرض الى خطر ان ينعكس على اطفاله ( ولا بد من ان يفكر الانسان بان عدد الاشخاص المخلصين ازاء أنفسهم يتزايد ... ) ؟ هل ينبغي الانتظار الى ان يوجد كثير من المحللين ؟ انه امر لن يتحقق في المستقبل القريب . فماذا نفعل ؟

اذن ، لا بد من ان يفكر الانسان بانه لا وجود لحل آخر غير التحليل النفسي ، كما سنرى . فبعض الاحاديث التي يجريها عالم النفس مع أحد الآباء ، على سبيل المثال ، تكفي في بعض الاحيان لكي يكف أحد الاطفال عن ان يكون عصابيا ، حتى ولو ان هذا الطفل لم يتحرك من منزله ( انني افكر هنا بآباء يفلحون في تبديل تصرفهم حين يفهمون آلية الحصر الطفالي . وذلك ليس غير مثال من ألف ) .

ولكن علينا ، قبل ان نفحص المعطيات الاولى للتحليل بالمعنى الصحيح للكلمة ، ان نرى موقعه في علم النفس بصورة عامة .

## اولاً - شتى فروع علم النفس

اطلاع الجمهور ، بصورة عامة ، على فروع علم النفس المختلفة اطلاق قاصر . فهو حائر امام مصطلحات تقرا ، على نحو متزايد ، في كل مكان على وجه التقريب : التحليل النفسي وعلم النفس التحليلي وعلم النفس العلاجي وسيكولوجية الاعمال ، الخ .

فما المقصود ؟

سأهتم على وجه الحصر هنا ، كما قلت ، بعلم النفس العلاجي . وهو يمتد من علم النفس - النصيحة الى التحليل النفسي . وفي علم النفس ، كما في كل مهنة ، ضروب من التراتب . فما هدف علم النفس ؟ هدفه ان يفحص السلوك الانساني ، السليم والمرضي ، وان يقوّمه ان كان منحرفا ، وان يمنح الشخص مجددا اصلته العميقة وحرية الداخلية .

وللنفس الانسانية اعماق لا يسبر غورها . واذا كانت الاعمال الانسانية تمضي من السطح المرئي الى اغوار الاشعور ، فاننا نفهم أن علم النفس ينبغي أن يكون قادرا على تفحص كل راق(\*) من هذه « الراقات » وعلى العناية بها .

وسنستعرض الترسانة التي نحوز عليها بسرعة اذن .  
ولكن لنقل اولا ان مهنة عالم النفس المالعج هي أيضا اعلان مبادئ حول قيمة الانسان الاساسية .

أما وقد قلنا قولنا هذا ، فان « اعلان المبادئ » دون تجربة في العلاج لا تفيد في شيء ، ولا التقنية دون اعلان مبادئ ، من جهة أخرى ! وسترون ان عيادة عالم النفس مكان من أندر الامكنة التي نحترم فيها الفردية الانسانية على نحو مطلق ، والتي يتصف فيها السر المهني بأنه سر تضافى عليه القداسة على وجه التقريب .

ولكن ، اذا كان عالم النفس الحقيقي يعلم ذلك كله ، فان ٩٠ بالمائة من عامة الناس يجهلونه ، وهكذا يقع المقدور من الافكار المسبقة الخاطئة ...

ما هي بالفعل صفات عالم النفس والمحلل النفسي وعالم علم النفس التحليلي وعالم سيكولوجية الاعماق ؟ هل شتى المدارس ، مدارس علم النفس ، على وفاق أم لا ؟ اي شيء لم ينحك عن هذا الشيء الذي يشكل جزءاً من مجموعة الاسلحة الالزامية الخاصة بالمحلل ؟ وما شأن الظلام المزعوم الذي يسود لدى المحلل ؟ في حين ان الامر سيكون اكثر بساطة مع ذلك لو فكر المرء بأن المشروع في علاج سيكولوجي يهدف الى النزول في الذات ، الامر الذي لا يمكن للانسان مع ذلك ان يفعله على صوت البوق .

---

(\*) الراق : امتداد متسق من مادة تتوضع على سطح من السطوح . والراق مرادف لـ « الطبقة » ، غير ان الطبقة اسمك من الراق بكثير . والكلمة يستعملها عامة الناس استعمالاً صحيحاً « م » .

## ١ - علم نفس السطح

### ٢ - علم النفس - النصيحة

قد يحدث في أغلب الاحيان أن يكون بعض الاشخاص بحاجة الى نصائح متخصصة . ان بإمكان المرء ان يرغب في « السعي للإشراف على الوضع بمجمله » ، وفي أن يكون على بصيرة من مشكل داخلي ، وأن يتكلم مع اختصاصي على تربية الاطفال ، وأن يحاول اصلاح زواج يترتع ، الخ . ويمكن لهذه الامثلة بالتاكيد أن تتكاثر الى ما لا نهاية .

وعالم النفس الذي يقدم النصائح هو ، كما يدل على ذلك المصطلح ، اختصاصي يقدم عوناً عملياً ومباشراً لمن يطلب اليه النصيحة . وقد يكون المقصود ، في الاغلب ، ضرباً حقيقياً من « توجيه الشعور » . ويمكن لعلم النفس - النصيحة أن يشمل مجالاً من مجرد الحس السليم الى توجيهات يعطيها اختصاصي يأخذ الاشعور العميق لمن يطلب نصيحته بالحسبان ، أو يأخذ بالحسبان اولئك الذين يحيطون به ( كعلاقات الآباء والاطفال ، على سبيل المثال ) . ويمكن لعالم النفس الذي يقدم النصيحة أن يكون مؤمناً او علمانياً . والمثل الاعلى أن يكون قد نال تكويناً قوياً في علم النفس العلاجي .

وكل صورة من صور العلاج السيكولوجي صعبة وحساسة ، بما فيها علم نفس النصيحة . فالممارس غير الخبير ، أو المجهز بثقافة علمية وسيكولوجية غير كافية ، يمثل خطراً حقيقياً . وذلك صحيح سواء كان طبيباً ام لا . وهذا هو السبب الذي من اجله كان من المفيد أن يكون قد خضع للتحليل النفسي ، تحليل في الاعماق ، كيما لا « يسقط » مشكلاته الاشعورية على من يطلبون اليه النصيح ، وكذلك كيما يكون قادراً على أن ينظر الى شخصية من يطلب اليه النصيح قبل شخصيته . ومن المؤكد أن نصائح عالم النفس تكون دقيقة وواسعة كلما ازدادت معرفته بالموجود الانساني في اعماقه . ويمكن لعالم النفس الذي يقدم النصيحة أن يساعد

في الوقت ذاته شخصين قريبين ( زوجين ، على سبيل المثال ) ، الامر الذي يتصف بأنه نادر في حالة المحلل .

### ب - علم النفس العلاجي الجماعي

كل عمل يقوم به فرد في جماعة ، سواء كانت مؤلفة من شخصين ام من مائة ، ينعكس على من يحيط به . وذلك امر مؤكد .

وعلم النفس العلاجي الجماعي ضرب من علم النفس العلاجي المشترك . فهو يتيح للفرد أن يحتاز الشعور بسلوكه في المجتمع ، وبالتالي أن يفهم الجوانب الايجابية والسلبية من شخصيته . ويتيح للفرد ايضا ( بواسطة التمثيل السيكولوجي (\*) ) أن يجعل بعض الصعوبات الداخلية، التي لم يكن يشعر بها ، تصعد « الى السطح » مجددا .

والمبدأ الاساسي هو المبدأ التالي : كل شخص يشكل جزءا من جماعة ينبغي له أن يكون عاملا علاجيا بالنسبة الى كل عنصر من عناصرها . فلا بد إذن من اصطفاء المرضى ، وتوجيههم . ولا بد ايضا من تحديد اتساع الجماعة ، واختيار التقنية ، وتعيين تواتر الجلسات ومدتها . ولا بد ايضا من أن نفحص ، بالنسبة الى بعض الاشخاص ، ما اذا كان بالامكان أن نمزج بين علم النفس العلاجي الجماعي وبين التحليل الفردي .

وينبغي للاختصاصي أن يكون حائزا على خبرة كبيرة . ويبقى هذا الاختصاصي « حياديا » . ولكن كل عضو من أعضاء الجماعة ينبغي أن يشعر الى أي حد يتصف بأنه ودود بصورة حقيقية وبأنه يتوحد بكل عنصر من عناصر الجماعة . ومن الواضح أن توجيه جماعة من الجماعات فن شاق لا بد من تعلمه ، ولا سيما أن بعض ردود الفعل ، العنيفة في بعض

---

(\*) التمثيل السيكولوجي أو السيكودراما : طريقة علاجية تستخدم التمثيل المسرحي المرتجل وسيلة للبحث السيكولوجي والتحرر من العقد . وهي طريقة ابتكرها مودينو لتنمية العفوية في العلاقات الاجتماعية « م » .

الاحيان ، تحدث بين عناصر الجماعة ، هذا اذا لم تركز الجماعة برمتها عدوانيتها على عالم النفس المعالج .

ويرتبط التمثيل السيكولوجي ايضا بعلم النفس العلاجي الجماعي . ويبدأ التمثيل السيكولوجي بمحادثة بين المريض وعالم النفس المعالج . ويصف المريض ، على سبيل المثال ، بعض الصعوبات التي يعانيها ازاء الغير ( ابيه ، امه ، رئيسه ، الخ ) . وفي هذه اللحظة ، « يصعد الى المسرح » . وعمله يصبح عندئذ عملا حرا على نحو كامل . فهو يستطيع تمثيل دوره الخاص في وضع معين . ويمثل اعضاء الجماعة الآخرون وسطه : فيجد فيه الاب ، والام ، والزوج ، والصديق ، والعدو ، الخ . ونرى بصورة مباشرة أن ضروب الكفّ و «التوقف» والتصريف والعدوانية الخ ، يمكن أن تبدو بسرعة ( وهذا ، بالتأكيد ، وضع يثير الحصر على الغالب ، ولكن عقابه مفيدة ) . وما أن ينتهي التمثيل السيكولوجي حتى تتوقف « اللعبة » بالمعنى الصحيح للكلمة . فيجد المريض نفسه مجددا في مواجهة الآخرين ، ولكن في اتصال مباشر . ويمكن على هذا النحو لكل من المشاركين أن يقابل انطباعاته بانطباعات الآخرين . ويمكن لكل من المشاركين أن يكون صادقا ، وأن يغش ، وأن يتخذ قناعا مرة أخرى ، وأن يشعر بأنه متحرر أو مكفوف ، وأن يعتقد بنفسه أنه موضع حكم أو انتقاد أو إعجاب ، الخ . وتلك اذن هي الخطوة الاولى نحو احتياز الشعور بما « يتصف بأنه على غير ما يرام » . وغني عن البيان أن التأثيرات المتبادلة بين اعضاء الجماعة يمكن أن تكون كبيرة العدد . وتتسم الجماعة في بعض الاحيان بأنها في حالة من الهيجان . وثمة عدوانية حادة تتوجّه نحو عالم النفس المعالج الذي ينبغي له أن يبقى حياديا ولا شخصا .

ولا يتيح علم النفس العلاجي الجماعي بلوغ الاشعور العميق ، كما يفعل التحليل النفسي الفردي . ولكنه يتيح للفرد أن يحتاز الشعور ، في حدود على جانب من الاتساع ، بمشكلاته ازاء الآخرين ، وأن يرى نفسه كما هي ، وأن يقوم ببعض التصحيحات المهمة .

## ٢ - سيكولوجيا الأعماق

ليس المصطلح بحاجة الى التحديد مطلقا . فعالم سيكولوجيا الأعماق ينذر نفسه للموجود الانساني بكل ما يتصف به من الاتساع والعمق . انه ذو نزعة انسانية ، وهو « مكتشف للأغوار » وجراح النفس الانسانية في الوقت ذاته .

ويمكن لعالم سيكولوجيا الأعماق ان يكون نظريا ( دراسة الاديان والاساطير والرموز والسير وآليات اللاشعور ، الخ ) ، او ممارسا ( وفي هذه الحالة ، نحن امام المحلل ) .

### أ - علم النفس العلاجي الرمزي

المقصود طريقة قوية على الغالب ، يمكن ان تتدخل اما خلال التحليل ، واما وحدها . ويستند عالم النفس الى خيال المريض . فيقترح رموزا للكشف عن ضروب الكبت ، وعن العقد والذكريات المطمورة في اللاشعور بصورة عميقة ، الخ . وتستخدم هذه الطريقة الرمزية كذلك لبناء الشخصية في نهاية التحليل بناء جديدا . وسأتكلم على ذلك مفصلا ، من جهة أخرى ، في مجرى هذا الكتاب .

### ب - التحليل

تحت هذه التسمية ، ساجمع التحليل النفسي ( مدرسة فرويد ) وعلم النفس التحليلي ( مدرسة يونغ ) ، وعلم نفس تقويم السلوك ( مدرسة بودوان ) .

ويمارس المحلل أعلى درجات التخصص في علم النفس : شفاء الموجود الانساني شفاء في الأعماق .

وثمة سؤال يطرحه عامة الناس على انفسهم : هل للمدارس الكثيرة وجهات نظر متعارضة ؟ نعم ، ان لهذه المدارس تصورات مختلفة فيما

يخص مقارنة الاشعور الانساني . يضاف الى هذا ان اي شخص لا يشبه شخصا آخر . وليس المريض هو الذي ينبغي له ان يتلاءم بالقصر مع طريقة من الطرائق ، بل ان الطريقة ينبغي لها ان تتلاءم مع المريض . وعلى المحلل اذن ان يكون حائزا على ما يكفي من الشمول والخبرة ليتحقق من ذلك . ومدارس فرويد ويونغ وبودوان ، من جهة اخرى ، تتكامل وتغني كل منها الاخرى بالتبادل ، لانها تقوم على منظورات شتى . ولنقل تماما ان التراث العلاجي الذي تركته لنا هذه المدارس ذو اتساع وتلاحم غريبين . فماذا يفعل المحلل « العظيم » اذن ؟ وما هي تقنيته ؟ ومعارفه ؟ انها بالتأكيد امور لا غنى عنها . ومع ذلك ، تنجم قدرة المحلل ، في نهاية المطاف ، من قدرته الداخلية . ذلك ان اي شخص لا يمكن له ان يقود شخصا آخر الى مدى ابعد اذا لم يكن قد وصل اليه هو ذاته .

### ج - التحليل الدقيق

التحليل الدقيق هو التحليل الكلاسيكي . انه التحليل الاعمق والاروع والاصعب . والمريض ، على وجه العموم ، يتمدد على ديوان ( وليس ثمة ما يتصف في ذلك بالسر الفاض : فعلى الديوان ، يسترخي المرء على نحو افضل بكثير ) . ويقف المحلل خلف المريض . فهو اذن يظل غير مرئي ، ولكنه « حاضر » بصورة قصوى . وليس بوسع المريض اذن ان يرى ايا من ردود فعل المحلل ( وبوسعه ، بالتالي ، ان يتخيلها جميعا ) . وذلك امر ذو اهمية كبرى ، ويشير انعكاسات عديدة خلال العلاج التحليلي ، كما سنرى من خلال هذا المؤلف . يضاف الى هذا ان مداخلات المحلل ، في التحليل الدقيق ، تتصف بانها معدومة عمليا في اثناء زمن طويل الى حد كبير من العلاج . ويندعى المريض الى ان يقول كل ما يخطر بباله وما يجول في خاطره تبعا للآونة . ولا يتدخل المحلل الا بعد مضي زمن معين لكي يستخلص من « المواد » التي يعطيها المريض تفسيرات تقود الى ضرب من احتياض الشعور . ويبقى المريض ، في تحليل دقيق ، وحيدا مع ذاته . وكلام المحلل كلام سريري ، وغير شخصي على الاطلاق . ويمكن للتحليل الدقيق ان يجري دون ديوان . فالمريض ، على سبيل المثال ، يمكن ان يكون جالسا في مقعد ، والمحلل في مقعد آخر ، الى الراء بعض الشيء .

والمهم ، في تحليل دقيق على وجه الخصوص ، هو موقف المحلل ، كما  
سأبين ذلك . انه صورة التحليل الاكثر صعوبة على المريض ان يتحملها ،  
ولكنه الاكثر اتصافا بأنه « ذو مردود » في العمق .

وماذا لدينا بالاضافة الى التحليل الدقيق ؟

### د - علم النفس ذو الاساس التحليلي

المقصود بعلم النفس ذي الاساس التحليلي علاج تنطقت فيه جميع  
معطيات سيكولوجيا الاعماق . ومع ذلك ، فان التقنية اكثر مرونة  
وفاعلية . وبدلا من ان يبقى المريض وحيدا مع ذاته ، يجلس في مواجهة  
المحلل . فالمحلل اكثر فاعلية . انه يتكلم مع مريضه ، ويقوده نحو  
احتياز الشعور باضطراباته الداخلية . ولكنه لا يوجه مريضه أبدا ، ولا  
يعطيه نصائح أبدا .

ويقود المحلل مريضه نحو النضج العام ، ويترك له دائما عبء اختيار  
مسؤولياته الخاصة بحسب درجة نضجه الداخلي .

فمتى نستخدم هذا النوع من العلاج ؟ والجواب ان كل شخص يختلف  
عن الآخر ، وعلى المحلل ان يكون قادرا على جعل اسلوبه في العمل متلائما  
مع كل فردية . ولا يمكن لتحليل دقيق ، في بعض الاحيان كذلك ، ان يكون  
موضع نظر ، اما لان المريض بلغ من الكبر عتيا ، واما لانه عاجز عن تحمل  
طريقة التحليل الدقيق القاسية . وبوسع المرء مع ذلك ، في نهاية زمن  
معين من « التدريب » ، ان يتجه نحو التحليل الدقيق .

ثمة نقطة مهمة جدا : كل تحليل ، مهما كانت الطريقة المستخدمة ،  
يتم دائما بصفة فردية على نحو دقيق . فليس بوسع المحلل اذن ( باستثناء  
حالات خاصة كل الخصوصية ) ان يعالج شخصين قريبين ، ولا ان يعطي  
أبدا أدنى معلومات خاصة بعريضه الى أي شخص كان .



## هـ - وما شأن اللغة الاصطلاحية ؟

والسؤال التالي يطرح نفسه : هل لغة الاختصاصي الاصطلاحية ضرورية ؟ فالمستن ، في الميكانيك ، لا يسمى دولابا صغيرا ذا اسنان . والمبضع ، في الجراحة ، ليس سكيناً . وقس على ذلك في علم النفس . ويبدو أن التحليل النفسي ، على سبيل المثال ، مرهق بالكلمات الحوشية(\*) ، مثل : **الانا العليا ، والهو ، والعلاقات الابدئية ، والمرحلة الشرجية المصعدة ، والتوحد بفضو الذكر ، وحصر الخصاء ، ورحم الام ، والانماط الاولى** . . . ومصطلحات كثيرة أخرى . فهل هي ضرورية ؟ نعم . وهل يمكن للمواربة(\*\*) ان تحل محلها ؟ لا . والسبب في ذلك ان كل مصطلح منها يؤلف ، بدقة ، حالات انسانية ، مترامية الاطراف في بعض الاحيان ، وتشمل حيوات برمتها ، ويمكن ان تنطوي على عدد لا محدود من المظاهر .

فاللغة الاصطلاحية اذن امر لا غنى عنه احيانا . ولكن يجب كذلك ان لا تشير الى عجز او الى « سر غريب » يتخندق وراءه الاختصاصي .

ولنضرب بعض الامثلة البسيطة . لنفرض احدى الدعاوى في محكمة الاستئناف . ولنفرض ان احد المشاهدين يلاحظ ان العقوبة التي حكمت بها المحكمة تتجاوز العقوبة التي يستحقها المتهم تجاوزا كبيرا . فماذا يمكن ان يكون قد حدث ؟ يمكن ان يكون قد حدث ما يلي : ان يكون القاضي قد اسقط ظله على المتهم . هل هما مصطلحان من اللغة الاصطلاحية ؟ كلا . ان القاضي اسقط ، واعني بذلك انه راي المتهم من خلال عواطفه اللاشعورية الخاصة وضروب كبته وعقده . ومن الممكن ان يكون سلوك المتهم منازرا لانفعالات مؤلمة ومكبوتة بعمق خاصة بالقاضي ، او ان هذا القاضي « كره » المتهم ، لانه كان يكره ظله الخاص ، اي الجزء السلبي اللاشعوري من شخصيته ، الخ . وحالة من هذا النوع ( في عداد الملايين من الحالات ) كانت تبدو في فيلم **عشرون رجلا في حالة الفصم** ، فيلم

(\*) الحوشي من الكلام : الوحشي الغريب « م » .

(\*\*) المواربة : الدوران في التعبير بالفاظ كثيرة من فكرة من الافكار « م » .

سأتكلم اليكم عليه فيما بعد . والقاضي ، في المثال الذي نحن بصدده ، يعتقد اذن انه يدين المتهم ... في حين انه يدين نفسه من خلال المتهم ، ودون ان يعرف . فليس المتهم اذن هو الذي يكرهه القاضي : انه انما يكره نفسه . فما نحن اذن بعيديون عن الموضوعية ...

## و - معنى اللغة الاصطلاحية

تبين اللغة الاصطلاحية كيف يمكن لمصطلح من المصطلحات ان يجمع بالتأليف حالات في منتهى الاتساع . ولنغرض اننا نقول :

- تسلط العودة الى رحم الام على هذا الرجل الذي بلغ من العمر خمسين عاما ... فهل ذلك يعني انه يرغب في العودة الى رحم امه ؟ انه كذلك ، اذا شئتم . ولكن ماذا يعني « رحم الام » ؟ انني سأتكلم على هذا المصطلح مطولا ، بالنظر الى انه « يوقف » على الغالب ضروبا برمتها من الوجود . ولكن لنقل ، بصورة عامة ، انه يمثل اللاوعي السعيد الذي يسبق الولادة . انه يمثل « عودة الى الوراء » ، مرغوبة على الغالب اكثر من السير الشاق نحو الامام . اليس من الايسر على المرء ان يلجأ الى حضن امه ، مع كل ما يرافق ذلك من الاوضاع الرمزية التي يفترضها ؟ وما رحم الام ؟ انه المرحلة التي كان يسود فيها اللاوعي ، والتي كان فيها الانسان ينعم بالدفع دون قسوة ولا مشكلة . ولهذا السبب ، يمثل النوم ( او الانتحار ! ) ، على هذا النحو ، عودة الى رحم الام ، بالنسبة الى الملايين من الناس : فهو اذن يمثل عودة الى اللاوعي ، الى نسيان الصعوبات والصراعات ، الخ . ونحن اذن ازاء رمز قوي وازاء حنين عميق يسم لاشعور كل موجود انساني ، ويتمتع كل فرد الى خطر ان يستسلم له عندما « يكون كل شيء على اسوأ حال » .

كذلك يمكن لاحد المشافي ان يمثل هذا الرحم ذاته ، رحم الام ، لان الانسان يشعر فيه انه محضون ومحمي وفي ملجأ ، وتحت حراسة « الاب » ( الاطباء ) و « الام » ( الممرضات ) ، وان بوسعه ان يعيش فيه وكأنه طفل . فالمرضى اذن يمكنه ، في نطاق كبير جدا بعض الاحيان ، ان

يرغب لاشعوريا في البقاء اطول فترة ممكنة في المشفى . . . وبالتالي يمكنه ان يتمهد بالرعاية مرضه بالاسلوب الذي يتصف بأنه الاكمل ، ذلك ان الخروج من « رحم الام » هذا قد يعني العودة الى صعوبات الرشد . وهكذا دواليك : فثمة امثلة عديدة ممكنة (١) .

### ز - كيف يصبح المرء محللا ؟

ربما كنا بصدد درب من اكثر الدروب مشقة .  
وتلك هي الآونة للاستشهاد بكلام شهير على وجه الدقة ، كلام نخث :  
« المهم قبل كل شيء ، لا ما يقوله المحلل ، بل ما يتصف به المحلل » .

يلج المرء قليلا في الدراسات الخاصة بتكوين المحلل كما يدخل في حلقة دراسية . . . فلا يتجسد الايمان بالتحليل ( وبالانسان ) او يزول الا في اثناء الدرب . والدراسات الخاصة بتكوين المحلل هي ضرب من المخاطرة بكل شيء . واليك السبب .

لكي يصبح المرء محللا ، لا بد له من ان يصبح قبل كل شيء عالم نفس ، ثم عالما في سيكولوجيا الاعماق . فماذا يعني ذلك ؟ ويكفي ، لكي يصبح المرء عالم نفس ، ان يحصل على دبلوم في علم النفس . ويكفي ان يدرس دراسة رصينة ، وان يتقدم الى الامتحانات وينجح . فنحن بصدد مرحلة اولى يتعلم المرء في اثنائها ان يحتوي الانسان ، احتواء جافا ، في صيغ وروايز وقياسات ، الخ . فهو اذن حائز على دبلوم في علم النفس ، ولكنه بعيد عن ان يكون عالم نفس بالمعنى الاسمي للمصطلح . وكل شيء منوط اذن بما يرغب فيه . ومن المؤكد ان عليه ، اذا رغب في ان يمضي نحو العلاج النفسي ، ان يتطهر قبل ان يظهر الاخرين . ومن المفيد ان يكون الممارس قد خضع لتحليل نفسي ولو ان الامر يقتصر ، بالنسبة اليه ، على علم النفس الذي يقدم النصيحة .

---

(١) انظر فقرة « صوب الجنين » ، في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب .

ولكن كل شيء يتعمد عندما تكون سيكولوجيا الاعماق هي المقصودة .  
فكيف يصبح المرء محلا ؟

لا بد له ، قبل أي شيء ، من أن يقبله معلم الفن ( المحلل المكون )  
« مرشحا » ، ذلك المعلم الذي يأخذه على عاتقه ، ويكون معتمدا لتكوين  
محلل بقرار من المؤسسة التي يتبعها . وعلى المرشح أن « يمثل » امام  
لجنة المحللين المكلفة بفحص ترشيحه . واللجنة تنتقد الترشيح تبعا  
للسن ، والدواعي التي تدعو المرشح الى الرغبة في أن يصبح محلا ،  
وثقافة المرشح ، وتكوينه العلمي ، وقيمه الاخلاقية والانسانية ، الخ .  
ومن الواضح ان معايير الاختيار ينبغي ان تكون ، في البدء ، بمنتهى القسوة .  
وعلى المرشح ان تكون لديه معارف سيكولوجية ، وانسانية ، وذكاء ،  
وقدرة ، اعلى من الوسط بكثير . فترشيحه سيفحص اذن ، ويناقش ،  
ويغربل ، ويقبل او يرفض او يؤجل . ويفهم المرء على نحو جيد جدا ان  
الحد الاقصى من الضمانات ينبغي ان يكون مطلوبا في البدء قبل النظر في  
أي شيء .

وماذا بعد ؟ ان المحلل « جراح النفس » . ولعل مهنة التحليل النفسي  
هي المهنة الوحيدة التي ينبغي ان يقوم من يختارها باجراء « العملية »  
على نفسه قبل ان يجري العملية على الآخرين . فالمرشح اذن ، شأنه  
شأن أي مريض ، ينبغي له ان يباشر تحليلا فرديا هدفه « ازالة القشرة »  
عن لاشعوره . وعلى المرشح ان يفهم سير لاشعوره ... وسيكون الى  
الابد ، لولا ذلك ، عاجزا عن فهم لاشعور الآخرين . فهو ينطلق اذن في  
مغامرة التحليل الفردي ، بصفته مريضا ، مغامرة تدوم زمنا طويلا . ثم  
يبدأ ، بعد ان يكون التحليل الفردي قد قطع شوطا كافيا ، تحليلا « تعليميا »  
يتعلم المرشح مهنته في اثنائه ، بصفة علمية وانسانية . وهنا اذن ، ثمة  
دراسات مكثفة في التحليل النفسي .

هل المرشح على يقين من نجاحه ؟ اطلاقا . فقد يبدو عاجزا عن النجاح  
بعمر في تحليله الفردي ، كما قد يبدو عاجزا عن ان يصبح محلا على الرغم  
من نجاحه في تحليله الفردي . وذلك يفترض عدة سنين من الدراسة ،

ومئات من ساعات التحليل بمعدل جلستين في الاسبوع على الاقل .  
وبالتالي ، يخضع المرشح ، خلال ما يقارب مئتي ساعة أو ثلاث مئة ، الى  
تحليل دقيق . فيجد نفسه ( وحيدا مع ذاته ) متمددا على ديوان ، ووراء  
المحلل المعلم صامتا ، ولن يعرف أبدا ان كان « مصره » يتوطد أو ينهار .  
انه اذن عمل من الجلد والشجاعة وتوطيد الذات . ويفهم المرء ايضا ان  
معلم فن التحليل لا يقدر على التساهل في ضعف المستوى لدى تلميذه ،  
لا من الناحية العلمية ولا من الناحية الانسانية . ويتبين لنا ايضا ان الفهم  
الذي قد يتكوّن لدى الاستاذ عن صعوبات تلميذه لا يمكن أبدا ان تكون لها  
الصدارة على المعايير القيمة المطلوبة من محلل المستقبل .

وماذا بعد ؟ ان على المرشح ، بعد هذا العمل الواسع ، ان يباشر هو  
ذاته تحليل شخص آخر ، ولكن تحت رقابة محلل خبير يسمى لهذا  
الامر ، محلل غير المحلل الذي اشرف على تكوينه غالبا . واذا كان المرشح  
قد اصبح قادرا على معالجة عدة حالات معا ، فان من الممكن ان يشرف عليه  
عدة محللين . وعليه ، قبل ان يعمل وحيدا ، ان يلجأ ، خلال عدة سنين ،  
الى المحللين الذين اشرفوا عليه . وذلك امر يمكن فهمه . اذن ، فالمرشح  
الذي نجح في تحليله الفردي ، وتحليله التعليمي ، ودروسه النظرية ،  
وسنواته في التحليل تحت الاشراف ، يصل الى ابواب المؤسسة التي  
يتبع لها .

هذا ، اذن ، في خطوته الكبرى ، هو الدرب الذي يقود الى دور  
المحلل . ويدرك المرء ان هذه الدراسات مرتفعة الكلفة الى الحد الاقصى ،  
مالا وزمنا . والحل الافضل ، من ناحية الزمن ، ان يبدأ المرء تحليله  
الفردي في الوقت الذي يبدأ دراساته لنيل دبلوم في الطب او علم النفس  
او الفلسفة او علم التربية ، او اي فرع آخر ذي صلة بعلم النفس .

ومن المؤكد ايضا ان عددا ما من الشباب يشعرون ، او يعتقدون في  
انفسهم ، بانهم مؤهلون لان يصبحوا محللين . وهم يستشعرون ، غالبية  
الوقت ، هذه الدعوة الى ان يصبحوا محللين لانهم يعانون ، هم ذاتهم ،  
بعض المشكلات . وهذا امر سوي جدا مع ذلك ، وليس على الاطلاق معيارا

للرفض في البدء . ولكن من الواضح أن هذه المشكلات ينبغي التخلص منها بواسطة التحليل الفردي . ولا بد من التفكير تماما بأن ثمة ، في هذا الدرب ، قليلا من المقبولين وأقل من الذين يتم اختيارهم . وينبغي أن يكون الاصطفاء ، بالفعل ، عديم الرحمة . ومن الواضح أن معايير التكوين والقبول هي عشرة أضعاف بالقياس الى الاحتياطات المتخذة في أي نوع من أنواع الدراسة . ولم أكن أمزح قط عندما تكلمت على « حلقة دراسة » . فهل يكون المرء أبدا محلا لدون ضرب من الجاهزية ازاء كل انسان ، ولو أنه مزود بتقنية بارعة ؟

### ثالثا - لماذا الشروع في تحليل نفسي ؟

امن الضروري ان يشرع الشخص في تحليل نفسي اذا لم يكن يعاني عصابه معاناة قاسية ؟ ولنفرض شخصا من الاشخاص متخما بـ « ضروب التعويض » التي تتيح له ان يعيش دون كثير من التمزق . ولنفكر بشخص عدواني جدا ، على سبيل المثال . انه عدواني حتى لا يتملكه الخوف . فلهذه الانطباع اذن بأنه يعيش بصورة سوية على وجه التقريب ... ومع ذلك ، فان عليه ان يتمسك بعدوانيته . فاذا فاتته هذه العدوانية ، وقع في الخوف مجددا . اذن ، يتألم هذا الشخص ، ولو بصورة لاشعورية . ان عليه ان يمثل دورا مستمرا حتى يفلت من الخوف . يضاف الى هذا ان الحاجز التي يقيمها ضد الخوف ، ويتمدها بالرعاية ، تستهلك كمية كبيرة من طاقته .

ومن جهة اخرى ، اذا افلح شخص مصاب بالعصاب في ان يعيش ، فمن المؤكد ان شخصيته المزيفة تنعكس على محيطه . وفي هذا المجال انما يتصف التحليل ، وهو علاج فردي ، بأنه وقاية اجتماعية ايضا . وحسب المرء ان يفكر بالعلاقات بين الآباء والاولاد .

### ١ - ستكون في الطبيعة !

بعض الاشخاص ، الذين يعلنون لمن يحيط بهم انهم سيشارون تحليلا

نفسيا ، يسمعون يقال : « ستكون في الطليعة عندما تعرف ما يحدث في لاشعورك ! »

اوليس ثمة فائدة كبيرة في أن المرء « يحتاز الشعور » بضروب كبته وعقده ، وغالبية آلياته اللاشعورية ، التي تجعل الشخصية منحرفة أو تعديها ؟ ولكن الناس ينسون أن العقد شخصيات منفصلة ، مختبئة في اللاشعور بصورة عميقة . وبما أنها بالتأكيد غير مرئية ، فإنها تعمل لمصلحتها الخاصة ، وليس لإرادة الفرد أي سلطة عليها . يضاف الى هذا أن الناس ينسون أن كل عقدة وكل كبت ( وسأشرح لكم ذلك شرحا مفصلا في هذا المؤلف ) تجسد كمية كبيرة من الطاقة التي تبقى على هذا النحو غير جاهزة ، بدلا من أن تستخدمها الأنا الإرادية .

والحال أن « احتياز الشعور » رئيس في التحليل<sup>(١)</sup> . وأذكر أيضا بأن كل عقدة وكل كبت هما لاشعوريان . وبناء عليه ، فإن ذلك كما لو أننا نقول : « ستكون في وضع ملثم جدا عندما يكون عدوك أمامك بدلا من أن يكون وراءك . ستكون في وضع ملثم جدا عندما تمتلك اسلحة أقوى بما لا يقاس من هذا العدو الذي يبدو في وضوح النهار أخيرا ... » هذه الملاحظات تتصف اذن بأنه عبث .

يضاف الى هذا أن بعضا من « احتياز الشعور » يجعل في بعض الاحيان جانبا كاملا من جوانب العصاب ينهار في ثانية .

والحقيقة أن ذلك ، خلاصة للقول ، يعني ما يلي : « ستكون في وضع ملثم جدا اذا طرحت بعيدا ضماداتك القديمة لكي تكتشف تحتها دملا ، بالمعنى الصحيح للكلمة ، كان لديه متسع من الوقت لكي يقرض عظامك . . » ولا سيما أن الدمامل يمكن معالجته ، ولو أنه دمل نفسي . فماذا عليك اذن أن تفعل ؟

---

(١) انظر فصل « احتياز الشعور » ، الفصل التاسع .

## ٢ - الى من يتوجه علم النفس ؟

اعتقد اعتقادا عميقا بأن علم النفس ينبغي ان « ينزل » الى الشارع . ولكن سيكولوجية الاعماق ، من جهة اخرى ، لا تحتل اي مستوى دون المتوسط . واصحاب المستويات دون المتوسطة غير معينين بها .

ففي كل موجود انساني ضرب من الكمون في الطاقة والوضوح ، غير مستثمر على الغالب لانه غير مكتشف . وذلك كما لو ان كل فرد يملك تحت حديقته اليومية الصغيرة طبقة من النفط لا تنتظر غير المسبر لكي تنبجس . وستلاحظون ذلك ، من جهة اخرى ، عندما سأتكلم على « الانماط الاولى » ، هذه الكوكبات القوية ، كوكبات اللاشعور الجمعي .

يضاف الى هذا ان علم النفس ليس علما يتصف بأنه فردي فقط . فهو ايضا ، وعلى وجه الخصوص ، اجتماعي . ولا يعرف مع ذلك ما هو تقليدي من الاحزاب والاديان والاخلاق . والحكم « الاخلاقي » ، ايا كان هذا الحكم ، بعيد عن علم النفس بعد القطب الجنوبي عن القطب الشمالي . فعالم النفس لا يصدر حكما على الاطلاق ، ولا يستولي عليه الاعجاب ابدا . ذلك ان عليه عندئذ ان يكون بوسعه الاحتقار . وكيف تريدون ان يكون ذلك ممكنا منذ ان تعرف الدافعيات العميقة ؟

لا اعتقد اني اكون من اصحاب النزعة المثالية اذا قلت ان تجديد مجتمع من المجتمعات منوط بتجديد الناس الذين يؤلفونه تجديدا داخليا . يضاف الى هذا ان علينا ان لا ننسى ابدا ان انسان نيندرتال لا يزال خلف الباب ، وان اعماق اللاشعور لم يطرا عليها اي تغيير منذ بداية الازمنة . فعلم النفس فردي واجتماعي . وكل موجود انساني ، منذ ولادته ، شبيه بقذيفة في مستنقع ، مع كل مايفترضه ذلك من الموجات والتداخلات والانعكاسات . والانسان بين الناس الآخرين « تبادل » لا يتوقف ، صاحب او صامت ، وشعوري أو لاشعوري . وهكذا يبدأ منذ ان يكون الانسان مجرد جنين .



وعلم النفس اذن وسيلة من وسائل الاستقصاء قبل كل شيء . فثمة الملايين من الناس الذين يمشون على جانب دريهم الحقيقي دون علم منهم . ويررون معظم اعمالهم بدافعيات مزيفة . ولكنهم ، في اثناء ذلك ، غارقون في ضروب الحصر والاثم والعدوانية . فهم ملزمون اذن بان يجدوا شروحا عقلانية لغالبية اعمالهم . والمؤكد انهم يجدون . والناس يجدون شروحا ، سواء كانت صحيحة ام خاطئة .

ولكن الدوافع اللاشعورية تتصف غالبا بانها على تقيض الدوافع التي يعلنونها .

واذا علم الناس بان اي عصاب « قطيعة » بينهم وبين انفسهم ، ادرخوا اهمية علم النفس ان كان قادرا على اعادة « الاتصال » . . . ذلك هو علم النفس . انه آلة دينية(\*) .

ثم ان العالم عانى مع ذلك آلاما كثيرة مصدرها اولئك الذين يتصفون بانهم ، وهم لا يعرفون الجزء القائم ، الطفالي والسلبى ، من شخصيتهم ، « يسقطون » هذا الجزء على الآخرين ويجرّون في اعقابهم ملايين من الناس الطفاليين مثلهم(١) .

وسيعرض هذا الكتاب مستخلصات من الجلسات ، وحالات ، وضروبا من حوار المرضى الذاتى ومن الحوار بين المحلل والمريض . ومن المؤكد ان ذلك كله يركز على احترام الفردية الانسانية احتراما مطلقا . وهذا الاحترام الذي يكنه علم النفس لكل شخصية ( سليمة او مريضة ) ، يشاطره فيه كل منكم عندما يلاحظ ان التحليل يمثل حالة « وحيدة » في حياة فرد من الافراد .

والتحليل شيء رائع وعسير وقاس . فهو يقتضي من الفرد ان يدخل

---

(١) انظر فقرة « الإسقاط » في فصل « ذكريات الطفولة » .

(\*) الدين ، بحسب الاشتقاق في اللغة الفرنسية ، يعنى الصلة ، وسيصبح لنا ذلك في مجرى الكتاب « م » .

« في صدام » مع ذاته ، وان يضع الاجزاء الاكثر « ظلما » من شخصيته تحت الضوء ، كيما يخرج من ذلك موحدا . ولكنه ضرب من البعث الحقيقي « ان يجد الانسان مجددا » . ذلك هو التحليل : ولادة جديدة ، وكشف الذات للذات ، وصمود هذه العاطفة « الدينية » التي كنت قد تكلمت اليكم عليها . ولكن التحليل يتصف ايضا بأنه تحرير لـ طاقة هائلة في بعض الاحيان . وهذا امر منطقي اذا تخيلنا الكمية الكبيرة من الطاقة التي « توقفها » العقد وضروب الكبت والحصار !

وبلاحظ المرء مذهولا انه عاش على اسس مزيفة ، وعلى وجهات نظر منحرفة . وبلاحظ انه استند الى **انا مشوهة** ، ومتصدعة ، ومصابة بالضعف ، نظرا الى انها تنقاد بـ « العقد » التي كان يجهل وجودها ، ولكنها كانت تولد ، في السطح ، امراضا مؤلمة تمزق الانسان على وجه التقريب .

### ٣ - العرض والجذر

**ها هو ذا موظف مصاب بـ « الاكتئاب العصبي »** . انه يقول : « السبب في ذلك انني اعمل فوق طاقتي » . والحال ان الاكتئاب العصبي ضرب من السلة التي يندس فيها كل ما لا يمكن تحديده ، وذلك من خلال كتلة هائلة من الاعراض الممكنة . وبالاختصار ، يُعزى الاكتئاب العصبي هنا الى « الارهاق » . ثم نلاحظ ان هذا الموظف يعمل في الحقيقة كثيرا . بل انه يعمل عملا يتجاوز طاقته بكثير ، ولكن ليس للأسباب التي يعلنها . ونلاحظ كذلك انه يعاني حصارا دائما امام رؤسائه ، وامام الغير بصورة عامة . ويخاف دائما من ان يكون « مخطئا » ، حتى في الاعمال الاكثر ابتذالا . فالارهاق يغير وجهه ، ويصبح **ارهاقا انفعاليا** ، الامر الذي يختلف كل الاختلاف . ثم نلاحظ ان هذا الموظف يعمل دون توقف كما لو ان ثمة « شيئا ما » كان يلاحقه . فنقع بالتأكيد على عواطف لاشعورية من الائمة والدونية والحصار والعدوانية المكبوتة ، الخ . ان هذا الرجل ، على اي حال ، ينبغي ان يحتمي دون توقف من حصره . ينبغي له اذن ان

ييدي للغير « واجبة » عليه أن يتعهد رعايتها بتكاليف باهظة ... واعني بذلك أن يصرف كثيرا من الطاقة . فليس « الارهاق » اذن موضع الاتهام على الإطلاق ، وانما الخوف والحصر .

**ها هي ذي فتاة صبية تعاني عصاب الاخفاق . فكل شيء يحدث كما لو**  
انها كانت تبحث عن الاخفاق . وتبدو وقد زالت عنها الكربة عندما « تفشل » في شيء من الاشياء . **ولكن ذلك كله يظل لاشعوريا . وهي**  
لا تعلم ان الاخفاق النهائي قد يمثل ضربا من « السلام في الفراغ » ، ولكنه يمثل في الوقت ذاته « عقوبة » مطلوبة بصورة لاشعورية . فنحن اذن لا نزال في مشاعر الدونية . ولكن ماذا تقول هذه الصبية ؟ انها تحاول « تبرير » كونها لا تحضر اي اجتماع ، وليس لها اي صديق : « اكره المجتمع الذي يتصف بالمراعاة » . وها هو ذا سبب في عداد اسباب أخرى ، لا ينطبق قطعاً على الواقع العميق . وتلك هي الوحدة ، في اثناء ذلك ، وربما الرغبة في الانتحار ، وآلام أخرى . **وليست جميعها سوى اعراض .**

ويمكن على هذا النحو أن نكثر من الامثلة : ولكن هذه الامثلة ستكون منتشرة في هذا الكتاب . اذن ، الا تعتقدون أن ثمة كثيرا من الناس يقودهم ، رغم انهم ، لاشعور مزدحم ومضطرب ، وأن ثمة كثيرا من الناس الذين تسبح « الانا » لديهم في مستنقع من الدموع ، وضروب الحصر ، والائم ، وأن ثمة كثيرا من الحيوانات المتحجرة ؟

## ٤ - هل يتوجه التحليل النفسي الى المرضى على سبيل الحصر ؟

لقد تجاوز التحليل النفسي هذا التساؤل ! فالتحليل النفسي مذهب انساني واداة قوية للاستقصاء ، قبل كل شيء . انه وسيلة للربط مجددا . وهو مبضع كذلك . والرأي القائل ان كل شخص يباشر تحليلا نفسيا يتصف بأنه مريض او مصاب بعصاب رأي خاطيء . والاشخاص الذين يقع على عاتقهم امر العناية بالآخرين يقبلون بصورة متزايدة على

سيكولوجية الاعماق : اساتذة وقسيسون ومديرون وعلماء نفس شباب وطلاب طب ، الخ . ويقبل عليها كذلك اطباء يرغبون في تحقيق افضل مقاربة ممكنة من مرضاهم ، وآباء يدركون وجود مشكلات كبيرة عميقة وي يرغبون في ان يحققوا في انفسهم توازنا وصحوا يمكن لهم نقلها الى اطفالهم ، الخ .

والتحليل ، وكرر ذلك ، مخصص لتنمية الشخصية ولعرفة الدافعيات العميقة التي تتصف على الغالب بأنها على تقيض الدافعيات الظاهرة . وسيكولوجية الاعماق مادية وروحية معا . فهي مادية لانها اداة انسانية دقيقة تتوجه الى الآلام النفسية ، الشديدة في بعض الاحيان ، بقدر ما تتوجه الى الصحة . وهي روحية كذلك ، لانها تتيح لبعض الناس ان يكتشفوا ينابيعهم العميقة ، الفائرة في الغالب . وتتيح سيكولوجية الاعماق ان يفيد المرء من كل ما يبقى مخبأ في ذاته تحت راقات من الحمم التي راكمتها ظروف الحياة . وعلم النفس الحديث اكتشف الكواليس التي تعود الى اللاشعور ، ثم فجر حدود الفردي لكي يندفع نحو الاجتماعي والثقافي ، وبالتالي نحو جميع الناس . وعلى هذا النحو ، نصل الى اكتشاف النفس العميقة التي تبقى امكاناتها على الغالب مخبأة كالينابيع .

ذلك اننا نعلم في ايماننا هذه انه اذا كان فقدان الشعور والعقل يعني الاغتراب ، فان من المعلوم ايضا ان لاشعورا انسانيا يظل بلا عناية يعني فقرا وخمولا انسانين . فاي انسان لا يعيش الا على لاشعوره ، انسان مصاب بالاغتراب . ولكن اي انسان لا يعيش الا على العقل ، ليس الا نصف انسان .

يقال غالبا ان التحليل النفسي لا يتوجه الا الى النخبة . وهذا صحيح : ولكن لا بالمعنى « الاجتماعي » للكلمة على الاطلاق . فكل شخص يفكر تفكيرا ضيقا وخسيسا ، ويتصف بأنه متخثر ، ويحتاج الى ان يسود او أن يكون مسودا ، شخص مريض . ومريض كل شخص يظل وكأنه فقاعة على سطح ذاته .

وعلى هذا النحو انما يتصف أحيانا بعض الأشخاص ، الذين يقال عنهم « أسوياء » ، بأنهم أشد مرضا من بعض المصابين بالعصاب ، اذا كانوا يعيشون حياة متحجرة ، ومتخثرة من الناحية الداخلية . وهكذا يتخذ السؤال : « مصاب بالعصاب ام لا ؟ » كل معناه في اعتقادي .

## هـ - هل التحليل النفسي ضرب من الترياق ؟

لا شيء يتصف بأنه ترياق . ولكن لا بد من الاعتراف بأن للتحليل على الغالب أهمية واسعة ، ويكون أفضل علاج معروف حتى يومنا هذا للعصاب الذي يمكن للتحليل أن يشفي منه ، أو أن يصلح جميع صوره . ولا بد من معرفة أن التحليل شيء مهم ، طويل المدة وباهظ التكاليف . والنتائج عميقة على الغالب : فالمرضى « يجد نفسه مجددا » ، ويكتسب أخلاقا جديدة ، لا أخلاقا اتفاقية أو عصابية ، ووعيا تاما بمسؤولياته الحقيقية ، في حين أن هذه المسؤوليات كانت من قبل منوطة على الغالب **بالأنا العليا** . انه يجد آليات جديدة تتيح له أن ينمي فاعلياته ويمدّها .

وهل ثمة مضادات للاستطباب في التحليل النفسي ؟ نعم . فالمرضى لا يمكن أن يتورط في وضع اجتماعي معقد ، ذلك أن التحليل « يضع كل شيء موضع التساؤل » . وعليه أن يتمتع بدكاء داخلي يتيح له أن يعرف ماذا يفعل ولماذا . يضاف الى هذا أن **التحليل ليس علاجاً مستعجلاً على الإطلاق** . وعلى هذا النحو انما يمكن للمرء ، في بعض الحالات ، أن يوفق بين التحليل والصدمة الكهربائية ، بين التحليل والعلاج النفسي الجماعي ، بين التحليل والعلاج السريري ، الخ .

والتحليل عمل في منتهى الدقة ، ما دام مخصصا لاستئصال البنسى المزيفة ، بنى الشخصية ( ونحن نجهل ان كان ثمة امكان لوجود بنى مزيفة فيها ! ) . والتحليل الناجح تمام النجاح ولادة حقيقة جديدة . وغني عن البيان أن التحليل لا يمكن أن يقوم به الا عالم نفس محلل خبير ، اذ انه يرمي الى تعديل علاقات الفرد بذاته وبالمجتمع ، اما بنزع طابعهما العصابي ، واما بجعلها تمتدّ وتعمق . وعلى أي حال ، يخرج المرء من التحليل متبدلاً و « بوجهة نظر » جديدة كل الجدة .

## ٦ - ماذا يحدث في أسرة من الأسر ؟

ماذا يحدث اذا شرع احد الزوجين في تحليل سيغيره تغييرا كبيرا ؟  
فمعظم الزوجات تحقق ضربا من « التوازن » بين شخصيتين : ولنضرب  
مثلا مبتدلا جدا : ان الرجل « القوي » ذو نزعة الى ان يتزوج امرأة  
« ضعيفة » ، والمرأة العدوانية تتزوج رجلا مخنثا ، والرجل المستبد  
يتزوج امرأة مازوخية<sup>(١)</sup> . فكثير من الزوجات تكون اذن ضربا من توازن  
التسوية ، ذي قاعدة عصابية على الاغلب . ونحن اذن نواجه الحكاية  
الخرافية ، اذا صح القول ، حكاية الاعمى والمقعد ... فماذا يحدث اذا  
استعاد الاعمى بصره ، او اذا شرع المقعد في المشي ... ؟

**ولنفرض** رجلا مستبدا يتغير تغيرا كبيرا عقب التحليل . فهو اذن  
يكفّ عن أن يكون مستبدا وعدوانيا ... لانه بكل بساطة تخلص من  
عصابه . وفي هذه الآونة ايها ، ينهار التوازن المزيف الذي كان يمثل  
زواجه . فهذا الرجل الذي كان ، من قبل ، بحاجة الى خضوع زوجته،  
لم يعد بحاجة اليه . ويمكن القول ، على وجه التقريب ، ان زوجته  
اصبحت غير مفيدة له من الناحية النفسية . انه لم يعد بحاجة الى  
« فريسته » . والخصائص التي كانت « متكاملة » لم تعد كذلك . فالزوج  
لم يعد مصابا بالعصاب ولم يعد يتألم ، وهذا امر مفهوم . ولكن زواجه  
لم يعد له معنى ، او ، على الاقل ، لم يعد له المعنى « العصابي » الذي  
كان له من قبل ! فما الحل ؟ قد يحدث غالبا ان تشرع زوجة ذكية ، هي  
ايضا ، في تحليل نفسي . وعندئذ نرى أزواجا ، تورطوا في زواج «عصابي»،  
ينفصلون ، بعد تحليل نفسي ، الى صورة أخرى من صور الزواج ، صورة  
متفتحة ومتوازنة ، مختلفة كل الاختلاف عن الصورة الاولى . وكل زوج  
من الزوجين يصبح « كاملا » بذاته . ويصبح القرين اضافة مجيدة على  
على وجه التقريب ، بدلا من ان يكون مكتملا لعصاب الآخر ... فهل هذا  
امر نادر ؟ انه اقل ندرة مما يمكن اعتقاده بكثير .

(١) تعني المازوخية هنا خضوعا مرهيا .

## ٧ - هل يمكن لمحلل نفسي ان يعالج زوجين في الوقت نفسه ؟

لا يمكن لمحلل نفسي ان يعالج زوجين في وقت واحد ، باستثناء حالات خاصة جدا كما قلت . واذا رغب احد الزوجين في الشروع بتحليل نفسي في الوقت الذي يشرع الآخر به ، فان المحلل يرسله دائما الى زميل من زملائه ، هذا اذا لم ينصح به بالترتيب الى ان يكون تحليل الاول قد اشرف على نهايته . وذلك امر يمكن فهمه جيدا . ولن يعطي محلل نفسي ابدا اتفه معلومات الى اي شخص كان . **ولن يستقبل اذن ابدا اي شخص قريب لمريضه .** فالسر ، في التحليل النفسي ، مطلق بالمعنى الذي يتصف بأنه اكثر تقديسا للكلمة . يضاف الى هذا ان المرء يدرك ادراكا جيدا انه اذا كان على المحلل ان يستقبل ( ولو لمرة واحدة ) شخصا قريبا للمريض ، فان ثمة تداخلات تنشأ مباشرة ، تداخلات تحكم على العلاج بالاخفاق . وذلك صحيح حتى ولو كان على المريض ان يسجل موافقته ( موافقة سرفضا للمحلل مع ذلك ) . وينبغي ان لا نأخذ الامر على اطلاقه مع ذلك . فكل شيء منوط بفهم الزوجين وذكائهما . ومن المرغوب فيه أحيانا تقديم بعض النصائح الى الزوج الذي لم يشرع في تحليل نفسي ، بهدف مساعدته على تبني موقف مقبول ازاء الآخر .

## ٨ - وما شان الدين في التحليل النفسي ؟

هل يمكن لاختصاصي في التحليل النفسي أن يحلل شخصا ينتسب الى دين او مذهب غير دينه او مذهبه ؟ انني أعتقد شخصا بالإيجاب . فالمحلل النفسي ينبغي ان يكون « خارج اطار » اي اخلاق تقليدية واي دين . ومن المؤكد أن بوسعه الانتماء الى جماعة دينية . ولكن عليه أن يكون قادرا على أن « يفصل قاطعة » شخصيته الخاصة عندما يعمل . وعليه أن يتخلص الى الحد الأقصى من الآراء المسبقة الطبيعية . وبمناسبة الراي المسبق الطبيعي ، أرغب في أن اتكلم على الافكار التي يكتسبها المرء بالتربية في بلد معين ، وفي ثقافة معينة ، وفي مناخ ديني معين . فالمحلل

ينبغي أن يكون « خارج هذه الأطر » ، وأن يحس باحترام مطلق إزاء كل شخصية ، مريضة أم سليمة ، ملحدة أم مؤمنة ، طفالية أم غير طفالية .

## ٩ - وما شأن الإيمان في التحليل النفسي ؟

يسمع المرء غالبا يقال : « هل صحيح أن التحليل النفسي يفقد المحلل إيمانه ؟ » .

ليس لهذا السؤال معنى أكثر من السؤال السابق .

فالتحليل مرصود لاستئصال العصاب ومنح شخصية أصيلة منحا جديدا . والتحليل يدفع بالوجود الانساني نحو كليته ، ونحو تلاؤم مرن مع الواقع . ولكن ، لنفرض أن شخصا يعتقد بأن لديه الإيمان ، في حين أن هذا « الإيمان » عرض عصابي ، وليكن ، على سبيل المثال ، اعتقادا باطلا ، أو إثمية مبالغيا فيها ، أو ضروبا من الرهاب ، أو وساوس مرضية ، أو طفالية ، الخ . ومن المؤكد عندئذ أن هذا **الإيمان المزيف** ، إيمان هذا الشخص ، يتلاشى في أثناء الطريق . **فكل شيء منوط إذن باصالة الإيمان وعمقه** . وثمة كثير من القسيسين الذين يباشرون تحليلا نفسيا . فلماذا ؟ انهم يباشرون ذلك بهدف معرفة أنفسهم معرفة أفضل ، أولا ، وبهدف أن يخرجوا « خارج أنفسهم » ، وبهدف اقضاء عصاب ، إذا كان لديهم عصاب ، وبهدف أن يصبحوا « مرتبطين بالآخرين » . وعلى أي حال ، ينبغي للكاهن أن يخرج من تحليل نفسي وقد أصبح كاهنا أصيلا ، وكاهنا واسع الأفق . ومن الممكن ، مع ذلك ، أن يبين لهذا الكاهن ، في أثناء الطريق ، أنه انضوى إلى الكهنوت بسبب عصاب ( وذلك بأفضل ما في العالم من إخلاص ) . أنه انضوى ، **على سبيل المثال** ، لأن عصابه وحصره كانا يدفعانه إلى الهروب من الواقع والمسؤوليات ، وإلى أن يتخندق في شريعة ، وإلى أن يعود إلى « رحم الأم » ( دير ، على سبيل المثال ) ، الخ . **فالإيمان المزيف** إذن ، إيمان هذا الكاهن ، يزول . ولكن من الممكن أن يكتشف في أعماق ذاته راقا دينيا قويا ، جديدا ، أروع ألف مرة من الراق القديم .



ويرى المرء اناسا كاثوليكين يخرجون من تحليل نفسي خير الكاثوليكين ... او يخرجون ملحدين . ولكنه يرى أيضا ملحدين يخرجون من تحليل نفسي مزودين بليمان راسخ مشع . فمن المتعذر اذن ، في البدء ، ان نحدد الهدف الذي يبلغه احد الكاثوليكين ، أو أي شخص ينتمي الى جماعة دينية معينة . ان التحليل النفسي ، كما ساقول لكم على الغالب ، مغامرة كبيرة . فهو « تكشف » صائر الى اقضاء الطفالات ، واعادة الاصاله وحالة الرشد لشخصية من الشخصيات . انه راس الرجاء الصالح في الحقيقة .

## ١٠ - هل التحليل يدمر ؟

يسمع المرء على الغالب يقال : من المحتمل ان يكون التحليل (١) شديد الخطر . ويسمع عندئذ حديثا عن تحليل فاشل ، وعن مرضى ينتحرون ، الخ . فما الممكن في كل ذلك ؟

من المؤكد ان التحليل النفسي يرمي الى « الهدم » لكي يبني . ولكن ، أي شيء يهدم لكي يبني أي شيء مجددا ؟ ومن المؤكد كذلك ان ملايين الناس يبلغون سن الرشد دون ان يعرفوا أبدا شخصيتهم الحقيقية ، وبالتالي دون ان يستخدموها أبدا . والحياة راكمت حثالات ، وضروبا من الكبت والكفّ والحصر ، الخ . ومن جميع هذه العوامل السلبية ، احتفى الشخص بمجموعة من البنى الفوقية التي « قرضت » في نهاية الامر شخصيته الحقيقية . فالتحليل يرمي اذن ، لا الى ان يرفع شيئا ما ، وانما الى ان يبعث ما يوجد مطمورا . والموجودات الانسانية متخمّة بامكانيات تجهلها جهلا الى الابد . والسبب ان هذه الموجودات اهتمت ، يوما بعد يوم ، بان تحتمي من ضروب من الحصر العميق ، وبان

(١) الاكثر باتي استخدم مصطلح « تحليل » سواء كان التحليل النفسي « فرويد » هو

المقصود ام علم النفس التحليلي ( يونغ ) .

ويقتضي الاسلوب ، في اللغة العربية احيانا ، ان نضيف الصفة « نسي » الى هذا

المصطلح « م » .

تمثل ادوارا عليها أن تتمهدها بالرعاية حتى لا تفرق في الحصر ، الخ .  
ويبين لكم هذا الكتاب ، في الحقيقة ، كيف أن الخوف ، الشعوري أو  
اللاشعوري ، يقرض الغالبية العظمى من الموجودات الانسانية . فليس  
هدف التحليل اذن ، بالتأكيد ، أن يدمر الشخصية الحقيقية ، وانما أن  
يحطم العصاب الذي يقوّض «الانا» الحقيقية . . . **عصا نحسبه الخلق**  
**الواقعي على الغالب** . ومن المؤكد كذلك أن هذا العمل الداخلي كله لا يتم  
دون اضطرابات عميقة . وسأبين لكم كيف أن تحليلا نفسيا ينتهي الى أن  
يربط ربطا متناغما بين اجزاء شخصية كانت من قبل مشتتة ومقسومة  
الى قطع متناقضة على الغالب .

## ١١ - تحليل المراهقين

يمكن تماما لمراهق من المراهقين أن يباشر تحليلا نفسيا كالراشد سواء  
بسواء . ومع ذلك ، ثمة صعوبة قصوى في انجاز هذا التحليل . فما  
السبب ؟ السبب أن المراهق يبقى ، بالنظر الى أنه قاصر ، تحت رقابة  
أبويه . والمحلل ، بالتالي ، ملزم بـ « اطلاق » الأبوين على العمل الذي يتم .  
وبناء عليه يتعذر احترام المبدأ المقدس للسرية المهنية والعلاج الفردي .  
فينشأ اذن ، على نحو سريع ، تداخلات بين الأبوين والمحلل ، وبين الأبوين  
والمراهق ، تداخلات تجعل من التحليل النفسي أمرا متعذرا من الناحية  
النفسية ، بالمعنى العميق للمصطلح .

## رابعا - بعض المسائل الأولى

### ١ - هل ينبغي أن يعتقد المرء بالتحليل لكي يباشره؟

لا بد على وجه الخصوص من أن يعرف المرء ما هو التحليل ، ولماذا  
يباشر تحليلا . فالتحليل عمل من أعمال التعاون الكثيف بين الاختصاصي  
ومريضه . انه مهمة لا تترضي أي سطحية من جانب المحلل ، ولا من  
جانب المريض . والتحليل ، قبل كل شيء ، بحث عميق يعني ضربا من  
بناء الشخصية أو إعادة بنائها .

## ٢ - هل ينبغي أن يختار المرء محلته ؟

نعم . واكرر ان التحليل النفسي تعاون دائم وصادق بصورة مطلقة . وهو يمثل حالة وحيدة في حياة . انه عمل تتسم الحرية في اثنائه بانها كلية . فمن الواضح اذن ان على المريض ان يثق ، منذ البدء ، ثقة قصوى بمحلته . كذلك على المحلل ان يثق بإمكانات مريضه . وليس للتحليل اذن صلة بالذكاء والثقافة والمستوى الاجتماعي ، الخ ، وانما تقتصر صلته على الذكاء الداخلي للمريض . والتحليل مدرسة تواضع قبل كل شيء .

## ٣ - هل العلاج السيكولوجي علاج طويل ؟

كل شيء منوط بالطريقة المستخدمة . فاذا كنا نتعامل مع طريقة سطحية يقدم فيها الاختصاصي نصائح وتوجيهات . كان العلاج قصيرا الى حد . بيد ان من المؤكد ان هذا العلاج لا يهاجم غير الاعراض . وعصاب المريض يبقى في الاعماق بكرة من الناحية العملية ، ويحتمل أن يولد أعراضا أخرى ، ولو أن المريض يتلاءم مع الحياة تلاؤما حسنا .

**ويدوم العمل في الاعماق زمنا طويلا .** ومن اليسير فهم ذلك . فاذا انحنت شجرة خلال سنين لتنجو من ربح عاتية ، كان من المؤكد ان ليس بالامكان تقويم هذه الشجرة دفعة واحدة ، تحت طائلة تحطيمها على الفور ( والريح هي التي ينبغي ازالتها مع ذلك ! ) . يضاف الى هذا ان **العصاب مرض** . والعصاب ، شأنه شأن أي مرض ، محاولة تبذلها العضوية لاعادة التوازن . فالعصاب حل من حلول التسوية . انه محاولة للتلاؤم الفاشل . والشخص ، طيلة سنين ، تعلق بضروب من الامن الداخلي المزيف . ولقد تعلق بكلاب مفروز في حائط حتى لا يقع في الهاوية التي كان يعتقد انها موجودة تحته . وعندما يباشر احد الاشخاص تحليلا ، كما سأقول لكم ايضا ، فانه يباشره بهدف استئصال **اعراض مؤلمة** في تسعين بالمئة من الحالات . والحال ان هذه الاعراض تتصف بأنها ، في الغالب ، على نقيض العصاب ذاته ، الموجود في الاعماق . ويتبين اذن ان **العضوية ترفض اذا**

أردنا ان نستبعد عصابا على وجه السرعة الكبيرة ، والنتيجة الوحيدة لعمل يتوخى ان يكون شديد السرعة هي ان يفوس المريض في ضروب من الحصر غير المحتمل ، تجعله يتعلق ، على نحو اشد ايضا ، بصنوف من الامن المزيف . ولنفرض ان سارقا مسلحا ( **ضروب الحصر اللاشعوري** ) موجودا خلف الباب المقفل ( **ضروب الامن ضد الحصر** ) ، وان جارك ( **المحلل** ) يريد ان يفتح هذا الباب بعنف ، دون ان يكون لديك السلاح الضروري ، فماذا تفعل ؟ انك قد تضيف بسرعة قفلين او ثلاثة ، وانت على صواب (١) . فعلى المحلل اذن ان « يحدد جرعة » عمله ، بفية تقدم متناغم للعلاج .

لا بد اذن من المضي في التحليل بهدوء . هذا هو السبب في ان تحليلا نفسيا كلاسيكيا يدوم ابدا من سنة الى سنتين على الاقل ، بمعدل مرة واحدة في الاسبوع على الاقل . وذلك يرعب كثيرا من الاشخاص . وهم على خطأ . فلنتخيل كسرا بسيطا : يعدّ كل فرد امرا طبيعيا ان من الضروري وضع العضو المكسور في الجبس لشهر او اكثر ، وان ساعات عديدة من التدريب لا بد منها ! وهذا الوضع ، وضع العضو المكسور في الجبس ، يعطي ، بمعدل اربع وعشرين ساعة في اليوم ، ما يقارب ثماني مئة ساعة ... ولكننا اذا فكرنا بان عصابا يكون « كسرا » في الشخصية كلها ، كسرا يدوم على الغالب منذ عدد كبير من السنين ، فانني لا ارى ما يوجب ان نندهش من ان تحليلا نفسيا عميقا يستلزم من خمسين الى مئتي ساعة . والحقيقة ان هذه الجلسات موزعة زمنيا : الامر الذي يعطي هذا الانطباع بطول المدة . وهذا هو السبب ، من جهة اخرى ، في ان تحليلا نفسيا لا يتصف بأنه علاج مستعجل على الاطلاق .

واذا لم يكن ثمة عصاب ، فهناك ، على الرغم من كل شيء ، ضرب من التصلب في السلوكات ، وفي اساليب الادراك والتفكير والعمل ، تصلب كان الآخرون ، من مربين وتربية بالمعنى الواسع ، قد أوجدوه ، وكان قد

---

(١) انظر « المريض يقاوم » ، في فصل « صوب منبع النهر » .

وجد بوصفه رد فعل ضد هؤلاء الآخرين . ومن الناحية العملية ، لا وجود لشخص بوسعه أن يدعي أنه سلك دربه الخاص به ، ما دام قد وقع ، منذ ولادته ، في النسيج العنكبوتي الضخم ، نسيج المجتمع ...

فلنكرّر إذن أن التحليل النفسي يتطلب ، بصورة نسبية ، زمنا زهيدا ، إذا ما قورن بتجبير كسر مبتذل . ومن المؤكد أيضا ، بالإضافة الى ذلك ، أن الحصول على نتائج التحليل الرائعة لا تقتضي الانتظار من عام الى عامين . فهذه النتائج تتجلى منذ أن تتحرر بعض الطاقات التي جمدها العصاب ، وتصبح جاهزة ، وتمزّز الشخصية . ومن جهة أخرى ، عندما يقضي المرء « في السجن » سنين عديدة ، وقد يبقى طيلة حياته ، الا يستأهل أن يقضي سنتين في صنع حريته ، لكي يتمتع بشخصية مستردة ؟

## ٤ - هل ثمة اتخاذ لقرارات بالغة الاهمية في اثناء التحليل ؟

الجواب مبدئيا بالنفي . ها هي ذي ، على سبيل المثال ، صبية تشرع في تحليل نفسي لانها تعاني ، وقد تمت خطوبتها للمرة الثانية ، حصرا مرعبا في كل مرة أمام الزواج الذي يقترب ، فترجىء عندئذ زواجها الى أجل غير مسمى ، ثم تلفيه . ومن الواضح إذن أن « ثمة شيئا ليس على ما يرام » . فماذا عليها أن تفعل ؟ وليس بوسع المحلل أن يقدم اليها نصيحة تتصف بأنها شخصية . أن على الصبية أن تتخذ القرار . ومن المؤكد ، والحال هذه ، أن هذه الصبية ستتغير : انها ستسائل كتلة من الاعراض العصابية . فما سيصبح عليه عندئذ زواج تقرّره بصورة مفاجئة كيما « تتجاوز » حصرها ؟ هذا الزواج سيكون فاشلا . فليس إذن الا بعد مرور بعض الزمن انما يمكن اتخاذ قرار جدير بهذا الاسم .

وينبغي ، من حيث المبدأ إذن ، أن لا تتخذ قرارات بالغة الاهمية في اثناء تحليل نفسي ، وانما ينبغي الانتظار الى أن تنطلق الشخصية الحرة .

وفي هذه الفترة ، يتخذ الشخص قرارا وهو يعرف جميع الوقائع . **وانه** الشعورية ، والارادية ، والعقلانية ، هي التي تقرر ، بدلا من أن توجهها ، كما كان الامر عليه من قبل ، دافعيات مزيفة .

## ه - وما شأن الوسط ؟

ماذا يحدث في وسط شخص يباشر تحليلا نفسيا ؟ من المؤكد أن التحليل النفسي لا يسلك دائما منحى منسجما . فالشخص ، خلال تحليل نفسي ، يرى نفسه « كما هو عليه » . وثمة ضروب من الحصر تصعد الى السطح ، ظلت حتى هذه اللحظة لاشعورية . والشخص يحتاز الشعور تدريجيا بمصابه ، ويدرك أن ما هو عليه لا ينطبق مع ما كان يعتقد انه عليه . ويتصور المرء اذن ، بصورة مباشرة ، أن ثمة اضطرابات تنشأ ، وأن المريض يمكن أن يكون ، لبعض الوقت ، عدوانيا ، ومصابا بالحصر ، وذا مزاج سيء ، الخ . ومن الواضح أن ذلك كله ينعكس على وسطه الذي يتصف فهمه بأنه ذو أهمية أولية . وقد قلت ، والحال هذه ، أن كل تحليل كان دائما تحليلا فرديا ، وليس مطروحا على بساط البحث مطلقا أن تمنح الى شخص من الوسط اتفه المعلومات . ويدرك المرء اذن أن على الوسط أن يتصف بفهم واسع جدا . انني ، من جهة أخرى ، استأنف المثال الذي ضربته فيما سبق . فإذا تزوجت امرأة شديدة الخضوع رجلا مستتبدا ، كنا نواجه زواجا عصابيا . وإذا كفت هذه المرأة عن أن تكون خاضعة ، فإن الزوج المستبد لا يكون راضيا ، بما أن « فريسته » افلتت منه . ولكن هذا الزوج سيدرك أن استبداده عصاب ، اذا كان ذكيا ، وليس ثمة ما يخشى في هذه الحالة .

ومن جهة أخرى ، ها هي ذي بعض الاسئلة ، التي تسمع على الغالب ، ذات العلاقة بمشكلة الوسط .

— بالنظر الى انني وديعة بصورة مزيفة ولطيفة بصورة مزيفة ( لانني خالفة ) ، ماذا ساكون بعد التحليل ؟ اولم اكتب عدوانيتي خلال ستين عديدة ؟ وهل ابقى مقبولة المعشر

بالنسبة الى أهلي خلال الزمن الذي تنطلق فيه هذه المدوانية المكتوبة ؟ وكيف ساكون  
إزاءهم بحسب احتياز الشعور بذاتي ؟

ولكن، اليس من الاجدر أن ابقي كما انا، حتى ولو اني اتالم، من أجل طمانينة زوجي،  
ما دام قد تزوجني بحسب مظاهري ؟

ولكن ثمة اعتبارات أخرى توطد التوازن :

- اذا نجحت في تحليلي ، ساصبح صادقا . ومن المحتمل عندئذ أن يتوافر الصداق  
العميق في صلاتي بأهلي .

- حسبي ، في اعتقادي ، ان انفي ، أنا ، لكي يتغير كل شيء حولي . ومن الطبيعي ان  
شع التوازن كذلك اذا كان الحصر ينتقل واذا كان المصاب ينعكس على تربية الاطفال .

وعلى أي حال ، ليس بوسعنا سوى أن ننصح وسط شخص يباشر  
تحليلا نفسيا ، سواء كان مصابا بالمصাব أم لا ، بأن يتركه هادئا وان  
لا يطرح عليه أي سؤال . فان تكلم الشخص على التحليل بصورة تلقائية ،  
فبه ونعم . وان لم يتكلم ، ذروه « يجد نفسه » على راحته ، وقولوا  
ان التحليل ، وان كان مغامرة رائعة ، خال من كل ما هو ممتع ما دام  
مستمرا ، نظرا الى انه « تنظيف » نفسي . . . فنحن اذن بعيدون عن علم  
النفس القليل الخبرة .

## ٦ - هل يتغير المرء عقب تحليل نفسي ؟

هل يتغير المرء عقب عمل سيكولوجي عميق ؟ نعم ، لانه يخرج منه  
مختلفا عما كان عليه . ومع ذلك ، فانه لا « يتغير » ، بل يجد نفسه كما  
كان ينبغي أن تكون . وهدف سيكولوجية الاعماق أن تنبش ما كان قد  
بقي مخبأ في قعر الشخصية ، ما كان مطمورا ، وغير مستخدم ، ومقنعا ،  
رموزوعا في حالة الانتظار . ذلك ان الواقع هو ان المرء يضيع في اثناء  
الطريق ، طريق الحياة . ويحاول كثير من الناس ان يتكيفوا معها تكيفا  
سببا على وجه التقرب ، بأن يحتموا وفق استطاعتهم ( بواسطة المصاب  
غالبا ، كما سنرى ) .

ويصبح المحلل ومريضه ، بصورة سريعة من جهة أخرى ، « اتحادا » من أروع الاتحادات : رفيقي طريق .

والمحلل يعرف الرحلة والمكائد والعواصف ، لانه واجهها . وسيكون على رفيقه ، بدوره ، ان يسلك الطريق التي يعرف المحلل انها ستنتهي بكاتدرائية .

ولكن الآخر لا يزال يجهل الدرب الحقيقي ، دونه ، لانه تاه ، خلال سنين ، في دروب غير معروفة ، حيث كان كل شيء ضبابا ، ومكائد ، وخوفا ، وأوهاما ، وتشوهات ، وحصرا ، مارا باستمرار الى جانب ذاته ، وواجدا أغلاله الطبيعية .

فهل هما ، اذن ، رفيقا طريق وحرية ؟ ...

## ٧ - هل بوسع المرء أن يكون جراح نفسه ؟

أقصد : هل بوسع المرء أن يحلل ذاته تحليلا نفسيا، وأن يباشر وحده تحليلا نفسيا ؟ ان المسألة ، أولا ، مسألة معرفة بالتأكيد . ولا يخطر ببال أي شخص أن يجري على نفسه عملية بتر عضو ... مع التسليم بأنه يعرف أين يوجد العضو . ثانيا ، أن يحلل المرء نفسه يعني أن « يرى نفسه » . والحال أن المرء قد يرى نفسه من خلال موشورات داخلية ، وسيميل سريعا الى أن يغمض عينيه . ولنتذكر ان الشخصية ( ولنفرض شخصا مصابا بالعصاب ) مسلحة بدفاعات لاشعورية . وقد يتعثر الشخص ، على نحو سريع ، بمجموعة من « السدود » التي تكون ضروب أمنه المزيف ، وبمجموعة من الارتاجات الداخلية . وقد يتجلى كل ذلك أنه غير ممكن التجاوز دون « ارشاد » خارجي .

يضاف الى هذا أن الناس لا يميّزون العرض من العصاب ذاته غالبا . وليس بوسع المرء وحده أن يدرك ضروب الكبت والعقد التي تتصف بانها لاشعورية . فالشخص الذي يباشر « تحليله النفسي الذاتي » ينتهي اذن ،



بصورة سريعة ، الى ان « يتخلص بمهارة » ، والى ان يبرّر نفسه في عينيه الخاصتين ، الامر الذي سيكون مفهوما جيدا ما دام ذلك يتبع له ان يفلت من حصره ، وان يطلق حكما على نفسه . يضاف الى هذا انه يتعرض الى خطر الوقوع في اعجاب مستهام بذاته ( امام مثل هذا « الكشف » الذي يعتقده مثيرا ) ، او في احتقار لذاته او كره لها (١) . . .

ان تحليلا نفسيا ذاتيا يفضي سريعا ، باختصار ، الى دروب مزيفة شديدة الخطر ، والى ضروب من الاستبطان اليرقية ، والى الوان كثيرة من الاجترار ، والى ضروب من فقدان الطاقة ، والى صنوف من الحصر الدائم ؛ الامر الذي يتصف بأنه على نقيض التحليل النفسي الحقيقي .

وهنا ، من جهة اخرى ، انما يجب ان نكرّر التحذيرات من تجار الاوهام ، ومن الوعود الاخرى ذات « النجوع في ثمانية ايام » . والوسائل الصغيرة من هذا النوع لا تتصف بأنها تفيد في شيء فحسب ، بل انها ضارة . يضاف الى هذا انها ضرب من رد الموجد الانساني الى ما لا يتصف به : الى محيط دون دائرة ولا مركز . وهي ايضا احتقار للحياة النفسية الانسانية انطلاقا من وجهات نظر ضيقة على نحو مرعب . وبوسع الاستغلال التجاري ، على هذا النحو ، ان يستند بسهولة الى اساليب قديمة تتصف بأنها من العصور الوسطى وحية دائما . انها صرارات(\*) علم النفس .

## ٨ - ولكن ما العمل ؟

ها هو ذا ، على سبيل المثال ، شخص يقول :

---

(١) الامر الذي يعني ان التحويل لن يكون موجها نحو المحلل، وانما نحو ذاته (انظر التحويل

الفصل الثامن ) ، محدثا غريبا من الوضع الذي يتلمذ فهمه .

(\*) صرارات : مفردا « صرار » ، حشرة من فصيلة الجددجيات ، تصر في الليل (م) .

- ذلك مستمر منذ بضع سنين . هاكم ما يحدث لي : أخرج من منزلي ، وابتمد حوالى خمسين مترا . ثم اتسائل ما اذا تركت شيئا من الأشياء يسقط مني على عتبة الباب ، في حين انني اعلم انه لا يوجد أي شيء . ولكن « ذلك اقوى مني » : فأعود على قدمي ، واتحقق . واستأنف ذهابي . ثم أعود وأنا استشيط غيظا لحماقتي . واتحقق . واستأنف ذهابي . وأعود ايضا مستخدما الف حيلة حتى لا يلاحظ المارة شيئا ... واتحقق مجددا . فكل شيء على التمام ( لقد فعلت ذلك من قبل ! ) اذا لم اصنع شيئا ما على عتبة الباب حتى يكون بوسعي ان اقول لنفسني : « هو ذاك . كان ثمة شيء من الأشياء . فالتقطه . وبهذا الأسلوب ، اتأكد انه لم يعد هناك شيء . » ويستهلك كل تحقق جديد زمنا اكبر من التحقق السابق بقليل . وادخل اصبعي بمضى الاحيان ، في زوايا الحجر ، في حين انني اعلم ان ليس ثمة شيء يمكن ان اكون قد فقدت فيها ، مع ذلك ! انه لامر بشع ! انني اضرب رأسي بالحيطان ، ولكن ليس ثمة حيلة . فلانا مدفوع الى ان افعل ذلك ، حتى الانتهاء الكامل ...

تلك حالة من حالات « هوس التحقق » . انه يلحق بضروب من « الهوس » الاخرى المنتشرة انتشارا كبيرا ، والخاصة بالتحقق من اغلاق الغاز والماء والكهرباء والابواب ، الخ .

وسيقول هذ الشخص : « ولكن ماذا بوسعي ان افعل ضد هذا الهوس ؟ » والحال ان هذا الهوس ليس الا عرضا في عداد اعراض اخرى . انه عرض يتصف ، بالنسبة الى الشخص ، بأنه مذهل ومنهك ... ولكنه عرض مع ذلك . ويجد المرء بالتأكيد مئات من السلوكات الاخرى ، اقل وضوحا ، ولكنها تعبر كلها عن اضطراب عميق في الشخصية كلها . وثمة احتمال كبير في ان هذا الشخص يعاني اثمية معممة ( ولاشعورية ) ، وله « أنا عليا » مسمومة (١) ، ويحس احساسا دائما بأنه « مخطيء » . وسنرى ذلك غالبا .

فما العمل اذن ؟ هل نشرح له الامر شرحا عقلانيا ؟ هل نقول له ان العرض غير السبب العميق نهائيا ؟ كيف تريدون ان يفهم المريض الآن

(١) انظر فصل « عندما الشيطان يقود الرقص » .

ذلك ما دام لا يعاني الا عرضه ؟ كيف تريدون ان يحتاز الشعور مباشرة بما هو مطبور في لاشعوره منذ سنين عديدة ؟ واذا قيل له انه بحاجة الى عرضه ، لان هوسه يتيج له ان يقول لنفسه : « فعلت ما يجب علي ، فليست اذن مخطئا ، بل انني حسب الاصول ، ولم يعد يجازف اي شخص بالحقد علي ، انني اذن لست مذنباً » ، ويستهيء بالاختصاصي ... وهو على صواب ، مؤقتاً على الاقل .

ماذا ينبغي ان نفعل اذن ؟ لا بد من ان نقوده الى ان يحتاز الشعور بما يحدث في اعماق شخصيته . فكيف ؟ هل نقول له ونكرر القول ان ذلك عبث ؟

سيكون هذا القول ، ببساطة ، قولاً احمق ، للسبب المقبول المتمثل في انه يعلم ذلك مثلما تعلمون ، وليس طلباً للذة انما ينهك نفسه بهذا الهوس . انستخدم الايحاء ؟ سيكون ذلك امراً مضحكاً : فالايحاء يظل سطحيًا ، في حين ان السبب في الاعماق . وسيكون ذلك شبيهاً بما لو مشطنا الحديقة بصورة لطيفة من اجل استئصال كتلة من الحجارة مطمورة على مئة متر عمقا .

انستخدم المحاكمة العقلية ؟ ولكن الا ينهك هذا الشخص نفسه وهو « يحاكم محاكمة عقلية » ؟ ومع ذلك ، يحتفظ الهوس بمرکز الصدارة . ووسط المريض ، من جهة اخرى ، لا يحرم نفسه من الادلاء براهه . فهو يصفه « بالمريض العصبي الفاقد الارادة » ، وبسخافات اخرى من هذا النوع . ولكن هل تعتقدون بان هذا الشخص لا يستخدم ، لكي يصارع ، مقدارا من الارادة يعجز عنه الآخرون ؟ وفضلاً عن ذلك ، ما موضوع المحاكمة العقلية ؟ هل هو العرض السطحي ؟ ولكن ، ولنكرر ذلك مرة اخرى أيضا ، كل شيء يحدث في الاعماق . وسيكون لهذا الانسان حق في ان يقول : « انني اعلم كل ذلك مثلما تعلمون ، ولم انتظر مواعظكم حتى احاول التخلص منه ! » .

كل ذلك يعني اذن ان من الضروري ان نبحث في المغاور اللاشعورية ، وأن المشاط الصغير لا يفيد في شيء على الاطلاق .

وهذا هو السبب في ان من الضروري ان يطلع الناس على سيكولوجية الاعماق .

# الفصل الثاني

## الاتصالات الأولى

### بالمحل النفسي

انني ، في كل جلسة من الجلسات ، على موعد مع نفسي .

( احد المرضى )

امر بسيط جدا : يحدث الاتصال الاول على الغالب بالهاتف . وعالم النفس ، بعد ذلك ، يستقبل الشخص ليقوم بضرب « من الايضاح » . والمقصود ان يرى من هو هذا الشخص ، وعما يبحث ، وفي اي شيء يرغب . وعندئذ يتكلم المريض على اعراضه التي يعانيها ، او - اذا لم يكن يعاني شيئا - على الدواعي التي تدعوه الى الرغبة في مباشرة عمل سيكولوجي او تحليل نفسي .

والمجال الذي ينفتح منذ الاتصالات الاولى واسع اذن . انه يمتد من علم النفس النصيحة الى التحليل النفسي العميق ، مروراً بالعلاج النفسي السطحي والنصائح العملية التي تقدم الى الزيجات السائرة الى الاخفاق ، الخ .

والدواعي التي تدعو كل شخص الى مباشرة عمل سيكولوجي ، او تحليل نفسي ، مختلفة بالتأكيد . واكرر : ذلك يمكن ان يمتد من مجرد طلب النصيحة الى سرد الاوضاع المأساوية او القديمة . هذا اذا لم يطلب الشخص مباشرة ، من علم النفس ، دون مواربات ، اعلى درجات مردوده :

— أود أن أبدا تحليلا نفسيا لاصبح الفضل كاهن ( او الفضل اب ، او الفضل طبيب ،  
او الفضل انسان ... ) .

فليس ثمة اي اتصال لا يتصف بأنه بليغ الاثر . والواقع انها الفترة  
التي يمكن فيها لشخص ان يقول لنفسه ، للمرة الاولى في حياته على  
الغالب :

— سأحاول ان اظهر نفسي كما انا ، وسأحاول ان اتغلى عن قناعي اذا كانت لدي القوة  
على ذلك . فاذا لم استطع ، فان معدني سيفهم قصدي ، ما وراء كلماتي وموقفي . وسأكون ،  
اخيرا ، على يقين بانني لن اكون موضع حكم ، ولا لوم ، ولا نقد ، ولا عقوبة . ولن اعرض ،  
للمرة الاولى ، الى أي خطر ، وبوسمي ان لا امثل . وسأحاول ان اقي عن كاهلي هذه  
الشخصية المزيفة التي التصقت بي سنين طويلة . فهذا الاتصال الاول سيكون اتصال الاخوف .

والاتصال الاول اتصال شخصي دائما ، حتى ولو ان المرء يباشر فيما  
بعد تحليلا دقيقا يصبح فيه المحلل « حياديا » . ولكن ، اذا كان عالم  
النفس يلاحظ الشخص الذي يستشير ، فعليه ان لا ينسى ابدا ان هذا  
الشخص يلاحظه كذلك ، وكل هوائياته موجّهة . وعلى عالم النفس اذن  
ان يكون جاهزا الى الحد الاقصى ، ويعلم ان كل « دور » يمثلته سيكتشفه  
طالب النصيحة بصورة لاشعورية ولكن بلا رحمة . وذلك حسن جدا على  
هذا النحو .

انهم اذن اناس يحاولون تحديد موقعهم في حياتهم . ثمة مسؤولون  
يقولون :

— لو ان « الناس » يعرفون الى أي حد لست غير شخص مسكين ، وكم انا خائف ..  
انه مدير كهل يقول :

— عمري ، يا سيدي ، اربعة وستون عاما . انني اشعر منذ اربعين عاما انني ملذّب  
ومصاب بالحصر بمجرد ان اتوقف عن العمل كما يعمل الحكوم بالاشغال الشاقة . ان هذا  
لضرب من الحق ، ولكنني انتظر احوالي على المعاش حتى احقق حلما قديما : ان اتعلم

العزف على الناي ... وسيكون ذلك ان اعلم الحرية لأول مرة في حياتي . ولكن هل اجروا  
ان اكون حرا ؟

انه رجل يقول :

— انني امشي ، من الناحية النفسية ، على عكازين . ولا يعلم احد من ذلك شيئا ، لان  
عكازي مذهيتان ، ولائي « نجحت » . اما انا ، فاني اعلم انهما عكازان ، واريد ان ارى  
نفسى كما انا ، وانت ترى انني اخاف دائما ان افقد عكازي ، وانني دائما ، على هذا النحو ،  
مصاب بالحصر . يضاف الى هذا انني ملكت من لدر الرماد في العيون ، في ميني وميوني  
الاخرين ، ومن الخوف ، متظاهرا على الدوام انني دائما دون اي خوف . واقمى عندك  
ان استعرض نفسي وارى نفسي في قيمتها الحقيقية ...

انهم شباب وشابات يقولون :

— كان لي ابوان هما من الإصابة بالمصاب ، وتلقيت تربية هي من الكتابة ، بحيث انني  
الغنى ، قبل كل شيء ، ان استرد شخصيتي الحقيقية ...

انهم ازواج وزوجات يريدون ان يجدوا انفسهم مجددا ، او يجدوا  
انفسهم للمرة الاولى . وانهم كذلك الاشخاص الذين نصنفهم تحت  
« السمات » التالية : المصابون بالوهن العصبي ، والمصابون بالوهن  
النفسي ، والموسوسون ...

من هم هؤلاء : هذا الرجل ، وهذه المرأة ، وهذه الصبية ؟ انهم كبار ،  
وصغار ، ومتوترون ، وعصبيون ، وقلقون ، ووقحون ، وساخرون ،  
وخاضعون ، ومحفوفون بضروب الدفاع . ويجرون وراءهم طفولة ،  
ومراهقة ، وكيسا متزعا بحكاياتهم . انهم متخمون بالافعال المتعكسة  
الدفاعية ، والعادات ، وانماط الحياة ، وضروب الحصر . وكل منهم  
مترامي الاطراف ووحيد . ولا يشبه اي منهم الآخر . وكثير منهم يجانبون  
طريقهم التي يبتغون ان يجدوها على وجه السرعة .

هل يعرفون ما هي سيكولوجية الاعماق ؟ بعضهم يعرف ، وآخرون  
لا يعرفون . وكثير منهم يعلمون ان الشخصية كلها ينبغي ان تتبدل .

وآخرون يأتون لرؤية محلل لانه فيل لهم « ان التحليل نافع » . وبعضهم يطلب نصيحة من النصائح عابرا ... ومن جهة اخرى ، ثمة بعض الاشخاص الذين يعتقدون بصورة ساذجة ، حتى وهم يلتزمون بتحليل نفسي عميق ، ان المحلل « سيكتشف طبعمهم » قائلا لهم : « انكم تتصفون بهذا العيب وهذه المزية » ، وهم يعتقدون بان المحلل سيعين لهم بطاقات ، لا تصلح لان تقول شيئا ، من النوع التالي : انت مغرور : عصبي ، او طيب ، او خبيث ، او مزهو ، او جريء ، او قوي ، او ضعيف ، او طماع ، الخ ، الخ . وذلك امر مضحك بالتأكيد ، وسيدرك الشخص بسرعة ان هذا ضرب من عدم التمييز بين الزبد والبحر .

## ١ - حالة مومو(\*)

ثمة اتصالات اولى ماساوية ترتدي مظاهر من التهريج الانساني . ساروي لكم واحدة منها . وستسول لكم انفسكم ان تضحكوا ، فلا تضحكوا . ذلك انها وان كانت ضربا من الكاريكاتور الماساوي ، قولوا ان ثمة نسخا ، تتصف قليلا او كثيرا بانها طبق الاصل ، منتشرة انتشارا واسعا . ان ضربا كاملا من الوقاية هو الموضوع موضع التساؤل : وقاية الاباء المصابين بالعصاب ، المستبدين ، والحاضنين ، والمشوّهي الرجولة ، ووقاية الابناء او البنات الذين ترتب عليهم ان يخفوا شخصياتهم بسبب الخوف الذي كان يلاحقهم .

**الشخصيات بحسب ترتيب دخولهم الى عيادتي :** المظلة ، ذات الراس المدبب وكانه رمح قضيب ، فالام ، فالابن ( او ما بقي منه على الاقل .. ) ، ثم الاب ( الذي اصبح شبعا ) . الام في حوالي الخمسين ، والابن في الخامسة والعشرين على وجه التقريب ، اما الاب ، فلا عمر له .

بدت عيادتي وكأنها تعاني ضربا من نقل اثارها . فتحة بحث عن مقاعد .

---

(\*) مومو : تصوير موريس « م » .

ومن عادتي ان استقبل شخصا وحدا لا اسطولا . وغاصت الام في مقعد .  
والآخران ، حسن ، ليتدبر الآخران أمريهما .

وساد الهدوء . ثم قالت الام لابنها بلهجة ملكية :

- اجلس هناك ، « يا كبيرى » ! امام « السيد عالم النفس » ، ليراه .

ثم توجهت بحديثها اليّ قائلة :

- يا سيدي ، اعتقدت من المفيد ان اصنع جدولاً بما جعلني ابني اعانيه منذ سنين .  
لقد فعلت كل شيء من أجله . فلماذا كانت مكافاتي ؟ كانت طبعه القلور . والتمنى ان يتزوج .  
ولمة صبية في « نيتي » . ولكنني عندما اتكلم عليها ، يعظم كل شيء !

وتوجهت بحديثها الى ابنتها :

- خذ الأوراق ، يا مومو ، واقراها على « السيد عالم النفس » ( كذا ) .

وانتظرت . ثم اضافت الام :

- انني افصل ان يقرأها بنفسه . هل تفهم ؟ وعلى هذا النحو ، ربما سيذكره ...  
وقال الابن ، وهو مسحوق من الخجل ، ومخصي الى الحد الاقصى ،  
وعاجز عن رد الفعل :

- ولكن يا امي ، انني ...

قالت الام :

- اقرأ يا مومو .

وشرع « مومو » ، ابن الخامسة والعشرين ، يقرأ كومة من الملاحظات .  
« منذ سن السادسة عشرة من عمره ، ابني ... » .

وقالت الام ، مقاطعة وكأنها المقصلة :

- هذا صحيح ، يا سيدي . انه لم يعد يفعل شيئاً في المدرسة منذ السادسة عشرة .  
انني افترض ان ثمة أسباباً . اليس كذلك ؟ انني ...

انني اتمعرّض للخطر بين خصمين ، وقلت :

- ولكن ابنتك ، يا سيدتي ، هو وحده الجدير بان يقول ما يحس به .



وبدا للابن شعاع من امل . اما الام فقالت :

— انتحاز اليه ؟ ولكني ...

ولم اعد اصفي . ولاحظت مومو : لقد كان يسحقه كره مكبوت وحصر ، وكان مريضاً بالعقد . ولحني بنظرات قصيرة ، متواطئة ومذمورة ، منتظراً كل شيء ، باستثناء اتصال دمرته ام حاضنة ، محبة ومستبدة ، ولم تفهم بالتأكيد اي شيء ابداً ، ويرافق ذلك على وجه الاحتمال ، اطيب ما في العالم من نوايا ...

وقالت لي الام :

— هل تستطيع ، يا سيدي ، « ان تمنحه » طبعا الفصل ؟ وهل تستطيع ، « بما اننا معا دائما » ، ان احضر الجلسات ؟

— هل تمزحين ، ياسيديتي ؟

— كيف ؟ اه ، حسن ! فليكن ، ساتصل بك هاتفيا بعد كل جلسة .

— متأسف ، ياسيديتي . ان ابنك راشد . فالسر الفردي اذن مطلق ، دون اي نقص ، ومن اي نوع كان . ومن غير المجدي اذن ان تتصلي هاتفيا بي . هل انا متأكد انك فهمت ؟

واجابت الام :

— اذا كان الامر على هذا النحو ... ولكني اخال ان ليس بوسع اي ابن ان يكون له اسرار بالنسبة الى امه . ساذهب لرؤية من « بهزه » . انني نصيرة الحلول الحاسمة .

ويقول المرء لنفسه : « انها ، بالفعل ، نصيرة الحلول الحاسمة حتى الخضاء الكامل ، وربما النهائي ... »

ونهضوا . ونظر الي الابن ، وكشف عن قصده سريعا : « ساتصل بك هاتفيا » .

وخرجوا ، بالترتيب : المظلة ، فالام المفترسة ، فالابن المفترس ، ثم الاب الذي يظهر بمظهر من فقد تجسده المادي .

والمظلة وحدها هي التي احتفظت بشخصيتها من بينهم جميعا .

ولم يتصل مومو بالهاتف ابدا .  
فهل أمكن له ان يصبح موريس منذ بعض السنين ؟

## ٢ - ماذا يعرف المريض ؟

انه ، على وجه العموم ، يعرف من علم النفس ما قراه او تعلمه . فكل شيء اذن منوط بمصادر معلوماته ( كتب ومجلات جيدة أو رديئة ، الخ ) . وكل شيء منوط بما يتصف به الشخص ، وعما يبحث . لقد انتشر مصطلح العلاج النفسي انتشارا كافيا . ولكن ، ما المقصود بالنسبة الى كثير من الناس ؟ المقصود به ، بالنسبة الى بعضهم ، تشجيع من نوع : « لا تزعج نفسك ، ابذل جهدا ، وكل شيء سيتحسن » ، الامر الذي يتصف بأنه عبث ويطابق ما يستخدمه من « علم النفس مركز رعاية الجانحين » . ويعرف آخرون ان المقصود هو البحث عن اسباب الالم ، ولكنهم يجهلون كيف يتم هذا البحث . او ان بعضهم يعتقد ان قوام علم النفس « تحليل الطبع » ، ولكنهم لا يدركون ان علم النفس السريري غير ذي صلة بالروايز .

ولكن الامور تسير على اسوأ حال عندما التحليل النفسي يكون موضوع الحديث . فالمصطلح انتشر انتشار تثار من البارود ، ولكن قراءة بعض المجلات ذات الانتشار الواسع تكفي حتى يصاب المرء بالذهول . انه يقرأ فيها امورا من نوع : « في عرين المحلل النفسي » ... او ان بعض المجلات تتكلم على « سفرة مثيرة نحو اللاشعور في ظلام عيادة المحلل النفسي » (!) ، او « عند اطباء النفس ذوي الاسرار العجيبة » ( اي نعم ... ) . وعندئذ يقرأ المرء خليطا هائلا لا يعلم ما إذا كان تدبيج صحفي ثمل ، او مشتغل بالامور الغيبية اعماه السكر . بل لا يتساءلون ما إذا كان هذا « الظلام » ليس ضوعا خافتا ... هدفه بكل بساطة ان لا يصاب المريض بتورم في عينيه ، وذلك شبيه على وجه الدقة بما يحدث في البيت عندما ينال الانسان قسطا من الراحة . وبالاختصار ، ثمة الكثير من الحماقات .

ومع ذلك ، فان هؤلاء الاشخاص ، الذين يتصفون بأن اطلاعهم أسوأ ما يمكن ، ينجحون على الغالب في تحليلهم النفسي نجاحا باهراً ، الامر الذي يعني ان « المناخ » يفهمه على نحو سريع من يفوص فيه .

أو اننا نسمع يقال : « ينقضي الزمن ، في التحليل النفسي ، بالبحث عما جرى في سن الثالثة » . وذلك أمر يتصف أيضاً بأنه مضحك . وسنرى السبب فيما بعد . ولكن ينبغي التفكير ، مع ذلك ، بأن أي عصاب ينجم عن حياة تمتد على مدى سنين ، وبأن الطفولة ، وإن كانت ذات أهمية ، لا تفوق باقي الحياة أهمية . فليس العصاب « بقية » الطفولة ، وإنما هو مرض تعهده الفرد بالرعاية على نحو لاشعوري ( انظر فصل : الإنسان المصاب بالعصاب ) .

ويتصف بعض المرضى ، على العكس ، بأنهم على اطلاع واسع ، اما لانهم معنيون على نحو عميق بعلم النفس ، واما لانهم درسوه بمعناه « الاكاديمي » ( كالأطباء ، والمجازين بعلم النفس أو بعلم التربية ، الخ ) . بل ان بعضهم يعرف المؤلفات الأساسية الكبرى عن ظهر قلب على وجه التقريب . ومع ذلك ، يتعذر أن يعرف المرء ما يتصف به عمل سيكولوجي عميق دون ان يكون قد « أمضى زمناً في المختبر » ، للسبب البسيط المتمثل في ان العمل السيكولوجي العميق تجربة وحيدة غير ممكنة الوصف ، وإن الجهود الكبيرة – وحتى تلك التي أبدلها في هذه الفترة – لا تفلح أبداً في شرح « المناخ » العميق ، الشاق والبناء بناء جديداً ، مناخ التحليل النفسي .

### ٣ – لنعد الى الاتصالات الاولى

العمل في الاعماق عمل انقلابي على الغالب . . . بمعنى انه يقلب البنى المزيفة ، بنى الشخصية ، لكي يستخلص الموجود الاصيل . انه سيبحث ، تحت القشرة السطحية ، عن الجذور الفاسدة ، والحصى غير المفيدة ، والحجم المكذبة ، كيما يبلغ الينابيع المسدودة التي كنت قد تحدثت اليكم عنها .

## ثمة أشخاص يتساءلون بحق :

- اذا تغيرت ، واذا استمدت شخصيتي الحقيقية ، كيف استطيع ان اقدم ايضا مع كل ما احببته زمنا طويلا ؟
- انني مصاب بالمصاب ، ولكن هذا المصاب الزمني بان اميش واختار واتزوج او اعمل بهذا الاسلوب او ذاك . ان يبقى لي ، بعد تحليلي النفسي ، غير الرماد ؟
- بلغت الاربعين من عمري ، ولكنني بقيت بنتا صغيرة مترعة بالخوف . واعتقد ان ذلك يروق لزوجي ... ماذا سيصبح عليه زوجي اذا استمدت شخصيتي الحقيقية ؟

يمكن بالتأكيد ان نذكر من الامثلة ما لا يحصى . ولكن هذه المسائل تدل على خوف معين يعانيه بعض الاشخاص ، خوف من ان يستعيدوا شخصيتهم الحقيقية ، الامر الذي يبين جيدا كيف امكن لرؤية حياتهم ونوائها ان يكونا مزيفين ، ومنحرفين ، وناقصين ، طيلة سنين عديدة .

وعلى الرغم من كل شيء ، فان هذه المسائل وثيقة الصلة بالموضوع جدا . وها هو ذا مثال يجعل ذلك مفهوما على نحو افضل .

## حالة جان

قال جان :

- يرغب طبيبي ان ابشر تحليلا نفسيا . وانا ايضا اتمنى ذلك كثيرا . انني مصاب بالوهن العصبي ، وفالقد الادادة ، ولا اميل الى شيء . وانا عاجز من الناحية الجنسية . وليس لي من الوجود غير الرسم ، فالرسم ، بالنسبة لي ، هو الدامي الوحيد للحياة ، اريد ان اشفى ، واستعيد شخصيتي الحقيقية ، وان لا اكون مصابا بالحصر بعد . ولكن هل امل ان لا «تقول» قدرتي على الرسم ؟ انني بغضها انما استطعت ان استمر في الحياة..

فماذا يحدث؟اولا ،ننظر جان الى المستقبل بحسب ما هو عليه حاليا . فهذا ليس له اذن اي معنى ، مثلما ان اعمى بالولادة لا يمكن له ان يتنبا

قبل العملية كيف يرى الالوان بعد شهر منها . كذلك لن يكون جان في المستقبل ما هو عليه حاليا . انه سيرى الاشياء والناس من وجهة نظر مختلفة .

فهو « يتعلق » حاليا بقدرته على الرسم وكأنه يتعلق بعوامة انقاذ . ولكن ماذا يحدث يوم لم يعد بحاجة الى عوامة انقاذ ؟ ومن الواضح انه سيكفّ عن الرسم عندما يزول العصاب ان كان تعلقه بالرسم ناشئا ، على سبيل الحصر ، من كونه مصابا بالمصাব ( والحالة ليست متوافرة في هذا المثال ) .

ولكن لئلا العاقبة . وصل جان الى عيادة المحلل بعد انقضاء فترة من الزمن وقال :

« انتي مصاب بالجنون ... فانما لم اعد ارسـم منذ شهر ... والاشتر الثرة للرب اني لا ارجو لي الرسم ... نمة لامبالاة كاملة ... وليس انقطاعي عن الرسم هو الذي يجعلني بالسا ، وانما كون ذلك يدعني لامباليا الى هذا الحد ... »

فماذا يحدث ؟ كان الرسم يمثل ، بالنسبة الى هذا الرجل ، ضربا من الهروب والملاذ . فكان اذن « باعته على الحياة » ، ولكنه باعته منظور اليه نظرة خاطئة . وكان الرسم يحول بينه وبين ان يفرق في اليأس . وكان قد شرع في تحليل نفسي لكي يستاصل اعراضا مؤلمة . **والحال** ، كما سابقت على الغالب ، ان التحليل يوجه الشخصية بصورة كلية توجيهها **جديدا** . وتزول الاعراض بالتاكيد في الوقت ذاته .

**وكان الرسم ضربا من العرض المصابي ، وضربا من التعويض والتعلق** ، في حالة هذا الرسام . فلماذا انقطع عن الرسم ؟ لقد انقطع عن الرسم لانه لم يعد ، اذا تكلمنا من الناحية المصابية ، **بحاجة** الى ان يرسم . فلماذا ؟ لان اناه تتمزّر ، ولانه يشرع في التلاؤم مع الواقع ، ولم يعد بحاجة الى ان « يلجا » الى الرسم . ولماذا كان مذعورا من لامبالاته ازاء ما كان « باعته على الحياة » ؟ لانه شبيه بمشلول يلقي ، وهو يبدأ فجأة في السير منتصبا ، نظرة قلقة على عكازين سنداه خلال سنين عديدة .

وبعبارة أخرى : كان جان يتعلق بوسائل أمن ... بدا قادرا على الاستغناء عنها .

وهل استأنف الرسم جان ؟ نعم ، لانه رسام حقا . ولكنه فعل ذلك بأسلوب مختلف كل الاختلاف ، أسلوب كان يعبر عن شخصيته الجديدة ( والحقيقية ! ) . لقد حدث له اذن ضرب من التوقف المؤقت ، ضرب من « فقدان الارتكاز » ، الذي كان جان خلاله « بين كرسيين » : شخصيته القديمة ( المصابة بالعصاب ) وشخصيته الجديدة ( الراشدة والاصيلة ) .

وما حدث لجان يحدث للجميع . فقد يفقد رجل ايمانه ... اذا كان المقصود به « هربا » عصابيا ، بيد أن بوسعه تنميته بصورة كبيرة اذا كان هذا الايمان أصيلا ، الخ . ويمكن لاسرة أن تعاني صعوبات ضخمة، وبخاصة اذا كان الزوجان مصابين بعصاب . ولنضرب مثلا سبق أن ضربناه : حالة رجل عدواني ( مصاب بعصاب اذن ) يتزوج امرأة مغالية في الخضوع ( مصابة بعصاب اذن ) . فاذا شرع الرجل في تحليل نفسي ، تزول عدوانيته ( اذ انه يكفّ عن أن يكون مصابا بعصاب ) . ولكن « مازوخية » الزوجة عندئذ لم تعد تجد تغذية ، ما دامت لم تعد مسحوقة بفعل الزوج ! وما الحل ؟ الحل ان يشرع الزوجان في تحليل نفسي . وعندئذ تستأنف الاسرة حياتها على قواعد جديدة وعلى حب صادق ، بدلا من ان تخبّ ، كيغما اتفق ، على عصابين يكمل أحدهما الآخر .

ولكن ماذا يبقى للمرأة اذا فقد « باعثا على الحياة » عصابيا ؟ ان المسألة ليس لها معنى ، ما دام هذا الباعث على الحياة كان مزيّغا ، وان الشخص ، من جانب آخر ، يصبح من القوة مرة ثانية بحيث يستطيع الاستغناء عن ضروب تعلقه وطفالاته وعكازيه .

ويدرك المرء عدد الاضطرابات المؤقتة - والمؤلمة على الغالب - التي قد يسببها تحليل نفسي . ولكي نعود الى جان نقول :

- قبل التحليل ، كان يلتجئ الى الرسم ، بوصفه معذبا .

— بعد التحليل ، عتبر عن نفسه بواسطة الرسم ، بوصفه سعيدا .  
الامر الذي يختلف ، كما ترون ، اختلافا عظيما .

## ٤ — ولكن ماذا سيبقى لي ؟

هذا السؤال هو العاقبة المنطقية لما سبق . ويمكن اذن لمن يباشر عملا سيكولوجيا أن يطرح على نفسه ما يلي :

— تساعدني ظروف تعويضي على ان اميش . فلماذا يبقى لي اذا زالت هذه الظروف من التعويض ؟

ومن المؤكد ان هذا السؤال وثيق الصلة بالموضوع . فالموجود الانساني يبلغ في بعض الاحيان عمرا لا ينطرح فيه على بساط البحث أن تنزع منه ظروف تعويض ذات اهمية ، وانما ان تجعل متوازنة بالحري .

ومع ذلك ، لشر الحالات الاكثر غلبة . فكثير من الاشخاص يشعرون في تحليل نفسي لاستئصال عصاب . ومن يقول عصاب ، يقول بصورة آلية ان ثمة ضروبا من **التعويض** . انني اضرب كذلك مثلا هو المثل نفسه دائما ، ذلك انه يجعل المرء افضل فهما . ولا بد من التفكير بان الامر لا يتصف ابداً بأنه على هذه الدرجة من البساطة في الواقع .

لنفرض اذن شخصا **عدوانيا** . هذه العدوانية تمثل تعويضا عن الخوف . والعدواني عوّض عن ضعفه بقوة مزيفة ، وعوّض عن حصره بظاهر من الاطمئنان الكبير . فالعدوانية اذن ضرب من **الحاجة** ، وضرب من **الامن** . ولكن ماذا يحدث اذا رفع التحليل النفسي عدوانيته ؟

هنا انما يتصف السؤال بأنه لم يعد له معنى . **ذلك ان العدوانية ليست هي التي تم رفعها ، بل الحاجة الى العدوانية** . وليست العدوانية هي التي يقتلها التحليل النفسي ، بل **الخوف** . ويتبين اذن ان العدوانية تزول من ذاتها اذا تم اقضاء الخوف . . . **اذ ان الشخص لن يكون بحاجة**

**اليها .** ويمكن القول ان الحصن الذي تحفّ به المدافع لم يعد له اي مبرر للوجود عندما لم يعد الخطر موجودا ، وقس على ذلك جميع الآليات العصابية . ( انظر من جهة اخرى ، مثلا اكثر تعقيدا في فصل « نحو منبع النهر » : مثل رجل عاجز من الناحية الجنسية لانه يحتاج الى ان يكون كذلك ) .

**ثمة موازنة** اسوقها غالبا : ليس الصديد هو الذي يجب نزعها ، بل الشوكة التي اثارته تعبئة الصديد . فاذا رفعت الشوكة ، لم يعد للصديد مبرر للوجود . وسنرى ان ذلك امر رئيس في فهم العصاب الذي يتصف بأنه مرض كاي مرض آخر ويخضع للقوانين ذاتها(١) .

## ٥ - تشخيص المريض

قد يحدث غالبا ان يطرح أشخاص قرووا كتيباً في التحليل النفسي تشخيصاً « دقيقاً » ، فيقولون :

— اريد أن ابشر تحليلا . انني اعاني ... ( عقدة أوديب على سبيل المثال ) .

ويقف المحلل موقف الحذر ، وهو على صواب . أولا ، لان من المتعذر « جمع » تشخيص انساني على عجل . ثانيا ، قد يحدث في اغلب الاحيان أن يأمل شخص من الاشخاص في امكان « الافلات » من نزول اكثر عمقا في ذاته عندما يطرح المشكلة طرحا واضحا . انه يرغب تماما في الشفاء من بعض الامور ... شريطة ان لا يكون ملزما بأن يضع ذاته كليا موضع التساؤل . ان هذا بالتأكيد يتصف بأنه انساني ، منذ أن يتقدم التحليل ، ويستقرّ ضرب من الثقة بين رفيقي « المفامرة الكبرى » .

---

(١) انظر فصل « الانسان العصاب بالعصاب » .





## الفصل الثالث

### البدايات الأولى في تحليل نفسي

لدى المريض ، في البدء وخلال زمن طويل في بعض الاحيان ، انطباع بان المحلل « ساحر » عليه أن يفعل كل شيء « بمفرده » . ولا يدرك بعد الى اي مدى ينبغي لمشاركته أن تكون فاعلة . انه ميال الى أن ينظر الى المحلل على انه كلي القدرة والقوة ، شانه في ذلك شأن الطفل الذي ينظر الى الاب على انه لا يتعلم عليه شيء .

وينتظر أشخاص آخرون ، كما سبق القول ، أن « يكشف » لهم المحلل : « انك تتصف بهذا الطبع ، بذلك المزاج ، بهذه الصفات او العيوب ، الخ » . او انهم يرغبون في أن يشجع المحلل ، ويهتئ ، ويقدم توجيهات ونصائح . والحال أن التشجيع قد يكون احياء سطحيًا لا قيمة له . يضاف الى ذلك أن هذا احياء لا يحترم شخصية المريض ، وقد ينفع فيه شيئًا لا يوجد لديه أيضا .

فعلى المريض اذن أن يدرك أن النجاح منوط بتعاون في العمق . ذلك أن قعر البشر هو المهم ، وليس ماء السطح .

ولنتخيل ، من جهة أخرى ، حوارًا بين صديقين لم يعرض على بدء احدهما تحليلًا دقيقًا سوى وقت قصير ، دون أن يفهم معناه بعد .

— هل تعلم ؟ لقد بدأت أمس تحليلًا !

— آه ؟ وماذا يقول المحلل ؟

— لا شيء .

— ولا كلمة ؟ ألم يقل لك أن ذلك سيسير على ما يرام ؟ ألم يقل لك ما كنت عليه ؟ ألم يكشف لك عن طبيعتك ؟

— لم يقل كلمة واحدة .

— وانت ؟

— وأنا ؟ كان عليّ أن أقول كل ما كان يخطر في ذهني .

— أي شيء ؟ وكيفما اتفق ؟

— نعم ، بصورة حرة .

— وما جدوى ذلك ؟

— لم أر جدوى من ذلك بعد . انني افترض أن المحلل « رازني » ، وكوّن تشخيصه ...

— وعندما خرجت من العيادة ؟

— قال لي « الى اللقاء » ، دون أن يضيف شيئا .

ماذا سيحدث بسرعة ؟ ان الشخص الذي « يبدأ » تحليلا سي طرح أسئلة من نوع : ماذا كان رأي المحلل بي ؟ ... لقد غششت وشوّهت الحقيقة ، فهل كان نافذ البصر ؟ ... كيف ينظر الي ؟ هل كنت موضع اعجابه ؟ ايجترني ؟ هل قمت جيدا بما كان يريد مني ؟ كان مظهره جافا عندما ذهب ( او ، كان مظهره وديا ، لطيفا ، خبيثا ، لامباليا ، غافلا ، الخ )

ويتبين اذن أن المريض يسقط بعض العواطف على المحلل منذ البداية ، فيعزو اليه سلوكات لا وجود لها لديه ، كالجفاف ، والمزاج الكدر ، والاعجاب ، والاحتقار ، الخ . ولنفرض مريضا يخاف من الغير ، وبالتالي مريضا خجولا ، يعاني مشاعر الدونية أو العدوانية ، الخ . ومن المؤكد أن هذا المريض « سيركز » عواطفه على المحلل . وسيكون لديه ، على سبيل المثال ، انطباع بأن المحلل « يترصده » ، ويحكم عليه بقسوة ،

و « ينقبه الى اعماق نفسه » ، الخ . فامام صمت المحلل ، ليس لدى المريض اي صوت من الصوى ، ولا شيء يعطيه « حرارة » الجلسة . انه وحيد مع ذاته . وسنعرض من جهة أخرى بعض الامثلة والمستخلصات من الجلسات فيما بعد .

وستظهر على نحو سريع بعض ضروب الحصر . وهي ضروب تركز على اسئلة يطرحها المريض على نفسه بصورة لاشعورية : « اوليس المحلل غاضبا ؟ الم اكن غير مهذب عندما غادرت ؟ الم يزعجه الكلام الذي قلته ؟ الم اكشف عن نفسي وفقا لوجهة نظر غير ملائمة ؟

ثمة شعور بالاثم يبدو على هذا النحو . وعندئذ قد يحدث غالبا أن يهتف مريض الى المحلل بحجة من الحجج ، كالتحقق من موعد مثلا . فهل ذلك هو الباعث الحقيقي ؟ من النادر أن يكون الامر كذلك . والمريض ، عندما يتصل هاتفيا ، يبحث بصورة لاشعورية عن التحقق من أن المحلل غير « غاضب » ، ولا « يحقد » عليه ، الخ . فواقعة كون المريض يعتقد في نفسه أن المحلل يلومه تجعله يفوس في الحصر . والاتصال الهاتفي يزيل الحصر ، اذ أن المحلل يجيبه « بلطف » . . . فنحن اذن ازاء فعل يعانیه المريض مئات المرات يوميا ، ودون أن يدرك ذلك على الغالب .

### — وماذا بعد ؟

على المريض ، في الجلسة التالية ، أن يتكلم على عواطفه التي شعر بها بعد الجلسة السابقة . وثمة هنا آلاف من التشعبات التي تتصف الان بأنها ممكنة . فهل يقول على هذا النحو ، بسرعة كبيرة ، انه كان مصابا بالحصر لانه ارتكب « حماقة » ؟ وانه كان « سيء المزاج » دون أن يعرف السبب ؟ وانه تصرف « كما يتصرف طفل » . . . الامر الذي يتيح الان اكتشاف بعض الآليات اللاشعورية ؟ ولنضع انفسنا مكان أحد المرضى . انه يفكر :

— عليّ أن اقول اني كنت ، آخر مرة ، مصابا بالحصر ومرتبكا لحماقة

ارتكبتها ... لانني لم اكن موقنا بانني كنت مهذبا بما فيه الكفاية ...  
هذه الفكرة لاحقتني خلال ساعات ... وعلي ان اقول اني كنت خائفا من  
فقدان الاعتبار خوفا فظيما ... وخائفا من ان ابدو كما انا ... علي ان  
اخرج اقمعتي ... الخ .

انه يفكر بذلك ، ولكنه لا يقوله . ثم انه على الغالب يتكلم على كل  
شيء لكي يتجنب ، مرة اخرى ، ان « يبدو على نحو غير ملائم » . وتستمر  
اللعبة ... وتتم بالتدرج ضروب النزول الاولى نحو كهوف الاشعور .  
وها هو ذا ، على سبيل المثال ، ما كان يقوله احد المرضى في الجلسة  
الثالثة من التحليل :

– هل تعلم ؟ انها حماقة ، اليس كذلك ؟ ولكن ثمة رد فعل منير شعرت به بعد الجلسة  
الاولى ! انه مع ذلك الامر مضحك ان يكون بوسع الاشعور على هذا النحو ان يحتال علينا نحن .  
وهنا يبدأ المريض بالحديث عن ردود فعله ( انظر فيما سبق ) ، ولكن  
لنلاحظ ما يقوله :

– هل تعلم ؟ انه يستجوب المحلل ويستشهد به ... الامر الذي  
يجنبه الانطباع المؤلم بأنه شبيه بطفل « مذنب » يتهم نفسه . وهو  
يأمل على هذا النحو برضى المحلل ، الامر الذي يطمئنه ( رضى لا  
يتحقق ) .

– انها حماقة ؟ يكفّ المريض عن ان يكون متضامنا مع لاشعوره . انه  
يحاول الاحتفاظ بـ « تفوقه » . وهذا شبيه بما لو كان يقول : « جميع  
هذه التصرفات الصبانية التي تحدث فيّ ليست انا » .

– صغير . يحاول المريض ان يحتفظ بتفوقه ... وبالتالي ان يتجنب  
الحصر .

– مضحك . الشيء نفسه . فالمريض يريد ان يشعرنا بأنه يحتقر  
لاشعوره . وما يضره هو : « ثمة مع ذلك اجتياز لمرحلة التصرفات  
الصبانية » ! بحث عن التفوق مرة اخرى .

— نحن . المريض يستخدم المحلل . وما يضره هو : « **يحتال عليك**  
لأشعورك أيضا ... نحن جميعا متشابهون ... » ويبحث المريض مجددا  
عن استحسان المحلل حتى يكون مطمئنا ويفلت من الحصر .

يمكن للمرء الآن أن يدرك أن بوسع الفكر ، منذ البداية ، أن « ينطلق »  
في آلاف من الاتجاهات ، ويمكن للمثال المضروب أعلاه أن يجعلنا نعتقد  
أن المحلل « يترصد » ويقضي وقته في تحليل أدنى كلمة . وليست هذه  
هي الحال . **ولكن المحلل يقلل حاضرا في كل ثانية من كل جلسة ، بكل  
فهمه ، وبحته وجاهزته ، ورأسه الانساني .**

انت حر اذن اذا باشرت تحليلا نفسيا . حر في ان تتكلم او تصمت ،  
وفي ان تكون ساخرا او عدوانيا ، وفي ان تذكر أعراضك او ذكريات  
الطفولة . وانت حر في ان تبقى صامتا خلال نصف ساعة ، وأن تفكر  
بعدوانية أنك تضيع وقتك ، أو أن تعتقد بحصر أنك تضيع وقت المحلل .  
وسنرى أمثلة على ذلك فيما بعد .

كل فرد يبدأ وفق ما هو عليه ، اذ أن بوسعك أن تقول كل ما يخطر  
ببالك ، وثمة عدة « حواجز » تتدخل بسرعة : **الاخلاق** ( اذا ظننت أن  
شيئا ما يتصف بأنه « بشع » لا تجرؤ على قوله ، في حين أن ليس ثمة  
شيء بشع أو جميل في علم النفس ) ، **والعقل** ( اذا اعتقدت أنها « سخافات »  
على سبيل المثال ، في حين أن للسخافات في التحليل ، على الغالب ، من  
القيمة أكثر مما لأروع المحاكمات العقلية في العالم ) ، **والذكريات المؤلمة**  
التي يفضل المرء أن يحتفظ بها لنفسه ، الخ .

والمريض « يتوقف » ، على الغالب ، عند حصر أو عند كبت (١) .  
فإنكاره تغير دربها ، وتعود ، وتذهب ثانية ، وتتوقف ، وترتبط  
بتداعيات ، وتمسك بذكرى ، وتعلمس . ويبدو الانفعال والعدوانية والحصر  
سرعا . ليس ذلك أمرا طبعيا ؟ ان كل شيء ينبغي أن يقال ، كل ما يخطر

---

(١) انظر الكبت في الفصل الثالث عشر .

بالبال ، وكل ما يجول في الراس . وهدف المريض من كونه يخضع للتحليل ان يتغير ، وان يستعيد ذاته . فعليه ان يتخلى عن كثير من اساليب الادراك والتفكير وعن كثير من الاوهام حول ذاته ، بوصفها اثوابا قديمة . وعليه ان يهجر طفالاته لكي يبلغ سن الرشد .

هل هو امر صعب ؟ نعم ، انه شاق . ف « ترك النفس على عفويتها » يخلق آليا ، لدى جميع الناس ، ضروبا من الكفّ وبعض المقاومات ، ما دام المريض لا يدرك ان التحليل النفسي « حالة وحيدة » في الحياة : الحالة التي تتسم فيها الاقنعة بانها غير مجدية ، والحكم الاخلاقي بانه غير ذي معنى .

بيد ان اي شخص لا يقبل بسهولة ، مع ذلك ، ان يرفع اقنعتيه الشعورية او اللاشعورية . ثم ان لدى كل فرد ، بصورة شعورية او لاشعورية ، انطباع ( خاطيء ) بان من المحتمل ان يواجه المحلل ذلك بالنبل.

وها هي ذي ، مع ذلك ، بعض الامثلة من جلسات البداية . والمقصود جلسات اشخاص انهما تحليلهم ، وانطلقوا الآن في حياة متجددة . ومن المؤكد ان هذه الامثلة تقدمها في اطار الاحترام المطلق للمريض . وسنرى فيها كم يعبر الادمغة التي تتصف بانها اكثر عقلانية مشاكل\* من الافكار . وسنرى فيها ان بعض العواطف والعقد ، التي سأتكلم عليها في هذا الكتاب ، تبدو بدرجات محسوسة . وسنرى فيها ايضا كم يبحث كل فرد عن نفسه بعد ان فقدها ، وكما يتطلع كل فرد الى الكلية والروحانية والمضي نحو الآخرين ، وكما يتطلع على وجه الخصوص الى ان يكون غير خائف ... انني افكر كذلك بامرأة صبية كانت قد قالت لي في المقابلة الاولى : « انني شبيهة بعقرب بعض ذنبي ، انني منطوية على ذاتي لانني امرأة ارتدي رداء الخوف ... »

---

(\*) مفردا مشكال : Kaléidoscope : جهاز يتكون من انبوب كثيف يحتوي على عدة مرايا موضوعة على نحو توكد الاشياء الصغيرة الملونة ، الموضوعة في الانبوب ، رسوما مختلفة « م » .

ولن أقدم أي تعليق عقب هذه الامثلة التي اضربها كيما ابين كم يصعب على المرء ( وكم يتصف بالشجاعة ... ) أن يترك نفسه على عفويتها ، وذلك شرط اساسي لكي يدرك ذاته ويتغير .

## اولا - بعض البدايات في التحليل

### ١ - الجلسة الثانية لامرأة صبية

تقدم هذه المرأة الصبية الى الكثيرين ، من خلال عفويتها ، مثالا حيا . لقد توجهت صوب الآخرين ، بصورة رائعة ، بعد ان انتهت تحليلها .

- احساس بالياس ... عميق جدا ... وبالفرح في الوقت ذاته . انني امضي نحو باب سينفتح . سيكون أمرا صعبا أن استعيد ذاتي اخيرا . انني اقول لك ما يخطر في ذهني ، ليس كذلك! ... هذا الباب الذي سينفتح ... التحليل ، انه ، واقسم ، شبيه بالدخول في الدين ... ولكن المرء لا يضع حجابا ، بل يرفعه ! انني اقل ثورا منذ اسبوع . واشعر ان ثمة اشياء تتحرك في داخلي ، اشياء احتفظت بي سجيئة دون أن ادرك ، اشياء كانت تحول بيني وبين الحياة ، والمضي نحو الآخرين ، وحب الآخرين ... ومنذ اسبوع ، بدأت مجددا فادرة على أن أستريح ، الامر الذي لم افعله قط منذ سنين ... فقد كنت دائما متوترة ، ومترصدة ، وملذوعة ، وعدوانية ... ودائما في خوف من أن اموت وأنا في حالة الخطيئة ولست كاثوليكية ! فإين الخير وإين الشر ! حلمت بأبي هذا الليل . لقد ترك لي حلمي انطبعا مؤلما . فهل يمثل أبي مشكلة بالنسبة الي ؟ اذا طلبت مني ذكريات البنت الصغيرة ... ناي ... فلن أجد منها شيئا...مثل ذلك على الاقل ... ليس لدي ذكريات، هكذا . او الانني لا أرغب في أن يكون لي شيء منها ! انه لخيف أن يموت المرء على سريره . انها فكرة تخطر في بالي غالبا . الا ترى ! ليس ثمة شيء محسوس ، ليس كذلك!، انطلق للكشف عنه ! اود لو استطع ايجاد اشياء ذات أهمية وأقولها لك . ولكن ليس ثمة شيء . هناك نقب مظلم ، ولمة الانطباع بأن أعيش يوما قيوما ، مع ستار ينسحب على كل أمس . لقد درست في كتبك آليات الدفاع الداخلية . ولا بد من أن أكون ، انا ، متخمة بغروب الدفاع ! ولكن ايها ! ولئن كنت ادافع عن نفسي - واحس تماما انني افعل ذلك - فأنني انما ادافع ضد شيء ما . ولكن ضد ماذا ! كان أبي يتلذذ دائما من الآخرين . وكان يطلب



اليّ دائما ان انتبه الى الجيران وحارسة النّاية ، الى الجميع ... وان اكون مهذبة جدا ولطيفة جدا . وكان يتفق من الخوف والدي . انني اريد ان يكون كل شيء واضحا عندما اموت ، وان يكون كل شيء جليا بالنسبة لي . واريد ايضا ان يكون كل شيء جليا بالنسبة الى اولئك الذين يتعقبوني . لا اريد ان اذهب ، ثم ينظّف الآخرون أوساخهم خلفي - ارجو الملعنة ، فذلك هي العبارة التي خطرت لي . والانسان لا يفعل ما يرغب ، وانا اعلم ذلك ، ولكن ... انني افكر بهذا التحليل الذي يدّاه ... ثمة امكان لان اعرف ذاتي ، لان اعرف ذاتي مجددا ، ولان اولد للمرة الاولى ... وهذا صحيح ايضا ! اشعر وكأنني طفلة صغيرة بجانب ابيها . انت تصبح ابي . اتقبل ان تكون ابي ! ولادة الانسان في سن الثلاثين ! والامر على هذا النحو بالنسبة الى الملايين من الناس الذين يجهلون انهم ميتون ، والذين تم اشرطهم على ان لا يحتفظوا بشخصياتهم ابدا . ولكنني انا اريد ان احتفظ بشخصيتي . وارغب حاليا في ان اقول ... اقول طر لكل الناس ، وان استعيد ذاتي . ثم انني اعلم انني سامضي نحو الآخرين . ويمتدّد الناس عموما انهم ينفون نحو الآخرين ، ولكن ذلك انما بسبب كونهم ينفقون من الخوف ...

## ٢ - رجل في الاربعين من عمره ، مدير

ها هوذا الم تقليدي امام عدم الفهم الذي يتصف بأنه تقليدي ايضا .

- ان اترك نفسي على عفويتها ؟ هذا امر صعب ... انني ما فتئت اصارع والاشنخ ... ما استطعت ان اصارع في حياتي ! اعاني شروبا من الهوس الوسواسي ، فأتحقق من كل شيء عشر مرات وانا اصارع ضد نفسي حنقا ... ولكن لا جدوى ، فهذه القروب من الهوس اقوى من ارادتي . واقول ان وسطي ينصحني ان ابدل جهدا ، عندما يراني أتحقق حتى الانهالك الكامل من الابواب والغاز وحساباتي والباقي ! انه تصح ترافقه الابتسامة ! انني سأقتلهم . ولكن الا يفهمون شيئا اذن ؟ لا شيء ! لقد انتفضت عشرة اعوام وانا اصارع نفسي ، وايدّي ارادة اتمناها لكل فرد . ومع ذلك ، يأتي بعضهم فيهمس في اذني قائلا : ان عليّ ان ابدل مجهودا وان تكون لديّ الارادة ! ولكن هذا هو ... هو ، ماذا اقول ؟ انه لامر خارج عن ارادتي ... انه مجال آخر عميق ليس بوسعي ان ابلغه وحدي ... ويقول لي بعضهم عندئذ : « ولكنك مع ذلك ذو مظهر جيد ، فكيف لا تفلح في اقتناء هذه الحماقات ؟ » ... لو كنت تعلم ...

اي نعم . يعرف عالم النفس ذلك ويسمعه على الغالب - مع الاسف - اكثر مما يعتقد بعضهم . ولكن ما ينسون ، كما ترون ، هو أن المصاب ليس مريضا من امراض « الفكر » . انه مريض كأي مرض آخر ، يخضع للقوانين التي يخضع لها كل مرض . وينسون كذلك أن للمصاب جلورا مفروسة في اللاشعور ، وأن الانسان لا يرى منها غير الاعراض الشعورية . فكيف يكون اذن للعقل الواعي سيطرة على الاضطرابات اللاشعورية ما دامت هذه الاضطرابات لا « تصعد مجددا » الى السطح ؟

### ٣ - جلسة ثانية لرجل يبلغ الثلاثين من العمر

نرى الآن ، في هذه الجلسة من البدايات الاولى ، تبرز مشاعر الالتمية ، و « المازوخية » (١) كذلك .

- اقل شيء يقال لي ، فأكون قطار يخرج من سكتة . واقل شيء هو : اذا قيل لي شيء ما بصورة غير مهذبة ، واذا وجه لي نقد ، واذا ... ولست مع ذلك مركز العالم ! انتبهوا كنت منذ قليل أرى رئيسي لعمل من الاعمال . لقد وجه لي انتقادات عادية جدا . انه في هذا المركز من اجل ذلك . والحال انني كنت على صواب . فمشروعي كان من الدرجة الاولى . حسن ، لم اعترض على قوله . وقلت دائما : « نعم ، موافق ، حسن يا سيدي ، نعم يا سيدي » . ان عملي ، الذي كنت قد قضيت ستة اشهر في اعداده ، ضاع ادراج الرياح دون أن انفوه بكلمة . وهذا امر معقول لو لم أكن شركت رئيسي الذي كان مستعدا للمناقشة . فالمشروع مصنوع للمناقشة ! ستة اشهر من العمل دون جدوى ، وهذه نتيجةها . أحس كما لو ... هكذا ... كيف امير ؟ أحس كما لو انني كنت شغوبا لرؤيته معنيا بعملي ! انني أمشي على جثتي أبي وأمي من اجل كلمة اطراء من رئيسي ، ومن اجل تهنئة او شكر ... والحال انني أسخر من رئيسي . ولكنني لا أجرؤ أبدا أن أقول لا ، ولا أن أقوم بهجوم مماكس . وماذا بعد ؟ ...

---

(١) ينبغي أن نفهم المازوخية بمعنى الخضوع المثالي الذي يتيح الافلات من العصر ، إذ يعطي الانطباع بأن المرء يقبله الغير .

## ٤ - جلسة البداية لشاب نشيط

- اذن ، اطلق لا فتكاري عنانها ؟ نجم ، انني سيء الطالع . فيلم رايتك أمس من اليونان . عضو الذكر ، لانني احلم بالاعمدة . ان رعبى من الموت هو من القوة بحيث يجب عليّ ان استيقظ ليلا . اسقف ... ولكن ماذا اتي يصنع هنا ؟ دين ، إله ، واي مزيج سيء هذا الذي لا تعلم ما اذا كان موجودا ام غير موجود . عيويي وحماستي ازاء التحليل ... شريطة ان ينجح ، وان اكون قادرا عليه ، وان لا تخطر ذكرى اُمي فتطرح كل شيء أرضا ، والسبب ، لو كنت تعلم مدى ما امكنتها ان تقطع جميع الوسائل عني ! وأخيرا ، لنتجاوز ذلك ، فساعدو اليه . ينبغي ان يكون المرء متواضعا وصادقا ، وهذا صعب . اهائات ، السخرية من الاهائات ، انني دائما اختنق من الحصر . خطيبتى ، هل احبها ؟ انها تخيفني بقدر ما تخيفني اُمي . فهي ذات بصيرة وتعرفني ... وعندما كنت في السادسة عشرة ، كانت اُمي لا تزال ترغب في ان تفضلني ، ولم اكن اجرؤ على الرفض بوصفي صبيا صغيرا ... وكنت اخفي اعضائي الجنسية وانا اقرب فخذى الواحد من الآخر ! فشيئان المحارم ، تعلق بوالدي ، ذلك ما يجعلني حقا كتملة . كان والدي رجلا ضعيفا ... كل هذا ، انني انا الذي تحمّله . انها عقدة اوديب الفريدة على وجه الاحتمال(١) . ما رأيك في ذلك ؟

انتصب الشاب فجأة ونظر . وبقيت صامتا ( صمت المحلل ) . فعاد الى مكانه واستمر في حديثه :

- احس بصمتك وكأنه صمت مستهجن ، ومع ذلك اعلم أنك تحبني وتفعل كل شيء لكي اخرج مما انا فيه . واحس من جهة اخرى بأن الناس جميعهم عدائيون . انني اقلّد « الصبي الصغير » ليكون الناس متسامحين معي ... عقد ... انني اعود الى التفكير دائما بأنني كنت عاريا في الحمام ، وبأنني ( تشنّج قبضته ) ، يا للصاعقة ! كنت مع ذلك قادرا على ان استحمّ وحدي ، يا إلهي ! وكان الوشح دائما يتكرر . ولم اكن باستطيع ان افعل شيئا بدونها ، ودون ان تكون حاضرة ! ومهما يكن من امر ، فانا عاجز جنسيا وانا في الثلاثين ، وخطيبتى تعلم ذلك . انني متأكد ان هذا المعجز انما سببه كل ذلك ... والرواج ... اذا تزوجت !

---

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث »

ونهض قائلا :

— هل كان يجب عليّ أن أجد تسوية مع الحياة ؟

وبقيت صامتاً ( صمت المحلل )

— اصغ اليّ ... أمل أن لا اصدك ، وأن لا تسيء الظن بكل ما أقوله . فما أنا في عينيّ ؟ رجل مسكين ؟ انني رجل مسكين . وجميع الناس مساكين . وحظي انني وجدتك ، لانني أريد أن أصبح رجلاً . ذهني يتوقف ... أفكر بخطيبتى ... عضو الذكر ، سيكون ذلك شيئاً رائعا ... أخشى أن اسبب لك الملل ، كما لو أنك ستطردني ... اعتراف : ذلك ما استعظمه الاعتراف به ، مع ما يرافقه من شروب حمر النهار والليل ، الرغبة في شتم المعروف ، ثم كنت قد قمت بنزوة مع انطباع بانتهاء الحرمات ... عملي اليومي ادارة مئة عامل وبعض المستخدمين ... انني رب عمل طيّب ، ربما لانني األم ، اليس كذلك ؟ اعتراف ... عندما كنت اعترف ، كانت تخطر ببالي ، في الوقت ذاته ، كلمات تنتهك الحرمات . مسيات . وكلما كنت أرغب في اقصائها ، كانت تخطر ... وفي بعض الاحيان أبضا ، كانت موجهة الى ماما . انها مع ذلك ماما ، اليس كذلك ؟ ولو انها تعلقّت بي ؟ والناس يسخرون مني عندما أقول « ماما » ، ولكنني لم أستطع أن اتوصل الى القول « أمي » ... أزمة وسواس . رأيت حلما هذا الليل ، ولكنني لم أعد أتذكره . انني افكر بطفولتي ، طر ! اظن أنك غاضب مني ، وأعلم أن الامر حمافة .

ونهض قائلا :

— هل ينبغي أن تسمع امورا من هذا النوع ، حكايات ؟

واستأنف :

— لقد فهمت . عليّ أن أبقى وحيدا مع ذاتي في البداية أمامك . انه ، من جهة اخرى ، لامر جيد هكذا . أفكر بالماء : البول ، والانبعاث ، والاخصاب ، والحقل ، وحقلّي الخاص بي محروث بطريقة مضحكة ، وأتمنى أن أحقق ما يسببه خلّكت ، وأن يهديني الله الى الطريق ، ولكنه هداني ، بما انه قادني اليك ، الى التحليل ...

ونهض قائلا :

— لم يعد بوسعي الاستمرار ... انني ، في الوقت نفسه ، مصاب بالحمر واشمر بالراحة . ولم يسبق لي الاعتقاد أن بمقدوري ترك نفسي على عفويتها هكذا ...

## ٥ - الجلسة الثالثة لفتاة صبية

انني تارة اقضي وقتي في ان اكون اسوأ من صبي ، وطورا مستسلمة او سلبية . وفي فترات اخرى ، اقضي وقتي في هدم كل شيء ، بما فيه ذاتي . الهدم ... كبيت نقوضه لان آخرين بنوه بناء سيئا ... بيتي الداخلي ، والدائي هما اللذان شيدها ، ثم استدها لي ... عندما افكر بوالديّ ، افكر بوالدي . فوالدي كان كأنه غير موجود ... امي ، أشبهها جسديا ومعنويا ، واعتقد انني قد أقتل من يقول لي ذلك . فأنا اهدأ امي وابغضها . انها فعلت كل شيء من اجل ... اعلم ما اتمنى قوله ، ولكن ذلك لا يمر ... ذلك يسبب لي الحصر . هل بوسعي ان ادخى ؟

اشعلت لغازة تبغ وسحبت بعض الانفاس .

— اوف ! هذا افضل . انه لغريب ان يكون على المرء التحدث على هذا النحو في الفراغ دون ان تنطق بكلمة واحدة ... هل الامر سيكون دائما على هذا النحو ؟

صمت .

— ماذا سيكون رايك بي ؟ انه السؤال الذي يتسلط عليّ ، واسم لك ان قول ذلك غير سهل ... الموت ، الخوف من الموت ... ولكني ، في الوقت نفسه ، ارجب فيه بعمق ... انني دائما اخشى مواجهة شيء ما ، لان امي كانت قد ربيتني بصفتي مبيودتها ، كما لو انني كنت إلهة . عمري خمسة وعشرون عاما ، وقد بدأت فقط ادرك ان لمة امورا بوسعي ان اقلعها شخصا دون عون من اي شخص ... ولكنني عندما افعلها ، ارجب في ان استأذن احدا ... كما لو انني كنت مخطئة ...

## ٦ - جلسة لرجل بلغ الخامسة والعشرين

— قرأت في بعض الكتب ما هو التحليل النفسي . وكنت قد شرحت لي قليلا عنه ، وكنت اعلم انه يتعلم عليك ان تقول اكثر في البداية . والان بدأت افهم . انه لامر صعب ، فعلى الانسان ان يكون متواضعا ، وان لا يخشى ذاته ، ولا لاشعوره ، ولا افكاره الخفية ، ولما ما يخطر منها خلال نهار ! انني الان ادرك القومعات التي تفككتني ، والتمثيلات التي امثلها

دون أن يكون بوسعي تحديدها ، والخاوف التي كبّتها دون أن أستطيع تحديدها أيضا ،  
 وشروب هروبي ... فكلمة تختلط ... أحس للمرة الأولى أنني أكره طفولتي ومراعاتي .  
 أكرهها . لهذا السبب إذن كان عليّ أن أكون عيسا دون أن أعلم ذلك . عيسا جدا . أم  
 نمة شيء آخر ؟ أنني أرى أبي مجددا ... انه مستبد ، غريب من قابلين الذي لم يكن  
 يقبل شيئا يأتي من غيره ... وكانت والدتي دائما متواحة ومدعورة ... أما أنا ، هناك في  
 الداخل ، فكنت أكره البيت ، ولكنني أعود إليه عند أدنى خطر ... وذلك ما لا أزال أسلكه  
 الآن ، على الرغم من مظاهري ... يا إلهي الطيب ، لو كانوا يعلمون ... ويقولون لنا  
 أننا أحرار ...

## ٧ - جلسة بول الأولى ، مساعدة ماهرة في مختبر

- أشعر وكأنني ثمره فاسدة . انيت أسالك اللون ، لأنني أحس باستحالة الخروج  
 وحدتي مما أنا فيه ، وباستحالة أن أرى ذاتي رؤية واضحة . وعندما يحاول المرء ، يجد  
 دائما وسيلة للتخلص بمهارة ، ليس ذلك لأنه يرفض أن يرى ؟ إذن ، أنا لا أريد أبدا أن  
 أفلت ولا أهرب . أريد أن أكون ما أنا . وأريد أن تفسرنني على النزول في ذاتي . أريد أن  
 أصبح ما أنا . أريد أن أكون في سلام على الأقل . ومن الأجدر أن يكون الإنسان قاطع طرق  
 في سلام من أن يكون قديسا معذبا . وأخيرا ... لا أعرف شيئا . وأي رجل في سلام لا يمكن  
 أبدا أن يكون قاطع طرق . ولكنني أريد أن أخرج مما أنا فيه . عمري خمسة وعشرون عاما ،  
 وأناضل منذ عشرة أعوام ، فحسبي . وذلك بسبب أمي . هذا الامر ، أنني واثقة منه .  
 وسأشرح لك ذلك طولا وعرضا إذا قبلت .

- أقبل بالتاكيد .

- أشكرك . هل ينبغي أن ترى ذلك من كل الألوان ؟ ألسنت متقرزا من الانسانية ؟

- كلا بالتأكيد ...

- عندما تدعّب في اجازة ، ألا تحلل الناس الذين تلاقهم ؟ ليس من المفترض أبدا أن  
 لا تجد بينهم غير أصحاب الوجوه البشعة ؟

- ... ابتسامة

— أنا ، ليس بوسمي أن أكون محلا لنفسيا . سأفقد الايمان بكل شيء . فليس لمة غير ضروب العصاب والحصر دائما ... وماذا ينبغي تفريقه من شحنة عليك !

— أنك لست محلا مع ذلك .

— اوه ، هذا صحيح ! انني لست محلا ، ومع ذلك فقدت الايمان بكل شيء . أمن المحتمل أن يكون السبب في عدم فهمي شيئا انني لست محلا لنفسيا ؟

— ابتسامة . ربما .

— اوه ، هذا صحيح . انني اثرثر كعمق . ومن جهة اخرى ، لم تكن ابي فتنا تردد انني كنت اكثر غباء من شحور . واعلم ان هذا خطأ ، ولكن ...

— أمك ؟

— عندما افكر فيها ، أرى ضربا من الثقب الاسود يمتصني ، ويأكلني ، ويحطمني ، ويمتص طاقتي ، ويتركني كخرقة ... ( بول تنتحب فجأة ) . وحاولت ، على الرغم منها ، أن ابني نفسي لبنة لبنة ، محاولة أن اروض ضروب تمردي ، وأن ابرهن لنفسي على انني كنت اساوي شيئا ما ...

— وابولك ؟

— كان يرغب في ابن . وكنت بالنسبة اليه « مصادفة معينة » ، ولا شيء اكثر . الامر الذي جعلني استطاع العمل لكي اقلت من كل ذلك ! وكنت ابدو البنت « التي يسوقها في العمل سوط » ، عندما كنت في المدرسة . والواقع اني كنت انفق من الخوف في قرارة ذاتي . كنت انفق من الخوف ، وتلك كانت هي الحال . وكانوا يكرهوني . ولكن كان علي ، مع ذلك ، أن أحاول أن أكون شيئا آخر مختلفا عن النعوت التي كانوا ، في البيت ، يقدفونها في وجهي . فكل ما فعلته كان تمويضا ، كل شيء ! وعزلتي ! والله ، الذي يبدو لي ابعد من كل شيء ... ارهقت نفسي في بلل جهود فوق انسانية لكي اقلت من ذاتي ، ومن ابي ، ومن الشك في الله ، وفي الآخرين ... وكنت تمنيت ان يكون بمقدوري المغي نحو الآخرين ... !

— ما عمر والدتك ؟

— لا عمر لها بالنسبة الي . انها ضرب ... ضرب من الرمز ، رمز التهديم . ومشكلتي

هي مشكلة الحب ، والله ، ومعنى الحياة ، ومعنى حياتي . ولكن لدي الآن يقين واحد : كل ذلك قادني صوب التحليل النفسي ، وأعتقد اني ، في يوم من الايام ، سأرى ان ماضي غير ضائع بالدرجة التي اعتقد .

## ٨ - ايزابيل، فتاة صبية ذات سبعة وعشرين عاما

- لديك منظر جميل من هنا ؟

- بالتأكيد ...

- لا بد من ان تغمر اشعة الشمس ميادلك في الصباح ، مع كثير من النور .

- نعم ...

- اذن ، اعلي ان آقول لك كل شيء ؟

- لكي يكون العمل على مايرام ...

- اهو الاعتراف دون قيد ؟

- نعم .

- يا للشيطان ، انه لامر صعب !

- الى حد ما ، في الواقع ...

- والناس الذين هم على هذه الشاكلة ، يقولون ما يفكرون به ؟

- ليس دائما على الفور .

- هذا ما يطعنني ، ذلك هو الامر . انني بحاجة اليك لان اي شيء ليس على ما يرام ،

الا ترى ؟

- ...

- ليس اي شيء على ما يرام . وفكرة القيام بفعل هي الان امر يفوق طاقتي . وانا اكره

نفسى لذلك . الا تحتقرني انت ؟

- ولماذا ؟



— ولكن لاني جبانة ! انني جبانة وعدوانية ازاء جميع الناس . وارغب كل يوم في ان  
اسوت أو اشرب حتى التمل . واقول كان لدي كثير من الطاقة ! وقبول ألم جسمي ، كم  
هو يسير بالقياس الى قبول ما انا عليه وما استشعره ! هل اقدر ان اترك نفسي على  
عفويتها ؟ أليس من المفيد أن نبدا فوراً ؟

ان بول شابة ، شاحبة . ثمة اسرار محزنة على فمها . وتفلق  
عينيهما . ويبقى المحلل صامتا .

— ينبغي أن التخلص منه ... انه فظيع ، العصاب ... انه فظيع ، هذا التمس ، وهذا  
النقص في الفعل الارادي ، وهذه الالامبالاة بكل شيء ... انه لامر غير منطقي جدا ... وغير  
انساني جدا ... مرهقة ... ضيقة الانفاس ... خائفة من الآخرين ومن نفسي ... انني  
شبيهة بشيء ثباتي او معدني ... ثمة تمثيل لدور من الادوار ، دون علم بذلك ، لانقاذ  
الكرامة ، وهذا أمر فظيع عندما يدرك المرء ذلك ... ثمة خوف من الاسدقاء والاعداء على  
السواء ... واذا كان علي أن ابلل مجهودا في اتجاه او في آخر ، فذلك مستحيل ... عندئذ ،  
اصارع صراع الفريق ... وهناك الآخرون الذين يلاحظونك ويحكمون عليك ... انني دائما  
في خوف ... والناس لا يحسنون فهم العصاب ، في حين أن كثيرا منهم يعانونه ! ... ثمة  
كثير من التناقضات في نفسي ... وثمة من يهرب من تناقضاته في عمل عنيف ... انا لم اعد  
استطيع ، ولكنني قمت به خلال سنين دون أن اعلم ذلك ... اتحتفظ بالصمت ؟ ان هذا  
لامر رائع وفظيع معا . انه شبيه بصمت ثقيل وعذب . انك لا تقول شيئا ، ولكنني اعلم  
أنك تصني ... وانك لا تصغر حكما علي ... وانك ... وربما هي المرة الاولى في حياتي  
اترك نفسي على عفويتها ... ليس ثمة قناع ، ايزابيل ، يا عجوزي ، وانت ستنتخلصين  
على هذا النحو مما أنت فيه ! لو ان جميع الناس كانوا محللين نفسيين ، لكانت الحياة  
رائعة ! يمكن للمرء أن يكون ما هو ، هكذا ، دون حكم ، ولا خوف ، ولا حصر ... وسيكون  
ذلك فهم الحياة وقبولها كما هي ... انك تحتفظ بصمتك ، واخشى ان لا تطرح سؤالا ...

— ...

— انك لن تطرح سؤالا ، إذن سأستمر ، وهذا حسن . أي سعادة لو انني كنت استطيع  
على هذا النحو أن اترك نفسي على عفويتها مع أمي ! ... ولكن ذلك لم يحدث أبدا ...  
لي والدان ، ولكنني ابقى وحيدة ... على المرء أن يكون يقرب والديه كما يكون يقرب

الرب ... ولكن المفروض شيء والواقع شيء آخر . امن المحتمل ان يحدث ذلك عندما  
أنخلص من خوفي من الآخرين ، وعندما استرجع طاقتي ، وعندما أعرف نفسي ، وعندما لم  
يعد مفروضا علي ان اعامل مع شخصية ليست شخصيتي ! ارجب في أن أصبح ما أنا .  
ولكنني ( ايزابييل بيكي ) ضعيفة جدا ! وانظاها بأنني قوية ، وعدوانية ، وأعرف ما تريد !  
وعلي أن أتمسك بهذا الدور لكي احتفظ بوضعي ، وهذا امر مرعب ! فأي عزلة ! ...

وانتصبت فجأة .

— أريد أن أعيش ، هل تفهم يا سيدي ؟

— نعم .

— أريد أن أحيأ كما أنا وبوصفي أنا ، ولا شيء آخر . ان اتون حرة من الناحية  
الداخلية ، هذا هو ما أريد ... ولست بشخصيتي الحقيقية منذ زمن بعيد ... هل تفهم ؟

— نعم .

— ذلك ما ينبغي أن يتغير . هل سيكون أمرا صعبا ؟

— ربما ...

— سيان عندي . فإذا كنت أكثر بشاعة في الداخل مما اعتد ، فلا حيلة لي إزاء ذلك .

وإذا كنت أكثر جمالا ، فنعما حدث . اليس كذلك ؟

## ٩ — رجل في الأربعين من عمره

— لن أتوصل أبدا إلى أن أتترك نفسي على عفويتها ، ولكنك لست لهربيا ... انك

صديق ... لم يكن لي أبدا أصدقاء ... لم يكن لي أبدا صديق واحد يساعدني على أن

أعيش ... الانتحار ، ما هو الانتحار ؟ من أباحه ؟ ولماذا هو غير مباح ؟ وما هو الصحيح ،

وما هو الخطأ ؟ والعدل والظلم ؟ لماذا أعيش ؟ ولماذا يموت الإنسان ؟ وما جدوى كل هذا ؟

إنها المرة الأولى التي أكون فيها صادقا مع نفسي ... انني لا شيء ، ولا أساوي شيئا ...

أعني أن أصلح الأمور ... انني صندوق قمامة ... ويقال انني رئيس مشروع ... يخسائي

الذين يعملون تحت رئاستي ، وأهرا طيلة النهار ... انني شخص مسكين ... شخص

مسكين ... لو كان الآخرون يعلمون ! ... أغوس في العمل كالتقاعد على نار لافلت من ذاتي،

ومن زوجتي ، ومن اصدقائي ... هل لي اصدقاء ؟ هل اقدر على ان احب في قرارة نفسي؟ هل يستطيع الآخرون ان يحبوني ؟ انني فاقد الثقة بنفسي ... عندئذ اصبح . انهم يخشونني ، ولكنهم لا يحبوني . أفتنى لو يحبوني ... حلمت الليل الماضي بقمر ، وكانوا قد طردوني منه ... عندما ارى امرأة عدوانية ، اختفي تحت الارض ... سكرتيري جَمَلٌ ، اذن اجبر نفسي على كرهها حتى اكون اكثر عدوانية منها واذلها ... ذلك هم الناس ... الخوف ... يصبح المرء فينحني لجميع الناس ... وهذا امر يسبب لي التقزز . الناس بحاجة الى هراوة ، والا مشوا فوقك . انني افكر بسان ايكوبيري ... اريد ، انا ايضا ، ان اصبح بستانيا ... ان اكون في سلام ... فليتركني الناس في سلام ... فليترك الناس في سلام هذا المغفل الذي هو انا ... ولا يرى احد انني مغفل ، حتى ولا انا ... ولم اقل ذلك لاحد ، حتى ولا لنفسي ... ولكنني اريد التخلص من هذا ، واريد ان لا يسبب لي التقزز ابدا ، وان اقود دون خوف ودون ان اكون ملوما بالصراخ حتى افرض الطاعة ... ائمة ، مع ذلك ، اناس يطاعون لانهم محبوبون ومحترمون ، ولانهم اقوياء من الناحية الداخلية ؟ اريد ان اكون من هؤلاء . اريد ان اظهر نفسي كليا . انك ستقدم لي يد العون ، اعلم ذلك ... لا بد من ان يرى المرء بوضوح ... ضوء ... مصباح جيب ... انني حاليا في الظلام ... سلّم ينزل نحو كهف مظلم ... والداي ... لا يد من ان يكون كل ذلك قد وقع في اثناء مراقبتي على غير علم مني ، وما كنت اشعر به من الهلع أمام والدي ... وأمام امي بالتالي ، بهالتها ، هالة الشهيد ؟ فمن يستطيع ان يحيني ويغميني ... يسخر الناس مني ... لست رجلا ، هذا هو ما انا . لم اُتجاوز بعد مرحلة المراهقة ، وعلى ان اقود ثلاث مئة شخص يخافون مثلما اخاف ...

انتم ترون اذن، منذ البداية ، ان التحليل النفسي مدرسة الشخصية . يضاف الى هذا ان المريض يحاول ان « يقدر » محله . فيطرح على نفسه اسئلة ، ويحاول ان يعرف ما يتصف به ومن هو . اذن ، ساحاول ان اجيب عن هذه الاسئلة .

## ثانيا - من هو المحلل النفسي ؟

المحلل اذن ، في البداية ، « جراح النفس » . انه ، كل يوم ، يلاحظ الآليات العميقة التي تحكم الوجود الانساني . ويعيش ، اذا جاز لي القول،

في اتصال دائم على وجه التقريب مع لاشعور الآخرين . . . ومع لاشعوره .  
والتحليل النفسي ، كما قلت سابقا ، عمل من التعاون اللائب بين المحلل  
والمحلل . فلا يستطيع المحلل اذن شيئا دون مريضه ، كما لا يستطيع المريض  
شيئا دون محله . والتحليل عمل مشترك نحو افضل نجاح ممكن . انه  
عمل « ثنائي » ترتبط في اثنايه شخصيتان ارتباطا كليا .

واذا تساوى محللان نفسيان في « التقنية التي يستخدمانها » ، كان من  
يتصف بالقدر الاكبر من الفهم الانساني ، والاشعاع ، والمحبة ، والحيوية  
ونسيان الذات ، والقوة الداخلية ، هو الذي يحقق العمل الافضل .

وينبغي مع ذلك عدم الاعتقاد بان المريض ساذج لا يدرك شيئا ، وانه  
فاقد كل حدس . . . بل على العكس ! ذلك ان الالم ، وان كان صعب  
الاحتمال . يشهد الحدس ، الذي قلما يخدع ، وينميه ، حدس كون  
الانسان محبوبا بصورة واقعية ، ومقبولا ، وليس موضع حكم . فثمة  
ضرب من « التخاطر » يتدخل في بعض الاحيان ، فيجعل المريض « يحس »  
بنفس المحلل العميقة احساسا صحيحا جدا .

ومن المفيد ، على وجه الاحتمال ، ان نشير الى ما يمثلته المحلل  
تدرجيا بالنسبة الى مريضه .

### ينجز المريض ، على وجه العموم ، اربع مراحل :

ا - ينظر الى المحلل على انه « ساحر » كلي القوة ، اله او شيطان ،  
قادر على كل المعجزات .

ب - ينظر المحلل على انه اختصاصي « يفسر » و « يكره » على العمل .

---

(\*) التخاطر ( La télépathie ) : تواصل مباشر بين فكرين يحول بينهما البعد عن  
استخدام الوسائل الحسية في التواصل . واحساس المريض بالمحلل ضرب من  
التخاطر « م » .

والمريض ، على المحلل ، يسقط الاب الذي يجرد الابن من رجولته او الاب العطوف ، والام المحبة او الملتزمة ، ومن يدين ويكافئ ويبدى الاعجاب ويعاقب ، الخ . ويشكل المحلل جزءا من **الانا العليا** للمريض .

ح - والمحلل يصبح **الانا النجدة** للمريض ، التي يمكن الاستناد اليها دون خوف . انه يصبح ضربا من المحرك المساعد ، اذا صح القول ، الذي يعوّض في حال العجز .

د - تنفصل انا المريض عن انا المحلل ، وتفوز بحريتها واستقلالها .

## ١ - بأي حق ؟

ثمة سؤال يطرحه بعض الاشخاص : « ولكن بأي حق يدّعي عالم نفس حق تحليل الآخرين نفسيا ؟ انه اختصاصي ، هذا مفهوم ، ولكن اي حق له في التنقيب في اعماق نفسك ؟ » وبما انني سمعت هذا السؤال في غالب الاحيان ، اجيب عنه . . . انه ليس له اي معنى . فهذا الحق منحه للاختصاصي الشخص الذي يأتي لاستشارته ، وبالتالي الشخص الذي يثق به . وهذا الحق ممنوح للاختصاصي لان الشخص يعلم لماذا يخضع نفسه للتحليل ( سواء متوازنا ام لا ) ، ولان تحليلا في الاعماق امر من اكثر الامور التي ينجزها الانسان في حياته اهمية .

وكل تحليل نفسي يجمع بين **العلم والحب** . يضاف الى هذا ان من يقول « تحليل » يقول « امل » . انه رأس الرءاء الصالح ، بامواجه الصاخبة الاولى وهدوئه النهائي . فليس التحليل عودة الى الوراء ، كما يقول بعضهم ( لان المرء ، في التحليل ، يعود الى الماضي ليكتشف بعض الاسباب ) ، وانما هو ضرب من « استعادة » الشخصية ، ومن « النضج » . وهذا طبيعي ، اذ ان التحليل يضع البواعث التي يضيفها المرء على اعماله موضع التساؤل .

## ٢ - المحلل « حيادي »

يقال غالبا ان الجاهل بأصول فن التحليل ، الذي يشهد بعض جلسات التحليل ، قد يهرب مذعورا امام بعض عدوانيات المرضى . وهذا صحيح الى حد ما . فعودوا الى التحويل في الفصل الثامن . وعلى المحلل ، مهما يكن من امر ، ان يكون قادرا على ان يتمالك نفسه دون جهد . وعليه ان يعلم ، وتجربته تساعد ، متى يسمعه ان يقول هذا الكلام ، وان يقوم بتلك الحركة ، او ان يتسم ابتسامة معينة ، الخ ( وذلك دون ان « يمثل دورا من الادوار » ابدا ) . فعلى المحلل اذن ان يستخدم كل شيء ليفوز بضرب من « العبقرية الانسانية » . . . . وان يكون قد عمل على ذاته خلال سنين طويلة .

**فئة قاعدة اذن :** ينبغي على المحلل ان يكون « حياديا » امام ردود فعل مريضه ، سواء كانت هذه المظاهر عدائية ام مغالية في المودة . ويعلم كل محلل ان شخصه ليس موضع اتهام ، في الغالبية العظمى من الحالات على الاقل ، بل ان هذه المظاهر هي « اسقاطات » تتوجه صوبه . فتمتد مريض يقول للمحلل على سبيل المثال : « انني اكرهك ، واتمنى ان تصاب بالدمار وان تتسربل بالعار ، الخ » . فليس الى المحلل انما يتوجه ، بل الى ما يمثل المحلل بالنسبة اليه في هذا الان . والمريض الذي يحلل يستجيب ، على الغالب ، تبعا لضروب تثبيته على حالات ماضية . انه « يركز » على المحلل حزمة وجدانيته . ويتصرف ازاء المحلل كما يتصرف في حياته اليومية ، ولكن بقوة اكبر . . . . واقنعة اقل .

والمحلل الذي يفقد اعصابه سيكون اذن بش المحلل . ومن الواضح ان اي محلل لا يقبل التصريح بالحب ، الذي يصرح له المريض به ، على انه « امر صحيح مؤكد » ، ولا ضروب التفريغ العدواني الذي يوجهه اليه . وهو يعلم ان الشخص لن يحتفظ ازاءه الا بعواطف سوية من الارتباط ، عندما يتخلص من عقده . هذا اذا لم ينسه نسيانا كليا ، كما يحدث ذلك في أغلب الاحيان . انه ، من جهة اخرى ، مشكل ينبغي للمحلل ان يتجاوزه ، بالنظر لما بذله من طاقة وزمن وحب في سبيل شفاء مريضه . . .

**ها هو ذا مثل من الأمثلة . بعد صمت مطلق ساد لدى المحلل والمريض ، اخذت المريضة ( شخص ذكي ومتوازن جدا ) تبكي وتقول :**

— ان تركت نفسي على عفويتها ، ارتعيت بين احضانك .

ثم قالت أيضا بعد صمت طويل بعض الشيء :

— ما كان لي اب أبدا ، أنا ...

وساد صمت جديد امتدّ طويلا ، ثم بدا طور من العدوانية :

— انك هنا ، مع ذلك ، لكي لا تقول شيئا وترسّدي !

وساد صمت آخر . ثم قالت :

— انني كما كنت دائما . فما اكفّ عن الشعور بأن الناس لا يحملوني على محمل الجد ،

وانهم يحقدون علي . تماما كوالدي ...

كل هذا شائع في التحليل . وغني عن البيان أن هذه المريضة تتصرف حاليا أمام محلّها كما كانت تتصرف أمام والدها ، وأن المحلل يمثل الأب ( الذي نسبت الكمال اليه ) . ومع ذلك ، فلا بد الآن من أن نلاحظ أنها تتصرف على هذا المنوال في كلية حياتها ، أمام رؤسائها وزوجها وبواب بناتها ، الخ ، ولكنها « تركز » على المحلل كلية ردود فعلها .

### ٣ — موضوعية المحلل

المحلل اذن موضوعي قبل كل شيء . ان عليه أن يكون قادرا على أن يحس ، في كل جزء من الثانية ، بكل رد فعل صادر منه لا يتصف بأنه موضوعي . فالتعاطف والغور لا يمكن أن يتدخلا لدى المحلل . هل يعني القول انه دائما ذو حيادية مطلقة ؟ انه قول عبث ... اذ انه موجود انساني بمواطفه وانفعالاته ، الخ .

ومع ذلك ، لا بد من أن نتفاهم حول كلمة « حياد » .

فطريقة التحليل النفسي تفرض على الممارس « حيادا عتوفا » . ولكن

المطف يلغي الحياد مسبقا ! ويقال ايضا ان على المحلل ان يكون « شاشة بيضاء » يسقط المريض نفسه عليها . والحال ان من المتعذر الفاء العلاقة، المتصفة بأنها انفعالية بعمق ، التي تربط دائما بين موجودين انسانيين .

ولندفع « الحياد » من جهة اخرى ، الى حد العبث ، ولنتخيل المحلل في عام ٣٠٠٠ يجري تحليله امام ... مذيع او مسجل للصوت وامام دماغ الكتروني يعطي التفسيرات في الوقت المطلوب ...

ان يتقيد المحلل بالقواعد التقنية ، هذا امر مؤكد . ان يتصف بالقسوة ، ابدا . ان فرويد ذاته كان قد كتب يقول : « كنت احسب ان الامر الاكثر اهمية بانه ينبغي ان يقال هو الامر الذي ينبغي ان لا نفعله ، كيما نتجنب ما يمكن ان يبعدنا عن « روح » التحليل النفسي . والنتيجة هي ان المحللين لم يفهموا مرونة القواعد التي ارسيتها ، وانهم جعلوا منها مقدسات » .

واذا كان لابد لمحلل نفسي من ان يتصف بقسوة تقنية كلية ، فلا بد له بالضرورة ان « يبالغ » لكي يخلق انسانيته لمصلحة قاعدة مقدسة . فلماذا يفعل ذلك؟ انشك في كفايته العلاجية الخاصة ؟ الحاجة الى ان يلتجئ خلف الاب ؟ الخوف لاشعوري من خصاء يأتي من ظل الرائد البقري ؟

ويبرز كل هذا ، مرة اخرى ، ان على المحلل ان تكون لديه ، بالاضافة الى تقنيته ، قدرة على التكيف وجاهزية كليتان ازاء كل مريض .

ولنعد مع ذلك الى حياد المحلل ، ولنتخيل محلا لم « يتخلص » من عدوانيته ، ف « يسقطها » على مريضه مناقشا ومهاجما هجوما معاكسا ، الخ . ان المرء يدرك الارتباك هنا .

فعلى المحلل اذن ان يحاول ، كل يوم ، بلوغ مثال فوق انساني على وجه التقريب . عليه ان يكون قادرا على السيطرة على نفسه بطريقة



كاملة ، مهما قيل له ، وأن يكون جاهزا ، وأن يكون قادرا على الامتناع أبدا عن إطلاق الأحكام ، أيا كانت الفكرة أو العمل الذي يصفه مريضه .

ثمة سؤال يطرحه المرء على نفسه غالبا : هل المحلل يلزم نفسه بعدم إطلاق الأحكام ؟ وهل هذا قاعدة بالنسبة إليه ؟

والجواب : لا . فليس ذلك الزام يفرضه على نفسه . بل ينبغي أن يكون ضربا من التلقائية . انه يعلم أن الصحة والمرض أمران معزّوان إلى الظروف ، وأن كل شخص « يجمع » من الظروف ( الملائمة أو غير الملائمة ) بحسب ما هو عليه . والعصاب مرض كأي مرض . وإذا لم يكن أي شخص « مسؤولا » عن أصابته بالسُّل ، فلماذا يكون مسؤولا عن أصابته بعصاب ؟ وذلك كمن يقول أن كل فرد « يصنع » دماغه ، وجملته العصبية ، ووالديه ، وطفولته ، وتربيته ، ومواقفته ، وصحته ، ومريضه .

### ٤ - شجاعة المحلل

لئن كانت « الشجاعة » غير ضرورية لكي يبدأ المرء تحليلا نفسيا ، فلا بد منها للاستمرار في التحليل ! وينتهي المرء على وجه العموم تحليلا وهو يجد نفسه مختلفا كل الاختلاف عما كان عليه . فلماذا ؟ السبب ، أولا ، أن العصاب تم استئصاله ، وثانيا ، أن الشخصية العميقة تبرز ، في حين أنها كانت قد بقيت محجوبة خلال عدد كبير من السنين .

وثمة دافعيات ، كانت تبدو شديدة المتانة ، تنهار في التحليل النفسي . ويرى المرء نفسه أكثر « جمالا » أو أكثر « قبحا » مما كان يعتقد . انه يتعزّى . وتصد نحو السطح ضروب الكبت والعقد التي كانت تجوس في اللاشعور زمنا طويلا . وتظهر « مسوخ » لاشعورية . ويدرك المرء إذن أن من غير المستحب أن يعيش مجددا انفعالات مؤلمة كان قد طمرها بعناية خلال سنين . وفي هذه الفترة ، انما يترك بعض الأشخاص تحليلهم ( وهذا نادر ) .

وها هو ذا ، على سبيل المثال ، حلم كلاسيكي رآه في منامه رجل  
ببداية التحليل النفسي .

– حلمت ان لصا شديدا دخل بيتي . وكان يريد ان يسرق  
جميع ما لدي من حلي كانت مخبأة في خزانتي .

يدرك المرء بصورة مباشرة ان « اللص » هو المحلل الذي يريد ان  
« يسرق الحلي المخبأة » ، أي انه يريد ان يبعد « واجهة » مريضه  
ليساعد على ان يستعيد شخصيته الحقيقية . ويمكن لهذا الحلم ان  
يكون له كذلك دلالة جنسية أو عدوانية لن أتكلم عليها هنا .

ولا بد من فهم ما يلي : في التحليل ، يريد الشخص ، بصورة شعورية،  
ان يتناصل الاعراض التي جعلته يتألم . ان ارادته وامله متجهان نحو  
هذا الهدف : ان يتم له الشفاء . ولكن ، مع ذلك ، قد يحدث على الغالب  
ان الشخص يقول « لا » بصورة لاشعورية ، وان قال « نعم » بصورة  
شعورية . فلماذا ؟ هل السبب انه يرفض ان يرى ذاته كما هي ؟ نعم .  
ولكنه يرفض كذلك لان عصابه ضرب من الحماية ، ضرب من العكاز الذي  
يستند اليه . فلنعلم الان ما يلي : عاش الشخص ، طيلة سنين ، على  
الدفاعات وعلى ضروب من الامن اللا شعوري المزيف . لقد تعلق بمسمار  
مفروز في حائط ، مع انطباع مفاده ان هذا المسمار هو انقاذه الوحيد ...

فليس من المستحب بالتأكيد ان يرى المرء يتهاوى عالم الاوهام الذي  
كان لديه حول ذاته وحول الحياة ، ولا ان يرى افكاره العنيفة تتوارى .  
ولكنه لا يعلم بعد ، في هذه الفترة اياها ، ان « الرجل الجديد » سيخرج  
من الرماذ ... ولكن ليس عملا رائعا هذه المهمة الشاقة ، مهمة المريض ،  
المحومة على مسؤولية المحلل الجسيمة ؟



# الفصل الرابع

## صوب منبع النهر

آه ! قال الرجل ، عليك ان لا تنمى . فالجطور ، انها شيء  
ابدي .

( جان جينو )

ها نحن قد وصلنا الى نقطة الانطلاق الحقيقية للعمل في الاعماق .  
فالارتباط الاول تم . وثمة ضرب من الايضاح حدث . وقام المحلل والمريض  
باستعراض الاعراض ( الشعورية ) والالام ( الشعورية ) . وبوسع  
الاختصاصي الآن ان يطلق حكما على مشاركة المريض الممكنة .

وعلى المحلل ان يقرر ، في هذه الفترة ، أسلوب عمله . واذن : من هو  
الشخص ؟ ماذا يريد ؟ ما ذكاؤه الداخلي ؟ ما مستواه العقلي ؟ ما هي  
« الاقنعة » المرئية بالعين المجردة ؟ ما هي طاقته الحقيقية ، ايا كانت  
الاعراض ؟ كيف سيكون رد فعل المريض عندما يدرك ان نمطا كاملا من  
الحياة ينبغي ان يوضع موضع التساؤل ، وان من المحتمل ان يكون عليه  
ان يضرب صفحا عن ما تصوره ؟ كيف سيكون رد فعل هذا الفنان المصاب  
بالعصاب ( على سبيل المثال ) عندما يعلم ان فنه ضرب من الهرب ويمثل  
ضربا من التعويض ؟ او هذا المدير المحتاج عندما يرى ان وظائفه تكون  
عصابه ، وتتعهد بالرعاية هذا العصاب الذي يسبب له ، من جهة اخرى ،  
الاما كثيرة ؟ كيف سيكون رد فعلهما ؟ ماذا سيصبح نمط حياتهما الحالي ؟  
كيف سيبنيان مرة ثانية وجودهما الجديد ؟

ثمة معايير أخرى تظهر كذلك . ماذا يريد الشخص ؟ هل يرغب حصرا في أن تزول اعراضه ، أم انه يريد أن يمضي الى أعماق شخصيته ، اذ يخصص الزمن الضروري لهذا العمل ؟

وكما قلت لكم فيما سبق ، يذهب الناس على وجه العموم لاستشارة عالم نفس بهدف اقضاء عرض من الاعراض . ويعتقدون في بعض الاحيان أن لمسة خاتم سحري تكفي . وهذا أمر خاطيء بالتأكيد . ان عرضا من الاعراض يشكل جزءا من سلسلة ، طويلة جدا على الغالب ، ولكن بعض حلقاتها أكثر إثارة للانتباه من الأخرى . وها هي ذي ، من جهة أخرى ، حالة تجعل ذلك مفهوما بصورة تامة .

## ١ - حالة السيد س

السيد س رئيس مشروع . قال في الجلسة الاولى :

- انه لامر مضحك ! كان لي صديقة ، وكنت ذا جنسية سوية ، وها هو ذا كل شيء قد انتهى في وقت قصير . فاصبحت عاجزا . هل أمل ان يكون بوسعي تسوية ذلك بسرعة ؟

فنحن نرى الآن اذن تلك المسألة النموذج : السيد س يهتم اهتماما قويا بعرض يشير الانتباه ( عجزه الجنسي ) ، ولكنه لا يتساءل مطلقا ما اذا كان هذا العرض ناجما عن اضطرابات في الشخصية ، عميقة جدا .

واعتقد أن من الأفضل ان نعرض هذه الحالة عرضا مبسطا .

اب السيد س وامه كانا طاغيين ، ومسيطرين ، وخصاوين<sup>(١)</sup> . ونفذ السيد س الى حياة الرشيد مترعا بمشاعر الدونية ، مرتابا بنفسه ،

---

(١) انظر عقدة الخصاء في « الانتصارات الملهة لعلم النفس الحديث » .

محشيتًا بمشاعر الاثمية ، الخ . ومن المؤكد أنه مملوء بالحصر . ولكن ذلك كله كان لاشعوريا .

ويستمر السيد س في حديثه :

– انني ، اخيرا ، ادير مشروعا ، وأنا ذكي ومتقف ثقافة واسعة الارجاء . وأنا واثق من نفسي . وكل ما يمكنني قوله هو اني مدعور قليلا امام النساء ، وبخاصة امام النساء الذكيات والانيقات .

– ألم يكن لك ابدا علاقات جنسية قبل سن التاسعة والعشرين ؟

– كلا ، بالتأكيد كلا . كنت اكثر احتراما للنساء الشريفات من ان يكون لي معهن اوى علاقة جنسية .

والواقع ان السيد س مصاب بخوف من الزواج يتصف بالحصر ، زواج يجعله يواجه الجنسية . وسنرى بأي اسلوب .

وفي يوم من الايام ، يصادف السيد س امرأة :

– انها رائعة وجميلة جدا ، ولكنها غير ذكية وعامية بعض الشيء . ولا اعتقد اني احبها بعمق . ومع ذلك ، اشعر على نحو غريب اني معها على ما يرام ...

– هل تعلم ما هو عملك وهل تعرف ثقافتك ؟

– كلا ، لم اقل لها شيئا من كل ذلك .

– لماذا ؟

– لا اعلم ... قلت لها اني كنت صحفيا او شيئا يشبه ذلك ...

ان السيد س لم يقل الحقيقة لعشيقته ، وذلك لاسباب واضحة جدا ( ولكنها لاشعورية على وجه الخصوص ) ، كما سنرى .

## والخص الحالة :

لا يشعر السيد س انه على ما يرام ، في الحياة ، الا اذا نال اعجاب الناس . الا انه مزهو بنفسه ؟ على الاطلاق . ولكنه ، بوصفه موضع اعجاب ، يفلت من مشاعر الدونية والاثم . وتم « المحاكمة التالية » في لاشعوره :

« اذا نلت اعجاب الناس ، فانهم لا يحتقروني . اذن ، لا ينبغوني . وبالتالي يحبوني ... » .

فالسيد س اذن بحاجة الى أن يكون موضع اعجاب ، لان الاعجاب يتيح له أن يفلت من حصره . وما دام بحاجة الى أن يكون موضع الاعجاب، فمن المؤكد انه سيفعل كل شيء من أجل أن يكون كذلك !

فكون السيد س موضع الاعجاب يمثل بالنسبة اليه اذن ضربا من الامن . ان عليه اذن أن يستمر في أن يكون موضع الاعجاب بأي ثمن ! فهو اذن لا يقدر أبدا على « أن يترك نفسه على عفويتها » ، وبخاصة فيما يتعلق بفرائزه الجنسية التي تعني ، لاشعوريا بالنسبة اليه ، شيئا ما خسيسا ومحتقرا .

ويقول لنفسه بصورة لاشعورية :

- نقيصة أن « يترك الانسان نفسه على عفويتها » . انني افقد السيادة على ذاتي . فاذا لم أكن سيد نفسي ، توقفت عن أن اكون موضع الاعجاب ، وبالتالي أصبح مضطربا بالحصر .

لماذا كذب ، من ناحية المهنة ، على عشيقته ؟ كذب عليها لان مهنة « الصحفي » كانت تتيح له أن « يمثل دور البوهيمي » ... وبالتالي كانت تتيح له أن يترك نفسه على عفويتها ... واذن أن لا يكون ملزما بتمثيل دور من الادوار .

ومن الناحية الجنسية ، كان كل شيء على ما يرام في ظل هذا الشرط .

وها هي ذي عشيقته ، في يوم من الايام ، بدأت تعجب به اعجابا بولع ، وذلك في أعقاب حديث طويل معها ، حديث كانت قد برزت من خلاله ثقافته وذكاؤه الكبير . وفجأة ، ذلك هو العجز الجنسي الكلي .

فلماذا ؟ ان هذا العجز ليس الا عرضا من الاعراض بالتأكيد . ولكن لماذا برز هذا العجز حين بدأت هذه المرأة تعجب بمشيقها ؟

ويقول السيد س عندئذ في نفسه ، بصورة لاشعورية دائما :

— انها معجبة بي . فاذا تركت نفسي على عفويتها الآن ، كفت عن الاعجاب بي ، وبالتالي ستبتدني . فعلي اذن ان استعيد دوري . علي ان أصبح الشخصية صاحبة السيادة على ذاتها مجددا ، دون عاطفة ، ولا استسلام لغرائزها ، اي الشخصية الكاملة . وعلي اذن ان استعيد الدور الذي كنت أمثله من قبل .

فمن المنطقي اذن ، في هذه اللحظة اياها ، أن يظهر العجز الجنسي ، اذ أن السيد س يكبت غرائزه .

ولنتذكر ان السيد س كان قد طلب الى المحلل ، في البدء ، ما اذا كان بمقدوره ترتيب هذا الامر على نحو سريع . والحال ان هذا العجز الجنسي ، واكرر ذلك ، ليس الا عرضا صغيرا في عداد اعراض اخرى . ولكن هذا العرض شعوري ، في حين ان مئات من الاعراض الاخرى تتصف بأنها لاشعورية . وهتي يزول هذا العجز اذن ؟ اعندما لم يعد السيد س بحاجة الى ان يمثل دورا من الادوار ؟ واي دور ؟ عندما لم يعد السيد س بحاجة الى ان يبدو كاملا في جميع المجالات : مثقفا بصورة كاملة ، ومهذبا بصورة كاملة ، وسيد نفسه بصورة كاملة ، وجديرا بصورة كاملة ، الخ . وسيزول هذا العجز الجنسي عندما يقبل السيد س ان يكون غير كامل . فالعجز الجنسي اذن يختفي عندما يصبح السيد س مرة ثانية قادرا على ان يترك نفسه على عفويتها .

يتبين اذن هنا ان الشخصية اللاشعورية برمتها ، شخصية السيد س ، هي التي ينبغي ان تصعد الى السطح .



فهل احتفظ السيد س بخصائصه بعد التحليل ؟ نعم بالتأكيد ! ولكن هذه الخصائص أصبحت مجددا خصائص أصلية . ولم تعد تقوم ، بالنسبة اليه ، مقام الدفاع . واستطاع اذن يترك نفسه على عفويتها ، وعادت مجددا جنسية سوية .

ونرى كذلك أن السيد س كان بحاجة الى عجزه الجنسي لان هذا المعجز كان يحميه من الحصر . ولكن ذلك حكاية أخرى ساتكلم اليكم عليها فيما بعد .

## ٢ - إخفاق أم نجاح ؟

اننا على خط الانطلاق في هذه المرحلة . فثمة ضرب من ارادة التعاون قامت بين موجودين انسانيين : المحلل ومريضه .

ومع ذلك ، من المتعذر على الاخصائي أن يحيط ، بنظرة سريعة ، بشخصية المريض كلها في تعقيدها وعمقها . وأضرب مثلا في عداد مئة مثال : لنفرض أن طالب الاستشارة « مازوخي » . أنه يبدو اذن وكأنه رجل مسحوق ، يبحث عن الاخفاق بصورة لاشعورية ، وعن اللذة من خلال الالم ، وعن العقاب ، الخ . ويمكن الاعتقاد اذن بأنه فاقد « قوامه » . ويطرح السؤال التالي نفسه : ان تستمر هذه الحاجة الى الاخفاق في اثناء العمل السيكلوجي كله ؟ اوليس التحليل النفسي اذن محكوم عليه بالاخفاق ؟ يضاف الى هذا أن المازوخي موجود يملك في قرارة نفسه على الغالب « عزما باردا » (١) . ويقال غالبا انه ينتظر « فرصته » . وعلى هذا النحو ، يتصف المازوخي بجرعة كبيرة من « السادية » . ولكن هذه السادية ، ان تتوجه ضد المحلل ، من نوع : « بوسلك دائما أن تحاول اخراجي مما أنا فيه ؛ وأنا لا اريد ؛ فأن أراك تفشل امر يسعدني ، ويسعدني أن يخفق كل شيء ، وأجرك في سقوطي ... » ؟

---

(١) انظر « العصاب » في الفصل الرابع عشر .

فليس من اليسر اذن أن يتصور المحلل منذ البدء أي درب سيسلكه التحليل النفسي .  
والمرء نزاع الى الاعتقاد بأن شخصا « مصابا بالعصاب » يمتلك طاقة قاصرة . وليس ذلك صحيحا الا ظاهريا . فمن المؤكد انه يصرف طاقة كبيرة ليرعى عصابه . ولكن علينا أن لا ننسى . وسأبين ذلك - أن العصاب وسيلة حماية قبل كل شيء ، شأنه شأن الصديد الذي يتصف بأنه حماية تمنحها العضوية لتبعد الانسان .

### ٣ - هل النتيجة تكافئ الجهود المبذولة ؟

اليكم ما كان يقوله أحد الاشخاص بعد ثلاثة اشهر من التحليل :

- الآن وقد بدأت أرى بوضوح ، أسائل كيف استطعت أن أعيش خلال هذا العدد من السنين جاهلا كل شيء عن ذاتي... خائفا دون أن أعلم... وكيف استطعت أن أكون عاجزا، الى هذه الدرجة ، عن الحب والعطاء والتلقي... وكيف استطعت على هذا النحو أن أعد سلوكي سلوكا صحيحا ؟ في حين انه لم يكن غير سلوك عصابي ، وأن شخصيتي الحقيقية كانت في الجانب الآخر... كنت قد بنيت بناءة على الرمال المتحركة. وكنت مصابا بالحصر، وأعثر بعصابي وضروب كفتي باستمرار . وكنت دون انقطاع مشغولا بالدفاع عن نفسي ضد كل شيء وسد لا شيء . وكان الناس أعداء بالنسبة لي ، ولكنني لم أكن أدرك ذلك... على أنني ، مع ذلك ، كنت أنصرف بالتالي ، وكنت أجعل الناس جميعا نساء حولي . وأنا أعلم أن ثمة أمورا كثيرة لا تزال بحاجة الى التنظيف ، ولكنني أمل بعد كل ذلك أن أحصل على نتيجة ممتازة !

وحصل هذا الشخص ، بالفعل ، على نتيجة ممتازة ...

واليكم ما كان يقوله مريض آخر :

- لنشر الى أن بعض الناس يجعلون من زكام ، يلزم الانسان أن يبقى في سريره ثمانية أيام ، حكاية من الحكايات ! ولكن لنشر ايضا الى أن ثمة لجماعير من الاشخاص شخصية مصابة بالزكام كلها دون أن يعلموا ذلك ، وأنتي كنت من هؤلاء ، دون أن أدرك ، متشجعا حول ذاتي... خائفا... انه لامر خارق أن يحس المرء بالخوف يزول ...

فالصعوبة تبين الآن اذن . ولا بد للشخص من ان « يتخلى » تدريجيا .  
ولا بد من ان يترك « وسائل دفاعه » العصبية . ولا بد اذن ، في هذه  
الفترة ، من ان تكون **اناه** قد استعادت من قوتها ما يكفي لمواجهة ما كان  
يسبب له الخوف في الماضي . فالتحليل اذن درب رائع ، ولكنه درب  
عسير ... وسنبحث الآن في مرحلته التالية .

## أولا - القصة المرضية

مرحلة القصة المرضية بداية عمل سيكولوجي . انها الخطوات الاولى  
التي نخطوها في النزول الى اعماق اللاشعور . والشخصية الانسانية ،  
كما قلت لكم ، ذات تعقيد واسع الارجاء . فمن المؤكد اذن ان الانطلاق  
لا يتم فجأة ! ومن الضروري ، بادىء ذي بدء ، ان ننشئ « تاريخ »  
المريض . والمريض هو الذي سيقصّ هذا « التاريخ » على المحلل .  
والاختصاصي ، بحسب الطريقة المستخدمة ، سيطرح أسئلة عديدة ...  
او انه سيصمت ، تاركا مريضه يواجه ذاته .

فمرحلة القصة المرضية هي اذن فحص المحتويات **الشعورية** . انها  
بداية الرحلة العظيمة .

وقد يحدث في الغالب ان تباعد الاعراض بسرعة كبيرة ... لكي تخلي  
مكانها لمشكلات اخرى . ويمكن ان يقول أحد الاشخاص على سبيل المثال :  
« **انني خجول بصورة مرعبة** » ( وهذا ليس سوى عَرَض ) ، ثم يجد  
نفسه ، على وجه السرعة ، يواجه مشكلات لم تكن تخطر له على بال  
ابدا . واضرب على ذلك مثلا لا يستعيد بالتأكيد غير جزء صغير جدا من  
الحوار ، لا في الجانب العميق منه مع ذلك .

### حالة صبية ذات خمسة وعشرين ربيعا :

- انني خجولة جدا . والحال ان مهنتي تتطلب الثقة بالنفس ، اذ انني مكلفة بالعلاقات  
العامة . ففي كل مرة ينبغي لي ان اتكلم ، اصاب بشلل حقيقي . انني افكر بهذا الامر قبل

أسابيع تفكيراً يرافقه حصر ليس يوسع أحد أن يكون فكرة عنه ، سوى الخجولين وحدهم .  
انني غارقة في ضرب من الذمر الدائم الى حد اتساءل عما اذا كنت استطيع الاستمرار في  
مهنتي . وأنا مصابة بالجنون بسبب ذلك . لقد عملت كحيوان لكي اصل الى وضعي  
الحالي . والان انا ...

— هل كنت تتكلمين على الذمر ؟ وماذا ايضا ؟

— حسن ... ثمة ضروب من التوقف . آه ! لو أن الآخرين لم يكونوا ينظرون الى !  
ولو أن الآخرين لم يكونوا يطلقون احكامهم علي ! انني اشعر باستمرار انني موضع احكامهم ،  
واخشى زلة قدم .

— ما السبب في ذلك ؟

— ولكنني لا اعلم !

— كيف كان والدك ؟

— كنت البكر . لقد اظهر ابي ، منذ نعومة اظفاري ، اعجابا شديدا بي !

— واستمر يفعل ذلك ؟

— هذا نعم . لو كنت تعلم كم اثار تمردي ان ارى الاسرة كلها تبالغ في اطرائي !

— ولكن هل كان ذلك يلائمك تماما في البدء ؟

— ( ضحك ) نعم ! انت تعتقد ! لم انني مللت سريعا من ضرورة أن اكون دائما كحيوان  
نادر ! واذا لم اكن الاولى في صفي ، خلال مراهقتي ، كنت احس ... آه ... كيف اعبّر ...  
— بأنك مدنية ؟

— نعم . هو ذلك ! مدنية ! انني ، الان ايضا ، اتصرف دائما وكأنني كنت مدنية . ولكن  
اي ذنب اقترفت ؟

— ...

— ثمة شيء كان يحول بيني وبين أن اسقط في نظر ابي . أن اكون الثانية في صفي ؟  
ذلك امر غير مطروح ، فذلك كانت الكارثة . انه كان يحرد خلال شهر لان ثمة من كان قد  
تفوق علي !

ويستمر الحوار . ومع ذلك ، ها نحن الآن بعيدون عن « الخجل » . فلم تكن هذه الصبية ، في الواقع ، أكثر خجلا من **قوس النصر** (وذلك ما يظهر في الأغلب ، اذ ان الخجل ليس سوى عرض من الاعراض ) . لقد كانت المسألة ، بالفعل ، مسألة ضرب من « الاستكمالية »<sup>(١)</sup> التي فرضت عليها ، ثم فرضتها على نفسها . وكان عليها ان تحتفظ في كل يوم ، وفي كل ثانية ، ب**ظاهر خارجي** من الكمال . واذا كان الامر على غير هذا النحو ، فتلك هي الخطيئة ، والحصر ، والاثم ...

**فما الذي كان يتصف بانه شعوري في البداية ؟ لا شيء ، اللهم الا الخجل والتهيب والدعر وشلل الوسائل .** ولكن هذه الصبية لم تكن تتخيل مطلقا ان في الاساس كان ثمة ضروب من الحصر القوي ، وانها كانت قد اثارت ، ضد هذه الضروب من الحصر ، وسائل من الحماية .

### **وحصيلة ذلك كانت ما يلي :**

فاذا بدت معصومة على جميع المستويات ، ولم ترتكب خطأ على الإطلاق ، ولم تغلب ، واذا بدت سيدة نفسها ، **فلا وجود للحصر .**

واذا بدت غير كاملة ، وغير اهل ، ومتردة ، وموضع نقد ، ومفلوبة ، **ظهر الحصر والانمية والدعر ، الخ .**

### **حالة اخرى :**

ها هو ايضا مثال يبدو فيه العرض بعيدا عن الواقع . والمقصود بهذا المثال امرأة شابة ، جميلة جدا ومتزوجة . انها ترغب في « مجرد نصيحة » . وسنرى ما نتج عن ذلك ...

— ثمة ضروب كثيرة من الخصام بيني وبين زوجي . انه يريد اطفالا . وندخل في مناقشات عديدة ، وانا أخشى ان يسير منزل الزوجية نحو الانهيار .

---

(١) انظر ما ياتي فيما بعد ، وانظر : الانتصارات الملهة لعلم النفس الحديث .

— الا ترغيبين في الاطفال ؟

— كلا . انني لا احب الاطفال . واصطنع اي شيء ، ولكنه امر اقوى مني .

— ماذا تأخذين على الاطفال ؟

— انا ؟ اوه ... لا شيء .. انه لامر غريزي ... فهم ... فهم يزعجونني ( سمعت طويل ) .

ثم ، انت ترى ... اكتره ان اكون حبلی .

— لماذا ؟

— حقا ، لا اعلم ...

تلك هي « الدواعي » في البداية . والعرض ؟ مجرد خصام مع زوج ،  
ويبدو امرا عاديا . ولكن كيف يبدو في الوهلة الثانية ؟

— حقا ، لقد فكرت . وتكلمت على ذلك مع زوجي ... اظن ان لمة شيئا آخر غير

ما قلته ... هل تتفضل بمساعدتي ؟

— بالتأكيد ، كيف هي حال حياتك الزوجية ؟

— حسن ، لا اعلم أين أنا منها ... فزوجي يجد ان بواعثي ليست ذات قيمة و ...

وانا متفقة معه . اذن ؟

— هل انت مرتاحة في الحياة ، اقصد من الناحية المعنوية ؟

— ابدو على مايرام ، اليس كذلك ؟ الست متميزة ؟ الست فتية ؟

— ( ابتسامة ) .

— حسن ، لا زلت بنتا صغيرة تخاف .

— وكيف يكون رد فعلك امام الاطفال الاكبر عمرا ؟

— رد فعلي ممتاز . انني اقبل ان يكون لي طفل ... « جاهز » ، عمره ست سنوات

او سبع ...

الكيللا تضطرين الى الحمل ؟

— نعم . عندما ارى امرأة حبلی في الشارع ، اجتازته الى الطرف الآخر . انه لامر

اقوى مني . لمة ضرب من التقزز ... وكلمة « الحمل » تثير لدي التقبؤ .

وكل شيء يتحول الآن . فقد قرّرت هذه المرأة ، بوصفها تحسن ان  
ثمة صراعا عميقا يعذبها ، ان تشرع في تحليل نفسي . وساقدم لهذا  
التحليل تخطيطية ، وسأعود الى ماضي هذه المريضة . وسنرى تدخل  
أم هذه المرأة الفتية . وسنرى كذلك مناخا حياتيا أصبح **ومزيا** ، وادى  
الى الوضع الراهن .

لقد بدأ اذن تحليل نفسي . وكل شيء يجري بصورة عادية في البداية  
( كان المقصود علاجاً ذا قاعدة تحليلية ) . وكانت الذكريات تخطر  
افواجا ... وكانت السيدة ع لا تتكلم على امها ، ابداً على وجه  
التقريب ، الا لتقول عنها : « **امي ؟ امرأة سلطوية !** » . ثم انطلقت  
المكبوتات ، يرافقها الفيظ والنحيب ، بعد بعض « التوجيهات » التي قام  
بها المحلل :

— كانت امي استبدادية حتى طرف اظافرها ، ولم تتركني قط أنجز عملاً شخصياً ،  
وكانت تراقب ادنى افعالي وحركاتي ، كما لو انني كنت عاجزة وقبيحة . وكانت امي تعرد  
خلال خمسة عشر يوماً ان تجرات ان اذهب الى السينما بدونها ( وكان عمري عشرين عاماً ! ) ،  
غير مدخّرة اي ملاحظة حول ما كانت قد فعلت من اجلي ، وحول حياتها التي نذرناها لي ،  
وللزماني ( تحت طائلة الحرد دائماً ) أن أمثل دور الصغيرة العاقلة جداً ، وتفعل كل شيء  
لكي اظل متعلقة بثوبها كما تتعلق به شوكة ...

— وكان ذلك يجري يوماً بعد يوم ؟

— اوه نعم ، يا سيدي ! كنت اجترّ في الليل ما كنت سأقول لها بغضب ، لانها لم تكن  
تدرك شيئاً ... ثم إنني كنت أصمت ... لو كنت تعلم ما استطعت أن أوجه اليها من  
لوم امام مرآتي !

واستمر العمل . ويرى المرء يرتسم بالتأكيد **كره المرأة الفتية المكبوت**  
لامها . وفي يوم من الايام ، وصلت السيدة ع الى عبادة المحلل شاحبة  
ومصابة بالحصر .

— هل تعلم ياسيدي ! لقد راقبت نفسي منذ يومين ، ولاحظت حركاتي وأسلوبني في السير والمناقشة والشكوى . انني كامي ! إنني ... انني شبيهة بامي . انني مثل امي ! ( المرأة الغتية تنتحب ) ، ولهذا ، فأنا أكره نفسي .

ثم انفجرت قائلة :

— ولكنني أرفض أن أكون شبيهة بامي ! أكره امي التي سحقتني دائما وحالت بيني وبين أن احتفظ بشخصيتي ! إنها صبت دائما حصرها الخاص عليّ . انها هي التي كان ينبغي أن تكون موضع العلاج ! عندما ...

وساد صمت طويل . وبكت المرأة الشابة . وترددت طويلا :

— عندما ... عندما كنت الاحظ الـ ... الاحظ صدر امي ... فقد كان الامر وكأنه ضرب من الرعب وأنا أقول لنفسي ان ... ان هذا الصدر كان قد ...

— وساد الصمت . فكلمة « أَرْضَعْنِي » لا تخرج من حلقها .

انني اتوقف هنا . فذلك يقودنا الى ما سيأتي فيما بعد ( انظر النمط الاول للام ، فصل « جواز سفر الى اللانهاية » ) .

وفي يوم آخر ، أرثني السيدة ع رسما رسمته وهي في الثامنة عشرة .  
وها هو الرسم :



شكل رقم (١)

الرسم سلسلة من الوديان الصغيرة ، المستديرة تماما ، والمشطوبة بفيظ .



## وتشرح لي السيدة ع :

— هذه الجبال ، انها كانت حلما (\*) . فالكلمة كانت تشير تقويزي . لقد رسمت ، ثم شطبت بفضب . لم اكن اريد حلما ... افهم الآن انها صورة مستديرة شطبتها ، مستديرة كبطن أمي . انني أرفض ان أكون خارجة من أمي ... وهي ، من جهة أخرى ، عندما كانت تقترب مني ، كنت أصاب برعشة من التراجع ...

**ولنشر هنا الى ان الفتاة الشابة ، في سن الثامنة عشرة من عمرها ، كانت تكره كل ما كان يذكرها ، بصورة لاشعورية تماما مع ذلك ، بالملذبة والاستنادة الأموميتين . فهي ، على سبيل المثال ، كانت تحب قمم الجبال ( رموز القضيبي « المنتصب » ) ، ولكنها كانت تكره المستنقعات والماء بصورة عامة ( رمز الام والمرأة ) . ولم تأكل على الاطلاق بيضة ولا سمكة تحتوي على البيض . وكانت ترفض السكر (حلاوة تمثل العودة الى الام) ، ولكنها كانت « تهرع » الى البسكويت المالح ، الخ . يضاف الى هذا انها كانت ترفض الخروج في الضباب والمطر ( رمز حضن الام التي يختبئ فيها المرء ، ورمز مؤنث ) ، الخ .**

وترى اذن الى اي حد خلتي « عرض » البدء مكانه لوضع مختلف كل الاختلاف . ومن المؤكد ان ذلك يبدو بسيطا بما فيه الكفاية لدى قراءة هذا القليل من السطور . ولكن بأي ضروب الحصر والاجترار لم تمر السيدة ع قبل ان تحتاز الشعور بما كان يدبّر في لاشعورها وفي لاشعور أمها ( وهذا ليس سوى جزء صغير جدا ... ) ؟

وقالت السيدة ع في احد الايام :

— ليست أمي هي التي اكره ... بل ما تمثله بالنسبة لي . انني مثلها . ولا بد لي من

---

(\*) حكيم ، مفردا حكمة ، وهي مكان مص الحليب من الثدي « م » .

قبولها لكي انتم . والحال اني رفضتها دائما بغضب . ومجرد كوني اشبهها جسديا كان  
يعني في ضروب من الفظ المنجون . وكنت ابهرج بصورة حتى تخنفي ، تحت  
الحمرة ، هذه الغضون التي تحيط بالفم ( الا ترى ؟ ) ، لان امي كانت لها هذه الغضون  
ايضا . وكانت تغضب عندما كنت ابهرج . وكلما كان غضبها يزداد ، كنت ابهرج اكثر ...

ويتبين اذن ان المرأة الفتية كانت قد توحدت ( بصورة لاشعورية )  
بامها ، وهي ترفض ، مع ذلك ، ان تكون « شبيهة بامها » . وكانت ترفض  
دورها الانثوي في الوقت نفسه . فكان الامر ضربا من الصراع بين الحب  
والكره ، مع الحصر الذي كان ينجم عنه ...

وكانت السيدة ع اذن ترفض الحمل . وقد افضى الامر بها الى ان  
تكره « الام » ( بصورة عامة ) ، وان لا تحتل مبدءا الام ( كانت تعبر  
الشارع الى الجانب الآخر عندما كانت تتجه صوبها امرأة حامل ) .  
« فان تكون المرأة اما » اصبح بالنسبة اليها رمزا كان مقيتا ( مثل امها ) .

وماذا حدث فيما بعد ؟ ما ان تمت بعض الضروب من احتياز الشعور  
حتى تحررت السيدة ع من التواءاتها الداخلية . وما الوضع بالنسبة اليها  
حاليا ؟ للسيدة ع طفلان ، وهي ام رائعة .

## ١ - هل القصة المرضية واحدة بالنسبة للجميع ؟

كلا بالتأكيد . فذلك يعني ان نقول ان الف شخص مختلفين يبدوون  
تحليلا نفسيا في الاعماق على النحو نفسه . والف شخص يعني الف حياة  
مختلفة والفين من الابداء المختلفين ... حين لا يبحر في طفولة المريض اخوة  
واخوات ! فكل شخص يمثل بالنسبة الى عالم النفس مشكلا لم يسبق  
له ان رآه . وظروف هذا الشخص لم يسبق له ان سمع بها . وذلك  
يتيح للمحلل ان يكون ، في كل يوم ، اكثر تواضعا بعض الشيء وحذرا امام  
الحالات التي تعرض له . ويرى المرء اذن - واكرر ذلك - ان على المحلل  
ان يتصف بضرب من الجاهزية لدى كل اختبار ، وان كل موجود انساني

محصلة الظروف الشخصية ، والوراثية ، والتربوية ، والاجتماعية ، والثقافية ، وانه يتصف بتاريخية لا تشبه أي تاريخية أخرى ولو ان الاعماق الإنسانية الكبرى تتشابه كما يتشابه الأخوان التوأمين . وسأتكلم اليكم على ذلك فيما بعد . وعلى أي الاحوال ، ثمة **الانا** الخاصة بكل شخص ، ووالدا كل شخص ، ولا شعور كل شخص ، وعصاب كل شخص ، والاسلوب الذي يستجيب به كل شخص للظروف ، الخ . وذلك يبدو ، في البدء ، بمثابة إشارة استفهام كبيرة .

ان أي عالم يتختر في ضرب من الطريقة ، يحبس نفسه في شرك . وستكون أورثودوكسيته الثابتة بويب ينقل على عمله . وذلك يعادل تجميد مريضه في اطار من الافكار المتصورة على نحو مسبق . فعصاب أحد المرضى ليس عصاب المريض الآخر . ومع ذلك ، فان كل عصاب صائر الى حماية السيد فلان ، او السيدة فلانة ، من شيء من الاشياء . ولكن من أي شيء ؟ وما هو هذا العصاب ؟ وهل يطابق الاعراض التي يصفها الشخص المعالج ؟ ولاي شيء تم استخدامه في الماضي ؟ وما السبب في اثارته ؟ ولماذا استمر ؟ ولماذا لا يزال موجودا في الوقت الراهن ، فيما ان الظروف التي اثارته ربما زالت ؟ فكل شخص يتصف ، في أعماقه ، بأنه غابة من اشارات الاستفهام . وذلك قائم سواء كان هذا الشخص مصابا بالعصاب أم غير مصاب . وكل فرد يبدي أعماقا نفسية لا تخضع للقياس . وعلى العكس ، يبدي بعض الاشخاص ، في السطح ، أعراضا تظهر متعددة ، في حين أن جذر العصاب غير متعدد على الإطلاق .

والمحطّل والمحطّل ، في بداية عمل سيكولوجي عميق، هما اذن شبيهان بقاصرين جزئيين . والبشر الذي ينبغي النزول فيه ضيق ومظلم . ومع ذلك ، ينطلق المرء بأسرع ما يمكن . ففي متاهة تبدو ، للوهلة الاولى ، أنها معقدة بصورة مخيفة ، لا بد من النزول درجة درجة ، بحثا عن الموضوعات الكبرى ، موضوعات حياة .

## ٢ - ردود فعل المحلل

يبدو المحلل ، من الناحية الخارجية ، سليبا . فهو لا يتكلم ، او لا يتكلم الا قليلا جدا . انه يطرح بعض الاسئلة الذكية لـ « يسد » بعض الثغوب فيما يقوله المحلل ، ويطلق بعض ضربات المسبر ، ويحاول تحقيق ضرب من الاستمرار فيما يقوله مريضه . وعلى اي حال ، يبقى المحلل **حياديا** ، ولا اقول : لامباليا . والمحلل يبقى دائما ، من الناحية الداخلية ، **فاعلا بصورة قوية** . فلا شيء يمكن ان يفلت منه : لا تعبيرا في صوت المريض ، ولا صمتا ، ولا زلة لسان ، ولا ترددا ، ولا حصرا . واذا كان ملزما بان يظل منتبها ، فان شخصيته وآراءه لا يمكن ، على نحو من الانحاء ، ان تتدخل . وليس بوسعه ، في اي حال ، ان يشعر بأنه « متأثر » برأي يقدمه مريضه . ومن الواضح ان المحلل لا يمكنه ، اذا كان يتعامل مع مريض كاثوليكي وهو غير كاثوليكي ، ان يستجيب بريية او بتهكم الى ما يقوله مريضه ، **ولو بصورة لاشعورية** . وذلك من نافلة القول ، ولكنه شرط رئيس ، ولا يمكنه ان يستجيب وفق آرائه ، ولا ان يضع شخصيته الخاصة في الميزان .

وردود فعل المحلل تتغير تبعا للطريقة التي يختارها . فهو يجب عن بعض الاسئلة ، ولكنه يحتفظ بالصمت امام بعض الاسئلة الاخرى ، ويتسم او لا يتسم ، ويشير بحركة من الحركات او لا يشير . ويختلف كل ذلك بحسب المحلل ، والطريقة المختارة ، والظرف الراهن . وعلى اي الاحوال ، كما سترون فيما بعد ، لن يكون ثمة ابدا شروح عميقة في البداية ، لهذا السبب البسيط المتمثل في ان الجزء الاكبر لا يزال لاشعوريا ، وان الشخص غير مهيا ، على الاطلاق ، لفهم هذه الشروح ولا لقبولها وهضمها .

## ثانيا - غبطة البدء

بدايات عمل سيكولوجي في الاعماق يولد ، على الغالب ، ضربا من الغبطة من نموذج خاص تماما . وهذا امر طبيعي كما سنرى فيما بعد .

وقد يحدث من جهة أخرى أن بعض الجلسات تكفي ، في حالة العصاب الحديث العهد ، لازالة الاضطرابات . وهو أمر يمكن فهمه : فلم يتهيأ الزمن للعصاب لكي ينمو ، ولا لضروب الكبت أن تفوص . أن كل شيء منوط اذن بالدروع المتتالية التي يلبسها الشخص ، والتي تجعل شخصيته الظاهرة محسوبة على انها شخصيته الحقيقية .

وعلى أي حال ، ستظهر ، في البداية ، عناصر ثلاثة ، موجودة في كل عصاب أيا كان : **الاثمية والحصر والعنوانية** . وسنرى عدة حالات .

ومن المؤكد أن ضروب « احتياز الشعور » لاتزال بعيدة(١) . هذه الضروب من احتياز الشعور التي ستتيح ، في نهاية المطاف ، أن تتحرر الشخصية الحقيقية ، الاصلية ، المخبأة في الاعماق . ويعيش الشخص حاليا وفق شخصية ليست شخصيته على الاطلاق . لقد تكوّنت هذه الشخصية بفعل مجموعة من الدفاعات والاقنعة التي حمتها من الخوف والحصر والشعور بالدونية ، الخ . ويبدأ الشخص اذن تحليلا نفسيا ، ترافقه دروعه ودفاعاته . فما الباب الاول الذي يفتح ؟ انه بكل بساطة باب **بعض الأسرار الشعورية** ، ولكنها أسرار تخنق المريض تماما : أسرار احتفظ بها لنفسه ، ولم يجرؤ على الاعتراف امام الغير ( أعني المحلل ) ، وأمام ذاته ، بالنحو الذي يرى ذاته به . وليس ملزما بأن يمثل دورا ... للمرة الاولى في حياته على وجه الاحتمال .

نعد الى الشخصية « المزيفة » . انها شخصية « ظاهرة » تحمي من الخوف . فاذا احتمى شخص من الاشخاص ، فذلك يعني انه يشعر بالتهديد . والحال انه ليس ثمة أي داع ليكف التهديد ... اذ أن الشخص يعيش كل يوم بين الآخرين . فلا بد اذن لآليات الحماية من أن تتمركز كل يوم وترعى وتتجدد . وفي كل يوم تنضاف الى الدرع صفيحة ، والى الحصن حجر . واذا يفعل هؤلاء الاشخاص ذلك ، فانهم يحاولون ازالة

---

(١) انظر الفصل التاسع : « احتياز الشعور » .

الصديد ( النفسي ) ... دون ان يعلموا ان ثمة شوكة قوية تبقى مفروسة  
في قعر لاشعورهم ...

## ١ - للمرة الاولى ...

كان حديثنا اذن عن الغبطة في بدايات التحليل . وها هو ، على سبيل  
المثال ، ما يقوله احد المرضى :

- انها المرة الاولى التي اجرؤ فيها على أن ابوح باشطراباتي ، لانني أعلم ان كل شيء  
يفهمه الذين يعملون في علم النفس ، وانهم لا يطلقون احكاما على أي شيء . انني اشعر ان  
عيادتكم جزيرة لا يمكن لأي شيء ان ييلفني فيها ...

يقال انه طفل يبحث عن السلام والامن ؟ والواقع اننا ازاء رجل  
يمتلك طاقة هائلة وذكاء نادرا ، وقد أتى يبحث عن المحلل من اجل بعض  
الانحرافات الجنسية . ولكن لدى هذا الرجل ، بوصفه مصابا بعصاب ،  
جزءا من الشخصية بقي طفاليا ، وبالتالي متوقفا : وهذا الجزء الطفالي  
سيثبت على المحلل الذي سيصبح « ابا » ه التحليلي ، بكل الرمز العميق  
الذي يرتبط به . وعبارته « عيادتكم جزيرة اشعر بالراحة فيها ، ولا يمكن  
لأي شيء ان ييلفني فيها ... » تذكر بحرارة حفن الام . ولكن ذلك  
حكاية اخرى سأتكلم عليها فيما بعد .

ويبدأ اذن هذا الرجل ، الذي عاش متشنجا خلال سنين ، يسبح  
في الغبطة . فلماذا ؟ انه ، بادىء ذي بدء ، يعلم ويحس بأن المحلل يقبله  
وبحبه كما هو ودون ظل من حكم اخلاقي .

ويقول هذا الرجل ايضا :

- أحس للمرة الاولى انني لست مسخا من الانحراف ، ولكنني انحرفت عن طريقي  
عقب ظروف لم ادركها . فيوسمي اذن ان أقول لك دون خجل كل ما أحس به . انه لامر  
رائع هذا !

ولمة عندئذ محاكمة تستقر بهدوء لدى الشخص : « يقبلني المحلل  
ويجبني . اذن ، ربما بوسمي ، في الحقيقة ، ان اقبل نفسي ، انا ايضا ،  
وان احب نفسي كما انا حاليا ، بانتظار ان استعيد شخصيتي الحقيقية .  
فاذا كان المحلل يقبلني ويحترمني ، فذلك لانني لست مسؤولا عما أتصف  
به . و « عيبي » الوحيد ان لي لاشعورا ... ولكن هل أنا حقا ما اعتقد  
انني متصف به ؟ وعلى اي الاحوال ، عليّ ان أحاول الرؤية بوضوح وان  
ازيل ما يوقف حريتي الداخلية ... »

وهذا الرجل مصيب في محاكمته . واذا كان يخضع نفسه للتحليل ،  
فليس ذلك لكي يهدم شخصيته ، وانما لكي يدمر الدروع الطفالية التي  
تجب اناه الحقيقية ، ولو ان لهذه الدروع الطفالية ، على الغالب ،  
**مظاهر القوة !** وهي دروع يحسبها الناس على الغالب انها الشخصية  
الحقيقية . والحال ان الرجل المصاب بالعصاب ملزم ، على الغالب ، بأن  
يبدو في الحياة الجارية كما يريد الآخرون أن يكون . وها هو المثال على  
ذلك :

— عشرون عاما انقضت وأنا امثل دورا واحمل قناعا . وكنت مرشفا على ذلك ، والا  
رأني الآخرون كما انا عليه . وعندئذ سيحتقروني . انني رجل ضعيف . ولكنني لا استطيع  
أن أبدو للآخرين أنني رجل ضعيف . وعلى اذن ان أظهر قويا . فلو عرف الآخرون ما أتصف  
به وانفعا لاحتقروني ولاهملوني . انه لامر منهك ان يمثل الانسان هذا الدور في كل لحظة .  
واليوم الوحيد الذي أستطيع فيه ان اكون ما انا ، بمضى الشيء ، هو يوم الاحد ، عندما  
أستريح في الريف . وانه لامر يشير الحصر ، في هذه الفترة اياها ايضا ، ان يقول المرء لنفسه :  
« انني رجل ضعيف ، ولكن علي غدا أن أستأنف استعادة دوري وقناعي ... » .

## ٢ - هل تستمر القبطة ؟

كلا بالتأكيد. فبداية التحليل<sup>(١)</sup> يقوم على استعراض «المادة الشعورية: الاعراض والطفولة والمراهقة والوالدين ، الخ . فالمرضى يرتاد السطح ، ولكنه لا يمس لا شعوره بعد . والتأثيرات المتبادلة بين الشعور واللاشعور كثيرة ، ولكن المريض لا يحس بها . ولا يمكن أبدا ، من جهة أخرى ، فصل الشعور عن اللاشعور ، فالاول يسبح في الثاني باستمرار ، كما تسبح الاسفنجة في الماء .

ولكن المادة الشعورية تنفذ تدريجيا . انها اللحظة التي يصرّح فيها المحلل : « لم يعد لدي شيء أقوله » أو يصرح : « لم أعد أتذكر شيئا » . وهي اللحظة التي تبدأ فيها النزول في بئر اللاشعور ، بشر يتصف بأنه ضيق ومسدود ، في البداية ، ثم يأخذ في الاتساع . وهنا اذن انما تبدأ الصعوبات ، والمقاومات ، وضروب التوقف ، والتحويل . وهو أمر يمكن فهمه مع ذلك . ولنعد الى الحالة التي مر ذكرها . فلدى السيد س مجموعة من أصناف الحصر اللاشعورية ، العميقة أكثر فاكثر . وثمة ، من بينها ، حصر كونه معروفا بأنه ضعيف . فقد بذل اذن كل مجهود ، خلال سنين طويلة ، لكي يبدو قويا ، في نظره الخاص وفي نظر الآخرين . ويمكن أن يبدو رجلا « قويا » في الخارج ، ولكنه يمثل امام زوجته دور

---

(١) هل يمكن ان نقارن بين بدايات التحليل والاعتراف الكاثوليكي ؟ ثمة ضرب من التحرر ، في الجتهين ، يسببه الاعتراف بالاسرار الخائفة ( ينطوي الاعتراف الديني على مظهر انساني ينصف بأنه لا يمكن اهماله ) . وثمة ، من جهة أخرى ، ضرب من التعارض الظاهر : ان الاعتراف الديني يولد الصفح عن الخطيئات ، في حين ان التحليل ينزع الى الغاء مشاعر الاثم . ولكن من الضروري ان يدرك المرء تماما اختلاف المعنى لكلمتي « خطيئة » و « اثم » على المستويين السيكلوجي والديني ( انظر المقدمة ) .

وليس في علم النفس اخلاق بالمعنى الذي يفهمه الناس بصورة عامة . فالاخلاق في علم النفس هي الانا العليا . ولا تظهر اخلاق فردية حقيقية على المستوى السيكلوجي الا بعد تحليل نفسي كامل . انها اخلاق طبيعية لا تبني على ممنوعات ، واتما تبني على قواعد حيائية يختارها المرء وهو يعرف الوقائع ويختارها بكل حرية داخلية .



« الصبي الصغير الحنون » على سبيل المثال . ومن الواضح ان مجرد ادراكه ذلك ، اذا كان لاشعوريا ، يثير لديه انفعالا شديدا الازعاج وحسرا جديدا . فهو اذن يبذل أقصى جهده ليتجنبه ... ولكيلا يدركه . وكل فرد ، من جهة أخرى ، يفعل الشيء نفسه . ولكن ذلك لا يمنع هذا الحصر من ان يوقف الطاقة التي تتحرر بمجرد ان السيد س « يحتاز الشعور » بما يحدث .

## ثالثا - مقاومة المريض

امام من يقاوم المريض ؟ انه يقاوم نفسه . وها هو جزء من جلسة المريض الذي كان موضوع بحثنا في الفقرة السابقة :

- باسم الكلب ، اضطراباتي ، هذا حسن جدا ، ولكن ماذا بعد ... ؟ قلت لي ان التحليل النفسي قاس . ولقد بدأت ادرك ذلك . ان الانا كلها موضوعة موضع التساؤل ، او بالحري اناواتي المزيفة ! نشة كومات من الاشياء تصعد ... وكنت اعتقدها مصنفة في قعر درج قديم ... من الانسب ان يحاول المرء نسيانها ... وان يحاول نسيان نفسه ... وان لا يرى ما هو عليه واقميا ... نعم ... ان ذلك لافضل ... الامر يبدو كما لو ان كل شيء كان قد بدا يتحرك في الداخل ... جلبة حقيقية ... ولو ارجئت كلابا واحدا ، لاحسنت ان جميع الكلابات الاخرى سترتخي وتنهاوى عقب ذلك ... فهل انا ما انا عليه ؟ ... ان يذهب هذا التحليل ادراج الرياح ؟ ولكنني انا ، انا ، واريد التخلص من هذا الالم ! ويبدو لي انني اذا توصلت الى ان ادرك بوضوح كل هذه الاشياء التي استشعرها بصورة مبهمه ، فذلك امر مسلم به . ولكن ، يا إلهي ، كم هو صعب ان بعض المرء نحو حقيقة نفسه ! فكلمنا الفتح باب سجن ، تمسكت بالتضبان ... هل هذا خوف من الحياة ؟ هل هو خوف من ان اكون راشدا ومسؤولا ؟ ...

فالمريض يقاوم اذن . ولكن من هو الذي يقاوم اولاً ؟ وما هي المقاومة؟ المقاومة هي ضرب من الكبت . ان ما يقاوم على وجه الخصوص هو الاجزاء المعصية من الشخصية . وما ينبغي له ان « يخرج » ويصبح شعوريا مكبوت في اللاشعور ... ما دام المريض لم يصبح من القوة بحيث يتحمل بعض « ضروب البوح » حول ذاته . فما السبب ؟

لقد انجس احد الناس ، خلال سنين ، في حصن ، ووجهه مدافعه نحو السهل الذي كان الأعداء ينتشرون فيه . ولكن ها هو المحلل يقترب فاصدا تهديم الحصن الذي أصبح غير ذي جدوى ... لانه لم يعد ثمة وجود للأعداء الا في ذهن المريض . فماذا تفعلون لو كنتم مكان المريض سوى البحث عن تدعيم الآجرة التي يريد المحلل ان يرفعها ، وارتاج الباب الذي يريد فتحه ؟ وفي هذه الحال ، تبدو **العنوانية والحصر** بصورة دائمة على وجه التقريب ، الامر الذي يتصف بأنه منطقي تماما . فتذكروا ما كان يقوله المريض الذي مر ذكره آنفا : « كلما انفتح باب سجنى تمسكت بالقضبان » .

وكان مريض آخر يقول :

— ذلك امر يسير على نحو افضل بكثير . ولكن المضحك ان اشعر في بعض الاحيان بأنني ابرز في الوجود واتجاوز بابا كبيرا... ثم اشعر بالانطلاق بأقصى سرعتي نحو الخلف والانطواء على ذاتي في غروب هروبي ، وفي عملى العنيف ، الذي يقوم مقام الملجأ بالنسبة لي ، وفي افئتي ...

## ١ — صنفان من المقاومة

ثمة المقاومات التي تنشأ من الشخصية الحقيقية والاصيلة . وهي ليست في هذه الحال **مقاومات حقيقية** ، ومن المؤكد ان المحلل لا يمسها ابدا . **ومثال ذلك :** من الواضح ان التأسلية(\*) البوذية لشخص بوذي ، يحلله نفسيا محلل كاثوليكي ، تقاوم كل « تعد » كاثوليكي يحاوله محلل نفسي رديء . وهذا البوذي مصيب في موقفه ... باستثناء ما اذا كان دينه عرض عصابي في عداد الاعراض الاخرى .

---

(\*) التأسلية : مصطلح في علوم الحياة يعني عودة بعض الخصائص المتحدرة من الأجداد القدماء الى الظهور مرة ثانية ، مع أنها لم تظهر في الاجيال الوسطى . ولكن المصطلح مأخوذ بمعنى « وراثة الافكار والتصرفات المتحدرة من الاجيال الماضية » « م » .

**وأفضل معيار هو المعيار التالي :** اذا كنا ازاء عرض عصابي ، فنحن ازاء أمن مزيف . اذن ، **فالحصر والعدوانية يبدوان اذا مسسناه .** ولكن الامر مختلف اذا كنا ازاء نمط أصيل من أنماط الحياة ، الا اذا كان هذا « النمط الحياتي » من التخثر والتصلب بحيث يقاوم القنابل الاكثر قوة .  
**فنحن نقع اذن في السؤال التالي ذي الصعوبة الكبيرة :** هل هذا العمل يشكل جزءا من عصاب ام لا ؟

كنت قد قلت لكم ان « المقاومة » تعني « الكبت » ، ومنع الاشعور من ان يظهر على السطح تجنبيا للالم ، اذ ان الكبت مرتبط بانفعالات مؤلمة . ولنفرض الآن ( وسأتكلم اليكم على ذلك فيما بعد ) ان المحلل يغالي في سرعة بيان ما هو مرضي في لاشعور مريضه . فمن المؤكد ان رد فعل المريض سيكون **المقاومة** . وهو امر سوي ، ما دام المحلل يهاجم امنا يتصف بأنه كان اساسيا بالنسبة اليه ولا يزال كذلك حتى الوقت الحالي ، على الرغم من انه مزيف ، ولا يزال بحاجة اليه لكي يحمي نفسه .

وبناء عليه ، فان أفضل وسيلة لاطهار الحصر والمقاومة للذين يوقفان كل علاج هي ان يمضي المحلل في تحليله بسرعة كبيرة ، وان يرغب في افهام مريضه على وجه السرعة ما يحدث ، ولو ان كل شيء واضح بالنسبة له .  
اليكم ما كان يقوله لي أحد الرجال بعدوانية هائلة :

— انه لسهل دورك ! انك لا تقول شيئا ، وانت تصني . فهل يمكن اذن لاي كان ان يكون محللا نفسيا ؟

بيد أنه قال بعد شهرين :

— أدرك للمرة الاولى كم كان صمتك يسبب الاحباط لي . وكنت أقول لنفسي دون ان أجرؤ على الاعتراف لك : « من يحسب نفسه ؟ » وافهم ايضا ان المحلل لا يمكنه في البداية ان يقول شيئا ، وعليه ان يكون منتبها اقصى ما يكون الانتباه . وادرك كم كان لصمتك وكلامك وحركاتك وقبضة يدك تأثير عليّ . فقد كنت أجترّها خلال ايام بصورة مبهمه . وكنت أقول لنفسي : « ماذا يظن بي ؟ هل احسنت جوابا ؟ » .

واشير هنا الى أن هذا الرجل ما كان عليه ان « يجيب » ، بما أن

اي سؤال لم يكن قد طرح عليه . ولكن هذا الانطباع بـ « الامتحان » شائع في بداية التحليل .

واستمر الرجل في حديثه يقول :

— لو كنت قد قلت لي في البداية ما جملتني اكتشفه الآن بلمسات صغيرة جدا لتفقت من الضحك ، أو لفعلت ما لا يعلمه الا الله ...

## رابعا — بعض امثلة المقاومة

### ١ — مريض مهذب بإفراط

تظهر هذه الحالة غالبا في بداية التحليل . فيبدو المريض متصفا بتهذيب « لا مطعن فيه » ، وبكياسة لا يتخللها أدنى عيب ، ويمضي الى حد الخضوع الكلي .

يقال شعبيا : « اكثر تهذبا من ان يكون شريفا » . ويمكن القول في التحليل النفسي : « يخفي هذا التهذيب المغالي عدوانية كبيرة وحصرا قويا » . ويجعل المريض من نفسه اذن ، بهذا التهذيب ، غير ذي مطعن . والحال انه يباشر تحليلا نفسيا لكي يكون موضع هجوم ، اعني لكي يزيل شخصيته المزيفة . ومن المؤكد ان التهذيب الكبير « ينظر اليه الناس نظرة اعتبار » في الحياة العامة . ويتصرف المريض تصرفا مماثلا في التحليل النفسي : فهو يختبئ وراء التهذيب حتى ينظر اليه المحلل « نظرة اعتبار » (اي حتى لا يكون موضع انتقاد ويكون محبوبا) ، وحتى لا يمكن من نفسه .

فالتهذيب في هذه الحال دفاع اذن . والمريض يكبت العدوانية في كل مرة تنزع الى الظهور ، ويعزّز تهذيبه . اننا اذن امام سلوك يحتمل ان يصبح حلقة مفرغة اذا لم تتحطم بسرعة .

ها هو مستخلص من جلسة يبين ان شابا « يختبئ » في ظل كياسته ، كما يختبئ آخرون في ظل المرح والمزاح ، الخ .

— مساء الحر يا سيدي . كيف حالك ؟ ( ويشد على اليد مسلماً بكثير جداً من الود ،  
ويغالي في الالحاح والابتسام ، ويتصف بأنه لطيف باغراط ) . ( انه يتقدم ثلاث خطوات الى  
الامام ثم يقفل راجعاً ) . هل امضيت نهاراً طيباً ؟ هل انت على ما يرام ؟

— نعم ، أشكرك .

— آسف حقاً على ان تستقبلني في وقت متأخر الى هذا الحد ، ولكنني ( سيل من  
التفسيرات او « التبريرات » بالحرى ) . وآمل ان لا اتمبك كثيراً .

— ابتسامة وهزة رأس بالنفي .

— (مغالة كبيرة في الود كما لو انه قد كان قد ارتاح راحة «لا حد لها» : آه ، نعماً حدث  
لانى ، وانت ترى ، استفزع ان اسبب ادنى ازعاج للناس ( يتسم ) ... وبخاصة لك !

ماذا نرى هنا ؟ هذا الرجل ، اولاً ، يشعر بالاثم . انه يعاني الحاجة  
الى تبرير حضوره ، وتبرير « النعمة التي حظي بها باستقباله في وقت  
متأخر الى هذا الحد . فماذا حدث في اثناء جلساته ؟ انه لا يجرؤ على  
معارضة المحلل ابداً . ولا يبدي رأياً شخصياً على الاطلاق . ويهرب في  
التهديب والخضوع . فثمة هنا اذن مقاومة ذات اهمية ، اذ انه يعارض  
دائماً بالواجهة التالية : قبول ما يقول المحلل بصورة مباشرة ، والموافقة  
على كل شيء ...

انه يقول : « استفزع ان ازعج الناس » .

وهو ، بصورة لاشعورية ، يفكر على النحو التالي :

— أخشى ان اشعر بأنني اسبب الازعاج للآخرين . وانا موقن مع  
ذلك دائماً انني اسبب الازعاج ، وان « وجودي غير مناسب » ، وانني  
لست في مكاني . وآمل ، وانا اقول « انني استفزع ان ازعج الآخرين » ،  
ان ينظر الناس الي ، بسبب كياستي ، على أنني شخص « ممتاز » . ان ذلك  
لهو ، من جهة أخرى ، امني الرئيس . وعلى ان افعل كل شيء لاحتفظ

به . فعلى اذن ان اعزز تهذيبي باستمرار . ومن « المحتمل » ان يكرهني الناس وينظرون اليّ نظرة سوء اذا كنت عدوانيا او عفويا ، الامر الذي يجلب لي الحصر . والحال انني ارجب في تجنب الحصر : عليّ اذن ان ابقى مهذبا وغير عدواني ...

يضاف الى هذا ان المريض يسجل ملاحظات عديدة باهتمام يتصف كثيرا بالمفالة .

**يقول :**

— انظر . لقد سجلت امس كثيرا من الملاحظات من اجل جلسة اليوم . فهل امل ، بهذا النحو ، ان اوثر عليك بعض الزمن ؟

**انه يفكر بصورة لاشعورية على النحو التالي :**

— اذا ظهرت انني اعمل جيدا ، املت في ان يحبني المحلل ويتمجّب بي . فاشعر على هذا النحو بانني اقل اثما . يضاف الى هذا ان هذه الملاحظات تتيح لي ان ابدو مرموقا وان تجعلني موضع « اعجاب » محلي ، ولاسيما ان الصمت يثير حصري بشدة في اثناء الجلسة . وهذه الملاحظات تتيح لي ان اتخلص منه .

وهنا سال المحلل مع ذلك :

— لماذا تسجل ملاحظات قبل الجلسة ؟

— اه ... ولكن كما تريد يا سيدي ! كنت اظن انني اساعدك . ولكن اذا كنت ترغب في ان لا اسجل ملاحظات ، اكفّ عن ذلك !

انها اللعبة ذاتها ايضا . يضاف الى ذلك ان المريض يشعر ان المحلل « يكشف القناع » عن الدفاع اذ يطرح السؤال . فعلى الرجل الشاب اذن ان يبدو عدوانيا . والحال انه يعزز تهذيبه وخضوعه . ونقع مرة ثانية اذن فيما كنا قد قلناه آنفا .

وكان موضوع حديثنا شابا رباه والدان سلطويان أجبراه على اخفاء شخصيته تحت واجهة من الطاعة .

## ٢ - من زلة اللسان الى الفعل الخائب

ويفهم المرء فهما جيدا جدا ان بوسع مريض من المرضى ان يقاوم بأساليب مختلفة جدا . وتحدث المقاومات غالبا عندما تقترب من مشكل اساسي يضع جزءا كبيرا من الشخصية موضع التساؤل ، او عندما المريض يعاني الاحساس بان محله سيرفع القناع عنه . وعندئذ انما تتجلى مجموعة كاملة من الاعمال تدل دلالة تامة على مقاومة الشخص اللاشعورية .

وتشكل زلات اللسان او الافعال الخائبة جزءا من **الحياة اليومية** ومن **علاج التحليل النفسي** كذلك . وقد اكتسب فرويد ، من جهة اخرى ، جزءا كبيرا من شهرته الشعبية ببيانه ان ثمة جسورا بين الحياة النفسية السوية والمرضية . وبين ان كثيرا من السلوكات المرضية ليست سوى المبالغة في السلوكات السوية .

وبين عامة الناس ، ينصبّ الكلام كثيرا على **الافعال الخائبة** وعلى زلات اللسان . وهو امر صحيح كل الصحة اذا كان كثير من الاشخاص يعتقدون بان التحليل النفسي كله لا يتلخص بذلك . وعلى اي حال **بين فرويد** في كتابه ، **علم الامراض النفسي للحياة اليومية** ، الى اي حد يمكن ان يكون نسيان موعد او اسم او مشروع ، وكذلك فقدان بعض الاشياء او اطلاقها ، نتاج سيورات لاشعورية ليس لدى الفرد عنها اي فكرة ، باستثناء ما اذا صحح مباشرة ما قاله او فعله . ولكن التصحيح لا يمنع ان يكون « ذلك » قد قيل او تم فعله .

وغير مجد ، في اعتقادي ، ان نتوسع هنا حول هذه المشكلة ، واعتقد ان بعض الامثلة تجعل ذلك مفهوما على نحو جيد .

فقد يحدث على الاغلب ، عندما تتجلى بعض المقاومات خلال التحليل النفسي :

— ان يصل المريض متأخرا الى موقف سيارة النقل العام ، ان يتجاوز الموقف ، ان يخطيء في زر الجرس ، ان يرتكب خطأ في الموعد ، خطأ في الساعة او اليوم ، ان يشعر بأنه « ليس على مايرام » في اللحظة الاخيرة ، ان ينسى تنظيم مواعيد الدفع بفعل عدوانيته ضد المحلل : ومضمون ذلك : « لا اريد ان ادفع » ، الخ .

وكل ذلك ، من جهة اخرى ، شائع جدا في اثناء التحليل .

ولنضرب مثالا آخر : مثال مراقب يراقبه باستمرار وبضايقه والد مدقق او والدة ، ويفلت منه فيقع على الارض شيء ثمين خاص بهذا الوالد او والدة . فقد يبدو ، للوهلة الاولى ، ان المراقب يفلت منه الشيء فيقع بفعل السهو او الشرود . ولكن هذا الحطام ، حطام الشيء ، يعبر ، للوهلة الثانية ، عن عداوة لاشعورية عنيفة ضد الوالد او والدة . هذا اذا لم تكن ازاء ضرب من جريمة قتل احد الابوين ، وهي جريمة رمزية . وستجدون حالات من هذا النوع فيما بعد . والشيء ، هنا ، يرمز الى ذلك الوالد الذي يتمنى المراقب ان يقتله تمنيا لاشعوريا . فثمة اذن آلية من **الابدال** . وهناك آليات ابدال اخرى شائعة جدا : شخص غاضب يضرب الطاوله بقبضته ، في حين انه يرغب بصورة لاشعورية ان يضرب خصمه . ويقبل الرسالة احد العاشقين لان فم خطيبته بعيد المنال عليه . ويمكن للمرء ان يجد امثلة لا تحصى في الحياة اليومية .

فزلة اللسان والفعل الخائب يعبران اذن عن حالات لاشعورية . ويمكن لهما ، في بعض الحالات ، ان يقدمتا اشارات ثمينة للمحلل ، وبالتالي لمريضه . وها هي الان بعض الامثلة :

يقول للمحلل رجل مخنث الى حد كبير جدا ، لواطى بالكمون :

— هل ترغب في ان ارسل اليك **عائتي الشهرية** ؟ ( بدلا من احلامي ) .

يقول مريض آخر متعلق بأمه تعلقا كبيرا :



— هذا اليوم إياه ، كنت حزينا . وقد رغبت في أن اعود في امي ( بدلا من : الى امي ) .

وقال رجل آخر مختث جدا كذلك :

— انني صالون صغير\* الى حد ما ... ( بدلا من : حرد ) .

وقال احد الرجال :

— اخاف دائما من ان ابدو جنسيا ( بدلا من : امارس الفعل الجنسي ) .  
وذلك كان يدل دلالة تامة على الحالة اللاشعورية ، لان هذا الرجل كان مصابا بالاستكمالية ، وكان عاجزا عن ان يترك العنان لغرائزه العميقة ، وخائفا على الدوام من ان « يفقد ماء الوجه » . فكانت عبارته ( ابدو جنسيا ) تعني اذن بالنسبة اليه : فقدان ماء الوجه وفقدان سيادة مزيفة على الذات ، واطلاق شريكته حكما عليه بأنه « غير كامل » .

وقال مريض آخر :

— سبب تبكيت ضميري ، وانا الان اكسب المال ، انني لم احب امي . ومع ذلك ، كنت اعبدها ... ( احب بدلا من اساعد ) .

مثال آخر :

— ما هي مهنتك ؟ سال المحلل رجلا مختثا جدا .

— عاملة تزيين ... آه ... عامل تزيين .

ولنضرب مثالا آخر لننهى حديثنا عن هذا الموضوع ، والمثال عن امرأة رفضت بصورة عامة وضعها النسوي . وقد كتبت الى المحلل :

— الرجال ، اكرههم جميعا موضوعين في كيس واحد ... ( بدلا من : وضعتهم جميعا في كيس واحد ) .

---

(\*) Boudoir : صالون صغير مزين باناقة كانت تستقبل فيه سيدة البيت اصدقاءها

وصديقاتها . Bodeur : حرد « م » .

واعتقد ان هذه الامثلة التي ضربتها تبين جيدا سمه « خديعة الذات »  
الارادية التي تتصف بها زلة اللسان او الفعل الخائب .  
وهذه الخديعة ناجمة بالتاكيد عن نزعة داخلية وعن رغبة لاشمورية .  
فالمقصود اذن فعل يفلت من رقابة الفرد .  
وقبل ان نكمل سيرنا ، اقترح الان ان نفحص العدوانية السوية  
وغير السوية . فهي حاضرة دائما في المصاب ، كما قلت ، ويمكن لها  
ان تكون مرئية او مكبوتة ، وسنرى ذلك .  
وسابدا اذن بالمشكل العام ، تليه بعض الحالات التي سنكتشف ان لها  
خيطا هاديا واحدا .



## الفصل الخامس

### أنا موجود، إذن أنا عدواني

العدوانية المرضية عنصر من عناصر كل عصاب . ويمكن لهذه العدوانية أن تكون « مرئية » وصريحة . ولكنها يمكن أن تكون « كامنة » ولا مرئية ، ومفطرة بمجموعة من الترميزات .

وما شأن العدوانية في الحياة اليومية ؟ ومتى تكون سوية ؟ ومتى تكون غير سوية ؟ وما يمكن أن تكون مفعولاتها ؟

يستلزم وجود المرء أن يؤكد ذاته . والعدوانية سوية بهذا المعنى . وهذه العدوانية ، أياها ، لا تهاجم كيفما اتفق ، ولا تبصق النار : إنها التعبير عن نزعات فاعلة لدى الموجود الانساني .

فهل أنت عدواني ؟ أنك عدواني لمجرد أنك تفتح الباب ، ما دام عليك أن تفرض قرارك على شيء جامد . ولكن العدوانية تصبح مرضية إذا قذفت الباب ، حين يصرّ أو يقاوم ، بركلة من قدمك وأنت تصفه بـ « الباب القذر » .

وهذا هو ما يفعله الملايين من الراشدين في المليارات من الاعمال اليومية . والعدوانية السوية هي التعبير عن كل نزعة فاعلة ، متجهة نحو الخارج .

**والعدوانية غير السوية** تتصف بضرب من خاصة هدامة عدائية . وهي ، بصورة عملية ، تركز دائما على الخوف ، شأنها شأن عدوانية الحيوان الذي ضاق عليه الخناق .

ولكن ما اكثر التركيبات الممكنة التي تظهر بها العدوانية ! يمكن ، على سبيل المثال ، أن يخاف المرء و « يفالي » لكي يفرض نفسه . وهو ، اذ يفعل ذلك ، يفلت من الخوف . انها اذن عدوانية غير سوية . ولكن بوسع المرء ان يبدو غير عدواني ابدا . وبوسعه ان يبدو كينسا الى الحد الأقصى ، ومحترما للآخرين ... ويخفي جيبا واسعا من العدوانية اللاشعورية : **والحالة النموذج** هي حالة مراهق يلجمه احد الوالدين الذي يتصف بأنه مستبد ، ولا يجرؤ على التمرد ، « ويكبت » عدوانيته ، ويصبح « عاقلا جدا » و « خاضعا جدا » .

وأجد لزاما علي ان أستعرض العدوانيات **المرضية** التي نصادفها في **العبادة** : عدوانية المضطهدين والشبقيين والكحوليين والمصابين بالصراع ، الخ . وعلي ان أتكلم كذلك على العدوانيات **التكوينية** ( السوية اذن ! ) : عدوانية الامزجة العنيفة والاندفاعية ، الخاصة ببعض العروق ، الخ . ولكن التصرف الاكثر حكمة ان نبقي في اطارنا كيما لا نشوش دروبا تتصف الآن بأنها عديدة الى حد ما .

فاذا احسنت بقرة بدبابة تدغدغ ظهرها ، ماذا تفعل ؟ انها تطلق ضربة عدوانية من ذنبها . ولماذا ؟ لكي تبعد الدبابة . هل ستقتل الدبابة ام لا ؟ الامر لا يعنينا كثيرا : انها ترغب في مجرد ابعاد الدبابة . وحركتها غريزية : انه دفاع بكل بساطة . ولكن لماذا ترغب في ابعاد الدبابة ؟ لان هذه الدبابة تزعجها ، و « تخلّ بتوازن » راحتها ، وتفسد **الوظيفة البيولوجية** التي تتصف بانها **مبدأ لذتها ذاته** : ان ترعى وتستريح وتنام . فلا ذبابة : ذلك هو السلام والراحة . اهنالك ذبابة ؟ ان اللذة ترحل . اذن ، تبعد وجود الدبابة .

## ١ - الجرثوم ، الانسان والمرض

ماذا يحدث اذا افسد جرثوم من الجراثيم عضوية انسانية ؟ يحدث ما حدث للبقرة . **فالمعضوية المتزعجة والفاقة التوازن تقوم برد فعل دون ان تصيع ثائية واحدة** . انها تحدث رد فعل دفاعي : العدوانية ، والهروب ، والمرض ، الخ . ذلك ان الجرثوم ليس هو الذي يسبب المرض ، بل ان المرض رد فعل العضوية ضد الجرثوم . فاذا انفرزت شوكة في اصبعك وافسدت هذه الشوكة عمل عضويتك المتناغم ، دخلت الجملعة المصبية في حالة الطوارئ وحشدت جيش الكريات البيضاء . وينطلق الصديد في الهجوم . فليست الشوكة هي المرض اذن ، وانما المرض هو الصديد الذي يتصف بأنه جدير بابعاد الجراثيم المسببة للأمراض التي تحدثها هذه الشوكة . ونحن اذن ، هنا ، في غمرة التصور الحديث للطب (١) . وهذا امر رئيس لفهم العصاب .

ثمة اذن قانون ذو اهمية : تبحث كل عضوية حية ، قبل اي شيء ، عن توازنها و « لذتها » وراحتها . فهل عضويتك بحاجة الى الحرارة ؟ انك تبحث بصورة غريزية عن الحرارة وتحاول اقضاء البرد . وهل عضويتك تحب البرد ؟ انك تحاول اقضاء الحرارة . وهكذا دواليك .

## ٢ - « الجراثيم النفسية » واللاشعور الانساني

لنستمر ، ولكن ولنكف عن الدعابة . فنحن ندخل في مجال عميق ومؤلم ، مجال يحدث ردود فعل عصابية مسلسلة تحف بها مواكبها من ضروب العصر والدونية والخجل والاثمية والوسواس . الخ .

**ولو كان بإمكان اللاشعور الانساني ان يتكلم لقال :** « مهمتي ان اصون توازن البناء النفسي وراحته ، واتصرف ، بناء عليه ، اذ اثير المرض اذا لزم الامر » . وبصورة عامة نقول : اذا لسع الحياة النفسية « جرثوم »

(١) انظر « الانتصارات الملهلة لعلم النفس الحديث » .

من الجرائم ، قام اللاشعور الانساني برد فعل ، وبذل كل جهد لاقضاء  
مسبب الاضطراب . وتلك هي آلية الكبت اللاشعورية والعصاب . ومن  
الجرائم النفسية ، ثمة الكثير بقدر ما تشاؤون ، بدءا من مرحلة  
الطفولة ....

## أولا - الطفل والعدوانية

الطفل « لاشعور حي » . انه يبحث عن أن يفرض حياته . وهو ،  
لكي يفعل ذلك ، « يطلق العنان » لغرائزه . ويبحث عن تأمين حياته ،  
بأكبر قدر من الراحة الممكنة والأمن الممكن واللذة الممكنة . فإذا تجلت  
غريزة من الغرائز ، طلب الطفل أن تتحقق هذه الغريزة مباشرة دون أن  
يحسب حسابا للأخلاق أو التهذيب اللذين لا يعرفهما ( بعد ) . وتنتقل  
عضوية الطفل الى التحقيق المباشر اذن اذا كانت راحته منوطة بفعل مص  
الابهام ، أو اللعب ببرازه ، أو تحطيم شيء ، أو أي شيء تشاؤون . ذلك  
هو مبدأ اللذة .

ولكن ! الاتصالات بين الأبوين والطفل أساسية بالتأكيد . وتتمتعثر  
العدوانية السوية للطفل ( الذي يبحث عن هنائه وتحقيق حاجاته )  
بالراشدين . وقد « قنئى » هؤلاء الراشدون عدوانيتهم ومدنوها ،  
وجعلوها متلائمة ( بين بين ) مع المبادئ الثقافية والاجتماعية . وعلى أي  
حال ، ثمة صدمة بين :

العدوانية المتمدنية  
للأبوين

و

العدوانية الغريزية  
للطفل

والحال أننا نعيش في مجتمع معين . ويريد الإبن اذن « قبوله »  
الطفل بحسب هذا المعيار أو ذاك . ويشير الطفل على الغالب ضربا من  
رد الفعل المعارض . وكل هذا معروف جيدا ، ولكن تكراره ليس عديم  
الجدوى في اعتقادي . فماذا يحدث اذا اصطدمت هذه المعارضة بأبوين  
يحطمانها جهارا لانهما مغاليان في التشدد أو مستبدان ، أو لان الحب

ينقصهما ؟ يبحث الطفل عن الاحتفاظ بهنائه ، بحثا على نحو لاشعوريا .  
وبما أن الطفل يصطدم بحائط ، فاننا تقع في ضروب الكره المرئي والهروب  
والابتزاز والخضوع المزيف ، التي تخفي أصنافا باردة من العزم على  
الانتقام ، الخ . ولكننا نجد الكبت على وجه الخصوص . والى هنا بصورة  
خاصة انما كنت أرغب في الوصول ، ذلك أن هذا الامر ذو أهمية كبرى ،  
من الطفولة حتى الشيخوخة !

### ولنتخيل ...

لنفرض حالات شائعة ، ولكن لنمض بها الى حد الكاريكاتور .

ولنتخيل طفلا يرى نفسه ، بعد عدة سنين من الحياة السعيدة ، وقد  
صار له أخ صغير . ولنتخيل ، في هذه البرهة ، أن الابوين ينبذان البكر  
بصورة كلية : فلم يعد الابوان يعنيان به ، ولا يقدمان اليه الطعام ، ولا  
يهتمان به على الاطلاق ، الخ . وكل ذلك لمصلحة الاخ الصغير على سبيل  
الحصر .

ماذا سيحدث لدى البكر بصورة شعورية أو لاشعورية ؟ من المؤكد  
أنه يعاني الموت الف مرة . وسيصيبه الاحباط بصورة كلية بسبب فقدان  
الحب ، والهناء الهاديء المرتبط به . فسيكره اخاه اذن ، الامر الذي  
يتصف بأنه طبيعي هنا . وسيقول لنفسه : « لو لم يكن اخي هنا ، لكنت  
لا ازال أنعم بحب والدي واحتفظ بهنائي وأمني » . ولنتذكر ضربة الذنب  
التي توجهها البقرة من أجل ابعاد الذبابة . فلنعد الى البكر .

يتصف هذا الطفل بأنه « غير متوازن » ، اذ أنه مضطرب بعمق .  
ويبحث لاشعوره اذن عن اعادة التوازن . ولكن اللاشعور لا يمضي في  
بحثه أبدا يفتش عن الحلول في جميع الاتجاهات ، بل يمسك بالحل الاول  
القادم . لا بد من ابعاد الفاعل الذي سبب فقدان التوازن في هذا المجال :  
الاخ الصغير . فتبدو لدى البكر رغبة لاشعورية في موت أخيه . انها  
العدوانية « في حالتها النقية » . بيد أن هذه الرغبة ، العدوانية



واللاشعورية ، تصطدم بأخلاق الصبي الشعورية . فثمة اذن تصادم بين الشعور واللاشعور . وثمة ، **بالتالي** ، تناقض قوي . فماذا ينتج عن ذلك ؟ ينتج عن ذلك :

أولا - **الحصر** الناجم عن هذه التناقض وعن الاندفاعات اللاشعورية التي تحاول أن تشقّ درباً الى الشعور ؛

ثانيا - **الكبت** : فالاندفاعات اللاشعورية ( الرغبة في موت أخيه ) ستصطدم بالأخلاق ، وستكبت بقسوة نحو المكان الذي صدرت عنه : نحو اللاشعور .

### ماذا سيفعل الصبي ؟

ثمة عدة امكانات تبدو دائما ، مع ذلك ، في حالات العدوانية :

أ - أن يبدو **عدوانيا بصورة صريحة** ويكره اخاه جهاراً ؛

ب - أن يكبت عدوانيته دون أن يعلم ، والكبت لاشعوري دائما كما سنرى ؛

ج - أن يتستتر . بما أن عدوانيته تثير كثيرا من الائم . فيصبح الصبي عندئذ ذا لطف فائق الحد ازاء أخيه . والسبب في ذلك أنه ، **اذ يشعر بالائم لرغبته في موت أخيه ، يبحث عن الغفران** . ويتم كل ذلك بصورة لاشعورية .

د - أن تكون **رعايته لآخيه رعاية مغالية** . ويبحث عن أن يجنبه اوهى ألم خفيف وادنى حادث . وليس هذا التصرف ضرباً من المراعاة على الإطلاق . وهو يفعل ذلك لانه ، بصورة لاشعورية ، **يحكم على نفسه بأنه آثم في كل ما يمكن أن يحدث لآخيه** ، اذ أنه ، بصورة لاشعورية ، يتمنى له الاسوء : الموت . فهو يتصرف اذن كما لو كان افضل أخ في العالم ، وبافضل ما في العالم من نية حسنة ، واجدا بعض التبريرات : « ينبغي للمرء أن يسامح ، وأخي ليس له يد في ذلك ، ووالداي لا يعرفان ما يسببان لي من ألم ، وأنا اغفر لهما ، الخ » . وغني عن البيان أن هذه التبريرات لا تطابق الواقع اطلاقاً ، وأن ردود الفعل هذه يمكن أن تختلط !

نحن نرى اللاشعور يتبع قانونه في كل ذلك : **اعادة التوازن باقصاء الظروف المزعجة ، ودون اهتمام باخلاق يجهلها .** شأنه على وجه الدقة ، وكرر ذلك ، شأن الصديد الذي يحاول اقضاء الجرثوم . ولكن الصبي ، هنا ، يشعر بأنه آثم لوجود الصديد لديه ... صديد يجهل وجوده .

## ١ - « تمنى الموت » في الحياة الجارية

هل تمنيات الموت اللاشعورية شائعة ؟ وهل « يقتل » كل فرد بصورة لاشعورية كثيرا من الناس ؟

### اليكم ما يقوله بعض الاشخاص :

١ - عندما كان والدي يضرب اخي ، كنت مبتهجا لان اخي كانت تسحقني دائما باحتقارها .

ب - كسرت في يوم من الايام ساق والدي ، وكسرت نفسي لان ذلك سرّتي . ولكنه كان يدلني كثيرا !

ج - كانت امي من عدم الفهم والعند بحيث انني اخفيت جميع مجوهراتها في يوم من الايام . لقد سرقت وحطمت الحلية التي كانت اثيرة لديها ...

د - عندما اشتري احمر الشفاه ، ثمة شيء يدفعني الى ان اختار ما يتصف باكبر عدوانية ممكنة . انني افكر يامي التي كانت تحيلني الى العدم في ظل ارادتها ، وتلومني بعنف في جميع محاولاتي ان اكون جميلة . وبلغت من العمر اربعين عاما ، ولكنني اقول لنفسني دائما عندما اشتري احمر الشفاه : « ذاك يعاقبها ، وذاك يغيظها . انها لن تجرؤ على قول شيء لي ، ولنذهب الى الشيطان دون رجعة ... » .

ويمكن للمرء أن يستمر على هذا النحو زمنا طويلا .

فما يعني هذا الكلام ؟ انه يقرر « بتمنيات الموت » اللاشعورية . ويبحث عمل الشخص عن إقصاء ما يسبب الاضطراب . ولكن « تمنى الموت » ( الفرزي ) **تموّهه الاخلاق ، ويحلّ محله عمل أكثر رافة .**

ولنترجم :

( رقم آ ) - « يبتهج » الاخ بصورة شعورية ، ولكنه يقول لنفسه بصورة لاشعورية : « لو كان بإمكانه ان يقتلها نهائيا ! » .

( رقم ج ) - « يقتل » هذا الشخص امه بصورة رمزية عندما يحطم مجهراتها .

وهكذا دواليك . ولكنني اكرر ان « تمنى الموت » لاشعوري في معظم الحالات . فهو اذن خارج الاخلاق . انه رد فعل غريزي تقوم به العضوية المضطربة . ومع ذلك ، فان « تمنى الموت » يثير الائم بصورة آلية ، اذ ان ثمة دائما صراعا بين اللاشعور والاخلاق . واذ يتجدد تمنى الموت بصورة لاشعورية سنين طويلة ، فانه يؤدي غالبا الى ضروب عميقة من العصاب : وتلك قد تكون حال راشد كان قد رباه والد مستبد ، على سبيل المثال .

ولو كان بإمكاننا ، بلاحظ المرء اذن ، ان ننضد « تمنيات الموت » التي يصدرها اللاشعور الانساني يوميا ، لبنى ذلك هرما يصل الى القمر . ومن هم « ضحايا » اللاشعور الغاضب ؟ ولكنهم ... جميع اولئك الذين يسحقون ، ويستبدون ، ويدلون ، ويشعرون بالدونية ، ويجردون من الشخصية . واذا لم نفكر الا ببعض المربين ، فان ذلك يكون سلفا كمية كبيرة .

**فان يكون المرء عدوانيا يعني اذن : ان يبعد ما يزعج ( او ما يخيف ، والامران سيان ) .**

**وقد يكون مبتذلا ان يصرخ الانسان ليكون على حق والآخر على باطل ؛ وان يصرع شخصا حتى يطلب الصفح ؛ وان يصرع شخصا لكي يعاقبه ؛ او ان يصعق شخصا بنظراته ، الخ . وقد يكون اكثر تعقيدا** ان يكون مهذبا ولطيفا على نحو تام ، في حين ان « كنه » الشخصية مترع بالعدوانية ، او ان يكون عرضة لوساوس ازاء شخص قريب لانه يتمنى موته بصورة لاشعورية ، ويشعر بأنه آثم لذلك ، الخ .

## ثانيا - اوجه العدوانية

للعداوية ، على هذا النحو ، وجوه مكشوفة ووجوه مقنعة ( على وجه الخصوص ! ) . فلننظر اذن في الحالات الاكثر شيوعا .

### ١ - معيار للعدوانية

يقال ان العدوانية مرضية ، بصورة مؤقتة او دائمة ، عندما :

أ - تمثل ملجأ ضد صورة من صور الخوف ؛

ب - تسبب الحصر ، لان المرء يشعر بالاثم لانه كان « خبيثا » ؛

ج - انها اتجاه دائم على وجه التقريب : فالشخص عدواني دائما على وجه التقريب ، ذو سلوك لا يتغير في موقفه الهجومي ، ولا يفلح في الاستغناء عن العدوانية .

وليست هذه غير معايير عامة يمكن ان تدور حولها مئات من الصور التي تتصف بانها اكثر دقة . ولكن هذا القليل من النقاط يجعلنا سلفا نلمح الجمهور الواسع من الناس العدوانيين ( المرئيين او غير المرئيين ) ، المدفوعين الى العدوانية بفعل الخوف ( الشعورى او اللاشعورى ) .

وفيما بعد ، سنرى المشكل ذا الاهمية الكبرى ، مشكل العدوانية التي يكبتها الطفل عقب مئات من ضروب التربية ، والتي تقود بلا رحمة الى مشاعر الائمة العميقة ، والى الحصر وشلل العفوية ، والى العصاب بالتاكيد .

### ٢ - العدوانية المرئية

انها العدوانية التي يلاحظها الناس بالطبع . فالشخص قابل للتهيج ، ويفتاز دون داع ، وتترق ، ويرد بخشونة ولو كان الغير كيّسا ، ويريد ان يكون دائما على حق ، ويتصف بطبع عنيد ( يسمى على هذا النحو ! )

ويسحق الآخرين ( وبخاصة رؤوسيه ) تحت ضروب لومه أو صياحه ، الخ .

وهذه العدوانية ترتكز دائما على **الخوف** ، الا اذا كانت ناجمة عن مرض من الامراض الجسمية . وللعدوانية « المرئية » صورة مبتدلة وشائعة . ويمكن لها أن تفتك فتكا ذريعا ( الوالدان ازاء الطفل ) . وهي تنجم عن فقدان الثقة بالذات ، وعن مشاعر الدونية أو الاثم ، وعن ضروب الحصر اللاشعورية ، الخ .

### ٣ - العدوانية الموهة

انها تلك العدوانية التي لا يلاحظها المرء بالعين المجردة . ويمكن له أن يلاحظ تصلب المواقف ، والانفعالية ، والعصبية ... أو يلاحظ هدوءا كبيرا الى حد **المغالاة** ، الخ . ويلاحظ على الغالب كذلك تهديبا **مغاليا** وخضوعا **مغاليا** للسلطة ، لسلطة رئيس أو لاحد الوالدين على سبيل المثال . فاین اخفت العدوانية في كل هذا ؟ الامر بسيط جدا : لقد تكومت في الكهوف اللاشعورية للشخصية ، كالديناميت تحت حديقة مزهرة . وتوجد دائما هذه الصورة من العدوانية المخبأة في أثناء تحليل نفسي .

وتتصف هذه العدوانية بانها **لاشعورية** في تسع حالات من عشر ، وبانها منقوعة بـ **الحصر** . وليس السبب في كون الشخص غير عدواني انه **لا يجرؤ** على أن يكون . فان لم يجرؤ على أن يكون عدوانيا ، فذلك لان عدوانيته تمثل **خطرا** . اي خطر تمثله عدوانيته ؟

اعتقد أن من الافضل أن نذكر مثالا .

### ٤ - الجنسية والعدوانية ، لغافة التبغ وقلم الرصاص ( حالة السيد ص )

اليكم مثالا يبين كيف أن عدوانية **عادية** تم كتبها نتيجة التربية . وكان ممكنا لهذه الضروب من الكبت أن تؤدي الى اخفاق حياة .

يقول السيد ص ذو الثلاثين عاما :

- انني عاجز من الناحية الجنسية . ولم اعرف النساء ابدا . انني استسلم دائما ، ولكن والذي علماني ذلك جيدا ، هذا نعم !

- علماك أن تستسلم ؟

- علماني على عدم الجراحة . ففي كل مرة كنت اجزؤ ... كنت ... لا اقلع في ان اشرح ذلك ... وكان الامر مثلما هو حاليا : فاذا تجرات ، مثلا ، على ان افرض رأيي ، اجترّ زمننا طويلا . ان رأي الآخرين ، مع ذلك ، أمر بالنسبة لي . فلم يسبق لي ان عشت بدلالة ذاتي ، بل تبعا لرأي الغير دائما ...

سألخص سريعا حالة السيد ص . انه ذو اتجاه متواضع ، ومهذب الى اقصى حد ، وطبيع ، وكل ذلك موضوع على قاعدة من العدوانية الخفية . وهو يمسك بلغافة التبغ داخل راحة كفه ، ويسجل ملاحظات ، ويمسك بقلمه بالاسلوب نفسه في زمن الراحة : راسه داخل راحة كفه . وما صفات والديه ؟ والدان مسيطران ، الاب كلام ، خصماءان ، وكانا يكرهان الولد الصغير ص على أن يشعر بأنه مسحوق .

والحال ان ام السيد ص ، بفعل اتجاه دائم يطول شرح تفصيلاته كثيرا ، كانت تبذل كل جهد حتى يشعر الطفل ص بأنه « آثم بصورة شنيعة » عندما كانت تظهر عدوانيته ( وهذا ذو اهمية كبيرة : انظر بسط الموضوع في فقرة « العدوانية والحصر » ، الفصل الاخير ) .

فهل كانت عدوانية هذا الطفل عدوانية سوية ؟ نعم ، بالتأكيد . فالعدوانية تتيح له أن يفرض حياته ويصونها ، شريطة أن يبقى في الحدود السوية . ولكن عدوانية غير سوية لدى الطفل ص كانت قد انضافت الى العدوانية الاولى . وكانت هذه العدوانية قد نشأت من الشعور بالاحباط والتجرد من الشخصية اللذين سببهما والدان مصابان بالعصاب ، يهتمان بادق التفصيلات ، ويرددان باستمرار « لن تكون مفيدا في شيء » و « لن تعرف ابدا ما فعلنا من اجلك ، وتلك هي الكيفية التي تكافئنا بها » . وامورا اخرى من النوع نفسه ، امورا شائعة - للأسف ! - كالطمر .

لماذا أصبح السيد ص عاجزا من الناحية الجنسية ؟  
لانه لم يميز الجنسية من العدوانية . ولكن هل كان على حق في ان  
لا يميز احدهما من الآخر ؟ نعم : فالجنسية المذكورة قاعدتها العدوانية .  
ورجولة الذكر « فاعلة » و « نافذة » . ان عليها ان تفرض ذاتها و  
« تثقب » ( بالمعنى الجنسي وبالمعنى الاجتماعي على حد سواء ) .  
ولكن ماذا حدث في لاشعور السيد ص ؟

في اثناء طفولته ومراهقته ، كبت السيد ص عدوانيته ازاء والديه  
ثم ازاء المجتمع . وبدلا من ان يكون شخصا وفاعلا ، أصبح منفعلا . لقد  
أصبح مؤثقا . ولكي يفلت من لوم والديه الدائم ، أصبح ( في الظاهر )  
« صبيا صغيرا لطيفا لا يؤذي ذبابة » . ولا سيما انه كان يشعر بالاثم في  
كل مرة كان يجرؤ على ان يكون عدوانيا .

وأصبحت العدوانية ممنوعة بالنسبة اليه تدريجيا . . . ما دام التعبير  
عن شخصيته كان ممنوعا عليه ! وكبت كل نزعة عدوانية ازاء والديه  
واصدقائه واساتذته ورؤسائه وأعدائه . وظهر ( بالتأكيد ) الخوف المرضي  
من المنافسة . وكبت على هذا النحو غرائزه الجنسية ما دامت مرتكزة  
على العدوانية .

ويمكن تلخيص الاوضاع على هذا النحو :

### الوضع السوي

رجولة ← عدوانية ← نفاذ ←  
فرض الذات ← الفاعلية ← يثقب ←  
جنسية سوية

### وضع السيد ص

عدوانية مكبوتة ← رجولة مكبوتة ← « استسلام  
للفاذ » ( استسلام ، خضوع ، الخ ) ← لم يقاوم  
فرض الآخرين ذاتهم عليه ← « استسلم  
للاتقصاب » ( لم يقم برد فعل على  
عدوانية الآخرين ، وعلى شخصيتهم ، الخ )  
← لواطية كامنة .

تحدثت اليكم ، في البداية ، عن الطريقة التي كان يمسك بها لفافة التبغ والقلم . وهذان الشيئان كانا ، بصورة لاشعورية ، **رمزي القصب** ( منتصبين ، عدوانيين ، « محدين » نحو الغير ، مهددين ، نافذين ، ثاقبين ) . فهما اذن رمزا العدوانية **المكبوتة** نحو الداخل ( داخل راحة الكف ) .

وخرجت عدوانية السيد ص تبعا لعمله التحليلي ، ثم استقرت بوضعهما السوي في شخصيته . وفي هذه الفترة ، أمسك السيد ص بلفافة التبغ والقلم المحدين **نحو الخارج** ، دون ان يدرك ذلك وفي اثناء استعادته حنسيته السوية .

كان السيد ص قد انتقل اذن من جنسية متجهة **نحو الداخل** ( كامراة ) الى جنسية متجهة **نحو الخارج** ( كرجل ) . وفي الوقت الذي كان قد اصبح مجددا قادرا على « الايلاج » جنسيا ، كان بإمكانه ان « ينفذ » ( رمزيا ) الى الغير بتقديم النصح وفرض رأيه بطريقة فاعلة ، الخ .

وقد يحدث ، في بعض الاحيان مع ذلك ، ان يصبح بعض الرجال ، الذين كتبوا شخصيتهم والعدوانية السوية المرتبطة بها ، عاجزين من الناحية الجنسية . انها الحالة ذاتها اذن . ولكن هل هم عاجزون من الناحية الجنسية ؟ كلا ، على الاطلاق . ولكنهم اصبحوا عاجزين عن فرض ذاتهم ، وعن « النفاذ » من الناحية الجنسية وفي الحياة الجارية على حد سواء . انهم يصبحون عاجزين في جميع المجالات ، وليس المجال الجنسي غير مجال في عداد مجالات اخرى (١) .

## ه - حالة إيغان

يعرف المريض اعراضه افضل من اي شخص آخر ، بما انه يعانيها

---

(١) يمكن للمرء كذلك ان يكون فعلا من الناحية الجنسية ، في حين انه ضعيف من الناحية الاجتماعية .



يوميا ، ويصفها بدقة . وكل ذلك اذن يكون المادة الشعورية والمؤلمة .  
والمرضى يعلم انه يتألم ، ولكنه يجهل ما يحدث في الاعماق . انه يصارع  
ضد اشباح ، ويناضل ضد عدو غير مرئي ، متلبد في كهف مظلم :  
لاشعوره .

قال السيد ايفان في الجلسة الاولى :

— انني متشنج دائما . اتألم باستمرار من معدتي . أصاب بالفشيان ، وليس بوسعي  
ان انظف أسناني دون أن اتقيأ . وما أن يبدو زميل من زملائي في المكتب حتى أنور كقوس .  
انني عدواني وظالم .

تلك هي بعض الاعراض الاولى .

وقال السيد ايفان فيما بعد ( وأسجل بعض نقاط الصوى ) :

— عليّ مع ذلك ان « اعترف » لك بشيء : لا افصح في ان اتفاهم مع الآخرين . فانا اؤثر  
العزلة . ولكنني اجد ان كثيرا من الناس أغبياء ، ويتكلمون كيفما اتفق على أشياء يجهلون  
الكلمة الاولى منها . ان المجتمع يسبب لي الملل، ولكن «علي ان اعترف» أيضا بأنه يخيفني .  
لماذا على السيد ايفان ان « يعترف » ؟ ألا يمثل ، بالنسبة له ، كونه  
غير قادر على التفاهم مع الآخرين شيئا يعرضه الى أن يرى الامور رؤية  
مشوّهة ؟ وهو « يعترف » أيضا بأنه خائف . فهل امر « يخالف » الاخلاق  
اذن ، بالنسبة اليه ، كونه خائفا ؟

ثم قال السيد ايفان فيما بعد :

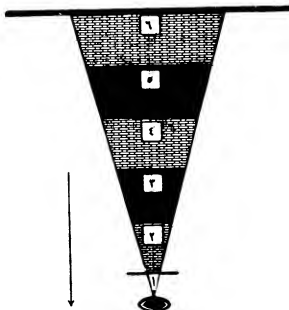
— ليس لي اصدقاء . « اعترف » بأنهم في بعض الاحيان هم الذين تركوني لانني ، على  
ما يبدو ، انصف بروح التناقض . ولست مع ذلك غائبا . انني ، كما قلت لك ، « افضل  
العزلة » .

ثمّة مجددا ضرب من « الاعتراف » للسبب ذاته . فهو يقول انه  
يتصف بروح التناقض ( وذلك يخفي دائما شيئا ما ) . ويسوّغ سلوكه  
مجددا ، ويطمئن نفسه : « ... افضل العزلة » .  
ويقول السيد ايفان فيما بعد :

– لقد أدركت شيئاً : « أريد دائماً أن أكون على صواب » . وادراكي ذلك سبب لي  
صدمة ! لقد انخفض اعتياري . ليس من المحتمل أن أصدقائي تخطوا عني بسبب ذلك ؟  
نعم ... هذا صحيح ... واستحوذ علي هوس أن أكون على صواب ... ولكن لماذا ؟  
ثم قال :

– أريد أن أكون على صواب ، حتى ولو كان ما أقوله عكس ما أفكر فيه . فإذا  
« وبخني » أحد ، فقتله في مخيلتي ، أو رغبت في أن انتحر ! ولكن لماذا ، يا الهي ، لماذا ؟  
فالسيد أيفان اذن يدرك شيئاً : انه يريد أن يكون على صواب في كل  
شيء وبالرغم من كل شيء . ولكنه يجهل السبب .  
أ – يريد السيد أيفان أن يكون على صواب . ويفقد صوابه إن  
« فاته » ذلك .

ب – أن يكون على صواب أمر ذو أهمية كبيرة بالنسبة اليه . فان  
يكون على صواب أمر يحميه من شيء ما . من أي شيء يحميه ؟ انه يحميه  
من ضرب من الخوف . فأي خوف ؟  
ح – عندما يكون السيد أيفان مخطئاً ، فان « واجهته » تنهار .  
وتبدو عبوانية هائلة ويأس : « انني اقتله في مخيلتي ، أو مستعد  
للانتحار ... » .



شكل رقم (٢)

لنلاحظ التخطيطية السابقة من الاعلى الى الاسفل :

يمثل الرقم ٦ نمط الحياة الحالي للسيد ايفان الذي يتألف من :  
أ - الانفعالية ، والارهاق الانفعالي ، والتعب ، وآلام المعدة ، والتصلب ،  
والعزلة ، والعدوانية ، الخ ؛ ب - الحصر : ان « يتكشف عنه القناع » ،  
وان يضبط مخطئا ، وخوف مستمر من رأي الآخرين ؛ ح - الامن :  
انني على صواب ، ودوري هو الدور الرائع ، وأحب الوحدة .

ويمثل الرقم ٥ حصرا وامنا :

فالحصر : اصدقاؤه يهجرونه ؛

والامن : ان يكون منيعا وعلى صواب بأي ثمن .

ويمثل كل من الارقام الاخرى : ٤ ، ٣ ، ٢ حصرا وامنا .

الرقم ٤ : الحصر : خطر دائم من ان يكون مخطئا ، وخطر المنافسة ؛  
الامن : الظهور بمظهر العصمة من الخطأ ، ان لا يكون مخطئا على الإطلاق .

الرقم ٣ - الحصر : صراع بين ما يعتقد انه يتصف به ( الضعف )  
وبين ما يرغب في ان يظهر به ( القوة ) ، وتهديد دائم . الامن : بذل كل  
مجهود لكي يبدو قويا .

الرقم ٢ - الحصر : خوف من الظهور ضعيفا ؛ والامن الاساسي :  
ضروب من الكبت .

اما الرقم ١ ، فانه يمثل الاسباب اللاشعورية : ضروب الحصر  
الاساسية ، والتربية ، الخ .

فنمط الحياة الذي يمثله الرقم ٦ يتصف بأنه شعوري . وما يحدث  
من الرقم ٥ حتى الرقم ١ يتصف بأنه لاشعوري اكثر فاكثرا . وهذا  
اللاشعور يتألف من دفاعات ذاتية . والطبع شبيه بضرب من الدرع المكون  
من « صفائح » الامن : كل أمن منها يحمي من الخوف . ولكن السيد

أيفان غير قادر على الاعتراف، بأنه خائف ، بما أن ذلك سيكون الاعتراف بضعفه ، والوقوع في الحصر مجددا .

وبناء عليه :

آ - كل امن عصابي مهدد دائما ... بالتعريف ؛

ب - ما أن يتصف الامن بأنه مهدد ، حتى يبدو العصاب آليا ، وذلك شبيه ، على وجه الدقة ، بسرقة مسلح يطلق النار على رتاج الامن الخاص بالباب الذي يختبئ خلفه المراء . وهذا لا يصح الا في العصاب ؛

ح - ويتبين ، بحسب التخطيطية ، أن السيد ايفان « سندويش » حقيقي من ضروب الامن اللاشعورية . وكل ضرب منها ، بوصفه مهددا باستمرار ، يسبب الحصر . وكل حصر منها يثير بدوره آلية جديدة من الامن .

**فماذا سيحدث ؟** يجهل السيد ايفان الى اي حد تتصف **الواجهة** التي يديها للغير بأنها مختلفة عما هو عليه واقعا . فهو يمثل دورا باستمرار دون ان يعلم . ولكن هذا الدور يحميه من الحصر .

ومن المؤكد أن المحلل « سيحفر » . انه سيصبح شبيها بالسارق الذي تحدثت اليكم عنه . وسينفذ الى الحصن المدرع الذي شيده السيد ايفان بصورة لاشعورية خلال سنين . ويزعم السيد ايفان أن ضيقه ناجم عن حياته المضطربة ، ولكنه يجهل أن الاسباب مختلفة كليا ، وأن سعادته مرهونة بتجديد شخصيته كلها .

### **ومتى تظهر العدوانية ؟**

تظهر العدوانية خلال التحليل كلما مَسَّ العلاج « رتاج امن » ، وكلما بدا ان المحلل يضع موضع الشك هذا المظهر أو ذاك من مظاهر سلوك المريض ، الذي يشعر عندئذ بأن « القناع يرفع عنه » . وهذا يعني

بالنسبة اليه انه « موضع حكم غير ملائم » . فعلى المريض أن يصل الى النظر الى نفسه كما هو ، في حين انه بذل كل مجهود من أجل أن يخفي نفسه عن عينيه الخاصتين به . والعدوانية رد فعل دفاعي أمام الحصر ، يبرز كلما اتصفت « واجهة » من الواجهات بأنها مهددة . وانا لا انظر الى المشكل هنا غير نظرة تبسيطية .

هل العدوانيات عديدة لدى السيد ايفان ؟ نعم ، بالتأكيد ، ذلك انه لن يصبح شاعرا بالنقاط من ٥ الى ١ على نحو سريع جدا . . . ما دامت حياته كلها مرتكزة على هذه الضروب من الامن والحصر ! وهو لن يدرك أن شخصيته برمتها مصابة بالزكام ، الا تدريجيا . والى ان يتحقق ذلك ، فانه سيقاوم ، وسيصارع ضد ذاته حتى يبدأ الاسلوب التحليلي بالمعنى الدقيق للكلمة ( مقاومة ، تحويل ، الخ ) . وعندئذ ، ثمة طاقات متوقفة تتحرر لتساعد السيد ايفان في مهمته ، مهمة بناء نفسه بناء جديدا .

### وبالاختصار :

يبدو الحصر والعداوة دائما منذ بداية العلاج العميق . ويمكن لهما أن يكونا شعوريين أو لاشعوريين . ويمكن لهما أن « ينصبنا » على المحلل ، أو « يفش » المريض لكي يفلت منهما الا اذا موّهما بعناية ، ودون أن يعلم .

### فالمريض على سبيل المثال :

- أ - يهتف للمحلل بأن لديه مانعا ( مختلفا ) لكي يلغي الجلسة ؛
- ب - يناقش ويعقلن ويماحك ، ويبدل كل مجهود لـ « يبرز » سلوكه . . . في حين انه اتى يبحث عن المحلل ليغيّر هذا السلوك ذاته ؛
- ج - يخفي عدوانيته في ظل تهذيب مغال ؛
- د - يتعلق بشرح ، أو يشيره ، حتى لا يكون عليه أن « يحفر » بعمق أكثر . ويفلت على هذا النحو من الحصر قائلا لنفسه ، بعد كل شيء ، « انه ما اساء تدبير امره كما يمكن لبعضهم أن يعتقد » .

ومن الواضح ان هذه المراحل مؤلمة جدا بالنسبة الى المريض . وهنا انما يجد التعاون الانساني اهميته وروعته ، بما ان المقصود ان نولد انسانا جديدا ، اصلته وعظمته مطمورتان تحت نفايات كانت الحياة قد راكمتها بالتدريج .

ولكن ثمة فترة ( مؤقتة ) تحلّ دائما ، فترة يرفض فيها المريض ان يتعاون ( بصورة لاشعورية مع ذلك ) . وتلك هي « المقاومة » التي تحدثت اليكم عنها من قبل ، في الفصل الرابع .

## ٦ - حالة بولس

اربعون عاما عمر بولس . رجل ذكي جدا ، وله طفلان . يقول بولس :  
- انني متزوج منذ خمسة عشر عاما . وقد تركت لزوجتي ادارة البيت منذ البداية ، بما انها امرأة ديناميكية . وذلك ما كان يلائمني تماما . فعندي عمل كثير . والحال ان طفليّ بكبران الآن . وبحاجة الصبيان الى ان امسك بدفة القيادة . وادركت بذهول انني لم اكن استطيع ذلك ! واشعر ان امراتي تخيفني . انها عدوانية ، ولكنها طيبة . ونحن متفاهمان جدا . فلا عداوة من جانبي ابدا ابدا . وعلى اذن ان اصبح رئيس الاسرة ... وانا عاجز عن ذلك . فهل هي العادة المكتسبة ؟ بيد ان التهيّب يبدو كلما كنت ملزما بان اباهر مناقشة . واذا غضبت زوجتي ، اراجع ...

تلك هي « الاعراض » اذن . وسيطرح المحلل الآن على نفسه بعض الاسئلة .

- « ذلك ما كان يلائمني تماما » . هل هذه الحجة حقيقية ؟ او هل كان يفضل ان لا يتدخل في شيء حتى يغفلت من مسؤولياته ؟

- « نحن متفاهمان جدا » . ولكن في ظل أي شرط ؟ وهل يتفاهمان ايضا لو استعاد هذا الرجل ادارة الاسرة ؟

- « هل هي العادة المكتسبة ؟ » . يبحث بولس عن حجة : وهذا منطقي . ولكن هل هذه الحجة حقيقية ؟ وسنرى ان الجواب بالنفي .

— « اذا غضبت زوجتي ، اراجع » . لماذا ؟ ماذا يعاني بولس عندما تغضب زوجته ؟

ها هو مستخلص آخر من جلسة من الجلسات ( والتحليل النفسي المستخدم مع بولس ليس التحليل الدقيق ) . م = مريض ، مح = محلل .

م — وجهت لي زوجتي امس ملاحظة جافة ، وكان من المحتمل ان امسك بتلابيبها ، ولكنها لم تر شيئا . لقد كنت لطيفا جدا ، وعاد النظام الى تصابه .

مح — لماذا كنت لطيفا جدا ؟

م — ولكنني كنت اشعر بالخجل كثيرا من عدوانيتي ازاءها !

مح — كيف يكون رد فعلك عندما تحرد امراتك ؟

م — انا ... اكون على غير ما يرام . ارجب في الهروب ... انني كالطروح ارضا ... منزوع ... وعندئذ ، اشترى لها بعض الازهار عندما اعود مساء .

مح — وعندئذ ، ألم تعد غاضبة ؟

م — كلا .

مح — وهل تشعر بالراحة ؟

م — سيادة التفاهم امر ينصف دائما بانه اكثر امتناعا !

مح — ولكنك تشعر بالعزاء من أي شيء ؟

م — لا اعلم ... مرتاح من عبء . لديّ رغبة في القول : « اوف ، كل شيء تم تدبيره ، ولم يعد نمة مشكلات » .

مح — مشكلة اجتررتها طوال النهار ؟

م — علينا ان لا نبالغ ، مع ذلك ، كلا . انني مرتاح لاننا ببساطة تفاهمنا مجددا ، ذلكم هو كل شيء !

والجواب الاخير كان عدوانيا جدا . فهل ثمة مس لامر حساس ؟ يضاف الى هذا ان بولس يشعر بالراحة . والانسان يرتاح دائما من شيء من الاشياء . من أي شيء ؟ هل هو مرتاح لكونه لم يعد على خلاف مع زوجته ؟ ولكن ماذا يمثل بالنسبة الى بولس كونه على خلاف مع زوجته؟

## اليكم ما قاله فيما بعد :

م - انني سرور من رؤيتك لأوضح بعض الامور . والحقيقة انني أشعر وكأنني صبي صغير أمام زوجتي . هذا هو الوضع . وكنت أحس به ، ولكنني لم اكن أريد ان افهمه . فقد سبب الحصر لي خلال ثمانية أيام . انه لامر يصعب قوله حتى امامك . وامام والدتي أيضا ، كنت صبيبا صغيرا عاقلا جدا ، لكي أتجنب المتاعب ... وعندما كانت تحرر ، كنت استشيط غيظا ، ثم كنت الاطفها . وكنت أعتقد دائما بأنني مخطيء .

مح - هل كنت تشعر بالراحة عندما كان يحدث لديك الانطباع بأنها تصفح عنك ؟

م - بالضبط ! كان لدي انطباع بان الناس كانوا يحبونني مجددا ( صمت طويل ) ، شبه بانطباعي عندما اقدم أزهارا لزوجتي ... ( لهجته تحتد ) . اذن ، أنا خائف . وخفت دائما دون ان اعلم . أنا خائف . وزوجتي عدوانية : هل هي خائفة ايضا ؟ رئيسي في المكتب ، الذي يصيح دائما ، يخاف المدير . ومديري يخاف سكرتيته . والسكرتيرة تخاف كثيرا من امكان ان تصبح حارسة معسكر اعتقال . فهل الناس جميعهم اذن يخافون ؟

وساد صمت طويل . ثم قال ببرود وبلهجة جافة :

م - من تحسب نفسك حتى تفتق الخناق على الناس هكذا في معاقلم ؟

مح - ...

م - ( صمت ) . اعتذر . انني غاضب من نفسي . هكذا يعيش الانسان ... ثم يدرك ان المشكل في جهة أخرى ... ويعيش في وهم ضرب من الامن والحرية ، ثم يدرك انه انخدع ... ولنا الا في البداية .

مح - محتمل ...

م - هذا يرجى منه خير كثير . ولكنني ، أؤثر هذا اذا اجريت جميع الحسابات . افضل ان أكون ما أنا وان لا اعود الى الخوف . كل هذا ربما كان خطأ والدتي . فمتدما كنت طفلا ...

وهنا يبدأ فصل جديد من قصة بولس .



## اليكم « تخطيطية » سلوك بولس :

آ - أم مستبدة ، حُرْدَة جدا ، تمنع الطفل احساسا بأنه « مهمل » ، ومخطيء ، ووحيد في العالم . من هنا منشأ الحصر ومشاعر الاثمية ( انظر هذا الموضوع في فصل « الانسان الاثم والانسان المصاب بالحصر » ) ؛

ب - ولكي يفلت الطفل من هذا الحصر ، كان « يلاطف » أمه . وكان يتيح له ذلك أن ينال الصفح ، في حين أنه لم يرتكب أي خطأ ، وأن يكون محبوبا مجددا ؛

ح - وبما أنه فاقد رجولته من الناحية المعنوية ( لأنه كان عليه أن يتجنب معارضة أمه ) ، فقد تزوج امرأة عدوانية . وكان قد ترك لها قيادة المركب « حتى يتجنب المتاعب » ، وبالتالي ليفلت من كل منافسة مع زوجته .

هذه التخطيطية مختصرة . وقد يكون طويلا جدا ان نمضي بها الى تفصيلات عميقة . ولكن ، يكفي الآن من أجل أن نفهم أن « واجهة » بولس تشعره ب « الصفح » طيلة النهار . ونحن نقع على الاثمية ، عرض من الاعراض الكثيرة الوقوع جدا ، الذي سنقدم امثلة عديدة عنه . وهنا كذلك ، تبدو العدوانية ( خلال التحليل ) كلما وضعت اصالة السلوك لدى بولس موضع الشك . يضاف الى هذا أن بولس سيماني ، وهو يعيش طفولته مجددا ، ازمت حادة من العدوانية ، موجهة ضد أمه . . . وضد المحلل .

## ٧ - حصر جان وعدوانيتها

موضوع حديثنا حالة كثيرة الوقوع مع الاسف . جان بلغت الاربعين من عمرها . وهي عزباء ، تعيش مع والدها، الارمل منذ زمن طويل ( انظر كذلك الأنا العليا في فصل « عندما الشيطان يقود الرقص » ، مع مثال يبدو للوهلة الاولى مشابها جدا ) .

قالت جان :

- اعيش مع والدي الارمل . وما اردت ان انخلت عنه مطلقا . ولم يكن لي حق في ان انخلت عنه . اليس كذلك ؟ وتخلت عندئذ عن الحياة ، بصورة ارادية ، حتى امنح السرور لوالدي النسخ الى ان ياتي اجله . ولكنني ، فيما بعد ، ساكون وحيدة دون شخص يتخذني رفيقة . وهذا امر يسبب لي الحصر بصورة كبيرة جدا . ليت ابي كان قد اجبرني ، على الاقل ، على ان اتعلم مهنة ! ولكن لا . انه يردد على مسامعي باستمرار : « لئبق ، نحن الاثنين ، كل منا للاخر ! ... » ومع ذلك ، من المحتمل انني قمت بواجبي . ولا اريد ان اطلق حكما على اي شخص ، ولكن هل لثالي في ان احمي والذي قيمته مع ذلك ؟

والحقيقة ان الواقع مختلف كل الاختلاف . فوالد جان ، باديء ذي بدء ، لا يحتاج الى شيء ، ولديه المال ، ويتمتع بصحة متينة . فعاذا يحدث إذن ، دون ان ندخل في التفصيلات ؟ ان شذوذ هذا الوضع اوضح من النهار . وجان تحس به ايضا ، ولكنها « تبرر مسلكها » قائلة :

- قال لي كثير من الناس ان حياتي كانت شاذة . فلا اخرج الا مع ابي . ولم يسبق لي ان عرفت رجلا آخر . ان الواجبات الاخلاقية والتضحية بالذات كانتا دائما ، بالنسبة لي ، اوامر ...

والحال ان لاشعور جان لا يعتقد بكلمة واحدة مما قالت ، اذا امكن ان اتول ذلك . فماذا يحدث إذن ؟

### ما يحدث

لم تستطع ابداً أن تهجر حرارة المنزل التي تجلب الاطمئنان . وذلك ما اتاح لها أن تتخلص من مسؤوليات الحياة . إنها تحمي نفسها . وبقيت ( إذا تجرات على القول ) متعلقة بالدها . إننا إزاء طفالة مستمرة . وآثرت البقاء طفلة متعلقة بأبيها على أن تنطلق في الحياة ( انظر أيضا عقدة أوديب (١) ) . يكشف الاب ، هو ايضا ، عن أنانية وعن تعلق جنسي لاشعورين ( ولن أنكلم عليهما هنا ) .

### ما تعتقد جان

ما اردت مطلقا أن تتخلت عن والدها . إنها تعتقد انها تحمي والدها . تخلت عن الحياة بصورة ارادية . ليت والدي كان قد اجبرني على تعلم مهنة ! « لئبق إذن ، نحن الاثنين ، وعن تعلق جنسي لاشعورين ( ولن أنكلم كل منا للاخر ! » .

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

ذلك هو الوضع بصورة مجملّة . ولكن الامر لم ينته . فأنتم مؤمنون بأن جان تحسّ إحساساً مهما بهذه التبعة الطفالية العاشقة إزاء أبيها ! وهي ، عندئذ ، تدفع « بحجج نبيلة » ( مثال ، واجب اخلاقي ، الخ ) . وتستخدم هذه « الحجج النبيلة » لتجسيد العدوانية ، المتراكمة بصورة عميقة ، التي تستشعرها إزاء أبيها . ومع ذلك ، صرخت فيما بعد :

— انما بسببه ضيّعت حياتي ، بسبب انانيته ، واستبداده ، والوجبات الصغيرة النسبة التي كان يرغب فيها ، وبسبب تصرفاته لكي ابقى بقربه . فلم يكن يريد ان اتركه : كان يرغب في ان اكون زوجته وابنته واه ، كل ذلك في وقت واحد ! ...

يضاف الى هذا ان ثمة مشاعر هائلة من الإثم ، لان جان تعاني عداوة عميقة لـ « هذا الرجل الذي بذل كل مجهود حتى لا اصبح امرأة » . ولكن ثمة ايضا :

— انه لامر مضحك جدا ... ( قالت فيما بعد بقليل ) ... عندما كنت في الخامسة من عمري ، او حتى في العشرين ... كنت اشعر بالاثم كلما فكرت بشاب من الشباب ... وكنت ارجو في ان القى بنفسي في احضان والدي ، وان اطلب منه الصفع لانني وهبت قلبي لآخر سواء ... وادرك ايضا انني ما تجرات قط على ان اطلق حكما على أبي ... الذي كان يتصف ، بالنسبة لي ، بجميع المزايا ... كبطل او اله ...

وبدا الحصر وضرب من الراحة ، في وقت واحد ، عندما قالت جان :

— حسن ، مثالي وواجبي الاخلاقي انما كانا الانانية والهلح الشديد ! ابي مصاب بالحصر ، وقد منحني حصر الحياة . فكل ما قلته لم يكن سوى واجهة مذهبة لافخي خوئي ، ولازم نفسي بالبقاء في البيت حيث لا يقتضي القيام بأي جهد ... وعلى الان ان ابدأ بان احب بصورة حقيقية ...

ومن المؤكد ان وجود المحلل ومعارفه وإنسانيته ، في حالة من هذا النوع حيث يتصف أسلوب رؤية الأمور بأنه « ينقلب » بالتدرج ، تؤدي دوراً رئيساً في المساعدة على تجاوز ضروب الحصر والشكوك التي تظهر خلال الطريق ( وهذه الحالة هي ، بالتأكيد ، مختصرة جداً ) .

### ثالثا - ماذا بيّن هذه الأمثلة

كل شخص من هؤلاء الأشخاص فريسة صراع لاشعوري ، صراع بين الحب والكره ، بين ضرب من الطفالة السهلة وبين الحياة الراشدة القاسية ، بين الخضوع والتمرد ، الخ .

ويظهر الحصر والعدوانية في الوقت الذي يظهر فيه الصراع . وكلما اقترب التحليل من الصراع ، برز الحصر . فعلى المحلل إذن أن يتدخل في فترة معينة . وتحلّ دائما آونة تتفجّر فيها أزمة العدوانية ، وذلك كلما ضاق عليه الخناق أمام حقيقة اخفاها عن نفسه .

فلتأخذ مجددا حالة جان .

إليك . ما قالته فيما بعد :

م - هل تذكر غضبي عليك عندما وجهتني صوب التيارات المتناقضة التي كانت موجودة في نفسي ؟

مح - نعم ، نعم ، ...

م - لقد دام غضبي نصف ساعة .

مح - ( ابتسامة ) دام ساعة .

م - حسن ... انك اكتشفت ما كنت أريد اخفاؤه بالضبط ! ولكن حصري كان يصعد منذ أسبوعين كالفيضان . وكنت أشعر بأن كل حيائي كانت مزيفة ، وأن كل شيء كان من الجص . وكل شيء كان كذلك ! كنت اعتقد أنني ابنة مخلصة ومدهشة ، ولم أكن سوى ابنة صغيرة متعلقة بأبيها ، الذي بذل مجهود ، دون أن يعلم ، حتى أبقي مرتبطة به ... أه ، هذا جميل !

مح - لنقل إنه أمر منطقي .

م - عندما كنت وحيدة في السرح ، كان عمري خمسة وثلاثين عاما ! كم من الحصر والتحرر عانيت معا ! انني سأذكر ذلك دائما . وأبي الذي كان يبدو أنه يقول : « هذا مفهوم ... هذه المرة ، انه لامر قبيح ، وستهجرني ... » . لم أكن أعرف قط ما اذا

كان علي أن انسحك أو ابكي ، وما اذا كنت امرأة أو ما اذا كنت قد أصبحت مسخاً بهمل  
أباه ...

والإثمية والعدوانية والحصر ، كما قلت لكم ، تظهر دائماً في اثناء علاج  
سيكولوجي عميق . يضاف الى هذا أن هذه الضروب الثلاثة من المشاعر  
تشكل جزءاً من كل عصاب ... ومن معظم الحيوانات الانسانية .

## ١ - الإثمية والعدوانية والحصر

ستكون الإثمية والحصر موضوع فصل خاص . ولكن ، لننظر إليهما  
الآن من خلال بعض الأمثلة التي تبدو في اثناء تحليل نفسي .

هل يمكن الفصل بين مشاعر الإثمية والعدوانية والحصر ؟ أمسن  
الممكن أن نقول : ها هو مثال صرف من الإثمية ومثال صرف من العدوانية ،  
النخ ؟ هذا أمر متعذر . وهذه الضروب الثلاثة من المشاعر العميقة تكون  
كلاً . فتارة يظهر أحدها ، وطوراً يظهر الآخر . وفي هذا اليوم ، تنبث  
عدواة شرسة ( ولكنها مكتوبة ) ضد المحتل ؛ وغداً ، تنبث عداوة معلنة ،  
أو تلقائية ساذجة تتبعها مقاومة ، النخ .

ثمة مثال ( هاتفي ) :

- آلو ، السيد ... ؟ ( المحتل )

- عو ذاته .

- أوه ... صباح الخير يا سيدي ... هنا جان ... ألا أزعجك ؟

- مطلقاً يا سيديتي .

- حقاً ؟ ألت مشغولاً ؟

- حقاً .

- آه ؟ هذا مدهش ... لأن أخيراً ... بالاختصار ... ها هو ... لا أستطيع المجيء

غداً ، لأن ... أخيراً ، علي أن أذهب مضطراً في رحلة .

— حسن ، أتوَجِّل إذن موعدك إلى ... ؟

— انني متأسفة جدا ، ولكن هذه السفرة ضرورية على وجه الإطلاق . انك تفهم ، انني ( فتعطي هنا سيلا من الشروح الخاصة بأن هذه السفرة كانت غير متوقعة على الإطلاق ، ثم) بذلت كل مجهود لارجئها ، لان التقيد بالموعد أمر ضروري ، اليس كذلك؟ ، واكره ان اتمسك بالتزاماتي . وليس ذلك غلطني ، انت تعلم .

— ولكن هذا مؤكد يا سيدتي .

— انني حريصة على ان اقول لك انني متأسفة . اضطراري الى ان ألقي ، على هذا النحو ، التزاما مئك ، بسبب لي مرضا .

— ذلك ما يحدث لجميع الناس ، اليس كذلك ؟

— بالتأكيد ، نعم ، ولكن اخيرا ... انني حريصة على ان تعلم ان هذا مستقل عن ارادتي ... وابذل اخلاصا كاملا تجاه التزاماتي ، ثم ان ما قيل قد قيل ، اليس كذلك ؟ اخيرا ، حسن ... اني ... هل أأمل ان لا تحقد علي ؟

— اأرجىء إذن موعدك إلى ... ؟

— شكرا . والان اذا رغيت حتما في ان آتي ، فلا يزال بوسعي ان أوجل سفري ، ولكن سبق لي ان قمت بعشرة اتصالات هاتفية لكي اتوصل الى ذلك ، والامر يبدو ممتلدا عـ لـي ، اضـلاـفا .

**ماذا نرى ؟** ان جان هذه تشعر بأنها « مخطئة » بطريقة مبالغ فيها . لقد قالت جان فيما بعد بقليل :

— هل تعلم ؟ ... لم يكن الامر غير مجرد موعد ، لا سفر . ولكني كنت أشعر بالاثم شعورا حادا ، وكان لدي انطباع شديد بأنني لن اروق لك ، وأن بإمكانك ان تحقد علي ، وانني ضحكت كل شيء ليكون لدي كثير من الحجج المقبولة بحيث يتعلم عليك ان تتشدد علي ...

نحن الآن في مجال مشاعر الإثمية ( وفي مجال مشاعر الحصر المرتبطة بها دائما ) . وهذا الاتصال الهاتفي ليس سوى فعل في عداد آلاف الأفعال الأخرى بالتأكيد . ولكن جميع أفعال جان يبلتها الإحساس بأنها مخطئة ، وبأن الناس يتسامحون معها ، وبأنها لا تكاد تكون مقبولة ، وبأن عليها أن

تبرّر جميع اعمالها ، الخ . ( مشاعر الإثمية تنصف بأنها لاشعورية على الغالب ) .

**وماذا نرى ايضا ؟ تلجّ جان بمغالاة على تبريرات يمكن ترجمتها بما يلي : « بذلت حقا كل مجهود حتى لا يفوتني موعدني ، ولكنني فريسة الظروف ... لاحظ الى أي حد أنا مخلصة ... الخ » .** فهل هذا كان شعوريا في هذه الفترة ؟ كلا . ذلك أن جان كانت تقول فيما بعد :

— كنت مصابة بالهلع الشديد ، وكنت مصابة بالحرر الى حد كنت اخلق أي شيء وكنت اعتقد ما كنت أقوله ! وكنت أسمر بانني مجرمة عليها أن تنصرف لتناول الصنع ...

وذلك هي عاطفة الإثمية تماما : الشعور بالخطأ دائما ... ومحاولة التصرف لنيل الغفران . وثمة الآلاف والآلاف من الأشخاص الذين يتصرفون بالأسلوب نفسه على وجه التقريب . وذلك بدءاً ، على الغالب ، من تربية غير محكمة ، ومن آباء مصابين بالعصاب ، يوزعون الاحساس بالإثم لاتفه عمل يقوم به الطفل والمراهق .

وكل ما كانت تقوله جان يمكن تلخيصه بما يلي : « انظر كم أنا بنت صغيرة عاقلة جدا وخاضعة لسلطانك . وبالمقابل ، لا تنبذني ، ولا تحقد عليّ ، واصفح عني ، ذلك اني بحاجة كبيرة الى ان اكون محبوبة ... » .

## ٢ — حالة السيد ع .

لم يكن السيد ع يقرع الجرس ابداً في مدخل البناية عندما كان ياتي الى عيادتي . بل كان يفضل ان يصل قبل نصف ساعة من مواعده ويدخل البناية بمناسبة دخول احد المستأجرين . ثم يقرع مباشرة ، في الموعد المحدّد « بالضبط » ، جرس الباب الخاص .

وكان السيد ع يقول في كل مرة :

— انه حظ ، فقد استطعت الدخول لان احد الأشخاص كانت لديه المفاتيح . وما كان علي ، بهذه الطريقة ، ان ازعجكم مرّين ...

والواقع ان السيد كان يخاف ان يزجج مرتين ( مرة ، على هاتف  
البنية ، واخرى على الباب الخاص ) . فما السبب ؟ السبب ان السيد  
ع كان يحاول ان يجعل من نفسه اصغر ما يمكن ، وان يبين كم كان  
حريصاً على تجنب كل إزعاج . لماذا ؟ لكي يبين كم كان « لطيفاً » ،  
وبالتالي لكي « يقبله » المحلل . والواقع ان مشاعر الإنمية ، المشاعر  
الحادة لديه ، كانت قد جعلت السيد ع يعتقد بأنه « موضع تسامح » في  
كل مكان يحلّ فيه ( كما هو الشأن بالنسبة الى جميع حالات الإنمية ،  
واكرّر ذلك ) .

### ها هو مستخلص من جلسة من الجلسات .

م - وجدت شيئاً ذا أهمية !

مح - ...

م - نعم . لدي مشاعر من الدونية والانمية . ولكن ذلك امر طبيعي ، لقد كرهت أمي  
دائماً . فمن المنطقي اذن ان اشعر بالانتم . وبما انني اشعر بالانتم ، علي ان احاول قصاصي  
نفسي ! ومن جهة اخرى ، قرأت ذلك في كتب التحليل النفسي . فاذا كان علي اذن بصورة  
لاشعورية ، ان احاقب نفسي ، فان بحثي عن الاخفاق منطقي .

وينظر الى المحلل نظرة الظافر ثم يضيف :

م - اعتقد أنني قدعد خطوة كبيرة ، اليس كذلك ؟

مح - ربما ...

م - كيف ربما ؟ ولكن ذلك واضح كاللؤلؤ !

ويصبح عدوانياً ، ويستمر في حديثه :

م - انني منزوع من الناحية اللاشعورية ، لان من المحذور على المرء أخلاقياً ان يكره  
امه ! وانت تعلم ان اي شيء لا أهمية له ، بالنسبة لي ، خارج نبل المواطن !

**فماذا حدث ؟**

١ - « يبسط » المريض « اكتشافه » ليحوز على إعجاب المحلل ،



وبالتالي ليشعر انه على قدم المساواة معه بدلا من ان يفوس في مشاعر  
الدونية ، شأنه ، على وجه الدقة ، شأن طفل يحاول ان يجذب الانتباه  
المعطوف لوالده .

ب - يمثل المريض دوراً . إنه يظهر عواطف نبيلة وسامية ( ... )  
« لا أهمية لشيء خارج نبل المواطف ... » . وحتى لو ان هذه المواطف  
حقيقية في الاصل ، فانها غير صحيحة هنا . ذلك ان المريض يرغب في ان  
يبعدو كاملاً ، الامر الذي يتيح له ان يفلت من النقد .

هل يمكن للمحتل ان يصوب ما يقوله المريض في هذه الحالة  
الواضحة ؟ كلا ، على الاطلاق . فاذا فعل ذلك ، « جمد » مريضه ، الذي  
يعتقد عندئذ انه على صواب ، وان نبل عواطفه صحيح . ويتعرض المريض  
إلى خطر ان يتمتع بالراحة بعد نجاح مسعاه ... الامر الذي يتيح له ان  
لا ينزل الى اعماق نفسه اكثر مما نزل .

## الفصل السادس

### ملاك مي

ينبغي للمرء أن يكون على الدوام ظنيًا  
في نظره الخاص .

( مريض )

إننا ندخل هنا في مجال من التحليل النفسي لا يمكن وصفه على وجه  
التقريب . إنها ، في الواقع ، آلاف من الخيوط الدقيقة ، وردود الفعل  
الممكنة ، والإحساسات . فلا يمكن القيام بأي عمل في الأعماق ، كما قلت ،  
دون تعاون كثيف بين عالم النفس ومريضه . وذلك غنيّ عن البيان .  
وبالكلام تنعقد هذه العلاقة بالتاكيد . فالمريض ، وهو يتكلم ، يمرّف نفسه  
للمحتل . والمحتل ، وهو يتكلم ، يضع مريضه على الدرب ، ويقوده  
صوب احتياز الشعور ، احتياز لولاه لما كان ممكناً أي شفاء ، ولا أي  
اتساع في الشخصية .

ومع ذلك ، فإن الصمت يشكل ، هو أيضا ، جزءاً من التحليل  
النفسي ، الى حد بعيد جدا في غالب الاحيان . ومن المؤكد أن العمل  
السيكولوجي يربط بين المحتل ومريضه ربطاً قويا . وينبغي لهذا الاتحاد  
أن يتأسس في سبيل هدف مشترك : شفاء شخص من الاشخاص ،  
واكتشاف شخصية محجوبة ، وبعث إمكانات مطمورة .

## ١ - صمت المحلل

يعني التحليل النفسي الدقيق أن المريض يمكن أن يذكر كل ما يخطر في ذهنه ، بأي كيفية كانت ، وخاص بأي شيء كان ، ودون أن يأخذ بالحسبان أي شيء ، لا الأخلاق ، ولا الرأي الممكن للمحلل ، ولا ما هو « خير » وما هو « شر » .

والمحلل « يختفي » في اثناء التحليل النفسي الدقيق . ويظل حيادياً وصامتاً بصورة نسبية .

ولا بد أولاً من فهم أمر من الأمور . ولا يمكن للمحلل ، في أي حال وبأي أسلوب ، أن يؤثر على مريضه بأفكار أو آراء شخصية . فلا يصوب المحلل شيئاً ، ولا ينتقد شيئاً ، ولا يحكم على شيء ، ولا يعجب بشيء ، ولا يذم شيئاً . إنه خارج دائرة الأخلاق ودائرة الآراء . وقد قلت ذلك من قبل . والحال أن المريض يحسّ بكل موقف عميق يقفه المحلل . ولنفرض أننا بصدد محلل كاثوليكي وأن المريض ملحد . ولنفرض أيضاً أن المريض يهاجم الكاثوليكية بعنف ، وأن المحلل يقوم برد فعل داخلي ضد هذه الهجمات ، حتى ولو لم ترتعش أي عضلة من عضلات وجهه . فالعلاج يفسد . إن المحلل يحسّ باستهجان المحلل إحساساً عميقاً . ويفهم المرء إذن أن على المحلل أن يكون قادراً على أن يحول قاطمة آرائه . وذلك بشكل جزء لا يتجزأ من مهنته .

إذن ، فعلى المحلل أن « يختفي » . وعليه أن يبقى حاضراً ، من جهة أخرى ، بكل صفاته الانسانية وتقنياته . إنه يظل حاضراً كل ثانية بقلبه وفكره . ويصبح أحرص ، ويصبح صامتاً . ويسكت . إنه يصفي . وتلك هي الفترة التي تتصف ، بالنسبة إليه ، وبخاصة إذا كان التحويل عنيفاً ، بأنها الأكثر صعوبة والأكثر تعباً . فإذا ما رآه المرء ، ظنته سلبياً ، إذ أنه لا يتكلم ولا يقوم برد فعل . وهو حيادي أيضاً ما أمكن أن يكون . ويصفي الى الآراء الأكثر تبايناً ، والهجمات الأكثر فظاظة ، بالانسانية العميقة نفسها . وثمة آلاف من ضروب الكبت والعقد والحصص تنصب أمامه .

ففي هذه « الفترة السلبية » إنما يتصف المحلل ، على وجه الدقة ، بأنه أكثر فاعلية . إنه يفصل شخصيته وآراءه الفلسفية في أعماق أعمق ذاته . ويصبح إنساناً لا آراء له . فليس له الحق في أن يكون له آراء في أثناء جلسة من جلسات التحليل . ويصبح إنساناً دون أفكار . وعليه بصورة خاصة - وهذا هو المثالي - أن يكون قادراً على أن يكون لديه شيء يقتضيه السيطرة عليه داخلياً . إن المحلل يصمت ، ويتبهاً للعمل بعمق ، ويستخدم لمصلحة مريضه جميع مصادر شعوره ولاشعوره . ويدع نفسه تنزلق وتسيل في لاشعور مريضه . فليس صمت المحلل إذن « تقنية » اعتبارية ، بل هو وسيلة إنسانية بصورة عميقة ، تتيح للمريض أن يبقى وحيداً مع ذاته ، وبجانب « شاهد » من الضروري إقامة اتحاد عميق معه خلال عدة شهور .

وما تقدم يتصف بأنه عام ، ولكنه يتغير بحسب كل حالة ، وكل جلسة ، وكل آونة ، وقد أمكن رؤية ذلك من خلال الأمثلة المضروبة . وبوسع المحلل أن يتدخل . ومع ذلك فهو يمارسه دائماً على نحو حيادي . إنه لا ينصح أبداً ولا ينتقد أبداً ، ولو في أعماق أعمق ذاته . يضاف الى هذا أن الصمت لا يمكن ممارسته دائماً في أي فترة ، ومع أي كان . ولا يمكن للصمت أن يشكل جزءاً من تقنية صلبة . فإين نمضي إذا انحبس علم النفس في تقنية متخثرة بصورة نهائية ؟

والمهم مع ذلك ، وعلى وجه الخصوص ، ليس صمت المحلل ، وإنما موقفه الداخلي العميق . وتقع هنا مجدداً على ما قلته من قبل : التحليل شيء من الأشياء ، ولكن المحلل هو المهم قبل كل شيء ، شريطة ، بالتأكيد ، أن يكون حائزاً بصورة تامة على تقنية التحليل النفسي !

## ٢ - صمت المريض

لنضع أنفسنا مكان المريض . إنه وحيد مع ذاته ، والمحلل صامت . نشمة أذن غير متحيزة ، حيادية وإنسانية ، تصغي . ولا بد للاشعور من أن يصعد مع ممنوعاته ، ومحرماته ، وعقده ، وضروب كفه وحصره ،

وامنه المزيف . ومن الضروري أن تنبثق اصناف الكبت . وعلى المريض أن يصل الى التحلي بالصدق المطلق ، كيما يقوم التعاون بعمق . وسيصمت المريض ، بصورة إرادية أم لا ، في فترة معينة . وستخيم ضروب من الصمت تختلف في طولها . ويمكن لهذه الضروب في بعض الاحيان أن تدوم خلال جلسة كاملة .

## اولا - لماذا هذه الاصناف من الصمت

ثمة بالتأكيد بواعث عديدة ممكنة . والباعث الاول الذي يخطر على البال ان المريض يصمت بسبب خوفه ( او خجله ) من أن يقول أشياء معينة . إنه يخاف أن يقول أشياء يعتقد أنها لا يمكن الاعتراف بها . فلننظر إذن في شتى صور الصمت التي تتجلى في التحليل النفسي .

### ١ - الصمت الارادي

والمقصود ذكريات ووقائع ومواقف يرغب المريض في أن يضرب صفحا عنها . وهذا امر منطقي تماما . فالمريض يفكر ببعض الأمور ، ولكنه يسكت عنها ، لا لانه يخشى أن يعترف بها ( إذا كان يعرفها ) وإنما يرتاع من أن يطلق عليه المحلل حكما غير مؤات . وهذا عبث بالتأكيد ، ولكن ذلك لا يحول دون أن يحس به المريض . إنه إذن يضرب صفحا عن بعض الأمور . فيتلمس ، ويوارب ، ويمزج ، ويتورط في استطرادات ليست ذات صلة بالمشكل الرئيس . إنه يهرب . والحال أنه يعلم بصورة عقلانية ان المحلل لا يطلق احكاما أخلاقية على ما يقول . ولكن ذلك ، مهما يكن من امر ، « أقوى منه » . فقد ألف المريض أن الآخرين يطلقون احكاما ، ويعتبرون بما يلي : « هذا خير وذاك شر » ، ويسخرون ، وينتقدون ، ويؤثثون ، ويعجبون ، الخ . ومن المؤكد إذن أن المريض لن يتخلص من قلقه العميق أمام « الحكم » ببعض الجلسات . ويصرّح بعضهم مع ذلك :

- ثمة كتل من الأمور الخاصة بطغولتي ومراعتني أفكر فيها ، ولكنني في الحقيقة

لا أجرؤ على قولها . فهل بوسعي ، ربما ، أن أفعل ذلك المرة القادمة ؟ لا أعلم ... ولكنني عاجز عن أن أقولها الآن .

كيف يكون رد فعل المحلل ؟ إنه يصمت ، بصورة عامة . ولا يطرح أي سؤال . ولا يدفع المحلل إلى أن يتكلم ، للسبب المهم هو أن ذلك قد يكون سابقاً لأوانه . فولادة اللاشعور ينبغي أن تتم دون جهد . ذلك أن « قسر » المريض يفضي إلى ضروب من التوقف .

ويقول بعضهم أيضاً :

— إذا كان علي أن أقول لك ما يخطر في ذهني الآن ، فلا أعلم ما ستظن بي ...

— أحس بأن لغة حكايات تصعد ، وانني حجبته من نفسي خلال سنين . ولا أزال غير قادر على أن أدرکہا على نحو جيد جداً ، ولكنني ان أطلقت لا تكاري العنان ، فانها قد تعود بصورة سهلة إلى حد ما . بيد انني أشعر بأنني لا أريدها ان تعود ... فلماذا ؟ ليس ذلك لأنك هنا ، إذ انني اتق بك ثقة مطلقة ، وان السر الممنى مطلق في التحليل النفسي . واعلم أيضاً أنك لا تطلق احكاماً ، وأنتك تصني إلى بمحبة عميقة ورغبة مخلصه جداً في مد يد العون لي ... ولكنني لا أستطيع .

وبناءً عليه ، فان المريض يغير دربه ويتخذ اتجاهاً آخر . وهو ، من جهة أخرى ، يفعل ذلك دون أن يعلم . ولا بد ، مع ذلك ، من أن نفهم جيداً أن المريض احتجب عن نفسه وعن الآخرين زمناً طويلاً ، وعرض واجهة ، ومثل تمثيلية ، ووضع قناعاً . وما هو مضطر إلى أن يتعري بسرعة . ويفهم المرء أن ذلك يتطلب نضجاً تدريجياً . وينبغي الوصول إلى أن ينطلق لاشعوره دون أن يظهر كثير من الحصر . ذلك أن الحصر إذا استحوذ على إنسان ، بذل هذا الإنسان بالتأكيد كل مجهود لكي يتخلص منه . وهذا له تأثير في التحليل أيضاً ، بصورة شعورية أو لاشعورية .

والاسلوب الوحيد للتخلص من الحصر ، في الحالة التي نحن بصددہا، ان يتكلم المريض على امر آخر . والمريض ، من الناحية الموضوعية آمن ،

وربما كان يتمتع بأعظم أمن في حياته : عيادة المحتل . ولكنه لا يشعر بالأمن . وسيكون رد فعله إذن تابع لهذا اللامن .  
ثمة مرضى يقولون :

— انك هنا لكي تصني الي دون أن تقول شيئا . انه لامر سهل . ففي هذه الشروط ، مهنتك اتمنى أن امارسها ايضا ! انك تترصدني ، اليس كذلك ؟ حسن ، انه لامر سهل جدا في هذه الشروط : لن اقول لك شيئا على الاطلاق .

هذه الملاحظات ملاحظات طفالية ، بمعنى انها تعتبر عما يلي : « أنت تريد » ان اتكلم ؟ حسن ، لن اقول شيئا » . يضاف الى هذا ان الحاجة إلى أن يظهر المرء مزاياه حاجة ملحة على الغالب . فثمة صمت « يمدّ » المريض في اثناؤه ما سيقول إعداداً بطيئاً ، كيما يبدو بالمظهر الأكثر ملاءمة .  
— بدأ الدهان اول اسس يدهن مجددا شققي السكنية ...

قال احد الاشخاص في يوم من الايام خلال مرحلة القصة المرضية :

والحال ان ذلك كذب . فالدهتان لم يدهن مجددا شققه السكنية للسبب الاساسي انه كان قد فعل ذلك بنفسه . وقوله « شققي السكنية » كان مبالغة ، إذ انه كان يملك ، كغيره من الناس ، شقة سكنية واحدة .

إن هذا مثال اولي . ولكنه يبين أن الرغبة في أن يرفع المرء شأنه يمكن أن تكون في بعض الاحيان قوية جدا . ويتعرض المريض ، من جهة أخرى ، الى خطر التسعلق بشباكها لبعض الوقت . ويترتب على ذلك أن المريض « يبالغ في التدقيق » بالحقيقة مضيفا إليها هذه أو تلك من الصفات التي تميز ما يقول ، ومدخلا بعض الخصائص التي يحوز عليها أو لا يحوز ، ولكنها تبرز شأنه . فالمريض يتصف عندئذ بأنه شبيه برستام يضع لمسات صغيرة على لوحة تفوز بأعجاب المشاهد .. وموقف المحتل لا يتغير : إنه يظل حياديا ، ويسجل ما يحدث في لاشعور المريض . وليس له سوى هدف واحد : الوصول الى أن يخرج المريض من الركود .

## ٢ - معنى الصمت

يتم الاتصال الانساني بالكلام ، ولكنه يتم ايضا بما وراء الكلام .  
وبعض ضروب الصمت مثقلات بالمعنى ، سواء كانت مشحونة بالعدوانية  
والخوف والحصص أم بالمحبة والصحو . **فكل صمت يعني شيئاً من الأشياء .**

إليك حالة رجل ذكي ، يشغل منصبا مهما . فبعد أن نشر بعض  
الذكريات ، في حين كان المحلل قد ظل صامتا ، قال :

- اسأله عما تكتب ، مثل هذا ، دون انقطاع . ان تقول لي ان ما اقصته عليك يتصف  
بالامية ؟ اللهم الا اذا كان من أجل ان تتكلم عليه مع محللين آخرين ؟ عليك بما ان تمزج  
معي ! من السهل جدا ان لا اجيب ، اليس كذلك ؟

واستمر صمت المحلل . ثم ظهرت مشاعر الإثمية .

- سأكون صادقا . لدي انطباع بان لا أقول لك شيئاً مما تنتظر مني ، وبأن اخدمك ،  
وبأن أصبح وقتك . لديك بالتأكيد مرضى اكثر أهمية مني !

واستمر صمت المحلل . ثم تابع المريض :

- عجباً ! اسأله ، عرفاً ، عما تظن بي وبطبي ! وينبغي بمراحة ان أعرف ذلك ،  
اذا لم تكن ، على الأقل ، باقيا غير قابل للاختراق كالعاطف . عجباً ! انك تدكرني بوالدي ..

ثمة هنا أمران : إنه مصاب بالحصص إزاء « رأيي » فيه ، رأيي الذي  
لا يعرفه . فهو يعتقد اني أطلق عليه حكماً ، وانني أتسلى بـ « اختبار »  
« طبيعه » . إنه يقول : « عجباً ! عرضاً ... » ، الأمر الذي يبدو وقحاً .  
ولكنه يتيح له ان يتخلص من الحصص . يضاف الى هذا ان ذلك يعني :  
« هيتا » ؟ بوسعنا ان نتحدث حديث رجل الى رجل ، مع ذلك ! ، الأمر  
الذي يتيح له ان يناقش ويسوّغ ويبرهن انه مصيب : وبالتالي ، يفلت  
من الرية والحصص .

وتابع يقول ، بعد أن ضرب اصابعه بعنف الواحدة بالآخرى خلال  
بضع دقائق :



— حتما ، انك تبقي هادى الاعصاب . فانت قوي جدا ! بالنسبة لامي ، كان المرء يعرف على الاقل عندما كانت غاضبة . اما انت ، فلا يرى المرء شيئا !

ثم يحدث تغير مفاجيء ، وينقلب من عدواني الى طيع :

— بالخيبة الامل . انني انا الفبي ... فانت تعمل لخري حتى اصبح رجلا حقيقيا . ولا بد لذلك من ان يسبب لك تعباً مرهقا ... انا اهاجمك ، وانت لا تجيب .

وساد الصمت . ثم بدت لدى المريض محاولة للاتصال اتصالاً « شخصيا » بالمحتل حتى يحصل على الصفح ، لكونه كان خبيثاً :

— هل انت من انصار الالانف ؟ آه ، لا تجيبني ، انني افهم ذلك جيدا جدا . ولكن لا بد للمرء من ان يكون قويا جدا حتى يكون غير عنيف .

واستمر المحتل في صمته . ثم بدت لدى المريض نزوة ليصلح الوضع ( وبالتالي ، لكي يتخلص من الحصر مرة أخرى كذلك ) :

— هذا اقوى من الكاثوليك الذين يتشاجرون ، اليس كذلك ؟

ويطرح مريض يحتل نفسيا الى ان يكون مفهوماً ( والى التفاهم ) حتى اوهى الياف شخصيته . **ويطرح الى الاتحاد وجدانيا بالمحتل من اجل العمل المشترك** . ولكن لا بد ايضا ، لكي يتحقق هذا الاتحاد ، من ان يكفّ المريض عن ان يكون خائفاً . والحال اننا ندرك ان الخوف الذي جاس خلال سنين إنما لا يرفع الراية البيضاء في غضون ساعة من الزمن .

ويتبين ، مرة أخرى ايضا ، إلى أي حد ينبغي للمحتل ، في بعض فترات من عمله السيكولوجي ، ان يكون حذراً وان « يحسب » اوهى تدخل من تدخلاته ، دون ان يكفّ عن الاستمرار في اتخاذ موقف داخلي اخوي .

ويتصف صمت المريض بأنه هروب على الأغلب . بيد ان ثمة كذلك ضروبا من الصمت الكتيمة ، والمثير للحصر ، الذي يفوح فيه المريض بمقدار ما لا يلاقي أي صدى من جانب المحتل . ويحدث عندئذ ، في الغالب ، ان تتجلى صنوف من التفرغ المفاجيء للدوانية والعداوة

والغضب . ويتغير عندئذ موقف المحلل تبعاً للحات والآونة . ويتعدّر  
أن نرسم قاعدة عامة . ويتدخل المحلل غالباً لتحليل الحصر الذي حلّ ،  
وتحليل رد الفعل العدواني أيضاً .

## ثانياً - بعض أصناف الصمت المبارك

يمكن للمرء أن يكون صامتاً لأنه سعيد . فليس ثمة من حاجة أبداً  
إلى الكلام ليظهر فرحه وسلامه وأمنه . وقد يبدو الصحو الداخلي بكل  
اتساعه إذا كان المريض في سلام . وهكذا ، فثمة جلسات كاملة على وجه  
التقريب يعيشها المريض على هذا النحو في جو يسوده الصمت . وليس  
المريض متشتتاً ، ولا مصاباً بالحصر . ويمكن القول إنه « ينساب »  
في الصمت .

وينبغي للوضع مع ذلك أن لا يطول أمده . والسبب أن ثمة هدوءاً  
يسيطر على المريض . ولكنه يجب أن لا يستمر في الإحساس بأن عيادة  
المحلل شبيهة بـ « مرفأ السلام » . ومن المحتمل أن يستقرّ في هذا الوضع  
ولم يعد يخرج منه . وأعني أن المريض لن يكون لديه باعث الى الخروج  
منه وقد شعر بأنه على ما يرام ، وشعر بأنه أصبح مجدداً « وكأنه طفل  
في حضن أمه » .

ها هما أيضاً مستخلصان من بعض الجلسات . يمكن لكل شخص أن  
يجد نفسه فيهما ، لأن كل فرد يتعلق بأصناف من الأمن خلال الحياة .  
ولكن العصاب مركب من ضروب الأمن المزيف ( انظر فصل « الانسان  
المصاب بالعصاب » ) وعندئذ يرتضي الانسان لنفسه عكازين ، ويسير سيراً  
مقبولاً . ثم ها هو ضرب من التحرر الداخلي يشرع في الحدوث . ويبدأ  
المريض مجدداً في السير . ولكنه يتبين أنه يتقدم دون هذين العكازين  
اللذين استخدمهما فترة طويلة من الزمن . فيلقي نظرة الى الوراء . ويرى  
عكازيه يبتعدان . وتتصف عندئذ غواية استرجاعهما بأنها قوية . فلديه  
نزعة إلى استعادة ضروب أمنه القديمة . إنه يخرج من السجن ولكنه يرغب

في أن يتمسك بقضبانته ، كما كان يقول أحد المرضى فيما سبق ، أو أنه يخشى أن يتخلص من الخوف ، كما تقول ماري في المثل التالي :

### تقول ماري ...

— انني منذ اسبوع في حالة من ... الفرح ، والحزن ، والفرح ، والخوف ، وعدم الخوف ، والحصر ، والفتنة ، والقوى المفاجئة ، وضروب الضعف التي تعود ... اي خليط ! رغبت بالامس في ان اترك التحليل ، في حين انني احسن حالا بكثير ! فلماذا ! ان حقيقتي تعزيني ... فهي ادوع من قبل بألف مرة ، ولكن ، ماذا علي ان اعمل من الاوهام حول ذاتي ! ... » انني لا امضي صوب ضرب من التفرير ، بل صوب « تحول فجائي ! » وهذا ما يتصف بأنه عجيب : « فكلما بدا الوضع ، رغبت في العودة الى كهفي واخفاء هيني ! » وذلك شبيه بولادة جديدة ، كما لو اني ما عشت ابدا ... زمن طويل مبدد ، ضائع ، ميت ... وذلك ما يشتر حسري ، لانني أدرك انني ما عشت ابدا ... لقد انقضت سنوات وأنا خائفة .. وها انا لست خائفة ابدا ! انه لامر سخي ... » ولكن ذلك يرميني لانني لم اعد خائفة ... » ويرميني لانني اصبح راشدة ! فانا كسجين ينطلق في الشارع فجأة ، راد الفضي وبين الناس ... او كمتسول يقدم اليه مئات الملايين التي ينفي عليه ان يديرها وهو مسؤول عنها ... فهل الامر في التحليل على هذا النحو دائما !

### — غالباً ...

— حسن ! نمة سجناء من الناس على سطح الارض !

وهكذا فان التحليل يسحب المزلاج . فالمعتقل يحتاز الشعور بسجنه . والتحليل يهدم الجدران . ولا بد من التخلي عن هذا الوهم ، وهم الاعتقاد بأن الانسان حر ، في حين انه كان سجين عقده وضروب حصره وآلياته الامنية ...

### ويقول جان بول ...

— امر طريف ... كل شيء يتهاوى ببطء ، مثل هذا ... حالي جيدة ، واضمر انني على ما يرام ، وانني ازداد قوة ... واقول انني كنت مشتتاً جداً ! ... فانا شبيه بموقع محصن للقتى القنابل . ولم اكن اعلم في البداية الى أي جزء منه التجيء . وكنت احس بأن حصني الصغير يتهار ، وقد احتجبت دائماً في هذا الحصين ! » وكنت ارجب في

ان اعيد بناءه بكل سرعة لاحتجب به ، وفي ان اضاعف سماكة الجدران ، وفي ان امنك من دخوله ... وكنت اقول لنفسى : « ماذا سأصبح اذا زال حصنى الصغير ؟ » . ومع ذلك ، تزوجت خلال شهر ، ووجدت وضعا مستقرا ، وانا مفعم بالطاقة . ومتى أدرك من اين آيت ، من اي اوهام حول ذاتي وحول الآخرين ، من اي المخاوف ... ! كنت اعامل مع جنود من الرصاص ، وكنت اضخمهم جاملا منهم مسوخا مرعبين ... انه لامر غريب مع ذلك ان يكون بإمكان الانسان ان يطمر راسه في الرمال حتى يقلت من ذاته ...

### ثالثا : تدخلات المحلل

متى يباشر المحلل في « التفسير » ، اي في شرح ما يحدث في اعماق شخصية المريض ؟ ومتى يبدأ في شرح خفايا العصاب والاسباب العميقة لهذا العصاب ؟

فلنتذكر امرين اساسيين . اولاً ، إن اي شخص يباشر تحليلاً نفسياً يرغب ، من الناحية الشعورية ، في الشفاء ، وهذا امر غنيّ عن البيان ، ما دام يتالم . ولكنه على الغالب ، ثانياً ، يرفض بصور لاشعورية هذا الشفاء . ويقاوم امام هذا الشفاء . فتمة ضروب من « التوقف » عندما تصعد بعض المواد المهمة من اللاشعور .

وبناءً عليه ، تمة ، من جهة ، رغبة شعورية في الشفاء ، ورفض لاشعوري للشفاء من جهة أخرى .

وهذا امر يسهل فهمه ، ما دام الشخص ، كما قيل فيما سبق ، يرغب في أن يستاصل الاعراض التي تؤله ( فكرة ثابتة ، خجلاً ، رهابة ، الخ ) . ولكن ذلك لا يعني انه يرغب ، لبعض الوقت ، في أن يتخلّى عن البنيات المميزة للطبع التي استخدمها وسائل دفاع خلال سنين عديدة . فشخصيته الزيّفة قامت مقام المظلة بالنسبة إليه . وهذه المظلة تربكه . فهو يحملها في أي مكان . إنه يأخذها حتى ولو ان الجو رائع ، لان السماء يمكن أن تمطر في رايه . وهو يحملها في الشارع والصالونات والمكاتب . وبحس بان مظلته لا تتلاءم مع الواقع العميق . ومع ذلك يتمسك بها .

ولنعد إذن الى السؤال : متى يبدأ المحلل في التفسير والشرح ،  
تفسيراً وشرحاً في الأعماق ؟ متى يبدأ المحلل في دفع مريضه نحو ضروب  
من « احتياز الشعور » ذات أهمية ؟ ( انظر فصل احتياز الشعور ) .

إنكم ترون أن المحلل يفعل ذلك منذ البداية لو كان بإمكانه . وعندئذ ،  
يدوم العلاج التحليلي أسبوعين أو ثلاثة ، وسيكون كل عصاب مستأصلاً .  
ولكن الأمر على خلاف ذلك من الناحية العملية . والسبب في ذلك ، أولاً ،  
أن المحلل عاجز عن معرفة الأعماق القصوى لمريضه في غضون أسبوعين  
أو ثلاثة . والسبب ، ثانياً ، أن التشخيص العميق لن يفهمه المريض ،  
ولن يحتمله بصورة شعورية .

### هاكم ما كان يقوله أحد المرضى :

— ادرك الآن للمرة الأولى على سبيل الحمر أن قول كلمة ، بالنسبة لك أيها المحلل ،  
ينبغي أن يكون مربعاً . فلو أنك أعطيتني ، قبل بعض الزمن ، هذا أو ذاك من الشروح التي  
أفهمها الآن ، لاسكت بها ومضغتها وهضمتها هضماً سيئاً ، ولفهمتها فهماً خاطئاً ، ولكنت  
أرصد ، ولكنت أكثر مرضاً مما كنت عليه من قبل بألف مرة . وإذا كان قول كلمة واحدة  
ينبغي ، بالنسبة إليك ، أن يكون مربعاً ، فقول جملة ينبغي أن يكون كذلك أكثر رعباً . ولا  
بد لك من أن تقدر الجرعة ، ولا بد لك من أن تفسر سراً هادئاً . واني لأسألك من النتائج  
التي يمكن أن تحصل لو أن « مبضعك » انزلق ، ولو أنك ارتكبت أقل خطأ ؛ إذن لامتلك  
أن تمس شيئاً يقاوم ، ويتوقف أكثر أيضاً ، لأنه يقاوم . ولا بد من أن يكون قول كلمة واحدة ،  
بالنسبة إليك ، كمود تقاب يضع النار في بناء برمته . ولكنني مع ذلك ، كم أصابني من  
الغuilt ، وكم حقدت عليك ! وكنت أشعر أنك كنت تظل في صمت جليل ، في حين أنك كنت  
تمارس مهنتك ببساطة وعلى أفضل ما يمكن . « انني ادرك الآن أن قطاف التفاح لا يتم في  
فصل الشتاء » .

### ويقول مريض آخر :

— لو أنك قلت لي في بداية تحليلي : « قص علي أحلامك » لوقعت مريضاً حسيماً  
اعتقد ، ولاصبت بالجنون ، ولشعرت بالآثم لأنني لم أكن أحلم ، أو كان لديّ انطباع بأنني

لا أرى أحلاماً ؛ ولشعرت بأنني غير سوي لأنني لا أحلم ؛ ولشعرت وكأنني منهم أمامك كلما أتيت الى جلسة دون أن أتيتك بحلم . بل اعتقد بأنني كنت سأخلق حلماً حتى لا أخيب أمك ، في حين أن كل شيء يخطر الآن دون اكراه ...

واظن أننا ينبغي أن نشير في هذين التأملين الى جملة رئيسة : لا **يقطف التفاح في الشتاء** . فقطافه يتم عندما يكون ناضجاً . وعلى هذا النحو ، لا تلتف التفاح ولا الشجرة . ويلجأ الشخص الى التحليل ليفحص حياته العميقة ويبحث فيها ويصححها . فالتحليل « يبلور » الحياة اليومية . وقطاف التفاح لا يتم في فصل الشتاء . وهذا يعني أن المحلل لا يمكنه أن يقول أي شيء ، ولاي شخص ، وفي أي زمن . وبعبارة أخرى ، لا يمكنه أن يقدم تفسيراً بمنتهى السرعة ، ولا أن يدفع التحليل دفعا بمنتهى العجلة . فالإنسان يتكلم مع الآخر باللغة التي يفهمها هذا الآخر . والمحلل يسبق مريضه الى المتاهة . فعلى المحلل أن يتأكد من أن المريض يملك الحبل والسلّم اللذين يتيحان له أن يعبر الهوة إذا انفتحت ، بدلاً من أن يظلّ على حافتها متخترعاً بفعل الحصر ، أو أن يهرب بكل سرعته صوب الملاجئ القديمة .

إن ضرباً من « احتياز الشعور » ينبغي أن يكون مآلاً لنضج الشخصية نضجاً بطيئاً . ولنفرض أن محللاً يعطي قبل الاوان شرحاً في العمق . ولنفرض أن « رفيقه في الطريق » يفهمه فهماً عقلائياً . فما فائدة ذلك ؟ لا شيء . فلا ينبغي لـ « احتياز الشعور » أن يتم التقاطه عقلائياً ، بل وجدانياً . ولا بد من أن يعيشه المريض ويحسّ به في حياته اليومية . ولنفرض أن المحلل تصرف قبل الاوان . فاذا ممسّ كبتاً ذا أهمية ، فلن يستطيع الشخص بالتاكيد أن يحتمل هذا التفسير دون أن يصاب بحصر كبير . وسيولد هذا الحصر مقاومة . وهذه المقاومة ستعزّز الكبت .

والخلاصة :

— سيمسّ الشرح الذي يعطى قبل الاوان ضرباً من الكبت المؤلم جداً . وسيولد هذا التفسير إذن حصراً يصعب احتماله .

— وسيظهر هذا الحصر بدوره مقاومة وتوقفاً .

— فلا يمكن إذن تفسير شيء تفسيراً في العمق قبل أن تسقط بعض المقاومات ذات الأهمية ( انظر فصل « صوب منبع النهر » ) .

ويحدث غالباً أن يقول المرضى :

— اتساءل متى ستقول لي شيئاً ، وما « ستكشف » لي ؟ يمكنك أن تباهر ذلك ، انت تعلم ! انني على استعداد لتقبل كل شيء يصدر عنك ، ما دمت هنا !

هل هذا صحيح ؟ هل هو خطأ ؟ المريض يقول الحقيقة ، من الناحية الشعورية ومن الناحية العقلانية . ولكن لاشعوره يحكم بالعكس . فالشخص المصاب بالمصائب شبيه ، كما قلت ، بشخص فوق الهوة متملق بكلاّب . إنك تتصور إذن ، على نحو تام ، أن المريض ، لو شاء المحتل أن يرفع الكلاب دون أن « يضمّنه » ، سيتمسك مباشرة بكلاّب آخر أو يفرز الكلاب الأول أكثر . وهذا أمر واضح .

— لو قلت لي ، قبل ثلاثة أشهر ، أن الحياة مع والدي هي التي سلبتني رجولتي ، لقبّلت ذلك فيما اعتقد . « وسبب قبولي أن ذلك كان يضع مسؤولية كل شيء على والدي ، ولا يضع مسؤولية أي شيء علي » . ولو قلت لي ( الأمر الذي أفهمه الآن ) أن جميع صلاتي مع الغير كانت مرتكزة على الخوف ، لقبّلتها أيضاً فيما اعتقد . ولكنك لو قلت لي اني لم اكن اطلب من النساء غير شيء واحد ، هو حجرهن وحمايتهن ، وأن كل دماثتي كان يضمها خوف شديد ، لغفرت على وجهك « لأن ذلك كان سيضع سلوكي برئته موضع الاتهام » . وهو أمر صحيح مع ذلك . ولكنني الآن أكثر قوة بكثير . فانا لا أقبل ذلك نحسب ، ولكنني اضطلع بهذا الاحتياز ، احتياز الشعور ، الذي منحني كسباً جديداً هائلاً من الطافة .

هذا المريض على صواب . إن « آناه » لم تكن مسلّحة بصورة كافية قبل ثلاثة أشهر . فالطاقات المتوقفة في اللاشعور تحرّرت خلال التحليل ، بفعل استئصال المقاومات وضروب الكبت استئصالاً تدريجياً ، وعزّزت « آناه » . وترتب على ذلك أن هذه « الأنا » الصغيرة التي كانت له في البدء ، هذه الأنا المصابة بالضعف ، أصبحت راشدة بالتدريج وقادرة على أن تدرك الطفالات وتقبلها وتصحّحها .

ولنفرض أيضا ان احد المحتلين قال قبل الاوان ولو ما يلي على سبيل  
الحصر ( ويعلم الله ان كان هذا لا يتصف بشدة الخطر ! ) :

— كياستك الكبيرة مزيفة . إنها كياسة طفل خائف . فانت تبالغ  
في الكياسة لانك تخاف الدخول في منافسة مع احد الناس . إنك لا تحتمل  
المنافسة ، وتخاف ان تغلب ، وتخاف ان تنبذ ، وتشعر انك ضعيف  
ومذعور كطفل . وكياستك مزيفة . وهي تخفي ، في الواقع ، عدوانية  
هائلة . ولكنك تخاف ان تكون عدوانيا لانك تخشى الخصاء . إنك مازوخي .

إن شرحا من هذا النوع يعطى قبل الاوان سيكون شديد الخطر الى  
الحد الاقصى . وإذا فرضنا ان المحتل لا يعطي غير الجزء الاول من الشرح  
السابق ، فان المريض سيقفز على كلمة « عدوانية » ... وسيكون راضيا  
من ذلك .

فما السبب ؟ إنه يشعر في اعماق ذاته بأنه ضعيف . وبناء عليه ، فان  
يكون عدوانيا يعني ، بالنسبة إليه ، ان يكون قويا . والواقع انه سيعتقد  
في نفسه انه موضع تهنة . وسيقول في نفسه : « نعم حدث ! إنني عدواني ،  
في حين انني كنت اعتقد بوجود الضعف في نفسي » . وعندئذ ، سيمثل  
المريض دور العدواني ويعتقد بأنه آمن ... وسيطرا على العلاج زمن من  
التوقف .

ولو ان تفسيراً أكثر عمقا كان قد اعطي بصورة سريعة جدا ، لدخل  
المريض في فترة من الحصر . فتأملوا ! لقد عاش طوال سنين بصورة  
مغالية في الكياسة ، مغالية في اللطف ، مغالية في التهذيب . واشتهر في  
كل مكان بأنه رجل كينس الى الحد الاقصى . ومعظم نجاحاته مرتكزة على  
الكياسة . والحال ان هذه الكياسة مزيفة . إنها كياسة طفل يقول :  
« نعم بابا ، حسن يا بابا ، نعم ماما ، حسن يا ماما » . وذلك ليجعل  
من نفسه مقبولا ومحبويا ، ولكي يتجنب الاحساس بأنه « منبوذ » . إن  
بنية طبعه العميق ذاتها هي الموضوعه إذن موضع التساؤل . والحال ان  
المريض يتألم ، وكياسته تحميه . ومع ذلك ، إنه باستمرار يعيش في ظل



التوتر ، ويشعر بأنه مهدد ، وهو خائف ومصاب بالحصر . ولكنه أتى  
ببحث عن المحلل من أجل اعراض ليست ذات صلة بهذه الكياسة المزيّفة !  
و« اناه » لا زالت اضعف من أن تصطلع بضرب ذي اهمية من احتياز  
الشعور .

ونرى كذلك إذن أن جميع تدخلات المحلل ينبغي أن تتم تبعا لتطور  
مريضه العميق . فلنكرّر القول إذن إننا لا نقطف التفاح في الشتاء ، سواء  
في علم النفس أم في الحياة الجارية . وذلك من جهة أخرى غير ذي صلة  
بدكاء المريض . وهو منوط ، ببساطة ، بالنضج التدريجي للدمامل  
اللاشعورية . ومن الواضح أن على المرء ، إذا تألم من داحس ، أن يجعله  
ينضج ، لا أن يضرب فوقه . وكما يقول ناخث : « **يحتمل أن لا يصل المرء  
أبدا ، إذا أراد أن يصل بسرعة فائقة** » .

### فيما يلي مثال لجزء من تحليل احد الاشخاص

ها هو الآن « تقرير » كتبه آنلد شخص يتم تحليله نفسيا ( وهو كاهن  
ذكي ونشيط ، كانت له شخصية قوية ولكنها مكبوتة ) ، تقرير يبين ،  
بصورة تامة وعلى نحو إنساني بعمق ، سير جزء من التحليل النفسي .

— كنت في بحث عن ذاتي لأنني كنت انالم . فالصعوبة الكبرى تكمن ، بداية التحليل ،  
في تثبيت الأفكار . انها تظهر ، وتخطر وتزول . ويصعب جدا ، في بعض الاحيان ، أن يلتقطها  
الانسان . فهي لزجة كالانقليس(\*) . وفلت منا ، وينقطع الخيط . ولا بد من الانتظار .  
وعندئذ تبدو في بعض الاحيان بعد زمن ، بعد زمن طويل . ولكنها تُصاب بالتحول ، لان  
شيئا ما تقصّف في المقاومة الداخلية . واعتقدت خلال زمن طويل أن الدكاء والعقل هما  
السيدان ، وأن العقل هو الذي يحكم سلوكاتنا واعمالنا . ولكنني افهم الآن أن الامر على  
خلاف ذلك . لقد سبق للقديس بولس انه كان يقول : « **الخير الذي كنت اريد أن افعل ،  
لا افعله ، والشر الذي كنت اريد أن اجنبّ ، افعله** » . كل ذلك سقته حتى أصل الى  
نتيجة أساسية مفادها أن من الضروري ، لكي يصنع الانسان ملاحظة صحيحة حول سلوكاتنا،

---

(\*) نوع من السمك الطويل الذي يعيش في مجاري المياه « م » .

ان يعرف الاداة التي تستخدم ، معرفة جيدة . فانا افهم ذلك الان فقط . فلا بد ان من ان نتعلم كيف نحن مصنوعون « من الداخل » ، وان نتحقق باستمرار من ان انا سليمة وتطابق شخصيتنا الواقعية ، ومن انها ليست محض اختلاق لتحميننا من المخاوف وغروب الحصر الداخلي . وذلك كانت حالي وحال ملايين الاشخاص . انني عشت زمنا طويلا في الظلام ، والان بدأت ارى بوضوح . وكنت أحس ، قبل ان اقرر مباشرة التحليل ، بان أي شيء لم يكن على ما يرام ، وان اسلوبى في التخلص من مأزق كان في الحقيقة هربا بمهارة ، ولكنني كنت اريد ان اخفي ذلك عن نفسي . وكنت دائما اعاني التهيّب والحصر ومشاعر الدونية والخوف . وكنت اعتقد انني خجول ، وذلك كان ذا أهمية كبرى . وكنت اخجل من ذاتي ، ولا انتظر شيئا من الحياة ابدا . وكنت اشعر احيانا ببعض حركات التمرد ، وبعض حركات الكره للذات ، ولكنني كنت اشعر بانني هرم جدا في حين انني لم اكن قد بلغت من العمر غير الخامسة والثلاثين ! وما فتئت عصبيتي تزداد ، وانفعالياتي كانت كبيرة . وكانت تبكياني اوهى موسيقى تتصف بقليل من الرومانسية . وبما انني لم اعد ادرك بصورة واقعية ما كنت عليه ولا من كنت ، وبما انني كنت في خوف دائم ، واضطدم دائما بعقبات لم اكن اراها لانها كانت في داخلي ، فقد قررت ان اباشر تحليلا نفسيا . وبعد قليل من الزمن ، ادركت الى أي حد يمكن تمثيل الحياة النفسية بهرم شرفته العليا صغيرة جدا وتمثل الشعور ، وجميع ما يبقى ، حتى القاعدة ، هو اللاشعور . وكان ولا بد من النزول في هذا اللاشعور ، وكنت خائفا . ولا بد من حفر هذا اللاشعور لابلغ نموي المنسجم ، ولأجد شخصيتي الحقيقية . وكان الامر ، في البداية مسيرا جدا . ذلك ان ما بدا لي هو ان ليس ثمة منفذ اليه . فكان ولا بد ، بادىء ذي بدء ، من ايجاد باب ، ولكن هذا الباب كان مطيئا وجيد التمويه ، وادرك الان انني موته بالرغم مني . وما ان تمت هذه الكشوف حتى بدأت السيرة . وتم النزول بعض الدرجات وبلغ رواقات ومناهب لا يحصى عددها ، وأماكن ليس لها مخرج ، وزوايا ايضا . وكان لا بد من التقدم بحذر ومن عدم الانخداع . ووجدت نفسي اخيرا في صالة كبيرة تحت ارضية كانت ضربا من مدفن في قبو كنيسة ، ضربا من القبو الصغير . ووجدت فيها تصورات عتيقة وأفكارا يعود تاريخها الى عهد فتوتي ، وذكريات منسية ومكبوتة منذ زمن طويل . وكل ذلك كان يصعد ببطء شديد الى سطح الشعور . وصادفت مفاجآت سارة وغير سارة ، وسلكت دهليزا بعد دهليز تحت قيادة المحلل . وعرفت ، بعد زمن معين ، على أماكن كنت قد مررت فيها من قبل ، وعلى غروب من التشابه مع أمور كنت اذكرها بصورة غامضة . وتكون في ذهني ، شيئا فشيئا ، مخطط

أمين على وجه التقريب ، مخطط كان قد أصبح امينا بمقدار ما كنت اعمل عليه زمنا طويلا .  
وأعلم قبل التحليل ان احدا لو تكلم الي على هذا الهرم لقلت : « ولكنني اعرفه جيدا هذا  
الهرم ، لقد زرته كله ، انني اعرفه أنا ! » والحال أن ما كنت اجهله وجود باب مغطى  
ولم يكن لدي اي فكرة من الوجود تحته . والمذهل أن يرى المرء ان الذين لا يعرفون شيئا  
هم الذين يصيحون بصورة اقوى أنهم يعرفون كل شيء ، في حين ان الذين تتصف معرفتهم  
بانها واسعة جدا هم أكثر تواضعا بكثير ، وأكثر تحفظا في احكامهم . فالعالم يعبر عن نفسه  
تعبيرا متحفظا ، والنبيرة الغالية للصبي الذي يخرج من المدرسة . وقد كنت صبيًا . وكان  
علي اذن أن اتول في دهليزي الضيق ، ولكنني ادركت انه كان متعلدا علي أن افعل أنا  
وحدي ، وكان لا بد من عونهم دليل ، عون من أحد الف هذا النوع من الجولة تحت  
الارضية . وعلى هذا النحو ، قمت بزيارتي الاولى الى المحلل لابدا تحليلا في الاعماق .  
وفكرة الدليل الذي يقودني في كهوف حصن قديم ( حصني ) كانت بصورة طبيعية جذابة  
جدا ، ولكنها غير صحيحة . والحال أن دليل قصر من القصور يعرف مجاله عن ظهر قلب ،  
فقد سلكه كثيرا ! والامر هنا مختلف كل الاختلاف . فالمحلل هو مكتشف السرايب الذي  
يتصف بالمهارة والعارف المطلوبة ليحاول هذه المغامرة الكبيرة ، ولكنه لا يمكن له أن يجازف ،  
لان حياة زبونه بين يديه . فلا بد له اذن من أن يباشر الاتصال معه اول الامر ، أي أن يرى  
مع اي نوع من الناس تكون صلته ، الخ ، ورويت اول الامر قصة حياتي في خطوطها العامة  
والذكريات المتصلة بكل حقبة منها ، الذاكرات الشعورية ، والبواهب التي كانت تبدو ،  
أثنت ، دوافع اعمالتي ، والتي تغيرت تغيرا كبيرا منذ ذلك الزمن . وجعلني الدليل أتول في  
كل وجدانياتي اللاشعورية التي تخيلتها على صورة هرم من الاهرام . وذلك كان لا بد من  
تحريكه وتبشيره ، بدءا من القمة ، بهدف بلوغ الكتلة والجذور العميقة اخيرا . وكانت  
الصعوبة تكمن في أن اترك نفسي على عفويتها . ولكنني ادركت أن ذلك لم يكن غير مرحلة  
بدئية . وكنت ، في البدء ، ميالا على الدوام الى المحاكمة ، وتركيز انتباهي وذكائي على  
نقطة ثابتة ، وعلى نقطة محددة ، وعلى محاكمة ومناقشة . وذلك على وجه الضبط ما كان  
ينبغي أن لا افعله . والحقيقة أنه كان علي أن اترك نفسي تسيل في الماء . وكانت كل الرقابات  
التي ولدها تربيتي وآرائتي السابقة تحاول أن تمنع تجلي هذا النزول . فكان لا بد اذن من  
أن احاول منع هذه الرقابات من أن تتدخل . وقول ذلك اسرع من فعله . فما تحت الشعور  
ينبغي أن يمر بالجمارك . وهذا صعب على الغالب ( انظر فصل « عندما الشيطان يقود  
الرقص » ) انه شبه بغيق يحس به المرء وهو ينظر الى نفسه في المرآة . فيرى صورة

مشوكة . والمرء يرغب دائما في ان يظهر مزاياه ، اليس هذا صحيحا ؟ وهذا ما كنت اريد ان افعله ، بالرغم مني ، امام المحلل . ومع ذلك كنت اعلم بصورة عقلانية ان المحلل كان يحبني ويقدرني بعمق وعلى نحو انساني ، ويبدل كل مجهود ليساندي دون ان يتدخل ابدا اي حكم حول اي شيء كان . وكنت اظن ، كما قلت ، ان الدكاء يسود جميع الملكات الاخرى . وادرك الان ان الفكر والافكار تتبع المواطف وتتلام معها ، وتتبع الانفعالات العميقة التي تتصف في بعض الاحيان بأنها اندفاعات تصعد من اللاشعور على اثر سبب خارجي . وكان تحليلي يستمر . ورايت في يوم من الايام حلما غريبا بعض العنف حملته الى المحلل ، وقال لي ان الشخصيات المختلفة ، التي كانت تتحرك في حلمي ، تمثل عدة مظاهر لشخصيتي . واستمر عملي في الاعماق ، ولم يكن ذلك يسيرا . وحدثت لدي تقلصات وغروب من التمرد والغضب ، لم تهدأ ايضا حتى ولادة ذاتي . ويبدو كل هذا مضللا الى حد كبير ، وفي بداية التحليل على وجه الخصوص ، لان ثمة افتراءات يبدو فيها المشغل مقفرا . ولدى المرء انطباع بأنه صياد على سطح بحيرة ينتظر سمكة ضخمة ، وتثور اعصابه ، ويفقد صبره وشجاعته ... الى ان تحين البرهة التي يدرك فيها ان السمكة تصعد الى السطح ، خلال الآونة التي يتوقع فيها الاكل . ووقع علي التشخيص الاول الذي كونه المحلل - وادرك الان انه كان حينئذ - وكأنه حمام بارد . فقد قال لي بهدوء ان خجلي لم يكن غير عرض من الامراض . وكنت اشعر بأنني لا اريد ان استسلم . وقال المحلل ايضا ان ثمة ، في الاساس ، حصرا ساد تطورك برمته ، واثار خروبا من سلوك الامن . وما هضمت الصدمة الاولى . وكان لا بد من ان تنصرم عدة ايام حتى ينساب بهدوء ما قاله في نفسي . ومع ذلك ، كنت اشعر دائما انني جبان في الحياة . فيقول لي المحلل : « ليس هذا بفعل الجبن او فقدان الشجاعة ، فالشجاعة صفة من صفات الحصر في الغالب » . وليفهم من يستطيع! كل ذلك شوّشني . فهل كان المحلل يقول هذا ليهديّ من روحي وليشجعني ؟ لا ، ادركت ذلك فيما بعد ، وكل الامور اصبحت جلية جدا مع الزمن . وكنت اتمسك ، مع ذلك ، بخجلي ، واستمر في التمسك به . والسبب انني وجدت هذا الوضع بلائمني اكثر ممن الحصر . وبمقدار ما كنت اتقدم في التحليل ، كان ثمة صورة تفرض نفسها علي : صورة سد مائي كان لا بد من تصديده وتفجيره تدريجيا لكي ينشتر الماء المضغوط وراه في السهل . كم الدليل ضروري ! وسيكون طويلا جدا ومملا ان اوسع طولا وعرضا في كل جلسة من جلسات التحليل . وكنت اقول لنفسي على الغالب : حسبي . الم تحن الساعة بعد ؟ وكنت اتملق بالياتي ، آليات الامن . وكنت اعلم انني بحاجة اليها . ومع ذلك ، يعلم

الله كم تألمت بسببها ! ولما لم اعد استطيع شيئا في النهاية ، قلت للمحلل عنها . فقد كنت ادرك ان علي شفاء تشوّهاتي وبلوغ شخصيتي الحقيقية التي كنت احس بها تنبجس ، والتي كنت ارفضها في اعماق ذاتي . كان لا بد لي من اصبغ مستقلا ، وكنت ارفض ان اكون مستقلا . وكنت متعلقا على نحو لاشعوري بطفولتي ، ووالدتي ، وحاجاتي للحماية ، وحاجاتي للخضوع . وكنت احس بفروب من التوقف ، وكنت احس بانني اريد ان ازيلها . وكان حصري يصعد ، وعلي ان اولد مجددا ، وان اصبغ راشدا مجددا ، وكنت احس بحصر الطفل الصغير امام الحياة . ولم يكن يتقدم اي عون خارجي لي ، سوى هذا العون الذي اركّزه على المحلل الذي اصبغ بالنسبة لي ساحرا ، وملجأ الوحيد للتخلص من الالم . وكنت احس اكثر فأكثر ( وحتى ذلك الحين ، عرفته نظريا ) بان المحلل لم يكن له دور القاضي ، وبأن المسألة بالنسبة اليه ليست مسألة ان يقول « هذا حسن » او « هذا سيء » . فهدفه علاجي على نحو صرف ومحض انساني . ان عليه ان يقوم الانحرافات النفسية ، وان يعيد توازن الشخصية . وشرطان الرئة الذي يصيب الكاثوليكي يشبه ، على كل حال ، سرطان الرئة الذي يصيب الشيوعي شبيها غريبا ! ومع ذلك ، فان الطاقة كانت تزداد لدي تدريجيا كلما ارتفع الحصار من بعض الامور . وكنت استشعر في نفسي حاجة الى الفاعلية التي اختفت منذ زمن طويل . وكنت قد اكتشفت لذة كبيرة في ان ابلل نشاطا مع علمي بان ثمة شرطا : ان يزول ، اول الامر ، هذا الحصر وهذه المشاعر ، مشاعر الائمة . وافضيت في يوم من الايام بحمري الى المحلل الذي اجابني بصورة هادئة جدا ، ولكن على نحو صريح كل الصراحة : « اذا عملنا في القبو ، فلا بد من ان تتوقع الاحساس باهتزازات في الطابق الاول » . كان ذلك واضحا ، ودقيقا ، ولم يكن ثمة حاجة الى شروح لا طائل فيها . وقد اثار ذلك الوضع كله .

ثم دخلت في الطور الذي يتصف بأنه اكثر اطوار علاج التحليل النفسي ألما . انه شيء لا يسع المرء ان يتخيله ، ولا ان يرويّه الا بصعوبة : فهو لا يمكن التعبير منه . وكنت حقا في وضع كلب بافلوف ، ممزقا بين نزعات متناقضة . والحاجة الى المحبة ، واليقين انني غير محبوب في الوقت نفسه ، كانا احدي خصائص حالتي . فقد كانت تستحوذ عليّ رغبة شديدة في ان يقبلني الآخرون . ولو ان المحلل رفع الحجاب من نفسي لنفسي بصورة فجأة في بداية التحليل ، لكان من المحتمل ان اكتم انقاسه . ووجدت نفسي في هذه المرحلة من التحليل ممزقا اذن بين حاجتين متناقضتين : الحاجة الى ان يقبلني الآخرون ، من جهة ، والحاجة الى استقلال مطلق وصلف ، من جهة أخرى . فاللذات والصلف والدونية والقوية كانت تختلط في ذاتي . وكانت بي حاجة الى ان اكون كاملا ، فاستحق اعتبار الآخرين ، الذي

كنت بحاجة اليه قبل كل شيء . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية ، كانت بي حاجة ايضا الى التقمص ، لكي اوحى بالشفقة واحول دون ان يبتذني الآخرون ويحقّدوا علي . ودفعني المحلل صوب كل ذلك بلبسات صغيرة ، دون أن يتفوه ، على الإطلاق ، بكلمة واضحة جدا تسبب لي الألم . فمن ناحية ، كنت مذعورا من أن أكون ضعيفا ، ومذعورا من أن أكون قويا ، من ناحية ثانية ، لانه كان لا بد لي من أن اصارع . وكنت مذعورا من أن أكون ضعيفا امام الصعوبة ، ولكنني كنت أرغب في أن أكون قويا في الوقت ذاته . وعصف كل ذلك في نفسي ليل نهار ، خلال مرحلة كاملة من مراحل التحليل . وكنت اشعر انني موجود فوق هاوية . ولكن ما يتصف بأنه الأقوى هو الحاجة الى الاستقلال المطلق الذي كان يستوطن في نفسي ، كما كانت تستوطن في الوقت ذاته حاجة الى التبعية التي تجنّبني ان اتولى مسؤولياتي ، مسؤوليات الراشد . وادركت في الوقت ذاته شيئا آخر : ان دبري كان يمثل بالنسبة لي « أمنا الكنيسة المقدسة » ، أي انه يمثل ، حاصل الكلام ، حضن أمي . فقد كنت فيها على ما يرام ، وفي دفاء ، وكان سكني مؤمنا فيها . وكان ذلك فشلي . ومن جهة أخرى ، كنت بحاجة الى أن اخرج منها ، وأن أبقى كاهنا ، على أن اعط ، أو أن ادبر مؤسسة دينية ، أو أن ادبر معهدا تعليميا . فكنت أرغب ، من ناحية ، أن أظل في حضن « أمنا الكنيسة المقدسة » لكي أكون محببًا ؛ وكانت بي حاجة الى أن أكون حرا من جهة أخرى ...

## رابعاً - المفارقة النهائية

يفهم المرء إذن أن الشفاء يمثل « خطراً » . ولنعتقد ضرباً من الموازنة. عندما يولد الطفل ، يكون رد فعله الأول صرخة قوية ، صرخة حصر ( انظر **حصر الولادة في الفصل الثاني عشر** ) . ذلك ان الطفل ينزع نزعا مفاجئا من العذوبة اللاشعورية في بطن أمه ، ليلتقى في عالم ينذر بالخطر . وتلك إذن صدمة بالنسبة الى حياته النفسية اللاشعورية . ويمكن القول إن الطفل ، بصورة لاشعورية دائما ، لايرغب إلا في شيء واحد : أن يعود مباشرة الى هذا الرحم ، رحم الأم الذي أتى منه ، وأن يجد فيه الهدوء مجدداً ، والسلام والأمن . وثمة كثير من الراشدين الذين يتصفون ، مع ذلك ، باتجاه مماثل يتجلّى بالآف من الصور الممكنة ، كما سيأتي توضيحه . ويمكن القول على وجه التقريب إن الطفل ، عندما يولد ، يأسف بصورة لاشعورية على ولادته .

ولنتقل الى الراشد الذي يباشر تحليلاً نفسياً . فاذا كان الراشد  
شخصاً مصاباً بالمصائب ، فان التحليل يعني أن عليه الانتقال من عالم  
طفالي الى عالم الراشدين .

فالتحليل ولادة جديدة . فمن المنطقي إذن أن يكون رد فعل المريض  
حصراً مؤقتاً ، إذ أن عليه أن يهجر عكازيه ، أي ضروب أمنه المزيف ،  
ليمشي وحيداً ، أي ليصبح راشداً بعد إصلاح شخصيته إصلاحاً عميقاً .

ويمكن ، في الحد الأقصى ، أن نذكر عبارة **ماريز شوازي** : « اغفر  
للمحتل كونه سبب لك هذا الألم : كونه شفاك ! » .

## الفصل السابع

### ذكريات الطفولة

ثمة سؤال يطرحه المرء على نفسه في الغالب : هل يبحث المحلل في أثناء التحليل بحثاً منهجياً عن أبسط ذكريات الطفولة ؟

كل منا ، في كل ثانية من حياته ، محصلة ما كان منذ ولادته . وكل لحظة نعيشها تصبح نقطة انطلاق الملايين من اللحظات الأخرى من حياتنا وحياة أولئك الذين نعيش معهم جنباً إلى جنب .

وفي كل آن ، نستمر في انطلاقتنا . ونكابد في كل آن ما فعلناه من قبل .

وكل فعل من أفعالنا ينسج ، منذ ولادتنا ، نسيجاً هائلاً . يضاف إلى هذا أننا ملتزمون بأفعال أبويننا ( أفعال تستمر حية في أنانا ) وبأفعال أجدادنا ، الخ . وتلك سلسلة عجيبة كما ترون !

وإذا نسينا ما كنا ، وما فعلنا وقلنا في الخامسة من عمرنا ، وما فعل وقال آباؤنا ، فإن ذلك لا يمنع أن تكون النتيجة محفورة في خلايانا العصبية ، لخبرنا أو لضررنا .

وقس على ذلك بالنسبة إلى كل ثانية من وجودنا . واترك لكم أن تحسبوا عدد الثواني التي تحتوي عليها حياة من خمسين عاماً .



ولنأخذ حالة عصاب . هذا المرض لا يتطور بعنف . إن له بداية ،  
وينتشر انتشاراً بطيئاً في أعماق الشخصية . ولكن من المؤكد أن  
العصاب يبدأ في لحظة معينة : في الثالثة ، في الرابعة ، في العاشرة ، لا  
فرق . وكل شخص يختلف بحسب الظروف التي تحيط به ، وبحسب  
أسلوب رد فعله على هذه الظروف ، الخ .

ويعتقد عدد من الأشخاص أن ثمة ، في التحليل النفسي ، تنقيباً  
منهجيّاً عن أصغر خبايا الطفولة ، كما يبحث المرء عن شعرة في حقل على  
وجه الدقة .

قال شخص كان قد فهم فهماً خاطئاً بعض الكتب في التحليل النفسي :  
- أخاف الكلاب خوفاً عنيفاً . هذا يعني ( إذن ) أن ثمة كلباً لا بد من أن يكون قد  
مفّسني في طفولتي . ولا بد من أنني كتبت هذا الخوف أباه . فهل تعتقد أن بالإمكان اكتشافه ؟  
- نطمت بصورة عنيفة كل صلة بماضي ...

إن هذا لسخف . وقد يقع ذلك ، ولكنه نادر جداً . والخوف الذي  
يعانيه هذا الشخص لا صلة له ( في ذاته ) بالكلاب ، على وجه الاحتمال ،  
وليست خشيته سوى عرض في عداد أعراض أخرى . وعلى أي حال ،  
إن ما يعتقده هذا الشخص لا يطابق قطعاً واقع العلاج السيكولوجي .

## أولاً - الماضي الأبدي

ليس بوسع أي شخص أن ينفصل عن ماضيه . فهذا الماضي يشكل  
جزءاً منه تماماً كما أن أي شخص لا يسمعه القول إن دمه دم جديد كل  
يوم .

ومع ذلك يقول بعض الأشخاص :

- أريد أن أنسى ماضي ، وأفلحت في ذلك ...

- طفولتي جعلتني أتألم ، ولكن فلندهب إلى الشيطان طفولتي ولنفكر بشيء آخر ...

- عندما تزوجت ، عدت نفسي راشداً « بصورة آلية » . ونطمت كل صلة لي بماضي .

فمن يمد لي ذكريات ، ولا أسف ، وحلت آمال أخرى محل آمالي ، واغلقت جميع الادراج لكي انطلق من السفر ، الخ .

هؤلاء الأشخاص بذلوا إذن جهوداً لكي « ينسوا ماضيهم » . ولكن ذلك لا يعني أن ماضيهم أصبح نسياً منسياً « في أنفسهم » . إنه حاضر دائماً ، هذا الماضي ، بطروفه ، وآماله ، وآسسه ، وسعاداته ، وشغائنه ، وجراحه . فثمة جزء من الماضي يظل حيواً ، وجزء يخيّل إلينا أنه « منسي » ، وجزء ثالث مكبوت بعمق ، الخ ( انظر الكبت ، فصل « جواز سفر الى اللانهاية » ) .

أما وقد قلنا قولنا هذا ، فإن بعض الأشخاص يهضمون ماضيهم قليلاً أو كثيراً . وبعضهم الآخر يتقيّاه . وثمة آخرون كان لهم ماضٍ نمسى شخصيتهم بصورة تامة ، الأمر الذي يتصف بأنه نادر إن لم يكن غير موجود . وبعض الأشخاص يظنون متعلقين بماضيهم ، ويبقون طفاليين . وبعضهم الآخر ، لا . وثمة بعض الأشخاص الذين يجمعون مزقاً من ماضيهم في كيس قديم مطمور في اللاشعور .

وأخيراً ، ليس ثمة في ماضي أي إنسان مجموعة من الذكريات ، بل كتلة هائلة من الأوضاع ، أوضاع أسرية واجتماعية وثقافية ، الخ . فهذا الرجل ، أو تلك المرأة ، لا يجد أي ذكرى من ذكريات الطفولة . ومع ذلك ، فإن « مناخ » هذه الطفولة سائد لدينا !

وكل شخص « ينطلق » ، في بداية التحليل ، على نحو مختلف . فيكتشف بعض المرضى كتلة من الذكريات ، ويتكلمون على آبائهم وعلى جراح الطفولة لديهم ، الخ . وبعضهم يقول ، على العكس : « ليس لدي أي ذكرى ... لا أتذكر شيئاً ... ليس لدي شيء أقوله ... إنه ثقب أسود ... كومات من الامور تلامس السطح ، ولكنها لا تطفو ، الخ » .

وعلى أي حال ، كل شخص يبلغ سن الرشد يبتلى ، كما قلت لكم سابقاً ، بشخصية طفالية كبيرة بصورة نسبية ، وب « أنا » قوية نسبياً ( الأنا ، فصل « الحرية والاغلال » ) . ودور علم النفس إذن أن يستأصل الطفالات ويعزّز « الأنا » وبالتالي يعزز الشخصية الراشدة .

## ١ - نقطة الانطلاق

كل شخص في التحليل النفسي حر في أن يقول كل ما يخطر في ذهنه حرية مطلقة . وبناءً عليه ، يبدأ شخص معين بجميع ذكريات الطفولة **الشعورية** التي تخطر له . وذلك لعدة دواع : إما لأن هذه الذكريات تخطر في ذهنه ، وإما لأنه يبحث قبل كل شيء عن « كبش فداء » بوسعه أن يحمله جميع آلامه . وبحسب أن وضعه الماضي هو **وحده** الذي أوصله إلى حالته الراهنة . ولكنه لا يتساءل أيضاً لماذا استمر يتألم من عصابه في سنن **الرشد** ... فيما أن الأسباب الأولى قد زالت ( وتلك نقطة مهمة سأعود إليها فيما بعد ) .

ومهما يكن من أمر ، يتصف « كشط » الذكريات القديمة ، ذكريات الطفولة ، بأنه أمر لا غنى عنه في بعض الأحيان . ولكن ما الملم عند شخص مصاب بالعصاب ؟ إنه بالتأكيد **إله الحالي** ، وأعراضه **الحالية** ، والأسلوب الذي يستجيب به **حالياً** في الحياة ، وعدم تلاؤمه الاجتماعي **الحالي** ، الخ . ولكن ما هو عليه **حالياً** ، من ناحية أخرى ، **منوط بما كان عليه في أثناء طفولته ومراهقته** إلى حد بعيد . وعندئذ ، كيف نتصرف دون وجوب البحث عن كلية الذكريات ؟

ثمة ، في الحقيقة ، إكاثنتان . إما أن ننطلق من الطفولة والمراهقة لكي نصل إلى الوضع الحالي للمريض ، الذي يتصف بأنه امتداد الأوضاع السابقة . وإما أن ننطلق من الوضع الحالي للمريض ، ونصعد بالتدرج سوب الطفولة . وهذا هو ما يحدث بصورة عامة . ومن المؤكد أن الشخص يتذكر قبل كل شيء من **آلامه الراهنة** .

ومن الضروري ، في بداية التحليل ، إجراء تأليف لما يتصف به الشخص من الناحية النفسية . فما هي قوة « الأنا » ؟ وما هي دفاعاتها المميزة ؟ وما هدف هذا الشخص في الحياة ؟ وما هي حاجاته ومطالبه ، وتفاهمه أو عدم تفاهمه مع الآخرين ؟ وما درجة حصره ؟ ولماذا كان لديه هذا الحصر ؟

وكيف يحتمى من هذا الحصر ؟ الخ . ومن المؤكد أن جميع هذه الاسئلة جوهرية .

وانطلاقا من وضعه الحالي ، يقيم المريض « اتصالات » مع ماضيه بالتدريج .

ولنضرب مثالا قليل التعقيد جدا . يقول أحد المرضى :

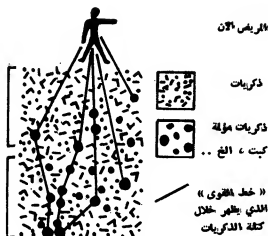
— انصرف أمام رئيسي في المكتب كما كنت انصرف أمام والدي .

وهذا أمر مبتذل . ولكن الشخص سيبدأ « السلسلة » انطلاقا من ذلك . وسيتكلم على أبيه ، وتجاربه مع أبيه ، وطبع أبيه ، والاسلوب الذي كان يتصرف به أمام هذا الأب ، ثم أمام اساتذته والسلطة والنساء، الخ . فالمريض إذن يصعد ، انطلاقا من وضع راهن ( رئيس المكتب ) ، صوب ماضيه ( أبيه ) . إن صعود الدرب صوب الماضي ، انطلاقا من وضع راهن ، أكثر جدوى من سلوكه بعكس ذلك . وفي هذه المرحلة إذن ، تتيح أحداث الطفولة وظروفها فهم الوضع الراهن وتحليله .

## ٢ — عم ينبغي أن نبحث ؟

الشيء ثمة شيء منظم في أول الأمر . ولا بد من « ترك الأمور تجري دون تدخل » . والمريض ، مع ذلك ، يتكفل ذاته بهذا الوضع ، إذ أنه يترك « أفكاره تنجس » كما تخطر له . وانطلاقا من هذا التلاحق ، تلاحق الأفكار والارتباطات والذكريات والملاحظات والاحساسات ، يمكن الآن للمحلل أن يكون فكرة عن مريضه واضحة بعض الوضوح . ومن المؤكد أن المحلل يسبق ، في تسع حالات من عشر ، مريضه بكثير ، لكي يتنبأ بالوضع من وجهة نظر التشخيص ، والإنذار المرضي ، والعلاج النفسي ، على حد سواء . وترسم بالتدريج « خطوط قوى » . ويتم البدء بالكشف عن الوان الحصر الأولى ، حصر الطفولة والمراهقة . ونجد الحماية اللاشعورية الأولى من هذه الضروب من الحصر التي تتصف غالبا بأنها الآن سلوكات عصابية . وفي هذه الفترة إياها ، تقف على الأثر الذي

يتركه العدو : العصاب . وبوسعنا ، في الحقيقة ، موازنة ذلك بالتخطيطية التالية :



### شکل و رقم (۲)

### مثال

اضرب هذا المثال على الغالب ، ولكنني اعتقد انه خصيب على نحو  
فريد في امتداداته الممكنة .

سوزان امرأة صبيّة ، عدوانية الى حد المفالة . وتبدو باستمرار انها في حالة من العداوة إزاء جميع الناس . والأمر الأول الذي يخطر في الذهن انها عدوانية لانها خائفة . وهي تعضّ ، خوفاً من أن تكون المعنوضه . فلعدوانيتها إذن هدف : أن تحمي سوزان من **الخوف والحصر** . ومن المؤكد ان هذه النظرة الى الأمور نظرة سطحية جدا . ذلك أن بالامكان التساؤل : ما هذا الخوف ؟ وما هذا الحصر ؟ ولماذا يوجد هذا الحصر ؟ ومتى بدأ كل ذلك ؟ ولماذا ستمر كل ذلك في الزمن الراهن ؟

وليس الهدف من ضرب هذا المثال إلا أن أبين لكم أن العرض ، « عدوانية كبيرة » ، ليس سوى حماية من شيء ما يؤلم سوزان ( الخوف ) .  
فتمة إذن علة لوجود العدوانية لديها ، عدوانية ليست سوى عرض من الأعراض . ونتيج هذه العدوانية إذن لسوزان أن تعيش على « حل من حلول التسوية » ، ولكنها تتيح لها أن تعيش مع ذلك ... ولنقل تتيح لها أن تستمر حية على نحو ليس بالجد ولا بالسيء ، بل أكثر سوءاً مما هو جيد .

ماذا ينبغي لنا أن نفعل ؟ لا بد من البحث عما هو مخبأ تحت العدوانية . ومتى تزول العدوانية ؟ عندما لم يعد ثمة داع لوجودها ، عندما لم تعد سوزان بحاجة إليها . وبناء عليه ، فإن العدوانية تزول آلياً منذ أن يزول الحصر والخوف . وهكذا شأن كل عصاب مهما يكن تعقيده .

### ٣ - ذكريات الطفولة لا تشرح كل شيء !

لنعد الى الحالة المذكورة في الفصل الرابع ، حالة السيدة س ، الواردة في امثلة « القصة المرضية » . وبما أن هذه السيدة لا ترغب في الاطفال ، فقد ذهبت تستشير أحد علماء النفس . كانت بواعثها صحيحة في اعتقادها ، ولكن الاسباب العميقة كانت على عكس ذلك ، وكانت تقرض شخصية السيدة برمتها . فهل كانت ذكريات الطفولة هنا ذات أهمية كبيرة ؟ نعم كانت ، ولا لم تكن . ثمة ملايين من الذكريات ذات العلاقة بأماها كان ممكناً أن تصعد الى السطح . والحال أن السيدة س لم تتجه صوب أماها بالمعنى الصحيح للكلمة ، بل صوب ردود فعلها إزاء أماها . وفي ضوء بعض الذكريات ، أدركت السيد س كم كانت خاضعة لأماها ، ومذعورة أمامها ، ومتعلقة بها . واكتشفت كم كان حبها لأماها حباً مزيفاً كان يخفي كرهاً ( لاشعوريا ) عنيفاً .

والسيدة س « احتازت الشعور » ، بمساعدة المحتل ( ومن خلال أي صعوبات وإي آلام داخلية ! ) ، بأن أماها كانت عنصراً أولياً ، طبعت طفولتها ومراهقتها بطابعها . ولكن الامر المهم كان « خطوط القوى » النامية

إزاء الأم ( انظر المثال ) . وتوصلت السيدة س ، انطلاقاً من كرهها لأمها ، الى كره الأم ( بصورة عامة ) ، والى كره مبدأ الأم ...

ويتبين إذن أن ذكريات الطفولة ، بما هي كذلك ، لا تتصف بأهمية رئيسة . وما يدخل في الحسبان هو المناخ الذي ترعرع فيه الموجود الانساني وتكوّن ، وواقف فيه نموه وصدّع شخصيته ، كل ذلك دون أن يدرك . وعندئذ ، نحن إزاء شخص يعيش وفق التخطيطية التالية :



شكل رقم ( ٤ )

وملخص القول إذن : لا بد من أن نفحص ، قبل كل شيء ، كل الوضع وآلام الشخص الراهنة ، بدلالة الطفولة والمراهقة . وعلينا أن لا ننسى أبداً أن أي حياة إنسانية تكون كلية ، وأن كل ما يجري في حياتنا ينطبع فينا الى الأبد .

ولكي أبين لكم ، على نحو أفضل ، سعة هذا الشكل ، اضرب لكم مثالا آخر يظل في إطار هذا الشكل ذاته ، مشكل ذكريات الطفولة ، تجاه الحياة اليومية . وهذه الحالة تشبه الحالات الأخرى المذكورة ، أو التي لا بد من ذكرها ، شبهها كبيراً .

## ثانياً - « كلية » الحياة

### ١ - ماضي السيد س

أصف ماضي السيد س في خطوطه العامة ، ناظراً على وجه الحصر الى « المناخ » الذي عاش فيه . إليكم ما يقوله :

- مات أبي عندما كنت في العاشرة . ورباني أبي . انه رجل ذو ذكاء خارق ، مغم بالواجب . جليل وموي من الناحية الجسمية . وبذل أبي كل جهد من أجلي . وأصبح بسرعة بطلاً والها . وكنت نحيلاً بما فيه الكفاية ، هل تعلم ؟ ولم أكن أفعل شيئاً قط دون ان اسأل كيف يفعل أبي . وعندما كان يقول لي : « هذا حسن ، انني مسرور منك » ، لعلني كنت قادراً على ان أدرك الجبال . وكنت أرغب في ان أشتد نفسي اليه ، ولكنني ما كنت أجري . وكان كل الإبطال في السينما ، يشبهون أبي ... وكنت نحيلاً كما قلت لك . وعندما كان بعض رفاتي في الصف يدفعونني بقوة ، كنت أفكر : « لو كان أبي هنا ، ماذا يفعل ؟ » ولكنني ، أنا ، لم أكن أتحرك ، واستسلم .

- هل كنت تبلغ أباك هذه الضروب من الإذلال ؟

- كلا ، أبداً ! ولكنني كنت أترك بعض المحاضرات لاتابع دروساً في الجيدو والقتال .

- لماذا ؟

- ولكن ... من أجل ان أقدر على الدفاع عن نفسي ! وهوجمت في يوم من الأيام ، فألقيت رفيقي أرضاً على بعد ثلاثة أمتار . واعتقد ان ذلك كان أجمل دقيقة في حياتي ...

- وهل قلت ذلك لأبيك ؟

- نعم ، قلته .

- هل قلته ، وانت تبلغه انك تابعت دروساً في الجيدو ؟

- لا . ولا أعلم لماذا سكت عن ذلك . فهل كنت أريد دون شك ان يعتقد انني قوي بصورة طبيعية ؟

- وكيف كان رد فعله ؟



– بضرب من التهمك المترفع . قال لي . « لو حدث ذلك مرة ثانية ، فانك تترضى مع ذلك الى التائب . لو كنت تأخذ دروسا في الملاكمة ؟ » ثم اضاف : لقتلته : « او في الجيدو ، فذلك يناسبك على نحو افضل ! » .

– ثم ماذا ؟

– اذكر انني رغبت ، خلال سنين ، في ان اطلب اليه ان يعلمني المصارعة . وكنت مولعا بان اتصارع مع ابي ، كما اتصارع مع بطل ... ولكنني ما جرؤت قط . وفي كل مرة كنت ارى قوته الجسدية واثافته ، وكنت احكم على نفسي بانني من اليوس بحيث ان كل شيء يردد الى خلقي ...

– ثم ماذا ؟

– وانفجرت عندما كلمني على الجيدو . ولاول مرة في حياتي ، ما ضبطت نفسي . وكنت انظر الى عضلاته وابتناساته وسترته الرائعة التفصيل ... وما مدت اطم ما قلت له بصوت عال ... وانه كان احسن صنعا لو تزوج مرة ثانية ، وانه كان اكثر انشغالا بانتصاراته من اهتمامه بي ، وانني كنت بانسا صغيرا متروكا في الظل ... واخيرا ، انفجر غضبي ، غضب مرعب ... ولم يقل شيئا ، ولكنه بدا بانسا ... وذلك ما كان قد جلب لي احدى هذه اللدائد ، كما لو انني سحقته ...

## ٢ – الخطوات الاولى

لنتوقف هنا ، اولاً ، فلدينا ، خلال طفولة السيد س كلها : ذل « مكتوم » – اعجاب ضعيف ، معنوي وجسدي ، بوالده – عداوة مكبوتة – نزعة لان يعدّ اباه مثل « إله » – نزعة الى أن يكون ابنا « كاملاً » لكيلا يغضب « الهه الاب » – رغبات « مكتومة » في مصارعة ابيه ، وفي ان يغلبه ، وفي أن يكون نداً له ، وفي أن يتجاوزه ( مع تعذر بلوغ ذلك ) – اجترارات ذهنية مشحونة بالعداوة – حصر الخصاء .

**ولنعرض ذلك بصورة اكثر تبسيطاً :**

– مازوخية ( اي امحاء كلي ، وخضوع ) ؛

— لواطية كامنة ( رغبة في « الانصهار » الوجداني والجسدي بآبيه ) ؛  
— التجرد من الرجولة ( أمام أب قوي كثيراً ويتمتع بانتصارات لدى النساء ) .  
— تخنث ( استحالة أن يصبح رجلاً بمساواة آبيه ) ، الخ .  
وذلك ، كما ترون ، يصنع الآن خليطاً رائعاً اذا نقلناه الى حياة الرشد لدى السيد س .

### ٣ — السيد س في حياته الراهنة

السيد س موظف في إدارة من الإدارات ، ويشغل وظيفة ثانوية . بقي السيد س عازباً . وهو يعاني ( دون أن يدرك ) خوفاً مربعاً من رؤسائه . ويعبر عن هذا الخوف قائلاً : « إنهم رؤسائي ، وعلى أن أحترمهم » . أو يقول : « إنهم يدفعون لي أجراً لكي أقوم بعملهم حرفياً ... » . أو يقول : « ليس بوسعي أن أعارض رأيهم ، إذ أنهم السادة ... » ، الخ .

ويتصف السيد س بعدوانية لا تحتمل تجاه أنداده . واذا ما نظر اليه المرء من الخارج ، قال عنه إنه خجول ، ومسحوق ، ومفرط في المجاملة ، ومصاب بالحصر ، ومتصلب ، وحذر من كل شيء ومن الناس جميعهم ، وينتقل فجأة من العدوانية المفترسة الى الرغبة الجامحة في تقديم الخدمة بأي ثمن ، ويعجز عن أن يحب أو أن يكون محبوباً .

بدا السيد س ، في بداية تحليله ، أنه ذو صراحة نموذجية ( جداً ) . وقد يقول المرء إنه يبسط تعاساته بصورة مختلفة . إنه لا يعارض أبداً أي كلام يقوله المحلل ، ولا يعترض أبداً ، وهو يبدي بعض الملاحظات التي تدل على عناد كبير ، الخ .

ويصاب بالحصر على الغالب عندما يعتقد أن المحلل « يقطب حاجبيه » أو يقف « موقفاً بارداً » . ويتصف هذا الحصر بأنه مرئي بالعين المجردة . فما السبب ؟

## ٤ - ماذا يحدث ؟

للوهلة الاولى ، يمكن الاعتقاد بان السيد س ، بكل بساطة ، يكرّر في الوقت الراهن ذلك السلوك الذي كان يسلكه امام ابيه . ويمكن الاعتقاد بانه ينقل ردود فعله الماضية الى الزمن الراهن . وبعبارة اخرى ، يقال انه يحتفظ بردود فعل طفولته ، بالرغم من عمره الزمني . ويمكن الاعتقاد بانه « يسقط » اباه على محيطه ( على رؤسائه مثلاً ) .

والحال ان الواقع اكثر اتساعاً مع ذلك ! فلماذا يتصف السيد س بانه مصاب بالحصر ؟ لانه يخاف رؤساءه ؟ ولكن رؤساءه ليسوا « اباه » . فما الامر ؟ لماذا يحذر جميع الناس كثيراً ؟ ولماذا يعجز عن ان يحب وان يكون محبوباً ؟ ولماذا هذا الحصر الكبير ازاء مواقف المحتل « الباردة » ؟

وفي الجلسة الخامسة من جلسات التحليل ، يجلس السيد س بمرح كبير وابسمامة متشجعة . ثم يستقر ويتأهب تتأهباً قوياً وعلنياً ( ان هذا ضرب من العدوانية ازاء المحتل ، مضمونه : « حسن ، هذا كل ما ينبغي فعله ... واخيراً ، ذلك حسن لأن من الضروري أن أكون عندك ... وإذا اعتقدت أنني متوتر وأني خائف ، فانظر كم أنا مرتاح ... » ) . ثم قال بمظهر المشجع و « المترفع » ، وهو يتأهب دائماً :

- ماذا « ستفعل لي » هذا اليوم والحال هذه ؟

هذا الموقف موقف مزيف بالتأكيد . وسيستاءل المحتل ، وهو يحتفظ في ذهنه بطفولة السيد س : « لماذا هذا المظهر ، مظهر التشجيع ؟ ولماذا هذا المرح المزيف ؟ ولماذا هذه الجملة ؟ » .

وسيلاحظ المحتل :

- موقف التشجيع : والمقصود عدوانية مموّهة ( وهي تستر ما يلي : ( لست ابن الأمس ، هل تعلم ؟ ) . أو إن هذا الموقف يهدف الى ان المحتل يقبل السيد س ( « إنني كما لو كنت في منزلي ، نحن رفيقان ما دمنا نعمل معاً » ) .

— **المرح** : إنه دفاع ضد الخوف من أن ينزع المحتل عنه القناع .

— **ماذا ستفعل لي ؟** : هذه الجملة تلتقي بالتشجيع والمرح . ولكن ثمة ما هو أكثر . فهل هناك لا مبالاة مزيفة ؟ خضوع لاشعوري ؟ جنسية مثلية كامنة ؟ رفض لاشعوري للتعاون ؟ عدوانية مازوخية ( تقديرها : استمر دائماً ، إنك تضيق وقتك ) ؟

ويستمر السيد س مع ذلك ، حالياً ، في الكلام على تعاساته الماضية فقط . انه لا يتكلم على الحاضر **لأنه يرفض** بصورة لاشعورية أن يرى شخصيته العميقة ( وهذا أمر منطقي مع ذلك ) . ويرفض بصورة لاشعورية أن يترك قناعه يسقط . يضاف الى هذا أنه يتعلق ببعض الأعراض التي تحميه من الحصر : فخضوعه ، على سبيل المثال ، يحميه من حصر كونه موضع تائب المحتل ، أي « السلطة » ، وانتقاده .

وإذا كان المريض لا يتكلم إلا على تعاساته الماضية ، فمن الممكن الاعتقاد بأنه يقدم مادة ثمينة ... إذ أنه ينظر على سبيل الحصر الى ذكريات الطفولة . والحال ان ليس ثمة شيء من هذا . فما السبب ؟

## ٥ — ما الأشياء التي يتصف السيد س انه على وعي بها ؟

— يمي السيد س قليلاً من الأمور الخاصة بسلوكه . وهذا أمر منطقي مع ذلك . إنه يعيش على شخصية مزيفة توجه غالبية أعماله وأفكاره . وأصاب التقلص « أنه » بصورة كبيرة . وتسمرت حماياته الداخلية وتصلبت .

ويمي السيد س ان لديه مشاعر الدونية « بفعل والده » ، وأنه يعاني الحصر . وهذا هو كل شيء . ولكنه لا يشعر كلياً بعجزه عن أن يحب ، وعجزه عن أن يكون محبوباً ، وبطفالته وخضوعه المازوخي إزاء رؤسائه ، وبجنسيته المثلية الكامنة ، ونزعاته الى الامتلاء الكلي ، وخوفه من المسؤوليات ، وحاجته العميقة الى الإخفاق ، الخ .

## ٦ — ماذا سيحدث لدى السيد س ؟

من المتعذر بالتأكيد إعطاء تفصيلات التحليل النفسي الخاص بالسيد س ، ولا بد من مؤلف برمته لذلك . ولكن الأمر الأول الذي حدث كان

**تراجع إسقاطاته** ( انظر ما سيأتي في هذا الفصل ، تحت عنوان «الاسقاطات الكبرى» ) . إنه حادث يتصف بالأهمية الكبرى ، حادث ظهر منذ أن أصبح السيد س يشعر أن رؤسائه كانوا يمثلون **الأب** ، أي **السلطان** المطلق الذي يتمتع بجميع السلطات ، ويستطيع أن يقبل أو ينبذ ، يؤتب أو يصفح ، يهنيء أو يشتم ... والسيد س ينكر العالم من أجل كلمة طيبة من رؤسائه ( انظر الحالة ذاتها فيما سيأتي ) . كان ثمة إذن ، هنا ، ضرب من المازوخية العميقة ، ومن الخضوع الكامل ، ومن المجاملة المفرطة التي تزدوج بسادية تتجلى بضرب من القسوة التي تتصف بالاحتقار إزاء رؤوسيه .

ولكن لننظر الى تخطيطية سلوك س الراهن ، ولنوازنه بماضيه ...

#### **السيد س امام رؤسائه وامام الحياة**

ان يكون مستخدماً فائق الكمال ؛ بدل كل مجهود لتجنب التآنيب .

خضوع كلي ومجاملة مغالية ؛ كونه كصبي صغير عاقل جداً يبدي إعجابه تجاه رؤسائه ( في حضورهم على الأقل ! ) .

بغض مكبوت لرؤسائه ولكل سلطة .  
نقد حقوق لرؤسائه ( في غيابهم ) .

خوف من كل شيء ، من جميع الرجال والنساء ... شعور عميق بالإخفاق . حاجة لاشعورية الى الاخفاق والى الانتحار . جنسية مثلية كامنة . ضروب من الغزل مع جميع النساء ، وساوس و انحرافات جنسية ، رغبة في ان يكون دون جواناً ينتقل من امرأة الى اخرى ...

#### **السيد س امام ابيه**

إعجاب وخضوع امام أب رافع الى منزلة الاله .

التجرد من الرجولة بسبب موقف الاب .

بغض لايه ( بغض مكبوت ) .

خوف من ابيه .  
رغبة في ان يكون فحلاً وجميلاً كايه ؛ وان تكون له انتصارات ابيه ؛ رغبة في ان يكون له عضو جنسي ( رغبة لاشعورية ) فحل وكبير وقوي مثل عضو ابيه ( شأنه في ذلك شأن مراهق ، ابوه محب للمبارزة ، يتمنى ان يحوز على سيف كبير مثل سيف ابيه كيما يكون ندا لايه في المعركة ثم يتجاوزه ) .  
تعذر ان يكون رجلاً . انوثه .

ونرى إذن أنه كان لا بد للسيد س ، انطلاقاً من ذكريات الطفولة ، أن يحتاز الشعور بحالته الداخلية **الراهنة** . الأمر الذي تم بالتدرج – ولنكرر مرة أخرى – من خلال الصعوبات التي يمكن للمرء أن يخمنها ..

## ثالثاً – الإرباح في الطاقة

وقبل أن نستمر في فحص ذكريات الطفولة ، لنر ما يبدو بسرعة من خلال التحليل : « **تراجع الإسقاطات** » . فلا بد إذن من تحديد المقصود بـ **الإسقاط** . ثم نرى لماذا يحرر غالباً هذا التراجع ، « تراجع الإسقاطات » ، طاقة كبيرة .

### ١ – الإسقاط

الإسقاط إحدى الآليات الأكثر أولية لدى الوجود الإنساني . يضاف الى هذا أن « روائز الإسقاط » معروفة . فنقدم الى طفل ( او الى مراهق ) رسوماً عليه ان ينجزها ، واشياء عليه ان يضعها بحسب إلهامه ومخيلته ، وجمللاً عليه ان يكملها ، الخ . ونطلب إليه ان يفسر رسوماً تمثل أوضاعاً إنسانية يمكن التعبير عنها بأساليب متعددة ، الخ . فكل شخص يتصرف إذن على طريقته **ويسقط** عواطفه ، وانفعالاته ، وضروب أسفه ومشكلاته ، وأفراحه ، في الانجاز المطلوب . والعمل الفني ، من جهة أخرى ، « إسقاط » روح الفنان العميقة ، في تسع حالات من عشر . ولكن الإسقاط يتحقق أيضاً على نحو مختلف : فهذا شخص عدواني بعمق ينسب الى الآخرين جميعهم عواطفه الخاصة . فهو يعتقد عندئذ أن « الآخرين » عدوانيون . كذلك فان شخصاً طيباً في حقيقته لا يمكن أن يتصور الغير عدوانياً او نمائماً ، الخ . أو إن رجلاً يكره أمه ، بصورة لاشعورية ، قد يكره جميع النساء اللواتي يسقط عليهن أمه ، الخ .

والإنسان في الإسقاط شبيه بمن ينير الخارج بمنارة اشعتها عواطفه الخاصة .

ونحن نعلم الى أي حد يتصف البحث عن الدافعيات العميقة لأفعالنا ومقاصدنا بأنه ذو أهمية . وكل دافعياتنا صحيحة او مزيفة . ولكن علينا ان لا ننسى أن المرض السيكولوجي يستند الى **دافعيات مزيفة** ، ما دامت البواعث التي يتخذها لنفسه لا تطابق على الإطلاق ما يحدث في الأعماق .

وعندما نحاول ان نشرح أفعال الغير ومقاصده من خلال دافعياتنا الخاصة ، فليس ثمة شيء يتصف بأنه صحيح في حال وجود دافعيات مزيفة . وعندئذ نلاحظ الغير من خلال ذاتنا ، ولكن من خلال ذات مشوّهة أو مريضة . وهكذا ، فإننا ، على الغير ، « نسقط » التفسير الذي نعطيه لأعمالنا الخاصة ... ونفسّر ، بالفعل ذاته ، أعمال الآخرين ومقاصدهم تفسيراً خاطئاً . ويرى المرء الى أين يمكن أن يقود ذلك : وحسبه أن ينظر حوله الى جميع أمثلة التعاطف والنفور والمودة والكره ، الخ ... ليدرك أن هذه الأمثلة ، في تسع حالات من عشر ، ليست غير مجموعة من الإسقاطات لكل شخص من الأشخاص المعنيين . وهي إسقاطات تتصف بأنها أشد خطراً بمقدار ما هي لاشعورية .

## أ - إسقاط شائع

**الكره هو الحالة الأكثر تكراراً في الحياة اليومية** . فاما أن شخصاً يعاني كرهاً ، يمكن له أن يسوّغه قليلاً أو كثيراً ، لشخص آخر . والحال أنه لا يفعل على الغالب سوى أنه **يسقط ظله** ، أي يعتقد أنه يكتشف في الآخر جزءاً من ذاته ، مكبوتاً ومكروهاً على الغالب . فهو إذن إنما يكره ذاته ، ولكن من خلال الآخر الذي يتحمل النتائج بالتأكيد .

**وإما أن شخصاً حقوداً يسقط كرهه على الآخرين الذين ينسب اليهم العواطف ذاتها** . وذلك يتيح له ، أول الأمر ، أن يعتقد نفسه أنه طاهر الذيل . ولكنه يتيح له أن يدافع عن نفسه ضد كره الآخرين المزعوم . وعندئذ إنما تولد الرسائل المغفلة والمقاصد المبطنة والافتراءات ، الخ .

## ب - إسقاط العصاب

واذا مضينا الى ما هو ابعد ، فان شخصا مصابا بالعصاب « يسقط » على الآخرين مظاهر عصابه . وسيفزو الى هذا الشخص ، اوزاك ، صفات او عيوباً لا وجود لها .

إن شخصا ، على سبيل المثال ، مصابا بالخوف ويشعر دائما بأنه مخطيء ، يعتقد ان العالم بأسره معاد له ، وأن كل فرد يخاصمه ، ولو الآخرين حياديين او تافهين او حمقى . وعندئذ يبحث ، بكل الوسائل ، عن أن يكون موضع الصفع والقبول والحب ، سواء صدر ذلك عن الله ام عن صاحب البقالة الذي يتعامل معه .

ويفضي الإسقاط ، في مجال الطب النفسي ، الى بعض الهلوسات : إن شخصا يعاني من هذيان الاضطهاد ، يسمع أصواتا تهدده ، ويؤكد ان ثمة أدوات تنصت مخبأة عنده ، وان ثمة من يلتقط افكاره ؛ الخ . او إن بعض النساء ، غير المرتويات جنسيا ، يتحررن من وضع لا يحتمل ، وذلك باسقاطه على الغير : وعندئذ يختلقن ضروبا من الاضطهاد الغرامي هن موضوعه ، ويعتقدن به .

## اليكم امثلة اخرى من الاسقاط :

— ها هو سائق سيارة . إنه يوم الاحد . فالرجل يلمع سيارته ويزينها ( او راكب دراجة نارية يلمع دراجته ويزينها ) . ويحسن المرء انه لا يترك ، باي ثمن ، لأي شخص كان أمر أن ينظف بالخرقة ، « عشقا » ، هكيل سيارة أصبح ناعما نعمة جلد امرأة .

ماذا يحدث في الغالب ؟ إنه « يسقط » نفسه على سيارته . يداعب الصفائح الحديدية المصقولة . وهذه هي الترجسية . بل : إنها الشبقية الذاتية ، وبديل العادة السرية .



– سائق السيارة الذي تجاوزه سائق آخر – كثير من السائقين يحبون انفسهم إذن حين يحبون سياراتهم بطريقة قوية من الناحية الطفالية . ولكن سيارة الواحد منهم تصبح ، في هذه الشروط ، « سلاحا » يجعل جسمه يمتدّ ( كخنجر او سيف او عضو ذكر عدواني ) .

إليك ملاحظة سائق سيارة :

– كانت امرأة سبية قد تجاوزتني بسيارتها . وامابتني هبة من الغضب . واستولت عليّ رغبة حائقة في أن « ادخل فيها » ...

فلنفحص ذلك :

آ – يوحد سائق السيارة بين المرأة الصبية وبين السيارة التي تقودها .

ب – هذا السائق يستقط ، هنا ايضا ، جسمه على سيارته . إنه إذن « هو » الذي تمّ تجاوزه وليست « سيارته » .

ج – الذكر المهان يعاني العدوانية .

د – يرغب في أن « يدخل فيها » : وترجمة ذلك : أن يفتصب المرأة . فما السبب ؟

هـ – السيارة شيء « يشقب » الهواء وينفد اليه . إنها ترمز هنا الى العضو الجنسي الذكر .

و – إنه يعاني الرغبة الحائقة في أن « يدخل » سيارته ( اي : جسمه ، عضوه الذكر ) بسيارة المرأة الصبية ( التي ترمز الى جسم هذه المرأة ) .

يقول احد الرجال ...

– وففت بسيارتي عند ممر للمشاة . واخذ سائق السيارة الذي كان خلفي يستعمل زموذ السيارة حنقا . واستمر توفقي لاثرك المشاة يمرون ، والتفت خلفي، فرايت « الآخر » هائجا كشيطان وراء زجاجه ( ولم يكن منظرا تله للمرء رؤيته ) . واستأنفت سيري . وانطلق

الأخر مسرعا كأنه مجنون ، ومسّ سيارتي مسّا خفيفا ، وتجاوزني بسرعة تموى في الشارع الضيق ، معرفنا نفسه الى ثلاثة حوادث ...

ونجد الإسقاطات نفسها ، هنا مجددا . فثمة سائق السيارة الحائق أي جسمه الخاص المسلح بكل قوة السيارة . وهو يتمنى لاشعوريا أن « يخترق » ( بسيارته المحدثّة ) جسم خصمه ( أي السيارة ) . ولكن الأخلاق ( والشرع ) على وجه الخصوص ( يعارضان ذلك . إنه إذن « سيقتله » رمزيا ؛ وبداً من أن « يخترقه » من جانب الى آخر ، فانه « يتجاوز » بأقصى سرعة . و « يخترقه » جانبا ، ولكن اقرب ما يمكن ( أي بمسه ) .

ولنقل إن هذا السائق الحائق ارتكب ، من الناحية اللاشعورية والرمزية ، جريمة قتل .

### ج - المسدسات

ها هو مثال آخر شائع جدا : ثمة عدد من المراهقين ( والراشدين ) ، الذين ظلّوا طفلين ، لا يشعرون بالقوة والرجولة والاستطاعة إلا إذا كان في جيب الواحد منهم مسدس من المسدسات .

فما السبب ؟ المسدس في الجيب يرمز الى العضو الجنسي المذكور في هذا المجال أيضا . والمسدس يتصف بأنه « نافذ » و « ثاقب » ، أو على الأقل ، الرصاصة التي يقذفها . وهو ، فضلا عن ذلك ، رمز عدوانية مرضية بالتاكيد .

وعلى هذا النحو ، يشعر كثير من المراهقين ، والمسدس في الجيب ، بالفحولة : فالمسدس يصبح « إسقاط » العضو الجنسي الذكر القوي الذي يتمنون حيازته ، والذي يرمز ، بدوره ، الى الفحولة المذكورة والعدوانية بالتاكيد .

### د - عمل طيب مزيف

قد يعتقد المرء ، للوهلة الاولى ، أنه إزاء عمل تم إنجازه لبواعث غيرية ، في حين أن ...

السيد س محتلف في محكمة الاستئناف . إنه ، في اثناء المذاكرة ، يستعمل جميع الوسائل لينتقد القاتل . فهو يرافع ، ويبسط البواعث ، وينظر طاقة و « طيبة » تبدوان فوق كل مديح . ويربح السيد س ، بقناعته وبلاغته ، جزءاً كبيراً من المناقشات .

والحال ان السيد س يتصف ، في قرارة ذاته ، بأنه متمرد قبيحاً ضد كل صورة من صور السلطان . فهو متمرد ضد أبيه ، وضد كل ما يذكره بالأب ، وإذن ضد هيئة القضاء والقوانين والمدونات ورجال الشرطة ... والمجتمع بصورة عامة . ولا يرضى إلاّ عندما يستطيع ان يضحك هازئاً من كل ما « يعيق الحرية » ( الامر الذي ليس إذن سوى ضرب من إسقاط عواطفه إزاء أبيه ) .

وهذا هو ما فعل . إنه لم يرافع لمصلحة التهم ، بل حاول ان يثأر من المجتمع من خلال التهم . وتحرير هذا التهم كان يمثل بالنسبة إليه إذن ثأراً شخصياً عميقاً . وها هو ، مرة أخرى أيضاً ، إسقاط يقودنا بعيداً عن الموضوعية ، ولو ان البواعث تبدو من الدرجة الاولى في القيمة ، والنتائج رائعة .

### وهكذا دواليك ...

ويمكن للمرء ، كما رأينا ، ان يكون مع الصياد الذي يخالف اللوائح ضد رجل الشرطة ، لأنه يسقط على الصياد ضرباً من العداوة للسلطان . ويمكن له ان يكون مع رجل الشرطة ضد الصياد الذي يخالف اللوائح ، لأنه يسقط ضرباً من الخوف من الحرية ، او لأنه يسقط ضرباً من التصلب الداخلي الناجم عن الانا العليا . ويمكن ، بالتأكيد ، ان نذكر عددا لا ينحصى من الحالات . تقودنا جميعها صوب السؤال نفسه : « ما الذي يتصف بأنه موضوعي ؟ وما الذي يتصف بأنه اصيل ؟ »

وهدف العمل لمحتل في الاعماق هو ، على وجه الضبط ، تجديد الموضوعية والاصالة . وسنرى من جهة أخرى كم تتصف المرحلة ، التي

فيها يكفّ المريض عن إسقاط عواطفه الداخلية الخاصة ، بأنها ذات أهمية ، أي « تراجع الإسقاطات » التي سنبحثها تحت عنوان « رابعا - الطاقة المستردة » .

وهكذا يقضي عدد لا يحصى من الناس حياتهم مسقطين عواطفهم الخاصة على اصدقائهم ، واعدائهم ، ورؤسائهم ، وزوجاتهم ، واطفالهم ، الخ . وهذا يعني أنهم قلما يرونهم كما هم ، ويعني أيضا أنهم يعبرون الحياة في حلم عبثي .

### هـ - الإسقاطات الكبرى

قد يسقط المرء في المطلق فكرة الأب او الرئيس ، ويعتقد بوجود إله ناظم ، معاقب ، غضوب ، طيب ، غفور ، الخ . ويعزو اليه ، بالاختصار ، مزايا وعيوبا ليست سوى إسقاط العواطف الانسانية . ومن المحتمل لو ان سمكة حاولت ان تتصور إلها - سمكة ، لرائته على صورة سمكة هائلة ( إسقاط صورتها في عظمة المطلق ) مزودة بأجنحة تتيح لها ان تطير « في السماء » ( بوصف السماء ترمز الى « الصعود » ، والارتقاء ، وتفسير المستوى ، والالاهية ، والابدية ، الخ ) . انظر فصل « جواز سفر الى الالاهية » .

كذلك فان بعض الانماط الأولية ( انظر فصل « جواز سفر الى الالاهية » ) المنشورة في لاشعور جميع الناس ، من كل عرق وحضارة ، يمكن إسقاطها بصور رمزية متعددة : فالنمط الاول لـ **المنقذ** ، على سبيل المثال ، يمكن إسقاطه على السيد المسيح (١) ، وملاحي الصحن الطائفة ، وهتلر ، الخ ، أي على أشخاص ، رأهم هذا الفرد او ذاك ، مهمتهم اقتلاع الناس من شقائهم ، وقيادتهم بصورة مستقيمة نحو جنات لا مشكلات فيها : وسأتكلم على ذلك فيما بعد

---

(١) انظر المقدمة .

واعتقد ان ما قدمناه من امثلة ، في عداد امثلة كثيرة ممكنة ، يتصف بالوضوح .

## رابعاً - الطاقة المستردّة

أسوق اليكم كيف يغضي توقف بعض الإسقاطات ( اي تراجع الاسقاطات ) الى **تحرير الطاقة** ، وبالتالي الى تعزيز الشخصية ، والى استئصال جزء من الخوف . الامر الذي يعني إذن ان بعض الإسقاطات « نجمت » بعض الطاقة وتضعف الشخصية .

### ولنتناول بالدراسة حالة سبق لنا ان رايناها ...

حطمت رجولة السيد س وشخصيته طفولة سادتها سيطرة أب مستبد . إنه شخص مخنث ، فاقد الرجولة ، مصاب بالحصر ، خاضع لكل سلطان ، خضوعاً يتصف بالحصر . فهو « مخفي » من الناحية النفسية (١) .

يعاني السيد س إذن مشاعر الدونية والإثم ، مشاعر يسقطها على كل سلطان ، ايا كان هذا السلطان . فيصبح ، بالنسبة للسيد س ، أباً شديداً الخطر ، خصماً ، مهدداً ، يملك حق الحياة أو الموت .

**فلنر السيد س إزاء رئيسه في المكتب** - من المؤكد ان السيد س يرى هذا الرئيس . وبخاصة إذا كان سلطوياً أو يتظاهر باللطف بصورة شديدة الخطر ، من خلال خوفه العميق . وبالتالي ، يصبح الرئيس ، هو أيضاً ، أباً له كل السلطات على طفل اعزل مذعور .

وبما ان السيد س خائف ، فانه يرى رئيسه في المكتب بمظهره **الوحيد** ، مظهر **الخطر** . إنه يراه إذن بمظهر **سليمي** . يضاف الى هذا ان السيد س إنما يصلي ، عندما يصلي لله ، طلباً للغفران على وجه

---

(١) انظر « عقدة الخفاء » ذات الاهمية الكبرى في « الانتصارات الملهلة لعلم النفس الحديث » .

**الخصوص** ، لانه يعاني مشاعر الإنمية ، وكذلك لـ « يتكفل به » ، شأنه في ذلك دائما شأن صبي صغير أمام أبيه ، أب تم إسقاطه في المطلق . ومن المؤكد ان السيد س لا يثق بالله ، ولا بالناس ، على حد سواء ...

**لماذا يجمد الإسقاط على الرئيس بعضا من الطاقة ؟** لعدة اسباب واضحة جدا . فالسيد س ، قبل كل شيء ، مصاب بالحصر دائما . إنه يخاف من رأي رئيسه ، ويخشى ادنى نقد ، وأوى تقطيب في الجبين ، ويجترّ ، خلال ساعات ، لوما يوجّهه رئيسه له .

وما دام السيد س يخاف ، فان عليه أن يحتمي من خوفه . فهو يحاول أن ينال إعجاب رئيسه ، ويبين له كم يعمل جيدا ، وأنه لا يسأم أبدا ، ويوافق على كل شيء ( ولو أنه يفتاظ داخليا ) ، الخ . إن السيد س يحاول إذن أن لا يكون أبدا موضع لوم يوجّهه رئيسه ، بما أن لهذا اللوم انعكاسات مغالية تسبّب الحصر ، والأرق ، والاجترار النفسي ، والغضب « المكظوم » ، واللامن ، والخوف المبالغ فيه من فقدان مركزه ( ولو أنه ليس ثمة أي خطر ) ، الخ .

يضاف الى هذا ان السيد س يتجنب بأي ثمن أن يكون عدوانيا ، ما دام لا يجرؤ أبدا على المعارضة . فاذا ظهرت عدوانيته ، بصورة شعورية او لاشعورية ، أحسّ بالذنب . ومن يقول : إنمية ، يقول : حاجة الى القصاص . والحال ان القصاص لا يأتي أبدا من رئيسه الذي يحب الناس الذين يؤكدون ذاتهم . فعلى السيد س إذن ان يجد قصاصه الخاص : وتلك هي ، عندئذ ، ضروب التعب المفاجئة ، والصداع ، وآلام المعدة ...

وثمة ، في جميع هذه الآليات ، مقدار كبير من الطاقة مجمد . والواقع ان على السيد س أن يصون واجهته أمام رئيسه ، وعليه أن يكظم كل شيء ، وأن يبدو خلاف ما هو عليه . واکرّر ان جميع هذه الإسقاطات **باهظة الثمن** ( بالطاقة ) . فماذا حدث عندما السيد س احتاز الشعور بما كان يجري في لاشعوره ؟ لقد أدرك السيد س انه كان يعزو بصورة لاشعورية ، الى رئيسه ، دورا مبالغا فيه ، بكل الخوف والمواقف الخاطئة التي كانت تنجم عنه . وأدرك أن رئيسه في المكتب كان رجلا كفيّره من الرجال الآخرين ، وليس غير . والسيد س ، في هذه الفترة ، لم يكن **قط بحاجة الى أن يحتمي عصايا** . وبدلا من أن يكون كصبي صغير أمام أبيه ، أصبح ثانية موظفا راشدا أمام راشد آخر .

وفي هذه الفترة ، تحول الوضع المتمثل في « طفل امام ابيه » الى الوضع المتمثل في « راشد امام راشد » . وزال توتر الشخصية كلها . وتحرك جزء من الطاقة فعزز شخصية السيد س . . . الذي يجرؤ على معارضة رئيسه معارضة طبيعية . وحدث تحرر جديد للطاقة ، وتميز جديد للشخصية . وكانت الطاقة قد بدأت تنبعث من اعماق الاشعور لتروي حياة السيد س اليومية ، شأنها شأن نبع متجمع تحت سطح الأرض يشق فجأة سطح حقل لا يزال حتى ذلك الحين جافا ، متشققا ، ضامرا . وعندئذ ينمو القمح .

### في اثناء الإسقاط

كان رئيس المكتب يمثل السلطان المطلق ، والاب الذي يخصي ويجرد من الرجولة ، الاب الذي كان عليه ان يخضع له خضوعاً كلياً .

كان الرئيس مزوداً بسلطة فائقة الحد . وكان السيد س يعدّه عدائياً وشديد الخطر . فالاتصالات مع الرئيس إذن كانت تسبب الحصر .

كان الناس تجمعاً من الافراد المعادين الذين لا بد من الاحتماء منهم ، والذين كان السيد س يشعر بينهم انه معزول ، ومهدّد ، وعدواني، ومدعور، ومنبوذ، الخ . كان السيد عاجزاً ، من جراء خوفه المعمم وعصابه ، عن ان يميّز بين اصدقائه واعدائه . وكان كل شخص ، بالنسبة إليه ، خطراً وعدواً بالقوة كان عليه ان يحتمي منه .

كان السيد س يدور حول نفسه وكأنه خذروف ، وكان عاجزاً عن ان يحب وان يكون محبوباً .

### بعد الإسقاط

اصبح رئيس المكتب مجدداً مجرد إنسان فان كفيره من الناس .

اصبح الغير ثانية ما هو عليه : شيئاً ما يتصف بالحياد ، ولا يمكن الحكم ، حكماً مسبقاً ، على عواطفه . والغير ينظر إليه بصورة موضوعية ، لا من خلال الخوف الداخلي .

اصبح الناس ثانية ما هم عليه : مزيجاً معتدلاً من الافراد الذين تتصف اعمارهم العقلية بأنها مختلفة اختلافاً كبيراً . ويبدأ السيد س ايضاً بان يدرك كم يسقط كل منهم عواطفه على الآخرين . ويبدأ السيد س بالتمييز تمييزاً واعياً بين اصدقائه واعدائه .

يبدأ السيد س بامتلاك القدرة على ان يحب وان يكون محبوباً ، بسبب استئصال الخوف وازدياد الطاقة .

## ١ - الفانوس الصغير أصبح ثانية قنديلا

يحسّ شخص مصاب بالمصاب انه يعيش معزولا ومستضعفا في عالم مليء بالمعاقلة . ويتصف هذا الشخص بأنه خاضع للخوف والدونية والإثمية . ويحس شخص مصاب بالمصاب انه عاجز ، إن لم يكن يحس بقوة فائقة ليست غير تعويض عن العجز ، والامران سيان . وقد بينت كيف ان الآخرين يبدوون عندئذ معادين بصورة آلية . فالخوف يمكن إذن ان يتجلى بالجبن ، والعدوانية ، والكسل ، وإحساس بالإخفاق ، وبعمل عنيف من اجل الإفلات من الحصر ، الخ .

وعندما يتوقف « الإسقاط » ، يصبح المعاقلة ، الذين كانوا يسكنون العالم ، ما هم عليه مجدداً : اناساً كغيرهم ، بمشكلاتهم الضيقة او الواسعة ، وبمخاوفهم الصغيرة او الكبيرة . وعندما تتوقف الإسقاطات ، تمة هدوء وثقة تظهران بصورة آلية . وتبدأ وجهة النظر الداخلية في التبدل ، وبالتالي أسلوب النظر الى الخارج .

ولنعد الآن الى البحث عن الذكريات في اثناء التحليل .

## خامسا - هل ثمة انتزاع لبعض الذكريات من اللا شعور ؟

هل هناك وسيلة لمساعدة المريض على تذكر بعض الذكريات ذات الاهمية ، المطورة في اللا شعور ؟ وهل يمكن مساعدته على القوص في ضروب كبته او في انطباعات منسية ؟

ولنتذكر ان بعض الوقائع تتصف بأنها منسية جدا لانها كانت مشحونة بالانفعالات الى درجة لا يمكن احتمالها بصورة شعورية . ويفهم المرء إذن ان من الصعوبة بمكان فتح الدرج النفسي الذي توجد فيه تحت صف ثلاثي من الاقفال .



فالمريض الذي كبت كرهاً لأحد أبويه ، على سبيل المثال ، يجد كثيراً من الصعوبة في « إخراج » هذه العاطفة . ولناخذ حالة امرأة اخفت ، طيلة أيام طفولتها كلها ، ومراهقتها ، عدوانية إزاء أمها ، باظهار حب مبالغ فيه . وما كان ممكناً ان تظهر عدوانيتها ، ما دامت أمها كانت تمثل ضرباً من المقدس . والحال ان الحب الذي كانت تكابده تجاه أمها كان حباً مزيفاً . ومن المؤكد ان الحالة نفسها تظهر في اثناء التحليل . ويستطيع الشخص ان يذكر بعض المطاعن ضد أمه ، ولكنه سيكون صعباً عليه جداً ان يفتح باب « الخروج » لما كان مكبوتاً طيلة سنين عديدة . فهل ثمة إمكان لجعله يفعل ذلك دون التمرّض الى اضرار قد تفسد التحليل ذاته ؟ نعم ، بالتأكيد .

## ١ - هل يمكن « التعجيل » في العلاج ؟

لا يمكن ان تقسر شيئاً في التحليل . إنه قانون مطلق . وقد قلت آنفاً إن « كسر الاقوال » يظهر مقاومات توقف المعالجة . وامام تدخل سريع جداً ، فان المريض يفلق الباب : وهذا امر مسلم به . واذا التوت شجرة ، خلال جزء من حياتها ، لتحتمي من الريح ، فمن المؤكد ان المرء لا يمكنه تقويمها بضربة واحدة ، تحت طائلة تحطيمها على الفور . ولا يمكن، بصورة مفاجئة ، إعطاء ثروة لإنسان إذا قضى أربعين سنة من حياته كان فيها فقيراً جداً . فهو لن يعرف ماذا يفعل بها ، ويدخل في حالة من الذعر . وإذا وضعت في وضوح النهار إنساناً عاش حياته في قعر مغارة ، كان همه الاول ان يحجب عينيه . . . او ان يدخل المغارة مجدداً . كل هذه الامثلة ليست سوى امثلة نتمثلها بالصورة ، ولكنها تبين على وجه الضبط ما قد يحدث لو ان محللاً عجل في العلاج . وقد سبق لي ان بينت ذلك في الفصل السابق . فكل بناء جديد للشخصية ينبغي ان يتم بالتفصيح ، وكل شيء ينبغي ان يأتي في اوانه .

وإذا كان المحلل يسبق مريضه بعدة اشهر ، فانه لا يستطيع ان يقول شيئاً عنه . لا لان ذلك ممنوع عليه ، بل لانه لا يجدي نفعاً . حتى

إذا كان بإمكان المريض أن يفهم بعقله وذكائه ، فإن ذلك لا يعني أنه يفهم بـ « أحشائه » ( أي وجدانياً ) . إن فهم أي شيء في التحليل النفسي يعني « احتياز الشعور » بهذا الشيء .

## ٢ - كيف المساعدة على أن تصعد بعض الذكريات؟

ليس المقصود أن يصطاد المرء ، من هنا وهناك ، بعض الذكريات المستتة أو التמוضعة ، مع أن بعض هذه الذكريات يمكن أن يتصف بالاهمية الكبرى . ولكن المقصود أن نستخلص الطبع العميق للمريض ونبحث عن المغاليق اللاشعورية . وينبغي أن تكشف عن مناخ الحياة المزينة الذي تكون خلال الطفولة والمراهقة ، مناخ يستمر المريض في العيش بحسبه دون علم منه .

### الصعوبات الشائعة

قد يحدث في أغلب الأحيان أن يقول المريض :

« لم يعد لدي شيء يقال . إنه ثقب اسود ... »

« قلت لك كل شيء ، وقدمت لك جميع ذكرياتي ، ولم أعد أعلم حقاً ما أجد ولا ما أبحث عنه ... »

**ولكن قد يحدث أيضاً ، على الغالب ، أن يتوقف المريض بصورة لاشعورية ، لأنه يجد نفسه أمام باب لا بد من أن يفتح على ضروب من الكبت المولم . ومن المحتمل إذن أن يفتح هذا الباب ... على نفسه ، وأن يضعه وجهاً لوجه أمام ذاته . ولكن ، إذا عاش المريض في حصن ، مدججاً بالسلاح ، فإنه يصعب عليه بالتأكيد أن يخرج عارياً كل العري ، أعزل ، الى سهل يعتقد أنه يزدحم بالأعداء . فإن يرى الإنسان نفسه كما هو ، أمر يتطلب طاقة كبيرة . من هنا منشأ التوقف ، والمقاومة ، والتشنج ، ورفض التعاون مع المحلل رفضاً لاشعورياً . كل ذلك أمر معروف جيداً ومفهوم جيداً .**

ثمة موقف يتكرر أيضاً ، وقد سبق لي أن تكلمت عليه . فالعديد من الأشخاص متعلقون حقاً بعقل المحاكمات . وهذا ضرب من آلية الحماية بالتأكيد . فهم يناقشون ويماحكون ويعقلنون ويحاكمون ، ويريدون أن يبرهنوا على أن لهم الحق في أن يعيشوا كما يفعلون .

ثمة إذن مفارقة عميقة : يعاني المريض ، من جهة ، بعض الأعراض التي من أجلها أتى يبحث عن المحلل . ولكنه ، من جهة أخرى ، وبعد عدد معين من الجلسات ، لم يوافق بعد على أن يبدأ التحليل . وهؤلاء الأشخاص يتكلمون على صعوباتهم الشعورية ، وصعوباتهم الحياتية ، ويعترفون بأخطائهم . ولكن ذلك كله يظل من مجال العقلائي ، ولا يتجاوز الباب الذي يقود إلى اللاشعور .

وثمة حالة أخرى تبرز كذلك . فالمريض مصاب بالتهيب إلى حد يظل متوقفاً . وهو مصاب بالتهيب لأنه يحتفظ بحساسه أنه يجتاز امتحانا أو مجموعة من الروايز . إنه يعلم من الناحية العقلانية أن هذا خطأ . ولكن الانطباع ، من الناحية الوجدانية ، يبقى . فلو أن المحلل استخدم الطريقة الدقيقة ، لتعرض إلى رؤية المريض يتأبد في صمته الخاص ، بكل ما يفترض ذلك من ضروب الحصر .

وعندئذ ماذا ينبغي أن نفعل ؟ وماذا يمكن أن نفعل ؟ وهل ثمة وسيلة لوضع المريض على الدرب ؟ ولنتكرر أن من غير الممكن إطلاقاً تفسير بعض المعطيات الشعورية تفسيراً قبل الأوان بكثير . فالمريض لا يمكنه أن يتحمل هذه « التجليات » ... أو قد يتعلق بهذه التفسيرات لكي يمنع نفسه من النزول في ذاته بصورة أكثر عمقا . وذلك على وجه الضبط . كما لو أنه كان يقول : « اوف ! هل هذا كل ما عندي ؟ لست إذن أسوأ من ذلك ، ولن أمضي أبعد » .

## سادسا - اللجوء الى الخيال

من المتعذر أن نصف هذه الطريقة بالتفصيل . إنها تتطلب تحديداً للجرعة بمنتهى الفطنة ، وسنين عديدة من الخبرة . وليس بإمكانني إذن سوى أن أضرب مثالا' ... قيمته قيمة الأمثلة المتصفة بأنها تظل متموضعة ، ومستخلصة من السياق ، ولا تنطبق إلا على حالة خاصة معينة ، وبحسب الظروف الحالية ، وبحسب درجة خيال المريض ، ووفقا لاسلوب تقدمه من قبل في التحليل ، الخ . فكل شخص يختلف عن غيره ... وكل جلسة تختلف عن الجلسة التي سبقتها .

### ١ - ما هو الخيال ؟

الخيال ينطور من السوي الى المرضي ، شأنه في ذلك شأن كل حالة إنسانية . ويُعدّ في عداد الخيال : أحلام اليقظة عندما ينعزل المرء ، وأحلام اليقظة المرضية ، وبعض الحالات الشبيهة بالأحلام ( إن الشخص " يطعم " الواقع بـ " خيالات " تبعث على الاضطراب في سلوكه ووجدانيته . ويقضي هؤلاء الأشخاص ساعات يحلمون بأنهم شخصيات عظيمة ، ورجال شرطة مشهورون ، وبأنهم ينقذون أناسا في خطر ، الخ ) . ولا بد من التفكير بالدور الذي يؤديه الخيال في **الحصر** ( انظر فصل « الإنسان المذنب والإنسان المصاب بالحصر » ) . فالشخص يضيف الى الواقع روايات حقيقية ، ويتخيل ما « وقع » وما يمكن أن يقع ، بقوة في التفصيلات التي تسحره أو تجعله يتألم ، الخ .

ولنفكر أيضا بـ **خيال المصابين بهوس الكذب** : فالغرد يشوّه الحقيقة ، ويكذب دون أن يعلم ، ويتصنع الأمراض . وذلك يتم في بعض الأحيان بصورة واسعة على نحو غريب .

ويمكن بالتأكيد أن يكون للخيال المرضي انعكاسات اجتماعية خطيرة جدا : رسائل مغفلة ، وفريات ، وقصد مبطن ، واغتياب ، واعتداءات

مزعومة ( انتهاك حرمت ، اغتصاب ) ، يصفها بقوة في التفصيلات بعض المراهقين ، وهي قريبة من الهستيريا<sup>(١)</sup> . ولنفكر أيضا بجميع ضروب الكذب التي يوحىها الكره والغيرة والتي تتصف دائما بأنها صورة من صور **التخطف العقلي** . والخيال مصدر لبعض ضروب الهروب ، وهذيان الاضطهاد ، وهذيان العظمة ، الخ .

فالخيال إذن سد كبير يتصف بأنه قوي دائما ، اكان ملوثا أم غير ملوث . ولن اهتم هنا إلاّ بصور الخيال **الإيجابية** ، والممكنة التطبيق في العلاج . وسأتكلم عليها أيضا في فصل « جواز سفر الى اللانهاية » : **العلاج النفسي الرمزي** .

## ٢ - كيف ننهج ؟

يوحى عالم النفس بصور وحالات واقعية او رمزية ، تساعد المريض على أن ينزل في لاشعوره . وبعبارة أخرى ، يطلب المحلل الى المريض أن يحلم وهو في تمام يقظته ، ولكنه يقوده . ومع ذلك ، فإن عالم النفس ، وهو يتدخل ، يظل « حياديا » بصورة مطلقة . وإليك من جهة أخرى ما يقوله المرضى :

— عندما أقوم بهذا العمل ، أشعر أن صوتك يأتيني من بعيد جدا . وذلك كما لو أن مكبر صوت صغير كان موجودا في أذني . إنني لا أفكر أبدا بوجودك الشخصي .

إنه إذن ، بالإضافة الى ذلك ، مسألة صوت ونغمة بالنسبة الى عالم النفس . وليس لذلك بالتأكيد أي صلة بالايحاءات التي تركز على التنويم المغناطيسي قليلا أو كثيرا : فالمرضى يظل واعيا بصورة مطلقة .

---

(١) انظر « الانتصارات الملهة لعلم النفس الحديث » .

### ٣ - حالة ماري

اصيبت ماري بعد شهرين من التحليل النفسي بحالة من « التوقف » .  
لقد تناولت مشكلات طفولتها وتركت بعض الذكريات اللاشعورية تصعد .  
وكان ذلك ، في الحقيقة ، شيئاً زهيداً من نوع :

- ربما كانت امي تريد ان اكون شبيهة بها . واشعر بانها كانت تريد ان تحتفظ بي  
بنتاً صغيرة ...

إنها ، بالاختصار ، ذكريات تتصف ، مع الاسف ، بانها ذكريات كثير  
من الأشخاص .

لماذا « توقفت » ماري ؟ هل السبب ان ثمة مشكلاً من مشكلات  
الأم ؟ نعم . كانت تتكلم على أمها ، على استبداد أمها ، على طبع أمها ، الخ .  
ولكنها لم تكن تتكلم قط على ردود فعلها الخاصة بها ، إلا لتقول :

- احب امي ، ولا اعلم ما الفعل بدونها ... لقد انقضت ثلاثون عاماً ونحن نعيش مما ،  
هل تصور !

والحال ان ماري لم تكن قد ولدت من الناحية السيكولوجية .  
وبالرغم من بلوغها الخامسة والثلاثين ، ظلت متعلقة بأمها كما يتعلق  
رضيع بقارورة الرضاع ، بكل الكره الذي يفترضه ذلك . وكانت تتكلم  
على الزواج قائلة :

- عندما ارى الناس النساء في حياتهم الزوجية ، افضل البقاء عواء .

قالت ذلك ، في حين كان عليها ان تقول :

« بدلاً من ان اطلق في حياة الرشد ، افضل البقاء متعلقة بأم اعتقد  
انني احبها ، بأم سببت عشرتها لي عواطف عنيفة من الاثمية ... »

ولكنها كانت تجهل ذلك ايضاً ، ولم تكن تعلم ان شخصيتها كلها كان  
ينبغي ان تبلغ النضج ( وكانت قد آتت من أجل مشكلات من الحصر  
والوساوس وهوس التحقق ، الخ ) . وكانت تخفي ، في ظل ذلك كله ،  
إثمية حادة . ولكن ماري كانت تجهل انها ، في كل الظروف ، تتصرف  
وكانها كانت آثمة . ولكنها اي ذنب ارتكبت حتى تكون آثمة ؟ ولماذا ؟

وعلى أي حال ، كانت هذه المرأة الصبية متوقفة . وساعدتها هنا  
طريقة الخيال مساعدة كبيرة .

### آ - جلسة من جلسات ماري

لن أتوقف هنا عند « التدريب التدريجي » تحت إشراف المحلل ،  
ولن أقدم غير جزء من الجلسة .

طلبت الى ماري ، في يوم من الأيام أن تتخيل وضعاً من أوضاعها  
اليومية ، كما لو أنها كانت تشهده بصفتها مشاهدة ، وكما لو أنها كانت  
تنظر الى حياة شخصية كانت هي هذه الشخصية .

وتفلق ماري عينها ، وترك لنفسها العنان في أحلام اليقظة .

— أرى نفسي جيداً جداً . أحسّ بأنني أمام باب مفتوح ، وبأنني أغوص بنظري في  
الغرفة التي أعيش فيها ، مساء ، مع أمي ... أنني على وشك أن أبداً اشغال الأبرة .  
وأشعر أنني أقترّب من الشخص الذي هو أنا ، وأنظر اليه بقرّة ... أحبك الصوف  
الغليظ من أجل الفقراء ... وأمي تحبك أيضاً ... وثمة نار قوية من الحطب في المدفأة ...  
وأحمل شالاً كبيراً على كتفي ... أنني ( تردد قوي ) ... أشعر بأنني ... بأنني طامعة في  
السن ... أنني ( تردد جديد ، وبداية نحيب ) ... أنني أرى هذه ... هذه البنت التي  
هي أنا . وترفع البنت رأسها ... وتتنظر اليّ ... ويقول لي ( الصوت يتهدّج ) : « ماذا  
فعلت بشبابك ؟ ... » ثم تنحني البنت الصبيّة الطامعة في السن على حياكتها ... وانطفأت  
النار في المدفأة ... واختفت الأم ... ثمة هرهرم ، منتوف الشعر تماماً ، يرقد ... الجو  
بارد في الخارج ... والثلج يتساقط ... وبني رغبة عنيفة في أن اضمّ البنت الصبيّة  
الطامعة في السن ، وأن أواسبها ، وأن أقول لها إن ...

وهنا ، فتحت ماري عينها وأخذت تنتحب . ثم صرخت فجأة :

— هاكم ما أنا عليه ، بنت طامعة في السن ، مخففة ، غير أهل لشيء ، خليفة(\*) ...  
رأنا خائفة ، خائفة !

---

(\*) خليفة : سلعة في المستودع لم تبيع « م » .

ثم أردفت قائلة :

— لو أن بإمكانني أن أقول « لها » كم أرغب في أن أرحل وأعيش ... أعيش !  
وما سبق لماري ، حتى الوقت الحالي ، أن تناولت المشكل من هذه  
الزاوية . ويظهر مشكل « البنت الطاعنة في السن » والاستسلام ، خوفاً  
من أن تواجه أمها : إنها تحيك من أجل الفقراء ( مع أنها لا تحيك أبداً ) .  
وثمة نار قوية من الحطب في المدفأة ( أمن مزيف لا يمكن اقتلاعه ) ، وهي  
تحمل شالاً كبيراً ( بنت طاعنة في السن ، حياة فاشلة ، حساسية للبرودة  
النفسية ) . و « البنت الطاعنة في السن » تنظر الى « البنت الصبية »  
وتحذرها ، وتقول لها : اهربي من هذا المخنق . إنها تدلّ على المستقبل:  
أم خائبة ، وعزلة مثلجة ، وعالم عدائي ولا مبال ( هر منتوف الشعر ،  
ثلج يسقط ، نار منطفئة ) .

ثم يبدو الانفجار النهائي : « كم أرغب في أن أعيش » ! ويشير هذا  
الانفجار مشكل العداء كله ازاء أمها ، وجميع المطاعن المتراكمة والمكبوتة ،  
وكل العواطف العميقة ، عواطف الإثمية الناشئة بسبب كرهها اللاشعوري  
لامها : « إنني خائفة ، خائفة ! » .

### ب - ماري في الجلسات التالية

كان سلوك ماري في الجلسات التالية قد تغيّر . فما السبب ؟  
السبب أن ثمة مشكلاً كان قد « انفكّ » عن اللاشعور . فهل فهمت  
ماري صراعها العميق ؟ كلا ، بالتأكيد . ولكن تجربة إيجابية حدثت  
لديها . وثمة تمرد ظهر للمرة الأولى : وكانت ماري تعيش هذا التمرد  
بصورة عميقة . فالصور التي كانت تستشعرها ولدت ، بطريقة الارتكاس ،  
ضرباً من تحرر في الطاقة ، وتمعزّت شخصية ماري ... وهي على  
استعداد لمواجهة مشكلات جديدة .



## ج - جلسة اخرى لماري

طلبت الى ماري ان تتخيل انها موجودة في مصر امام ابي الهول .  
فلماذا ابو الهول ؟

لان ابا الهول ، في الحالة الراهنة لماري ، يرمز الى الحيوان العجيب والمهدد ، الجذاب والمخيف معاً ، اللغز والشديد الخطر ، المنصوب في صحراء منعزلة ، وتحته متاهة واسعة من الممرات ( ممرات اللاشعور ) .  
وكان لا بد لابي الهول ، بالنسبة الى ماري ، من ان يمثل امها ، الام المحبوبة والمكروهة معاً ، والطيبة والمخيفة في وقت واحد ، والام التي تهب الحياة ، ولكنها تستردها بفعل انانيتها واستبدادها ، مثيرة على هذا النحو عواطف متناقضة بصورة عميقة .

تقول ماري ( ولنلاحظ هنا ان ماري لا ترى نفسها ابداً ، بل تشعر بانها تتصرف ) :

— انه لقدارة ، هذا السفنكس ( ابو الهول ) ... اراء جيداً جداً ، كما لو كنت هناك .  
واشعر بانني في « ليل لوج » ... ثمة قمر باهت ... وافق احمر ... وارى ابا الهول الكبير « جامدا » . ولكنه ليس من الحجر : انه حي . وافكر بكل ما يوجد في بطني . واقصد ما يوجد في متاهات الموت ، تحت ابي الهول . انني لا اجرؤ على المغامرة فيها . واتقدم خطوة الى الامام ، ثم ابقى جامدة في مكاني ... ثمة افاع في المتاهات . وانظر الى ابي الهول ، وابو الهول يلاحظني . انه لا يفهم . وهو قادر على ان يحيلني الى العدم بضربة من قدمه . وهذا ما سيفعله اذا لم اتحرك . وبوسمه ان يجلبني ويقتلني ويبتلعني ، وان ينفخني لو كان يريد ، واذا لم اتصرف . ولكنني اريد ان اعيش وان اتخلص من هذا السفنكس ( ابي الهول ) ... انني بدون حركة في الليل ، ولكنني اقل خوفاً . فلماذا احس بانني امامه لكي اكون موضع حكمه ؟ انني لم افعل له شيئاً ! ولكن المخيف انني اجهل نواياه ... ولكنني انا ، هل يسعني ان اقول له نوابي ؟ ذلك كما لو انني كنت اريد ان افنته ، وان احظى بعقله ... ولكنه لا يفنأ ينم بضرب من الاسطورة .

٢٠٠ ! اجد نفسي فجأة في الدعايز . اكسر قفلاً بضربات قدوم ، وادخل في غرفة . ثمة خزانة . ونزعت القفل بغيظ ، بواسطة خنجر . واكتشف الفناء . ثمة حلي قديمة ، من

الذهب ، وانتزعنها جميعا واطفئتها ، اطفئت الحلي ... ولم يبق منها غير الفيار ...  
فيار ... توقفوا !

وتفتح ماري عينها ، وترتعش ( هل من الغضب ؟ ) ، وتشعل لفافة  
من التبغ بعصبية وتقول :

— تمّ ذلك على ما يرام . اشكر . وارى ما عليّ ان افعل . عليّ ان انزل في ذاتي  
واحطم الخزائن ، وان لا اخاف من السفنكس ابدا . وشعرت كما لو انني اخلص من  
هوة ... وما كنت اعتقد قط انني استطيع ان احلم على هذا النحو ، واطلّ صاحبة في  
الوقت نفسه ...

### ولتر ذلك .

يمكن الآن ان نطلب الى ماري ، انطلاقا من احلام اليقظة هذه ، ان  
تجري بعض « الارتباطات بين الافكار » . ولكن ذلك عديم الجدوى على  
وجه التقريب في هذه الحالة . وهذا واضح بالنسبة الى المحلل ، ولكنه  
واضح ايضا بالنسبة الى لاشعور ماري . ومن المؤكد ان ماري « سترى  
بوضوح » على نحو لاشعوري ، ولو اننا لا نتكلم ابداً على احلام اليقظة  
هذه ، وان المحلل سينطلق مجدداً على دروب ازيلت عنها الحواجز .

ومع ذلك ، طلبت الى ماري ان تجري بعض الارتباطات بين الافكار .  
وطلبت اليها ان « تقول كل ما يخطر لها » انطلاقا من الكلمة المعطاة ، كلمة  
ماخوذة بالتأكيد من احلام اليقظة ، احلامها .

وها هي بعض الارتباطات بين الافكار ، اجرتها ماري بسرعة تتحدى ،  
على وجه التقريب ، سرعة تسجيل الملاحظات .

### — متاهة :

— يختنق . موت . لا مخرج . شعور بالفربة ... كنت على وشك ان افسد حياتي  
بهذه ، دون ان ادرك ذلك ... هل ... هل بسبب ماما ؟ ... هذا يمنصني نحو الاسفل

... اختنق ... تيه ... إيكار\*) ... ان اكون مثل إيكار ... انني اخاف دائما ان احرق جناحي ... ولكن أُمي مصابة بالحصر الشديد ... مسكينة ماما ... كنت اعتقد انني على ما يرام بقربها ، ولكنني اختنق بقربها ... مثلما كنت في هذا الليل اللزج ... نعم ( سكوت ) ، اخاف أُمي ... كما اخاف أبا الهول ... نعم ... نعم ... انني ما استطعت قط ان افعل شيئا بصورة عفوية ... متاعه ... هذا ايضا كل ما هو موجود في قعر ذاتي ، كل تيهي اللاشعوري الذي يخيفني ...

### — لم افعل له شيئا :

— اخاف جميع الناس . سائق احدى السيارات اشار لي بأن امر اشارة لطيفة ، في يوم من الايام ... وبكيت لان احد الناس كان قد اهتم بي ... ولست مع ذلك خبيثة ... ربما ليس كثيرا ... لا أجرؤ ... هذا فطبع ، الخوف ...

### — قفل :

— يكسر ، يحطم . غضب . كسرت الخزنة ... حياتي مقفلة بالمفتاح الى حد لم يكن يوسمي قط ان اخيكله ، ولكنني احس بذلك الآن بصورة مرعبة ... لا بد من ان يتغير ذلك ... ينبغي ان لا يكسر المرء قفلا ، وانما ينبغي ان يجد المفتاح الجيد ... اعلم انني على الدرب ، ولكن ذلك قاس ... فتحة كثير من التناقضات ... هل ثمة كثير من الغضب في ذاتي ؟ وفي يوم من الايام ، عندما كنت في العشرين من عمري وكنت ارى صديقاتي يتزوجن ، حطمت امرأة خاصة بماما ... انني ... ( نحيب ) ... كانت أُمي تبعد جميع الشباب ، وتريني الحب وكأنه قدارة ...

### فلنعد الى القفل والحلي والمرأة المحطمة .

حطمت ماري القفل والحلي « في الخيال » . اما المرأة ، فقد تكسرت فعلا عندما كانت في العشرين من عمرها .  
ماذا يمثل ذلك ؟ والى ماذا يرمز القفل والخزنة والحلي ؟

المرأة محطمة اولاً بصورة فعلية . فلماذا هذا اليأس ؟ لأنها كانت

---

(\*) إيكار : ابن ديدال الذي هرب معه من متاعه كريت بواسطة اجنحة تم تعليقها بالشمع . ولكن إيكار اقترب كثيرا من الشمس ، فذاب الشمع ، وسقط في البحر « م » .

قد جعلت أمها مسؤولة عن « خنقتها » ، في حين أنها كانت ترى صديقاتها يتزوجن . وكانت ماري قد حطمت شيئاً خاصاً بأمها ، وكانت ، بالإضافة الى ذلك ، « تحتفظ بصورة » أمها . الأمر الذي يتصف ببساطة أنه « طقسي » قتل الأم . فهي تقتل بصورة رمزية أمها ، شأنها في ذلك ، على وجه الدقة ، شأن بعض الثوريين الذين يقتلون جهاراً ما يمثل دكتاتوراً ، من صورة أو نحوها ، علامة كرههم له .

والأمر على المنوال ذاته بالنسبة الى القفل والخزنة التي تحتوي على الحلبي هنا أيضاً . ولن نتوقف عند الرمزية الجنسية للحلي والقفل والخزنة ، التي تقودنا الى بعيد جداً ، مع أنها رئيسة هنا .

ولنشر الى أن ماري لا تقتل أمها ، بل الإحساس بأمها ، الذي تحمله في أعماق ذاتها .

وإذا كان قتل الأم قائماً ، فالكره موجود . ولكن المؤكد أن ماري لا تستطيع ، أو لا تستطيع بعدُ على الأقل ، أن تحتل بصورة شعورية أن جزءاً من شخصيتها « يقتل » أمها . وهذا ، من جهة أخرى ، هو السبب في أنها ما كفت عن كبت هذه الفكرة . ولهذا السبب أيضاً ، كان قد تم اختيار رمز<sup>(١)</sup> حول قوة وجدانية غير محتملة إلى طقسيّ تحتله أخلاقها وشعورها . وعلى أي حال ، بدأت ماري باحتياز الشعور بهذا الكره المكبوت . إنها تصرح : « توقفوا » . وفكرة الكره بدأت تشقّ دربها ، ومن الضروري أن نفحص الحالة ( الإفلاح في إيجاد المفتاح المناسب ) فحصاً بوضوح . ألا نقول إنها تريد أن تعيش ، وهذا يعني إذن أنها تشعر بأنها مخنوقة ؟ وهي ترى ، على هذا النحو ، أن توجيهاً جديداً لحياتها أمر لا غنى عنه ...

وتلا هذه الجلسة حصر شديد جداً ، حصر تبعه على وجه السرعة إحساس بالتحرّر القوي . ثمة ضروب كثيرة من الكبت كانت قد انطلقت ،

---

(١) الرمز محوّل للطاقة ( النفسية ) ، شأنه شأن محوّل كهربائي على وجه الدقة .

بكل الطاقة المستردة التي يفترضها ذلك . ولكنها أيضاً ، كانت قد  
تجبرات ، للمرة الأولى ، أن تواجه مشكل الكره الذي تحرّمه الاخلاق  
والمحظورات عندما يتعلق الامر بالام .

وها هو ايضا ارتباط آخر بين الافكار .

### – افاع :

– لا اعلم ... في حديقة الحيوانات ، انظر اليها طويلا . انها تستهويني وتنفّرني ،  
وتجملني افكر ... لا ... لا اجرؤ ابدا ان اقول ذلك ... ولكنك هل ستفهم ؟ ...

الافعى رمز القضيبي هنا . قالت ماري فيما بعد :

– « هل تذكر الافعى ؟ حسن ، كنت احس احساسا ماديا بانها كانت تنفذ الي وثأنها  
عضو جنسي لرجل ... ولكن ذلك كان بالنسبة لي ضربا من العار . فاني كانت تقول لي  
دائما ان الجنسية قذارة . وكيف كان يوسمي ان اسدقها ؟ ... » .

وتزوجت ماري بعد عام ونصف من نهاية التحليل الكامل . وهي الآن  
موجودة في جهة ما من امريكا . وكل ثلاثة اشهر ، ترسل برقيتها : « كل  
شيء على ما يرام في السفينة .. » .

### سابعا – مزايا طريقة الخيال

لابد للمرء ، هنا أيضاً ، من أن يحتفظ في ذهنه بفكرة مفادها أن  
كل شخص يختلف عن الآخر ، وأن يعرف كذلك أن أي جلسة لا تشبه  
الأخرى . فإذا طبقنا التحليل النفسي الدقيق ، كان من المحتمل أن نرى  
المريض ، في بعض الحالات ، يستمر فترة طويلة في الصمت أو في التوقف .  
وهذا يحدث على الغالب عندما لا تتوافر الطاقة النفسية الضرورية لدى  
المريض بعد . له تحمّل بعض المشكلات المكبوتة بعمق . وعندئذ ، بجانبها  
المريض ، ويغيّر الاتجاه ، وينحرف عنها ، الخ . فنحن عندئذ أمام **مقاومات**  
يمكن أن تدوم زمناً طويلاً على وجه التقريب .

والطريقة المرتكزة على الخيال تتيح ، في هذه الحالات ، توفير الزمن .  
ومن الواضح أنها ينبغي أن تكون **موافقة** لوضع كل مريض . وعلى المحلل

ان يضبط « سير الاحداث » مرتكزا على إمكانات الفرد الداخلية وعلى الطاقة المتوافرة لديه ، متجنباً ضروب الحصر الشديد ، الخ . فمن الضروري إذن ان لا تنصدى الى اي مشكل من المشكلات صراحة ، وانما بسلوك الدرب الرمزي .

## ١ - هل المريض مشاهد ام ممثل ؟

كثير من المرضى صرحوا بعد بعض الجلسات :

— اشعر شعورا قويا بانني **انظر الى نفسي تتصرف** . إنني شبيه بالة التصوير السينمائية التي تصورني . وارى نفسي في اوضاع شتى : اصفر سنا ، واكبر سنا ، وارى نفسي في بعض حالات طفولتي ومراهقتي ، وفي حالات خيالية على نحو صرف ، الخ .

والفرد ، في هذه الحالات ، يصبح « مشاهداً » . إنه ينظر الى نفسه ويصبح مراقب نفسه الخاص وكأنه منفصل عن ذاته .

## ٢ - الوضع في حالة ماري

عندما اقترح عالم النفس **ابا الهول** ، فانه كان قد فعل ذلك بالتأكيد لهدف واضح : ان يرمز الى **ام ماري** ، ام تتصف معا بانها منجبة وشديدة الخطر ، تجذب وتنبذ ، ام تخنق و « تقتل » الشخصية ، ام عجيبة ، الخ . ولكن عالم النفس كان يبحث على وجه الخصوص عن إثارة ردود فعل ماري إزاء امها .

وصورة **ابي الهول** عزلت ، إذا صح القول ، **ام ماري** ، كما لو انها كانت قد وضعت تحت المجهر . يضاف الى هذا انه كان لدى ماري « عقدة » إزاء امها : اي ان مشكل امها كان موجوداً لديها **معزولا** ، ومشحونا بطاقة انفعالية هائلة على وجه الخصوص . ولكن هذه الطاقة كانت مجمدة . وبفضل هذه الجلسة ، ثمة ردود فعل لاشعورية شقت دربها نحو الشعور ، محررة تلك الطاقة غير المستخدمة .

### ٣ - ارتفاع التوتر النفسي مؤقتا

تتيح هذه الطريقة للشخص أن يقيم اتصالاً بلاشعوره ، وأن يعزل العقدة . وتحدث ضروب من « انطلاق المكبوتات » . فكل انطلاق للمكبوت يحرر الطاقة التي جمدها الكبت . ومعلوم ، والحال هذه ، أن الهدف النهائي لعلاج سيكولوجي هو تعزيز طاقة « الانا » . فكلما أصبحت الشخصية قوية ، كانت قادرة على رؤية ما يحدث بوضوح ، وقادرة على النضال ضد التوترات اللاشعورية .

### ٤ - معالجة المشكل بالتسلل اليه

تتيح هذه الطريقة تجنب « الهجوم مواجهة » . وسيكون هذا الهجوم ، من جهة أخرى ، هجوماً شديداً للخطر وغير مجد على وجه الدقة في معظم الحالات . فما السبب ؟ السبب بكل بساطة أنك تدفع الشخص الى خناده وتجمده زمناً طويلاً . وهو ، بصورة لاشعورية ، يسرع في إحكام المغاليق التي يحاول المحلل سحبها بعنف . والحال أن الشخص ، في هذه الطريقة ، سلمي . إنه يشهد شيئاً ما . يضاف الى هذا أنه يعمل بصورة رمزية . فيدرك مشكله إذن ب « التسلل » اليه ، إذا جاز لي أن أقول ذلك .

### ٥ - هل تخفق هذه الطريقة في بعض الاحيان ؟

نعم ، بالتأكيد . فهذه الطريقة تلجأ الى الخيال والإحساس . والشخص الذي لا يعيش إلا بعقله ، والذي خنق وجدانيته ، وحده ، وإحساساته ، وخياله ، يعاني صعوبات كبيرة في « أن يشارك في اللعبة » . فعقله سيتدخل باستمرار ليهمس في أذنه أن مثل هذه الحالة عبث بوصفها غير موجودة في الواقع . وإذا أثار خياله صورة ، سدّ العقل طريقها . ولنفرض أن الشخص يقول :

« أرى نفسي في حديقة . وتبدو في هذه الحديقة أفعى من الذهب .. »

من الذهب غير موجودة » . ثمة إذن صراع بين العقل والوجدانية . وهنا إنما يتدخل التدريب الذي ينبغي أن يعلم « ترك العنان » للخيال والنظر اليه على أنه واقعي كما يحدث في أثناء الحلم الليلي سواء بسواء .

## ٦ - ثمة خطر في هذه الطريقة

« يسير » بعض الأشخاص سيراً سريعاً في هذه الطريقة . وذلك يعني في بعض الأحيان ... أنهم يرضون باستخدامها عن طيب خاطر . وهذا أمر مشكوك فيه . فما السبب ؟ السبب أن هذه الطريقة تتيح لهم أن « يحلموا » ... وأن لا يتناولوا المشكلات الواقعية أبداً . فيستقرون في أحلام اليقظة كما يستقرون في ضرب من الهروب .

ويشعر أشخاص آخرون أنهم « يجتازون اختباراً » ، الأمر الذي يجتهدهم . ويحس آخرون أنهم « وقعوا في الفخ » لأنهم يريدون أن يعرفوا إلى أين يمضون « ولماذا يجعلهم المحلل يفعلون ذلك » .

ومن المتعذر أن ادخل في تفاصيل لا ينحصى عددها . فكل شيء ، وكرر مرة أخرى ، منوط بكل شخص ، وبكل حالة ، وبكل جلسة . وأحيلكم إلى الفصل الثالث عشر « جواز سفر إلى الانهيار » ، في الفقرة الخاصة بعنوان « العلاج النفسي الرمزي » .





## الفصل الثامن

### «محبوب» بقدر ما هو «مكروه»

منذ ان ينصبّ الحديث على التحليل النفسي ، يتكلم الناس على التحويل بالسهولة التي يتكلمون بها على « عقدة » الدونية . ويقال عادة ، على سبيل المثال ، إن « النساء يصبحن عاشقات لمحتلن » ، الأمر الذي يعني أن رجلاً يعمل مع محتل ذكر يفلت من التحويل ، وهو أمر خاطئ ، فالمشكل يتصف بأنه أكثر اتساعاً بصورة غير محدودة .

ويقال أيضاً إن « المريض يصبح تابعاً للمحتل بصورة كلية » . ويزعمون بأنه خاضع لـ « إرادة » المحتل . والحال أن ذلك باطل كما قلت آنفاً . فعالم النفس الذي يباشر علاجاً تحليلياً لا يوجهه ، ولا يأمر ، ولا ينصح بشيء . إنه يظلّ حيادياً . وهو — ولا يمكننا أن نردّد ذلك كثيراً — خارج كل أخلاق وكل دين . وعلى المحتل ، وإن كان له أخلاق ودين شخصيان ، أن يكون قادراً على أن « يمزل أفكاره » وأن يحتل ، بالمقدار نفسه من الموضوعية الداخلية والخارجية ، إنساناً من قبائل البابو ، وفرنسيا ، وكاثوليكيا ، ومسلماً ، وطاوياً(\*)

---

(\*) الطاوية : الديانة الشعبية في الصين ، وهي مزيج من عبادة الأرواح والطبيعة والإجداد ، ومن عقائد لاوتسي ومعتقدات شتي « م » .

## ١ - العلاقة الانسانية

معظم العلاقات الانسانية قائم على الخوف ، وبالتالي ، على عاملين اساسيين : الهروب الى الامام ( عدوانية ) او الهروب الى الوراء ( خضوع ولا مبالاة تتصف ببرودة المشاعر ) . وملايين من الموجودات الانسانية يخافون ملايين اخرى من الموجودات الانسانية دونما داع موضوعي : والسبب بكل بساطة ان الخوف او الحصر موجودان لديهم . ويعتقد كثير من الناس انهم ينجزون افعالا حرة ، في حين ان الظل المهدد لآبائهم ولا مهاتهم ( من بين ظلال اخرى ! ) لا يزال يوجه اعمالهم ( انظر فقرة « الانا العليا » في فصل « عندما الشيطان يقود الرقص » ) . إنهم يحملون في ذواتهم رواسب ضرب طويل من تقطير الخوف يسمى التربية ( تربية فاشلة بالتأكيد ) . وهؤلاء الناس ليسوا إذن مستقلين . فهم انصاف اطفال وانصاف راشدين . وينفذ إلهم باستمرار آلاف من ضروب التحويل كما ينفذ الماء في الارض ...

**ولكن كل خوف يجد صداه في العلاقات الرانجة .** فالناس يستجيبون للعدوانية بالعدوانية او بالخضوع ؛ وللخضوع ، بسادية يرقية او بالعدوانية او الاحتقار ؛ وللعنف ، بالعنف او اللامبالاة المزيغة او الهروب . وللامبالاة ، بخوف جديد : « جاري لم يوجه إليّ تحيته هذا اليوم . فما باله ؟ » ومضمون هذا القول : « هل يحقد عليّ ؟ إذا كان يحقد عليّ ، فانني اخاف ، لان ذلك يعيد الى ساحة الشعور ، من اعماق شخصيتي ، حصر كوني وحيداً ، ومهملاً ، وملوماً ، وموضع نقد ، وغير محبوب ، ومنبوذ ، الخ » .

ويمكن الإكثار من ضرب الامثلة ، وحسب المرء ان ينظر الى من يحيطون به .

## ٢ - التحليل النفسي علاقة انسانية

كل عمل سيكولوجي ، سطحياً كان أم في الاعماق ، علاقة إنسانية

بين عالم النفس ومريضه . إنه - وهو امر معلوم - عمل تعاوني كثيف ، فلا يسع عالم النفس أن يفعل شيئاً دون مريضه ... والعكس صحيح . قلت - وآمل أن اكون قد بينت ذلك - إن المحلل ومريضه « رفيقا طريق » .

العمل السيكولوجي يمثل إذن علاقة إنسانية . **فأي نوع من العلاقة؟** إنها - وقد قلت ذلك فيما سبق - **علاقة فردية على وجه الدقة** لا يمكن لأي شخص آخر - **أي شخص على الإطلاق** - أن ينفذ إليها .

ولكن ثمة ما هو أكثر . إن العمل السيكولوجي يمثل « علاقة إنسانية » لا يمكن مقارنتها بأي علاقة أخرى . فما السبب ؟

يصل المريض بصورة مباشرة من عالم مدجج بالسلاح ، من عالم يقرضه الخوف ، ويجلس أمام شخص اعزل . إنه يصل من عالم سود فيه حماية الذات حماية مستمرة . وعليه أن يتعلم « العقوبة » ... وبالتالي أن لا يخاف أبداً ، لا من نفسه ولا من الآخر ( عالم النفس ) . فهل هذا امر يسير ؟ لا ، بالتأكيد . المرء لا يتخلى بسهولة عن قشوره القديمة ، ولا عن أنوابه المتعينة ذات الطراز البالي ، ولا عن عاداته القديمة في الدفاع . ولكن ذلك حكاية أخرى سأتكلم إليكم عليها فيما بعد .

ومن جهة أخرى ، قد يحدث على الغالب أن يتوقع « العقوبة » لاشعوريا مريض كان عدوانيا إزاء المحلل ، مثله على وجه الدقة مثل طفل خبيث يخشى عقوبة أبيه و « تاديه » ... أو مثل كثير من الراشدين الذين يخشون أن « تصعقهم » الصاعقة ، علامة غضب الرب « الأب » .

والحال ... أن العقوبة لا تقع . فالمحلل يظل عطوفاً ، وإنسانياً ، ومحباً ، وحيادياً . وفي هذه الحال ، نرى المريض على الغالب يعاقب نفسه : بصداع حاد يظهر فجأة ، أو بتعب مبالغت ، أو بتأنيب اليأس بوجهه لنفسه ، الخ .

**فالتحليل النفسي ، إذن علاقات إنسانية ، وعلاقات إنسانية خاصة ، وعالم نفس حيادي ، وعلم يخرج على المعايير الشائمة .**

ومع ذلك ، تزدحم الآراء المسبقة في ذهن المريض ، أي اساليب في الحكم تنصف بأنها على النقيض من التصورات السيكولوجية . فهذا « خسيس » ، وذلك « متعجرف » ، أو « شجاع » أو « جبان » ، أو « مزهو » ... إلى غير ذلك . والحال أن هذا كله لصيقات لا معنى لها في علم النفس .

وسيعزو المرضى الى عالم النفس إذن مقاصد . فأي المقاصد سيعزونها إليه ؟

والمريض ، كما قلت ، يعرف ضربين شائعين من ردود الفعل : الهروب الى الامام أو الهروب الى الوراء ، وذلك انطلاقاً من الخوف . فمن المنطقي إذن أن يعزو المريض الى عالم النفس ضربى ردود الفعل نفسيهما : المحبة أو العدوانية ، ولو أنه يعلم ، من الناحية العقلانية ، أن هذا خطأ . ويبدو عالم النفس تارة ، بحسب الاتجاه الداخلى للمريض ، ودوداً ولطيفاً وبشوشاً ، الخ ، وطوراً يبدو عدائياً وقاسياً ومستاءً وذو مزاج سيء ، الخ . ويشعر المريض تارة أنه « نزل أهلاً » ، وطوراً « أسىء استقباله » .

والحال بصورة عامة أن :

— كونه « موضع حفاوة » يعني ، بالنسبة إليه ، أنه مقبول ومحبوب؛

— كونه « أسىء استقباله » يعني ، بالنسبة إليه ، أنه منبوذ

وغير محبوب .

وتقع هنا على قطبين رئيسيين من ردود الفعل العصبية . فكل شخص يعاني عصباً ، يعاني « خوفاً عميقاً » ( حصراً ) . ويكابد الاحساس الأليم بأنه وحيد في العالم ، وحيد في حالته ، منمزل عن العالم « السوي » ، وبأن الله تخلى عنه والناس . ويعتقد أن العالم الخارجى يعاديه . ويحس إحساساً الى درجة المبالغة بالحاجة الى أن يكون محبوباً . وهو بالتالي يخشى بصورة مفالية أن يكون منبوذاً .

ويتبين الآن كم يمكن لموقف عالم النفس ، الموقف الذي يترجمه المريض على الغالب ترجمة سيئة ، أن تكون له انعكاسات مباشرة وعميقة .

### ٣ - المريض التائه

المريض « تائه » إذن ، واعني بذلك انه ملقى خارج طريقه المألوف .  
فاقرأوا الجدول التالي :

رد الفعل الدائم لعالم النفس	بعض ردود فعل المريض
حيادي - ودود - عطوف - لا يكون محبوباً - محبة - عداوة - كلام عدواني - حاجات الى إظهار مزاياء - تهيب - خضوع - خجل من بعض الاعترافات - الخ .	حاجة الى الإعجاب - حاجة الى أن يكون محبوباً - محبة - عداوة - كلام عدواني - حاجات الى إظهار مزاياء - تهيب - خضوع - خجل من بعض الاعترافات - الخ .

ولكن لنر على وجه الدقة ما هو التحويل .

### اولا - ما هو التحويل ؟

التحويل مصدر للفعل « حوّل » . فالمرء يحوّل شيئاً من الأشياء الى شخص من الأشخاص ، سواء كان ذلك في التحليل النفسي أم في الحياة اليومية . ماذا نحوّل إذن وإلى من ؟

### ١ - التحويل ضرب من الاسقاط

تكلمت طويلاً على الاسقاط في الفصل السابق . واذكر بأن المقصود سيرورة نفسية قوامها ان يعزو المرء الى آخرين عواطف كامنة في ذاته . ويتصف الاسقاط بأنه اقوى بمقدار ما تكون الآليات اللاشعورية قوية او بمقدار ما يكون العمر العقلي منخفضاً .

والشخص الذي يسقط عواطفه شبيهه إذن بسراج يرسل ضوءه على شخص ... ولكنه يعتقد أن « الآخر » يصدر اشعته الضوئية ، في حين انه يقتصر على انه يعكسها . وسنرى الى اي حد يتصف هذا المبدأ بأنه

ذو أهمية في علم النفس السريري . والتحويل ضرب من الاسقاط ، ولكنه أكثر اتساعاً بكثير . وهو يظهر دائماً في اثناء التحليل النفسي على صورة او على أخرى ، ويبين الى أي حد يحتاج كل إنسان الى المطلق ...

### يقول مريضان :

الأول : حلمت انني كنت اشاطرك حياتك ، وارتب كتبك ، واعمل معك ، وانك كنت واثقاً بي ثقة مطلقة ...

الثاني : حلمت الليل الماضي أن زوجتك كانت تفتح الباب لي . وكان وجهها مخيفاً ، كما لو انها احتست الخمر . وكانت طاعنة في السن وقبيحة ...

**والمريض الأول** رجل يعاني العواطف القوية المؤلة ، عواطف الدونية . ويكابد الإحساس دونما انقطاع بأنه غير محبوب ، وبأن الآخرين ينبدونه ، وبأن لا حق له في الوجود كالآخرين سواء بسواء .

وهو في حلمه يشاطر المحتل حياته ، المحتل الذي يمنحه ثقته . فأياها « التحويل » ؟ المحتل يمثل الأب ( بصورة عامة ) : ذلك الذي يعفو عفواً مطلقاً عن طفل لا يفلح في أن يكون مستقلاً ، و يكفله بصورة مطلقة . وهنا لا يحول المريض أباه الى المحتل ، وإنما يحول الأب بالمعنى الواسع للكلمة ، أي السلطة والقدرة والآله ...

**والمريض الثاني** امرأة صبيّة تحوّل عقدة أوديب (١) . ويمثل المحتل أباهما ، الذي ترغب في أن يكون لها وحدها . وزوجة المحتل هي أمها ، فهي إذن حاجز . والحاجز في الحلم تمّ « استبعاده » : فالزوجة قبيحة وطاعنة في السن . ومضمون ذلك أن الأب لا يمكن أن يحبها في هذه الشروط ، وسيكون أبي لي وحدي ...

---

(١) انظر هذه العقدة ذات الأهمية الكبرى في « الانتصارات الملهة لعلم النفس الحديث » ، ص ٢٨٦ - ٢١٠ في الترجمة العربية .

وكما ان بإمكان المرء أن « يسقط » المواطن ، كذلك بإمكانه ان يحوّل الى الغير تشكيلة كاملة ممكنة منها . ويمكن أيضاً تحويل الرموز ، الخ .

### ● ها هو رجل يحوّل الأب الى المحتل :

— عمري ثلاثة وأربعون عاماً . وبالرقم من ذلك ، أشعر انني صبي صغير طيّع إزاءك .  
وأدوع ما في الأمر أنني لا أعاني اي خجل في قول ذلك . واذا كنت هنا ، فلكي اضرب صفحا من كل ما مضى ، وأن أجد شخصيتي وحياتي الخاصة مجدداً . وأعلم ان عليّ أن أعيش نفسياً تجارب شاقة . انني كالرضيع ، وستكون انت كلاب . وليس ما أقوله امراً مصطنعاً :  
انني أحسه وأكرر انني لا أعاني اي خجل من الاحساس به .

● ثمة ، في الحالة التالية ، تحويل للألم : فعيادة المحتل تصبح « مسقط الرأس » ، و « حجر الأم » ، وحرارة بيت الأسرة ، و « رحم الأم » .

— الجو بارد عندك ! ينبغي أن يكون دائماً دافئاً كما يكون في بيت يشمر فيه المرء بالراحة .

● — المريض التالي يحوّل « الأسرة » : إنه يشعر بالإحباط لكونه ليس الموضوع الوحيد لاهتمام والديه ( المحوّلين الى المحتل ) . وهو غيور من « الأطفال » الآخرين ( المرضى الآخرين ) .

— انني اضرب رأسي بالحائط لكوني غيباً الى هذا الحد ، ولكنني فيور من مرضك الآخرين . فهم يسرقون مني شيئاً ما ، يسرقون مني جزءاً من صداقتك ...

● ها هي الحالة ذاتها ، ولكن الإحباط يتلوّن بالعنوانية ( مع التناقضات التي يفترضها ذلك ) .

— اذا كان بمقدورك ان تنتقل من مريضة الى أخرى وتهتم بالجميع ، فذلك يعني انك تسخر منهم . ومن المتعذر عليك أن تحب جميع مرضاك . ولكنني ، على كل حال ، لا أميا .  
ومن جهة أخرى ، أشعر ، عندما أنتهي من جلستي ، انك مللتني وانك تلقي بي على الباب بتأنف . وعندئذ تكون المرأة الصغيرة الطيبة ، التي هي انا ، منسيّة تماماً ! ثم تهتم برقم



آخر ، ولم يفتن للامر احد على وجه التقريب ! ولكنني اكرر لك ان ذلك لا يهمني ما دمت تعرف عملك . فما ارجب فيه هو ان اكون محبوبة ، وهذا كل ما في الامر .

### حالة اخرى :

يمكن للمرء ان يحول اي عاطفة الى اي شخص او اي شيء . وهذا هو مثال آخر .

ما كان السيد م يرى هراً طويلاً الوبر ، يسترخي في ترف يعدّه « غريباً » على هر ، حتى يوجه اليه ركلة في غفلة من اصحابه ، اصدقاء السيد م .

وكان السيد م يعتقد ان هذه الركلة العدائية ناشئة من الحجة التالية :

— لا احتمال ان ارى هراً يسترخي ويأكل معجنات فاخرة عندما يكون الملايين من الموجودات الانسانية جائعين .

والسيد م مصيب الى حد بعيد لو ان باعته الى ذلك كان صحيحاً . ولكنه لم يكن صحيحاً .

— الامر الاول الذي ادهشني ( قال السيد م فيما بعد ) ان غيظي لم يكن موجّهاً سوى للهرة « غير العادية » ... في حين انني كنت لا ابالي ان ارى هراً عادياً يدلّكه اصحابه . لا ... كنت اشعر ببعض من العداوة ، لانني لا احب الهرة .

الهرة كالنساء ... يخرجن مخالهن لافته سبب ، ذوات نزوات ... يهدلن كالحمام ... ثم يتغيرن تغيراً مفاجئاً ...

الامر الاول ميتدلّ إذن : فالسيد م يسقط عداوته للنساء على الهرة . ولكن لماذا يسقطها على الهرة « غير العادية » بصورة اخص ؟

كان السيد م مصاباً بعواطف الإثمية والدونية . وكان الهر ذو الوبر الطويل يمثل بالنسبة اليه « ارستوقراطية » كانت تشعره بالمهانة ، على الرغم من انها ارستوقراطية حيوانية . ولكن السيد م كان يمثل دوراً امام ارستوقراطي بشري : دور كمال اللياقات والادب ... وكان يكبح عواطف العداوة . ولكن لا امام الهر ! فالسيد م إذن كان يمنح الهر ، بصورة

لاشعورية ، عواطف « الفوقية » و « الاحتقار » ، ويحول الى الحيوان  
عداوته العميقة لكل ما كان يشعره بالمهانة . إننا إذن بמידون عن الباعث  
الذي كان يقدمه لنفسه .

## ٢ - العرض الملخص الاساسي للتحويل

يمكن تحويل عواطف الصداقة والحب والحماسة والثقة . وهذا هو  
التحويل الإيجابي . وعلى هذا النحو فإن المرء يجد العالم يرمته رائعا  
عندما يكون سعيدا .

ويمكن تحويل عواطف العداوة والعدوانية والحقد والحذر . وهذا  
هو التحويل السلبي . وعلى هذا النحو إنما ينحرف العالم الى السواد  
والعداوة عندما يكون المرء تقيسا .

ويؤدي التحويل غالبا ، في التحليل النفسي وفي الحياة ، دورا رئيسا ،  
وله آلاف الأوجه ، ويتطور من مناخ كامن ، إيجابي أو سلبي ، الى الحب  
او العداوة الصريحين . يضاف الى هذا ان التحويل يصبح ، بعض  
الاحيان ، صورة من صور العصاب . وعندئذ يعزو الشخص الى شخص  
آخر عواطف قوية من الحب او الكره ... لا وجود لها في الواقع على  
الاطلاق ، ولكنها ليست سوى تحويل عواطفه الخاصة .

ويرى المرء إذن ان الاسقاط والتحويل متماثلان . ولكننا على وجه  
المعموم نسمي ما يسقطه المريض على محطته تحويلا .

## ٣ - الذكاء والتحويل

هل للذكاء صلة من الصلات بالتحويل ؟ لا ، ما بقي التحويل  
لاشعوريا . فثمة أناس ، اذكاء جدا ، يتصرفون تصرفا باعته الخوف  
( عواطف الدونية ، والخضوع ، والعدوانية ، والخجل ، الخ ) امام  
اناس آخرين ، سواء كان هؤلاء الآخرون اذكاء او كان عمرهم العقلي

ثمانى سنوات ( انظر مرة ثانية ، مع ذلك ، حالة السيد م الذي يشعره بالمهانة هر ) . ولنفكر بالحالات البسيطة جدا والشائعة ، حالات أشخاص يحولون الأب الى كل سلطان ، سواء كان حقيقيا او مزيفا : شرطي ، جابي الضرائب ، موظف رسمي ، بواب البناية ، ناطور ، رؤساء ، الخ . وتلك إذن هي الحالة الكلاسيكية ، حالة سائق السيارة ، المصاب بالحصر ، الذي يتصرف « تصرفا لطيفا جدا » امام الشرطي ، لا خوفا من المخالفة ، بل لان الشرطي يرمز الى الأب الكليّ القدرة ، الذي يمكنه ان يعذب او يعفو . وهذا يعني ، بالنسبة الى لاشعور بسائق السيارة ، انه الأب الذي يمكنه ان ينبذ ، ان يخصي او يحب . فسائق السيارة يحول إذن عواطف عميقة الى الشرطي : اباه الخاص ، والأب بصورة عامة ، بل والاله الذي يمسك بكل القدرات . وليست هذه العواطف ذات صلة بالذكاء إطلاقا ، لا بذكاء هذا ، ولا بذكاء ذاك .

## ثانيا - أمثلة على التحويل

بيّنت بما فيه الكفاية كيف « ينقل » أحد الأشخاص ، بالإسقاط والتحويل ، حالته النفسية الى شخص آخر ( او الى المجتمع كله ! ) ، ناسبا اليه على هذا النحو عواطف لا وجود لها . ولكننا ينبغي ان لا ننسى ان التحليل « تركيز » حقيقي للعواطف ، الأمر الذي يشرح العنف في بعض ضروب التحويل ، كالعدوانية القصوى والشفف ، الخ ، وهو عنف مؤقت بالتاكيد ونادر بصورة نسبية .

ويحتلّ المحلل ، في اثناء التحليل ، مكانا كبيرا في حياة المريض . وذلك امر طبيعي ، إذ ان ثمة موجودين بشريين يعملان معا ، وان التحليل علاقة وحيدة .

وقد يحدث غالباً ، مع ذلك ، ان المريض يركز كل انتباهه على المحلل لا على التحليل . وهو امر منطقي ، مرة أخرى أيضاً . فالمرضى يتصرف في اثناء التحليل مثلما يتصرف في حياته اليومية ، مع هذا الفرق الكبير

المتمثل في أن جميع ردود فعله مشحونة ومجتمعة في حزمة واحدة ...  
بمقدار ما يمكنه أن « ينطلق في عفويته » ليحتفظ بشخصيته وذلك أمر  
ممنوع عليه في حياته الجارية !

## ١ - هل ثمة علاقة واحدة دون تحويل ؟

لا . فلا وجود لأي علاقة إنسانية ، وحتى في الحياة الجارية ، لا  
« يحول » فيها المرء إلى الغير عاطفة من العواطف ، ولو لم تكن هذه العاطفة  
غير التعاطف أو التنافر ، غير الحنان أو المقت ، الخ . وحسبك أن تفكر  
بما يرمز اليه بعض الشخصيات لكي تستشعر التحويل في الحياة اليومية  
على نحو أفضل . واليكم ، على سبيل المثال ، أحد رؤساء الدول : إنه  
شاب ، جميل ، نشيط ، أب أسرة ، لا رسميات ولا عجرفة . والناس  
يحبونه حتى العبادة . فهل السيد س هو الذي يحبون ، أم أنهم يحبون ما  
يمثله السيد س ؟ إنهم يحبون ما يمثله ، أي ما يرمز اليه . ويمكن لرئيس  
الدولة هذا ، على سبيل المثال ، أن يمثل الأب ( الأب المثالي ، والقوي ،  
والشاب ، والجميل ، الذي كانوا يريدون أن يكون أباهم ) ، والأخ البكر ،  
والدليل ، والمنقذ ، والبطل المعصوم ، الخ . ونحن هنا في مجال اللاشعور  
الجمعي ( انظر ذلك في فصل « جواز سفر إلى اللانهاية » ) .

كذلك يمكن للممرضة ، بالنسبة لمرضاها ، أن تمثل الأخت الكبرى ،  
والأم المعبودة والطيبة ، والأم المربعة ، الخ . وحسبك أن تتذكر ممثلي  
الشرطة . إنهم يمثلون القانون بالتأكيد ، ولكنهم يمثلون القصاص على  
وجه الخصوص ، وذلك ذو أهمية بالنسبة الى جميع الذين يعانون  
عواطف الإثمية ، أو يمثلون الأب الذي ينبغي تأمين عطفه .

ولنتذكر فيلم « اثنا عشر رجل في حالة من الغضب » . فالمحتلف ،  
الأكثر استبسالاً لشئ الفتى المدان ، كان رجلاً يسطر الحجج المناسبة  
للقيام بذلك ( حماية المجتمع وجميع هؤلاء الناس ) . ولم يكن هذا هو  
الأمر على الإطلاق ، مع الأسف . لقد كان هذا المحتلف يحول الى التهم

**ابنه الخاص** ، العاقـ والمتـرد . فلم يكن **المتهم** إذن هو الذي كان يريد الحلف إرساله الى المشتقة ، بل **ابنه** الذي يرمز اليه **المتهم** . وكان ياس الأب وغضبه قد تحولاً منذ الآن الى **المتهم** . وكان حكم هذا المحتلف بعيداً عن الموضوعية . وكان **يعتقد على هذا النحو أنه يحكم « حكماً نزيهاً »** ... ولكنه كان يرتكب خطأ قضائياً ، بما ان **ابنه هو الذي كان المعني بالنسبة له ، وليس المتهم !**

وهكذا دواليك على توالي الأيام والآنفس البشرية !

يبدو التحويل إذن في الأعمال اليومية . ومن المؤكد ان **الأب و الأم** هما قطبا الجذب في بدايات الحياة . وهما اللذان يهبان الأمن او اللامن ، والحب وفقدان الحب ، والتكوين او التشوّه ، والسلام او الحصر ، واحترام الذات او استصغارها .

وفضلاً عن ذلك ، يمثل **الأب و الأم « نمطين أوليين »** ، **ذواتي استطاعة نادرة** ، يشكلان جزءاً من **اللاشعور الجمعي** . ولهذا السبب ، يتحول وجه **الأب و الأم** ، بصورة لاشعورية ، في حالات عديدة .

### مثال :

يقول السيد ل ، ضابط في الجيش :

— أمر غريب ... انني وراء مقود سيارتي اسير على الطريق . ارى رجال شرطة في الاقن يفتشون السيارات . فكل شيء على ما يرام اذا كنت في لباس العسكري . واذا كنت في لباس مدني ، بدأت ارتجف ، واخاف ، ويصيني الذعر . والحال انني نظامي ، ولاسباب واضحة لا ارفع في البوح بها ! وحسبي ان ابرز اوراقى العسكرية !

ومن الواضح ان ذلك ليس سوى عرض في عداد أعراض أخرى . فالسيد ل يعاني من عواطف الإثمية ، عواطف لاشعورية تتجلى ، في جميع حالات حياته اليومية ، بالاحساس بأنه مذنب . فعماذا يمثل إذن رجال الشرطة هؤلاء عندما يكون في لباس مدني ، لا تحت « حماية » اللباس العسكري ؟ إنهم ، في هذه الحالة الواضحة على الأقل ، يمثلون **الأب** ،

والسلطان ، والقصاص ، والخصاء (١) ، والموت .

## ٢ - سؤال يطرحه المرء على نفسه

اعتقد ، امام مدى التحويل ، ان السؤال الذي يطرحه المرء على نفسه غالبا إزاء هذه العاطفة أو تلك ، السلبية أو الإيجابية ، هو : « ماذا يمثل هذا الشخص بالنسبة لي ؟ » ، أو : « ماذا يمثل هذا الظرف بالنسبة لي ؟ » .

وهل يجد الجواب بسهولة ؟ لا ! بل من المتعذر عليه وحده ، في بعض الأحيان ، ان يجده الا بالنزول التدريجي في اعماق الشخصية . ويرى المرء أيضا ( تذكروا فيلم « اثنا عشر رجلا في حالة من الفصم » ) كم ينصف بالاهمية ان يكون الرجال الذين تقع على عاتقهم المسؤوليات ، كالأستاذة والمربين والكهنة والمديرين والقضاة ورجال الدولة . . . ، واعين لضروب التحويل الى الغير التي يقومون بها ، وان يتحرروا الى الحد الأقصى من ذاتيتهم .

## ٣ - التحويل لدى السيد ص

كان السيد ص قد نمتى تجاه المحلل تحويلا ايجابيا ( خضوعا أقصى ، اظهار مشاعر المحبة والاحترام اظهارا مغاليا ) . وكان كل ذلك يموت عداوة عنيفة لاشعورية . واشير اشارة عابرة الى ان السيد ص كان يحول اباه المستبد الذي كان عليه امامه ان يخضع ، خلال سنين عديدة ، حتى لا يتلقى الصفع أو الدل أو القصاص . وتلك حالة كلاسيكية مع الاسف ، تبدو مرة أخرى ، اي حصر الخصاء والمازوخية .

وكان يبدو ، والحال هذه ، ان السيد ص « يفوص » في التحويل . فما كان يجرؤ ابدا على ان يعارض رأي المحلل ، ولا ان يناقش ، ولا ان

---

(١) انظر عقدة الخصاء في « الانتصارات الملهة لعلم النفس الحديث » .

يعطي رأيا شخصيا ، ولا أن يهاجم التحليل النفسي ، وذلك هجوم كان يرغب فيه رغبة قوية ، ولا أن يهاجم المحلل ، وذلك هجوم ربما كان يثار به من خضوعه لأبيه . والواقع أن المحلل كان قد أصبح ، بالنسبة الى السيد ص ، « إلهاً » معصوما ، « منقذاً » ، ساحرا يسحب الخيوط ، الخ . وذلك كله لاشعوري بالطبع .

وكان لا بد إذن للسيد ص من أن يحتاز الشعور ، وعلى وجه السرعة الكبرى ، بتحويله وعداوته الخفية على السواء . وكان لا بد من أن يتوقف الخضوع وأن تظهر العدوانية .

وبرزت الحالة من تلقاء ذاتها .

كان عليّ أن اضع بيانو في مكتبي بصورة مؤقتة . وبقي هذا البيانو مغلقا على وجه الاطلاق حتى انفادي ملاحظة شخصية جدا . وفتحت البيانو من أجل الجلسة القادمة للسيد ص . ولم يكن ، حتى تلك اللحظة ، قد تكلم ابدا على البيانو ، ولم يعتبر عن اي اندهاش من أن يراه في الغرفة ، بل لم يد عليه أنه لاحظ وجوده . فما السبب ؟ السبب أن ذلك كان سيثير محادثة « شخصية » ... محادثة الند للند ، محادثة لم يكن السيد ص قادرا عليها امام أبيه الذي تمّ تحويله الى المحلل . فهل كان ثمة بيانو ؟ حسن . ذلك امر لا يعنيه . وكان أكثر تهديبا ( أي أكثر خضوعا ) من أن يتكلم عليه دون أن يندمى الى ذلك .

وفتح البيانو إذن . ومنذ بداية الجلسة ، اتجه نظر السيد ص نحو الآلة التي كانت تبدي نواجذها البيضاء ، وحبالها المترامية الاطراف . وقال بمبالغة في التهذيب :

— ما كنت أشك أنك تعرف على البيانو ... والحق انني أود لو اسمعك . لا بد أنك لا تعرف إلا لباح ، انني وانق .

فلترجم : باخ — كمال موسيقي — بيان للمحلل أنه يعدّه

كاملا ـــــــ تملق المحتل ـــــــ ان يكون محبوباً ـــــــ ان لا يكون منبوذاً  
ومعاقباً .

ولكن كل شيء تبدل في الجلسة التالية . وقد شرح السيد ص ذلك  
فيما بعد :

– هل تذكر البيانو المفتوح ؟ قلت لك ، وبأي صعوبة ، انك لا تقدر ان تعرف الا لباح .  
ولكنني في الحقيقة كنت اتمنى ان تجيبي : « ابدا ... اني اطلق على البيانو ... » ،  
بيد انك لم تقل شيئاً . وذلك ما اثارني لانني كنت اشعر وكأنني صبي صغير لا حول له ولا  
طول امام هذا البيانو ذي الذهب . وكنت اتخيلك وانت تصدر في سكون الليل سيولا من  
الانغام بسهولة تدل على قدرة فائقة . ونمت في الليل نوما مضطربا . انك لم تحب عن  
سؤالي ، وكنت اشعر بالاحباط . وكان عالمك الموسيقي يبدني مثلما كان أبي يبدني دائما  
من عالمه الراشد . ثم اخذت افكر ، وعانيت احساسا غريبا . وكما لو ان رداء كان يفتح  
... قلت لنفسي انك ربما كنت تعرف موسيقى شوبان وليست وبنهوفن . وهذا يعني ، في  
هذه الحالة اذن ، انك كنت تنفعل ، بما انك كنت قادرا على تفكيرها . واحسست تجاهك  
بمحنة واسعة ، مثلما حدث لي يوم رايت أبي يبكي ... ( ولتلاحظ هنا ان السيد ص لم  
يقول لنفسه ان المحتل لم يكن له اي صلة مع البيانو ) . ثم غرتني عاطفة اخرى : انك كنت  
تعرف على البيانو ، اذن كنت تنفعل ، اذن كنت انسانا ! لم تك الها ، ولا اسطورة يتعذر  
فهمها ، وكان لك طفولة ومراعاة ، مثلي ومثل جميع الناس ، وكنت تنفعل ! انك لم تك  
إلهيا لا تنفعل ، يجذب الخيوط بالرغم من ارادتي ... كنت انسانا مثلي ، وكان تحليلي يتم  
بالتعاون ! وهذه الكلمة ، كلمة « التعاون » ، اصابتني كالرصاصة ! واعتقد انني ربحت  
عدة سنين خلال دقيقتين او ثلاث .

## ٤ – ماذا يجري هنا ؟

والحقيقة ان محاكمة السيد ص كانت على الوجه التالي : « محطلي  
ينفعل . إنه إذن ليس إلهيا ولا شيطانا ، وليس مطلقا ! وما دام ليس  
إلهيا ، فلست طفلا صغيرا لا حول له ولا طول وبخشي الصواعق السماوية .  
إنني إذن أخاف إنسانا مثلي . فلماذا ؟ »



• في الجلسة التالية ، ظهرت **العدوانية** . فما السبب ؟ السبب ان السيد ص ٢جراً على المعارضة ، وتجرأ على نقد كلمات المحتل الذي كان حتى الآن « مقدساً » . ولكن السيد ص يتصرف ب**عدوانية** ، بما ان الخوف كان موجوداً على الدوام . انه لم يعارض ، بل هاجم هجوماً معاكساً ، لانه كان يعتقد ان المحتل يهاجمه . ثم تناقص الخوف تدريجياً حين احتاز الشعور ببعض ردود فعله . وكفّ عن النظر الى المحتل على أنه « مقدس » ، وأجرى ضرباً من « التراجع في الإسقاط » ، واسترجع شيئاً من الطاقة . وكفّ السيد ص إذن بالتدريج عن أن يكون طفلاً أمام إله محتل ، لكي يفلح في أن يكون راشداً أمام راشد آخر . واحتاز الشعور شيئاً فشيئاً بأن المحتل لم يكن جوبيتر شديد العقاب ، بل انساناً لم يكن يصدر حكماً ، وكان يتعاون معه . فأمكن تحليل تحويل أبيه ، مع كسب جديد للطاقة .

### ثالثاً - الانسان باحث عن المطلق

سنرى فيما بعد ان ثمة راقاً دينياً في قعر اللاشعور الانساني . « الانسان حيوان ديني » . وهنا ، ندخل في بعض مناقشات الاشتقاق اللغوي التي أرغب في تجنبها . ولن أتكلم في هذا المجال على « عواطف دينية » إلا تبعاً للتحويل .

إنني إذن اتناول الاشتقاق اللغوي التالي . في كلمة « دين » (\*) ، ثمة فكرة « صلة » : صلة تربط الانسان بذاته ، والانسان بالناس الآخرين ، والانسان بالإله .

وماذا يفعل ذلك في التحويل ؟ أريد ، قبل كل شيء ، أن أقول ما يلي : كل عصاب قطيعة دينية بالمعنى الاشتقاقي الذي أعطيته (١) . انها قطيعة « دينية » ، ذلك ان العصاب يعزل الفرد عن ذاته وعن العالم الخارجي .

(\*) الكلام على الاشتقاق اللغوي لكلمة « دين » بالفرنسية « religion » لا كلمة « دين » بالعربية « م » .

(١) انظر « العصاب » في فصل « الانسان المصاب بالعصاب » .

والعصاب يحطم « صلات » ، والمصاب بالعصاب يدخل في عزلة عن ذاته وعن الآخرين . ويتم ذلك بالرغم من بحثه العنيف عن الصلات الانسانية ، دون ان يشعر في بعض الاحيان .

## ١ - المحتل المعبود

كل موجود انساني يتصف بأنه في بحث عن المطلق ، شاء أم أبى . فأين يجده ؟ انه موجود في الاله بالنسبة الى الذين يعتقدون به . أما الآخرون ، فانهم يتدبرون أمرهم كما يستطيعون ، ليرضوا سعار المطلق لديهم . فهم إذن « يرفعون الى المطلق » عملهم ، ووطنهم ، وايدولوجيتهم ، ورئيس دولة ، وأمورا أخرى مما لا اعلم . وهذا يتيح للانسان ان يشعر بأنه « مرتبط » بالناس الآخرين ... وبالتالي ان يفلت من الحصر . وذلك يتيح للانسان ان يعتقد بأن « الصلة » لم تنقطع . إنه لبحث في الخارج عن صلة ليست موجودة في الذات .

والحال ان ثمة مطلقا جاهزا يظهر بالنسبة الى مريض مباشر تحليلا نفسيا . فما السبب ؟ السبب ان المحتل يمثل العالم كما يتعنى المريض ان يكون . والسبب ان المحتل لا « يطلق أحكاما » أبدا ، ويقوم بالتالي « صلة » بين المريض و « الآخرين » الذين يمثلهم المحتل .

و « يرتبط » المريض على الغالب بـ « الأب المحتل » . ويسمع المحتل غالبا :

- مكتبك مرفأ السلام الوحيد لدي ...
- لا امش الا بدلالة جلستي ، جلسة التحليل ...
- هذا المكتب هو أمني الوحيد ...
- ليس لي سواك في العالم ...
- افسح الى الأبد لو اهتمتني ...
- انني هنا كما لو انني في كنيسة ، لانك تحبني وتقبلني ، ولانك الوحيد الذي لا يكرهني ...
- امامك وحدك لا أشعر بالدنوب ...

نشة إذن تثبتت مؤقت ، تثبتت المريض على المحلل . والحال أن التقدم يقتضي أن يتوقف هذه التثبيت بصورة تتناغم مع تعزيز شخصية المريض الراشدة .

ولكن المؤكد أن المحلل ، وإن كان يرمز غالبا الى أب « صالح » ، قد يصبح ايضا ، في ثمانية بعض الاحيان ، شيطانا أو أباً « خبيثاً » . ونحن نقع هنا مجدداً في التحويل السلبي المفعم بالعدوانية والعداوة . وبعض المرضى عندئذ ينشرون الأمور الأكثر وهمية وأسوأ الغريات ، الخ .

وها هو بعض كلام المحللين الذي يبين أن المريض يحول « الأب » الى المحلل تحويلاً ترافقه الحاجة الى الامتلاك المطلق .

— أمقت هدوءك ، وحياتك الخاصة ، وزوجتك ، لانني احبك بعنان ، ولا أستطيع أن أشاركك حياتك ...

— أترصد أوهى ضعف من جانبك ، وأدنى ثورة أعصاب ... أتمنى أن تكون غير كامل ، وأن تغضب ، وأن لا تكون كاله بالنسبة لي ... انه لشيء أقوى مني ، ولا حيلة لي فيه ... — أسمع دائماً قرع الجرس على بابك ، وأخشى دائماً أن يزعمنا أحد ...

— انه لامر مضحك : فأنا عقلاني ، اختصاصي بالرياضيات ، مدرس ... ومع ذلك ، أنت بالنسبة لي الآن ، بالرغم من أنني أقاوم ، كالقديس أوغسطين ، ثم كالشيطان فدا ...

كل ذلك إذن مبالغ فيه ومؤقت بالتأكيد ، ولكنه يبرز هذه الحاجة « الدينية »(\*) التي يتصف إرواؤها بأنه ذو أهمية كبيرة للوجود البشري . وذلك هو الشفاء السيكولوجي : تجديد الصلات المنسجمة داخل الشخصية ، ثم بين هذه الشخصية والعالم . وعندئذ يزول الخوف .

ويفهم المرء إذن أن التحويل ليس لعباً . إنه ، قبل كل شيء ، « أداة » عمل ، مؤلفة للمريض في بعض الاحيان . وقد تكلمت عليه مطولاً ، لأن

---

(\*) بالمعنى الاشتقاقي الذي اشرنا اليه « م » .

التحويل لا ينفصل عن كل تحليل ، كما لا ينفصل عن كل علاقة بشرية .  
والحقيقة ان ثمة ضروبا من التحويل بقدر ما يوجد من الافراد ، وكل  
تحويل يبدي اوجها شتى بحسب الجلسة .

ويمكن ، بفضل التحويل ، ان نحلل **انماط الحياة العميقة** الخاصة  
بالمريض . ونحلل ايضا بنياته العصابية . فنرى فيها وسائل الدفاع ضد  
الخوف ، او ضد الحياة ذاتها : وسبب ذلك على وجه الحصر ان العلاج  
التحليلي يمثل **تبلور** اسلوب كامل في الحياة . ولكن لا بد من ان يفكر  
الانسان بان من يفوس في غمرات العصاب يحتاج الى **الإظهار المغالي**  
للمحبة . وبما ان عالم النفس لا يمكنه ، في اثناء تحليل دقيق على الأقل ،  
ان يظهر للمريض « حبه » ، وهو حب انساني ، فاننا ندرك ، والحال  
هذه ، انه يصاب بالحيرة و « الإحباط » . ذلك ان الشخص المصاب  
بالعصاب يحتاج الى ان يرى الناس يعجبون به ، وان يرى انهم يقبلونه ،  
وان يرى انهم لا يحتقرونه ، الخ .

ومع ذلك ، فاذا دخل المحلل هذه « اللعبة » ، فتلك افضل وسيلة  
لإفشال التحليل ، ويتأخر شفاء المريض تأخرا كبيرا .

ولكن الامر يبلغ ، بالتأكيد ، اعلى درجات البشاعة عندما يقبل المحلل  
ان يكون ضريبا من « المطلق » ، وان يجعله الحب الذي يوجّهه اليه المرضى  
شاعرا بالخطوة ... حب يمكن ان يتحوّل الى عداوة في الغد .

ويعلم المحلل بالتأكيد ، في اثناء التحويل ، ان جميع عواطف التحويل  
لا تتوجه اليه ، بل الى من يمثل بالنسبة الى المريض : الاب ، الام ،  
الشیطان ، الاله ، الخ . فليس المحلل هو من يحب المرضى ، وانما من  
يسقطونه عليه .

هذا مع الإشارة الى ان من الممكن ، مع ذلك ، وجود عواطف صادقة  
من المحبة ، تولد بمقدار ما يستعيد المريض نفسه ويستعيد حياة الرشد .

ويمكن اذن ان تكرر ، دونما ملل ، ان موقف المحلل ينبغي ان يكون ، قبل كل شيء ، اسلوبا في الحياة ، مفعما بالجاهزية والعطف . وقد تبدو عبثا ردود الفعل الخاصة بشخص غارق في التحويل . . . **لن لم يعان التحليل** . ومع ذلك ، فان من يباشر تحليلا يحس ، منذ الجلسات الاولى ، بمناخ خاص يستحوذ عليه .

ويستند التحويل ، سواء كان في الحياة اليومية او في التحليل النفسي ، الى قوانين بسيطة جدا :

— يبحث كل موجود انساني ، شاء ام ابى ، عن الامن والسلام والتوازن والرفاه ؛

— كل عاطفة من اللامن تولد إحساسا بالعزلة والخوف والحصر ؛

— كل حَصْر ، ايا كان ، يثير ضربا من الحماية . والهروب والعدوانية هما الضربان الاوليان من ضروب الحماية ؛

— كل موجود انساني يتصف بأنه في بحث عن المطلق ؛

— بمجرد ان يحس موجود انساني بأن حبه مرفوض ، فانه يدخل في حالة من الإحباط ، ويدخل أيضا في حالة من العدوانية او الكره .

لنعد اذن الى المناخ في علاج سيكولوجي . فالشخص يعلم ( او يحس ) انه مقبول ومحبوب كما هو . إنها إذن حالة وحيدة كما قلت ذلك مئة مرة من قبل . ويدرك الشخص ، حتى ولو كان خائفا ، انه في مناخ من الثقة المطلقة . وقلت ايضا إن العصاب مرض « ديني » لانه يقطع « الصلة » التي تربط الشخص بالآخرين . وتتجدد هذه الصلة بين المريض والمحلل . وتتصف هذه الصلة بأنها الاقوى بمقدار ما هي الوحيدة التي يمكن ان يتعلق بها المريض ايضا . والحال ان **المحلل يظل حياديا : فهو يحب مريضه ولكنه لا يتصرف ابدا تصرفا شخسيا** . ولا يستجيب ابدا ، والكلام من الناحية العاطفية ، لمحبة مريضه او لعداوته .

لقد امكننا ان نرى الى أي حد تتصف إثارات المريض ومناوشاته وعدوانياته بأنها كثيرة .

ومن يقول ، مع ذلك ، عدوانية يقول تهديم . فماذا يحدث في هذه الحالة ؟ إن المريض ضحية بالتأكيد . إنه ضحية الحياة ، وضحية الظروف ، وضحية القدر والمرض ... ولكنه ، على وجه الخصوص ، ضحية الشياطين الداخلية التي تسكنه . وهو ، في اغلب الأحيان ، جلد نفسه الخاص دون ان يعلم . فماذا يجري في التحليل ؟ إن المريض يسقط نفسه على المحتل ... الذي يصبح الجلاد .

واذكر ايضا بأن الشخص المصاب بالمصاب يرغب في ان يتلقى كل شيء ، لانه عاجز عن العطاء . والحال انه يحس بأنه لا يتلقى شيئا أمام موقف المحتل ، موقفه الحيادي . ومن المؤكد انه عاجز عن ان يدرك ، من خلال عصابه ، موقف محطه ، ذلك الموقف الجاهز والانساني . فهو بحاجة الى إظهار مشاعر المحبة له ، وهو بحاجة الى إظهار المشاعر العاطفية له . وهو يرغب في ان نمدد ، له وحده ، ساعات الجلوسات ، ويرغب في علاج مجاني . وتبرهن له هذه « المنح » « صراحة » على ان المحتل يحبه . والحال ان أي شيء من هذا لا يحدث . فيشعر الشخص انه يصطدم بحائط هو حياء المحتل . ويبدو الإحباط ، والعدوانية بالتالي .

ولكن ثمة امرا كبير الاهمية يحدث عندئذ . إن العدوانية ، في الحياة الجارية ، تصطدم على الغالب بعدوانية أخرى تتصف بأنها الاستجابة للأولى . والحال ان عدوانية المريض لا تلقى ، في علم النفس ، أي صدى . وبناء عليه ، يمكن للمريض ، على الغالب ، ان يطلق العنان لعدوانيته دون ان يشعر بالإنثم ، ولو لم يكن ذلك إلا عندما يقول لنفسه : « بوسعي السماح لنفسي بان اكون عدوانيا ، إذ انني ادفع أجور جلستي ! »

إليكم ما كان يقوله أحد الأشخاص :

— بمجرد ان اصل الى مكتبك ، اشعر انك تسخر بعنف مما اقوله لك ، ومما انا عليه ،

ومن مراعاتي وهوومي ومللي . وأشعر انني اضيق وقتي ومالي ( **والحال ان تحليل هذا الشخص كان مجانيا** ) . وليس بوسعي ان احتمل فكرة ان تعنتي بأشخاص آخرين غيري . وارغب في ان تفكر غالبا بجلستي القادمة ، وان تطلع على ملاحظاتي بانباء ، وان تدرسها . ثم انني كلما حاولت ان افعل ما بإمكانني ، اصطدمت بحائط من عدم التأثير . فأحس بأنك تحقد علي . والحقيقة أنك تكرهني ...

قد يقال حقا إن هذا الشخص يبحث عن الإحباط . والواقع انه كذلك . فما السبب ؟ **السبب ان هذا الإحباط يتيح له ان يكون عدوانيا ، وان بوسعه ان يكون عدوانيا دون ان يشعر بالإثم . والدخول هنا في الحلقة المفرغة ، التي ينبغي على المحلل ان يكسرها ، أمر محتمل .**

ويحدث أيضا ان يثار بعض الأشخاص من خلال علاجهم . وهم ، بصورة لاشعورية ، يرفضون الشفاء ، لان في إخفاقهم إخفاق المحلل . ويستقرون عندئذ في وضع الضحية . وذلك يتيح لهم ، اول الامر ، ان يحتفظوا بالمحلل لانفسهم وحدهم ، ويتيح لهم أيضا « معاينة » المحلل ، إذ « يرهنون » له على انه « عاجز » .

تكلت إليكم على تدخلات المحلل في الفصل السادس . وهذه التدخلات ذات أهمية كبيرة أيضا في اثناء التحويل . وبينت الى اي حد ينبغي ان تكون هذه التدخلات « معيرة » تبعا لتقدم العمل في الأعماق . فالشخص الذي ينطلق في مغامرة التحليل النفسي يرغب في استئصال آلام عصابية . فعليه ، من أجل ذلك ، ان ينزل خطوة خطوة صوب أعماق شخصيته . وهو بالتدريج يتعمق من « ثياب » ليست ثيابه ، ثياب تحصره دونما شفقة . وثمة أبواب داخلية تنفتح واحدا بعد الآخر . وتنكسر مغاليق الامن « المزيف » . ويستمر بعض من الطاقة في التحرر لصالح الأنا . وتتمّ ضروب متتالية من « احتياز الشعور » ، تابعة ، في الجزء الأكبر منها ، لتدخلات المحلل التي تحدث في الزمن المقصود وتبعا لتطور مريضه .

وكلما كان احتياز الشعور ذا أهمية ، كان على الأنا ان تكون قوية  
لتضطلع بمسؤولياتها الجديدة . مثلها على وجه الدقة مثل سجين ، خارج  
من السجن ، ينبغي ان يكون لديه بعض المال !

وهنا إنما يتصف دور المحلل ، في اثناء التحويل ، انه دور حساس  
الى اقصى الحدود . فالمحلل الذي يجازف باعطاء تفسيرات سابقة لاوانها  
قد يمرض مريضه الى خطر الغوص في ضروب من الحصر لا نطاق ...  
وبالتالي ان يولد لديه آليات دفاع جديدة . ولا بد للشخصية من ان يطرا  
عليها نضج بطيء في أعقاب نزول تدريجي في الأعماق .

فعلى المحلل إذن ان يساعد مريضه في احتياز الشعور بتحويله .  
وهكذا ينفصل المريض عن التحويل ، ويصبح راشدا ومستقلا . ويدرك  
عندئذ ان لا وجود ، في كوكبنا ، للأدنى والأعلى ، بل ثمة أناس لكل منهم  
دوره . ويدرك ان لكل فرد إمكاناته وما يتعذر عليه ، وأبعاده وحدوده ،  
وقواه وضروب ضعفه . اما المريض ، الذي كان يشعر بفعل عصابه انه  
قزم في عالم يسكنه العمالقة ، فانه يرجع الامور الى قيمتها الصحيحة  
بمقدار ما يستعيد شخصيته الحقيقية . ويرى ، أخيرا ، ان العالم خال  
من العمالقة .

ويستعيد المحلل عندئذ دوره الفعلي . إنه يصبح مجددا « مرشد  
السفينة » الذي يساعد على عبور محيط العصاب نحو الهدف النهائي :  
الفوز بـ « أنا » قوية ومستقلة .

والمحلل أداة : لا أكثر ولا أقل (١) .

---

(١) أنصح كثيرا بقراءة الكتاب الرائع للمحلل النفسي شارل بودوان ، مؤسس المعهد  
الدولي في جنيف : « كروستوف ، مرشد السفن » ، دار نشر لافولومب ، باريس .





## الفصل التاسع

### احتياز الشعور

متدما يرى الانسان ، لم يعد يتخيل ابدا .

( جان جيونو )

السؤال الاول الذي يطرحه على نفسه شخص ينجز ، بالرغم منه ، بعض الاعمال هو التالي : « لماذا ؟ » . والشخص الذي يتألم من عصاب لا يكف عن التساؤل بحصر أو غضب : « ولكن لماذا أفعل هذا أو ذاك ؟ ما الذي يدفعني للقيام بهذا العمل أو ذاك ، عمل اراه عبثاً أو يستوجب اللوم ؟ لماذا توجد لدي هذه الفكرة الثابتة ، هذا الرهاب ، هذا التهيب ، هذا التعب ، هذا الحصر ، هذا الخجل ، على الرغم من جميع الجهود الارادية والشعورية التي ابدلها لاتخلص منها ؟ ولماذا انا دائماً على وشك ان امثل ، امام « الآخرين » ، دوراً ينهكني ، ولكنني اقف عاجزاً تجاهه ؟ ولماذا اخفق في خطوباتي المتتالية ؟ ولماذا اكون منحرفاً من الناحية الجنسية أو عاجزاً ؟ ولماذا لا استطيع ان انفصل عن والدتي ، في حين انني لم اتصل بها قط اي اتصال عميق ؟ ولماذا اكون خجولاً الى هذا الحد ، في حين انني نجحت وان الجميع يحبونني ؟ ولماذا اكون متوتراً باستمرار وفي حالة استنفار ؟ ولماذا سيطر هذا الوسواس على اعمالي وافكاري ؟ ، الخ » .

كل ذلك يعني ان « لدي آلية خفية اتمنى إخراجها ، وان في نفسي عدواً مبهماً يجبرني على ان اكون غير حر . و اتمنى ان يبرز هذا العدو في وضوح النهار كيما اراه واصارعه » .

والجواب على هذه التساؤلات هو احتياز الشعور .

والشفاء السيكولوجي منوط باحتياز للشعور يزداد عمقا . ولكي يفهم المرء جيدا هذا الاحتياز ، احتياز الشعور ، لا بد من أن نحدد تحديدا سريعا ماهية « الصحة » النفسية . فقوامها قابلية دائمة للتكيف مع شتى ظروف الحياة . وتتطلب الصحة النفسية انا مرنة تتصف بانها على النقيض من الانا العليا الصلبة (١) ، انا دون آراء مسبقة ولا كفا . والصحة يبلغها الانسان عندما يمكنه ان يعمل ويحب دون خوف ودون اي من آليات الحماية ضد الخوف . فالفرد يبلغها عندما يمكنه استعمال مصادره ، بدلا من تجميدها او تثبيتها في جميع الاتجاهات . ويفهم المرء ان الصحة النفسية متعذرة اذا كانت الشخصية مشطورة الى اجزاء يتصف التفاهم بينها بأنه عابر او مفقود : وتلك هي الحالة ، الى حد بعيد ، عندما تتكون الشخصية اللاشعورية ( وعدو الانا ) من « عقد » تتفدى من الطاقة التي ينبغي ان تكون تحت تصرف الانا .

ونقول بصورة عامة إن ما هو لاشعوري ينبغي أن يصير شعوريا . وبعبارة اخرى ، ينبغي للقوى الغريزية أن تصعد الى الشعور وتغذيه وتغنيه كما يفعل نسغ الشجرة الصاعد من الجذور صوب الجذع والأوراق . ويحصل احتياز الشعور عندما « تتكفل » الانا بظاهرة لاشعورية أصبحت شعورية وتدمجها . والتغيرات المباشرة في الشخصية يتصورها المرء مباشرة : فيطرا على الفرد ضربا من « لفحة من نور » ، ويدرك السبب الحقيقي لهذه الاضطرابات بوضوح ، ويرى نزاعاته الداخلية بدلا من إنكارها وكبتها . . . او تكرارها بصورة غير متناهية دون أن يعلم . وتتوقف الإسقاطات . وتستعاد أجزاء مهمة من الشخصية . وهكذا ، فان كل

---

(١) ننتذكر في هذا المجال أن هروب احتياز الشعور المتابعة تحدث عقب تفسيرات يعطيها المحلل في الوقت المراد ، وتبعا للاستطاعة التدريجية التي تكتسبها انا المريض . هل يتعرض أحد المحللين النفسيين الى خطر اعطاء تفسيرات مغلوبة ؟ ان الخطأ صفة انسانية . ولكننا نرى على وجه الخصوص الى اي حد ينبغي على المحلل ان يكون قد « صغى » مشكلاته حتى يكف عن اسقاطها على مريضه .

احتياز مهم للشعور ( ونحن نجهل إن كان بعضها قنابل حقيقية ! ) يعزّر  
الأنا كثيراً ويحدّد بنيات جديدة . يضاف الى هذا أن أي احتياز ناجح  
للشعور يقود الفرد ، بصورة آلية ، صوب أعمال جديدة وديناميات واسعة .

**ويمكن للمرء أن يحتاز الشعور بأي شيء :** باسم صديق تنحى في زاوية  
مظلمة من زوايا الذاكرة ، وبسهو كان يقع فيه ، وبعادات أصبحت  
لا شعورية ، وبعمرات ، الخ . ولكن موقع ذلك كله في السطح . ويمكن أن  
يحتاز الشعور بأنه على وشك أن يمثل دور شخصية ليست شخصيته .  
ويمكنه أن يحتاز الشعور بأنه يفالي في اللطف ، في حين أنه يرغب في أن  
يكون عدوانياً ، وبأنه يعتقد في نفسه أنه « طيب » في حين أنه يحقر  
الإنسانية ، وبأنه يرغب لا شعورياً في الإخفاق ، في حين أنه حائز على كل  
شيء ليكون سعيداً ، الخ . فتمة آلاف من الضروب الممكنة لـ « احتياز  
الشعور » .

**ويمكن أن يتمّ احتياز الشعور على مستويات مختلفة العمق .** ذلك أن  
بوسع المرء أن يحتاز الشعور أيضاً بضروب من الكبت في منتهى العمق ،  
محفوظة في اللاشعور منذ الطفولة ، منتفخة بالطاقة المجمدة ، مولدة  
عقداً قوية ساهمت كثيراً في أن تكون الشخصية ، في نهاية المطاف ، على  
بعد ألف كيلو متر من طريقها الحقيقي . فاحتياز الشعور هو فتح بوابات  
اللاشعور ، واكتشاف الطفالات ، والحريات المجمدة ، والوساوس الخفية ،  
والعصاب العميق . إنه النفوذ الى عالم مجهول ، مرّضيّ أول الامر ، ثم  
مضيّ ، ذلك أن بالإمكان احتياز الشعور أيضاً بـ **الأنماط الأولى الكبرى**  
التي تزخر في **اللاشعور الجمعي** ( انظر اللاشعور الجمعي والأنماط الأولى  
في فصل « جواز سفر الى اللانهاية » ) ، والتي يترتب عليها انقلاب كلي  
في أسلوب النظر الى الناس والأشياء ... ويرى المرء بصورة مباشرة إذن  
أن بعضاً من ضروب احتياز الشعور **ولادات نفسية حقيقية** . وهي ولادات  
يندر ، مع الأسف ، أن تتم دون ألم ...

## ١ - السد يتصدع

كل احتياز مهم للشعور شبيه بصدع يحدث في السد ، اي العصاب الذي يقابل سيلان المياه ، اي الحياة الفاعلة والاستقلال الذاتي والعيش دون خوف .

ومن المؤكد ان بعض ضروب احتياز الشعور تولد الحصر . فالشخص يبدأ تحليلاً نفسياً يرافقه « درعه المميز لطبعه » وتحميه واجهات يظهرها عادة للآخرين ولنفسه . ويبدأ عمله السيكلولوجي يرافقه حصره وطفالته وتعميظه وكفته ، الخ . ولكنه يبدأ على وجه الخصوص ترافقه آليات الدفاع ، الرهيبة في بعض الاحيان ، التي بناها بصورة لاشعورية كيما يستطيع ان يعيش عيشاً مقبولاً .

انه يبدأ تحليلاً نفسياً بوجه ليس وجهه . وهو يعلم ذلك على نحو مبهم ولكنه يجهل وجهه الحقيقي . وهو يعلم ايضاً انه يتصرف على هذا النحو او ذاك ، ولكنه يجهل السبب . ويحس ، على وجه التقريب ، بانه يختبئ في حصن ، وبأن صيانة هذا الحصن تكلفه كثيراً من المال ، اي كثيراً من الطاقة والتعب والإنهاك ، دون ان نحسب حساباً لكونه ملزماً بأن يضيف كل يوم حجراً الى حصنه المهدّد باستمرار .

**فالمريض إذن ، من جهة ، مل نفسه ، ولكنه من جهة اخرى يتمسك بحصنه وآلياته .**

يضاف الى هذا ان المريض سيواجه مشكلات ماضية ، « منسية » او « مكبوتة » . وثمة ضغائن قديمة واسرار مؤلمة مدفونة في الذاكرة بعمق ، ذات علاقة بأشخاص اقرباء ، اب ، ام ، اخ ، أخت ... ، سيحسّ بها تصعد . وسيحسّ المريض بمواقف مقموعة خلال سنين تصعد .

وفجأة ، ينبعث من خلال التردد والهروب والتلعس ضرب من احتياز الشعور ، وكأنه شعاع من مصباح . فترتفع الاقنعة ، وتحرّر

اسرار لاشعورية ، وتصعد بعض الطاقة . وتظهر المخاوف اللاشعورية بوجوهها المغنة . وتكفي في بعض الاحيان هذه اللوحة من النور حتى تختفي بعض الاشباح ، وتتحطم الابواب المدرعة ، ويتقصف عالم كامل ، عالم مزيف ، طغالي ، مقفول بالخوف ، كما تتقصف لوحة خشبية نخرها السوس .

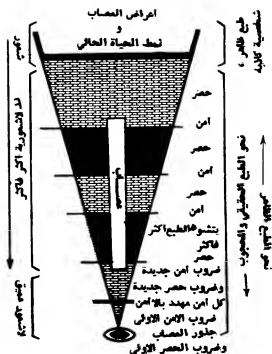
وتبدو ببطء حرية داخلية . ويرى المريض ان كل ذلك ليس هو ، بل « شيء ما » كانت الظروف قد وضعت في نفسه ، واثر فيه كليا ( انظر الانا العليا ، على سبيل المثال ، في فصل « عندما الشيطان يقود الرقص » ) . وعلى هذا النحو إذن ، يرى المريض الى اي حد كان يعد المظاهر شخصيته الفعلية .

إنها ، في بعض الاحيان ، لامعقولية هائلة تغز الى وجهه ، بعد ان دامت سنين طويلة ، وتجعله يقول : « ولكن كيف امكنتي ان اعيش وافكر على هذا النحو معتقدا بهذه الشخصية التي لم تكن شخصيتي الحقيقية .. » وهو ، في هذه المرحلة ، انما يقول : « هذا اضعف من اناي الجديدة » ، بدلا من الاستمرار في القول : « هذا اقوى مني ... » .

## اولا - ممر صعب

من المعلوم ان المريض يستشير على الغالب عالما من علماء النفس لاستئصال الاضطراب الذي يؤله . ولكن من المعلوم كذلك ان هذا الاضطراب ليس سوى عرض من الاعراض ، وان التحليل النفسي العميق يضع الشخصية كلها موضع التساؤل الى ان تبدو « الولادة الجديدة » النهائية .

فلننظر الى التخطيطية التالية :



شكل رقم ( ٥ )

ثم لتتخيل ان المريض يحتاز الشعور ، دفعة واحدة ودونما تهيئة ، بالنواة الكبيرة المكبوتة في اعماق شخصيته .

ولنلاحظ كذلك ما هو شعوري وما هو لاشعوري . ونحن نرى ان الشعور يكون صفيحة سطحية هي حياة المريض الراهنة .

## ١ - ما هو لاشعوري

لنبدا بالقمر ، اسفل التخطيطية . نجد فيها « نواة » تتكون من ضروب الكبت والحصر ، الناشئة خلال الطفولة على وجه الاحتمال . ولكن لنعلم الآن ما يلي : ( ١ ) ان الكبت لاشعوري دائما ، ( ٢ ) ان الكبت يتم لان دافعا صاعدا من اللاشعور يعرض الشخصية الى خطر ان تفقد توازنها ، ( ٣ ) ان الكبت يتم لان ثمة خطرا ، ( ٤ ) ان الكبت وسيلة من وسائل الدفاع في الفترة التي يحدث فيها .

**يتيح الكبت إذن أن يغلت الفرد من الحصر .** ولكن لنفرض انه يتاح للكبت ، في الغد ، أن يصعد نحو الشعور . ويبدو التهديد بالاضطراب مجدداً . وبناء عليه ، فإن المرء يثبت الكبت في الأعماق . ولنفرض أيضاً أن المرء « يكبت » بدءاً من حالة تدوم منذ عدة سنين . فنرى بصورة مباشرة : ١ ) أن الكبت مصون باستمرار ، ٢ ) أن الكبت الدائم يستهلك الطاقة ، ٣ ) يصبح الشخص مكفوفاً بفعل نقص الطاقة النفسية ، ويتناقص تلاؤمه مع الحياة اليومية ومع الغير .

والكبت آلية أمن . ومن المؤكد أن كل أمن ، والحال هذه . مهدد باستمرار كما قلت سابقاً . فثمة إذن فقدان ممكن للأمن ... يولد حصراً جديداً ... يضع عليه المرء صفيحة جديدة من الأمن . وهكذا دواليك حتى الصفيحة النهائية في السطح .

ولكن علينا أن لا ننسى أن ذلك كله يظل لاشعورياً . **والحال أن ذلك ينبغي أن يصبح شعورياً !** فلنتخيل أن بوسع المريض أن يحتاز الشعور ، دفعة واحدة ، بالنواة الأولية المكبوتة . إنه ينفجر بكل بساطة ... واعني أنه لن يتحمل ذلك ... بما أنه قضى حياته برمتها يحتمي منه . وسيكون ضرباً من الانفجار « **النووي** » الذي يمتلئ « نواة » العصاب ذاتها ، عصاب لا يمكن بلوغه إلا بعد نضج وتعزيز للأنا .

ويمكن مقارنة احتياز الشعور بسيارة تسقط في نهر عميق . فإذا كان السائق يجهل السباحة ، ثبتت قدميه على باب السيارة منذ بداية النزول نحو الأعماق . ومن الطبيعي أن الباب لا يفتح بوصفه محصوراً بضغط الماء . وإذا كان السائق يحسن السباحة ، انزل زجاج النافذة ، وترك نفسه يهبط بهدوء ، وانتظر الى أن تمتلئ السيارة بالماء . وعندما يتوازن الضغطان الداخلي والخارجي ، فإن دفعة بسيطة تكفي لفتح الباب .

ذلك هو الشأن عندما يرغب شخص في احتياز الشعور بأعماقه . فعليه أول الأمر أن يتعلم « السباحة » ، **واقصد أن الضروب الأولى**



لاحتياز الشعور تتم سطحياً . إنها تمس ظاهرات قليلة العمق ، وتحرّر بعضاً من الطاقة ، وتمزّر الشخصية التي تصبح بالتدريج أهلاً للنزول بصورة تزداد عمقا . فإذا أردنا النزول بسرعة كبيرة ، وقد بينت ذلك ، ينسدّ الباب تحت ضغط المياه . **واقصد** أن الآليات الداخلية للحماية تزداد انغلاقاً تحت ضغط الحصر .

وكما قلت لكم سابقاً ، **إن كبتاً واحداً أو عقدة واحدة تحدثان تكاثراً في الأعراض** . وبعض هذه الأعراض يمكن أن يكون مثيراً للاهتمام : مثال ذلك ، وسواس ، وعجز جنسي ، ومخاوف مرضية ، وتهيب يسبّب المعجز ، الخ . ويمكن لبعضها الآخر أن يكون ببساطة غير مرئي ، لأنه يشكل جزءاً من السلوك اليومي . وعندئذ تختلط بالحياة المهنية والعائلية والدينية ، الخ . وبعض هذه الأعراض يمكن أن يبدو « جميلاً » ، وإيجابياً ، وبعضها الآخر « قبيحاً » أو سلبياً . ومثال ذلك أن **سمفونية بتهوفن التاسعة** عمل « إيجابي » تمّ إنجازه تحت ضغط عصاب . **وضرب من اللطف المغالي** قد يبدو عرضاً إيجابياً ، في حين أنه يحجب عدوانية عنيفة ولكنها مكبوتة . **وضرب من المصاب القلبي** يمكن أن يكون العرض السلبي لنزاعات تسود في قلب الشخصية . ويبدو **الصداع** « سلبياً » ، في حين أنه في بعض الأحيان قصاص ذاتي ( مازوخية ) يوقعه بنفسه فرد عدواني ، ولكنه لا يجرؤ أن يبدو كذلك جهاراً . وهو يعاقب نفسه على « خبثه » بصداعه . ولكن ذلك لا يمنع عدوانيته من أن تكون موجودة ... وأنها ظاهرة يمكنها أن تصبح إيجابية ، شريطة أن تكفّ عن أن تكون حماية ضد الخوف ، وشريطة كذلك أن تكون مندمجة .

**واحتياز الشعور يعني الانتقال من إناء إلى آخر . فالمرء يمر من خزان اللاشعور إلى خزان الشعور . ولناخذ ، على سبيل المثال ، كبتاً ( لاشعورياً ) يصل إلى الشعور . إنه يكفّ عن أن يكون كبتاً لأنه يكفّ عن أن يكون لاشعورياً ، مع ما يفترضه ذلك من نتائج يتصف الحصر المؤقت وزوال بعض الأعراض وتميز الشخصية بأنها أكثرها رواجاً .**

## ٢ - كيف يتم احتياز الشعور ؟

يتعذر علينا أن نصيغ قوانين . فاحتياز الشعور ذو ضروب لا ينحصر عددها تبعا للأفراد ، ودرجة تطورهم وذكائهم ، الداخلي والخارجي ، والمرحلة التي بلغوها في التحليل ، وقوة احتياز الشعور ، وعمق الكبت أو العقدة اللذين يستهما ، وتبلور العصاب ، الخ .

يتضاف الى هذا أن ثمة العديد من الاحتياز السوي للشعور ! فيمكن للمرء أن يحتاز الشعور ، كما قلت ، بنمط أولي ورمز ، وبسلوك عصابي على حد سواء .

اضف الى ذلك أن احتياز الشعور قد « يشع » صوب ضروب أخرى من احتياز الشعور . وهو أمر يمكن فهمه إذا فكرنا بهذا التكاثر في الأعراض التي كنت قد تكلمت اليكم عليها . ويمكن إذن لمريض أن يدرك أن عددا كبيرا من ردود الفعل التي تبدو متباينة ناجمة عن مصدر واحد .

وعلى سبيل المثال ، يمكن لمريض أن يحتاز الشعور على نحو عنيف بأن وساوسه ، وخجله ، ودقته المغالية ، واستقامته وخوفه من النساء ، وطيبته المفرطة ، الخ ، وثيقة الصلة بمعضها ببعض ، وتنتج صوب نواة مكبوتة في اللاشعور . فكثر من الشجيرات تنقطع على هذا النحو بضربة واحدة تحت فأس احتياز الشعور .

**ولنضرب مثالا آخر** رأينا حالة منه : شخص مصاب بـ « هوس التحقق » يحتاز الشعور بأنه يفعل ذلك لأنه يشعر دائما بأنه موضع مطاردة ومراقبة ، وأنه بطبع في الواقع انه العليا التي تسبب له عواطف الإثمية والحصر . فليس الهوس إذن غير عرض مشهدي في عداد أعراض أخرى لم يلاحظها ، ناشئة من نواة لاشعورية واحدة .

---

(١) انظر « الانماط الأولية » في الفصل الثالث عشر .

## ثانياً - ردود فعل المريض

ليس احتياز الشعور دائماً ، على عكس ما يعتقد بعضهم ، هو الأكثر المأ . فالأكثر « إثارة للنفور » موجود في الحياة اليومية وفي السلوك إزاء الغير . وذلك امر مفهوم ، إذ أن كل عصاب يشير ، بالدرجة الأولى ، صسوبات في العلاقات مع الغير .

**ولنضرب مثالا :** شخص « يمثل دوراً » منذ سنين عديدة . ولنفرض أنه « استكمالي » ( ١ ) ، أي أنه يظهر للآخرين بمظهر « الكامل » ، بمظهر من لا مأخذ عليه . فهو إذن محصور بالدور الذي يمثله ، وعليه أن يستمر في تمثيله كل لحظة . إنه سيحتاز الشعور بهذه الواجهة ، بهذا الطلاء من الحماية . ( الحال ١ ) : أنه عود الآخرين على أن يروه بهذا المظهر من الكمال ، ( ٢ ) أنه لا بد سيدرك أنه ليس كما كان يعتقد ، وأنه يتصف كغيره من الناس بنقائص كبيرة ، ( ٣ ) وأنه لا بد سيبدو غير كامل ، وسيتحمل الحصر المؤقت الذي يفترضه ذلك ، لأنه سيحتفظ ، خلال زمن معين ، بشعور مضسونه أنه موضع « حكم » .

وبناء عليه ، فإن الدور الذي كان يمثله المريض سيببدو بصورة متزايدة في الوضوح . ولكن هذا الدور كان لاشعورياً . وكل ما كان المريض يحس به كان على سبيل المثال : الانهالك في المجتمع والتشنج والتهيب والحصر ، الخ . والحال أن سلوكه ( المزيف ) لم يكن يجتاح حياته اليومية فحسب ، بل افكاره ايضاً ، واعماله ، واختيار اصدقائه وعلاقاته ، واسلوبه في النظر الى الأشياء ، وتربيته التي يمنحها لاطفاله ، الخ . إنه إذن عالم بأسره يترجّع . ويرى المرء بالتدريج تبدو الاخلاق المزيفة التي كان قد نماها في نفسه ، ووساوسه المزيفة وكتلة من الاحكام المسبقة . وسيرى كذلك ترسم بصورة ضبابية ، ثم أكثر وضوحاً ، ثم أكثر اتساعاً ، حدود اناء العليا . وسيلاحظ عندئذ كم كان ذلك يبعده عن ذاته ، وكم كان يعدّ الأحمر أخضر ، والعكس بالعكس . إنه ، هنا ايضاً ، مصباح ينقل نوره .

( ١ ) انظر الاستكمالية في فصل « الانسان الآثم والانسان المصاب بالحصر » .

وعندئذ يلاحظ المرء بذهول انه لم يكن قط يعيش إلا على الظاهر من ذاته ...

ولابد من أن نشير ، من جهة أخرى ، الى أن احتيازاً « فكرياً » للشعور غير ذي جدوى . فكل احتياز للشعور ينبغي أن يكون ظاهرة معاشة ، محسوساً بها . وينبغي احتياز الشعور احتيازاً « عميقاً » . ولا بد للمرء من أن « يعيش » احتياز الشعور . وهذا هو الشرط الأساسي لكي يولد مفعولاته .

وتولد بعض ضروب احتياز الشعور العميق تحراً مباشراً ، و « تطلق » طاقة كبيرة .

وبعضها الآخر مؤلمة جداً ، لأنها تمرّتي شخصية مزيفة كان المرء متعلقاً بها . ولكن من يقول « شخصية مزيفة » يقول « أسلوب مزيف » في إدراك الأشياء ، و حياة منحرفة ، واختيار لا إرادي لظروف الحياة ، الخ . فثمة إذن كثير من الأمور توضع موضع التساؤل . ذلك أن من المؤكد أن على المرء أن يعيش في الهواء الطلق على صورة تختلف عن العيش في السجن .

و « يتقهقر » المريض كذلك امام بعض ضروب احتياز الشعور التي تبرز . إنه يخشى أن يتغير . وهو من التعلق بـ « رجليه الصناعيتين » بحيث لا يتوصل الى استخدام رجليه الحقيقيتين .

وعندئذ ، يقترب من احتياز الشعور ، ثم يبتعد ، ويدور ، وينطلق مجدداً ، ويحتك به ، ويمسه باصبعه ، ويستعيد آلياته الامنية ... إنه إذن شبيه بطائرة مطاردة تحوّم حول هدف لا يزال ضبابياً ، دون أن تجرؤ على الإطلاق عليه .

وبلغ بعض المرضى درجة من الدرجات عقب احتياز مهم للشعور ... ويستقرون فيها . فهم يتوقفون للاستراحة قليلاً . وهذا امر طبيعي .

فلنفرض ان شخصاً يعاني المخاوف المرضية والوساوس . وها هي اعراضه تختفي ، وهي اعراض عذبتة خلال سنين . فمن المفهوم إذن ان يحطّ رحاله قليلاً ما دام اختفاء المرض الكبير منحه الآن سعادة كان يراها منيعة عليه ! ومع ذلك ، فان المصاب لا يزال يدور في الشخصية ، ولا بد من الاستمرار في المضي الى الامام .

**وثمة بعض الاعراض التي تختفي فجأة عقب احتياز مهم للشعور .**  
**ولكن بعض الاعراض الأخرى تقتضي ان يبدأ ضرب من النفصال .** وتلك عندئذ معركة بين الشخصية المزيفة وبين الشخصية الحقيقية التي تبرز الى النور وتؤكد حقها في الوجود .

١ - ذلك يغيّر كل شيء !

وعلى أي حال ، يحرّر احتياز الشعور شيئاً من الطاقة ، وبالتالي بعض الفاعلية . ومن هنا منشأ التغيّر في الحياة . **ولنضرب مثلاً على ذلك :** ها هو شخص يعاني الكبت العميق الذي ترافقه عواطف الدونية والإثمية . ومن المؤكد ان جزءاً من شخصيته يتصف بأنه مكفوف . ثم تحدث ضروب من احتياز الشعور ذات علاقة بالأبوين على سبيل المثال . وتتسع الشخصية وتصبح مجدداً بالتدرج شخصية مستقلة بعد ان كانت متقلصة وذابلة ومذمورة .

**وماذا سيحدث في الحياة العادية ؟** تتميزّ الأنا من جهة ، ومن جهة ثانية ، تختفي ضروب من الكبت وهي تجرّ معها في سقوطها ضروب من الكفّ والمخاوف ، الخ . ولنفرض ( وهذا أمر مبتذل وشائع ) ان الشخص « كان يكظم » كل شيء . ولم يكن يجرؤ على ان يفرض نفسه ، ولا على إبداء رأي ، ولا على ان يظهر عفويا . وكان يفعل كل شيء حتى يحس بأنه محبوب . وكان اوهى نقد وادنى لوم يسببان له الحصر ، الخ . ثم إن هذا الشخص يجرؤ ، في اعقاب احتياز الشعور ، على ان يفعل ما يرغب في ان يفعل ، ولو لم يكن إلا ان يطرد احداً يريد به الشر . ويكفّ عن ان يكون مصاباً بالحصر إذا « حقد عليه » شخص ما او انتقده او لامه . إنه لا يبالي بواقع كونه محبوباً ام غير محبوب ، الخ .

ونرى إذن أن ذلك بداية حياة جديدة كل الجدة ، حياة حرة لم يسبق له أن عرفها ، حياة مع كل الطاقة والاستقلال اللذين يرتبطان بها .

٢ - عندما تملي الدمية ...

سيرى المريض إذن ينبعث كل ما هو غيره ، بفعل ضروب متتالية من احتياز الشعور . وتصبح الخيوط التي تحرك الدمية مرئية . ويرى المريض تدريجيا ما كان يسحب الخيوط . ويلاحظ ما كان يوقعه في الشرك خلال سنين طويلة ، دون أن يخطر حضوره في باله . ويرى ترتسم ، على نحو يزداد وضوحاً ، شبكة ضروب الحصر الاشعوري والواجبات والممنوعات التي كانت مفروضة عليه ، والتي كان يعتقد انه اختارها بصورة إرادية . ويعود صوب طفولته وأبويه وتجاربه الأولى وصنوف كبته الأولى .

قال احد المرضى :

- إن ذلك لشبه سهل كان يشعّ فيه الضوء ، وكما لو اني كنت ارى نسج وجودي ... وأرى الدرب الصغير الآن ، دربا ضيقا شخصاته اوتاد تمرّض للخطر ، وعليها كنت أمضي . ولكن ، في أي لامقولة كنت دون أن اشعر ... !

والأمر على هذا النحو في الحقيقة . فقد يحدث على الغالب أن تظهر حماقة كبيرة بعد ضروب من احتياز الشعور العميق : حماقة الحياة الماضية . ويكتشف المريض في الوقت نفسه مجالات - لديه ! - لم يكن يلمحها قط . ويتصل مع الخارج بوساطة عواطف وإحساسات لم يسبق له أن عرفها . وتنضم جوانب كاملة من الشخصية وتتوافق . وتختفي الدمية ويبرز الانسان مجدداً .

ولا بد من أن يدرك المرء - مرة أخرى أيضاً - أن الانسان غير متحقق ما دامت كلية وجوده غير « ملتحمة » . وهو غير متحقق ما دام جزء منه مفصولاً عنه : وحسبنا أن نفكر بعقدة كبيرة تسكن في الاشعور . فكيف يمكن لانسان أن يحتفظ بشخصيته إذا كبت جانبا كاملاً من هذه الشخصية ؟

وعلى هذا النحو إذن ، من احتياز للشعور الى احتياز للشعور ، ينتقل الانسان من العصاب الى الصحة . ولكن هذا ليس كل شيء . ذلك أن الوجود الانساني هو من الاتساع بحيث أن منطقة أخرى تنفتح له عندما ينتهي التحليل النفسي للشفاء . وأريد أن أتكلّم على اللاشعور الجمعي . فليس من الضروري مطلقاً أن نرتاده ، فيما يختص بالشفاء السيكولوجي على الأقل . ولا يتصف اللاشعور الجمعي أبداً بأنه مريض . ومع أنه واسع سعة غير محدودة ومشحون بالطاقة والروعة ، فهو لا ينفتح إلاّ عندما يتم « تنظيف » اللاشعور الشخصي وتختفي ضروب الكبت والعقد المرضية .

ويتبيّن إذن أن بإمكان ضروب احتياز الشعور ، إذا كانت تتيح الشفاء السيكولوجي ، أن تمتدّ تماماً الى ما وراء الشفاء . وعندئذ تتجاوز الفرد ، وترتاد عالماً تزينه كوكبات من الرموز التي تصنع هذه الرابطة « الدينية » التي تحدثت إليكم عنها كثيراً ، ولكنها أيضاً تبين الوجه الحقيقي للملايين الأعمال الفردية والاجتماعية والدينية والتاريخية ، التي كان الانسان يعتقد بأنها تحدث بصورة حرة ، في حين أنها كانت « إسقاط » رموز موجودة لديه ...

ولنضرب مثالا على ذلك ...

**إنني استنبط المثال ، من اوله الى آخره ، مستنداً بالنص الى بعض الامثلة التي ضربناها او التي سنضربها ، الامر الذي يجعل المرء افضل فهماً له .** وضروب احتياز الشعور تبين اول الامر تقدماً ، ولكنها تبين كذلك تفتحاً من الخاص الى العام .

ومن المؤكد أن سير هذه الاصناف من احتياز الشعور **طوبايوي** ، نظراً الى : ( ١ ) أنها لا تحدث في الواقع بترتيب منطقي ؛ ( ٢ ) أن كثيراً منها لا يحدث إلاّ بعد العديد من التلمسات والمقاومات وصنوف الحصر ، الخ . ولكن كل احتياز للشعور يمنح الشخصية ، إذ يحرّر بعضاً من الطاقة المجمدة كما قلت فيما سبق ، قوة اكبر لكي تتابع طريقها .

ولنفرض إذن أحد الناس . ففي العمود الموجود الى اليمين ، سأجمع السلوكات التي تبدو سوية ، والسلوكات غير السوية في العمود الموجود الى اليسار . وسنرى الى اي حد تتصف جميعها ، على السواء ، بأنها كانت موضع اشتباه ...

### سلوك غير سوي وسلبي

منع بصورة مستمرة . ولا يترك عملاً إلا بعد أن يتحقق منه مرة . لديه نزعات الى الاجترار النفسي وإلى الوسواس . توقعات قلبية قوية ، وانزعاجات مزمنة في الجهاز المعدي . وثمة ازيمات غضب نادرة ومفاجئة ، وتشنج دائم .

### سلوك يبدو سويًا وإيجابيًا

مساعد ممتاز لمديره . عنصر ماهر ، وموضع تقدير كبير لارتباطه بعمله وأخلاصه الكبير ، ورزاقته الممتازة ، ودقته المتناهية . ويتصف بالكثير من السحر . وهو ناجح لدى النساء ، ومتسامح جدا إزاء رأي الآخرين ويحترمه كثيرا . يحب النساء المفتحات .

والآن ، لنتصور المريض في مناهاته الداخلية . وأكرر أنني كم أعرض عرضاً مبسطاً ! وأنكم ستجدون في هذا العرض ، نقطة فنقطة ، عناصر مأخوذة من بعض الحالات التي ذكرتها .

١ ( الغربة في الامر أن يكون تعب دائما ، في حين أن جميع الفحوص الطبية سلبية . قلبي ومعدي سليمان على ما يبدو . هل الداخل هو منشأ ذلك مثلما أنه منشأ اجتراراتي ؟ )  
٢ ( يبدو هادئا . ولكنني انفعالي واكظم كل شيء . ولست عفويا بما فيه الكفاية . انني اتردد كثيرا قبل ان اطلق مواحا .

٣ ( من النادر أن اغضب . ومع ذلك بجرحتني اتفه الامور . واعتقد انني نزاع الى الاستسلام . والحقيقة انني اخاف .

٤ ( اشغل منصباً عاليا . واعتقد انني موضع احترام . وذلك لا يمنع من أن اترصد ما يقال عني . ولا بد لي من أن ابدل مجهودا حتى لا استعلم رأي مرؤوسي .

٥ ( استشعر النقد وكأنه جرح عميق . وبعض الانتقادات تدمرني . واظهاره باللامبالاة إزاء رأي الآخرين . ولكن هذا ضرب من القناع . فاللامبالاة هذه تحمي من الحصر الذي ينشأ من معرفتي بأهمي .



٦ ( أدرك أنني أعيش بحسب رأي الآخرين ووفق ما ينتظرونه مني . فإذا أجبوني ،  
سار كل شيء على ما يرام . وإذا اعتقدت أنهم يحقدون عليّ ، اجتبرّ ، ولا أنام .

٧ ( بي حاجة إلى أن أكون مصيبا . فإذا كنت مخطئا ، شعرت أن الناس ينظرون  
إليّ باحتقار .

٨ ( أصاب بالحصر إذا تضرّعت عملي لفترة واحدة . وأصاب بالحصر أن لم يكن عملي  
كاملا . أنني أقصر على تمثيل دور .

٩ ( بي حاجة إلى أن أكون كاملا في جميع المجالات . وموتعت خوفا إذا أصبحت دون  
مطلن في جميع المجالات .

١٠ ( لست قادرا على الإدارة . فمدبري هو أبي . وأشعر بالامن ما دمت موضع تقديره  
واعجابه . والحقيقة أنني طيّع .

١١ ( لست مخلصا . وأنا مخلص شريطة أن يعرف الناس ذلك . وهكذا يقدّرونني ،  
الامر الذي يطمئنني . أنني أهتم بمفعول ما أصنع على الآخرين . فإذا قدّروني ، شعرت  
بأنني محبوب ومقبول ، والا شعرت بأنني منبوذ .

١٢ ( لست مخلصا ، ذلك أنني نوّاع إلى أن لا أناويء احدا ، وإلى أن انحاز إلى  
مسكر الأقوى .

١٣ ( أظاهر أنني متسلح . والواقع أنني أخاف عدوانية الآخرين . وعندئذ ، أفعل  
كل شيء لأكون على وفاق معهم .

١٤ ( الحقيقة أنني لا أحب الآخرين . وأنا عدواني بعمق . فهل أنا لا أحب غير نفسي ؟

١٥ ( لا أحب غير ذاتي . فأنا كترجس ، وشبقي ذاتي ، وبقيت متعلقا بوالدي .

١٦ ( أنني دائم التوتر أمام الآخرين . ولا أكفّ عن تمثيل دور من الأدوار . وأشعر  
دائما بأن عليّ أن أقدم مبررات . وعندما اتحقّق مثله مرة من عمل من الأعمال ، فذلك كما  
لو أن ثمة شخصا كان بجائبي . من هو ؟ لست أعلم : ظلّ ، تهديد بالعذاب . ولكنني أشعر  
وكان الناس جميعهم يراقبونني ويظلمونني ( انظر هنا الأنا العليا ، في بداية الفصل التالي ) .

١٧ ( أخاف أن يراني الناس على حقيقتي . فإذا راؤني ، يبدونني . أنني صبي صغير  
يحاول أن يكون رأي أبيه واهمه والناس جميعهم فيه رأيا حسنا . وأشعر أنني صغير جدا في  
عالم من المعالقة .

١٨ ) لست في حالة من البعد على الإطلاق ، لأنني أشعر بالمطاردة ، ومن أجل أن تكون استقامتي موضع الإعجاب . وأشعر عندئذ أنني لست مخطفاً وأنني موضع الصفع .

١٩ ) أشعر أنني آلم على الدوام . وأخاف أن أكون عدوانياً على نحو سوي .

٢٠ ) لست لطيفاً ، ولكنني جذّاب . فأنا جذّاب لاستميل تعاطف الناس ، وليحبني الناس ، ولكيلا يبتعدوني . وأسر الناس كطفل يحاول أن يأسر أباه . وأضع نفسي دائماً في منزلة أدنى من منزلة الآخرين . فلتست أصف بالرجولة . وقد خشيت نفسي حتى لا أكون ملوماً بالصراع ، صراع الرجال . ولا « أهد » نفسي ذكراً . فأنا أختن كما تفتن امرأة .

٢١ ) لست رجلاً . أنني شبيه بامرأة . فقد كتبت شخصيتي ورجولتي وعفويتي وعدواني . وأبذل كل مجهود حتى لا يكون ثمة شيء يلومني الناس عليه . فإذا لأمني أحد ، لا أجد ما أجيب به . بل ، على العكس ، أخضع دائماً .

٢٢ ) وبدلاً من أن أنفذ إلى المجتمع بوصفي رجلاً ، أستسلم للتفوذ كما تفعل إحدى النساء . وأستسلم كذلك من الناحية الجنسية : فأنا أفضل النساء المسترجلات اللواتي أشعر بقربهن وكأنني سبي صغير يقرب أمه ...

٢٣ ) أنني مازوخي تحت قشرة من المظاهر البراقة ...

## وماذا بعد ؟

يمكن أن نستمر هنا في ذكر مجموعة كبيرة من هذه الأصناف من احتياز الشعور ( جنسية ، تعلق بالأم ، جنسية مثلية كامنة ، حصر الخصاء ، الخ ) . بيد أننا نرى الآن ما يلي : ليس هذا الرجل هو الشخصية التي تبدو . فثمة سؤال يطرح نفسه : إذا أقام حياته كلها على سلوكات إيجابية ( السلوكات الموجودة في العمود الأيمن ) ، فهل ستنتهار هذه الحياة ؟ كلا بالتأكيد ، بل على العكس . ذلك أن هذا الرجل يتصف واقعياً بعدة صفات : الاخلاص والذكاء والدقة ، الخ . ولكنه كان قد استخدم هذه الصفات ليحمي نفسه . من هنا منشأ التوتر الدائم ، والحصر المبهم ، والتشنجات ، والخاوف ، والأصداء الجسمية في القلب والمعدة ، الخ . إنه كان يكبت جزءاً كبيراً من شخصيته ، شخصية الرجل ، دائماً حتى يحمي نفسه بالبعد عن الصراع . وكان

قد أصبح شبيها بامرأة . ويقوم عمله الداخلي كله على أن يستعيد ما كان يكتبه : رجولته ، وجنسيته المذكورة ، وعدوانيته السوية ، وثقته بذاته .

### يضاف الى هذا ...

انا نلاحظ ، في هذه الضروب من احتياز الشعور ، انا ننطلق تدريجيا من بعض الاعراض لنبلغ وضع الشخصية كلها موضع التساؤل . والمريض يحتاز الشعور بأن جوانب كاملة من شخصيته في حالة الانتظار في جهة من الجهات : وهي تتصف بالتالي بأنها غير منتجة . وانطلاقا من كتلة من الاعراض ، ينزل المريض نحو النوى الأساسية . وسرى ان كثيراً من هذه السلوكات « الايجابية » ليست سوى أعراض من عصاب : مبالغة في الاخلاص ، ودبلوماسية إزاء الآخرين خوفاً من فرض شخصيته ، وكمال في العمل خوفاً من أن يكون بمقدور أحد أن يوجه اليه لوماً ، ايا كان هذا اللوم ، الخ . ولكنه سرى كذلك ان بعض الأعراض « السلبية » هي في الواقع تعبير عن شخصيته ، شخصية الرجل التي كان قد كتبها تحت ضغط الخوف ، كالدوانية على سبيل المثال .

وتنبجس انا الواقعية في نهاية التحليل ، انا كان قد أوقعها في الشرك ، انا احتفظت سليمة بخصائص مكبوتة خلال سنين ...

## الفصل العاشر

### الحريّة والأغلال

لنمنع عن إخفاء الصعوبة : فنحن ندخل في مجال اللامتناهي . وسنرى الإنسان ، بدءاً من عقله اليومي الى غرائزه العميقة ، ومن فاعلياته العادية الى الكوكبات القوية التي تشع في الاشعور الجمعي . وهذه المناطق الانسانية هي المناطق التي يرتادها التحليل النفسي . وكل مريض يعبرها ، أو يعبر الجزء الأكبر منها على الأقل ، خلال عمله السيكولوجي . فهو ينطلق من أعراضه الشعورية ، ومن أعماله اليومية ، ثم يبدأ في نزول السلم ، سلم الأعماق ، ليكتشف بالتدريج عالماً لم يكن لديه أي فكرة عنه . ولكن كيف « نصنف بالتسلسل » هذا العالم ؟ وكيف نجمع الموجود الانساني كله ، بإمكاناته وما يتعدى عليه ، وبآفاقه وحدوده ، في بضع عشرات من الصفحات ؟ وكيف نتنقل من الشعور الى الراقعات العجيبة من الاشعور ، بضروب عصابه ، وكذلك بالاتساع المذهل للاشعور العميق ؟

#### ١ - من الشعور الى الاشعور

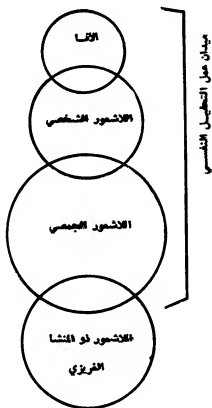
سأحاول ان اضع تخطيطية عامة اولى كما يتم اكتشافها في اثناء التحليل ، مهما كانت هذه التخطيطية غير تامة .

وعندما يلاحظ المرء هذه التخطيطية في بساطتها الكاملة ، يقول في نفسه إن الموجود الانساني يمكن ان يكون « ذلك » بالقوة (\*) . ولكن كم حاجزاً تصادفه في الطريق !

---

(\*) بالقوة نقابلها بالفعل « م » .

في القمة ، تتربع **الانا الشعورية** ، **الصاحبة** ، **صاحبة المحاكمة** ، الشخصية والارادية . إنها مغمورة في جزء منها بـ **الاشعور الشخصي** الذي يحتوي على جميع التجارب التي عاشها **الفرد** ، والذي يتصل بدوره بـ **الاشعور الجمعي** . والبناء برمته يركز اخيراً على **الفرائز العميقة** . وسندرس **الانا العليا** ايضا ، التي تتصف بأنها جيب مسموم يسكن **الاشعور** .



شكل رقم ( ٦ )

الهرم كله يتصل بفضه بفض على نحو دائم ، ويطلق رسائل بالطريق  
المصبي ، ويصدر أوامر وأوامر مضادة . وثمة طاقات تصعد من اللاشعور  
المعميق لمصلحة الأنا الشعورية ، هذا إذا لم تتوقف أو تنحرف في أثناء  
الطريق . إنها شبكة هائلة كما ترون ! وطيلة النهار والليل  
والحياة الإنسانية ...

ولكن كم يوجد في هذا البناء من تعقيدات ، وانحرافات ، ومتاهات ،  
وضعف في النور ، وأبواب مغلقة ، ومخاوف ، وضروب من الحصر ! وكم  
يوجد من العقد ، وصنوف الكف والكبت ، والتخديدات ، والطفالات ،  
والوان التوقف !

أحاول حاليا أن اعتمد هذه التخطيطية . فلنصبح إذن كشافي تعقيد  
من أوسع التعقيدات على سطح كوكبنا : تعقيد ساكنيه .

## أولا - « الأنا » ، ملكة دولة صغيرة

اقرأوا الحالة الواردة في فقرة « الأنا العليا السوية » ، الفصل العاشر ،  
قبل كل شيء . ها هو رجل يتبع « طريق الواجب » . ويتصف هذا  
الواجب ، بالنسبة إليه ، بأنه أمر مطلق . ويبدو الرجل قويا ، واثقا  
من ذاته ، ويظهر أن عليه أن لا ينحرف أبدا عن سيرة رسمها لنفسه  
« بصورة نهائية » .

ويمكن الاعتقاد إذن ، للوهلة الأولى ، بأن هذا الرجل حائز على « أنا »  
قوية ، ذات إرادة ، تعلم أين تمضي . والحال أن الحقيقة تبرز مباشرة :  
فليس لهذا الرجل « أنا » شعورية وذات إرادة ما دامت هذه الأنا  
« ملحقة » بامبراطورية اللاشعور .

فالشباب ، على هذا النحو ، لا تصنع القديس مطلقا .

وليس من الضروري أن يكون المرء محملا نفسيا حتى يتبين له أن هذا  
الرجل تقوده ، بأسلوب قاس ، قوى غامضة لا يشعر بها ، ولكنه يبررها

بطريقة تبدو عقلانية جداً ! والمصيبة ، مصيبته ، انه يعدّ ذلك كله انه  
الواقع الشعوري .

فما نصيب « الانا » في كل ذلك إذن ؟ إن هذه الانا ، انا الانسان ، مصابة  
بالضعف على نحو مخيف : إن **انه العليا** متورّمة . وقد احتلت هذه  
الانا العليا ، دونما انزعاج ، مكان الانا الشعورية . ومع هذا ، يجهل هذا  
الرجل ذلك جهلاً تاماً .

## ١ - ما هي الانا ؟

اتمنى ان اتكلم على الانا بوضوح . ذلك ان الانا ، التي تتصف  
استطاعتها في بعض الاحيان انها شحيحة او مصابة بنقص في النشاط ،  
**عامل اساسي في الشفاء خلال عمل سيكولوجي** . فلا بد إذن من ملاحظة  
ما تصبح عليه الانا وهي تشق طريقها بين ظروف الحياة ، وكيف تتشوّه  
او تختفي ، وكيف تنبثق مجدداً خلال التحليل النفسي .

هذه جملة يمكن ان تلخص كثيراً من الحالات الانسانية :

— **انا اريد هذا ، ولكن ثمة شيئاً في ذاتي يدفعني الى ...**

ويتبين إذن ان ثمة صراعاً بين قوتين : **الانا والاشعور** . وهناك  
« إرادتان » تعملان ، إرادتان تتصفان أحياناً بأنهما متعارضتان كلياً .

إن الانا هي شخصيتنا الخاصة . وهي التي تتيح لنا العفوية  
**الاصيلة** ، ومن المعلوم كم يصعب على المرء ان يحدّد ما اذا كان عمل من  
الاعمال اصيلاً أم لا ... فاننا ليست انا جيراننا . والانا هي ما يتيح للمرء  
ان يحتاز الشعور بذاته وبالعالم الخارجي . ولن يكون الانسان دون الانا  
غير آلة رائعة ، ولكنها لاشعورية .

## ٢ - من اين تنشأ الانا ؟

الطفل ، في البداية ، لاشعور حي . وهو ، عند ولادته ، يكون قد  
تلقّى مسبقاً حصراً كبيراً يسمه الى الابد ، حصراً سأتكلم عليه فيما بعد .

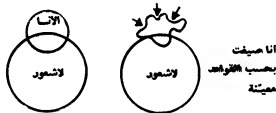
ومع ذلك ، تنبعث انا ببطء من اللاشعور تدريجيا ، كما تبرز من المحيط جزيرة من الجزر . ثم ماذا يحدث ؟ تتكون انا الطفل ، متوهجة توهج الجديد . وهذا امر له عمر الورود . ذلك انها ما ان تبدو حتى ينصب عليها الهجوم من جميع الجوانب . ويبدأ « صوغ » هذه الانا تبعا للمعايير الاجتماعية والثقافية والدينية والجغرافية والسياسية ... التي يعيش فيها الطفل ... او بالحري والدا الطفل . يضاف الى هذا ان المربين سيسحقون انا الطفل تبعا لما هم عليه : متوازنين ام مصابين بالعصاب ، هادئين ام مصابين بالحصر .



شكل رقم ( ٧ )

ويتبين المرء إذن ان هذه الانا التي تلمع بكل نيرانها تتلقى ، منذ البداية ، راقات متينة من الدهان تزيئها ، ويطرأ عليها تسويات عديدة تنقشها ، على وجه التقريب ، نقشا بارزا .

#### التربية



شكل رقم ( ٨ )



ومن المؤكد ان كل تكوين لانا الطفل ، مهما كان هذا التكوين سوياً ، يتصف دائماً بأنه ضرب من التشويه ، لان هذا التكوين : ( ١ ) يتم دون ان تؤخذ بالحسبان شخصية الطفل التي لا تزال غير معروفة ؛ ( ٢ ) يضيق إمكانات الدماغ حين يفرض قوانين دقيقة ، مثله في ذلك على وجه الدقة مثل من يحدد بصورة مسبقة دارات الكترونية .

ولكن ذلك كله امر سوي ولا غنى عنه إذا فرضنا ان المربين متوازنون واذكياء .

### ٣ - مبدآن إنسانيان كبيران

( ١ ) مبدأ اللذة محرّك الطفل . وكلمة « اللذة » ينبغي اخذها هنا بالمعنى الواسع : معنى الأمن ، والتوازن ، والرفاهية ، والحرارة المادية والنفسية ، والامان المادي والنفسي ، الخ . وسنرى ، من جهة أخرى ، ان الراشد خاضع لهذا المبدأ ذاته ، مبدأ يحاول ان يصونه بأي وسيلة : فبإمكانه ان يجد امنه وتوازنه بالصحة كما يجدهما بالمرض . والواقع ان **المضوية** هي التي تبحث عن هذه اللذة وهذه الرفاهية ، شأنها في ذلك على وجه الدقة شأن اي فرد يفضل الدفء على الارتعاش من البرد في الثلج . فالطفل يبحث إذن عن الإشباع المباشر لفرائزه وحاجاته العميقة . وذلك يتم دون ان يرتبك بـ « اخلاق » او بـ « تهذيب » لا يعرف عنهما بعد شيئاً .

( ٢ ) ويظهر **الخوف** ، من جهة أخرى ، بصورة سريعة . فحصر الاطفال العميق معروف جيداً . يضاف الى هذا ان الطفل يمكن ببساطة ان يستولي عليه الخوف في اعقاب ضرب من الحرمان من اللذة ، ما دام الحرمان من اللذة هو فقدان الأمن ، بالنسبة اليه على الأقل . والحال ان ثمة قوى تصعد من لاشعور الطفل . إنها القوى « الاندفاعية » التي تصدرها الفرائز . ولكن تحقيق هذه القوى ، اي استخدام شيء من الأشياء ، والذهاب حيث يبدو له مغيذاً ، والضرب واللعب ببرازه ، الخ ، يصطدم بممنوعات او بالإذن .

## ٤ - العدوانيات الأولى

يتبين المرء إذن أن أنا الطفل ينبغي أن تتلاءم سريعاً مع هذه الأذون أو هذه المنوعات التي تأتي من الخارج . فهل « يستسلم » الطفل ؟ إنه لا يستسلم على الإطلاق ، وهو يريد لذته بالرغم من الجميع .

وتبدو العدوانية إذن . ويحس الطفل بالاحباط وعدم التوازن . وما أن يرغب في تحقيق دافع غريزي تحقيقاً مباشراً ، حتى ترتفع سبابة متوقعة ، في شرحها تكمن صنوف القصص . ويفشل الطفل أمام المنع . فعدوانيته إذن عدوانية سوية ، وهي تظهر من جهة أخرى في الوقت الذي تظهر فيه الأسنان والفاعلية العضلية والارادية .

ولكن لا بد من أن نعرف ضد من تحدث العدوانية . فهي إنما تحدث على وجه العموم ضد أحد الوالدين الذي يحرم هذه اللذة الغريزية أو تلك . ويتبين المرء سلفاً أن ثمة ألف وسيلة ، بالنسبة إلى الطفل ، للقيام برد فعل تجاه عدوانيته الخاصة .

فلنفرض أن عدوانية الطفل تتجه ضد أمه . فمن هي هذه الأم ؟ إنها هي التي تمنع الأمن والحب والدفء والغذاء . . . ولكنها هي التي يمكنها ، في كل لحظة ، أن تسحب هذا الأمن وهذا الحب ، ولو لم يكن إلا بالحد أو الظهور غاضبة ، إذ تغمر الطفل عندئذ باحساس من الإهمال ، إحساس يتصف في بعض الأحيان بأنه مرعب .

وعلينا أن لا ننسى أن الطفل الصغير مرتبط بأمه ارتباطاً وثيقاً . بل : إنه أمه . ويترتب على ذلك أن توجيه العدوانية ضد الأم يمثل ، بالنسبة إلى أنا الطفل ، خطراً تبين لكم التخطيطية التالية أهميته .

حب — رفاهية ، أمن ، لذة ، توازن  
إحباط — عدوانية آلية .  
— ممنوعات يرافقها التهديد بالعذاب — إحساس بالاهمال . حصر .  
— تراجع عن الحب ، كان تحرد الأم — إثمية ( إنني معاقب لأنني  
على سبيل المثال . « هاجمت » أمي . فهي لم تعد  
تحبني وتهملني ) .

ماذا يرى المرء الآن لدى هذا الطفل الصغير الذي ما كادت أناه تتكون ؟  
إنه يرى ظهور الأعلام الثلاثة التي ترفرف فوق جميع ألوان عصاب  
الراشدين : الحصر والعدوانية والاثمية . وذلك امر يدعو الى التأمل ، الا  
تجدونه على هذا النحو ؟ ونحن ، من جهة أخرى ، سنعود اليه .

وبرغب الطفل ، ولو لم يخضع خضوعاً كاملاً ، في أن يتجنب خطر  
« الاهمال » . ولا بد له إذن من أن يحول عدوانيته ، أي ، على  
سبيل المثال ، أن يفعل كل شيء لينال الصفح ( الامر الذي يلحق  
بالخضوع ) : أن يكون لطيفاً بصورة كاملة ، وأن يكون مطيعاً جداً ، الخ .

إنه عندئذ لضرب من « المازوخية الصغيرة » الذي يبدأ . وأنا الطفل  
هي التي تتحمل العواقب . ذلك أن تصرف الطفل على هذا النحو ، يتم  
على حساب شخصيته ، بما أن عليه أن يمنع شخصيته من أن تعبر عن  
ذاتها تعبيراً عفويًا .

وإذ يخضع الطفل ، فانه يحمي نفسه من خطر أن يفقد حب امه .  
فهو يكسب رفاهيته ، وبالتالي لذته ، بفضل خضوعه : إذن ، بفضل  
التجرد من شخصيته وخلق أناه . فكم من الراشدين يتصفون ، والحال  
هذه ، بأنهم « مازخيون » ، أي خاضعون خضوعاً كلياً ، لأنهم يخافون  
الدخول في منافسة مع الغير ؟

ويتبين المرء إذن صعوبة تحديد الأنا ! والواقع أن الأنا تنبثق من

**اللاشعور ، ولكنها تستمر في أن تسبح في اللاشعور الذي تتبادل معه رسائل ( عصبية ) دائمة .**

والحال أن اللاشعور يدفع الفرد الى البحث عن سروره ورفاهيته ، بحث يتم بوسائل تبدو على الغالب متناقضة .  
فلدى الطفل إذن :

– بحث مباشر عن اللذة من جهة ؛

– واصطدام مع واقع الراشدين من جهة أخرى .

وسيكون على أنا الطفل إذن أن تخالل وتلتأم وتتروّض . وعليها أن توازن بين دوافعها الغريزية وبين متطلبات الواقع ! وتتعمّد الأمور أيضاً ، لأن **الأنا العليا** تتكوّن ( انظر « الأنا العليا » في الفصل القادم ) .

## **ه – الأنا في الحياة اليومية**

يتميّز الناس على الغالب بين **الأنا القوية** و**الأنا الضعيفة** .

إن **الأنا القوية** تنظر الى الدوافع الصادرة من اللاشعور نظرة صاحبة إذا جاز القول . فهي تقبلها أو تنبذها بصورة إرادية . إنها أنا « حازمة » . إنها قادرة على تأجيل إشباع حاجاتها .

أما **الأنا الضعيفة** ، فانها تظلّ خائفة أمام الدوافع اللاشعورية ، ولا تكفّ عن حماية نفسها منها ، وذلك بأن تكبتها .

## **٦ – الأنا المهدّدة**

ثمة خطران شديداً يهدّدان الأنا .

ففي أعقاب التربية ، يمكن أن يضع الطفل ، أو المراهق ، أناه « جانباً » ... ليحصل على السلام ، وليكون في حال من الأمن ، ولكي يتجنب أن يكون عدوانياً من الصباح الى المساء ، الخ . إنه **الخضوع**

الزيف عندئذ ، بكل العدوانية اللاشعورية التي يفترضها ذلك . إنه الآن ضرب من **المصائب** الذي تختفي الشخصية المستقلة فيه .

والأنا ، من جهة أخرى ، يمكن أن « تقرضها » العدوانية . وتلك هي نقطة انطلاق كثير من ردود الفعل المعادية للمجتمع ، والعديد من ضروب عدم التلاؤم ، ونقطة انطلاق الانحرافات والسادية ، الخ .

ولا بد من أن يبقى في ذهن المرء ما يلي : **تنبت الأنا من اللاشعور** ، ولكنها تظلّ على اتصال بهذا الشعور . وليست الأنا سوى جزيرة . وتحت هذه الجزيرة ، توجد منطقة لاشعورية ذات أعماق لا يمكن سبرها .

ويتبين المرء إذن أن كل شيء منوط بـ « التفاهم الودي » بين الأنا واللاشعور .

## ٧ - الأنا في أثناء التحليل النفسي

تتلاءم **الأنا القوية** مع شتى ظروف الحياة بسهولة ، وتحوز على إمكانات كثيرة ، وهي ليست متخثرة ، ولا نمطية السلوك ، ولا « يقرضها » الكبت والعقد والكف والحصر .

وهذا هو السبب الذي من أجله ينبغي أن نستخدم ، في التحليل النفسي ، وسائل غير مباشرة مع اللاشعور استخداماً واسعاً .

ذلك أن ثمة **استحالة** لفصل الشعور ، وبالتالي الأنا ، عن اللاشعور الذي خرجت منه والذي تستمر في أن تطفو عليه ( انظر التخطيطية الموجودة في أول الفصل ثمانية ) . وبما أن اللاشعور يغلّي الأنا باستمرار ، فإننا نفهم إذن أن هذه التغلدية يمكن أن تكون في بعض الأحيان مسمومة .

والشعور عاجز دون اللاشعور ، ما دامت الأنا ليست سوى « حدة » حدة نبيلة إذا شئتم ، ولكنها حدة مع ذلك . فماذا إذن ؟

**ثمة قاعدة ذات أهمية :** كل طاقة مجمّدة في اللاشعور ليست ابداً تحت تصرف الأنا . فهل هذه هي الحال غالباً ؟ نعم ، هذه هي الحال بمجرد وجود العصاب ، والعقدة ، والحصر ، والكف ، والكبت ، الخ . وفي هذه الحالات ، لا تؤدي الأنا ، المصابة بالضعف ، وظيفتها . وإذا فكرنا بالانكاسات التي يحدثها مجرد « انفعال قوي » في الأنا ، ماذا نقول بعصاب يدوم خلال سنين ... أو يدوم حياة برمتها ؟

ويترتب على ذلك أن العلاقة بين الأنا واللاشعور ، إما أن تكون علاقة الحرب وإما التفاهم ، ولا وسط بين الحالتين . فلنفكر فقط بالحالة الكثيرة الشيوع ، حالة احد العدوانيين . فهو عدواني لانه خائف . والحال أن هذا العدواني يتخيل نفسه « قويا » . ويعتقد أن له انا قوية ، وانه غير خائف ولا يتراجع امام شيء ، ويتلاءم مع كل شيء ، الخ . والحال أن لاشعور العدواني مترع بالخوف . فانه ، في الواقع ، ضعيفة جداً . وبلاحظ المرء من جهة اخرى ، ما يلي : إنه يستجيب دائماً على نحو واحد لجميع الظروف ، بالعدوانية . إنه اذن ذو نمط واحد في سلوكه ... في حين أن دور الأنا أن تتغير بمرونة وفق هذا الظرف او ذاك .

## ٨ - الأنا في حياة الراشد

الأنا التي تتصف انها في حالة جيدة تعني : مرونة ، وقابلية قصوى للتلاؤم ، وعفوية دون خوف ، ولكنها عفوية شعورية . وهذه الأنا لا تعني الاندفاعية اللاشعورية التي تتلاءم تلاؤماً سيئاً مع الظروف .

والأنا ، بصورة عامة ، مرتكزة على توازن التسوية . فكل فرد يحاول أن يتلاءم مع واقع الحياة افضل تلاؤم ممكن .

ويمكن للمرء أن يتلاءم باحكام ، دون خوف ودون عداوة ، وذلك بأن يكون له مدى واسع من ردود الفعل تحت تصرفه ... الأمر الذي يبعد نادراً .

ولكن بإمكان المرء أن يحاول التلاؤم بوساطة عصاب . فثمة ملايين من الناس يتلاءمون ، قليلاً أو كثيراً ، بمساعدة الكبت ، وآخرون يبنء سدود ضد الحصر .

وفي هذه الحالات الشائعة جداً ، تختفي الأنا تحت راقات من الرماد . ولكن الأناى أن نعدّ المظهر واقعاً . من هنا منشأ طاقة وإمكانات مبدّدة .

**ومهمة التحليل النفسي أن تبرز الشخصية الحقيقية .** فليس المقصود إذن على وجه الحصر أن ينزع التحليل النفسي شيئاً من الأشياء ، بل أن ينقّظ القبو لإخراج ما كان مخبئاً فيه . فالانتقال من أنا مصابة بالضعف أو صلبة الى أنا **قوية ومرنة** يعني الانتقال من مرحلة الطفالة الى مرحلة الرشد .

والآن ، لنهجر هذه الجزيرة التي يندر أن تكون سعيدة وحرّة ، وهي ممزقة على الغالب ، ولا يمكن معرفتها في بعض الأحيان . ولنترك الأنا الإرادية والواعية ، الأنا التي تفكر وتحكم وتقرّر ، ولكنها الأنا التي يغمرها بسرعة ما يصدر عن اللاشعور ، سواء كان عصاباً أم عادات أو آراء مسبقة .

ولننزل في اللاشعور راقاً راقاً ، وذلك اوتباد يقوم به كل مريض . وسنرى أن اللاشعور يتطهّر و « يفقد سمومه » تبعاً لهذا النزول .

ولنكتشف الراق الاول ، **الراق الذي يتسم بأنه من القرب من الأنا** **الشعورية بحيث لا يتميّر معها على الغالب : أي الأنا العليا .**

## الفصل الحادي عشر

### عندما الشيطان يقود الرقص

لنتصور ثمرة يغلفها غشاء رقيق من البلاستيك ملتصق بها ، غير مرئي . يمنحها من التنفس ، ويجعلها تتجدد من الداخل ببطء . ولنتصور كذلك أن الثمرة تعتقد أنها هي هذا الغشاء البلاستيكي ، بالنظر الى أنها لا تشعر على الإطلاق بجفافها .

ولننقل هذا الى الواقع الانساني : فالثمرة هي الانا ، والغشاء الخانق هو الانا العليا المرضية .

تكلمت ، في مؤلفي الاول (١) ، على الانا العليا . وعرضتها على انها راسب التربية وقد اصبح لاشعوريا . فالانا العليا هي إذن « مصفاة » حقيقية ، مسدودة على وجه التقريب ، تجمد القوى الغريزية الصادرة عن اللاشعور ، وبخاصة الدوافع الجنسية ، او تكبتها ، او تقنيها او تحولها . والانا العليا ، إذا نظرنا اليها من هذه الزاوية ، هي مشكل خطير الى درجة محسوسة ما دام الكبت يقود الى العقد ، والعقد الى العصاب . إن الانا العليا هي الخط المستقيم نحو المرض على الغالب ، او ، ببساطة ، هي الجفاف الداخلي .

---

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .



## أولا - الأنا العليا السوية

لكل موجود إنساني أنا عليا سوية . إنها الأنا التي تتكوّن بفعل التربية ، بالمعنى الواسع للكلمة ، والمناخ الاجتماعي والديني والثقافي ، الخ ، الذي ترعرع الفرد فيه . والأنا العليا السوية ، على أي حال ، تولد « آراء مسبقة » لاشعورية ؛ إذن تولد أحكاماً مسبقة . ومن المؤكد أن فرنسا ترعرع في جو مسيحي ، ولو أنه ملحد ، لن يكون لديه الأحكام المسبقة اللاشعورية الموجودة لدى أحد أفراد قبائل البابو ، أو لدى صيني ، إزاء الدين ، والأخلاق ، والزواج ، والعمل ، والوطن ، والخير والشر ، الخ .

والأنا العليا السوية كقانون السير الذي يحترمه الناس آلياً . إنها قانون اجتماعي للسير الإنساني إذا صح القول . ومع ذلك ، فكلمتا كانت أكثر اتصافاً بأنها لاشعورية ، ازداد احتمال أن تصبح مرضية بتبلوراتها وصنوف ضيقها . وعندئذ تنسم الأحكام المسبقة بأنها قاسية ومتصلبة ، تضيق الذكاء والوضوح .

## ١ - الأنا العليا في الحياة اليومية

أريد أن أصف الأنا العليا كما يجدها كل مريض في أثناء التحليل النفسي . والمشكل واسع من ناحية المرض بالتأكيد ، ولكنه واسع أيضاً من ناحية الحرية الداخلية والأخلاق الفردية . والأنا العليا تجعل المرء يخطئ خطأ كبيراً . فهي شبيهة بكمثاشة ( لا مرئية ! ) ، شديدة الخطر ، تمسك شيئاً ( الأنا ) بقوة ، ويعدّها الناس هذا الشيء ذاته .

وملخص القول إن ملايين من الموجودات الإنسانية يعيشون على أناهم العليا ( اللاشعورية ) ، بدلاً من أن يعيشوا على أناهم ( الشعورية ) ، ولكنهم يجهلون ذلك . هذه الأنا العليا توجه أعمالهم : سواء كان العمل شراء ربطة عنق أم كان زواجهم واختيار شريكتهم ، ومهنتهم ، ومبادئهم ، والتربية التي يمنحون ، وأسلوبهم في ممارسة دينهم ومهنتهم ، وأخلاقهم ، الخ .

ولكن الأنا العليا تسبب كذلك توترا ، وإثمية ، وحسراً وصلابة ، جميعها تتصف بأنها داخلية وتؤدي غالباً الى العصاب الذي يمكن لأعراضه ان تكون جسمية ونفسية على حد سواء .

### فلماذا ؟

اين تولد هذه الكتل من عواطف الإثمية ،عواطف شعورية او لاشعورية، التي تسبب كثيراً من الأضرار ؟ ولماذا هذه الكثرة من صنوف الحصر بصور شتى ؟ ولماذا جميع هؤلاء الناس الذين يبدو عليهم ( أو يشعرون ) ان ثمة « شيئاً » من الأشياء « يلاحقهم » وليس بوسعهم تحديده ،والذين يشعرون بأنهم مكرهون على ان يتصرفوا تصرفاً **مقالياً** في الجودة ، ولو ان لا شيء مرنياً يجبرهم على ذلك ؟ ما مصدر ان يتحقق سائق السيارة هذا من إغلاق أبواب سيارته ثلاث مرات ، في حين ان مرة واحدة تكفي ؟ ولماذا كان هناك بعض الوسواس ، وبعض الأفكار الثابتة ، وبعض ضروب الهوس ؟ ولماذا هؤلاء الناس المتصلبون اولو السلوك النمطي ؟ ولماذا هؤلاء الناس الذين تقودهم « مبادئ » هي من التصلب بحيث تبدو انها لم تتطور قط منذ العصر البرونزي ؟ ولماذا هؤلاء الأشخاص الذين يتصرفون كما لو انه كان عليهم **دائماً** ان يسوِّغوا تصرفهم الى اصدقائهم وأعدائهم ، والى رؤسائهم ومرؤوسيهـم ، والى لختامهم وبواب بيوتهم ؟

## ٢ - حالة أنا عليا تصنع رجلاً

المشكل واسع إذن . وقبل ان اتكلم عليه واضرب امثلة ، ستكون فاتحة هذه الفقرة حواراً مستخلصاً من اول اتصال مع مريض من المرضى . وهذا الحوار هو النموذج الاصلي لضروب أخرى من السلوك .

- عمري خمسون عاماً .

- منذ متى أنت متزوج ؟..

- لست متزوجاً . وأعيش مع والدي ، ارملة .

- ...

- انك تفهم . ابي بحاجة اليّ .

— هل هي مريضة ؟ معوزة ؟

— على الاطلاق . اتصد : انها بحاجة الى معنويا .

— ألم تعتقد خطوطك على إحدى الفتيات ابداً ؟

— قدّرت دائما ان من واجبي الاحتفاظ برفقة أمي الى النهاية .

— ولكنك تقول إنها في صحة جيدة ؟

— نعم . ولكنه واجب الابن . وقد قرّرت ذلك وطبّخته دون ان انفضه ابدا .

— هل تعمل ؟

— نعم ، في مكتب من المكاتب . أنهض من فراشي في السادسة صباحا ، فأشعل النار

لكي أوقّر على أمي القيام بأي عمل . وأهوى طعام الغداء وأغسل الصحون ...

— اتقوم بجميع أعمال البيت إذن ؟

— نعم ، انني قوي ، وواجبي ان أعفي أمي من اي شغل أو تعب ... ثم اذهب الى

المكتب . وفي المساء ، أشتري الحاجيات ، ولا أخرج من البيت ابدا .

— أبسبب ضيق الوقت لا تخرج من البيت ؟

— كلا ، بل انني أكره ضروب اللهو التي لا فائدة منها . وهذا مبدأ . انني ادرس وأقرأ .

ثم انني لا أستطيع ان أترك أمي وحيدة ...

هل يعتقد هذا الخمسيني بما يقول ؟ نعم .

هل يعتقد بصحة « مبادئه » ؟ نعم .

الا يرى الأمور بوضوح حقاً ؟ لا .

والحال أن كل فرد يحس مباشرة أن ثمة « شيئاً يسير سيراً غير  
سوي » ، وان « الواجب » لدى هذا الرجل أصرم من أن يكون صحيحاً .  
ويحس المرء أن لديه شبكة من الالتزامات هي من التصلب بحيث تجعله  
فكره وسلوكه .

ولكننا — وهذا هو ما يشغلنا هنا — في غمرة مشكل الانا العليا . إنها

ستحدد نفسها بنفسها من خلال هذا الرجل (١) .

**فماذا نلاحظ ؟** نلاحظ اهتماماً مغالياً بأمه ، وتضحية مغالية تمضي إلى حد إفناء الذات . إن هذا الرجل يعزّم على نفسه كل عمل ولذة شخصيين . ويبرّر كل شيء بوساطة مبادئ نمطية . ويسمى ذلك : **الواجب** .

فماذا يحدث ؟ الحب البنوي لدى هذا الرجل حب مزيف أولاً . ولو تعمقنا في ذاته لوجدنا طبقات سميكة من الكره لأمه ، وللنساء بصورة عامة ، مع كل ما يفترضه ذلك من ألوان الكبت . ومن المؤكد أن هذا الرجل يكبت كرهه لأمه ، كرهاً يظلّ يجهله . ويعزّز إلى الحد الأقصى عواطف الحب ( المزيف ) والواجب ( المزيف ) لكي يتجنب أن تصبح العداوة شعورية .

واكرر أن هذا الرجل صارم . فليس بوسعهم أن يخالف الواجب الذي الذي تم تثبيته لاشعورياً بصورة نهائية . وماذا يحدث لو أنه تملّص من هذه « الالتزامات » القهرية واللاشعورية ؟ إنه سيشعر بالإثم شعوراً فظيماً . وسيشعر كذلك بأنه آثم لو أصبح شاعراً بالكره الكامن لديه . ولكي يتجنب ذلك كله ، يتخذ الموقف المعاكس ، بصورة لاشعورية ، ويصبح حصناً صغيراً من الفضيلة ( المزيّفة ) ، والطيبة ( المزيّفة ) ، والغيرة ( المزيّفة ) . فليس هذا الرجل حراً ، ولا يجزّو أن يكون حراً ، لأن ذلك يعني ، بالنسبة إليه ، أن يتملّص من أوامر الأنا العليا ويفرق في الإنمية ، وربما في الوسواس . لقد كبت أحقادته وتمرداته ورغباته ، وأخفى الكل تحت مظهر « الابن الكامل » ، مظهر يمتدّ به . وغنيّ عن البيان أن هذا السلوك المتصلّب مستمر في حياته العادية إزاء رؤسائه وزملائه ومبادئه ، ومستمر في أسلوب ادراك الأمور جميعها ...

---

(١) لن أتكلّم هنا على جميع العقود وضروب الحصر والكره والإنمية ، التي تكمن لدى هذا الرجل ، ولا على غرامه اللاشعوري والمحرم بأمه .

## ثانيا - عندما يحتجب الشيطان

لا بد لنا من تحديد الانا العليا المرضية ومن محاولة القبض على هذا الذي يفتك فتكا ذريعا بالانفس .

**فالانا العليا تعني ، من الناحية « التقنية » ، شيء مضاف الى الانا وموضوع فوق الانا الخام .**

**فهل يعني إذن كما لو ان احدا زرق ، منذ الولادة ، سائلا غريباً في جهازنا النفسي ؟ بالضبط ، وهذا ما سنراه .**

راينا ، عندما درسنا الانا ، كم كان كل شيء منظماً في الحياة الانسانية: طريقة مسك الشوكة ، والاحترام الواجب للاهل ، وتفوق الذكر ، والسير في الطرق ( ... رجال الشرطة هؤلاء ، الذين يتصفون انهم ، بالنسبة الى الكثيرين ، اناوات عليا حية ! ) ، والمحرمات ، والاعراف والعادات ، الخ. ولنبحث قليلاً نكتشف مباشرة شبكة هائلة من المنوعات والمسموحات ، ومن الاوامر « افعل هذا اولا تفعله » ، ومن الآراء المسبقة ... وذلك يزدحم لكثرتة كالنمل . والامر المثالي ان تصبح شاعراً به لكي تنبذ القشور الميتة .

ويبدأ كل شيء بالتأكيد منذ ان تبدأ التجليات الغريزية الاولى للطفل: الامر الذي يتصف بأنه سوي كما قلت . ومن السوي وجوب اصطدام المرء منذ الطفولة ، بكثير من الاسلاك الشائكة : فالحياة الاجتماعية تقتضيها ، ولا احد يستطيع حيالها شيئاً .

فلا بد إذن من صياغة انا الطفل كيما يتلاءم مع المجتمع ، ومع احترام ذاته والآخرين . وكل شيء منوط - بالتأكيد - بالطريقة التي يتم بها ذلك . فتكوين انا الطفل امر حسن . ولكن الناس ، في تسع حالات من عشر ، يورمون ، ويضيقون ، وينقلون الخوف والحصر وخشية الحكم الاخلاقي ومشاعر الإثم ، تلك المشاعر الخطيرة .

وخلاصة القول : إن الناس يتسرعون غالباً في خلق أنا عليا مرضية  
منوطة : (١) بمواقف المربين ، (٢) برد فعل الطفل تجاه التربية المتلقاة .

ولنستأنف النظر في مثال الرجل الخمسيني ، الذي ضربناه فيما  
سبق . متى ولدت أناه العليا المرضية ؟ ربما ولدت مبكرة جداً . فالأم  
كانت ، على وجه العموم ، تجرّده من الرجولة ، وكانت ملتهمة ومصابة  
بالحصر ، وتتصف بنزعة الملكية . وما كان بإمكان شخصية هذا الرجل  
أن تتفتح بصورة حرة : فكانت لا تكفّ عن الاصطدام بطبع الأم الهدّام .  
من هنا منشأ الضغينة إزاء الأم . والأم شيء مقدّس والحال هذه .  
فالضغينة محرّمة إذن . ولكن الضغينة موجودة مع ذلك . بيد إنها في كل مرة  
كانت تصعد . منطلقاً من اللاشعور نحو الشعور ، كانت تكبت . فمتى  
ولدت إذن هذه أنا العليا ؟ لقد ولدت بلمسات صغيرة كلما كانت شخصية  
الطفل تصطدم بشخصية الأم ، وكان رد فعل الأم أن تشعر الطفل  
بالإثم (١) .

فالأنا العليا الأولى كانت الأم . ثم أصبحت صورة هذه الأم ، الشديدة  
الخطر والتي تضفي الإثمية ، هي أنا العليا اللاشعورية للأبن .

## ١ - كيف تتكوّن أنا العليا المرضية ؟

لا تتكوّن أنا العليا المرضية في يوم واحد . بل تحتاج الى زمن .  
فكل موجود إنساني يحاول ، منذ الطفولة ، أن يتفتح وينمي شخصيته  
المستقلة . ولكن التربية تصبح ، على الغالب ، كمية كبيرة من المنوعات  
تحت طائلة العقوبات . وكثير من صنوف التربية يمكن تلخيصها على  
النحو التالي : « حذار أن تفعل ذلك ! » ( إذا تكلمنا من الناحية  
الأخلاقية ) .

---

(١) انظر فقرة ( عندما يكون النزول مقلداً ) ، في الفصل الأخير من هذا الكتاب .

ولنتصور ولداً مستبداً : فالتربية التي يقدمها تدور حول مايلي :

- حذار ان تتجرا على ان تكون حراً ، وعفويا ، ومستقلا !
  - حذار إن لم تطع طاعة عمياء ودون مناقشة !
  - حذار ان تجرؤ على التصرف بحسب شخصيتك الخاصة !
  - حذار إن لم تحترم قوانيني !
  - حذار ان تجرؤ على التمرد ضدي !
  - حذار إن لم تتصرف بحسب الدور الذي أنطلبه منك !
- إنني اكدت على الجملة الأخيرة لأنها تلخص كثيراً من الأمور .

والواقع ان جيب الانا العليا المسموم يتكوّن تدريجيا . فالشكوك والوساوس والترددات تبدو . وتولد الإثمية والحصر ، وتكبّت الضغينة . فالطفل مكفوف ، وشخصيته المستقلة تتصدّع . **وتحتلّ الانا العليا المرضية مكان الانا** . وتتشوّه الانا الشخصية كمجينة الخبز . وتمرّ الدوافع الآتية من اللاشعور ، بالمصفاة الملوّنة ، مصفاة الانا العليا ، قبل ان تصل الى الانا . وهي تبلغها مسمومة بالتاكيد .

وتبدأ الانا إذن بطاعة أوامر الانا العليا ( اللاشعورية ) . ويكفّ الطفل ( او المراهق ) عن الاحتفاظ بشخصيته ، ويتزايد تمثيله دوراً من الأدوار . فاي دور يمثله ؟ إنه الدور الذي يقتضي الآخرون أن يمثله . ولماذا ؟ لانه يشعر بالإثم إن لم يفعل ذلك . إنه بدا في ان يسلك سلوكاً غير أصيل كيما لا يشعر بالذنب إزاء أبيه او امه .

**فالطفل إذن مثل الدور الذي اقتضاه المربي . وهو الآن يمثل الدور الذي تفرضه الانا العليا التي أصبحت مستودع المنوعات اللاشعوري ، تلك المنوعات المتصفة بأنها إنتاج التربية .**

وتختفي الشخصية المستقلة التي ابتلعها الانا العليا . وتظهر

شخصية مزيفة ، منتفخة بالسواوس وضروب الحصر والمخاوف .  
ويتجرّد الانسان من شخصيته ، ويتصلّب ، ويخضع الى رجال الأمن  
الداخليين الذين لا يكفون عن إطلاق الأحكام عليه ، ويمتلون سلوكه ..

وبصورة لاشعورية ، يتقاد الانسان رغم انفه ، كماهي الحال بالنسبة  
للرجل الخمسيني الذي ذكرناه فيما سبق . فلم يعد الانسان يوجّه  
سلوكه ، بل يظلّ في موقف الاستعداد امام انا عليا لاشعورية .

### ثالثاً - بعض الأمثلة اليومية

اخترت هذه الأمثلة لأنها تبين طابع الالتزام ، تحت طائلة العذاب ،  
الصادر عن الأنا العليا لاشعورية ذات العلاقة بمشاعر الإثمية .

( ١ ) أشعر أنني مصاب بالحصر اذا لم ابدل مجهودات كبرى في العمل . ولدي انطباع  
بأنني لم افعل ما يكفي من أجل الآخرين . وأشعر بالذنب اذا قلت قسطاً من الراحة .

( ٢ ) اذا لم اقم بأعمالي المنزلية من الصباح الى المساء ، أشعر اني مذنب ازاء زوجي .  
ومع ذلك ، فهو افضل الرجال . ويحدث الامر كما لو أنني كنت ملزمة بأن لا اتوقف ابداً .

( ٣ ) اذا لم افلح في العمل الذي يطلبون منذ اللحظة الاولى ، أشعر بأنني مصاب بالحصر ،  
وعديم الجدوى ، وغبي . وأشعر عندئذ انهم سينيدوني خارجاً دون أي محاكمة .

( ٤ ) أستعمل السيارة في تنقلاتي . فلدي الامكانات لذلك . ولكنني عندما أرى المشاة ،  
أشعر بالذنب لأنني في سيارة . وذلك كما لو أنه لم يكن لي الحق في هذا .

( ٥ ) لا أجرؤ ابداً على أن أقول لا . واذا فعلت ، فبكثير من المواربات . وذلك كما لو  
أنني كنت أخشى أن أظهر قراراتي .

( ٦ ) يتم الامر دائماً كما لو أن الناس يراقبونني ، أو كما لو أن شيئاً في ذاتي يراقب  
أفعالي ... والحال أنني حر وعازب وغنيّ ، وهذا الاحساس بأن شيئاً يلاحقني يسمّى  
حياتي ...

في هذا الكلام ، تبدو الأنا العليا في غمرة عملها . ونلاحظ أن الشخص ،  
في كل حالة ، يشعر بأنه ملزم بشيء ما : ملزم بأن يشعر بالإثم ، ملزم



بالنجاح ، ملزم بالإخفاق ، ملزم بأن يكون غيريا وشريفاً ، الخ . هذا الطابع من الالتزام العالي يصدر عن الانا العليا . واعتقد أن هذا واضح بما فيه الكفاية الآن .

**فلنتناول هذه الأمثلة مرة ثانية ونحن نترجمها ، دون أن ننسى أن الانا العليا لاشعورية :**

١ - أشعر بأنني ملزم بمساعدة الآخرين الى الحد الأقصى ، وإلاّ شعرت بالإثم . ولكي اتجنب هذا الشعور بالإثم الذي يسبّب الحصر ، أساعد فوق إمكاناتي . وإذا لم أضحّ بنفسي حتى آخر قطرة من دمي ، أشعر بالذنب وبأنني غير جدير بالحياة . وأفعل كل شيء من أجل الآخرين ، لأنه غير مسموح لي ( الانا العليا لا تسمح ) أن أفعل شيئاً من أجل نفسي . ولا أستطيع أن أنال قسطاً من الراحة ، وإلاّ فإن « الناس » ( اناي العليا ) يمكن أن يوجهوا إليّ اللوم . وأعمل كما لو انه كان عليّ أن أقدم بيانات لكل الناس . وفي كل مرة أشعر بأنني عدواني ، أتمرض الى خطر الشعور بالذنب . فأخفي إذن هذه العدواة تحت حب للآخرين ، حب مغال ومزيف .

٢ - محرم عليّ أن أكون حراً وعفويّاً ، وأن تكون القيادة لشخصيتي الخاصة . ومحرم عليّ أن أنال قسطاً من الراحة ، لأن اناي العليا تقول لي إن ذلك لخطيئة ، وإن للخطيئة قصاصها دائماً ...

٣ - إذا لم أظهر نفسي « معصوماً » ، فإن الآخرين ، الذين اعتقد انهم أكثر قدرة مني بكثير ، سيحتقروني وسينبذوني . ولكي أفلت من هذا الحصر ، عليّ أن أظهر نفسي أكثر قدرة من الجميع . وذلك الزام داخلي . إنه لأمر أقوى من « اناي » الارادية .

٤ - يتم الأمر كما لو أن « الناس » كان بإمكانهم أن يلوموني على إمكاناتي . إنني أحس بأن لا حق لي في أن أكون في عداد الآخرين ، ولا حق لي في النجاح . فذلك كما لو أن تهديداً كان يحوم حولي باستمرار . وأشعر أنني ملزم بأن أكون آثماً ولطيفاً الى أقصى حد لكي يغفر الناس لي يسري المالي ...

٥ - لو قلت « لا » دخلت في تنافس مع من يقول « نعم » . والحال ان التنافس يسبب الحصر ، لانني ابدأ مهزوماً . فذلك كما لو انه لم يكن لي الحق بان تكون لي شخصيتي الخاصة .

٦ - ( ولا حاجة للشرح : فالانا العليا ، هنا ، تبرز في كل كلمة ) .  
بين اللاشعور والانا الشعورية ، تنبسط إذن جيب مسمومة تصفي وتكبت ، وتتألف من ممنوعات وإلزامات تحت طائلة التهديد بالعذاب . وكل ذلك تفرضه التربية السيئة الصنع والسيئة الهضم . وتشتهه كل رغبة عفوية ، او تفسد ، وهي تجتاز الانا العليا . فمن المؤكد إذن أن الشخص لا يتصرف تصرفاً عفوياً ولا حراً . وتلك عندئذ ضروب الكبت ، والعصاب ، والصراع بين الانا الارادية والانا العليا اللاشعورية ، والحصر ، والإثمية الشعورية واللاشعورية ، وبعض المخاوف المرضية او الوسواس ، الخ .

والانا العليا تمزق الشخصية ، وتقوّض الاستقلال والنفوية ، وتولد سلوكاً صارماً ، وموقفاً من الخضوع او من التحدي الدائم . والانا العليا اشد خطراً بمقدار ما تنصف بانها لاشعورية ، وبمقدار ما لا يميزها المرء من الشخصية الواقعية ( الانا ) . وعلى هذا النحو، يعدّ الشبح واقعاً ...

## ١ - ظل الأب والأم

من المسؤول ؟ لا احد . فالمربون هم ما صنعت منهم الظروف . وهم ايضا لهم اناهم العليا وضروب عصابهم . فماذا تريد عندئذ ان ينقلوا غير الحصر والخوف وفقدان الحب ، او غير حب مزيف ؟ ... والمرء ، إذن ، يتبين الاهمية الواسعة للوقاية .

ولدى كثير من الراشدين اناوات عليا مغالية . وفي المنشأ ، نجد بصورة عملية دائماً ظلّ والد ، من الوالدين ، مصاب بالعصاب . والانا العليا المرضية منوطه بـ « المناخ » الذي يسبح فيه الطفل او المراهق .

**والحياة النفسية الانسانية شبيهة باسفنجة تشرب الماء النقي والملوث على حد سواء .**

وينبغي ان لا ننسى أن الطفل ضرب من « الطفيلي » . فهو يعيش على حساب امه لكي يبدأ . هل نعتقد أن جبل السرة ينقطع منذ الولادة ؟ نعم من الناحية الجسمية . اما من الناحية النفسية ، فالامر على خلاف ذلك !

وليس ثمة شيء اكثر خطراً ، بالنسبة الى طفل أو مراهق ، على سبيل المثال ، من أن يكون له أم مصابة بالحصر أو صارمة ، ليس بوسعها إذن أن تنقل سوى حصرها ومخاوفها ومبادئها المتحجرة ( انظر « الحصر » في فصل « الانسان الآثم والانسان المصاب بالحصر » ) . وما تنقله غير مرثي على الغالب ، ويظهر في نزعة التدقيق ، والوصايا الباطلة والدائمة ، وضروب إضفاء الإثمية ، والرقابات الثابتة ، الخ . وهذا الحصر موصوف تماماً من أجل تكوين أنا عليا ضارة .

## ٢ - حالة السيد م

لا يرى هذا الرجل دينه إلا من خلال الأخطار التي يمثلها / جهنم موجودة في كل منعطف ) . فهو يرى الاله من خلال اناه العليا . والاله ، بالنسبة اليه ، ليس سوى موجود شديد العقاب ، غضوب دون سبب ، يضفي الإثمية ، الخ . وليس الاله ، بالنسبة اليه ، غير إسقاط أبيه الذي منحه تربية مدمرة .

ولكنه يجهل كل ذلك . فجميعه مكبوت .

وبما أنه متختم بمشاعر الإثمية ، فانه يحتاج ، بصورة دائمة ، الى الغفران . والاله موجود إذن ليمنح الغفران ... شريطة أن لا يكف عن اتهم نفسه ! فهو إذن في كرسي الاعتراف ثلاث مرات اسبوعياً ، وكل يوم يتناول القربان المقدس ، ويشترك في القداس كذلك يومياً .

وليس هذا إذن إيماناً ولا ثقة ، بل هو الخوف والطفالة .

والأنا العليا لهذا الرجل تشوّه كل شيء إذن بما في ذلك الإله . وهو يسوّغ سلوكه قائلاً : « لن يفوتني الاعتراف والقداس اليومي مقابل كل ذهب العالم ، إنه واجب مقدس بالنسبة لي » . وثمة كهنة يقولون له كم تتصف وسأوسه بأنها مغالية . فالأنا العليا هي الأقوى . وهو ، على العكس ، يرفض أن يرى مرة ثانية كاهنا حاول أن يواجهه بالواقع . والسبب في ذلك أن استشفاف هذا الواقع يعني محاولة أن يكون حراً . والحال أنه عاجز عن أن يكون حراً ما دامت أنه العليا تمنعه من ذلك ، تحت طائلة الخطيئة والوسواس والإثم ، الخ . والحقيقة أن هذه الحالة حالة « هوس » .

### ٣ - من الأخلاق المزيفة الى الإرادة المزيفة

تولد الأنا العليا أخلاقاً مزيفة وصارمة ، متورمة وموسوسة بمغالاة ، وتولد ضرباً من الأخلاقية المائمة التي لا صلة لها بأخلاق فردية وإرادية . إنها إذن أخلاق مبنية على مساعدة المنوعات القطعية ، وعلى الإثم العميقة ، والحصص ، والفضيلة المزيفة ، والكمال المزيف . وتزول العفوية . وثمة حالة من الاستعداد الدائم ، الخفي والغامض على الغالب ، تولد . فالفرد الانساني عندئذ فريسة الانضباط المزيف ، والإرادة المزيفة التي تتصف على الغالب بالنزعة الإرادية والتشنج ، وفريسة السيادة المزيفة والمتصلبة على الذات ، التي ترافقها حالة دائمة ، ولا شعورية على الغالب ، من الانزعاج والقلق والإحساس الغامض بالخطيئة .

وكما رأينا في فقرة « بعض الأمثلة اليومية » ، ثمة تبريرات تمنح عندئذ : ويتكلم الفرد الذي تقرضه أنه العليا على هواجس عليا ، وعلى واجب حب الناس جميعا ، حب لا يتصف مطلقاً بأنه عفوي ، وعلى

واجب ان يكون المرء شريفاً بصورة كاملة ، طيباً ومخلصاً ( ولا نزال كذلك  
بمعدين عن العفوية ) ، وعلى الاحترام المطلق للمبادئ ، الخ .

فليس إذن من السهل مطلقاً ان يحسب المرء حساب الامور ، وان  
يعرف دافعية معينة ان كانت اصيلة ام غير اصيلة .

### وخلاصة القول :

إن الانا العليا المسمومة تنمو على الدوام منطلقة من الخوف . فهي  
إذن منوطة بالمربين وبخوفهم الخاص .

وفي هذه الحال ، أين الحدود ؟ أين الانا ؟ وأين الانا العليا ؟ من  
الصعب جدا فصل الواحدة عن الاخرى . ومن جهة أخرى ، انظر مرة  
ثانية الى التخطيطية الموجودة في بداية الفصل . فالشخص يعتقد انه  
يوجه نفسه بفضل اناه الشعورية ... في حين انه يطيع اناه العليا  
اللاشعورية . إنه شبيه بمستمع وصل كل اذن من اذنيه بجهاز  
إرسال معاديين .

فلا بد إذن من ان يطرح الانسان على نفسه هذه الاسئلة :

من نقل الخوف والحصص ؟ وكيف ؟

من اثار الخوف بموقفه إزاء الحياة ؟ وكيف ؟

من منع الشخصية من ان تنمو بحرية ؟ وكيف ؟

من صنع خوف الطفل من ان يكون مهملًا ؟ وكيف ؟

هاكم تخطيطية في عداد مئة تخطيطية اخرى ممكنة :

## الطفولة والمراهقة

### سن الرشد

— خوف من الام .

— خوف ( أو كره ) من النساء ، ومن الحياة والموت ، ومن اللا شعور ، ومن كل ما هو سلبي ( كالماء على سبيل المثال ) . كره جامع للواطيين ( بفعل » إسقاط « انوثة الفرد اللا شعورية التي يكرهها ) . خوف من السلطة بصورة عامة .

— خوف من قصاص الام ، قصاص يمضي من مجرد الحرد الذي يشعر الطفل أو المراهق بأنه مهمل ، الى الضربات ، والوان الإذلال ، والخصاء النفسي ، الخ .

— هواجس ، وإثمية ، وخوف من الغير ، ووساوس ، وضروب الهوس ، وإحساس بان ثمة تبريرات ينبغي تقديمها ، وتسويغ اتفه الاعمال ، الخ .

— حاجة الى غفران الام حتى يحس بأنه لم يعد مهملًا . وعدوانية .

— خضوع ، وعدوانية ، وفقدان الشخصية ، ومازوخية ، وسادية .

— خوف دائم من الاهمال .

— خوف من النبذ ، وخوف من عدم الإرضاء ، وخوف من الانتقاد ، الخ .

— أن يبدو طفلًا طيبًا جدًا ( وبالتالي كبت كل عدوانية ) ، خوف من أن يشعر بالذنب .

— أن يكون لطيفًا جدًا ، وانيسًا جدًا ، لا يعاكس أبدًا ، ولا يتصف بالعدوانية مطلقًا . خوف من المنافسة ، الخ .

— خوف من أن يكون « شخصيًا » . — خوف من أن يكون حرا .

## ٤ — علينا أن نتذكر دائما

متى ، بصورة عامة ، ينمو العصاب ؟ إنه ينمو بمجرد أن يكون الفرد معاقًا في سيره نحو الحرية الداخلية ، ونحو الاستقلال ، ونحو تحقيق الذات وتنمية شخصيته الخاصة تنمية منسجمة .

وينمو العصاب بمجرد وجود صراع لاشعوري ومؤلم بين الانا الشخصية وبين الاوامر المفروضة من الخارج . ويفعل الفرد عندئذ اي شيء ليجد شخصيته وتوازنه مجدداً . وذلك امر طبيعي . ويتبين المرء إذن الى اي حد يمكن ان تكون الانا العليا نقطة انطلاق مثالية .

## رابعا - من الاخلاق المغلقة الى الاخلاق المفتوحة

من المؤكد ان ثمة فرقا كبيرا بين الاخلاق الاشعورية للانا العليا ، التي يفرضها « الآخرون » من آباء ومجتمع وثقافة ووضع جغرافي واجتماعي ، النخ ، وبين اخلاق فردية يرضاها ويتبناها فرد حقق كماله واستعداد حريته الداخلية . ويرى المريض سريعا ، في اثناء التحليل ، ترسم حدود اناه العليا . ويشهد انفتاح مناهات يسود فيها الخوف من العذاب ، والواجبات المرضية ، وضروب التائق الزيف ، والغضائل المزيّفة . ويصعد ظل الآباء المهدد الى النور ويختفي . ويحس المريض تدريجيا بانبعث اناه الواقعية متخلصة من مجسات الانا العليا . وينقلب ، في الوقت ذاته ، أسلوبه في النظر الى الاخلاق .

الانا العليا هي الاخلاق المغلقة ، والصارمة ، والمنطوية على ذاتها ، والمتوقعة بفعل الإثنية والخوف .

وإذ تنحدر الاخلاق من الانا العليا ، تصبح اخلاقا « مفتوحة » . فهي تشعّ نحو احترام اصيل للذات وللآخرين .

واخلاق الانا العليا هي الاخلاق - السجن . إنها الشخصية المسجونة في الجبس . إنها الاخلاق المهجورة ، راسب مخاوف الطفولة . وعندئذ يصبح الانسان شبيها بمواطن ( الانا ) يطيع قوانين يعود تاريخها الى ايام القيصر ( الانا العليا ) .

وليست الاخلاق الفردية ( والاصلية ) بحاجة الى رجال الامن حتى تكون محترمة . إنها اخلاق الفضيلة . ويصبح الفرد فاضلا بفعل

الاستحالة في أن يكون غير فاضل ، أي أن يسبب الضرر لنفسه أو للآخرين ، لا بفعل المجهود أو الصرامة الداخلية .

وثمة كذلك فرق كبير بين دين يركز على الأنا العليا التي فهمت فهما سيئا وظلت طفالية ، ومستندة الى الخوف والحذر والإيمية المرضية والهواجس الطفالية ، والى « إسقاط » أب مرعب ، وبين رؤية لدين « منفتح » ، يركز على ثقة راشد اقام « صلات » أصيلة بذاته وبالغير وبالمطلق .

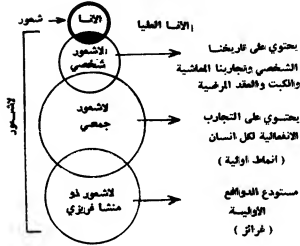




## الفصل الثاني عشر

### مستودع الغرائز

لنلاحظ التخطيطية التالية :



شكل رقم ( ٩ )

بعد أن فحصنا **الإنسان والأتا العليا** ، من المنطقي أن ندلف في **الاشعور الشخصي** ، وأن نستمر على هذا النحو في النزول نحو الأعماق . ومع ذلك ، « لنقلب » المنطق ، ولننظر الى أسفل التخطيطية : الى **الاشعور ذي المنشأ الغريزي** .

وإليك السبب : من الأفضل ان نبدأ بأسس الوجود الانساني الأصلية ، ثم نصعد نحو السطح . يضاف الى هذا أن اللاشعور ذا المنشأ الفريزي واللاشعور الجمعي لا يتصفان على الإطلاق بانهما مريضان . فليس ثمة عصاب ولا عقد مرضية في هاتين المنطقتين اللاشعوريتين . وذلك يتيح إذن ، على ما اعتقد ، فهماً أفضل للعصاب ، ونحن نتناول اللاشعور الشخصي في نهاية سفرنا .

**ولكن ، قبل ذلك ، لئر أيضاً بعض العموميات ذات الأهمية .**

ماذا يحتوي لاشعورنا ؟ إن تاريخنا الشخصي كله منقوش فيه . وثمة راقات أخرى ينفذ إليها تاريخ الإنسانية برمتها . وهو يحتوي أيضاً على غرائزنا ، وورائتنا الشخصية ، وورائتنا من الأسلاف ، الخ . ونجد فيه دوافع غريزية وحيوانية ، كما نجد انماطاً أولية عظيمة ( انظر ذلك في الفصل القادم ) . وراقات اللاشعور واسعة : بعضها يسير البلوغ ، وبعضها الآخر لا يمكن ارتيادها . وبعضها لا يمكن بلوغها إلا عندما يتم استئصال المشكلات العصابية .

## **١ - انسان آلي يحافظ على التوازن**

لاشعورنا يعنى بقانون وحيد : **المحافظة على توازن العضوية ، او إعادة هذا التوازن عند الضرورة ، وبأي وسيلة من الوسائل .**

السهر على لذتنا هو قانون اللاشعور . ولكن علينا أن نفهم جيداً هذا المصطلح : فاللاشعور يبحث عن إقصاء كل كدر ، وكل فقدان للأمن ، وكل فقدان للتوازن .

ويستخدم اللاشعور ، وكرر ذلك ، كل الوسائل الممكنة للمحافظة على هذا التوازن وعلى هذه الراحة . وذلك يمضي من الفعل المنعكس الأولي ، كسحب اليد من مدفأة مشتعلة على سبيل المثال ، الى العصاب ، مرض يتصف بأنه ، كغيره من الأمراض الأخرى ، رد فعل دفاعي تقوم به العضوية

المهددة . وتتكفل **الآنا العليا** ، هي أيضاً ، بالسهر على توازننا ما دامت تكبت الدوافع الغريزية التي تسبب اضطرابنا إذا بلغت ساحة الشعور . فاللاشعور إذن شبكة من الحماية والدفاع في حالة استنفار دائم . وإذا كان بإمكانه أن يسبب حمى ( رد فعل دفاعي ) ، فبإمكانه أن يسبب عصاباً ( رد فعل دفاعي كذلك ) .

وعندما يسبب اللاشعور مرضاً ، فانه يبحث إذن عن تحقيق ضرب من « توازن التسوية » . ولكن المرء يفهم جيداً أن اللاشعور ، إذ يحاول إعادة التوازن ، لا يهتم بالآنا الشعورية إطلاقاً ، ولا بأخلاقتها ، ولا بعلاقاتها العائلية والإنسانية ، الخ . ويتبين إذن بصورة مباشرة الى أي كوارث يمكن أن يفضي ذلك .

كل ذلك إذن ذو أهمية كبيرة ، كما سنلاحظ في أثناء الطريق .

وعلينا ان لا ننسى ابداً ، ونحن نلاحظ التخطيطية المرسومة على الصفحة الأولى من هذا الفصل ، ما يلي : تتصل أنانا اتصالاً مستمراً بجميع راقات اللاشعور ، ويطرا عليها جميع التغيرات ، وكل الاضطرابات ، وسائر التوقفات ، التي تحدث في راقات اللاشعور .

## اولا - اللاشعور ذو المنشأ الغريزي

اللاشعور ذو المنشأ الغريزي هو هذا الجزء من اللاشعور الذي يبعث الفرائز كما الراديوم يشعّ الالكترونات . ويتم ذلك ، في الحالين ، بصورة طبيعية ودونما مراعاة لأي شيء .

إنه الآلية اللاشعورية من الوجود الإنساني ، التي تتصف بأنها الأكثر عمقاً وأولية وديناميكية . وهو مستودع الفرائز « العمياء » ، الفرائز التي « لا إيمان لها ولا قانون » . إنه أعمق الأعماق في الحالة الخام . ومن هنا تنبعث الدوافع الطبيعية التي توجه السلوك .

وهذا اللاشعور ، لدى الحيوانات ، قوة ذات غائية بيولوجية ، آلية ،

على وجه التقريب ، بغايلياتها في البحث عن **اللذة والدفاع** ، الخ ، كما هو الأمر لدى الرضيع . وتنضوي جميع هذه الفرائز ، غرائز الحيوانات ، تحت لواء قانون مترامي الأطراف هو : قانون النوع .

وما شأن هذا اللاشعور **لدى الإنسان** ؟ عندما نقول : « الإنسان مستسلم لغرائزه » ، نتخيل مسخاً مخيفاً لا يأخذ بالحسبان قانوناً ، ولا أخلاقاً ، ولا ديناً ، ولا ثقافة ، ولا شيء على الإطلاق . ويبحث هذا المسخ عن لذته وهنائه ومسرته المباشرة . . . فهو إذن يبحث عن إقصاء كل كدر . ويفهم المرء - وهذا امر منطقي - ان من الضروري تنظيم الفرائز . ولكن بعضهم ، وهو يفعل ذلك ، ينظر إليها على أنها « حثالة » مكانها سلة القمامة ؛ وغالبية التربيّات القائمة على الحصر والكبت مرتكزة على ذلك .

ولا يزال تصنيف الفرائز متعذراً . ويذكر بعضهم غريزة **التناسل** ، وغريزة **اللعب** ، والغريزة **الأخلاقية** ، والغريزة **الجنسية** ، الخ .

وعلى أي الأحوال ، فان الفرائز هي من الاتصاف بأنها موضع المهانة وسوء المعاملة والجهل بحيث ان لها ، مع ذلك ، بعض الحق في ان يُعاد اعتبارها .

## ١ - التأثير على الفرائز

**قمع الغريزة عمل إرادي** . ومثال ذلك ان شاباً يعاني دوافع جنسية إزاء اخته يمكنه قمع هذه الدوافع الجنسية بوضوح قائلاً في نفسه ان تحقيق هذه الدوافع ، في مجتمع له قوانينه الخاصة ، غير وارد .

**ويمكن كبت بعض الدوافع** . والكبت آلية لاشعورية على نحو صرف تقود الى العقدة سريعاً جداً . فمن الناحية الشعورية إذن ، يجهل المرء عندما يحدث ضرب من الكبت .

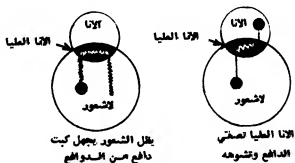
**ويمكن تصعيد غريزة من الفرائز** . وتلك هي حال امرأة صبية تندر

نفسها ، وقد حرمت من الأطفال ، لأطفال الآخرين ، فتصبح مساعدة اجتماعية ، أو ممرضة ، أو زائرة صحية ، أو مربية أطفال ، الخ . أو حال عدواني يصبح جراحاً ماهراً نتيجة تربية ممتازة ، أو حال إنسان ذي نزعات نرجسية واستعرائية يصبح ممثلاً أو راقصاً ، الخ . وتجدر الإشارة الى أن الأمثلة التي ضربناها ينبغي عدم تعميمها .

**ويمكن « تصفية » غريزة من الفرائز .** فإذا استسلم رجل الى غرائزه الأولية ، اغتصب النساء اللواتي يعجبته ، دون أي شعور بالإثم . وذلك فعل طبيعي كالأكل والشرب على حد سواء . وإذا تمت تصفية هذه الغريزة الجنسية ، فإنها يمكن أن تتحول الى مزاح ، أو غزل ، أو صفرة إعجاب ، أو الى حب افلاطوني ، الخ .

**وتوجيه الفرائز توجيهاً متناغماً منوط ،** على نحو مؤكد ، بتربية متقنة تفضي الى انسجام الراقات العليا للشخصية . فعلى هذا النحو إنما تنمو **الآنا** التي تقمع بعض الدوافع غير المقبولة . ومع ذلك ، فقد يحدث على الغالب أن التربية توجه الفرائز توجيهاً سيئاً . ويفضي الامر عندئذ الى شخصية مشوّهة وصارمة تنظر الى كل غريزة على انها « سيئة » ، وأنها جزء من مستودع هائل للأقذار . ونحن عندئذ أمام **الآنا العليا** .

ومع أن من المحتمل أن يكون عدد الفرائز كبيراً جداً ، فالمرء يفكر مباشرة بالغريزة الجنسية . ومن المؤكد أن الغريزة الجنسية هي أكثر الفرائز اتصافاً بأنها **مكبوتة** . والجنسية منشأ عدد كبير من ضروب العصاب . وهذه الضروب من العصاب تنعكس على الحياة الجنسية وعلى



شكل رقم ( ١٠ )

الحياة الاجتماعية ما دامت **العلاقة الجنسية علاقة اجتماعية** . واي اضطراب جنسي يحدث ، مع ذلك دائماً ، اضطراباً في الشخصية برمتها ، يتصف بأنه عرض من اعراضها الأخرى .

**والتصعيد هو ايضا آلية نفسية غالبية** . فقوامه ان يقود الطاقة الخام الى مستوى اجتماعي اكثر سمواً .

**ولنفرض رجلاً** ظلّ جزء من شخصيته متوقفاً في **المرحلة الشرجية** . والمرحلة الشرجية هي الفترة التي يكابد في اثنائها الطفل الصغير لذة الاحتفاظ ببرازه . وتلك هي حال كثير من الراشدين مع ذلك . وتتصف هذه اللذة ، لدى الطفل ، بأنها ملوثة بـ **الجنسية والعذوانية** تلويئاً قوياً . ذلك ان علينا ان نتذكر كون الشرج منطقة مهمة من المناطق الشبقية المنشأ . وهذا الرجل « سيحتفظ » ، في حياة الرشد ، ببعض الأشياء . فيمكنه ، على سبيل المثال ، ان يحتفظ بالمال ، بالكنوز . . . وان يصبح رجل مال ممتاز . ويمكن ان يصبح بخيلاً من الدرجة الاولى : فهو عندئذ « متعلقاً بالمال » كما كان « متعلقاً ببرازه » . إنه ، من الناحية الجسمية ، مصاب بالإمساك على وجه العموم .

**اضف الى ذلك** اننا نرى على الغالب ، في **اثناء العلاج التحليلي** ، مرضى متوقفين في المرحلة الشرجية ، **يحفظون** كلمات المحلل . . . لا بغية فهمها ، بل من اجل **نبدّها** ، بعد ثمانية ايام ، تفريفات عدوانية ضد هذا المحلل ذاته .

**والبراز والذهب** ، فضلاً عن ذلك ، مرتبطان من الناحية الرمزية . وعلينا ان نتذكر ان الطفل الصغير يمنح لبرازه إجلالاً كبيراً جداً . وهو ، إذ يتغوط ، **يخلق وينتج** شيئاً من الأشياء . وثمة من جهة أخرى عدد من الراشدين الذين يتصفون بأنهم فخورون لكونهم « يتغوطون » ( يصنعون ) برازاً « لا بد من ان يزن تماماً اكثر من كيلو » ، ويتباهون بذلك بين اصدقائهم .

والبراز ، وانا استشهد يونغ ، ينظر إليه المزاج الشعبي على انه « اثر تذكاري » ، « ذكرى » يتركها المرء وراءه . ويذكر يونغ كذلك بـ « هذا الرجل الذي يقوده شبح نحو كنز مخبأ ، والذي يضع برازاً ليعلم آخر مرة دربه . وكان لمثل هذه العلامة ، في العصور الغابرة ، أهمية تساوي أهمية براز الحيوانات بوصفه إشارة الى وجودها او الى الجهة التي اتجه اليها القطيع . وقد حلت لدى الناس ، فيما بعد ، اكوام من الحجارة محل هذه العلامات الخاصة » (١) .

## ٢ - غريزة اللذة

يبحث الانسان قبل كل شيء ، مثله مثل الحيوان ، عن لذته وهنائه وامنه . ولا يطلب غير ان يبعد الألم . وهذا هو المحرك رقم واحد لكل عضوية حية . ولكن تعقد الامور إنما يكون عندما يبحث الوجود الانساني عن لذته وامنه بفضل الألم . وقد ضربت ، وسأضرب ايضاً ، امثلة على ذلك خلال هذا الكتاب . ويستسلم كثير من الناس ، واليدان والرجلان في وثاق ، ليتجنبوا خطراً هو الحصر الناشئ من لوم ممكن ، او نقد الآخرين ، او من حكمهم ، الخ . فالشخص إذن يبحث عن لذته ، اي امته الداخلي ، بواسطة الألم ، اي بواسطة الخضوع والذل : وتلك آلية من آليات المازوخية .

ولنضرب مثالا آخر ، ولنفكر بعصاب . والعصاب بحث لاشعوري عن اللذة ، اي عن الامن . وسأتكلم على ذلك طويلاً ، ولكن ها هو مثال مبتدل : مثال طفل ينطوي على ذاته لكي يفلت من اللامن الناشئ لديه من الشجار بين ابويه . وهذا الانطواء عصاب مصغر . ولكنه يبحث عن امته ، اي عن لذته ، بهذا العصاب ، بهذا الانطواء على ذاته .

**وخلاصة القول** ، يمكن ان يتحرك دافع غريزي نحو الاشباع . ولكنه يمكن ايضاً ان يكون غير مشبع ، وان يتحول الى استياء والى انزعاج

---

(١) انظر مؤلف يونغ « استحضالات النفس ورموزها » ، ترجمة إيف لو لي ، جنيف ، مكتبة الجامعة .



سيكولوجي أو جسدي . وعلى أي الأحوال ، لا بد لنا من أن نعرف أن  
الاشباع واللذة أهمية كبيرة جدا بالنسبة الى الوجود الانساني . ولا بد  
كذلك من الرجوع الى الرضخ خلال السنة الاولى من حياتهم ، وملاحظة  
ان الطفل غير قادر ، إلا بالتدريج ، على أن يتحمل أن تكون حاجته الى  
اللذة غير مشبعة بصورة مباشرة .

### ٣ - هل ثمة غريزة للموت ؟

إحدى جرآت فرويد كانت استنتاجه وجود **غريزة للموت** . فإذا  
نظرنا الى حياة الناس خلال الأزمنة ، يصيبنا الدهول من نزعة التدمير  
لديهم . وهذه النزعة يمكن أن تتجلى إزاء الآخرين بالحروب والسادية  
والعدوانية ، الخ ، أو إزاء انفسهم بالدمار الذاتي والمزوخية والإذلال  
الذاتي وحطّ الانسان من شأن نفسه ، الخ . ولكي نفهم فرويد ، لا بد  
من أن نذكر **النزعة الى التكرار** . إنها نزعة يعاني الوجود الانساني  
بوساطتها حاجة الى تكرار التجارب السابقة ، أو الى العودة الى المراحل  
السابقة من نموه . وفي هذا المجال ، يفوس فرويد في الجراة . فهو يزعم  
أن هذه النزعة ملازمة للحياة العضوية .

فلتناول فكرة فرويد مرة ثانية : كل انسان كان غير حي قبل أن يكون  
حيا . وإذا كانت النزعة الى العودة نحو المراحل السابقة موجودة ، فلا بد  
لكل إنسان من أن يكون لديه دافع غريزي يقوده نحو الموت . هل هذا  
صحيح ؟ هل هو خطأ ؟ إن المسألة تظلّ مفتوحة .

وماذا يحدث في التحليل النفسي ؟ نلاحظ أن كل شخص يتم تحليله  
يعاني حاجات الى التدمير ضعيفة جدا . ولكن بالامكان الرد بما يلي :  
إن الشخص كان خاضعا ، عند بدء تحليله ، الى دوافع أولية للتدمير ،  
كالسادية والمزوخية ومشاعر الدونية والحاجات الى الإذلال ، الخ .  
ويصبح ، عندما ينهي تحليله ، **عدوانيا بصورة سوية** ، ويمكن أن يوطد  
شخصيته بصورة سوية . والحال أن توطيد الذات ودعم الحقوق إنما  
ينبغي أن يحدثنا على حساب الآخرين ! وتقع بالتالي مرة ثانية أيضا في  
غريزة للتدمير أكثر تمدنا ، ولكنها في الحقيقة تظلّ هي ذاتها ...

فهل ثمة إذن غريزة للموت أو لا وجود لغريزة الموت؟ إن السر مستمر .  
وتواتر الميل الى التدمير ، من جهة أخرى ، لا يبرهن على انه غريزة . فالهم  
قبل كل شيء أن الموجود الانساني يكتسب اخلاقاً شخصية سامية هي  
احترام الذات والآخرين ، معتمداً على شخصية منسجمة وموحدة .

## ٤ - صوب الجنين

لا شيء يدل على أن المقصود غريزة . وعلى أي حال ، إنها حاجة  
عميقة ، دائمة ولاشعورية ، تكمن في كل موجود إنساني .

ويمكن تسمية ذلك بـ « الحاجة الى العودة الى رحم الأم » .

ثمة كثير من الأنفس مشبعة بهذه الحاجة ، وهي تغزو كثيراً من  
الأعمال ، وتمنع كثيراً من الرجال والنساء من أن يصبحوا راشدين ، وذلك  
امر ينبغي التبصر به .

— انه امر غريب ، تقول السيدة س ذات الأربعين عاماً ، أن تولد كابنتي سريعاً عندما  
اندست في فراشي مع إنياء من الماء الحار جداً . وتبلغ غبطتي ذروتها عندما يكون المطر منهماً  
في الخارج والرعد يقصف .

## أ - الخروج الاول الى العالم

كان فرويد قد تكلم سابقاً على حصر الولادة . ومع ذلك ، منح أوتو  
إنك حصر المولود الجديد أبعاداً واسعة ومسوّغة .

فما المقصود؟ لتتصور طفلاً جنيئاً . إن له جملة عصبية ، وحياته  
النفسية اللاشعورية تتكون ببطء . وهو يسبح مفتبطاً في ماء الأمومة .  
والجنين سعيد بصورة لاشعورية . فعضويته في سلام . إنه لاشعوري ،  
مفتبط ، طاعم ، ساكن ، إذا صح القول .

ثم تأتي الولادة التي تتصف بأنها ضرب من « الاقتلاع » . فالطفل —  
وحياته النفسية — ينطردان طرداً عنيفاً من « رحم الأم » ، ومن اللاوعي  
السعيد الذي كانا يسبحان فيه . وذلك « قذف بالمنجنيق » ، قذف

بعنف ، نحو عالم مترامي الأطراف ، شديد الخطر ، صاحب ، مبهز ،  
بعد الراحة في اللاوعي . فينتهي سلام اللاوعي .

والحال ان حياة المولود الجديد النفسية اللاشعورية تسيطر عليها  
غريزة اللذة . فمن المنطقي إذن أن لا يطلب بصورة لاشعورية غير شيء  
واحد : العودة من حيث أتى .

ولكننا إذا وجدنا ذلك منطقياً ونحن نفكر بالوليد ، فإننا نفكر بذلك  
على نحو أقل بكثير عندما يكون الراشدون هم الذين تقصدهم . ومع  
ذلك ، فالحالة قائمة . ولنتصور هذه الحياة الراشدة ، المحفوفة بالمنافسات  
والأخطار والمتاعب والصعوبات . فمن الطبيعي تماماً أن يبحث الراشد  
بحثاً عميقاً عن السلام الخارجي والداخلي . إنه ليس هو الذي يطلب  
السلام ، بل هي عضويته .

وذلك يعني أن جميع الراشدين يمتلكون ، في أعماقهم ، رغبة حنينية  
في العودة الى رحم الأم .

ها هي بعض الأمثلة المأخوذة مصادفة :

— أحب النساء اللواتي أستطيع معهن أن « أترك نفسي على عفويتها » . وبوسعي عندئذ  
أن أضع رأسي في حضنهن ، وأن لا أفكر بشيء بعد .

— يتسلط عليّ الحنين الى الطفولة . ومع ذلك لم تكن طفولتي سعيدة قط .

— أشعر أنني أذوب عندما أسبح في مياه فاترة . وذلك كما لو أنه لم يكن لي شخصية  
قط ، وكما لو أنني كنت ادخل في أبدية ... ( فلنتذكر « مياه الأومة » التي يسبح فيها  
الجنين . والمريض يتكلم هنا على « المياه الفاترة » . ولنتعلم أيضاً أن الماء رمز المرأة واللاشعور .  
ويقول المريض : « وذلك كما لو أنني كنت ادخل في أبدية » ، أي في حالة لاشعورية ، سعيدة  
وأبدية ، حالة ما قبل الولادة ) .

— أشعر أنني مفتبظ عندما أسير في عريتي وهي في أقصى تدفئتها خلال طقس الشتاء  
البارد . وأحس أن لا شيء يوسعه أن ييلفني ... ( والعربة ترمز هنا الى العالم المسور  
والفلق على ذاته الذي يحس فيه المرء بأنه على ما يرام ، وأنه في مأمن من الاخطار الخارجية ) .  
يقول ملاح طائرة :

— لا أشعر بهذه الدرجة الكبرى من السعادة إلا عندما أدلف في الأفاق الكبرى الحمراء عند الفجر .

فهذا الرجل يدلف في فتحة مضيئة ترمز الى الأبدية واللاشعور و « رحم الأم » حيث يتمنى أن « يذوب » . إن طائرته محرك **يفوص** ، وينفذ ويثقب الأفاق . وهي رمز **عضو الذكر الذي** « يثقب » الأفاق . والأفاق فتحة « حمراء ! » واسعة ، أي المرأة ، والأم ، واللاشعور ، التي فيها يختفي ، أي يتجرد من شخصيته ويعود الى رحم الأم ، الى نيراننا اللاشعور . ويرتبط بذلك أيضا بعض صور **اكتشاف الأغوار** ( اكتشاف « أحشاء » الأرض — الأم ) أو بعض صور **الفوص تحت ماء البحر** .

**ولكن ثمة صور أخرى أكثر اتساعاً : الموت العذب على سبيل المثال .** ويمكن للمرء أن يكون لديه حنين إليه ، أو يبحث عنه ، بصورة إرادية ، بالغاز والكحول والمهدئات وبعض صور الفرق . وهذا الموت العذب ، إذا ما نظر إليه من هذه الزاوية ، عودة رمزية الى « بطن الأم » . وتتم العودة بعدوبة الى اللاشعور ، إذ يفلت المرء على هذا النحو من كل صراع خاص بالراشد . أضف الى هذا أن الموت عودة الى الأرض التي تتصف بأنها رمز قوي — منتشر انتشاراً كلياً — للمرأة والأم (١) .

ويمكن أن تتم كذلك عودة الى « رحم الأم » بأن تضع نفسك في حمى « حزن » **زمرة** ، حيث « يحيط » بك جميع أعضائها ، أو بأن تنتمي الى « **أمناء الكنيسة** » ، أو بأن تنجز مع الجماعة بعض **الطقوس** ، الخ .

وها هو مثال في اثناء التحليل . والمقصود رجل قال بعد صمت طويل جداً :

— للمرة الأولى ، تجاوزت هذا الصمت دون حصر ولا خوف ، وبهدوء كبير جداً . كنت أحس احساساً عميقاً — وهو أمر يصعب جداً وصفه — أنني ما كنت أتمرض الى أي خطر . وكنت أشعر أنني أنزل في شيء يتصف باللامبالاة والاتساع بحيث تتلاشى كل صعوبة ويصبح كل شيء بسيطاً ، وبحيث لم يعد للمرء وجود ولم يعد عليه أن يفكر ...

---

(١) انظر فصل « جواز سفر الى الانهابة » فقرة بعنوان « الأم ، رحم كبير » .

فالحاجة الى العودة الى « رحم الام » ليست إذن رؤية يصفها الفكر .  
والراشدون الذين يحتفظون بالحنين الى هذه « الجنة المفقودة » في اعماق  
اعماق لاشعورهم ، عديدون . . . وتلك حاجة إنسانية بعمق ، وحنينية ،  
ومؤلة ، ومتصفة في بعض الأحيان بالمرارة .

واذا نقلنا ذلك الى الحياة اليومية ، لاحظنا أن الراشدين يواجهون  
اختياراً في كل ثانية من حياتهم : الاختيار بين السهولة والصعوبة .  
**فالصعوبة** تعني أن يقوم الانسان بدوره دور الراشد، ويمضي الى الامام ،  
ويهجر رحم الام . **والسهولة** تعني العودة الى الوراء ، والبحث عن الحماية،  
والعودة في نهاية المطاف الى رحم الام .

## ب - الصدمة

الولادة « اقتلاع » . إنها تثير صدمة عنيفة لعضوية الوليد التي تتصف  
بأنها محرومة من الدفاع . فتحة :

— انفصال عن الام ، أي عن الفبطة اللاشعورية .

— تغير جذري في الحالة الفيزيولوجية .

إنها تجربة مؤلة وشاقة . **والموجود الانساني إنما يعرف حصره الاول  
العميق في لحظة هذا الاقتلاع** . وذلك ما يسميه رانك **الحصر الطفالي** .  
ويمكن بالتأكيد أن نمضي بعيداً جداً ، منطلقين من فكرة رانك . ومع  
ذلك ، فالطفولة ، بالنسبة الى رانك ، ضرورية لتجاوز هذه الصدمة ،  
صدمة الولادة . والمصابيون هم أولئك الذين لم ينجزوا هذه المهمة  
بنجاح . ومن المعلوم ، بالإضافة الى ذلك ، أن لجميع الأطفال استعداداً  
للحصر . ومصدر هذا الحصر ، بالنسبة الى رانك ، صدمة الولادة .

كنت قد قلت لكم إن بإمكاننا المضي بعيداً جداً في هذا المجال . ولم  
يحرم رانك نفسه من ذلك مصيباً . فما شأن بعض الافعال الجنسية منذئذ؟  
إنها في رأي رانك ، **الاستعاضة** الاقوى للاتحاد بالام ، فالحاجة للعودة

الى رحم الام تعني هنا الحاجة للعودة الى الاتحاد بالام . والرجل العصابي ، في هذه الحالة ، يتوحد بعضوه المذكر . ويقول رانك : « إن الإبلاج في الفتحة المهبلية للمرأة تعني ، بالنسبة الى الرجل ، عودة جزئية الى رحم الام ، عودة لا تصبح كاملة بفضل توحد الجزء بالكل فحسب ، توحد الرجل بعضوه المذكر ، بل تصبح طفالية على نحو كامل ايضاً » .

انظر مرة ثانية في حالة الطيار التي ذكرناها قبل قليل : إنه يتوحد بعضوه المذكر ( الطائرة ) ، الذي يلج بفضلها كلياً في رحم الام ( الآفاق الواسعة ) .

وانظر كذلك فقرتي « من جاك بقار البطون الى شعراء الملحمة » و « الأم » في الفصل التالي : جواز سفر الى اللانهاية .



## الفصل الثالث عشر

### جواز سفر إلى الانهيار

ها هي منطقة رائعة : **الاشعور الجمعي** . إنه بسيط بساطة الجميل ، ولكنه يصعب جدا تحديده بصورة عقلانية ... ذلك انه لاعقلاني . والمقصود ، على أي حال ، جزء من الاشعور يتصف بأنه غير مريض أبداً ، وبأنه مشحون بكمون طاقي يحرقه الاشعور الجمعي في نهاية التحليل النفسي .

#### ١ - حالة نوضحها بالمثال

أبسط الأمور ، في اعتقادي ، أن نبدأ بمثال .

— كنت أعبد أبي ، يقول السيد س الذي بلغ الثلاثين من عمره ، لأنه كان الذي لا يقهر بالنسبة لي . وعندما بلغت الثالثة عشرة ، شرع أبي يتناول الكحول لينسى أو لينسى نفسه ، لا أعلم . وبدأت منذ هذه اللحظة أحترقه ، بل أكرهه على وجه الخصوص . ومع ذلك ، كنت أرني له واجبه . واستسلم أبي للكتابة ، ولم يكن يخلق ذهنه ، ولا يفنسل إلا قليلا . وفي هذه الفترة ، بحثت عن الهرب من البيت . ووجدت أصدقاء ، ودخلت في زمرة . وكان مثالي أن يصارح بعضنا بعضا ، وأن لا يخفي أحدها عن الآخرين شيئا . وكنا نريد أن نطارد المراءاة لدينا ولدى الآخرين . وكنا اتقياء ، طاهري الدليل . وكان لنا شعار . والفكرة انت مني ، وقد استلمت بالإضافة الى ذلك زعامة الزمرة سريرا .



— كيف كان هذا الشعار ؟

— كان مثلث الشكل ، مع مدبة كانت ترمز الى موت جميع اصناف المرادة . فهل يمكن ان يكون الانسان غيبا ؟

— ما كان لون الشعار ؟

— اصفر فاقما . هل هذا امر مهم ؟

— ربما ...

— لم ادر ما حدث . انني ، انا الذي كنت طيبا ، اصبحت حقودا ازاء جميع اولئك الذين كانوا يذكرونني بابي : المتسكين والسكارى والمتسولين والقذرين واليهود ...

— ؟ ...

— نعم ، لانهم كانوا جميعا ، بالنسبة لي ، قذرين . وكان ذلك حققا . وكنا نريد ان نستأصل كل ذلك باسم مثالنا ، وان نصلح جميع هؤلاء الناس بالمحاضرات والمقالات وامور اخرى .

### فماذا نلاحظ ؟

إن والد السيد س إلهها « لا يتقهر » ، ورمزا للإشعاع والقوة والرجولة . كان الأب — الشمس . ثم ينحط هذا الأب : إنه لم يعد يطابق رمز الأب البطولي .

ويكف الأب ، في ذهن الابن ، عن أن يكون رائعا وقويا وذا رجولة . فيفقد اذن رمز هذه الرجولة : قضيه . ويصبح الأب باهتا ، ومخصيتا ، وفاقد الرجولة ، ووحيداً ، ومهملاً . ويبدو صراع وحصر لدى الابن ، ويتحوّل الحب المحطّم الى كره ، او بالحري الى يأس .

**إلهه كان قد مات ، ولا بد له إذن من أن يجد إلهاً آخر .**

كان لا بد إذن من : (١) أن يجد الابن مجدداً أباً رائعا ؛ (٢) أن يستأصل جميع الآباء « القذرين » و « المخصيتين » كآبيه ، مع احتمال إصلاح حالهم فيما بعد .

ويبحث الصبي بحثاً لاشعورياً عن أب آخر . فهو يدخل إذن في زمرة مثالية جميع أعضائها « متوحدون بوصفهم واحداً » ، وهدفها يبدو لهم رائعاً كأب مثالي ، كبطل . وماذا تمثل هذه الزمرة ؟ إنها ترمز الى الأب : الأب القوي ، والنزيه ، والنقي ، والرائع .

فثمة إله جديد ( الزمرة ) حل محل الإله القديم ( الأب المخصي والمستضعف ) . إن الشعار يتضمن مدية ترمز الى القضيب والرجولة والقوة الناقذة . فهذه المدية لاتمثل إذن « موت جميع ألوان المراءة » كما كان يعتقد الطفل . إن اللون أصفر ، لون الشمس ، هو الأب الجيد .

وينبذ الطفل عندئذ جميع أولئك الذين يرمزون ، بالنسبة له ، الى الأب المخصي والمستضعف : المتسكعين واليهود ، الخ . ولكنه ، لكي يفعل ذلك ، يستند الى أب آخر : الزمرة « النقية » و « النزيهة » ، وهو يريد أيضاً إصلاح الناس الذين ينبذهم ، أي يريد أن يصنع منهم آباء رائعين ...

فما الذي كان شعورياً في كل ذلك ؟ لا شيء . لا لأن السيد س كان صغيراً جداً فحسب ، وإنما أيضاً لأن غالبية دافعياته كان مصدرها اللاشعور الجمعي الذي يتصف بأنه منيع على شعوره .

وعلى هذا النحو كذلك إنما يبحث العديد من الزمر المعادية لليهود ، على سبيل المثال ، بحثاً لاشعورياً ، عن استئصال « الآباء » الذين فقدوا رجولتهم ، والمنعزلين و « القذرين » والمهملين . والسبب في ذلك أن الإنسان لا يحتمل ، بصورة لاشعورية ، أن يكون الأب غير مطابق للفكرة التي يصنعها لنفسه عنه . وتتكون هذه الزمر باسم الدولة ، أو باسم دين ، أو مثال ، أو عرق ، الخ . وترمز هذه الزمر الى الأب الجيد والمنتقم . كزمرة الطفل .

وهكذا تمضي الأعمال الإنسانية التي يعتقد الناس أنها مدروسة وحررة ، ولكنها توحى بها أجهزة قوية ، لامرئية ، تحد كل شيء من الألف الى الياء .

## اولا - ما هو اللاشعور الجمعي ؟

إنني اعتمد اعتماداً كلياً على أعمال يونغ الذي وضع على التحليل النفسي ، في أعقاب باحثين آخرين ، تاجاً متلألئاً ( شمسياً ! ) بدراساته حول اللاشعور الجمعي والأنماط الأولية والرموز .

وإيسر الأمور أن نستعيد كتابات يونغ وأفكاره كما هي . وسيكون هذا الأمر في الوقت نفسه تحية له . والحال أنني أود أن أعرض فكرة يونغ بصورة واضحة وضوح البدهية ، ما دام ذلك موجوداً ويتأكد كل يوم في التحليل النفسي وفي الحياة اليومية على حد سواء .

ولا بد ، بادئ ذي بدء ، من الإشارة إلى أن اللاشعور الجمعي مستودع لاشعوري ، تغذّيه الفرائز بصورة مباشرة ، كغريزة المحافظة على البقاء وغريزة التناسل ، الخ . وعمل اللاشعور الجمعي يمكن ، في بعض الشروط ، أن يحول انفساً بكاملها . وذلك ما يَرى في بعض الأحلام الكبرى أو في بعض ضروب « احتياز الشعور » خلال التحليل النفسي . يضاف إلى هذا أن اللاشعور الجمعي يتيح توحيد الشخصية بواسطة الرموز الكبرى .

## ١ - هل دماغ الوليد صفحة بيضاء ؟

تجربة المحللين النفسيين اليومية أبدت آراء يونغ الهائلة . « إنه لخطأ فادح ، يقول يونغ ، أن نفترض حياة الوليد النفسية صفحة بيضاء ، بمعنى أنها فارغة فراغاً مطلقاً » . فالطفل ، بحسب رأي يونغ دائماً ، يولد بدماغ حدّته الوراثة تحديداً مسبقاً . إن هذا الدماغ إذن دماغ يتميز مسبقاً بصفات خاصة . ولن يتصرف الوليد ، إذا حدث ظرف خارجي ، تصرفاً كيفياً ، بل سيتصرف - على عكس ما يمكن أن يعتقد الناس - باتجاه يتصف مسبقاً بأنه نوعي . ويمكن أن نبرهن ، يتابع يونغ حديثه ، على أن قابلياته هي فرائز موروثية ونماذج ذات تكوين مسبق .

ويستأنف يونغ قائلاً : « ويترتب على ذلك أن جميع هذه العوامل التي كانت أساسية لأجدادنا ، القريبين أو البعيدين ، هي أساسية لنا بسبب اندماجها بالجهاز العضوي الموروث » .

وذلك يعني إذن أن **الحياة النفسية** للوليد حياة متبنينة سلفاً . ويقول رجل آخر من رجال العلم ( ستيرنيمان ) : **حياة الوليد النفسية** شبيهة بلوحة حساسة كانت قد تعرّضت للضوء خلال أجيال سابقة » .

وتتصف وجهة النظر هذه بأنها ذات أهمية أساسية . ولكن الشمس ، على أي حال ، أنجزت مسيرتها دائماً . وتعاقب النهار والليل دائماً ، والمطر أخصب الأرض دائماً . وكان الناس دائماً ، في كل زمان وكل جيل ، حريصين على المحافظة على حياتهم ، وعلى الطعام ، وعلى الأمل في المطر ، وعلى انتظار شروق الشمس ، الخ . واللاشعور الجمعي هو المستودع الذي يحتوي على مجموع هذه الانفعالات اللاشعورية ، ولكنها الفاعلة ، والتي ترجع إلى عهود الأزمنة الإنسانية السحيقة ، وتحدد رموزاً قوية ، وضروباً من الإبداع الفني ، وديانات ، وحركات شعبية جبارة ، كما سنرى في الحال ...

## ٢ - الفصام واللاشعور الجمعي

الفصام<sup>(١)</sup> مرض نفسي خطير . والمصاب بالفصام « مصاب بالاغتراب » بصورة حقيقية ، بمعنى أنه يفقد اتصاله بالواقع فقداناً كلياً . فالمريض مفصول عن الواقعي . ويظلّ دون رد فعل موضوعي . وهو يعيش حلمه الداخلي بوصفه لامبالياً . ويزول لديه وعي الواقعي . وينمو في ذهن المريض عالم مهلوس . وقد تم في بعض الأحيان عرض أعمال فنية تصويرية لمصابين بالفصام . فالإثارة الفكرية لهؤلاء المرضى مدهشة على الغالب ، وإنجازاتهم رائعة . ويقال إنها العبقرية والشعر في حالتها النقية . ولكننا نلاحظ أيضاً أن طابع هذه الأعمال الفنية طابع رمزي .

---

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

وفي هذا المرض النفسي ، يزول الشعور وكأنه أرض غمرتها المياه .  
فالاشعور الجمعي يفيض بسيل من الرموز والصور والشعر الخام .  
ولنستشهد بيونغ : « وهكذا ، فان ما يبدو ، بفعل زوال وظيفة الواقعي  
في الفصام ، ليس ضرباً من التكثيف في الجنسية ، بل عالم خيالي يحمل  
سمات قديمة واضحة » .

فالاشعور الجمعي ، على هذا النحو إذن ، ضرب من « السجل »  
فوق الشخصي . إنه مجال لاشعوري ذو اعماق لا يمكن سبرها بصورة  
عملية . ولنقل إنه الكون الاشعوري الذي يضم كوكبات لامعة : الأنماط  
الأولية .

### ٣ - الاشعور الجمعي لا يصاب بالمرض ابداً

لماذا لا يتصف الاشعور الجمعي بأنه مريض ابداً ؟ لأنه ، بكل بساطة،  
غير شخصي . إنه لا ينتمي الى التجربة الفردية . فالكتب والعقد والكف  
غير موجودة ابداً في الاشعور الجمعي ، بل هي موجودة في الاشعور  
الشخصي .

والحقيقة ، ولنشرح فكرة يونغ ، أن بالإمكان موازنة الاشعور  
الجمعي بموجود عملاق عاش خلال ملايين السنين ، وظلّ منذ آلاف  
السنين دون أن يطرا عليه أي تغيير . فهو يستطيع أن يحيط بتاريخ  
الانسانية كله بنظرة خاطفة . ويتذكر جميع التجارب الانسانية العميقة ،  
وجميع المخاوف والانفعالات . إنه موجود موجود في كل فرد . ونحن  
نسبح . بلاشعورنا الشخصي وانا ، في هذا الاشعور الجمعي خلال  
حياة برمتها .

ولنتأمل قليلاً من جهة أخرى . ها هو رجل ذو عمر متوسط ، أربعين  
عاماً على سبيل المثال . لناخذ الآن خمسين رجلاً بلغوا الأربعين من  
عمرهم ، ولنضعهم جنباً الى جنب في الزمان . خمسون رجلاً من عمر  
أربعين عاماً يساوي ٢٠٠٠ عام . هذا العدد الزهيد ، هؤلاء الرجال

الخمسون ، يعيدنا الى ما قبل ولادة المسيح . وخلال هذه الفترة المؤلفة من تكرار الخمسين اربعين مرة ، ثمة عشرات الالوف من الحروب قد نشبت . وعلى سطح الأرض ، ثمة ملايين الملايين من الناس كانوا قد امتزج بعضهم بعض ، وعشرات ملايين الملايين من «الانابات» المختلفة قد اضطربت وعملت وتآلت وأبدعت وماتت . ولكن ، ثمة شيء كان مشتركاً وغير قابل للفساد في هذه الحركة الهائلة من الجزئيات الانسانية المتعاقبة : اللاشعور الجمعي ، الفاعل ، والمرئي ، والذي يولد ، انطلاقاً من مصدر واحد ، تكاثراً في الرموز والأعمال والانفعالات ... ولنقتصر على أن نأخذ نمطاً أولياً ثابتاً واحداً : النمط الأولي للمنفذ الذي ولد رموزاً قوية تتغير بحسب العصور : المسيح ، والصحون الطائرة ، والراعي ، والمخلص . وابطال الغرب الأمريكي ، والحمل ، وهتلر ، الخ .

وهكذا ظلت الحياة العميقة ، منذ الأزمة الانسانية السحيقة ، هي ذاتها على وجه الدقة ، بصورة مستقلة عن العرق والدين والدكاء .

فاللاشعور الجمعي يتكون إذن ، عبر الزمن ، من صور نفسية مودعة وكأنها راسب حي . ولن أتكلم عليه إلا على سبيل الدراسة أو الفضول العلمي لو أن « كوكبات » اللاشعور الجمعي لا تفيد في إعادة بناء الوجود الانساني وتجعله ، في الوقت نفسه ، يتصرف ويفكر بالرغم منه تصرفاً وتفكيراً لا يخضعان الى أي عقلانية ولا الى أي ارادة . إنه إذن باهر ... وعملي في وقت واحد .

ويمكن ان نلخص قائلين إن اللاشعور الجمعي لاشعور سام . إنه إرث نفسي تشارك فيه الانسانية كلها ، دون تمييز في الثقافة أو العرق . ويتجلى هذا اللاشعور الجمعي من خلال الانماط الأولية والرموز . وهكذا يجعلنا اللاشعور الجمعي نمس أعماق أعماق الانسان ، التي لم تتغير منذ الأبد .

## ٤ - ماذا نلاحظ في التحليل النفسي ؟

عندما يتقدم تحليل فردي تقدماً كافياً ، وعندما يتم تنظيف اللاشعور الشخصي ، وجرفته ، ونزع قشرته ، وتطهيره ، وتحريره من ضروب توقفه ، وعقده المرضية ، وصنوف حصره وكفته ، وانكفائه ، الخ ،

نتغل الى منطقة جديدة من الاشعور ، واسعة ورائعة . هذه المنطقة هي الاشعور الجمعي وأنماطه الاولى ، مصادر طاقات مذهلة في بعض الأحيان .

وهذا الاشعور شبيه بأرض تحتوي ، على عمق مائة متر ، طبقة من البترول ظلت ثابتة منذ آلاف السنين . ويصبح المريض عندئذ ، في أثناء التحليل ، وكأنه مكتشف اغوار يفرق في النور ، بعد أن لهث في متاهات لاشعوره الشخصي المظلمة ، نور صالة واسعة تتراكم فيها الثروات التي تتصف دائماً بأنها فاعلة ، ثروات الناس الذين سبقونا خلال آلاف السنين .

**ثمة إذن بعض الشروط الضرورية من أجل بلوغ الاشعور الجمعي .**

فلماذا ؟

**الاشعور الشخصي** لاشعور فردي . إنه سليم أو مريض . ولكنه ، على أي الأحوال ، يضم جملة تجاربنا الشخصية . ولنفترض أنه يحتوي على « عقدة » من العقدة . ومن المؤكد أن هذه العقدة ذات طابع سلبي . وأعني بذلك أن هذه العقدة تحول دون العمل الحر . إنها تجمد الطاقة بدلاً من تحريرها . وما دام الشخص يتعثر بهذه العقدة ، فمن المستحيل ، بالنسبة إليه أن ينزل في الجزء المقابل من الاشعور الجمعي .

**ولنضرب مثالا .** لنفرض أن رجلاً ظل متعلقاً بأبيه وبالخوف من أبيه ، والخوف من الأب بصورة عامة ، والخوف من السلطة ، الخ . فللاب إذن ، في لاشعوره خاصة سلبية ، شديدة الخطر ، مثيرة للحصر . ويفهم المرء مباشرة أنه سيصبح متعلداً على هذا الرجل أن يمس النمط **الاولي للآب** ، الموجود في لاشعوره الجمعي ، نمطاً إيجابياً ، منيراً ، مصنوعاً من الثقة الكلية إزاء الحياة . إنه يسبب له الصداع نور مصباح كهربائي ، وهو ، لهذا السبب ، سيكون عاجزاً عن الاستمتاع بالشمس .

**فهل الاشعور الجمعي إذن وقف على « نخبة » ؟ على الإطلاق ، ولكنه** منيع إلا على أولئك الذين أصبحوا واعين لذواتهم بصورة كافية ومتحررين من عقدهم المرضية . ومن الواضح إذن أن التصدي لاشعور الجمعي لا يتم إلا في نهاية التحليل النفسي .

بل من المتعذر أن يحس المريض ، خلال الجزء الأكبر من التحليل النفسي ، باللاشعور الجمعي ما دام الطريق مسدوداً بشبكة من الأسلاك المشائكة التي هي عقد اللاشعور الشخصي . كذلك ليس بوسعنا أن نجعل نغز الحديقة ينبعث ما دمنا مشغولين بإجلاء الحجارة الملتصقة بالأرض .

ومع ذلك ، فإن اللاشعور الجمعي يؤثر على أي حال . وينتج أعمالاً تتلون تبعاً لضروب الكتب والعقد . ويسير الفرد دون أن يعلم لماذا . ويرى العالم الخارجي وفق إسقاطاته الداخلية . والنتيجة ، على الغالب ، أن رؤيته تشمل أوهاماً واسعة ...

## ثانياً - الأنماط الأولية

النمط الأولي كلمة رائعة ! إنه على مستوى ما يمثله . والأنماط الأولية هي كوكبات نجوم اللاشعور الجمعي ، كوكبات مشعة ، فاعلة ، تتفجر بالطاقة . فلنفكر على سبيل المثال بـ **النمط الأولي للاله** ، المفروض في لاشعور الناس الجمعي خلال الأزمنة جميعها ، ولنلاحظ قوته خلال الحركات الإنسانية الواسعة ، الفنية والحربية والدينية والأخلاقية ، الخ ، التي أثارها . وانطلاقاً من هذا النمط الأولي الذي يتصف بصورة أبدية أنه إنساني . تم مزج الملايين الملايين من الناس . وإذا « أسقطنا » هذا النمط الأولي على الشمس ، إله الشمس الذي ينير ، ويخصب ، ويشع ، ويهدي كأب مجيد ، لاحظنا أنه أثار كذلك حركات كبيرة دينية وفنية وغيرهما خلال جميع العصور .

فالنمط الأولي إذن ضرب من الانفعال المكثف ، يعيش في اللاشعور الجمعي وكأنه كوكبة تجمع نجومها في السماء . والنمط الأولي يدفع الناس نحو الأفكار ، والأعمال ، والانجازات ، والآراء المسبقة ، والحركات الجماهيرية . والنمط الأولي شبيه بالرياح اللامرئية التي تعصف بأسطول من القوارب الشرعية .

فمن الضروري إذن للإنسان ( ١ ) أن يحتاز الشعور بأهمية الأنماط



الأولية ؛ ٢) أن يحاول الإحساس بها في ذاته ؛ ٣) أن يدمجها بصورة شعورية في شخصيته ، الأمر الذي لا يمكن أن يحدث إلا في أثناء التحليل .  
ولنكرّر أن اللاشعور الجمعي بعيد عن العقْد والكبت والعصاب .  
وهذه المنطقة اللاشعورية ليست ملوّنة أبداً ؛ وهي تبقى على الدوام بعيدة عن التجربة الفردية .

وليس النمط الأولي ضرباً من « التجريد » أو من « الرأي الفكري » .  
إنه واقع كامن . إنه يفتّح الشعور ، ويحدّد أعمالاً في ظل بعض الشروط .  
والأنماط الأولية تسكن في موجودات من لحم ودم ، موجودات هي المؤتمنات الحية عليها .

## ١ - كيف نحدّد نمطاً أولياً ؟

الأنماط الأولية التي تنير اللاشعور الجمعي لخصاف هي الأنماط الأولية الخاصة بكم عينها . والأنماط الأولية لعالم فرنسي مطابقة ، من الناحية العملية ، لتلك التي لفرد من سكان أستراليا الأصليين .

فاللاشعور الجمعي يتصف بأنه « كوني » ، ما دام يشمل التجربة الإنسانية الأبدية . والأنماط الأولية تتصف أيضاً بأنها كونية ما دامت تصدر عنه .

وكل عالم من علماء نفس الأعماق يصادف النمط الأولي في كل منعطف من منعطفات النفس الإنسانية . وهو يصادفه في التاريخ والأفكار وموجيات الناس ، وفي الأعماق اليومية . وتحدّد الأنماط الأولية أعمال الناس ، ومسيرات الجماهير ، وإنتاج الفنانين المشاهير ، وأسس الديانات ، والمقدّس ، والأساطير ، والحب والحياة في كل يوم من الأيام .

قلت إن اللاشعور الجمعي يحتوي على الأنماط الأولية كما تحتوي الأرض على النفط . والنمط الأولي ، شأنه شأن النفط ، ثروة « بالقوة » . فلا بد إذن من إيجاد المسبر والمواد والوسائل لتحويله إلى طاقة تصلح للاستعمال .

والحقيقة ان النمط الاولى **فصل منعكس لاشعوري** . فاذا لمست بإصبعك نمطا أوليا ( إذا جاز لي أن أقول ذلك ) ، انبعثت الرموز . وسنرى أهمية ذلك في العلاج النفسي .

## ٢ - عالم من الأخلية

يسود في النفس الانسانية قانون لا يرحم : « كل ما يطفو في اللاشعور يُحتمل أن يتم إسقاطه » . وبعبارة أخرى : « كل ما يجوس في اللاشعور ، وكل ما لا يتصف بأنه « مندمج » في الشخصية ، يُحتمل أن يتم إسقاطه في الخارج » . فماذا يحدث في هذه الحالة ؟ لقد رأينا آلية الاسقاط ( فصل ذكريات الطفولة ) التي يرى المرء وفقها العالم الخارجى بحسب عواطفه اللاشعورية الخاصة ، السوية او المرضية .

كذلك فان الانماط الأولية يمكن أن يتم إسقاطها . ومن المؤكد إذن ان المرء يرى العالم الخارجى في هذه اللحظة وفق النمط الاولى اللاشعوري . ويمكن لنا ، على هذا النحو ، أن نمضي الى ما هو أبعد بكثير . . . ولا يحرم الانسان نفسه ، بصورة لاشعورية على الغالب ، من المضي بعيداً . فنعيش عندئذ في عالم الاخيلة الذي تكلمت عليه فيما سبق .

ها هي تخطيطية مثال ضربته قبلاً :

النمط الاولى تبلور نفسى لاشعوري . فهو يولد مفعولات لاشعورية . على صورة رموز . إنه شبيه بكوكب ، لامرئى في قمر السماء السوداء ، يقذف جزئيات تصبح مشعة عندما تلامس الهواء . فالرمز إذن هو الرداء المرئى الذي يتدثره النمط الاولى .

## ٣ - مثال : النمط الاولى للاله<sup>(١)</sup>

من المحتمل أن تكون فكرة الاله أقدم فكرة في تاريخ الناس . وقد

---

(١) ان كون فكرة الاله نمطا أوليا لا يكون على الإطلاق برهانا على وجود الله او عدمه . انظر المقدمة .

انفرست في اللاشعور انطلاقاً من انفعالات عميقة تدور حول قوة لامرئية،  
وقدرة خلاقة او مدمرة ، وطاقات ابدية ، الخ .

والنمط الاولى لـ **الاله** مرتبط بالنمط الاولى لـ **الاب** ارتباطاً وثيقاً .  
وهذا النمط الاخير متبلور كذلك حول انفعالات قوية يستشعرها الانسان  
منذ الطفولة امام **موجود قوي** وبعطولي ومجيد، يقود وينير ويمهد السبيل،  
امام موجود يتصف هذا الانسان بأنه « ابنه » الذي يستحق العذاب  
والصفح والاستحسان والحب ، الخ .

اي النمطين الاولين هو الاقدم والاعمق ؟ هل هو النمط الاولى  
للاله ام النمط الاولى للاب ؟ لا يستطيع احد ان يفصل في ذلك . فالرموز  
المنبعثة منهما مرتبطة ارتباطاً لا ينفصل . إنها تبرز عبر التاريخ الانساني  
منذ رئيس القبيلة الى **الاب الشديد العقاب** في العهد القديم ، او الى  
**الاب الرحيم** في العهد الجديد ( ولنبق هنا في التاريخ الغربي وحده ) .

### بعض الرموز لنمطي الاله والاب الاولين

إنه امر بسيط جداً في البدء اذا فكر المرء بـ « ابانا الذي في السموات » .  
لماذا في « السموات » ؟ لماذا « في الاعلى » ؟ لماذا لا يكون في مكان آخر ،  
تحت ، الى اليسار او اليمين ؟ لان نظرات الناس غاصت دائماً في هوة  
تسبب الدوار ، هوة سماء ليست ذات حدود ( « ابدية » ) ، سماء يبدو  
انها موجودة « في الاعلى » وفق ابعادنا الخاصة . فكان من المنطقي إذن ان  
نسقط فيها فكرة قوة جبارة لامرئية . وما حزم منها أي شعب : كل  
الناس وضعوا الاله في قاع « السماء » وزودوه بالمعارف والسلطات المطلقة:  
التعذيب والخلق والقتل والقصاص والنبد في جهنم الواقعة « في الاسفل »  
بالطبع ، كالكهف المظلم الذي يحبس فيه الطفل الخبيث . بل إن غالبية  
شعوب العالم منحتة اسلحة واحدة : الصاعقة والرعد والريح ، الخ .

ويمكن للمرء ان يحصي ، من جهة اخرى ، ملايين الراشدين الذين  
يخشون بصورة لاشعورية ان تصيبهم الصاعقة عقاباً على « خطايا » هم ،  
او الذين يصيحون امام كارثة ارضية : « **إنه العذاب الذي يأتي من الاعلى** » .

ونحن إذن ، هنا أيضا ، أمام النمط الأولي للأب الذي « يرى كل شيء » و « يعلم كل شيء » ( إن بابا هو الذي قال ذلك ، إنها الحقيقة الخالصة إذن ) ، ويعاقب الطفل الذي يخالف القانون .

وانطلاقاً من هذا النمط الأولي للاله ( وللأب ) ، نجد كثيراً من الرموز التي تسم الإنسانية بصورة عامة وحياة كل فرد بصورة خاصة . وليس بوسعنا على وجه التأكيد أن نستعرض استعراضاً سريعاً غير بعض منها على سبيل المثال .

### أول الرموز التي تتجلى هو الشمس (١) :

والشمس رمز رائع للاله والأب . وسنرى ذلك فيما بعد . والشمس « عين » ترى كل شيء ، و « منارة » تهدي وتنظمّن بعد الليل الشديد الخطر ، وتخصب الأرض - الأم ، وتهب الوفرة والأمن ، وتنير الطريق . وتنظر بعض الشعوب الى أشعة الشمس على أنها وجود صلب ، ينفذ في الأرض ( الأرض - الأم ) كما ينفذ القضيب في المرأة لكي يلقحها . وغير ضروري بالتأكيد أن يبحث المرء بعيداً ليجد رموزاً يومية مشتقة من الشمس : القلوب التي تتوهج بالإيمان ، وشعلة الحب ، والشعلة الأبدية للذكرى ؛ وثمة بعض الحيوانات على سبيل المثال : ديك بطرس الرسول ، الذي يتصف بأنه حيوان « شمسي » ، لا لأنه يلقح ويصبح عندما تشرق الشمس فحسب ، بل لأن لعرفه كذلك صورة الشمس المشعة ؛ والثور ، الملقح القوي ، حيوان « شمسي » محاط بالإجلال في جميع العصور ، ومقترب بالسماء والصاعقة وموئلته ؛ وبعض الرجال العظام ، ذوي المنزلة « العالية » والأخلاقية « العالية » ، « شمس » حقيقية ، النخ .

فلنفكر بالملوك . فهم لا دلالة كبيرة لهم في لباسهم المدني . ولكنهم ما أن يضعوا التاج على رؤوسهم ويستولوا على العرش حتى يتغير كل شيء . ثمة انفعال يبدو . وشعوب تبدأ سيرها . لماذا ؟ إن التاج الملكي ،

---

(١) انظر كذلك ، فيما يلي ، النمط الأولي للبطل .

اللامع والمشح ، تاج « شمسي » . إنه يجسد النمط الأولي للأب وللاله .  
يضاف الى هذا ان **خلافة العرش** تسجل تغييراً في المستوى . فهي تتيح  
الصعود نحو الأعلى . وهكذا ينتقل الانسان من المادي الى الروحي .  
إنه يصبح **ملكاً** ، أب الشعب ، ولكنه **منفصل** عنه كالاله . وينسحب الملك ،  
بفضل خلافة العرش ، الى مستوى أعلى ، ويصبح منيعاً كالاله .

## ٤ - من العظمة الى اليومي

من الواضح ان نمطاً اولياً واحداً يمكن ان يولد رموزاً عديدة . فلنطبق  
حالياً في النمط الأولي للاله . ويمكن للرمز ان « يتلون » تبعاً لاتجاهات  
الفرد الشعورية واللاشعورية .

واليكم ، على سبيل المثال ، بعض الرموز الشائعة التي تركز على  
النمطين الأوليين للاله والأب .

— ينظر الى الطبيب او المحلل النفسي غالباً ، خلال مرحلة التحويل ،  
على انهما ساحران ، موجودان قويان قوة مطلقة ، شيطانان شديداً الخطر ،  
إنسانان « يقودان المرء رغم انفه » ، و « سنيان » الشخصية او يدمرانها .  
وذلك يتم حتى ولو ان المريض يدافع عن نفسه دفاعاً عقلانياً ضد مثل  
هذه المشاعر . فنحن إذن بصدد نمط أولي تم **إسقاطه على الاختصاصي**  
المرصود لاتقاده .

— يرغب المريض ، خلال التحويل ، رغبة لاشعورية ، في أن لا يصاب  
المحلل بالتعب ابداً ولا بالمرض ، وأن يكون جاهزاً من اجله على سبيل  
الحصر ، طاهراً طهارة مطلقة ، لا دتس يمسّه ولا ضعف ، كالاله ...

— والنمط الأولي للاله ، وكذلك للأب ، ترمز اليه السلطة بلباسها  
**الرسمي** ، كرجال الشرطة والمستخدمين الرسميين « المنسحين » خلف  
كونهم المغفل ، و « المنعزلين » عن العامة ؛ ويرمز انيه شخص مدير عام ،  
منيع وبعيد ، شريطة ان يبقى كذلك . وجميع هؤلاء الناس حائزون على  
سلطة العقاب والغفران والرحمة او النبذ ... ولكن ، ويل لنغوذ رجل

الشرطة الذي يخلع بزته الرسمية ! إنه يكفّ عندئذ عن أن يكون « مغفلاً » و « منفصلاً » ، ويتدحرج من عليائه في زمن أقل من الزمن الذي يلزمنا لقول ذلك .

— ويرمز مديرو السجون الى الاب ، على نحو مؤكد ، بالنسبة لكثير من السجناء .

— وترمز الارهاط من الرجال غالباً الى نمطي الاله والاب ، النمطين الاوليين . ولقد راينا مثلاً مشخفاً في بداية هذا الفصل . وترمز اليهما ، على وجه الخصوص ، عندما يكون المقصود رهطاً يتوحد في مثال مجيد كالاله والاب : الجيوش ، والتجمعات السياسية والثورية ، والطوائف الدينية ، الخ .

— بعض مظاهر البغاء تستند الى هذين النمطين الاوليين . فالبغي طفالية على الغالب ، وظماى من الناحية الوجدانية ، وذلك لا علاقة له بالجنسية . ويصبح الحامي ، بالنسبة لها ، « أباً » حائزاً على جميع السلطات ، تتعلق به البغي تعلقاً عميقاً . والحامي كالأب العادل ، يضربها ، وإذن يغفر لها بالتالي ، ويمكن أن يمنحها الافضلية في « الاسرة » أي البغايا الاخريات ، وأن ينبذها ، ويكافئها عندما تسلم ما حصلت عليه من مال كما تسلمته « بنتٌ عاقلة » . إنه يحميها ، ويجعلها آمنة ، الخ . كذلك فان البغي يمكن أن ترمز الى تلك الام المواسية : انظر في هذا الفصل فقرة « الام ، رحم كبير ... » .

— وقس على ذلك كل ما يدور حول الطاقة والقوة والإشعاع والمناعة والإثمية والصفح والقصاص ، الخ .

ذلك كله لن يكون غير اهتمام علمي وتاريخي لو لم تكن الانماط الاولى تحدد الأعمال الانسانية . فهل تعتقدون أن عدداً من الرجال كانوا سيثيرون حركة من اكبر الحركات في التاريخ لو لم يكن ثمة انماط الاب والمنقذ والبطل بالنسبة لهؤلاء الرجال ؟

## ٥ - من نمط أولي الى نمط أولي آخر

يمكن لنمط أولي أن « يتشظى » الى أنماط أولية أخرى ، شأنه في ذلك شأن النجم الذي ينقسم الى عدة اجزاء .

والنمط الأولي للاله يمكن ، على سبيل المثال ، أن يصطدم بالنمط الأولي للإنسية . فإذا أحس الناس بالاثم شعروا بالحاجة الى « الففران » و « الإنقاذ » . وعندئذ يكون لدينا نمط أولي جديد : النمط الأولي للمنقذ .

**ويمكن للنمط الأولي للمنقذ أن يتجسد رمزياً على أنحاء شتى الى حد كبير ، بحسب العصور والأفراد . فنحن نجده على سبيل المثال في هذه الكلمات الخاصة بأحد المرضى :**

— أحلم على الغالب بأن رجلاً صالحاً جداً يقودني نحو عالم أفضل . .  
ويلاحظ المرء في هذه الكلمات : (١) — حاجة هذا المريض الى الإنقاذ من وضعه الانساني البائس ، ومن « خطاياه » ، ومن نزاعاته الداخلية .  
(٢) — كونه يمضي نحو عالم أفضل ، نحو الأرض الموعودة عند المسيح ، ونحو النظام الجديد عند هتلر ، ونحو العصر الذهبي لدى بعض الطوائف الدينية ، الخ .

وكثير من المحامين عن حقوق الشعب ، من جهة أخرى ، يشيرون بصورة لاشعورية هذا النمط الأولي ، نمط المنقذ ، واعدن . . . ب أرض الميعاد . وثمة شعوب برمتها تتبع هؤلاء المحامين لبواعث عقلانية بادية ذي بدء : الحصول على أفضل شروط في الحياة . وهذا أمر طبيعي . ولكن الباعث اللاعقلاني هو المنتصر دائماً قبل كل شيء . والحظ الأكبر حليف محامي الشعب الذي يرمز بالنسبة لمن يخاطبهم ، من الناحية الانفعالية ، رمزاً على نحو أفضل ، الى ذلك النمط الأولي للمنقذ تبعاً للظروف الراهنة . وسأتكلم على ذلك فيما بعد .

وثمة ضرب من « التراتب » على أي حال في الأنماط الأولية ، شأنها على وجه الدقة ، كما في السماء ، شأن بعض المجموعات من النجوم التي تسطع أكثر من غيرها . ولهذا السبب ، سنبقى في بعض الأمثلة الكبيرة .

## ثالثا - سخرية المأساة

ولنعد الى الوراء في الزمن .

كان الناس ( الناس القروء ؟ ) قد خرجوا ببطء من اللاوعي . وكان نمة دخان يغزو دماغهم ، وبدأة من الوعي تنوهج كأنها شعلة شمعة .

وكان الناس ( أي عمر عقلي كان لهم ؟ سنتين ؟ ثلاث سنوات ؟ ) قد بدؤوا يفهمون ، وأصبحوا « على وعي بأنهم واعون » ، و « أدركوا أنهم يدركون » .

إنها سخرية المأساة في الواقع . فليس عسيراً أن نضع انفسنا مكانهم ما دمنا لا نزال الى حد بعيد في مكانهم .

كان عمرهم العقلي سنتين او ثلاث سنوات ، بالرغم من قواهم الجسدية . وكان لهم ، بوصفهم اقارب ، رؤساء قبائل اولو قوة ، قوة كلية ، شأنهم شأن مجتمعات الفقمات . وكانوا قد خرجوا من ليل اللاوعي الحيواني . ولكن هذا الليل كان بالنسبة لهم ليلاً عذباً وباعثاً على الطمأنينة كالليل الاشعوري للجنين . وكانوا قد طرحوا ، كالطفل عند الولادة ، خارج اللاوعي وخارج راحته .

وكان يبدو قليل من الوعي كجزيرة صغيرة غير معينة في اقيانوس من الاخطار . الم تكونوا انتم عرضة للحصر الشديد امام حرارة الشمس ، حرارة مرعبة او مستحبة ، والقمر الاخضر المزرق ، والعواصف ، والارض التي تنتج الشمار كالمرأة ، والمياه العميقة ، والغامضة ، والقادرة على أن تنخصب الارض ، وتهب الوفرة ، ولكنها القادرة أيضاً على ابتلاع كل شيء كما الاشعور يبتلع الانا ؟

وعندئذ ، نظروا ، وهم مصابون بالحصر ومبهورون ، الى حيث كانوا يستطيعون أن يروا . ف « في الأعلى » ، كانت الانهائية ، حيث لم يكن ممكناً أن يستوي على العرش غير شخصية لامتناهية . وبحثوا في هذا



الاتجاه عن المسؤول عما كان يحدث لهم . وبحثوا في هذا الاتجاه عن الهادي ، وعن «رئيس القبيلة» العظيم الذي كان يسوس الشمس والمطر ، والرعد والموت ، والحياة والليل ، والذي كان لا بد من نيل الخطوة لديه . ذلك ما فعلوا . وهذا هو ما لا نزال نفعل .

وكانت الانماط الاولى من قبل تولد عبر الانفعالات التي يسببها « ما يأتي من الأعلى » : رئيس السماء ، والقصاص ، والصاعقة ، والشمس ، والحياة ، والقمر ، والموت ، والمطر ، والرعد ، و « ما يأتي من الأسفل » : أعماق المياه السوداء ، والخطر ، وأحشاء الأرض ، والأماكن المظلمة حيث يذهب أولئك الذين ينعذبون . . . فكيف كان باستطاعة الناس أن لا يحسوا بأنهم آمنون لكونهم موجودين أمام هذا العرض الهائل من القوى الطبيعية ؟

## ١ - الناس المحطمون

ولكن ثمة ما هو أكثر . لقد كان الناس من قبل في حالة اللا شعور كلياً . كانوا كالحيوانات والطبيعة . ثم إنهم فجأة ليسوا بالطبيعة والحيوانات والنباتات . وكانوا قد أصبحوا مختلفين ، منفصلين عن هذه الطبيعة بفعل بدءاً من الوعي لديهم . وكانوا قد أصبحوا مقسمين . والحق أن ذلك كان لا بد من أن يكون مأساة مخيفة بالنسبة إلى حياتهم النفسية ، وصدمة كبيرة كالصدمة التي يحس بها الطفل الذي يخرج من بطن أمه ، ويحتفظ طيلة حياته بالحنين اللا شعوري للعودة إليه .

وكان ذلك ضرباً من الكابوس بالنسبة لهؤلاء الناس الذين لم تكن أناهم غير رسم أولي ، والذين كانت أناهم تطفو ، وكأنها برميل مثقوب ، على مياه بحر شديد الخطر . ولكنهم كان لا بد لهم من البدء بالتوجه والاختيار والتقرير والقيادة والطاعة وهم يعلمون بصورة مبهمه أنهم كانوا يفعلون ذلك .

وهؤلاء الناس . إياهم . لم يعد الواحد منهم كلية لاشعورية . فكانوا

قد انقسموا الى شطرين : قليل من العقل الواعي من جهة ، ولا شعور هائل من جهة اخرى .

وكان لا بد لهذا التاريخ ان يستمر حتى ايماننا هذه ، وربما استمر الى ما بعد ايماننا بزمان طويل .

## ٢ - الانسان الآثم (١)

انه لامر واقع ان ثمة إثمية خفية ، مبهمة ، معذبة ، تستوطن الانسان منذ الابد ، شأنها في ذلك شأن الحصر . ويمكن النظر الى ان ثمة نمطا اوليا للإثمية . والمقصود عاطفة ثقيلة ومبهمة ، عاطفة الإثم « بسبب شيء من الأشياء » . وحسب المرء ان يدرس الديانات في كل العصور ليفهم ذلك .

ولكنه آثم لأي سبب ؟ اانه يفكر ؟ اسبب كونه واعيا بعض الوعي ؟ ربما ...

يتيه الانسان في البحث عن اسباب هذه الإثمية الانسانية والمعقدة . من يقول « إنه آثم » يقول : إنه خالف القانون . ولكن اي قانون ؟ ومن سن القانون ؟

وفي كثير من القصص الخرافية ، نرى إنسانا يرتكب خطيئة صغيرة . إنها بسيطة جدا في الحقيقة : يرتكب خطأ صغيرا ، او ياكل ثمرة مبتذلة . ومنذئذ ، تنصب عليه لعنة مرعبة . فلنفكر بـ « آدم » . إنه ابتلع تفاحة . وعصى كما يعصي الطفل امام ابيه . ولكن علينا ان لا ننسى ان آدم كان طفلا بالنظر الى العمر العقلي المنخفض الذي كان لا بد انه متصف

---

(١) ساعد في فصل « الانسان الآثم والانسان المصاب بالحصر » الى عواطف الإثمية الموجودة دائما في العصاب . انها عواطف لاشعورية على الغالب وتولد أعراسا كالحصر المنتشر ، والمخاوف ، ومشاعر الدونية ، والخجل ، والسلوك المازوخي ، والخضوع ، والعذوانية ، والحاجة الى الظهور بمظهر الكامل ، الخ . ولكنني لن أتكلم هنا الا على الإثمية العادية التي تستقر في اعق عمق كل فرد .

به . لقد ارتكب آدم خطأ طفيفاً . وخالف قانون اله قوي كل القوة ، جبار كرئيس قبيلة يتصف الاله بأنه إسقاطه . ومنذئذ ، ها هو جزء برمته من الانسانية يغوص في رعب الخطيئة وجهنم ، خلال قرون طويلة ، وفي اللغات الأكثر سواداً . فعلى النساء ان « يلدن في الألم » ، وتبتعد الجنة ، وتزخر الانسانية بذوي الوسواس ، والمذعورين من جهنم ، والمصابين بالحصر والعصاب ، وبأصحاب الخطايا ... وثمة ، في إيماننا هذه ، شعوب برمتها لا تأكل اي لحم في يوم معين من الاسبوع ، لا بفعل نظام رضىته لنفسها بحرية ، بل بفعل حصر عقوبة تأتي « من الأعلى » .

وكما يرى المرء ، لا يزال ثمة مئات الملايين من أمثال آدم .

والحال أننا نجد في كثير من الأساطير أوادم ( جمع آدم ) يأكلون ثمرة . فلماذا ؟ ولماذا مثل هذا الصدى عبر العصور ؟

ربما كان اله الناس الأوائل ضرباً من إسقاط رئيس القبيلة ، القوي ، والحائز على جميع سلطات الحياة والموت ، وذي القوانين المطلقة .

ولكن ثمة ما هو أكثر : لتفكر بقانون من قوانين اللاشعور : **العدوانية تولد الإنتمية ألياً** ، وبالأولى إذا كانت العدوانية مكبوتة كسمكة في الأعماق اللاشعورية . وماذا يعني أن يكون الانسان عدوانياً ؟ ذلك يعني الرغبة في استبعاد شخص من الأشخاص ، والحلول محله ، والقضاء على حججه ، الخ . ولكن ما المدلول بالنسبة الى اللاشعور ؟ لا يعرف اللاشعور اي اخلاق . وهو لا يمضي في ذلك بسبل متعددة ، بل يمضي بصورة مستقيمة نحو الهدف تفديته الفرائز .

أن يكون الانسان عدوانياً ، بالنسبة الى اللاشعور ، يعني أن يستبعد الآخر ، إذن أن يقتله . والحال أن الناس القروء كان لا بد لهم من أن يكابدوا عدوانيات دامية ضد رؤساء قبائلهم . ولا بد للرغبة في الجريمة من أن تكون قد استقرت لديهم ليل نهار . ذلك كان قانون الغابة البشري ، وسيادة اللاشعور ، مع بعض الشعور الذي يكفي على وجه الضبط من أجل الفهم . وأمام هذه العدوانيات الدائمة ، كان لا بد للإنتمية من الصمود وكأنها ماء شديد الخطر .

وليس آدم سوى الممثل لعدد لا يحصى من الناس الذين كانوا يشرون داخليا ضد رؤساء القبائل . وكان آدم يريد أن يكون قويا وقادراً كرؤساء القبائل الذين تم إسقاطهم الى الأعلى : الاله . فاكل ثمرة شجرة ( المعرفة ) . وهو إذ فعل ذلك ، أكل الأب ( رمزياً ) لكي يصبح مثله قويا لا يقهر . إنه أكل لحم البشر وقاتل أبيه ... مع ما ينجم عن ذلك من إثمية كبيرة . ونحن ، من جهة أخرى ، نجد هذا الطقس ، طقس اكل لحم البشر ، في سر القربان المقدس الذي يعني اكل القربان ، واكل القربان يعني ان يكون الاله في ذات المتناول ، أي ان يصبح قويا كالاله (١) .

والحال ان هذه العدوانية تكررت خلال ملايين السنين في الملايين من القبائل وبين البلايين من الناس . ويتضح من ذلك إذن ان الزمن كان كافيا لكي يستقر النمط الاولي للإثمية بكل حرية .

يضاف الى هذا ان الناس كانوا « يسقطون » رؤساءهم المعروفين بالقوة الهائلة . فكهوف السماء ، بالنسبة لهم ، كانت تؤوي رئيس قبيلة مطلق ، غضوب لأفقه الامور ، يتيح للشمس ان تهب الوفرة ، ولكنسه يجعلها تحرق الأرض إذا لم يكن الناس « في الأسفل » أطفالاً عاقلين . الم تكونوا ، انتم ، ستؤسسون لكي تغفر خطاياكم الشائنة ؟ الم تكونوا ستبدلون فصارى جهدكم لكي تنصب عليكم نعم رئيس القبيلة او ، بالحري . لكي تتجنبوا سخط رئيس القبيلة ؟

هل ذلك كله بعيد الاحتمال ؟ ينبغي الاعتقاد بأنه غير بعيد الاحتمال ما دامت الإثمية العميقة موجودة ابداً . اولاً ، لم يتغير اللاشعور الانساني اي تغير منذ بداية الأزمنة . يضاف الى ذلك ان **العمر العقلي الوسطي للناس في أيامنا هذه يقع حوالي الاثني عشر عاماً** . واللاشعور الجمعي يفكر من خلال آلاف السنين ، يقول يونغ . وذلك امر منطقي ما دامت المشكلات الانسانية ظلت متشابهة منذ الأزل ...

وكما لو ان الإثمية العادية لم تكن كافية ، يتدبر الناس امرهم لكي

---

(١) انظر المقدمة .

يكدّسوا ، منذ أيام الطفولة ، راقات من الإنمىة الجديدة المتصفة بانها مرضية أكثر فأكثر (١) . إنها تهينة رائعة للحياة كما ترون ...

## رابعا - $\frac{1}{4} + \frac{1}{4} =$ لانهاية

ها هو ذا نمط اولي مجيد للطبيعة الانسانية . إنه نمط اولي من الأنماط الأكثر اتصافا بأنه يولد الحنين ، ويؤثر في الحياة اليومية باستمرار ، ويشير جزءاً كبيراً من مشكل الحب . واول شيء علينا فعله ان نفتح آذاننا بصورة عادية .

- أنت وأنا لا نؤلف غير واحد ...
- لولاك لما كنت غير نصف إنسان ...
- لست انا ذاتي إلا بفضلك ...
- لست كاملاً إلا بك ...
- انك نصفي ...
- سنكون جسماً واحداً وفكراً واحداً ...
- حبنا ابدى ...
- حبنا اقوى من الموت ...
- تذوب فيّ وأذوب فيك ...
- أنت الوحيدة ( او الوحيد ) في العالم التي كانت مرصودة لى ( او الذي كان مرصوداً لى ) ...
- عبر العالم برمته ، كان لا بد من ان أجلك ...

وقبل ان نذهب بعيداً ، لنقرأ الكتابات المقدسة المسيحية ، حتى لا نستشهد إلا بها : « ألم تفرؤوا أن من خلق كل شيء ، خلق الانسان ذكراً واثني ؟ ... »

---

(١) انظر « الحمر » في فصل « الانسان الآثم والانسان المصاب بالحمر » .

هذا النمط الأولي ، شأنه شأن الأنماط الأخرى ، ليس ، « رأياً من آراء الفكر » . فواقميته تتوطن في جميع الرجال وجميع النساء . إنها تدفعهم على الغالب نحو ألوان من الحب ، أو من « الحب من أول نظرة » ، ألوان يائسة ، متلهفة ، عاشقة ، تنهار في تسع حالات من عشر . وسنرى سبب ذلك .

فلنستشهد بأفلاطون ويونغ . كان ثمة ، في رأي أفلاطون ، موجودات « كاملة » . وكانت تشتمل على عنصرين : المذكر والمؤنث .

وأوضح يونغ ، من جانبه ، أن شخصية كل رجل تحتوي على جزء مؤنث ، وأن كل امرأة تحتاز على جزء من الشخصية المذكورة . وسأعود إلى الحديث عن ذلك فيما بعد .

هذه الموجودات الكاملة ، الخنثى ، ذكر وأنثى في الوقت نفسه ، كانت ذات قوة هائلة . وكانت تهاجم حتى الآلهة .

وماذا بعد ؟ لنصنع إلى أفلاطون أيضاً .

– الحب يدفع الموجودات بعضها نحو بعض . فهو فطري في الطبيعة الإنسانية . إنه يبحث عن تجديد الطبيعة . ويحاول جمع موجودين متمايزين ليكونَ منهما واحداً ، ويشفي الطبيعة الإنسانية على هذا النحو . ولكن من أي شيء يشفيها ؟ إننا إنما ننفذ هنا إلى الحياة اليومية .

## ١ – حلم « الحب الكبير الأبدي »

حلم الحب ، حلمه الكبير ، هو البحث عن الحبيب أو الحبيبة ( شقيق الروح ) بحثاً يائساً . إنه الوقوع على الوحيد ، الفريد . وبهذا الحب ينصهر كائنان ، ويصبحان واحداً . وفي هذه اللحظة إنما يشعران بأن اتحادهما أقوى من الموت . إنهما يشعران بأنهما أصبحا كالآلهة ، أي أبديين .

يقال حقا إن الموجود يعتقد انه ، بهذا الحب ، يجد مجدداً وحدة قديمة ضائعة .

ونكتشف على هذا النحو مدلول بعض العشاق ، كترستان وإيزولد ، وكروميو وجوليت ، وكدون جوان الذي يبحث عن المرأة بصورة يائسة . هذه الشخصيات تعتقد أنها تحب الآخر ، في حين أن كلا منها يبحث عن نفسه من خلال الآخر ، وتحاول أن تصبح كاملة مجدداً ، رجلاً و امرأة في الوقت نفسه .

إنهما كذلك العاشقان اللذان يكونان واحداً ويمضيان متحدين في الموت ، أي موجوداً يعود ، وقد حقق كليته المذكورة والمؤنثة ، الى اللاشعور ، الى الأبدية والطبيعة والام الكبرى . إنها أيضاً هذه الضروب من الحب المستحيل والمحرم ، كالحب بين الإخوة والاخوات ، اليانس والماساوي على الغالب ، الذي يبحث فيه الواحد من خلال الآخر عن نصفه .

## ٢ - الموجود الكامل

هنا إذن إنما يؤثر النمط الأولي . يقال على الغالب : إن ظهور الوعي لدى الانسان جحيمة . لقد تحطم الى جزأين : شعور من جهة ، ولاشعور من جهة ثانية . وهو يحتفظ على نحو عميق بضرب من الحنين : حنينه الى كليته المفقودة . ولا يبحث إلا عن شيء واحد : ان يصبح كاملاً في ذاته مجدداً . ويبدو الألم لدى الموجود الانساني في الوقت الذي يظهر لديه الاحساس بأنه « محطم » و « مهشم » ، و « منفصل » .

وعندئذ يحاول أن يجد في الخارج ما ينقصه في الداخل . وعندما يحدث لديه الانطباع السريع بأنه وجد « الوحيدة والفريدة » ... . فذلك على الغالب لأن ثمة امرأة تجسد الجزء المؤنث منه قد بهرته . ويحدث الشيء نفسه لدى النساء اللواتي يلاقين ذكورتهن الخاصة .

من هنا منشأ الانخداع الدائم امام هذا البحث عن الحب المطلق .

### ٣ - « كمال الحب »

الانسان الذي تحطم الى اثنين يتألم ويموت . والخنى ، المذكر والمؤنث  
معاً ، اي الكامل ، يحيا حياة ابدية . ذلك هو النمط الاول الذي تنشأ  
منه قصص خرافية وكثير من اصناف الحب .  
وكل ذلك يتجسد في قصيدة بودلير المحزنة :

يا بنيتي ، يا اختي ،  
فكري بـ عذوبة  
الذهاب الى هناك نعيش معاً ...  
نحب على مهل ،  
نحب و نموت  
في البلد الذي يشبهك ...  
لنشرح هذا المقطع :

يا اختي ، الجزء المؤنث من ذاتي الذي أبحث عنه بحنين ، فكري بـ  
العذوبة التي تملأ كياني اذا استطعت تحقيقك في ذاتي ، واذا أصبحت على  
هذا النحو كاملاً ... بمقدوري عندئذ ان أموت وأنا أحس بأنني خالد ومتألق  
كالإله ، فأعود الى البلاد التي تشبه المرأة ، الى الاشعور السعيد ، الى  
الأم الكبرى التي تغلف الى الأبد ...  
ولنصغ الى الكتابات المقدسة :

— حين يصير البحث ، لا يتخذ المرء زوجة ولا زوجاً ، ولكنه في حال  
كاللائكة في السماء ...

فهل في هذا تمجيد للعفة ؟ كلا ، فالنمط الاول يعنى :

— اولئك الذين يتصفون في ذواتهم بأنهم كاملون ( رجل وامرأة معاً )  
ليسوا بحاجة الى ان يتزوجوا ، والى ان يجدوا الجزء المفقود من ذواتهم ،  
وهم خالدون .



هذا النمط الأولي قوي إذن. إنه يؤثر في غالبية ضروب الحب المراهق، الغرامي، الذي لا بديل له، والمطلق. وتأثيره متمثل في عدم الرضى الدائم الناشئ من أن المرء لم يجد آل امرأة (أو الرجل) التي تناسب بصورة تامة. ويؤثر أيضا في بعض ألوان الحب الأفلاطوني الذي يصونه المرء وكأنه سر خفي، شريطة أن لا يكون هذا الحب «الأفلاطوني» ثمرة العقد. ويؤثر في الاستيهامات: يحلم المرء بامرأة رائعة، مثالية وفريدة، بصبية رائعة تسكن القصر، تائهة في الضباب (كما هو الأمر في «مون الكبير»\*)، بالأخت التي ما أنجبها الوالدان والتي «كان سيحبها أكثر من كل شيء»، وبالمرأة التي تبدو فجأة وتجعله يقول «إنها هي التي كنت أبحث عنها منذ زمن بعيد»، الخ.

ويتجلى النمط الأولي في بعض الأحلام الليلية:

— رأيت في منامي أنني كنت أحب صبية، أو أنه كان لي اخت عشقتها. وكان هذا الحب من الطهارة والروعة بحيث أن هذا الحلم سحرني خلال ثمانية أيام... كان ذلك كما لو أن أي شيء لا يقدر على بلوغي أبدا... أي كما لو أنني كنت قد أصبحت شبيها بالاله، معصوما وخالدا...

ويتجلى النمط الأولي في أحلام أخرى تتمثل فيها الذكورة والانوثة بالرمز:

— حلمت بماء واسع وهادئ...

— حلمت بحقل مترامي الأطراف تغطيه الأزهار المتفتحة...

— حلمت بغابة واسعة ذات أشجار مستقيمة...

هذا الصنف من الأحلام قوي على الغالب، يشير الهيام ويترك آثاراً عميقة خلال زمن معين.

ويؤثر النمط الأولي في عبارات الحب، عبارات قديمة قدم الإنسانية:

---

(\*) «مون الكبير» رواية مشهورة للروائي الفرنسي آلان فورنييه، نقل فيها مقامرة من مقامرات العشاق العابر بأسلوب يعزج الواقع بالخيال مزجا مدهشا «م».

— سالتهمك حتى أحصل عليك في ذاتي ...

— سأكلك من القبل ...

— سأبتلعك لتكوني ( أو لتكون ) جزءاً من ذاتي ...

— سالتهمك حتى أبين لك كم أحبك ...

أمن أكل لحم البشر الى مرق الحب ؟ نعم ، ولكن بالمعنى التالي :  
أكل الآخر يعني دمج في الذات ، كما هو الأمر في تناول القربان المقدس  
في الديانة المسيحية ( انظر فقرة « الانسان الآثم » ). والكل يفسره ما يلي :

— إذا حصلت عليك في ذاتي ، أصبحت كاملاً ، رجلاً وامرأة معاً .  
وسأكون على هذا النحو سعيداً سعادة أبدية ...

إنها إذن كلمات مبتذلة برزت في ظلام العصور ، وردّتها مجموعات  
العشاق انطلاقاً من نمط أولي لاشعوري بعمق .

ومن المؤكد ان غالبية ألوان « الحب المطلق » تتحطم في الحياة اليومية .  
وبكل بساطة ، وأكرر ذلك ، لان الانسان لن يجد في الخارج أبداً ما ينبغي  
ان يجده في ذاته : كليته وكماله . وها نحن نجد أنفسنا في التحليل النفسي .

## خامساً — الجزء المؤنث من شخصية الذكر

### والجزء المذكر من شخصية الأنثى

اكتشف يونغ ، من الوجهة السريرية ، هذه المنطقة الواسعة من  
اللاشعور الانساني . وسأحاول حصراً ان أبرز بنيته . وهو امر ليس  
بالهين : فالضباب يلفّ هذه المنطقة غالباً .

فلنتذكر أول الامر بعض المفاهيم الأولية ، ولكنها الأساسية هنا :

— تتصف الذكورة بأنها : فاعلة ، نافذة ، ثابتة ، مخصصة ، عدوانية ،  
عقلانية ، مفكرة ، صلبة .

— تتصف الأنوثة بأنها : مرنة ، نفوذ ، خصب ، لاعقلانية ، حدسية ،  
عاطفية ، حنون ، ودیعة ، حفیة .

– **القانون الأول :** تنطوي كل شخصية إنسانية على صفات مذكرة وعلى صفات مؤنثة . ومن اليسر فهم ذلك : فالرجل المتوازن يتصف معاً بأنه فاعل ومرن ، عقلاني وحديسي ، صلب وحنون ، عدواني وحفيّ ، الخ . كذلك فإن المرأة المتوازنة حنون وفاعلة ، حدسية وعقلانية ، معاً ، الخ .

– **القانون الثاني :** عندما ينصبّ الحديث على الرجل ، فلا ينبغي الخلط بين « الصفات المؤنثة » ، التي تتصف بأنها سوية ، وبين « التخثث » الذي يتسم بأنه غير سوي ، ويعني أن الرجل أصبح مؤنثاً على حساب ذكوريته . والأمـر ذاته فيما يتعلق بالمرأة : لا تـخلط بين الصفات المذكورة ( كالعقل على سبيل المثال ) والذكورة ( كالمرأة المسترجلة من الوجهة النفسية ) .

### – القانون الثالث :

– لاشعور الرجل يحتوي على شخصية أنثوية .

– لاشعور المرأة يحتوي على شخصية مذكرة .

إذن :

**الرجل ذو صفات مذكرة شعورية وذو صفات أنثوية لاشعورية**  
( الشخصية الأنثوية ) ؛

**والمرأة ذات صفات أنثوية شعورية وذات صفات مذكرة لاشعورية**  
( الشخصية المذكرة ) .

### وماذا عن الحياة اليومية ؟

المشكل ذو أهمية كبرى . فهو ينطوي على مضاعفات عديدة . ويمكن أن يقود الى اوهام ونجاحات ، كما يمكن أن يقود الى كوارث في الحب والزواج واختيار مهنة من المهن ، الخ .

وسأحاول إذن أن أبقي في الخطوط العامة الى الحد الأقصى . ولكن

ثمة ، انطلاقاً من هنا ، مقداراً من التشابكات الممكنة . وكرر ان المقصود ، على وجه الاحتمال ، مرحلة من اصعب المراحل « تجاوزاً » في التحليل النفسي ، بالنظر لعدد العناصر التي يمكن ان تنزلق في مستنات تتصف بانها بسيطة في البداية . وسأقتصر ، لكيلا يكثر التعقيد ، على امثلة ترتكز على الرجل .

— القانون الرابع : إنه قانون رئيس : كل ما هو غير مندمج في الشخصية يُحتمل أن يتم إسقاطه (١) .

أو : كل ما « يطفو » في اللاشعور ، كل ما يجوس في اللاشعور ، يُحتمل أن يتم إسقاطه .

وذلك صحيح بالنسبة الى نمط أولي يتصف بأنه سوي . وعندئذ فان المرء يرى العالم الخارجي في ضوء كبته وعقدته ، أو في ضوء رموز يولده النمط الأولي .

ها هو ذا ، على سبيل المثال ، رجل في لاشعوره ما يلي :

بصورة غير سوية

بصورة سوية

النمط الأولي للاله ( والاب ) . ضروب من الكبت الخاصة بوالده الذي جرّده من رجولته وسحقه .

يعاني هذا الرجل مشاعر الخوف والخضوع والعدوانية المرضية إزاء أبيه ، ولكنه يعانيها إزاء الاب بصورة عامة ، وبالتالي إزاء كل سلطان بما فيه سلطان الاله .

٢ — النمط الأولي للاله « يتلون » تبعاً لضروب الكبت المرتبطة بوالد هذا الرجل ؛

ب — النمط الأولي المشوّه يتم إسقاطه . على ماذا ؟ على ديانة

---

(١) انظر « الإسقاط » في فصل « ذكريات الطفولة » .

هذا الرجل ، من بين الأشياء التي يتم إسقاطه عليها . ونور النمط الأولي سيهت . وبدلاً من أن تكون الديانة إسقاط انفعال واثق ، فإنها تسود بفعل الخوف والحذر والخشية . ويتمثل الإله رمزياً ، بالنسبة إلى هذا الرجل ، في سمات موجود شديد العقاب ، خبيث ، شديد الخطر ، موجود لا بد من تأمين نعمه بالخضوع خضوعاً مطلقاً ، وبتقديم القرابين واحترام الأنظمة التي تسبب له الحصر .

من هنا منشأ التردد ، والوساوس ، والهوس ، والخوف من الجحيم ، ورهاب الخطيئة ، ومواقف « الصبي الصغير » إزاء إله مرعب . وعلى أي حال ، يتم إسقاط النمط الأولي للإله ، الذي ينبغي أن يولد السلام والثقة الكليين إسقاطاً محفوظاً بالخوف .

يضاف إلى ذلك أن هذا الرجل يقول :

— لا أحب الشمس . أشعر بأنها تحرقني وتجففتني . وذلك كما لو أن كشافاً من النور يلفت انتباه الجميع إلى ، وكما لو أن مينا غير رحيمة تنظر إلى شخصي التحيل قبل أن تسحقه ...

**والحال أن الشمس رمز الإله والأب .** فلا بد من أن تكون إذن مصدر الفرح والثقة . ويتضح هنا أن النمط الأولي للإله ، الذي تم إسقاطه على الشمس ، قد تحول في أثناء الطريق .

**مثال آخر سنراه فيما بعد :** يمكن للجزء الانثوي من الرجل أن يتم إسقاطه ما بقي لاشعوريا . وعندئذ يتعرض الرجل إلى أن يحب امرأة « حتى الجنون » ، في حين أن هذه المرأة ليست سوى إسقاط الشخصية الانثوية لهذا الرجل . وتتم اللعبة ذاتها فيما يتعلق بالشخصية المذكورة لامرأة .

— **القانون الخامس :** إذا توقفت كبت ، أو إذا أصبح شعوريا عنصر من العناصر اللاشعورية ، توقف الإسقاط كذلك . وهذا يمكن إذن أن يكون أمراً ذا أهمية كبرى عندما يتجلى حب ، أو مهنة ، أو رغبات تنمسك بها فوق كل شيء ، تجلياً مفاجئاً على أنها اشباح لا قوام لها . وعلى هذا النحو فإن ملايين السياح ما كانوا أبداً سيتتابعون إلى فيرون لو أن روميو

كان لديه الوقت لكي يتحقق من أن جوليت كانت ضربا من الإسقاط ( وهؤلاء السياح يقومون كذلك بصنع إسقاطات من جهة أخرى ) . وذلك للسبب البسيط المتمثل في أن روميو لم يكن ليعبد جوليت قط . ومن المؤكد أن هذا الأمر قد يثير مواقف متعددة ، وإن المسألة كبيرة الأهمية .

## ١ - « الحب من أول نظرة »

يتصف الحب من أول نظرة بأنه التمثيل الكلاسيكي للالتقاء مع الشخصية الأنثوية من الرجل . فالرجل يتجمد مذهولا : ويقول لنفسه بانفعال عميق : « إنها هي ! إنها الوحيدة التي كنت أنتظرها منذ الأبد ! ومعها ، هي وحدها ، أستطيع تحقيق ذاتي ... »

والرجل يتجمد مبهورا ... أمام ذاته ، أو ، على الأقل ، أمام الجزء المؤنث اللاشعوري من ذاته .

وهذا أمر منطقي ، إذ أنه يحاول أن يجد في الخارج ما لم يحققه في الداخل .

ويتضح الخطر إذن . فكثير من ضروب « الحب من أول نظرة » ليست غير ضروب « حب الشخصية الأنثوية من الرجل » أو « حب الشخصية المذكورة من المرأة » . وهي تتصف في بعض الأحيان بأنها ضروب « حب قدر » . ذلك أن الإسقاط قد يؤثر بحيث يجد رجل في رفيقته رفيقة مثالية ، بصورة تامة . أو تجد امرأة في رفيقها مثاليا بصورة تامة . ولكن « الحب الكبير » يتهاوى إذا « انقطع » الإسقاط . وهذا هو السبب الذي من أجله كان « الحب - الهوى » يتصف دائما بأنه شديد الخطر إلى حد كبير ...

## ٢ - بعض « الزيجات ذات الأركان الثلاثة »

هذا الوضع ، في غالب الأحيان ، تطبيق ( لاشعوري ! ) لإسقاط الجزء المؤنث من شخصية الرجل الزوج . فالسيرورة هي ذاتها : رجل متزوج ، محب لزوجته ، يجد فجأة اخت الروح ( أي هو ذاته ) . فيشعر أنه في

منتهى السعادة بين زوجته التي يحبها « وعشيقته » ، أي الجزء المؤنث من ذاته .

ومن المؤكد أن الزوجة تدين الزوج ، « والعشيقة » لا تفهم شيئاً من ذلك ، ولا الزوج أيضاً . ويدوم هذا الوضع ما دام الإسقاط ... ويمكن لهذه الحالة بالتأكيد أن تبدو لدى المرأة التي تشعر بالسعادة بين زوج محبوب ورجل آخر هو إسقاط الجزء المذكر من شخصيتها .

### ٣ - الجزء المؤنث من شخصية الرجال والجزء المذكر من شخصية المرأة ، الفاتنان والشديدا الخطر:

الجزء المؤنث من شخصية الرجل والجزء المذكر من شخصية المرأة يتخذان، كما رأينا من قبل ، تلوينات شتى خلال الوجود ( بحسب طبع الأم ، واللقاءات النسائية ، والقراءات ، والسينما ، الخ ) .

والأمثلة كثيرة ، بالتأكيد ، عن هذه الأجزاء المؤنثة من شخصية الرجال ، المحسوسة بأنها شديدة الخطر وفاتنة في الوقت نفسه . ولندكر منها مثالين مشهورين جداً .

المثال الأول كتاب بيير بونوا\* « الأتلنتيد »\* : يعرض هذا الكتاب امرأة ، هي الجزء المؤنث من شخصية الرجل ، جذابة وقائلة ، اسمها أنتينيا . وأنتينيا ترمز إلى هذا الجزء المؤنث من الرجل ، الذي ظلّ مظلماً ، خفيّاً ، من الأفضل أن لا ينظر إليه وجهاً لوجه تحت طائلة الهلاك ( اللاشعور ) .

---

(\*) بيير بونوا روائي فرنسي شهير ولد عام ١٨٨٦ . كتب روايات كثيرة ، وكانت « الأتلنتيد » أكثرها شهرة . وبطلة « الأتلنتيد » هي أنتينيا الغريبة ، المرأة التي تدعي أنها تنحدر من سكان الأتلنتيد القدماء . تعيش أنتينيا في قصر غريب حيث تجلب إليه المسافرين لكي تجعلهم يهيمنون حبا بها ، ثم تهلكهم . والمغامرة المأساوية لمصابطين فرنسيين وقعا تحت سيطرتها، خلال رحلة اكتشاف صحراوية، تشكل موضوع الرواية التي تتصف باتها مزيج مسلّ من الخيال العبقري والمخيلة التي تصل إلى حد الدعابة « م » .

**وجنيات البحر(\*)** من النوع نفسه ، إذ جاز لي ان اقول ذلك . فهي تمثل الجزء المؤث من شخصية الرجال ، إذ تجذبهم الى قعر لاشعورهم الخاص ( المحيط ) .

ويفهم المرء بسهولة أن كثيراً من الرجال يعانون انجذاباً نحو الجزء المؤث من شخصيتهم يتصف معاً بأنه خفي وقوي ، ويحسون إحساساً غامضاً بأنه شديد الخطر . فهم إذن يعانون انجذاباً نحو راق من أكثر الراقات عمقاً من لاشعورهم . وأم الصبي — كما سنرى — هي التمثيل الأول **المشخص** للجزء المؤث من شخصيته ... فالصبي إذن سينظر ، بصورة لاشعورية ، الى الجزء المؤث من شخصيته تبعاً لردود فعله الخاصة إزاء أمه : ثقة ، حب ممزوج بالعدوانية ، خطر ، افتتان ونفور . ذلك أن علينا عدم النسيان أن الأم ترمز بصورة قوية الى اللاشعور الذي خرجنا منه . وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة التي يتصف الأب بأنه الشخص الأول للجزء المذكور من شخصيتها .

وها هي ذي بعض الاسقاطات الكلاسيكية للجزء المؤث من شخصية الرجل ، الجزء الشديد الخطر والجناب : **لوريلي (\*\*)** ، **مفويات الرجال** في السينما ، **والحبيبات** الأخريات الظمآوات والمלתهمات ، **المبتلمات** والمهلكات ، **الرائعات** والمدمرات ... انهن الحب والموت على وجه التقريب .

**وقطاع الطرق** ، الذين تعشقهم النساء ، هم من المستوى نفسه .

---

(\*) **جنية البحر** : جنية شريرة يتم تمثيلها على صورة عصفورة او سمكة ، لها رأس امرأة وصدرها ، وتمسك بيدها في بعض الاحيان قيثارة . وكانت الجنيات يجسدن ، في الميثولوجيا اليونانية ، أخطار البحر وفنون الموت والموسيقى الجنائزية . وقد أدت جنيات البحر دوراً هاماً في الأوديسا . وكانت جنيات البحر ، وقد تم وضعهن في مضيق صقليليا ، يجتذبن البحارة الى المهالك بفعل سحر صوتهن « م » .

(\*\*) **لوريلي Lorelei** : صخرة تشرف على الضفة اليمنى من نهر الرين ، ربط بها الشاعر « برنتانو » أسطورة جنية تجلب السفن الى المهالك . وجعل الكاتب الألماني « هين » من هذه الأسطورة أسطورة شعبية « م » .



## ٤ - الأشياء والمهنة

يمكن للمرء أن يسقط عاطفة لاشعورية ، أو نمطا أوليا ، على شيء  
من الأشياء كما يسقطها على شخص من الأشخاص .

- بعض الآلات الموسيقية تمثل الجزء المؤنث من شخصية الرجل .  
وحسبك أن تراقب مراهقا تمثل آلة الجيتار ، بالنسبة اليه ، « خطيبة »  
حقيقية . أنه يزينها ويلوثها ، و « ينام جيدا معها » ، ويجعلها « تصدر  
انغامها » من اعماق نفسه ، الخ . « إنها » تصبح صديقتة والمؤمنة على  
سره ، ويفصح بحرية عن نفسه بها ، الخ . ولنفكر أيضا بالكمان  
والفيولونسيل . فليس لهاتين الآلتين صورة المؤنث فحسب ، ولكنهما  
تمثلان على الغالب إسقاطا للجزء المؤنث من شخصية الرجل .

- ويمكن للرجل أن يسقط الجزء المؤنث من شخصيته على اختيار  
مهنة ، كقائد السفينة على سبيل المثال ، والسفن مؤنثة ، وتمثل على  
الغالب إسقاط الجزء المؤنث من شخصية الرجل . وتكوّن السفينة  
وقائدها عندئذ ثنائيا حقيقيا . وهما ، مثلهما مثل أساطير الحب الكبرى ،  
يموتان معا ويفرقان متشابكين في قعر المحيط ، أي اللاشعور والام الكبرى .  
- يمكن لبعض الآلات أيضا أن تمثل الجزء المؤنث من شخصية الرجل  
الذي يقودها ( الحب الكبير ... ) ، كالسيارة والقاطرة ، الخ .

## ٥ - حالة حنا والقارب الشراعي

القارب الشراعي ، بشكله الاصيل والضامر ، وبطهارة خطوطه ونموته  
مادته ، مؤنث بصورة مؤكدة .

والحال إذن أن حنا ، رجلا « جافا » و « صلبا » له من العمر  
اربعمون عاما ، كان قد حقق حلم حياته : شراء قارب شراعي صغير .  
وكان يقول :

— قاربي احبه كما لو انه كان جزءاً من ذاتي ...  
ولم يكن حنا يعتقد انه اصاب بقوله الى هذا الحد . وكان ، فضلاً  
عن ذلك ، يسميه **الحنة** !

وكان حنا قد اسقط الجزء المؤنث من شخصيته على القارب الشراعي .  
وخضع حنا الى تحليل نفسي كامل . وصعدت شخصيته المؤنثة ، في  
نهاية العمل ، الى الشعور ، واندمجت في شخصيته . وبما أن هذا الجزء  
المؤنث من الشخصية كان قد كفّ عن كونه لاشعوريا ، فانه لم يعد من  
المحتمل ان يتم اسقاطه .

وقال حنا بعد وقت قصير :

— إنه لامر غريب مع ذلك ... حلمت بهذا القارب خلال سنين .  
ومنذ شهر ، لا اهتم به كليا ... ولم يعد يمثل شيئاً بالنسبة لي ..

**للجزء المؤنث من شخصية الرجل والجزء المذكر من شخصية المرأة**  
**اهمية كبرى** . انهما لاشعوريان ، ولكنهما مؤثران . واكتشافهما في  
التحليل النفسي ، وصعودهما الى الشعور ، يمنحان « انفعالا عنيقا »  
وإحساسا غريبا بالتوحيد والكمالية .

وينفتح المجال الكبير عندئذ **لدى الرجل** ، مجال الحس والوداعة  
والحنان والثقة والعفوية إزاء الحياة . ويختفي الخوف ( المحتمل ) من  
النساء ، ويتوقف البحث عن المرأة ، بحث حنيني ظامئ ، وتنقطع  
منات الإسقاطات ، وتصبح انتينا والجنيتات الاخرى ضربا من الغبار .

**أما لدى المرأة** ، فتبرز فاعليتها الثابتة وعقلها وتأكيد شخصيتها  
وفكرها . وتختفي المرأة « الودبعة » وتظهر المرأة المتفتحة والكاملة .

وتتضح إذن قدرة هذه المناطق اللاشعورية ، **إذ انها تكون نصف**  
**الشخصية** .

## ٦ - بعض الأمثلة أيضا

ها هو ذا المثال الأكثر شيوعاً اول الامر . ولنلق في مجال الرجل تلافياً للتعقيد . ويمكن للرجل ، وقد رأينا ذلك ، ان يكبت جزءاً برمته من شخصيته . كذلك يمكنه ان يكبت كل شخصيته المؤنثة .

ومن المستهجن في حضارتنا ، حيث لا يزال الفصل بين الرجل والمرأة فصلاً حاسماً ، ان يتصف رجل من الرجال بصفات أنثوية . يقول الناس ، على سبيل المثال ، عندما يربون الصبيان :

— الرجل لا يبكي : فإظهار العواطف امر يناسب النساء ، ومضمون ذلك : ممنوع على المرء ان يحتفظ بشخصيته وان يكون عفويا .

— ليس للرجل حدس ، فهو امر يناسب النساء ، ومضمون ذلك انه يحرم على الرجل ان يتبع صوتاً داخلياً يتصف في الغالب بأنه عظيم الفائدة .

— الرجل غير عاطفي : إنه امر يناسب النساء ؛ ومضمون هذا القول ان على الرجل ان يمتنع عن إظهار صفتي المحبة والحنان .

— خلق الرجل ليعمل ويفكر ؛ ومضمون ذلك ان ليس بمقدور الرجل سوى العمل والتفكير ، وعليه أن ينظر الى كل ما يتبقى على انه غير جدير به .

ويتضح بصورة مباشرة ان الفتي سيتعجل كبت صفاته الأنثوية إذا كان الناس ينظرون اليها على انها تحطّ من شأنه . وسيمنع نفسه من إظهار المودة ، والإصغاء الى حدسه ، والكشف عن عواطفه ، الخ . إنه ، بالاختصار ، سيكبت جزءاً برمته من شخصيته . فهو إذن سيتحطم الى جزأين ويصبح « هجيناً » بشرياً . ويفقد عفويته ومرونته . وينظر بعين السوء الى تدخل دوافعه الغريزية العميقة التي يكبتها بقدر ما يستطيع . هذا إذا لم يصحح بانها « غير جديرة به » .

## ٧ - ماذا يبقى لهذا الرجل ؟

يبقى له الجزء المذكور من شخصيته . ولكي يعوّض ما ينقصه ، اي جزءه المؤنث ، يعزّز ذكوريته ، فيضخمها ، ويصبح جافاً وعقلانياً بإفراط . ويضع الحياة في معادلات . إنه ، من الناحية النفسية ، يحمل نظارتين مستديرتين . ذلك هو بوليتكنيكي الوجود الذي يعرف كل شيء ، ولكنه لا يعلم شيئاً .

ولكن ذلك لا يمنع من ان صفاته الانثوية موجودة دائماً ، ما دامت مكتوبة في اللاشعور . فهي إذن ذات تأثير !

### ماذا يحدث عندئذ ...

يجوس الكبت الواسع ، ويبقى حياً كالنبات المائي ، ويتجلى الكبت في « أحلام اليقظة » . ويستسلم الرجل ذو الذكورة المضخمة الى الاستيهامات عندئذ . وتبدو فيها الفتيات الوديعات واللطيفات ، المرنات والحفيات ، الغامضات والمجهولات ، والنساء المقويات والشريرات كالهلاك الأبدى ، وبطلات الروايات والسينما ، البعيدات المنال كهذا الجزء المؤنث الذي كبتّه ، والذي يرغب لاشعوره في فرضه عليه ... فتذكروا حالة حنا ، « عاشق » القارب الشرابي .

ولكن الرجل العقلاني بإفراط يهتز . ولن يعترف إطلاقاً بهذه الأحلام الحنينية ، التي تنضح منه كما ينضح العرق من الجسم . إلا لمحلله النفسي .

فإذا ان « يقع » الكبت ، الذي يتم اسقاطه الى الخارج ، على امرأة من لحم ودم . وتلك عندئذ امرأة على قياس ما هو مكبوت : أنثوية بإفراط ، غبية بعض الشيء ، أدنى من الرجل الذي ينتفع بها لكي يؤدي دور البطل ذي الذكاء العالي (١) . ويحسّ الرجل ، إذ يتزوجها ، بأنه وجد نفسه

---

(١) من الطبيعي أن يختار امرأته غبية بعض الشيء ، ما دام لاشعوره مشبعاً بفكرة مفادها أن كل ما هو مؤنث شيء زهيد .

مجدداً ، وأصبح « كاملاً » . إنه يتزوج كبته بما انه يتزوج انوثته المكبوتة ! وهو إذ يفعل ذلك ، كما يقول يونغ ، فانه يتزوج ضعفه الاعظم ، اي جملة كبته .

وإما أن يتم إسقاط كبته على رجل من الرجال . فثمة انجذاب نحو رجل مختث . وتلك عندئذ لواطية كامنة أو صريحة ، حيث يؤدي الرجل المريض ، موضوع بحثنا ، دور الذكر الفاعل ... هذا اذا لم يرتبط معه بصداقة « لا تغنى » ، اي اقوى من الموت .

## ٨ - تعقيد كبير

كل ما قدمته حول الموضوع ، كما قلت سابقاً ، ليس سوى مدخل لميدان واسع . فالجزء المؤث من شخصية الرجل يمكن أن يتم كبته بفعل عوامل أخرى . ومثال ذلك شاب ينتمي عواطف الكره اللاشعوري لأمه . إنه سيكبت كل ما هو شبيه بأمه لديه . وسيكبت كل ما هو مؤث لديه ، اي سيكبت الجزء المؤث من شخصيته اذن . فاذا اسقط هذا الجزء الى الخارج ، كان ذلك الإسقاط مصحوباً بشحنة قوية من الكره . وسيعتقد عندئذ انه يحتقر النساء ويبغضهن ، في حين انه يبغض الجزء المؤث من ذاته .

وانطلاقاً من هذه الاسس البسيطة ، يتضح لنا الى اي حد يتصف البناء بأنه معتد . والواقع ان الجزء المؤث من شخصية الرجل يمكن أن بطراً عليه تشوهات عديدة جداً ، وان يمتزج بضروب أخرى من الكبت والعقد ، الخ . وكذلك شأن الجزء المذكور من شخصية المرأة .

والأم ، كما قلت سابقاً ، هي التمثيل الاول المشخص للجزء المؤث من شخصية الذكر ، وستترك بصمتها حتماً . ثم تليها اللقاءات الاولى مع العنصر المؤث : البنات الصغيرات خلال الطفولة ، والفتيات ، ثم اولى « الحبيبات المستحيلات الابديات » خلال المراهقة ، اللواني لسن

سوى اسقاطات الجزء المؤنث من شخصية الذكر ، الخ . اما بالنسبة للمرأة ، فان للآب واللقاءات الاولى مع الذكور تأثيراً على الجزء المذكور من شخصيتها .

وهذا هو السبب الذي من اجله كان المشكل شديد الصعوبة في التحليل النفسي . ومع ذلك ، اكرر ان الجزء المؤنث من شخصية الرجل والجزء المذكور من شخصية المرأة لا يمكن أبداً ايجادهما في الخارج ، وانما في ذات كل منهما .

فماذا يعني « الشفاء » ؟ ذلك يعني ان يصبح المرء كلياً ، كاملاً ، غير منفصل عن ذاته ، غير « محطّم » . وذلك يعني اقامة الصلات العميقة بين شتى اجزاء الشخصية ، بما فيها الجزء المذكور والجزء المؤنث ، ويحقق الشخص ، في نهاية التحليل ، انصهار شخصيته المذكورة والمؤنثة . فيصبح عندئذ **كاملاً بذاته** . واذا الرجل وجد امرأة ، او المرأة وجدت رجلاً ، فلن يكون ذلك على سبيل « إكمال » ما ينقصه او ينقصها ، بل على سبيل « الإضافة » .

## سادساً – من الشمس الى بعث الأبطال

الشمس رمز مشتق من النمط الاولى للاله والآب . ويدرك المرء مباشرة ان الشمس تحتل مكاناً ملكياً بين الرموز الكبرى ، وانها تترك بصمتها على الحياة الانفعالية اليومية والفنون والفولكلور والاديان .

والناس في جميع العصور مصابون بهلوسة الموت والحياة . ويستحوذ عليهم ما يمنح الحياة ويحفظها ويغنيها . ويتوطن فيهم حصر المجهول . فكل ما يتصف بأنه « ظلام » و « غامض » ، ومن غير نور مادي أو روحي ، يثير الخوف . وذلك أمر منطقي . إنه ، من الناحية الانفعالية ، عالم الظلام والبرد والجحيم والموت ، بدون الشمس .

**فالبطولة والبهاء والشجاعة والبراعة والانبعاثات الجيدة والمعبر**

**المنير الى الخلود ، النخ** ، مرتبطة برمز الشمس ارتباطا وثيقا . فالبطل ، في الاساطير ، « يصعد الى السماء » . إنه « محاط بهالة من النور » أو اللهب . ولن يحدث اي انفعال إيجابي لو كان هذا البطل ذاته « ينزل » نحو « الظلمة » ، ناسياً في جهة من الجهات تاجه ، « تاج النور » ، اي تاجه الشمسي .

## ١ - الانسان متوحد بالشمس

حياة الناس متوحدّة بمسار الشمس . فالنجم المتوهج ( كالاله ) يولد مع الفجر . ويصعد نحو السمّ ، ساطعاً وعديم الرحمة . ثم ينزل نحو الهوى ( جمع هوة ) ، ويولد مجدّداً مع الفجر الجديد . فعلى هذا النحو ، على الأقل ، إنما يعبر الانفعال الانساني عن مسار الشمس .

والانسان ، كالشمس ، يولد ، ويحاول ان يشعّ ، وينتقل الى سمّ الحياة ، ويتهاوى ، ويموت ، آملاً ان يصبح خالداً ( اي غير قابل للفناء ومنير ، له جسم « مجيد » كالشمس ) ، وآملاً ان يذهب الى السموات الواقعة « في الأعلى » ، كالشمس في كبد السماء .

والشمس ، هل تموت ، في الانفعال الانساني ، كل يوم ؟ على الاطلاق . فغيابها ليس موتاً ، بل اختفاء مؤقت في الليل ( الظلام مملكة الموتى ) . ففي قارة اقيانوسيا ، حتى لا نذكر غير هذه الاماكن ، يعتقد الناس ان الموتى يتبعون الشمس في المحيط ( والمحيط رمز الاشعور ) ويذهب الموتى عندئذ في قوارب ، وهذا هو رمز العبور ، الرمز المجيد .

لنلاحظ التخطيطية المخصصة للشمس ( شكل رقم / ١٣ / ) ، نر فيها ان المسيح والصحون الطائرة على ونام مع الحكام ، إذ ان هؤلاء « الابطال الشمسيين » يشتركون بالنمط الاول نفسه .

## ٢ - حياة الأبطال

الأبطال ، كالشمس ، لا يموتون . ولا يمكنهم ان يموتوا ، أو إن موتهم ، إذا ماتوا ، موت مؤقت كالشمس التي تختفي مؤقتاً في الظلام . فالبطل ينبغي ان يولد مجدداً ، أو ينبعث ، أو يظل خالداً ( في فكر الناس على الأقل ) .

يضاف الى هذا ان البطل لا يمكن ان يسقط إلا إذا تمت خيانتة . فالمسيح كان له يهوذا ، الخائن المختبىء في « الظلام » . وتمت خيانة هنر الذي كان ، في نظر المؤمنين به ، بطلاً شمسياً ، ومنقذاً ، وأباً منيراً ، ومجيداً كالشمس . لقد اختفى مع ذلك في « الشهب » . ويبقى موته ، من الناحية الانفعالية ، أمراً موضع شك بالنسبة للمؤمنين به .

وإذا ذهب الى السينما ، وجدت ان الأبطال مصابون بالتعب على وجه الاحتمال ، ولكنهم لا يموتون في أسرهم . إنهم ينصرعون « في أوج المجد » . وأبطال روايات الغرب الأمريكي محبّون للعدل وأخلاقيون . ويرفض الجمهور موتهم ، ولكنه يقبل ان يتعرّضوا للخيانة . والقائمة قد تكون مترامية الاطراف .

يشارك في الشمس إذن : جميع الأدلة المجيدون وغير القابلين للفناء ، و « الآباء » الكاملون ، والقلوب المشعة التي تهب الحب والامن و « الدفء » ، والملوك ذوو الرداء البراق والتاج اللامع ( الشمسي ) ، والباطرة اولو عين النسر الذين يرون كل شيء كالاله والشمس ، ورؤساء الدول الكليانيون الذين يتصفون بانهم « آباء » لا يقبلون الفناء وبانهم اولو بطش ، والفرسان الذين يجتلهم الذهب ( لون شمسي ) ، والبطل فانغان زهر الخزامى(\*) ، وأبطال آخرون ، أبطال يستخفون بالحياة والموت ، اي انهم غير قابلين للفناء وبالتالي خالدون ، والرجال الجدد « يحملون النور »

---

(\*) **Fanfan la Tulipe** : بطل اغنية شعبية ، نموذج جندي فرنسي يحب الخمر والنساء بقدر ما يحب المجد ، وهو مستعد دائماً لنصرة القضايا العادلة « م » .



والبعث الروحي أو الاجتماعي ، والابطال الذين يصعدون الى النور  
ويختفون في الشهب ، وسيوف الفرسان اللامعة ، والقلوب المقدسة  
المتهوجة ، وهالات القديسين ، الخ .

وتشارك الأرتال العسكرية في الشمس أيضاً . إنها مجيدة ، قوية ،  
لا يأتيتها الفناء ، لامعة ، ساطعة ، وتشتق كذلك من النمط الأولي للمنقذ  
( يمكن « الاعتماد عليها » ) . إنها تحمي ، وتجعل العدالة محترمة ،  
وتفتح أرضاً جديدة ، أي أرض الميعاد .

والانخراط في الجيش يعني على الغالب : البحث مجدداً عن الأب  
الذي يمثله بالرمز « تجمع بطولي وقوي » .

والخلاصة أن كل ما يلعب ، ويحرق ، وينبعث ، ويخصب ( الثور  
والديك ) ، ويتألق ، ويغني ، ويقفز ، ويتفجر ، يشارك في الشمس .

### ٣ - إطار شمسي جامع

الرمز الأول الذي يخطر للذهن رمز **الصعود** .

والبطل يصعد كالشمس . إنه محاط بهالة ( على صورة الشمس )  
من نور ( شمسي ) . وفي صعوده السماوي ، يتخلّى البطل عن وجوده  
الإنساني . إنه يختفي عن الأنظار الأرضية ، وينسحب الى الأبد ، الى  
مناطق متعذرة المثال .

ومن المعلوم أن **الاستواء** على العرش والمذبح والسماء تشارك في هذا  
الرمز : فالملك والكاهن يصعدان وينتقلان من المستوى الدنيوي الى  
المستوى الروحي . وكذلك ما يتعلق بـ « السلام الطقسية » التي تقود  
الى السماء . والشئ نفسه ، من جهة أخرى ، عندما ينظر رجل الى  
رجل آخر « من عليائه » . ويتصف هذا الرجل **المتنصب والمستقيم والصلب**  
بأنه ، أول الأمر ، رمز قضبي ( أي قوي وعدواني ) . إنه ينظر « من

الأعلى » ، مجسداً على هذا النحو بالرمز تلك القوة والمناعة . وحتى لو أن ذلك غير ذي معنى من الناحية العقلانية ، فإن هذا الموقف « يبلغ هدفه » دائماً من الناحية الانفعالية .

والنمط الأولي لـ **المنقذ** فحصناه فيما سبق . إنه يرمز ، على الغالب ، إلى سمات **بطل شمسي** . وقدر البطل الشمسي ، في الواقع ، أن ينقذ الناس من خطاياهم ( مضمون هذا القول : من نزاعاتهم وشقائهم ) . وكما أن الشمس تنقذ من الظلام والعوز والبرد ، ينقذ البطل من الموت والحصر ، ويستأصل الجهل والخبث ، أي يجعل الناس واعين ويرفع عنهم لاشعورهم . إنه صالح صلاحاً دون حدود ، أي إنه ، كالشمس والآله ، لا يمكن لأي شيء أن يبلغه . إنه « يقود » و « ينير » الطريق ويعاقب الأشرار الذين « يراهم » عقوبة لا رحمة فيها . ويقود نحو أرض الميعاد ( المسيح ) ، ونحو إنسانية جديدة ( المصلحون والطفة والجماعات السياسية ) ، ونحو الثورات ( الاجتماعية والروحية ) . ويقود بمعصومية نحو العدالة والحق ( المروّضون » والمنقذون » في الأفلام السينمائية ) .

وهكذا فإن الرجل الشمس يمنح الوفرة ويوزع النور إلى الناس ... هذه الأنماط الأولية ترتبط إذن ارتباطاً شديداً وتعمل دون هدنة ، وذلك أمر يتصف بأنه طبيعي . وقد تكلمت سابقاً على الصحون الطائرة . إنها أبطال شمسية . فهي تلمع ، وهي محاطة بهالة من النور ، وتبدو بصورة غريبة ، ثم « تصعد » سريعاً : إنها تختفي عن أعين الناس كالأبطال الشمسيين . فإن تكون الصحون الطائرة موجودة من الناحية التقنية أم غير موجودة أمر لا يغير من المسألة شيئاً . **والمهم في هذا المجال هو الانفعال العميق المرتبط بها** . ذلك أن « الصحون الطائرة » كانت ستفقد جاذبيتها مباشرة لو أن الناس عرفوا أن المقصود بها محركات تقنية ، لا زوّاراً قادمين من الكواكب البعيدة ليبينوا للناس أرضاً جديدة موعودة ..

## ٤ - **والدي اله - شمس**

بيّنت الدور الشاق ، دور الأب ، في مؤلفي الأول (١) . ولكنني أرى من المناسب أن أستعرض هذا الدور بسرعة .

---

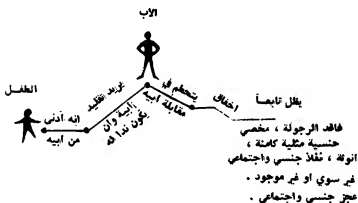
(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

كل طفل يقتضي ، بصورة لاشعورية ، أن يكون والده قويا ، مجيداً ، وأن يكون دليلاً معصوماً وقويا . ويرغب الطفل ، بصورة لاشعورية دائماً ، في أن يكون أبوه دون خوف ولا تقيصة ، وبالتالي ، بطلاً شمسياً ، منتقلاً . فما السبب ؟

السبب أن الأب ينبغي أن يهدي ويشع وينير ( الطريق ) ، ويقود الطفل نحو « ارض الميعاد » ، أي نحو سن الرشد والمسؤولية . ويتضح لنا مباشرة أن الأب في مواجهة مع اللاشعور الجمعي لطفله . وبأنه لا يغلب كالأبطال الشمسيين . فاذا غلب ، كان ذلك ، ربما ، بفعل خيانة ، لا بسبب الضعف . ويقتضي الطفل أيضاً أن يكون أبوه « فحلاً » قويا سيقلّد رجولته من الناحية النفسية ، لكي يتجاوزها فيما بعد ويصبح مستقلاً .



شكل رقم ( ١١ )



شكل رقم ( ١٢ )

و خلاصة القول ، يقتضي لاشعور الطفل ان يكون أبوه مجيداً ، وقوياً ،  
ولا يتقهر ، وذو بطولة كالاله والشمس (١) .

فالاب يواجهه إذن دور يتعذر القيام به . ولا بد له من إيجاد حل  
من حلول التسوية بين ما يمثله في لاشعور طفله ( اله شمسي ) وبين ما  
هو عليه في الواقع ( إنسان ) .

وكيف يبدو الواقع ؟ كم من المراهقين سمعتمهم يقولون بغضب  
يائس :

— أبي ؟ إنه ... ( كلمة تلخص ضعفاً فائق الحد ) .

فلنوضح ذلك :

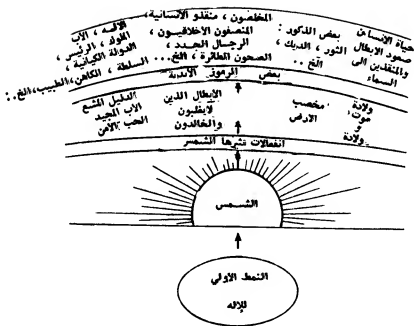
— أبي ليس بطلا شمسيا . إنه لا يلمع . ولا يتصف بأنه قوي ، ولا  
يتصف بأنه لا يغلب . وانا ، أظل دون دليل ولا نور ، ومن غير شخص  
أصارعه كالسيد كومبيادور\* الذي كان يصارع الشمس !

رأينا ، بالإضافة الى ذلك ، حالة مراهق خيب أبوه امله بعمق  
( انظر بداية هذا الفصل ) . وبحث المراهق عن اب آخر ، على أن يكون  
أبا مجيداً ( كالشمس ) . فأسس جماعة ذات نزعة مثالية ( رمز الاب )  
كان يريد باسمها أن يدمر أولئك الذين كانوا يذكرونه بضعف أبيه الخاص .  
وتمّ ذلك بالاستناد الى رموز كان يجهل وجودها .

---

(١) كذلك يختلف كل راشد ب « الحنين الدائم » لدليل معصوم يقوم مقام النقد بالنسبة  
اليه ( ومقام الاب ! ) : الرؤساء الدينيين والعسكريين الكبار ، رؤساء الدولة ، سكان  
الكواكب الاخرى المتطورين جدا ، الخ .

(\*) Cid Campéador : بطل اسباني عاش في القرن العادي عشر . تعاون مع احد  
اللوكة العرب المسلمين في اسبانيا ( المقتدر ) . وكان الجنود ينادونه « سيدي » .  
اصبحت شخصية هذا البطل اسطورية، وتجسدت لدى كثير من الشعراء والكتاب (٢).



شكل رقم ( ١٣ )

ولكن الخطر ذاته موجود إذا كان الأب يذكر كثيراً برمز الشمس .  
وتلك هي حال أب « لامع جدا » ، على سبيل المثال . فهذا الأب يسحق  
شخصية ابنه و « يحرقها » مثله مثل شمس الظهيرة التي تحرق الأرض  
والزروع . . . وتنشر الموت والحياة على حد سواء .

فدور الأب إذن دور غير يسير : وهذا أقل ما يمكن قوله . وكل شيء  
منوط بقوة الأب الداخلية وأصالته وتوازنه . وسواء كان عاملاً أم رئيس  
وزراء ، ذلك لا يغير شيئاً من المسألة .

## سابعاً - إلى نهاية العالم

هذا هو رمز من أجمل رموز الإنسانية ، منتشر في جميع الأماكن

منذ الأبد . ويمكن تطبيقه في العلاج النفسي بفضل ما لديه من استطاعة .  
إنه رمز العبور الذي ينتسب معاً الى الماء والشمس .

كيف يتجلى بصورة عامة ؟ ثمة بطل يفوس في الماء . وينطلق من  
القرب ( مغرب الشمس ) نحو الشرق ( مشرق الشمس ) = بعث وحياة  
جديدة ) . وينجز عبوره في بطن سمكة ( كما فعل يونس ) أو في قارب أو  
سفينة ( نوح ) .

والموضوع هو ذاته دائماً : البطل يعبر الماء ( الذي يرمز الى اللاشعور )  
في بطن غول ( رحم الام ، الطفولة ، الماضي ) . وينطلق البطل نحو النور  
الصاعد ( يبعث في حياة جديدة ) ، ويخرج من بطن الفول ( يخرج من  
رحم الام ، يصبح راشداً ) . وعلى الغالب ، يشعل النار عندئذ ( وعي  
الرشد ، روحية ) .

ويتصف هذا الرمز بأنه من الرموز الأكثر انتشاراً في الاساطير كما  
في الحياة اليومية . إنه يمثل الحنين الى حياة جديدة ، مطهرة ، مسؤولة ،  
متجددة . وهكذا كان نوح يمضي في سفينته نحو حياة جديدة بعد  
« التنظيف الكبير » ( أي المعمودية الكبيرة ، التطهير الكبير ) الذي قام بها  
الطوفان .

فلننقل ذلك الى الحياة اليومية : إننا نجد الأنظمة الجديدة التي وعد  
بها الحكام المستبدون والأنبياء والمروّضون ... ورجال السياسة .  
فعلى الشعب أن يخرج من ظلاميته ( اللاشعور ) لكي يصل الى الثورة  
الاجتماعية أو الروحية ( النور ، سن الرشد ) . إنه يقوم ب رحلته  
( الاجتماعية ) بفضل الدولة أو الرئيس ( الاب ، الأمن ) . والشعب لا يزال  
في هذه المرحلة طفلاً ، ولكنه ، بعد « عبوره » ، سيكتشف النور  
( يصبح مسؤولاً عن مصيره ، وسيكون غنياً ، ولكل بيته وزاويته في  
الجنة وسيارته الصغيرة ) .

ولنفكر أيضاً بجميع أولئك الذين يرغبون في عبور البحار لكي يذهبوا

الى اقصى مكان في العالم ويجمعوا فيه ثروة . إننا ، على الغالب ، إزاء حلم قوي ذي قاعدة انفعالية يعرف كل فرد مع ذلك انه لا يطابق الواقع .  
إنهم يرغبون في عبور البحر في قارب ( الفول البحري ليونس ) .  
ويريدون الوصول الى الثروة ( الاستقلال ، الانفلات من الطفولة ، بلوغ الرشد ) . وذلك من اجل الخروج من حزنهم وحصرهم ( الظلام ) .

واذا استجوبناهم رأينا ان احلامهم تدور حول ما يلي :

— اتمنى ان اجد الذهب والماس ... وقلما يطمنون القصدير والنفط !  
ولكن لتتذكر ان الذهب رمزان شمسيان ( اصفر ، لامع ) . والفرق الوحيد انهم يحلمون بركوب السفينة بدلاً من « استئجار » حوت ، كما فعل يونس وكثير من الابطال القدماء .

ويلتقي رمز العبور هذا برمز الصعود : فالانسان ينطلق نحو النور الصاعد ( حياة جديدة ) ، بدلاً من أن « يصعد » نحو السماء وخلودها المنير .

## ثامنا — الأم، رحم كبير

من الواضح ان المرضى يتكلمون ، خلال التحليل النفسي، على امهاتهم . والذكريات المتعلقة بهن تتصف غالباً بأنها مشحونة بانفعالات مؤلمة ، وبالعدوانية ، وبتوترات بين الكره والحب ، الخ . ويذكر المرضى ، في تسع حالات من عشر ، امهاتهم على نحو سلبي . والسبب ، اولاً ، ان معظم الامهات يجهلن دورهن ، وبالتالي يقمن به على نحو سيء . والسبب، ثانياً ، ان الام رمز قوي ، بالنسبة للاشعور ، قبل ان يتمثل هذا الرمز بأم مشخصة .

ويمكن القول إن النمط الأولي للأم قوي وواسع قوة النمط الأولي للاله وسعته . فالأم ترمز الى الاشعور الذي نخرج منه ( بطن الأم ) ، والذي نعود إليه مؤقتاً او نهائياً ( النوم والراحة والموت ) . يضاف الى هذا ان الأم أعمق علاقات الطفولة .

وترمز الام الى **الظلام العذب** ( الظل ، الاديرة ، الكنيسة ، الكنائس ، الكهوف ، باطن الارض ، الفطس تحت مياه البحار ، الخ ، الخ ) . وترمز الى **البطن** ( غول يونس ) الذي ينبغي الانفلات منه لبلوغ الرشد .

والام ترمز الى كل ما يهب الحياة او يحمل الثمار : الارض والمياه والاشجار المثمرة ...

وترمز الام الى ما هو جذّاب وشديد الخطر في الوقت نفسه ، والى كل ما « يغلف » ويحمي ، والى كل ما هو غامض وبارد ، والى كل ما يمكن ان يقتل ( الشخصية ) : الماء والقمر **والين\*** وابي الهول والتنين والساحرة ، الخ . وتمثل حينئذ كبيراً : العودة الى دفء رحم الام . وترمز الى كل ما « يستقبل » : ارض الوطن الام ، التغلف والموت في ثنايا العلم ، الخ .

انظروا ، من جهة اخرى ، الى الرسم في الشكل رقم ١٤ / . هذا الطفل يهرب من نور الشمس ( إنه يخاف الاله وبابا للذين يريان كل شيء ويعاقبان ) ، ويركض نحو الظل ( يلتجئ عند ماما مرموز اليها هنا بالظل الخفي الذي سيخبئّه ) .

فكل ام يقابلها إذن رمز كبير لاشعوري . إنها هي التي ينبغي ان تستقبل دون تحفظ ، وتحب دون شروط ، وهي الطاهرة دون دنس ( من هنا منشأ عبادة معينة لمريم العذراء ، على سبيل المثال ) . وهي ، فضلا عن ذلك ، اول تمثيل للجزء المؤنث من شخصية الذكر ، الذي يتصف ، وأذكر بذلك ، بأنه الانوثة الاشعورية للرجل .

فليس دور الام **العملي** إذن دوراً سهلاً . ولا يمكن لأي ام في العالم

---

(\*) **الين واليانغ** ، Yin , yang : كلمتان صينيتان تدلان على مفولتين اساسيتين في الفكر الطاوي الصيني ، تمثلان مظهرين متناقضين ومتكاملين من العالم . ومن تأليفهما بنشا البدا الكبير للنظام الكلي : الين هو المبدأ الانثوي واليانغ هو المبدأ الذكري «الم» .



أن تنافس رمزاً بهذه السعة . ولكن من الواضح أن لاشعور الطفل يوازن قبلياً ، موازنة مستمرة ، مثاله اللاشعوري وأمه التي تتجسد في لحم ودم . وهو يرفض لاشعورياً - أو يكبت - كون أمه « غير طاهرة » أو مصابة بعصاب على سبيل المثال . ولنتذكر أن دور الأب ليس أكثر سهولة ، إذ أن الأب يوازن باستمرار برمزي الآله والشمس .



شكل رقم « ١٤ »

ويتضح لنا إلى أي حد يتصف انفصال المرء عن أمه وانفكاكه عنها ، انفكاكاً عميقاً ، بأنه عسير . والحال أن هذا الانفصال شرط مطلق لبلوغ سن الرشد . ويتضح لنا أيضاً كم هو قليل عدد الأمهات ( والنساء ) اللواتي يعرفن العمق الكبير لدورهن . فعليه أن يكنّ تزلّزاً حقيقياً ، دون خطر ، حيث يمكن للشخصية أن تفتتح في جو من الثقة الكلية والأمن .

وبدلاً من ذلك ، كم عدد الأمهات المصابات بالعصاب : الموجودات في الطرف الأقصى بالمقابل لما يمثلن بالنسبة لاشعور ؟ وعندئذ ، يقع الطفل والمراهق بين قطبين : ما ينبغي أن تكون عليه الأم ، وما هي عليه في الواقع .

وما الأم ، إنها رمز مجيد يتوطن فيما بعد في أم واحدة شخصية يسهل الآن أن يتصور المرء استطاعتها الخيرة أو الشريرة .

ذلك ان كل ثقة عميقة بالأم تصبح ثقة بالحياة والموت . ولكن كل خوف ، وكل رغبة ، وكل عدوانية عميقة إزاء الأم ، تتجلى بالخوف من الحياة والخوف من اللاشعور والموت .

وتتضح إذن أهمية المعالجة الوقائية للامنيات واكتشاف دورهن ومدلوله في الاعماق .

ذلك ان معظم الامهات ، في واقع ايماننا هذه ، حفيات ... ولكن باي شرط ! وكيف نريد ، من جهة اخرى ، ان يكن قدرات على إنجاز دورهن إن كنّ مريضات ؟ وسأعود الى ذلك فيما بعد .

## ١ - من جالك بقار البطون الى العشاق في الأساطير

راينا في عدة مناسبات الى اي حد تشترك سلوكات البشر في بحث واحد لاشعوري ، سواء كانت مجيدة أم مشوهة أو مسحوقة أو «منحرفة على نحو مرعب » : إيجاد سلام عميق ، وأمن دافئ ، ووثام مع الذات والطبيعة والرموز العميقة والمطلق . ونعلم أيضا ان الوجود الانساني ، وقد غاص في الكهف المريح لبطن الأم ، إنما عرف قبل ولادته تلك السعادة المثلثة الوحيدة التي يمكن ان توهب له على هذه الأرض .

وانطلاقا من هنا ، يحاول كل موجود إنساني - من خلال كثير من الاعمال - تحقيق اتحاده برحم كل شيء . ولهذا السبب ( وقد راينا ذلك قبل قليل ) تتصف الأم وفكرة الأم ورموز الأم بمثل هذه الأهمية .

ويمكن القول إن كل سلوك إنساني محاولة « صلاة » ، ناجحة تارة ، ومتصدعة بصورة تثير الرثاء تارة اخرى . وثمة بالتأكيد فرق كبير بين صلاة قديس صادق و صلاة طفل ، أو مغترب عقلي ، أو ذي وسواس مرضي ، الخ .

وتبدو أهمية ذلك من ناحية تجلني الأبعاد البشرية . ولنتقصر على التفكير بالجنسية : فالاعماق السحيقة والبحث الأساسي متطابقان ،

سواء فيما يخص رجلا طفلا يريد « العودة الى ماما » ويرغب في « الدخول في جسم » الام لكي يجد فيه مجددا غبطة دون مشكل ، أم يخص الرجل الذي حقق امكانياته وانسجم مع العالم ( الام الكبرى ، الطبيعة ، الاله... )

ومن المؤكد ان الجنسية تتخذ على هذا النحو تلوينات غريبة .

وهكذا ، فليس ثمة غير فرق في المستوى بين جاك بقتار البطون و العشاق الاسطوريين . ويبحث جاك بقتار البطون ، وهو « يتمرغ » بجسم المرأة التي يقر بطنها ، بحثا لاشعوريا ، عن « العودة » الى جسم امه لكي يجد فيه مجددا ذلك السلام السعيد ، سلام ما قبل الولادة . اما العاشقان الخالدان ، فانهما ، بوصفهما قد حققا انصهارهما بصدق ولا يكوّنان غير شخص واحد ، يرجعان متشابكين الى الاحساس بضرب من الابدية والخلود اللذين وجداهما بعد ضياع .

وهذا هو الفرق بين المستوى الطفالي بصورة كلية ومستوى الانجاز الراشد . وعلى اي حال ، يبحث كلاهما عن سلام الام وعن الاحساس بالطلق ...

## ٢ - الأم في اثناء التحليل النفسي

عندما يتقدم المريض في التحليل ، يتجاوز مرحلة الذكريات الشخصية . ويتجاوز اللاشعور الشخصي حيث توجد الانفعالات والعقد المرتبطة بامه الخاصة به ، ويصل الى اللاشعور الجمعي حيث توجد الانفعالات المرتبطة ب الام بصورة عامة .

وينتقل المريض على هذا النحو من العدوانية والريبة ازاء امه الى الثقة الكلية بالام ، الى الثقة باللاشعور ، الرحم الذي خرجت منه جميع الاشياء .

وهذه هي الثقة عندئذ بالحياة والموت ، والعودة الى الام الكبرى<sup>(١)</sup>.

---

(١) انظر حلم سائق السيارة في الفصل العالي ، المقطع الحادي عشر « من الحلم الليلي الى الحلم المعاش » .

وذلك لا يحدث دائما دون عناء . إنه بحث . فالمرء يغادر على هذا النحو أمه وكل ما تمثله ، وينتقل الى سن الرشد ، بعد عبور راقات عديدة من اللاشعور .

فالأم واللاشعور مرتبطان ارتباطا وثيقا . وهنا يبدو رمز كبير هو الماء .

## تاسعا - الماء

الماء رمز يعادل الشمس في أهميته . ويفهم المرء ذلك بيسر . إنني سأقتصر على بعض مظاهر الماء كما نجدها في الحياة الانفعالية ، والأحلام الليلية ، والأساطير ، والقصص الاسطورية ، وتداعيات الافكار لدى المرضى في التحليل النفسي ، والعلاج النفسي الرمزي ، الخ .

**يظل الماء شبيها بذاته دائما . فليس له نطاق . وهو يتخذ الاشكال . إنه مرن ويفتق .**

ويرمز الماء الى اللاشعور قبل كل شيء . ففي عدد كبير من أسفار **التكوين** ، خرج العالم ( أي الأرض والحياة الواعية ) من لجنة المياه ( هوة اللاشعور ) . وفي المعنى ذاته ، خرجت الحياة الواعية من « مياه الأم » ( اللاشعور أيضا ) .

ويتضح إذن الى أي حد يمكن للماء أن يرمز الى **الأم والمرأة والموت الخالد** . والماء يجذب بصورة خفية ، ويستقبل ، ويحبك ، ويلتف ، ويفزو ...

والماء الرائق الصافي ، من **الناحية الموضوعية** ، شديد الخطر كالماء العكر والماء الأخضر المائل الى الزرقة ، وربما كان الماء الجاري شرا ، كالماء الساكن .

**وما الموقف من الماء من الناحية الذاتية ؟** ليس الأمر كذلك ، بل هو مختلف كل الاختلاف !

كثير من الناس يفرون من الماء الهاديء الساكن . والماء العكر مخيف ، لأن الإنسان « لا يعلم ما يوجد في الأسفل » ، الخ .

وبخاف هؤلاء الناس ، في اغلب الأحيان ، من لاشعورهم ومما يكشف عنه . وآخرون يعانون إزاء الماء ما يعانون من عواطف إزاء أهمياتهم ( جذب ونفور معاً ) . وتتغير هذه العواطف خلال التحليل النفسي . وكثير من الرجال لا يحبون الماء لأنهم يرفضون انوثتهم الخاصة . ولكن الخوف من هذه المياه يزول في نهاية التحليل النفسي . ويقول المرضى :

- حلمت هذا الليل بماء ساكن وعميق ، حفي بصورة أمومية وهادئة ...

والمريض ، في هذه المرحلة « يجد الوثام » مع لاشعوره .

وفد يكون الماء أخضر مائلاً الى الزرقة ، مخيفاً ووديعاً في الوقت نفسه ، شديد الخطر وجذاباً معاً . إنه عندئذ شبيه بالموت « الذي يحتضن العاشقين المتشابكين » . والموضوع معروف جيداً منذ زمن عريق في القدم .

والواقع أننا لا نزال في رمزية الأم . لقد رأينا في الفصل السابق ، مقطع « صوب الجنين » ، أن العودة الى رحم الأم كانت تمثل حينها دائماً . وذلك يعني : الانفلات من صعوبات الحياة ، والعودة الى البيت ، والعودة الى الأم ، الخ . وذلك يعني : « الدخول في بطن الأم الذي خرجنا منه » ، والإحساس مجدداً بالدفع الكامل ، والعذوبة الكاملة ، واللاوعي التام ، وجميعها نعرفها عندما كنا أجنة (١) .

ويرمز الماء هنا الى الموت والعودة الى اللاوعي السعيد . إنه أم جدابة . فائنة ، يبدو أنها تعيد بأبدية من السلام .

ولكي يستشعر المرء ذلك في أعماق ذاته ، حسب ان يقف على شاطئ مستنقع أخضر .

---

(١) ذلك ما يمكن ، من جهة أخرى ، أن يرمز اليه بـ « الصباب » . فالصباب يمنع المرء شعوراً بالاختفاء واللاذ والإحاطة ، وبانه في شرنقة مغلقة .

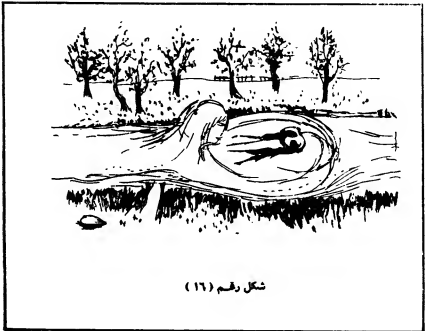


ونحن نصل إذن الى الطقوس العديدة ، طقوس **تفطيس** المرضى في المياه ذات المعاجز . ونكتشف يتابع الفتوة التي تزيل « الامراض ( الشيخوخة ) وتمنح الفتوة ( اي الخلود ) .

كذلك تتصف طقوس **المعمودية** بأنها عديدة في مجرى الزمن .

وثمة ايضاً ، في الديانات البشرية ، اصناف من **الطوفان** :

ويظلّ الموضوع هو التالي : الناس آثمون بسبب التمرد ( اي : الخطيئة بفعل العدوانية إزاء الرئيس الإله ) . ويقرّر الخالق تطهيراً كبيراً ( بالماء ) . فيشير طوفانا ( إذن ، « تنظيفاً كبيراً » روحانياً ) . وتزول البشرية في تلاطم المياه ( اي : تختفي في اللاشعور الذي خرجت منه ) . ولكن ثمة رجل « طاهر » مسمى ، نوح على سبيل المثال . إنه مكلف بتأسيس نظام جديد يجمع الناس الجدد والمطهرين ، وذلك إذن هو موضوع « الموت والبعث » الذي يفهم فهماً تاماً بعد الرموز التي رايناها فيما سبق .



شكل رقم ( ١٦ )

هذا الرسم انجزه صبي في التاسعة عشرة . ويصف الرسم ، وصفاً جيداً ، موضوع « العاشقين المتشابكين » اللذين يعودان الى الأبدية ( الماء يصبح الأم الكبرى ، أي سلام اللاشعور ) .

## ٢ - ما قيمة العقل هنا ؟

ليس للعقل قيمة كبيرة هنا . والواقع انه لا علاقة له بهذا المجال . فنحن بصدد مستوى مختلف كل الاختلاف . فأسلوب المحاكمة يتطور تبعاً للفرد واللحظة الحاضرة والظروف والأخلاق والحضارات ، الخ . والعقل يتغير زمنياً ونفسياً . أما اللاشعور الجمعي ، إياه ، فيظل شبيهاً بذاته ويؤثر باستمرار - وذلك غني عن البيان - في العقل . واللاشعور الجمعي شبيه بصوت آت من الأعماق النفسية ، ويردّد صدى الأجيال الكثيرة التي سبقتنا .

## ٣ - الإفراط والتفريط

وليس المقصود أن يستحوذ علينا اللاشعور الجمعي . إنها نهاية العقل عندئذ ، وإنه الاغتراب العقلي . ولكن على المرء أن تكون لديه القدرة على أن ينهل منه ، بعد أن يتحقق اتصاله بالأنماط الأولية الكبرى . وذلك ، من جهة أخرى ، هو الباب الذي يفتح في نهاية التحليل النفسي . فإذا كان اللاشعور المتضخم يعني جنوناً ، فإن اللاشعور الضامر يعني عقلاً متورماً . إنهم عندئذ هم الناس الذين يرسمون الحياة بالصلابة التي يتم بها رسم حاضرة أمريكية ، وهم ، في الواقع ، يلوذون بعقل متضخم خوفاً من لاشعورهم .

## ٤ - اللاشعور الجمعي والتحليل النفسي

النمط الأولي فعل منعكس لاشعوري كبير . إنه دائرة من الطاقة التي لا تنتظر غير الاصطدام حتى تنطلق بواسطة الرموز .

ومن يتصل من الناس بنمط أولي يتصف بأنه فريسة ضرب من



« الرعدة » لا يفهمه من لم يعان التجربة . ويمس المرء عندئذ ، في أعماق ذاته ، تجربة وانفعالا<sup>١</sup> إنسانيا خالداً .

ولا يمكن ارتياد اللاشعور الجمعي ، كما قلنا سابقا ، إلا عندما يتم تنظيف مشكلات اللاشعور الشخصي . فليس بمقدورنا أن نطلب الى انسان يعاني المأحادا في أسنانه أن يشعر بالفرح من إحساسه بالسير الوظائفى الكامل لكل جسمه . كذلك ( وهذا مثال ) يتعذر على إنسان يفوس في صعوبات وجدانية ذات علاقة بأمه أن ينظر في الأم بصورة عامة ، مع ما يفترضه ذلك من جانب إيجابى . فمشكلات أمه الخاصة به تغلق البوب الذى يقود الى الرموز الكبرى الخاصة بـ الأم بصورة عامة . كذلك فان صعوباته إزاء أمه تولد ضروبا من الخشونة في علاقته بالنساء . وسيكون متعذرا عليه إذن أن ينظر في المرأة بمظهرها الإيجابى . إنه سينسب الى النساء عواطف سلبية . وسيشعر بالريبة والعداونية ، باستثناء ما إذا انقاد اليهن كصبي صغير يبحث عن أم مثالية ، الخ . ولكنه سيتعذر عليه أن يحسّ بدور المرأة الأساسى إحساسا عميقا . وذلك لن يصل اليه إلا بعد أن يتحرر من أمه الخاصة به ، ويتصل برموز اللاشعور وأنماطه الأولية .

وكل هذا ذو أهمية قصوى إذن . فبمجرد بلوغ اللاشعور ، تبدو أحلام ليلية عظيمة . وتبرز رموز خالدة من الأعماق ، فتصبح وقائع يعيشها المرء انفعاليا ، وتوجه الوجود توجيها جديدا . ويفطن المرء عندئذ الى أن فاعلية لاشعوره الرمزية تهدى عقله وأفعاله ، وتهدى أيضا فاعلياته الروحية والفنية والسياسية والتاريخية ، الخ .

وعندما يبلغ الانسان هذا اللاشعور الجمعي ، يشعر بالأسف دائما على أنه لم يكن ، خلال سنين طويلة ، على صلة بالثروات العميقة التى كان يجهل وجودها .

## عاشرا - العلاج النفسي الرمزي

الهدف النهائي من تحليل نفسي - كما رأينا - تحرير الانا مما يخنقها وإعادة الأصالة والطاقة والحرية الى شخصية من الشخصيات ، وذلك بعد أن تكون راقات كبيرة من اللاشعور قد صعدت الى السطح .

ولكننا نعلم أن العمل التحليلي شاق ومؤلم ، ولا يناسب كل فرد . فسمة إذن سؤال يطرح نفسه : بالإمكان بناء الانا بناء جديداً بوسائل أخرى ؟ وهل يمكن ارتياد اللاشعور بطريقة أخرى ؟ وهل يمكن المساعدة على ضروب من احتياز الشعور تقود الى الشفاء ؟

من المعلوم أن **الأنماط الأولية والرموز** مشحونة بطاقة وانفعالات بناءة . و « احتياز الشعور » برمز من الرموز يتيح للفرد أن ينفلت من اناه الشخصية ، ويمدّ شخصيته نحو مناخ أكثر اتساعا وأكثر انسانية بصورة عميقة . وما دام الرمز مشحونا بالطاقة ، فهل بالإمكان سلوك « الدرب العكسي » والنزول نحوه ؟

وتبدو الأنماط الأولية والرموز ، بصورة عامة ، في الاحلام الليلية عندما يكون تحليل المريض متقدماً بصورة كافية . ويكفي على الغالب ، في هذه المرحلة ، لفت الانتباه الى هذا النمط الأولي حتى يولد مفعولاته . ولنتذكر أن **النمط الأولي ضرب من المنعكس القوي اللاشعوري** . كذلك يمكن لعالم النفس ، ببعض الشروط وفي بعض الظروف ، أن يساعد المريض على أن « يمسّ » بعض الرموز . ولكن عالم النفس الممارس ينبغي أن يأخذ بالحسبان - على نحو مؤكد - حالة المريض **الراهنة** .

تكلمت من قبل على العلاج النفسي الرمزي في مؤلفي الاول (١) . وأتكلم الآن عليه من وجهة نظر أخرى . وهذا يكمل ذلك .

---

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

## فلنعد الى الخيال

في فصل « ذكريات الطفولة » بينت ان ثمة إمكانا للجوء الى الخيال لكي يساعد المريض على إيجاد ذكريات « حرون او مكبوتة » . فهل يقف تطبيق الخيال عند هذه الحدود ؟ لا ، بالتأكيد . ويمكن استخدام الخيال لغايات شتى : العودة الى منابع الشخصية ، والوثام مع اعماق هذه الشخصية ، وتنمية الحدس والاحساسات العميقة ، وتوحيد الشخصية .

والخيال يتصف على وجه الاحتمال بأنه إحدى الوظائف الأكثر أهمية في الحياة الانسانية . يكفي مع ذلك ان يستسلم الانسان لنفسه خلال بعض اللحظات . فتنبعث عندئذ أضغاث أحلام ضعيفة كما تنبعث أحلام بقطة قوية يحس بأنه يعيشها بصورة واقعية . إنها ، في بعض الأحيان ، إلهامات فنية بمعناها الأسمى ، أعني بمعناها الأكثر اتصافاً على نحو عميق ولكي بأنه إنساني . فالإلهامات العظيمة الخالدة لدى بعض الفنانين ، من جهة أخرى ، ليست في الحقيقة سوى صعود بعض الانماط الأولية الكبرى الى السطح ، والانفعالات المرتبطة بها كذلك .

ومعظم الناس ، في مجتمعنا ، « مشوهو » خيال حقيقيون . فاعتبارهم له اعتبار هزيل ، وهم ، بالتالي ، ينفخون عقلهم كبالون من غشاء رقيق . والحال ان الانسان الذي ينقصه الخيال مقطوع الى جزاين ، ما دامت حياته العميقة تفوته .

## ١ - من الحلم الليلي الى الحلم المعاش

هل يمكن لمشهد خيالي ان يعيشه الفرد على نحو قوي بحيث يحتاج شخصيته كلها ؟ من المعلوم ان ذلك يحدث على نحو سلبي في بعض حالات المرض او الهذيان . ولكن الا يمكن أن تقلب الوضع ونجعل من الخيال قوة إيجابية ؟

ولم اتكلم في هذا الكتاب على تفسير الأحلام ، لان المقصود مجال متحرك

يتعدّر إزاءه سنّ القواعد . والحال ان تفسير الاحلام امر رئيس على الغالب في اثناء تحليل نفسي . فالحلم ضرب من « الفكرة اللاشعورية » . والاشعور يتكلم دائما لفته الخاصة ، لغة رمزية . ولاشعورنا شبيه بالة الكترونية تجري ضرباً من حساب الاحتمالات ، انطلاقاً من ملايين المعلومات التي تقدّم إليها .

وتصف بعض الاحلام حالة المريض اللاشعورية . وبعضها الآخر ينذر . وبما ان مهمة اللاشعور هي المحافظة على توازن الفرد ، فان بعض الاحلام تبدو بصورة حقيقية وكأنها تقول : « هذا ما ينبغي عمله لإصلاح الحالة أو للحيلولة دون ان تزداد سوءاً » .

وثمة احلام صفرى واحلام كبرى . فنقطة انطلاق الاحلام الصفرى كامنة على الغالب في بعض اوضاع الحياة اليومية . والى جانبها ، ثمة بعض الاحلام الكبرى التي تتصف بأنها أساسية . إنها تصدر عن الاعماق الإنسانية ، وتحقق غالباً تجارب داخلية قوية جداً . وللرموز الكبرى التي تنبعث من هذه الاحلام تأثير « انعكاسي » . فالمرضى يمكنه ، حتى دون ان يعلم ، تأمل هذه الرموز الكبرى وإنجاز خطوات حاسمة . وعلى هذا النحو إنما يتضح ان بعض الاحلام الكبرى تعدّل توجيه حياة ...

## أ - الاحلام في التحليل النفسي

ثمة ، على الاغلب ، اعتقاد لدى عامة الناس ، ان حيازة ضرب من « معجم الرموز » يكفي لتفسير الحلم ، ما دام الحلم رمزياً . وهذا الاعتقاد اعتقاد باطل بالتأكيد . فليس ثمة رموز ثابتة ابداً . وعلى المحلل دائماً ان يأخذ بالحسبان حالة المريض الراهنة وتطوره الداخلي والخارجي ، النخ، لكي يفسّر حلماً من الاحلام .

ها هما مثالان . وقيمتها هي قيمة الامثلة ، اعني لا قيمة كبيرة لهما ما دامام مفصولين عن سياقيهما . ولكنهما يبيّنان مع ذلك ، ضمن بعض الحدود ، مدى ما يتصف به تفسير الاحلام من سعة وصعوبة وحركية .

## المثال الأول

استولى الغضب على أحد المرضى بعد أن تكلم طويلاً جداً على اللون الأبيض الذي برز في حلم من أحلامه . وللهولة الأولى ، كان ثمة إمكان للاعتقاد بأن اللون الأبيض يقابل رمزاً أولياً كالطهارة والتطهر ، الخ . والحال أن هذا المريض يقول :

– الأبيض ، بالنسبة لي ، هو اللون الذي يصف بأنه أكثر الألوان إثارة للقرق . أنه لون الاستسلام .

ويتضح إذن أن المحلل كان بإمكانه أن يندم بعد لحظات لو أنه ، على هذا اللون الأبيض ، طبق الرمز الذي كان قد قدّمه « المعجم » إليه .

## المثال الثاني

الموضوع حلم ليلي :

– كنت في سيارة انسيابية ، أجري بهدوء في قلب غابة . وكانت الشمس ساطعة تقذف بأشعتها . وكنت أتوجّه نحو فرجة كانت تتسع بفتحة عميقة في الأشجار الملتفة .

ماذا يمكن أن تكون التفسيرات ؟ أنها منوطة بالحالة الداخلية الراهنة التي يوجد فيها الحالم .

ويمكن النظر إلى هذا الحلم وفق مستويين : مستوى اللاشعور الشخصي أو مستوى اللاشعور الجمعي . ولكننا ندرك أن المريض لن يلامس اللاشعور الجمعي بالتأكيد ، ما دام « يتعثر » بمشكلاته الشخصية ( انظر « ما هو اللاشعور الجمعي » في بداية هذا الفصل ) . وبعبارة أخرى ، ما دام سطح البحيرة مضطرباً بفعل العاصفة ، فمن غير المجدي أن نحاول رؤية الأعماق الكبيرة .

ها هما إذن تفسيران ممكنان لهذا الحلم نفسه :

## أولا - على مستوى اللاشعور الشخصي

السيارة الانسيابية ترمز الى القضيبي : إنها محدبة ، ثاقبة ، وهي تنفذ كالقضيبي .

ويتضح في الحال ان الفتحة في الغابة ترمز الى العضو الجنسي المؤنث .  
فالحلم إذن حلم جنسي بالمعنى الواسع . ويمكن ان يعني : (أ) عودة الى رحم الأم ( انظر « صوب الجنين » ) ، او قد يعني : (ب) ثمة رغبة في الانكفاء وغشيان المحارم مع الأم . فنحن في مجال عقدة أوديب و عقدة الخصاء . وتحدث هذه الرغبة في غشيان المحارم تحت بصر الأب ( الشمس ) الذي يتصف بأنه محرق ، وبالتالي مهدد ، ويحتمل ان « بسحق » ويخفي الابن الذي يرغب في ان تكون أمه له وحده .

## ثانيا - على مستوى اللاشعور الجمعي

لا يمكن ان نقدّم التفسير التالي إلا اذا لم يعد للحالم اي مشكل يتعلق بـ « أمه الخاصة به » .

يمكن لهذا الحلم أن يعني :

- السيارة المحدبة تلمع تحت الشمس : انظر الاله والشمس في هذا الفصل .

- إنها شبيهة بسلاح الأبطال الشمسيين البراق ، او بسيوفهم المتوهجة . فالحالم انجز كليته بوصفه رجلا : انظر الشمس والأبطال الشمسيين في هذا الفصل .

- يعود البطل الى اللاشعور ( الغابة ) . وبدلا من ان ينكفيء نحو أمه ، يتقدّم نحو الأم ، نحو الانسجام الكلي ( الطبيعة ) : انظر الأم في هذا الفصل .

والحالة الأخيرة تبين أن المريض بلغ مرحلة متقدمة جدا في تحليله النفسي : وهذا مشكوك فيه . الامر الذي يعني انه في الطريق الى التحقيق النهائي لشخصيته .

وغني عن البيان ان احلاماً اخرى ( اساسها الانماط الاولى ) تظهر ، قبل ظهور احلام من هذا النوع ، بكل ما يرافقها من « تشعبات » في الشخصية يفترضها ذلك ، اذ ان المرء يشعر ، كما قلت سابقاً ، بضرب من « الصدمة » عندما يتجلى للشعور نمط اولي .

## ٢ - لنعد الى العلاج النفسي الرمزي

الطريقة الرمزية ، كما قلنا سابقاً ، يمكن استخدامها كما هي . ويمكن كذلك ان تتدخل خلال تحليل دقيق . ويمكن ان تتدخل ، كما بينت ، لكي تنتهي « حالة التوقف » لدى مريض . وقد نستخدمها لكي نعيد بناء الشخصية ونوحدها بعد ان تكون مدحلة التحليل النفسي قد مرت عليها .

والمؤكد ان العمل الرمزي ينبغي ان يبحث عن اكبر نجوع علاجي . ولا بد له من ان يناسب كل شخص ، وكل حالة ، وكل مرحلة .

يضاف الى هذا ان بالامكان استخدام هذه الطريقة الرمزية عندما يكون الشخص عاجزاً عن مباشرة تحليل نفسي دقيق .

ولن ادخل هنا في اي تفصيل تقني خاص بالعلاج النفسي الرمزي . وحسبي ان اضرب امثلة تنصف ، على ما يبدو لي ، انها تتحدث بنفسها . وسيلاحظ القارئ ان مشكل الام يتكرر على الاغلب ، الام بوصفها في عداد الانماط الاولى الاكثر قوة .

### حالة جاك

جاك بلغ الخامسة والعشرين . إنه عازب ويعاني مشاعر عميقة من الدونية والاثمية ، ويعاني إحساساً بالعجز إزاء الحياة .  
اليكم جزءاً من جلسة من الجلسات :

— الحياة ، إنها شبيهة بالسلم . انا ، ما فعلت قط غير النزول ، ولكنني اريد الصعود . نعم ، نعم ، ذاك يحدث ... ارى سلماً يصعد ... انه لا يمضي طالياً جداً .

ولكن ، ثمة أخيراً عشيرة تامة من الدرجات مع ذلك ... أراها جيداً ... كما لو أنني كنت عليها ... وأشعر أن قديمي في أرض غضارية تمسك بهم ... وأحسّ أن هذه الأرض تتحول إلى يدين تمسكان بعرقوبيّ وتمنعاني من التقدم ... ثم هناك امرأة منتصبّة بصورة مستقيمة كل الاستقامة ، تقف فوق درجات السلم ...

— من هي هذه المرأة ؟

— انها تتمتع خوّدة ... انها نوع من الولكري(\*) ... ومعها سلاح ذهبي يلمع ... انها تضحك مشيرة بأصبعها اليّ ... وتمسك سيفاً يابانياً ... ماذا عليّ أن أفعل ؟

— ... ( صمت المحتل ) .

— انني أتسلّق ... وأحس بأنني أسحق بكعبتي تلك اليدين اللتين تمسكان بي . ثمة درجة تتكسر . أي إحساس هذا الذي يمكن للمرأة أن يحس به ! ... ومع ذلك ، فانا يقظ بصورة تامة وواعٍ بصورة تامة ... وأرى هذه الولكري التي تنظر اليّ ... انها تبدو قلقة ... ثمة سلّم آخر خلفها بدا ، سلّم لامع يصعد عالياً جداً ... أحس بأنني من هنا ينبغي أن أمضي ... ولكن هناك هذه المرأة التي تسدّ طريقي ...

— من يسدّ الطريق ؟

— سأصعد لكي أتأكد من ذلك . انني أعلم أن هذا كله حلم شعوري ، ولكنه ينير حصري كثيراً مع ذلك ... انظر إلى السلّم اللامع وكأنه وعد محرّم ... والحقيقة ، كنت أعتقد أن ذلك كان محرّماً بالنسبة لي ، لأنني كنت أعتقد بنفسى عاجزاً ... ولكن ... هل هذه المرأة تسدّ طريقي حقاً ؟ الست منخدعاً ؟ أجد نفسي أمام هذه المرأة ... انها تضع فتاحاً ، وسلاحها الآن ... رمي بالارض . انه أصبح حديداً أبيض . اليس ذلك هو الذي كان يخيفني ؟

— حاول أن ترفع هذا القناع الذي تلبسه .

— انه لأمر مضحك . رفعت هذا القناع عنها بصورة هادئة جداً ، كما شرّعت ضمادة الجرح ... واتخذت احتياطات كثيرة ... في حين أنني كنت أعتقد بأنني سأقتلع ذلك بخشونة غريبة ... أن وجه اختي هو الذي يبدو خلف هذا الضماد ... وجهها حزين ... انها تحرك رأسها ببطء ... وأشعر بجانب اختي على أنني أخ ... أمر غريب ، لم أعد أشعر

---

(1) الولكري : الة في الميتولوجيا السكندنافية ، مسؤولة عن قدر المحاربين « م » .



انني كمسي صغير . وقالت لي انها أخفقت في حياتها ولا تريد أن أماني المصير نفسه ...  
انني منسمر في مكاني ... كانت تخيفني ، وها أنا أتردد في تركها لكي أسعد الى أعلى ...  
فاشارت لي الى السلم اللامع ...

— هل تلاحظ ؟

— نعم ، أنظر بحدة ... ثمة شعاع من نور ... يصبح ... ضربا من القرص الاسفر ...  
وأرى نفسي أمام القرص اأوشك أن أبارز رجلا خرج منه ... وبارزت بالسيف . انني  
ارتدي دثار الجبازة اللامع ... انه يقدف برقا ... وأنظر مذهولا ... وأرى نفسي بالوضوح  
الذي أرى به على شاشة سينمائية واسعة ... أقاتل لاني أحس برغبة في أن أتجاوز . ولكن  
أتجاوز ماذا ؟ هل سأضي لارى أبعد من القرص ؟ القرص يكمد ... ويطير ... أنظر اليه  
يذهب وأنا أشير اليه ... والان أشعر في هذا المكان كما لو أنني كنت فيه ، ولدي انطباع  
بأنني ، كيف أقول ... أحترق بشدة في الداخل ... انني ... ولكن ماذا تجاوزت ؟

وهنا يبدأ جاك بالانتخاب انتخابا عميقا وطويلا .

فلنتقف هنا لكي نفحص بسرعة هذا « الحلم » الذي جرى دون أن  
يكون على عالم النفس الممارس أن يتدخل بصورة واقعية .

ماذا نرى إما على نحو مباشر وإما بفعل تداعيات الأفكار التي  
أجراها جاك ؟

**الأرض الفضائية .** يقوم المريض بالتداعي من تلقاء ذاته ، بصوت  
خفيض جدا .

إنها رائعة ، الأرض ... هنا ، إنها من الدبق ، من الفضاء الذي  
يحول بيني وبين الصعود ... أنا ، لم أخرج بعد من غضاري ... أبي  
واختي كانا هذا الفضاء . صنعاني بحسب أسلوبهما ، ولكن دون أن  
يمنحاني الحياة ... وحالا بيني وبين أن أكبر ... نعم ، إنها مع ذلك  
رائعة جدا ، الأرض ... فهي تهب الخبز للناس ، والقمح ... والانسان  
خرج من الأرض ... وأصبح جسما وروحا ... إنها رائعة ، الأرض ،  
عندما نغمرها الشمس ...

ويتضح هنا ظهور رمز الأرض الأم . واذكر بأن الأرض مرتبطة بالخصب إبد الدهر . والأرض التي يخصبها الماء والشمس تحمل الثمار . إنها الأرض المقدسة ، الأرض الأم . فمن الطبيعي إذن أن يكون الناس قد شبهوها بالمرأة دائماً . والأرض الخصيب تفتح بسكة المحراث ، وسكة المحراث ترمز الى القضيبي المذكور الذي « ينبش » أحشاء الأرض . ومع ذلك ، فإن هذه الأرض الأم لا تزال . بالنسبة لجاك ، من الدبق ، ومن الفضاء . إنه لم يخرج بعد من هذا الفضاء . ولم يتلق بعد « نفحة الحياة » التي يهبها الخالق الى الانسان الذي تصنعه الأرض .

**ماذا يحدث أيضاً ؟** يشعر جاك بأنه يسحق اليدين اللتين تمسكان به . والمقصود انفصال عنيف وشرس .

ورأى جاك ، في الليل التالي ، حلماً بالاضافة الى ذلك ، حلماً رأى نفسه أنه في صراع مع أخته ، الأمر الذي لم يكن يجرؤ على فعله في الواقع . وغمره هذا الحلم في حصر عميق خلال بضعة أيام ، ثم حدث ضرب من التحرر .

وقال بعد ذلك بقليل :

.. ليجيوا دائماً شخصيتي الى حد أنني كنت أشعر بالإم لان لي شخصية ! ولكن اليس الانسان إنما مع ذلك لان له شخصية ؟

● **السلّم** . السلّم يصعد في هذه الجلسة . ونحن ندخل هنا في رمزية الصعود . فلا يخطر ببال شخص أن يقول : « إنني » اصعد » نحو الظلام ، نحو ماضي » . فالانسان « يصعد » نحو النور ، ونحو المستقبل ، ونحو الروحانية ، كما يصعد نحو السماء .

يضاف الى هذا ان درجات السلّم ترمز الى « تغير في المستوى » ، متلماً رأينا ذلك .

● **الولكري** . إنها المرأة المحاربة ، المرأة الخرافية التي تخطف الأرواح . وترمز الولكري ، هنا ، الى سلطوية الأخت على سبيل الحصر ،

تلك الأخت التي قامت ، بالنسبة لجاك ، مقام الأم التي تتصف ، في الحقيقية ، بأنها مستبدة جدا . ويرمز السيف الى « الخشاء » الذي عاناه الفتى : تجريده من شخصيته ورجولته . يضاف الى هذا أن جاك قال فيما بعد :

— لم اقل لك ذلك ، ولكنني عندما رايت الولكري ، احسست احساسا جسيما مرعبا ، كما لو أن ثمة من سيقطع عضوي الجنسي ، وكما لو انني سامح امرأة ...

ومع ذلك ، استحال سلاح الولكري الى هديد ابيض بعد أن صعد جاك بعض درجات السلم ، إذن ، بعد أن حلّ مستوى جديد لدى جاك محل المستوى الذي كان له من قبل . ولتلاحظ أيضا أن « الأخت المرعبة » تصبح بعد ذلك اختا أما . وتستعيد وجهها الحقيقي ، وجهها الحزين . ويحس جاك ، في هذه اللحظة ، بأن سلطوية أخته لم تكن سوى ضرب من الدفاع الذاتي . فتصبح الأخت المرعبة أما نصيراً ...

● **القرص الأصفر** . يذكر بالشمس . **والسيف هنا رمز الرجولة** ، ورمز القضيبي الذي « يثقب » . ويتبارز جاك مع الرجل الذي خرج من الشمس . وهذا الرجل يرمز الى ابيه . ويرى جاك نفسه في دثار مخصر لامع . فنحن نلتقي هنا بالرمز الرائع ، رمز « البطل الشمسي » . وذلك يعني أن جاك ، من الناحية الرمزية ، انجز ما كان عليه ان يفعل منذ زمن طويل : ان يتصارع مع ابيه ( من الناحية النفسية ) ، ويصل الى التكافؤ معه ، ثم الى تجاوزه .

وفي هذا الحلم ، يصبح جاك في الحقيقة « شمساً فتية » ( إنه يرى نفسه يرتدي دثاراً مخصرًا لمّا . فالابن يحلّ محل الاب . والواقع أن الشمس ( الاب ) تكمد وتطير وتختفي . وينفصل الابن ، وقد بلغ سن الرشد ، عن ابيه ويبقى وحيداً . ثم إنه يمدّ يده الى أخته التي اكتشف وجهها الحقيقي .

وعليّنا ان لا ننسى ان جاك عاش هذا الحلم بصورة عميقة . وكان يقول :

— كنت احس بانني اعيش هذا الحلم بكل جسي ، وكل امصابي ، وكل عضلاتي ...  
وتجراً جاك ، فيما بعد ، ان يعود الى ذكريات الطفولة التي كان  
يرفض دائماً ان يتصدى لها ، لانها مؤلمة جداً . وتجراً جاك ان يفحص  
سلوك والديه بموضوعية ، لا من خلال عدوانية وحشية كانت تثير مشاعر  
عنيفة من الإثمية .

واصبح الإنكار اللاشعوري ، هنا كذلك ، موضوعية واعية .

### جزء آخر من جلسة

موضوع كلامنا صبيّة جامعية تابعت حديثها دون اي تدخل من  
عالم النفس . وتمّ ذلك في اثناء جلسة من جلسات التحليل النفسي  
الدقيق .

— واستمر هذا ، تشنتي ، وافكاري الغريبة ، وخوفي من الآخرين ، وحواري مع ذاتي  
... فانا ، طيلة النهار ، متوترة ومهمومة وقلقة . وارقب الآخرين لكي اعلم رايمهم بي ،  
فانا احرصد اقل كلام . ومبداً أقول لنفسي : « ولكن ماذا يمكن أن يفعل ذلك لك ؟ » . انه  
امر أقوى مني ، وذلك يعنني على نحو سيء جداً . فانا عصبية ومتوترة ، صه ، لقد قلت  
هذا من قبل . كنت اول امس عند أحد الأطباء . قال لي انني كنت اوهم وان ذلك ذو منشأ  
عصبي . انظر ماذا يقول . وقال لي : انصرفي مع خيالاتك وقومي بالتنزه في حديقة من  
الحدايق . ولكن اي حديقة ؟ ... انني حديقة ليست ذات اتساع ، وليست دائرية ولا  
حفيّة ، تسدها الأسوار . ومع ذلك ، اعلم ان ثمة حقولاً وراه السور ...

— ... ( المحلل صامت ) .

— اشمّر بانني مغلفة ، حبسية ذاتي . والشخصية الموجودة فيّ تقتل شخصيتي  
الحقيقية . انني اتخيّل جيداً هذه الحديقة التي تمثلني . فليس فيها نبات ، بل يسودها  
الغبار والجذب . وثمة شجرة غير نامية موجودة في وسطها . فهل من هذه الشجرة ينبني  
ان ينطلق كل شيء ؟ وثمة ينبوع قرب هذه الشجرة وعلى يمينها ، ينبوع مصاب بالفواق  
مثلي . انني مصابة بالفواق في الحياة ، واقدّم بقفراز صغيرة ... ارض الحديقة رخوة  
ورطبة . والرطوبة تذكرني بالمرأة ، وهذا ... هذا يشير تقوّرزي ... اكراه ان اكون امرأة  
بسبب ذلك ... ولو لم يكن الطمّث موجوداً ، لقبّلت ان اكون امرأة ... ومع ذلك ، فهي

أرس رطبة ... ( صمت طويل ) . فلاح للحديقة ، انه أمر رائع ... ( المذنب مسخض  
افصى ما يكون الانخفاض ) : نعم ، رائع الفلاح ... ( صمت طويل جدا ) .  
... ( المحلل صامت ) .

— كابة ، أوراق ميتة ، وكتاس يرفع كل ذلك . فهل هذا الكتاس هو الموت أو الأمل؟  
هل هو الفلاح ؟ هل هو أنت ؟  
— وكيف هي شجرة الحديقة ؟

— منحنية ، انها منحنية : مثلي . انني ملتوية ، منحنية نحو الأرض كما لو انني أحمل  
العالم ... وأعتقد دائما أن الناس سيجعلوني سخرية ، وأنهم ... أنا ، انني أفوض  
الأسوار ... ولدي الانطباع دائما بأن الناس ينظرون اليّ .. لدي انطباع بأنني موجودة  
بجانب هذه الشجرة غير النامية وبأنني أحاول أن أقوم انحناءها ... ولكن دون جدوى ...  
أرى الآن رجلا يسلم بجانب هذه الشجرة ... انه الفلاح ... وصا هي هذه الشجرة  
مستقيمة فجأة ، وتكسوها الأوراق والثمار ... أحس بما يشبه العذوبة اللامتناهية ...  
والآن أرى الشبوع الذي يسيل بهدوء والذي يستقي الأرض ...

لتلاحظ هذا الجزء من الجلسة . فالصبية « تسلسل » حلمها دون  
أدنى دعوة من المحلل . والحلم أثير على سبيل الحصر بفعل مجرد  
الارتباط بالحديقة التي تحدث عنها الطبيب إليها . ولنتقصر على النظر  
في الرموز ذات الأهمية ، علاوة على الحديقة التي توحدت بها الصبينة .

● الأرض . لم يكن يتعدى الأمر في البداية مجرد ضرب من  
الارتباط . إنها رطبة . وتفكر الصبينة بالأعضاء التناسلية المؤنثة . والحال  
أنها كانت دائما ، بصورة لاشعورية ، ترفض دورها ، دور المرأة ، لأنها  
قد توحدت بأم كانت الصبينة تكرهاها .

ثم يبدو رمز جميل :

● الفلاح . الفلاح « ينش » الأرض ، ويبددها ، ويحفر فيها  
الانثلام ، ويجعلها خصبة . فنحن ننفذ إذن هنا الى رمز الأرض ، والمرأة  
والأم . ولنتذكر كذلك أن الأدوات المستخدمة في « العمل » في الأرض ،  
كالملعقة والسكة والمنكوش وغيرها ، هي رموز القضيب ، إذ أن هذه  
الأدوات تنفذ الى الأرض . والفلاح - في هذا المجال ، هو الذي ينحصب .

وتظهر الصبينة ، بلهجة صوتها وضروب صمتها ، أنها تقبل إمكانية ان يخصبها رجل من الرجال . يضاف الى هذا أنها تظهر أيضا قبولها ان تكون في حمى الرجل : الفلاح يكتس الاوراق الميتة والهموم والذكريات القديمة والكآبات المزمنة ...

● **الشجرة** . الشجرة منحنية : إنها صورة تبين الحالة الداخلية للصبينة . ويبدو الفلاح بجانب الشجرة . وهذا الفلاح ، هنا ، يمثل الرجل الذي « يقوّم » الحالة الداخلية ، ويتيح الخصب للشجرة . فتصبح الشجرة مستقيمة ، محملة بالثمار مثل أم (١) . والشجرة هنا رمز المرأة التي تمّ إلقاها . يضاف الى هذا ان الينبوع اصبح ماء قويا يمتزج بالأرض لكي يخصبها .

### جزء قصير من جلسة

موضوع حديثنا رجل في الثلاثين ، باشر عملاً سيكولوجيا بسبب « الخجل » . وكان يجهل ان خجله لم يكن سوى التعبير عن العواطف اللاشعورية ، عواطف الإنمية . وكان قد ربّاه ابوان قطرا له الخوف من الخطيئة ومن اتفه الأخطاء . ومنعاه ، بفعل ضرب دائم من المراقبة ونزعة التدقيق ، خلال خمسة وعشرين عاماً ، من أن يحتفظ بشخصيته على الإطلاق .

فشخصية هذا الرجل كانت إذن قد بقيت محصورة . وكان إحساسه الدائم : « لا أكاد املك الحق في الوجود . ولست موجوداً إلا تبعاً لما يسمح به الآخرون » . وظلّ هذا الإحساس لديه لاشعورياً .

وبعد ان تكلم المريض على عزلته الداخلية طويلا . طلب اليه المحلل ان يجعل عزلته مرئية ، وان يجعلها تظهر في صور .

---

(١) الشجرة المثمرة هنا مقبولة مع احساس بالملوبة . ومع ذلك ، انظر الجلسة التي تعقب الجلسة التالية ، حيث تظهر كذلك شجرة مثمرة ، ولكنها ينظر اليها نظرة قرف بالرغم من انها تمثل الرمز ذاته .

— سورة عزلتي ؟ نعم ... أرى جيداً جداً ... انني في قلب الوسط من ... سهل من ... لا ... انه بالحري ، انه بالحري امتداد مترامي الاطراف من الالتيوم الممتد حتى الافق من جميع الجهات ... والطقس يبرد الى حد يتاوه الانسان منه . انني فيه وحيد ... وليس لمة غوث من اي جهة ... ( صمت طويل جداً ) . لمة طائفة تمر في السماء ... انها شبيهة بمصفور كبير غرافي ... سوداء فاحمة ... تطير على ارتفاع منخفض ، وتجه اجها مستقبلاً نحوي ، وتخذ شكل الانقباض ... وارى على متنها رجالا يعمرون الخوذات ويفضون النظارات . ينظر الرجال الي ، ويمدون رشاشاتهم ... والطائرة تنقض دائماً ... تقتلني ، وتعاقبني ... ( يرفع المريض صوته ويبدأ بالصراخ ) : ولكنني ماذا فعلت اذن حتى يقتلوني ؟ هل يريدون قتلي ، او هل انا الذي اريد ان اقتل نفسي ؟

هذا الجزء واضح بالتاكيد ، بالرغم من ظهور رمز قوي فيه .  
**والطائرة السوداء** هنا عصفور العذاب والموت : فهي رمز القصاص . فعلينا ان لا ننسى ، والحال هذه ، ان هذا الرجل كان يشعر دائماً بالإثم وكان يعاني الاحساس بوجود تلقتي القصاص .

وتحتوي الطائرة السوداء رجالاً يعمرون الخوذات ويضعون النظارات . فهم إذن غير معروفين . إنهم يمثلون العذاب الآتي « من الأعلى » . والعذاب هو « الانتقام » الآتي من السماء اذا صح القول . وهنا نمس رموز القصاص السماوي، والصاعقة اكثر هذه الرموز تكراراً.

ومع ذلك ، تكلمت على **الصحن الطائرة** التي يعود نجاحها الى كون الناس يرغبون بصورة لاشعورية في ان يكون على متنها موجودات عليا ، مكلفون بـ « إنقاذ » الناس وقيادتهم نحو « ارض موعودة » . والطائرة السوداء ، هنا ، هي صحن طائر « بالقلوب » ، إذا جاز لي ان اقول ذلك . ويبدو في نهاية هذا الجزء ، مع ذلك ، اول ضرب من احتياز الشهور بعاطفة الإثمية والحاجة الى القصاص .

– ماذا فعلت إذن حتى يقتلونني ؟ هل أنا الذي أريد أن أقتل نفسي ؟  
واليكم أيضا جزءاً من جلسة :

اخترت هذا الجزء قصيراً جداً ، لأن المرء يرى فيه ظهور الرمز الذي ظهر في جلسة الصبيّة الجامعية ، ولكن الاحساس به هنا إحساس على نحو متعارض كل التعارض .

– انها روضة واسعة ... وئمة شجرة ضخمة كثيفة ... محملة بالتفاح الضخم على نحو غريب ... ولا أعلم لماذا ، ولكنني أحس بنمّ غريب ... بتقوّر على وجه التقريب ...

لماذا كان هذا الشخص ، الشاب ، يحسّ بمثل هذا القرف أمام شجرة مثمرة ؟ وهذه هي تداعيات أفكاره حول هذا الموضوع :

– هذه الشجرة تجعلني أفكر ب ... لا أجرؤ على القول ... بتثوّرة ... ولدي انطباع بأنني لو وجدت تحت هذه الشجرة لكنت تحت تثوّرة امرأة ... وبأنني أركب ضرباً من ... وبأنني أسترّق النظر ... وشجرة التفاح هذه تجعلني أفكر بامرأة حبلى ذات صدر ضخم وبنّ كبير ... وهذه الثمار هي التي تثير تقوّرّي على وجه الخصوص . انها مع ذلك رائحة ...

هذا الجزء يتحدث بذاته . فهذه الشجرة المثقلة بالثمار ، المستديرة والكثيفة ، تمثل المرأة . وهذه المرأة ، في هذه الحالة المحددة ، هي أم المريض . وهذا المريض مصاب بـ عقدة أوديب (١) . إنه كبّت انجذابه الجنسي نحو أمه . يضاف الى هذا ان أمه كانت « متعلقة » به تعلقاً قوياً . والحقيقة ان الأم والابن قد حققا ضرباً من « الثنائي » كان يتمرد الابن ضده دائماً ... وهو ينمّي في الوقت نفسه نوعاً من الخضوع الكامل لأمه .

### جزء آخر من جلسة

موضوع الحديث مريض ، عامل ذكي ولكنه لا يتمتع بأي ثقافة رمزية

---

(١) انظر « الانتصارات الملهلة لعلم النفس الحديث » .



امكنها التأثير عليه . إنه يتكلم على وحدته ومخاوفه ، ودعي الى أن يدع المجال لظهور صورة تمثل حالته .

— ميثال الى الوداعة ... اخضر مزرق ... كالقمر ... كالماء ... القمر والماء . هذا لا يتحرك ... ثمة قارب ساكن ... انني لا ارجب في ركوبه لكي أمضي لرؤية الجانب الآخر من الماء . فهل ثمة على وجه الاحتمال شمس في الجانب الآخر ؟ ... ميثال الى الوداعة ... عدم ... ارى منظرا قمريا ... باردا ... أبيض ... ينساب في هذا الماء ... ومع ذلك ، اليس هذا السكون ضربا من الوعد ؟ ... من العدم ؟ من الحياة الممكنة ؟

إننا هنا إزاء رمز رائع جدا يصبح إيجابيا في النهاية بعد أن كان سلبيا في البداية . **القمر والماء** هما ، هنا ، رمز الموت . ثمة رغبة لدى المريض في الانتحار : غواية الانزلاق والانسياب في الأعماق الساكنة والعودة الى العدم . إنه **ضرب من العودة الى « رحم الأم »** ، الذي تكلمت عليه فيما سبق ، يمثل الوضع الانساني قبل الولادة مع ما يتصف به من عدم الوعي السعيد ، الخالي من المشكلات والصعوبات والمسؤوليات .

ثمة **قارب** يبدو . فنحن هنا في مجال الرمز الرائع ، **رمز العبور** ( انظر عنوان « خامسا » في هذا الفصل ) : على البطل أن يعبر امتدادا من الماء لكي يبلغ حياة جديدة ويصل الى النور ( « هل ثمة على وجه الاحتمال شمس في الجانب الآخر ؟ » ) . إنها قصة يونس وكثيرين آخرين . ولكن القارب يظل ، في اللحظة الراهنة ، ساكنا ، والعبور لا يتم .

ومع ذلك ، يطرح المريض على نفسه السؤال التالي : « هل هذا الماء **ضرب من الوعد ؟** » فنحن ندخل في رمزية **ماء الحياة** . والمقصود ماء ساكن بالتأكيد ، ولكن ثمة إمكانا لانجاس خلق منه ( كمياء النشوء التي سبقت ظهور الأرض ) . والمريض يشير الى ذلك : يحتوي هذا الماء على عدد كبير من البذور ، وهذه البذور يمكن أن تصبح حياة .

### ٣ - الخلاصة

نوائد هذه الطريقة عظيمة جدا على الغالب . ولكن من الضروري الوصول الى أن يعيش المريض حلمه بعمق . ويحدث غالبا ، بالإضافة

الى ذلك ، ان يحس المريض بحلمه ، على نحو يمضي الى الحد الاقصى ، حتى في عضلاته . فهو لا يمثل حلمه تمثيلاً ، بل يعيشه . وتقدم هذه الطريقة ، مثلما قلنا سابقاً ، فوائد عديدة : ينتعش التوتّر السيكولوجي بسرعة على الغالب ، متيحاً على هذا النحو ضرباً من التحليل في العمق ، تحليل أكثر تنقيباً ، دون ان يحدث الحصر . ويمكن إذن لهذه الطريقة ان تمنح كثيراً من الحيوية . وهذه القوة الجديدة يمكن استخدامها في العمل وقتاً أطول ( ولا أتكلّم هنا على البحث عن ذكريات الطفولة ) .

وتتيح هذه الطريقة كذلك ان نتوصل الى « عزل » بعض المضامين اللاشعورية . وتقوم هذه الطريقة أيضاً على ترك الفرد ينقاد الى لاشعوره الذي يملك المعارف القيّمة عن حاجاته الحقيقية ، ويمكن ان تقود نحو تكاملها .

وكل شيء منوط بالمريض أيضاً . فبعضهم يسلسل حديثه انطلاقاً من صور ، كما قد يسلسلونه انطلاقاً من كلمات ( انظر ثانية ، حول هذا الموضوع ، مثال الحديقة ) . وبعضهم الآخر يحتاجون الى الإرشاد ، خطوة خطوة ، في ارتيادهم الدهاليز . وآخرون يتركون حقاً انفسهم « تنساب » في لاشعورهم بكل ما يمكن ان يمثله ذلك من أخطار لو لم يكن يرشدهم عالم النفس . وعلينا ان نتذكر ان اللاشعور يحتوي غالباً على تجارب مكبوتة من الأفضل عدم مواجهتها مواجهة صريحة .

هذه الامثلة القليلة العدد قصيرة جداً بالتأكيد . وهي ذاتها مستخلصة من اجزاء أطول ، ومأخوذة من عمل سيكولوجي طال زمنه . إنها محدودة جداً ، ولا يمكنها ان تقدم غير فكرة غامضة جداً عن العلاج النفسي الرمزي وعن إمكاناته الواسعة في بعض الاحيان .

وعلينا ان لا ننسى ان رمزاً من الرموز ليس رأياً من آراء الفكر . بل إن الرمز مشحون بالانفعال والطاقة ، ويتوطن في موجودات من لحم ودم . فالصور والرموز تصبح ، في العلاج النفسي الرمزي ، وقائع يحسّ بها الفرد إحساساً عميقاً . ومن الغريب في بعض الاحيان ان يلاحظ المرء

الى اي حد يمكن لرمز من الرموز أن يجعل ضرباً من الطاقة الهائلة  
ينبجس ، ويزيد النشاط النفسي ، ويجعل الرؤية واضحة ، ويبني  
الشخصية بناء جديداً ويوحدها .

## حادي عشر – اللاشعور الشخصي

اللاشعور الشخصي يتحدد بذاته : إنه جزء من اللاشعور الذي يتكوّن  
وفقاً لتجاربنا الفردية وتاريخيتنا الشخصية . ويفهم المرء بصورة مباشرة  
أن اللاشعور الشخصي يكون على الغالب ملوّناً ومريضاً .

وارتياده المعمّق اساسي في التحليل النفسي بصورة مؤكدة ، إذ أن  
حرية الانا منوطة بـ « تنظيفه » .

### التوجه نحو العصاب

تكلّمت على العصاب ، في مؤلّفي الاول (\*) ، بما فيه الكفاية بحيث  
لا حاجة للعودة اليه . ولتستعد مع ذلك بعض المفاهيم الأساسية ،  
ولتنظر في اللاشعور الشخصي من خلال وجهة نظر التحليل النفسي . ثم  
لنوسع مفهوم الكبت . اما فيما يخص العقدة ، فأنني أحيلكم ايضاً الى  
كتابي الاول ( اي الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث ) . واقتصر على  
« حالة » واحدة تبين الى اي حد ينبغي أن نتجنب اتخاذ العرض على  
انه العقدة ذاتها .

### للاشعورنا ، هذا الواقعي

يشير اللاشعور امراضاً على الغالب ، والعصاب أشهرها . ولا بد من  
معرفة ما يلي قبل كل شيء : دور اللاشعور ، وقد رأينا ذلك سابقاً ، أن  
يحافظ على التوازن ، أو أن يعزّز توازننا مهتدداً . فهل اللاشعور إذن

---

(\*) - المقصود بذلك « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

حزناً محتواه أصناف الكبت والمصاب والعقد ؟ نعم ، بالتأكيد ، ولكن  
لا بالمعنى الذي يفهمه المرء بصورة عامة ، كما سنرى .

اليكم مثلاً : يمكن للاشعور أن يثير الحمى . والحال أن الحمى ،  
وإن كانت تحمي ، يمكنها أن تتجاوز الحدود إلى الهلوسة والموت . وقس  
على ذلك معظم الآليات اللاشعورية ، آليات الحماية . فإذا تجاوزت  
حدوداً معينة ، فذلك هو العصاب ، والحصص الكبير ، والاغتراب  
العقلي أحياناً .

وعلينا أن لا ننسى أن مرض الإنسان يمثل دائماً محاولة تقوم بها  
العضوية لتحقيق شفائه . وكل ما هو « مرضي » في لاشعورنا يتصف بأنه  
من الطراز نفسه .

## ١ - الكبت

الكبت آلية من آليات اللاشعور تحول دون أن يصل الدافع إلى  
ساحة الشعور .

إن فرويد يعقد الموازنة التالية على وجه التقريب : ذلك كما لو أن  
شخصيات ذات شعر اشعث ، قذرة ، عارية كل العري « غير المعترف  
به » ( الفرائز ) ، كانت ترغب في أن تخرج من كهفها المظلم ( اللاشعور )  
لكي تجتاح الصالة ( الوجدان الأخلاقي ) التي تصل فيها سهرة عالمية إلى  
أوج نشاطها .

بين الكهوف المظلمة والصالة المنيرة ، في الظليل ، يمكث رتل من رجال  
الشرطة : الأنا العليا .

ويصعد الدافع الفريزي ، اللتحي ، بعض الدرجات ، فيصطدم  
بقوات الأنا العليا ، وعليه أن يبرز أوراقه . فإذا كان ثمة كبت ، ردّ  
ساكن الكهوف إلى حفره ، دون أي صورة أخرى من صور الدعوى .  
ولكن الشخصيات المنهمكة في الصالة تجهل كل شيء مما حدث .

وبعبارة أخرى : يجهل الشعور دائماً ان ثمة كبتاً قد حدث . ولا يعلم المرء بوجود الكبت إلا عندما تبدو الأعراض على السطح . فالحصر ، على سبيل المثال ، المحسوس بصورة شعورية ، يمكن أن يكون عرضاً من أعراض الكبت ( اللاشعوري ) .

**لماذا يحدث كبت ؟ ولماذا يظلّ لاشعورياً ؟** إن الكبت يعمل على الدوافع الآتية من اللاشعور . وثمة كبت لأن الدافع يهدّد الشخصية بفقدان توازنها . فما التهديد ؟ وما المهدّد ؟ لقد تكلمت على الغرائز في فصل « خزان الغرائز » . والحال أن الغرائز تجهل الأخلاق والمحرمات والممنوعات والمباحات . واللاشعور يولد الغرائز ، شأنه في ذلك شأن مفحّم السيارة الذي يولد بخار البنزين . فمن اليسر أن يفهم المرء أن ثمة « شيئاً ما » يحدث بمجرد أن يكون **أحد الدوافع اللاشعورية** في حال من عدم الوفاق القوي مع الأخلاق اللاشعورية للأناس العليا . وهذا « الشيء » هو الكبت .

وما دام الكبت يتم انطلاقاً من دافع قوي ، فإنه دائماً مشحون بالطاقة والانفعالات . ولكن هذه الانفعالات لاشعورية كالكبت على حد سواء . فالانفعال وهذه الطاقة « يدوران » حول الكبت عندئذ كدوران الإلكترونات حول النواة ...

ومع ذلك ، ينبغي أن لا يتخيّل المرء أن كبت دافع من الدوافع يتم من وقت إلى آخر . فهو يكبت دافعاً لأنه يمثل خطراً على شخصيته . ولكيلا يبدو الخطر ، **ينبغي أن يظلّ الدافع مكبوتاً** ، الأمر الذي يقتضي بذل جهود لاشعورية مستمرة وكبيرة . مثل ذلك نهر ( الدافع ) يهاجم بصورة مستمرة سدّاً ( الأنا العليا ) يوقفه في كل محاولة من محاولاته في أن يسيل نحو الوادي ( الشعور ) . فتمة إذن صرف للطاقة دون جدوى ، وإضعاف للشخصية . وتغضي جملة من ضروب الكبت ، التي تستمر على الغالب طيلة حياة برمتها ، إلى التعب والكفّ والاكتئاب . والسبب أن الحياة اليومية قد تكون بحاجة إلى هذه الطاقة التي تجمّدت

بفعل الكبت الداخلي . ومثل ذلك مثل مصدر كهربائي كان عليه أن يغذي مصابيح قوية غير مرئية ، وأن يغذي في الوقت نفسه مصابيح الاستعمال المنزلي التي يثير الدهشة مردودها الضعيف دون اكتشاف السبب .

### عندما يكبت المرء جزءاً من شخصيته ...

نعلم الآن أن الرجل قد يكبت الجزء المؤنث من شخصيته ، وأن المرأة قد تكبت الجزء المذكر من شخصيتها ( نصف الشخصية ! ) ، وأن بالامكان « إسقاط » هذه الضروب من الكبت بكل نتائجها الممكنة ( حب ، زواج ، اختيار مهنة ، الخ ) .

وسنح يونغ أيضاً مفهوم الكبت الذي اكتشفه فرويد . ولاحظ يونغ بالتجربة أنه كان ممكناً للمرء أن يكبت **وظيفة** من وظائف شخصيته .

**فما هي الوظيفة ؟** يمكن موازنة الشخصية بدائرة مقسومة الى أربعة أقسام . وكل « ربع » منها يمثل وظيفة .

ونلاحظ الوظائف التالية على هذا النحو :

- **الفكر** : الفكر وظيفة شعورية . إنه يقرر ما هو موجود .
- **الاحساس** : وظيفة شعورية ولاشعورية معاً ، تتيح لنا أن ندرك الحياة إدراكاً عميقاً .
- **الحس** : وظيفة لاشعورية تولد « البداهات » ، دون أن تتدخل المحاكمة .
- **المعاطفة** : وظيفة ثانوية تتحد بالفكر والاحساس . إنها تخبرنا عما يبدو أنه يناسبنا .

ومن المعلوم ، بحسب التجربة الشخصية ، أن الوظيفة الأولى ، **الفكر** ، أكثر نمواً لدى الرجال ، وأن للنساء وظيفة ذات أهمية ، وظيفة **الحس** ( وكل هذا ليس سوى تخطيطية ) .

ومع ذلك ، تشكل هذه الوظائف الأربع جزءاً من كل شخصية ، امرأة كانت أم رجلاً . ويدرك المرء تمام الإدراك أن أي امرأة تتصف بأنها **حذس على سبيل الحصر** ، وبأن وظيفة « الفكر » غير موجودة لديها ، ليست سوى جزء من امرأة . كذلك فإن أي رجل يتصف بأنه فكر على **سبيل الحصر** ، ودون حذس على سبيل المثال ، ليس سوى آلة حاسبة تثير الرثاء .

والمثالي أن نتوصل إذن ، من خلال العلاج بالتحليل النفسي ، إلى أن نعيد التوازن إلى هذه الوظائف الأربع في قلب الشخصية وأن نوحدها .

**وقد يحدث غالباً ، والحالة هذه ، أن تكون إحدى الوظائف مكتوبة برمتها . ولنتخيل طفلاً يلجم عفويته باستمرار أبّ سلطوي . ولنفرض أن هذا الطفل يشعر ، بعد زمن معين ، بأنه آثم أو أحمق في كل مرة يحتفظ بشخصيته ، أي يكون عفويًا .**

وبالتدريج ، يكبت الطفل إذن هذا الجزء من شخصيته ، الذي يمثل التعبير عنه خطراً من الأخطار .

وسيقول في نفسه : « إذا كنت عفويًا ، فأنني أصطدم بمعارضة أبي التي تتصف بالاحتقار ( أو بمعارضة أمي ) . وأشعر بالإثم لكوني عفويًا ، ولن أكون بعد عفويًا . وسأمثل دوراً من الأدوار » .

ولنتخيل أن هذا الطفل يكبت وظيفة **الاحساس** لديه . والحال أن هذه الوظيفة مشتقة من الغريزة . وقوامها « العفوية » و « الاحساس بالحياة » ، والانفتاح انفتاحاً واسعاً للوجود ، وكون المرء محتفظاً بشخصيته .

فإذا كانت هذه الوظيفة مكتوبة ، زال ربع الدائرة وكانت الشخصية مبتورة .

ولكن الفراغ لا بد من سده ! وإضعاف الشخصية لا بد من تعويضه

بتعزيز وظيفة أخرى . فنتضح وظيفة أخرى وتنتفع . ولتكن هذه الوظيفة على سبيل المثال وظيفة «الفكر» .

ولنتخيل هذا الطفل وقد أصبح رجلاً . فوظيفة « الإحساس » لديه مكبوتة ووظيفة « الفكر » لديه متضخمة . كيف سيكون هذا الرجل ؟ سيكون عقلانياً بافراط ، ويلجأ الى المحاكمة بدقة مغالية . ولن يعتمد إلا على عقله الذي يجري المحاكمات . وسيكون مفصولاً عن « إحساسه » ... وعن حدسه على وجه الاحتمال . ولن يصفي إلا الى حساب المحاكمات الجافة ، ولن يسمع أصواته الداخلية ، وسيكون هذا الرجل إذن عاجزاً عن الاحساس بشيء من الأشياء . وسيرفض ، رفضاً لاشعورياً ، ان ينقاد الى إحساساته وعفويته ، وسيفرض على نفسه ، بصورة لاشعورية ، تمثيل دور السيادة على الذات باستمرار ، ودور الكمال في الفكر والمحاكمة ، ودور الاخلاقية المزيغة والفضيلة المزيغة ، ودور الذكاء بأي ثمن ، الخ . وغنيّ عن البيان ان ذلك سيكون الكارثة في مجالات تقتضي المغوبة ، مجالات الجنسية والصلات مع الغير ، الخ .

وقد يبدو اكتشاف هذه الوظائف الأربع اكتشافاً مجرداً ، او انه « رأي من آراء الفكر » . والحال ان ملاحظة هذه الوظائف الأربع وإعادة التوازن اليها تشكل جزءاً من العلاج بالتحليل النفسي . وتكون هذه الوظائف بنية الموجودات الحية . فاذا حررنا ، في التحليل النفسي ، هذه الوظيفة المكبوتة او تلك ، رأينا شخصية المريض تفتني وتتوحد ، مثلها مثل شجرة غير نامية اكتست بالشمار والاوراق والجلود .

**ولنفترض ايضاً رجلاً كبت وظيفة « الاحساس » لديه برمتها ...** وكبت كل ما يدور حول هذه الوظيفة . فهو ، في الوقت نفسه ، يكبت الجزء المؤنث من شخصيته ، بالنظر الى أن وظيفتي الاحساس والحدس ذواتا مؤشر مؤنث . ولن يجروا ابداً ان يكون سلبياً ، ولن يجروا ابداً ان يكون مرناً ، ولن يجروا ابداً على ان يستسلم للحب ... ما دام غير قادر ، على الاطلاق ، « ان يكون عفواً » ...



## عندما ينطلق المكبوت

ماذا يحدث عندما « تصعد الى السطح ثانية » وظيفة من الوظائف في اثناء التحليل النفسي ؟ يحدث اول الامر ان يستقرّ ضرب من التوازن ، وما كان متضخماً يزول تضخمه . وعلى سبيل المثال ، سيكشف هذا الرجل ، الذي كان موضوع حديثنا منذ قليل ، عن ان يكون عقلياً بافراط ، ويمكنه ان « يدع نفسه على عفويتها » . وسنكون إزاء رجل جديد يعتمد على وظيفتين تتكاملان على نحو يدعو الى الإعجاب: الفكر والاحساس . وسيكون مختلفاً كل الاختلاف عما كان عليه من قبل . فثمة مجالات كاملة من الحياة تنفتح له ، مجالات كان يجهل وجودها .

ويصبح إذن : ١ - متصفاً الى حد كافٍ بصفات الذكورة لكي يفكر بوضوح وصفاء ، ويكون فحلاً دون مبالغة ، ويمطي ويحب ، ويهدي ويقود ، دون ان يكون متبجحاً ؛ ٢ - متصفاً الى حد كافٍ بصفات الأنوثة لكي يتلقى ، ويكون مرناً ، ويتمتع بالحياة ، ويستسلم الى مسراته الداخلية واللاعقلانية .

إنه إذن ، وأكرر ذلك ، عالم جديد ينكشف عندئذ . ولكن الخطر يظلّ الخطر الذي رايناه من قبل . فإذا « اختار » أحد الرجال أصدقاءه وزوجته ومهنته ولهوه ، وبالاختصار ، إذا أقام حياته على ما كان ، تعرض الى خطر ان يجد نفسه امام كثير من العناصر التي لا تناسب ما هو عليه . ولكنه خطر موجود في كل تحليل نفسي ، خطر يتم على الغالب إبعاده بالذكاء والفهم . والواقع أن هذا الخطر قلتماً يفضي الى إزعاجات جدية بالنسبة للوسط الذي يحيط به ، إلاّ إذا كنا إزاء وسط مصاب بالعصاب على نحو عميق .

## ٢ - العقد

أقدم تعريفين مختصرين للعقدة ، ولكنهما واضحيان :

**تعريف يونغ :** العصاب ضرب من تفكك الشخصية ، ناجم عن وجود العقد .

**تعريف أدلر :** العقدة مجموعة من النزاعات النفسية المشحونة بالطاقة الانفعالية .

والعقدة شخصية لاشعورية ، منفصلة عن الشخصية الشعورية ومتعارضة معها . وبما أن العقدة مشحونة بالطاقة ، فإن هذه الطاقة تظل مجمدة . والشعور والارادة لا يستفيدان من هذه الطاقة إذا بقيت مجمدة . يضاف الى هذا أن عليهما أن يصارعا عدواً غير مرئي صراعاً خفياً . فثمة إذن كفّ ، وضعف في الارادة ، وانخفاض في التركيز ، ونقص في التلاؤم مع الحياة اليومية ، وتعب ، وتوتر ، وإرهاق انفعالي . ولهذا السبب كان فكّ العقد ذا أهمية كبرى في التحليل النفسي . وقد يكون الأمر متعلقاً في بعض الأحيان بـ « حوض » من الطاقة ما كان ممكناً للمريض أن تكون لديه فكرة عنه . إنها تجربة نفسية وجسمية ، إذ أن الطاقة غير المستخدمة تصبح جاهزة . وتزول ضروب الكفّ بالتأكيد ، وتختفي أيضاً صنوف من التعب أو من المحدودية في العمل ما كان ممكناً لأحد أن يشرحها . ويبدو التركيز وسرعة الفكر مجدداً . وهذا امر يمكن فهمه بعد كل شيء ... إذ أن الشخصية تعود كاملة ، متحررة من جسم غريب « كان يتغلّص بدمها » .

إنني اضرب مثالاً يبين النزول في الاعماق نحو وضع عقدي(\*) ، منطلقين من عرض يتواتر ظهوره كثيراً .

### حالة بول

الحالة التالية ، الموصوفة وصفاً يقتصر على الأساسي منها ، يمكن تطبيقها على العديد من الأعراض الأخرى . وانطلاقاً من عقدة مزعومة ، سنرى **الآنا العليا**(١) تعمل برشقات مسمومة ، وضرباً من الإثمية يقرض

(\*) نسبة الى عقدة « م » .

(١) انظر في هذا المؤلف فصل « عندما الشيطان يقود الرقص » .

التخصية ، وعقدة اوديب تبدو ، في النهاية ، على انها الشخصية  
الاخيرة في مشهد مأساوي .

وسنرى ان **الهوس** الذي تعانيه إحدى الصبايا لم يكن غير الشوكة  
الصفيرة ، الواخزة بالتأكيد ولكنها المستوطنة ، المفروسة في وضع  
عقدي عميق .

**وبول امرأة صبية بلغت العام السادس والعشرين** ، تعيش مع  
أبويها . إنها جميلة جداً ولكنها تخاف خوفاً مذعوراً من الزواج ، وتعاني  
في الوقت نفسه لونا من « الهوس » المنهك .

— تمنيت ان ازوج ، ولكنني اخاف . ولا اريد ان ازوج لانني مصابة بـ « عقدة »  
الهوس . ففي المساء ، اقوم عشرين مرة بدورة في البيت لاثبت من إغلاق الأبواب  
والمصاريع . ولا افصح في التخلص من ذلك ... واستائف دون هدنة ... ولا بد لي من ان  
ابدل مجهودا كبيرا لكي اذهب للنوم . وعلى ايضا ان استخدم حيلة لا يمكن تخيلها حتى  
لا يستبين أبواي شيئا ... واستمر ذلك منذ سنتين وفي كل مساء ... واصابني الإنهاك  
من هذا الصراع الذي تغف إرادتي عاجزة امامه ... فكيف بمقدوري ان ازوج في هذه  
الاحوال ؟ هل تظن بان ثمة إمكانية لـ « رفع هذه العقدة » ؟

— إنها ليست عقدة . إنه مجرد عَرَض .

— هل يعني ان ثمة شيئا آخر اكثر عمقا ؟

— هو كذلك . وسنبحث عنه .

— آه نعم ! افضل ان اكون عمياء على ان اعاني هذا الوسواس .

إن بول تقول ذلك : إنه وسواس ، شأنه شأن كثير من الوسواس ،  
يتعلق هنا بإثمية لاشعورية .

— هل تملكين سيارة ؟

— نعم ، لاذ ! ( قالت ذلك بلهجة عدوانية ) . فهل تطلب من مالكي السيارات  
اجورا اعلى ؟

— بيتسم المحلل .

— معلدة . لدي الانطباع دائما بان العالم برمته يبحث عني ويحقد عليّ ...  
واشعر كما لو أن الناس يشيرون إليّ . ومع ذلك لم أقفل قط شرا ! نعم ، عندي سيارة .  
— هل ثمة بعض ضروب الهوس تبدو فيما يتعلق بالسيارة أيضا ؟

— نعم ، ولكنها أقل شدة ... احقق كل يوم ، ولكن من المسير عليّ ان لا احقق  
عدة مرات بعد ذلك . في موقف السيارات ، اسحب ابواب سيارتي بعنف حتى اكاد  
احملتها لكي احقق من انني اغلقتها بالفعل إغلاقا جيدا ... وفي بعض الاحيان ، اعود  
ادراجي ، كما لو انني كنت اخشى انني نسيت إغلاقها ، في حين انني اعلم علم اليقين  
انني اغلقت كل شيء .

— كيف تشعرين بنفسك في المجتمع ؟ هل تشعرين بالراحة ؟

— اوه كلا ، ابدا ... انني دائما متصتعة ، متصلبة ، مستعدة للدفاع ...  
ولا افلح ابدا في ان اكون عفوية ... ولديّ انطباع بان الناس يلاحظونني ، وانهم يطلقون  
حكمهم عليّ ...

نتنقل مباشرة الى جزء آخر من الجلسة .

.. ابي رجل عدواني ، واثق من نفسه ، واثق من نفسه دائما ...

— هل هو مغالٍ في ثقته بنفسه ؟

.. ( بيتسم ) اعتقد ، في الواقع ، ان ... كان يريد لاحي ان يتابع مهنة ، واجبره  
على متابعتها مع ذلك ...

— ( بيتسم المحلل ) من أجل شرف اسم العائلة ؟

— نعم ... من أجل شرف اسم العائلة ... اما انا ، فقد كنت جذيرة بالأطباق ...  
لم اكن سوى بنت ، اليس كذلك ! بنت ، هذه لا تصبح مهندسة ! ثم إن ابي كان يردّد  
لي بسخرية ان البنات ، هذه كانت لا تمتطي الحصان وعاجزة من ان تنجز بعض  
الكيلومترات على الاندام ، وعن ان تصطاد ، وعن ان ... ( تلتحج ) لم اكن جذيرة  
بشيء ، ... وكل ما كنت أفعله كان سيئا ، وموضع نقد .

... —

- ابي ؟ لم تكن تعلم بمن تلوذ ... كنت اشعر بأنه كان سجاناً ينبغي أن نبرد مسلكتنا امامه ... ولكي اجتنب سخريته ، كنت دائماً في احسن لباس ، وكنت ... ( غضب ) ؛ وما كان ممكناً لي ان اخون الشرف ولا الواجب ولا الاحترام المفروض للذكور الاقوياء كل القوة . وهذا عدل كل العدل لو لم يكن عليّ ان اقبل جزماتهم قبل ان المتعما . إنني امثل على الدوام دوراً ... وراقب نفسي دائماً ... ولا شيء مما كنت افعله كان جيداً ... ابداً !

- ( بهدوء ) ألم يكن والدك ضعيفاً ؟ واخوك ، ألم يكن مسحوقاً ، هو أيضاً ؟

- ابي ... ؟ ولكن ماذا تقول ؟ ولكني كنت أعدّه هائفاً إلهياً معصوماً . وكان جميلاً وذكياً ! ومع ذلك ، حقيقي انه كان حزيناً ... اعتقد انه لم يكن على ولام مع والدي ... ولكنه كان يمثل دوره تمثيلاً رائعا ... فلماذا كان على الاولاد ان يتحملوا عواقب الامور في جميع هذه القصص ؟ إن علماء النفس يحسنون صنعا إذ يهتمون بذلك !  
- ( يتنسم المحلل ) إنهم يهتمون بذلك .

- آه ؟ ( صمت ) هل تعلم ؟ إنني مختلفة أمام الآخرين . أبحث دائماً عن موقف يرضي الآخرين ... ولست عفوية ابداً ... ولا حرة بحركاتي ابداً ...

- ألم تستطعي قط ان تتكلمي مع والدك في جو من الثقة ؟

- ابداً . ما كنت لاجرؤ ، وما كان سيفهم شيئاً . إنه كان سيتحصن بالناريس وسيهرب . وكان سينظر اليّ من علياء سخريته ... وثمة هذا الامر أيضاً : لا شيء يخيفني مثل كلمة « شرطة » ...

- لماذا ؟

- لا اعلم ... كما لو ... لو تكلم الناس على أحد ارتكب شراً ، شعرت بأن ذلك يتوجه اليّ ...

**فلنتنزل**

ماذا نرى في البداية ؟ نرى ضرباً من هوس التحقق ، ووسواساً . ثم ماذا نرى ؟ نرى ان انا علياً آمرة توتسم : لا بد من تبرير سلوكها - عدم الخيانة ابداً - مراقبة النفس دائماً ، الخ .

ونرى كذلك إثنية معمّمة تبدو : فبول تسلك كما لو أنها كانت آئمة:

- لدي انطباع بأن العالم برمته يحقد عليّ - كما لو أن الناس يشيرون إليّ - لم  
أفعل مع ذلك شراً - أشعر بأن الناس يطلقون أحكامهم عليّ - لا شيء مما كنت أفعله كان  
جيداً - لو تكلم الناس على أحد ارتكب شراً ، شعرت أن ذلك يتوجّه إليّ ...

أي شيء يتصف بأنه شعوري في كل ذلك ؟ لا شيء ... فيما خلا  
الأعرض . ومع ذلك ، ثمة ، في لاشعور بول ، شبكة واسعة من الالتزامات  
الصلبة ( **الانا العليا** ) . فهي تشعر دائماً بأنها ملزمة بتبرير سلوكها على أنها  
آئمة ! إلى من ؟ إلى أبيها ، وبالتعميم ، إلى البشرية برمتها وإلى نفسها  
( إلى اناها العليا ) . إنها تنظر إلى الآخرين بوصفهم راشدين يهدّدون  
الطفل « المذنب » ، هي ، أو ، على الأقل ، الطفل الذي تعتقد بصورة  
لاشعورية أنه هي .

## وماذا بعد ؟

يمكن القول إن « بول تتحقق » من الشيء نفسه مئة مرة ، « كما  
لو أن عليها أن تبرّء نفسها في حالة النسيان » . ذلك أن النسيان يعادل  
بالنسبة إلى بول خطيئة . والحال أن الوقوع في الخطأ ، بالنسبة إليها ،  
يعني أن تكون موضع احتقار أبيها ولومه ونبذه . فعليها إذن أن تبرّر  
مسلكها أمام أبيها ( وأمام الغير ) ... بل أمام **أناها العليا** على وجه  
الخصوص ، تلك **الانا العليا** التي تراقبها باستمرار وكأنها رجل  
امن داخلي .

ها نحن الآن إذن بعيدون عن « الهوس » بالمعنى الصحيح للكلمة ...  
ما دام هذا السلوك ، سلوك « الآثم » ، ينعكس في جميع أفعال الحياة  
**اليومية** . والحقيقة أن **الانا العليا** لبول تمنعها من كل حرية ، ومن كل  
عفوية ، **ومن كل خطأ !**

ثم ظهرت بعد ذلك بقليل عقدة أوديب (١) . والمقصود مع ذلك ،

---

(١) انظر فصل « ذكريات الطفولة » في هذا المؤلف ، وانظر « الانتصارات المذهلة لعلم  
النفس الحديث » .

بالحري ، « وضع اوديبى » بمعناه الأوسع . وهذا الوضع هو الذي كان ، من جهة أخرى ، يمنع الزواج ، والهوس لم يكن سوى ذريعة .

وماذا عن والد بول ؟ ارتني بول صورته ، وذلك على سبيل إعلامي كما كانت تقول لي ، في حين ان في عينيها كان يلعب بريق من الكبر والعداوة كالبريق الذي يلعب في عيني بنت صغيرة إزاء معلم محبوب ومكروه . إنه رجل فتىّ وجميل وذو صدفين بلون الفضة ، رجل ذو مظهر متعال ، واثق بنفسه كل الثقة . إنه رجل مصاب بالخوف في قعر نفسه . وهذا الاب هو الذي كان ينبغي معالجته قبل حوالي عشرين عاماً .

واصبح الاب الها من الجمال والذكاء والفتنة بالنسبة لبول . وهذا امر منطقي جداً . وظهر الحب الاوديبى . وماذا عن ام بول ؟ إنها ام لا وجود لها ، في سفر مستمر ، وعلى خلاف مع زوجها . وتلك إذن ، بالنسبة لبول ، مناسبة رائعة في ان يكون ابوها لها وحدها . ولكنها اصطدمت بالاخ الذي يحبه الاب . واصطدمت باحتقار ابيها . فاصاب الإحباط حبها . وهذا الإحباط ولد العداوة ، بل الكره . وكبت هذا الكره فظهرت الإثمية . وخضعت لكيلا ينبذها ابوها وهي تبدي عداوتها له . وبدأت الدارة المغلقة .

قالت بول بعد زمن معين :

- كم شعرت بأنني أمة وشنيعة يوم نعتيت ، امنية كالبرق الخاطف ، موت ابي ، وذلك بسبب كونه كان يجعلني اعاني العذاب وبحول بيني وبين ان احفظ بشخصيتي !..

فلدينا ، وكل ذلك ظلّ لاشعوريا :

حب ❧❧❧ إحباط هذا الحب ❧❧❧ كره ❧❧❧ رغبة في موت الاب ❧❧❧ إثمية ❧❧❧ حاجة الى الصفح ❧❧❧ خضوع ❧❧❧ عدم ارتكاب أوهي الأخطاء أبداً ❧❧❧ التقيد دائماً بالقواعد ❧❧❧ التحقق بعناية من كل فعل ❧❧❧ الهوس ( من جملة اعراض أخرى ) .

وهذا يعطي الهرم التالي الذي ينبغي قراءته من الأسفل الى الأعلى :

## ( العرض الشعوري ) : التحقق من الأبواب منة مرة ( « هوس » ) :

الانتباه الى كل شيء - وسواس عدم  
ارتكاب الأخطاء - وسواس المسؤولية  
عن كل شيء ؛ الامتناع عن أن تكون  
« حرة » و « عفوية » ، بما أن كل  
حرية يعاقب عليها الأب بالاحتقار ؛  
الحصول على الصفح ، التقيد  
بالقواعد بأي ثمن .  
إثمية - خضوع ترافقه عداوة قوية ؛  
إحباط - كره - رغبات في الموت -  
كبت - حب وجنسية إزاء الأب .

## ( اللاشعور )

اتوقف هنا ، ولا أستطيع أن أبشر الحديث عن مراحل العلاج  
والشفاء التي مرت بها بول . فقد أصبحت بول ، بالتدريج ، حرة وعفوية  
ومتحررة من الخوف . ويصعب على المرء أن يعرف أنها هي ... ولكننا  
رأينا مدى ما تبعد « عقدة الهوس » عن السبب الأساسي .

لم يكن ثمة إذن ، لدى بول ، عقدة ، بل وضع معمم . وكانت لها  
شخصية منفصلة ولاشعورية ، ومشغولة دائماً بأن تحتمي من رأي  
الآخرين ، ومشغولة دائماً بأن تتقيد بالقواعد . والمرء يفهم المناخ المثير  
للسواس الذي يمثل ذلك ، والطاقة المجمدة خلال سنين ...





## الفصل الرابع عشر

### الإنسان المصاب بالعصاب

#### أولاً - العصاب

في مؤلفي الأول (١) ، وصفت العصاب مع تصنيفاته الرئيسة . أما الآن ، فلننزل الى أغوار شخصية مصابة بالعصاب .

واليكم ، قبل كل شيء ، بعض التعريفات :  
التعريفات القديمة الكلاسيكية :

● **العصاب** : انفعال « عصبي » كثير الانتشار ، ليس له أساس تشريحي معروف .

أو ( وذلك يقترب أكثر من الواقع العميق ) :

● **العصاب** ضرب من « التصدّع » في الشخصية ، ناجم عن وجود العقد .

أو كذلك :

● **الموجود المصاب بالعصاب** مضطرب في علاقاته مع ذاته ومع الآخرين . أو :

---

(١) في « الانتصارات الملهلة لعلم النفس الحديث » ، قدمت التصنيف والوصف الرئيسين لفروب العصاب وأعراضهما . وسنراها في هذا الفصل من زاوية مختلفة : زاوية المرض بالمعنى الصحيح للكلمة كما يبدو في التحليل النفسي ، أو لدى أشخاص كثيري العدد .

● **العصاب** محاولة فاشلة في التلاؤم مع الحياة ومع الواقع اليومي ،  
وسنرى في أي شيء يتصف هذا التعريف بأنه تعريف رئيس .

أو كذلك ، واستشهد في هذا المجال بـ **يونسغ** :

● ما ينبعث أمام الطبيب في **العصاب** ليس مجالا مرضيا مطلقا ،  
بل موجود مريض ، مريض لا بفعل الخطأ في آلية من الآليات أو بفعل مركز  
منعزل من مراكز الإنسان ، وإنما مريض في كلية وجوده . وليس العصاب  
هو موضوع المعالجة ، بل حامل العصاب . فالعصاب القلبي على سبيل  
المثال لا ينجم ، مثلاً هو معلوم منذ أمد طويل ، عن القلب ، بل ينجم عن  
نفس المريض المتألمة . إنه ناجم عن الحياة التي يعيشها موجود برمته  
خلال سنين وعقود من السنين . والعصاب يفرز جذوره أيضاً في الحياة  
النفسية لجماعة كاملة من الجماعات : الأسرة بل والمجتمع ، بالإضافة إلى  
الحياة الفردية .

هذه التعريفات تجعل المشكل قريباً كل القرب منا . وسنرى  
السبب .

ويكون العصاب إذن مرضاً دون آفة عضوية . ولكن التعريف  
اتسع .

ويجري على وجه العموم تصنيف ضروب العصاب إلى : **الوهن** ،  
**والوهن العصبي** ، **والوهن النفسي** ، **والوسواس** ، **والرهاب** ، **والحصر** ،  
**والهستيريا** . وهذه التصنيفات ، على أهميتها ، تضيق المشكل تضيقاً  
فريداً ، مع أن هذه الحالات منتشرة ومؤلمة أقصى الانتشار والألم . ولكن  
على المرء أن يدرك أن أعراض كل ضرب من ضروب العصاب هذه عديدة  
إلى حد كبير . يضاف إلى هذا أن أعراضاً معينة للوسواس موجودة في  
الحصر ، وأن أعراضاً معينة للرهاب موجودة في الوهن العصبي ، الخ .  
وثمة ، في أغلب الأحيان أيضاً ، ميل إلى تكوين الكل في سلة واحدة :  
سلة « الاكتئاب العصبي » ، وذلك شبيه على وجه الدقة بتصنيف كثير  
من الأمراض الغامضة ، في الزمن الغابر ، تحت مصطلح « الهستيريا » .

ولا بد من أن يتذكر المرء أن كل عصاب قد يتجلى بأعراض جسمية أو سيكولوجية . فثمة ضروب من العصاب الجنسي والهضمي والقلبي الوعائي والجلدي والرئوي والعيني والوسواسي والحصري والرهابي ، الخ . وثمة بعض ضروب العصاب العميق التي قد تحدث بصورة رمزية ... وجسمية . واليكم مثلاً بين ألف مثال : ضروب قوية من كبت العدوانية والرغبة في الضرب قد تتجلى بتوقف الذراع الأيمن واليد اليمنى مرفوق بارتعاشات وتعدر الكتابة ، الخ .

فالعصاب يشكل إذن جزءاً من مجال واسع من مجالات الطب النفسي الجسدي الذي له الفضل في النظر الى الانسان على انه كلية . وهو ينظر الى انسان مريض على انه شخصية تعاني الالم برمتها ، أتى كان توطن المرض .

## ١ - هل ثمة مصاب بالعصاب دونما داع ؟

العصاب مرض كغيره من الامراض الاخرى . والوسواس مرض بالصفة التي لمرض التدرن أو للزكام . فاذا قلنا لشخص مصاب بالعصاب : « هذا امر عصبي ، وجملتك العصبية الاعاشية مصابة بالاضطراب » على سبيل الحصر ، وما عليك إلا أن تبذل جهداً لكي تتخلص منه ، كنا كمن يسبح على سطح مستنقع دون أن يعلم أن الماء يصل حتى فعره . وهذا امر يخالف المنطق .

ويجب أن لا نعتقد أن هذه العقلية تلاشت ! ويفهم الرجل المتوسط فهماً قوياً جداً أن بالامكان معاناة الم السرطان معاناة قاسية ، ولكنه لا يستطيع أن يتخيل أن عصاباً يمكن أن يكون مؤلماً على حد سواء . ولا يستطيع التصور أن من الأفضل للانسان أن يُصاب بالتدرن القوي من أن يُصاب بعصاب عميق يمثل قرحة نفسية دائمة ، ولا يدع أي مجال للراحة . وإذا كان الرجل المتوسط يعلم أن دورات الشعوذة أو الجهود الإرادية النزعة لا تستطيع استئصال تدرن رئوي ، فانه يعتقد راضياً

ان ضربة مناسبة من ضربات مكنسة ، تستند الى إرادة عاتية ، إرادة لا يميزها مع ذلك من التشنج والتوتر ، كافية لاستئصال العصاب . ولكن كيف يمكن لجهود إرادية ، وبالتالي شعورية ، ان تتأصل عصاباً يتصف بأنه **لاشعوري** ، وأعراضه هي الوحيدة المرئية ؟

ذلك ان الرجل المتوسط يجهل أن العصاب اضطراب عميق في الشخصية برمتها . فاي عصاب يغزو الشخصية كلها ، ويغزو جميع أفعال الحياة اليومية ، أيا كانت .

ومن المؤكد ان تصنيف الموجودات الانسانية في أدراج صغيرة تحمل لاصقات ، امر يدعو الى الاطمئنان . فما حال فلان من الناس ؟ إنه ضعيف ، قوي ، مزهو ، متعجرف ، مصاب بالهوس ، قلق ، كسول ، مكبوت ، مصاب بالعصاب ، الخ . انه لامر يسير : إن ذلك يمنع ضرباً معيناً من عاطفة الامن لمن « يصنف » الآخر معتقداً بنفسه انه الأفضل او الأسى .

ولكن ، إذا كان هذا يدعو الى الاطمئنان ويتصف بالسهولة ، فان ذلك لا يحلّ المشكل ، بل على العكس . ذلك ان الشخص المصاب بالعصاب إذا اصطدم بعدم الفهم و « الحكم الأخلاقي » ، كما لو أنه كان ثمة إمكان للحكم « حكماً أخلاقياً » على مريض ، فان هذا الحكم يصدر على الغالب عن شخص آخر مصاب بالعصاب ، يسقط نفسه على الشخص الأول ويخشى ، بالتالي ، ان يرى ضروب امته البائسة تنهار كقصر من الكرتون .

## ٢ - هل يمكن تصنيف العصاب ؟

إنه امر متعذر . ولن نفلح في وضع أصناف العصاب على رفوف ، كما قلت سابقاً . ولتكرر ان كل عصاب ، سواء كان خفيفاً او خطيراً ، اضطراب عام ودائم في الشخصية . وإذا كان ثمة شخص « مصاب بالعقد » ، كما يقال ، فان هذه العقد ترشح في اي عمل من الأعمال ،

ولكن مع المحافظة على أن تظل لاشعورية بصورة تامة . ولتنشر عابرين الى أن كثيراً من الاعراض العصبية تكتسي بأثواب فاخرة .

— اعاني الوهن النفسي . إن اوهى الجهود بالنسبة لي ضرب من الجبل . واخشى كل صباح من الذهاب الى العمل . وفي نهاية ساعة من الزمن ، اكون الى درجة من الانهالك بحيث ائني عاجزة عن ترتيب ثلاث افكار .

وهن نفسي ؟ نعم ، بالتأكيد . إننا نطلق عندئذ من العرض ، ثم « نحفد » ، فنقع ، مثلاً ، على شخصية برمتها لا تجرؤ على أن تتجلى بوضوح . فنكتشف، شخصاً يرافق ضرب من الحصر اللاشعوري على وجه التقريب كل عمل من اعماله . ونكتشف شخصاً لا يجرؤ على الاحتفاظ بشخصيته ابداً ، ولا على أن يكون عفويا . ونكتشف شخصاً لا يجرؤ على أن يتكلم جهاراً ، ولا أن يقول قولاً مخالفاً او يعارض . ويستمر العلاج بالتحليل النفسي في الحفر . ويتم الوصول الى اب استبدادي ، والى طفولة سمعتها المهانة والإثمية والحصر ، والى ضروب كثيرة من كبت العدوانية . وبالتالي ، نبلغ إذن ضرباً من الحصر المعمم والقوي امام كل تأكيد للذات . إنه حصر يلتهم طاقة المريض الذي يسقط في الوهن النفسي منتقلاً من ضعف الى ضعف .

وبناء عليه ، فان الاعراض ليست شيئاً في مقابل الواقع العميق للشخصية التي تعاني الالم في كليتها ، وإن كانت هذه الاعراض ذات اهمية ، وكان عددها قد يصل الى عشرات الالوف . ذلك ما اقترح عليكم ان تنظروا إليه .

## ثانياً — العصاب مرض

العصاب ضرب من المرض . ولا بد إذن أن يخضع للقوانين التي يخضع لها المرض . وهذا المفهوم مفهوم رئيس ، لا من أجل فهم العصاب عامة فحسب ، وانما من اجل جميع اولئك الذين اصابهم ايضاً ، ومن اجل

الآباء والمربين والاصدقاء والوسط . وكذلك من أجل فهم الأسلوب الذي يتناول العلاج به العصاب ويعالجه .

العصاب ضرب من المرض . **فأي مرض ؟ ومتى يكون الإنسان مريضاً ، ولماذا ؟**

كل مرض رد فعل تقوم به العضوية . إنه إذن رد فعل ضد شيء من الأشياء . ضد ماذا ؟ ضد كل ما يسبب الاضطراب في توازن هذه العضوية ويقلق راحتها . والعضوية ، كما قلت آنفاً ، تحاول دائماً أن تستبعد كل ما يضايقها ، وذلك بأي وسيلة من الوسائل . والمرض إحدى هذه الوسائل .

ولنضرب مثلاً أولياً : ليس الجرثوم هو المرض ، بل المرض هو رد فعل العضوية ضد هذا الجرثوم . فإذا كان ثمة جسم غريب يضايق العضوية ، فليس هذا الجسم الغريب هو المرض . بل المرض هو جيش الكريات الحمراء التي تنطلق الى المهاجمة ( الصديد ) . الخ .

فإذا ما نظرنا الى المرض من هذه الزاوية ، **لاحظنا مباشرة أن المرض حاجة .** إنه حاجة العضوية في بعض الظروف . إنه محاولة تقوم بها العضوية لإعادة التوازن .

وما الوضع في حالة العصاب ؟ إنه محاولة للتلاؤم مع الواقع . إذن ، فالعصاب حاجة وضرورة في اللحظة التي يثار فيها .

ذلك يغير كل شيء ! ينبغي للطبيب المعالج ، وهو يطرح السؤال التالي على نفسه : « ما منشأ هذا العصاب » ؟ ، أن يتساءل أيضاً : **لماذا هذا العصاب ؟ وما فائدته ؟ ومم يحمي العصاب هذا الشخص ؟ ولماذا كان العصاب موضع تنمية ورعاية خلال كثير من السنين ؟**

## ١ - مرض يدوم

الأمور تتمتع هنا . فالمرض في الحالات الجسمية ، كالصديد مثلاً ،

يزول عندما يصبح غير ذي جدوى . وذلك يبدو إذن بسيطاً جداً . والحال أن العصاب يدوم في بعض الأحيان حياة بكاملها ، في حين أن الظروف التي أثارته قد زالت .

وبناء عليه ، فإذا استمر العصاب ، فإن ذلك يعني أن الظروف تظل شديدة الخطر . والعصاب عندئذ شبيه بصديد لا يتصف بأنه دائم فحسب ، بل يفزو الشخصية برمتها وجميع الأفعال وحياة الفرد كلها . فلماذا ؟

والسبب أن معظم الأخطار تصبح لاشعورية . إنها ، بالتأكيد ، موجودة خارج مراقبة الأنا الواعية . فضروب الكبت والعقد دائمة ، وتتغلغل بتجارب جديدة دون انقطاع ، وتكون شخصية منعزلة تعمل لحسابها الخاص في أعماق أعماق الشخصية ، وتركز في اللاشعور خارج متناول الذكاء والإرادة .

وعلى هذا النحو ، يتقدم الإنسان في السن ... ولكن ضروب الكبت والعقد تبقى على ما كانت عليه ، مثلها مثل شخصية لا تتغير . فالخطر موجود دائماً . لقد أصبح غير مرئي ؛ ويستمر العصاب وينمو ... فلنفحص الآن أمثلة تبين كيف يستمر عصاب . وتبين أيضاً أن العصاب محاولة ( فاشلة ) في التلاؤم مع الواقع .

### حالة من الحالات

— خرجت من عيادتي التي عملت فيها خلال سنتين ( قال الدكتور س بعد زمن معين من التحليل النفسي ) منهكا كل الإنهاك . وكنت أعطي كل ما كان بمقدوري إعطائه . وكنت أدرك أدراكا غامضا أن الاستشارة يمكن أن تنتهي خلال عشرين دقيقة . ولكنني كنت احتفظ بأمرضى ثلاثة أرباع الساعة . وكنت أسوِّغ وصفاتي ، وأشرح للمريض وأناقشه . وكنت أعتقد مخلصا أن ذلك « تضحية بالذات » أقوم بها . وكنت أحدث أصدقائي أحاديث عظيمة من « الإيثار » الذي يقتضيه الطب . وكان مرضى عيادتي يقولون إن ذلك سيستهلك



صحتي ، الامر الذي يعني بالنسبة اليهم انني كنت طبيبا عظيما جدا . وكنت اعتقد بذلك انا نفسي .

ماذا كان يحدث ؟ هذا الإيثار ، على أي حال ، لم يكن يطابق الواقع اللاشعوري . فالطبيب كان يعاني ، في عداد ما يعاني ، مشاعر الإثم ( اللاشعورية ) . وكان يتصرف دائما « كما لو » أنه كان آثما . فكان يحتفظ بالمرضى زمنا طويلا<sup>١</sup> لأنه لم يكن يجزؤ على إنهاء الاستشارة سريعا ، خوفا من أن يحقدوا عليه . وكان لديه انطباع بأن كل مريض كان ينعم عليه كثيرا إذ يتنازل ويستشير . وكان يقول لنفسه بصورة لاشعورية :

— اشعر بانني آثم ودون الآخرين . ليس لي الحق ... وعليّ ان ابرّر كل ما افعل ..  
عليّ ان اجعل الغير يغفر لي ويقبلني ...

### حالة اخرى

ها هو ذا رجل يبدو ، للوهلة الاولى ، أنه يتصف بمجاملة لا مثيل لها . فلنراقبه امام رئيسه في المكتب ، على سبيل المثال . الامر الاول الذي نلاحظ ان هذا الرجل يخاف . ولكنه يخاف من ماذا ؟ فاذا سألناه عن ذلك ، اجاب :

— اخاف ان افقد مكاني ، واخشى رئيسي لانه سلطوي جدا وانا خجول ، الخ .

ولكننا نلاحظ أيضا ان هذا الرجل عدواني جدا إزاء رؤوسيه وبعيوض . بل يمكن وصفه ، إذا نظرنا اليه من الخارج ، بأنه « خسيس » . وعندئذ يطرح السؤال نفسه : هل هذا الرجل مجامل ؟ نعم ، إنه لذلك من الناحية الخارجية . ولكن ماذا يحدث في ذاته ؟

**هذا الرجل متزلزل لأنه يخاف ان يكون غير ذلك . فماذا يعني هذا القول ؟ لو لم يكن متزلزلا ، فان ذلك يعني ان شخصيته تعارض بصورة**

---

(١) انظر الفصل التالي « الانسان الآثم والانسان المصاب بالحمر » .

**طبيعية شخصية رئيسه .** وسيكون ثمة ضرب من التنافس بينه وبين رئيسه . والحال أن التنافس أكثر الأمور التي تثير حصره . والسبب أن من يقول تنافس ، يقول غالب ومغلوب . وذلك يعني أيضاً أن من المحتمل ، في حال المنافسة ، أن يثور رئيسه ويصرخ وأن يلومه وينتقده وبهاجمه ، الخ . الأمر الذي لا يحتمله أيضاً . فنحن إذن ، هنا ، أمام حصر أن يكون منبوذاً . ولكيلا يكون موضع هجوم ونبد ، صغر هذا الرجل نفسه وكان ذا خضوع مبالغ فيه . وبعبارة أخرى : إنه يفعل كل شيء حتى لا يكون ثمة إمكان لتوجيه لوم إليه ابداً . ويفعل كل شيء لكي يقول رئيسه : « أي صبي صغير لطيف هذا الذي يفعل حقاً كل ما بإمكانه من أجل أبيه ! »

### **فنحن نرى أن كل سلوك عصابي يستجيب لحاجة من الحاجات .**

وبفضل هذا السلوك العصابي ، يحمي الفرد نفسه . فالطبيب على سبيل المثال ، في الحالة الأولى ، كان يحمي بـ «التضحية بالذات» ، والمستخدم ، في الحالة الثانية ، كان يحمي بالمازوخية التي كانت تجتبه الدخول في المنافسة . ولو كان بمقدور هذا المستخدم أن يفحص نفسه لتساءل :

— أخاف من رئيسي . ولكي بي ، في الواقع ، خوف في الحياة بصورة عامة . إنني عدواني إزاء مرؤوسيّ ، الأمر الذي يبرهن كذلك على الخوف لديّ . فإنا ، بحسب الظروف ، متشنج أو متخثر أو مراوغ أو متزلف . إنني طبعاً أما رئيسي وتمرّد عندما لا يكون موجوداً ... فلماذا ؟ ومن أي شيء يحميني ذلك ؟ ذلك يحميني من الخوف . أي خوف ؟ ماذا يمثل رئيسي ؟ السلطة ؟ بالتأكيد ، ولكن لماذا كان لديّ مثل هذا الخوف من أن لا أضع موقع الاستحسان من السلطة ؟

وعلى هذا النحو : فلو كان بمقدور هذا الرجل أن يفحص نفسه ، لتعمق في معرفتها بالتدريج ، ولراى بوضوح لمصلحته ومصلحة الآخرين ، ولراى كذلك أن غالبية أعماله كانت غير أصيلة ، منقوعة بالحصر ، وأن ثمة عصباً كان يلتهم كل شخصيته .

يمكننا إذن أن نستخلص الآن أمراً رئيساً : إن معظم ردود الفعل العصابية تحمي من الحصر ، الشعوري أو اللاشعوري .

## ٢ - العصاب والتحليل النفسي

يمكن للمرء أن يتساءل بعد هذا كله :

— اذا كان العصاب حاجة ، لماذا نحاول ان نزيله ؟ وكيف نفعل لاستئصاله ما دام من المحتمل ان يتعلق به المريض وكأنه عوامة إنقاذ ؟

لماذا نزيل العصاب ؟ لانه يدمر انفساً بكاملها ويزيفها ويحرفها ويجعلها مقروحة ، ولانه يسبب لها على الغالب المآ لا يحيط به وصف ، ولانه يفرق الوجود الانساني في وحدة تتصف بالحصر ، ولانه يعزل الوجود الانساني عن نفسه وعن الآخرين ، ولانه يسبب التصدع ويحطم ويسحق . ثم ... ليس للسؤال معنى اكثر من معنى السؤال التالي :

لماذا نحاول إزالة الحمى ما دامت الحمى حاجة للعضوية ؟

**والحال ان الحمى ليست هي التي نشفيها ، وانما ما يولد هذه الحمى . والحمى تزول إذ تصبح غير ذات جدوى .**

وندرك إذن ان علينا ان نبذل كل جهودنا حتى يكفّ العصاب عن ان يكون حاجة . ولا بد . في تسع حالات من عشر ، من ان نستأصل ما أثار العصاب : الحصر اللا شعوري . ينبغي إذن إيجاد هذا الحصر الذي يمدّ جذوره في اغوار الشخصية . وعلى هذا النحو : لا بد من ان يكفّ المصاب بالعصاب عن ان يكون بحاجة الى عصابه . والعصاب ، شأنه شأن الحمى التي اصبحت غير ذات جدوى ، يزول من تلقاء ذاته .

## الرؤية الواضحة

إذا ألححت كثيراً على أن العصاب مرض من الأمراض ، فذلك لان هذا التصور تصور رئيس . فثمة ميل الى الاعتقاد بأن العصاب ضرب من « الندبة » . وثمة ميل الى الاعتقاد بأنه « ليس شيئاً ذا أهمية » . ولدى الكثير من الناس انطباع بأن الارادة يمكنها التغلب على العصاب . وهذا خطأ بصورة مطلقة .

وثمة اعتقاد ايضاً بأن المصاب بالعصاب يفتقر الى الطاقة ... لانه عاجز عن أن يشفى نفسه بنفسه ! كيف يمكن ، أولاً ، بواسطة العقل والارادة ، شفاء شيء ما لاشعوري يتصف بأن هذا العقل لا يبلغه ولا هذه الارادة ؟ هل الناس الذي يعتقدون ذلك ، ثانياً ، يدركون الطاقة التي ينبغي له صرفها ، يوماً بعد يوم ودقيقة بعد دقيقة ، من أجل أن يصون حصونه الدفاعية ؟ وهذا شبيه بعض الشبه بمن يصون سلاحاً قوياً دون توقف وعلى حساب حافظة نقوده ( إذن على حساب صحته هنا ) .

والعصاب إذن ، بالنسبة لكثيرين ، ضرب من « الراسب » الآتي من الماضي ، شبيه على وجه الدقة بـ « كسر » من الكسور . وثمة اعتقاد بأن المرء يصاب يوماً بعصاب ... ثم ، ها هو ذا العصاب . وكل ذلك خطأ . فالعصاب ينطلق يوماً من الأيام ، وهذا امر متفق عليه . ولكنه ينمو لانه يئسان . واذا كان العصاب يئسان ، فذلك لان الشخص بحاجة الى صيانتة لكي يحتمي من ظروف تظلّ شديدة الخطر بالنسبة اليه .

### فبدلاً من أن يقول الانسان :

— لديّ عصاب منذ أربعين عاماً أصابني في جهة ما خلال طفولتي او مراهقتي ...

### عليه ان يقول :

— انصرفت اربعون عاماً وانا اصون بصورة لاشعورية عصاباً .  
انت ترى أن ذلك يغير وجهة النظر بصورة تامة ... والعلاج . وآمل ان يساعد ذلك كثيراً من الاشخاص على الرؤية بوضوح اكبر في حالاتهم الخاصة . وربما يفهم وسط الاشخاص المصابين بالعصاب ، فهماً أفضل ، آلية العصاب العميقة ، وذلك من أجل الخير الاعظم لأولئك المصابين به .

والخص :

إذا كان ثمة أمن داخلي ، فان ذلك ينجم عنه سعادة وأمن وتوازن .  
وإذا ساد عدم الأمن الداخلي ، نشأ عنه حصر وحماية من هذا الحصر  
( عصاب ) .

### ٣ - هل المحلل النفسي يشفي العصاب بصورة سريعة ؟

كل شيء متعلق بمدة العصاب وعمقه . والحقيقة ان المسألة هي  
التالية : هل مدة العلاج بالتحليل النفسي قصيرة أم طويلة ؟ اعتقد  
أن من الأفضل ذكر ملاحظة أحد الأشخاص ، ملاحظة تلتقي مع مئات  
من الملاحظات الأخرى .

- لدى المريض انطباع ، في بداية التحليل ، بأن كل شيء سينتهي في ثمانية أيام . ثم  
يدرك تدريجياً أن الداخل كله . أن الشخصية كلها هي التي ينبغي أن تكون موضع  
الإصلاح ، وهي التي ينبغي أن تغير وجهة النظر ، وأن تغير رؤيتها للأمور . ويدرك أن  
ما كان صحيحاً منذ زمن طويل لم يعد صحيحاً ، وأن حقيقة اليوم ستكون باطلاً في الغد . .  
ويرى بالتدريج أنه عاش على رمل متحرك ، متخيلاً أن ذلك كان من التراب . ويرى ببعض  
الحصر آلاف الأعمال التي باسرها معتقداً أنها حرة واردة . . إنه مزيج داخلي هائل . . .  
إنها حياة يرسمها دفعتكم في الاتجاه السيء ، وصفتحتكم بالدفاعات ، وجعلتكم عدماً . . . ثم  
يشعر المرء أنه ولد ولادة جديدة لدائه . ويدرك للمرة الأولى ما هو عليه . إنني أفهم  
الآن أنني كنت قد تركت نفسي تنصب في الاكتئاب ، وأن هذا الاكتئاب كان ملاذي . وهنا  
على الأقل . لا وجود للصراع . . . ففي الاكتئاب ، كنت كالطفل الذي يحتمي في أحضان  
أمه . وكنت في كهف منعزل . والآن ، وقد ولت العصاب ، أفهم إلى أي حد كنت أعلق به دون  
أن أعلم . وأفهم أيضاً جميع المقاومة التي كنت أعارض بها العلاج ، بالرغم مني . . .  
وبدأت أشعر بأنني حر ، وذلك انطباع مبارك ما كان ممكناً أن أجروء على تخيله . . .

وقال هذا الشخص في نهاية ملاحظته :

- أمر رائع أن يتخلص المرء من الخوف ، وأن يستطيع المضي بعفوية نحو الآخرين . .  
إذن ، ألا تستحق النتيجة ما يعاني المرء في سبيل الحصول عليها ؟

## ٤ - العصاب مرض ما هو إنساني في الانسان

العصاب مرض يصيب ما يتصف بأنه إنساني في الانسان ، بمعناه الأوسع والأعمق . إنه « أزمة في النمو » . وهو يصيب هذا أو ذاك من الأفراد الذين يصبحون عندئذ تبلوراً خاصاً للحصر الانساني الأبدي ...

ويشدّد التحليل النفسي الحديث ، مع ذلك ، على **العصاب الذي يصيب الطبع** ، ذلك الذي رأينا امثلة عديدة منه . إنها اصناف العصاب التي لا تتجلى بالأعراض المشهدية جداً ، اعراض تتصف السينما والتلفزيون بأنهما نهمتان اليها ، وانما تلك التي تولد سلوكاً ردود فعله ( المرضية ) تكررّ خلال حياة الفرد كلها . وهذا هو السبب في ان الشخص عندئذ يستجيب دائماً على نحو واحد ( سلوك ذو نمط واحد ) ، إذ ان « طبع » هذا الشخص قد تكون بفعل آليات الدفاع .

وهكذا تتصف أنا الشخص بأنها مشوّهة بصورة « مزمنة » . فالسلوك صلب ... في حين ان خاصية موجود سليم تكمن في انه يستجيب بتنوع وعفوية في العدد الكبير من اوضاع الحياة .

وإليكم ما يتسم بالاهمية الكبرى : **العصاب يوقف إبداعية الشخص المريض ويشوّهها ويكفّتها** .

ويمكن القول : على وجه التقريب ، إن العصاب ، بالمعنى الواسع ، لا يصيب إلا أولئك الذين يحاولون اكتشاف شخصيتهم . ويمكن القول ايضاً إن العصاب يبدو بمجرد ان يكون ثمة قيود تقيّد الوجود الانساني في حريته الداخلية وفي تفتح استقلالته . وهنا إنما يمثل العصاب هذه المحاولة اليائسة في التلاؤم ، التي تكلمت اليكم عليها .

ومن الواضح جداً ان الانسان المصاب بالعصاب يفكر بصورة تختلف عن إنسان غير مصاب به . والانسان المصاب بمشاعر الدونية العنيفة لا يرى العالم على النحو الذي يراه انسان واثق من نفسه . والانسان

الذي يشعر بأنه آثم يرى الآخرين من خلال موشورات مشوّهة ، ويصبح « الغير » خطراً بصورة آلية . ويبقى العصاب ، أيا كان ، حاضراً في جميع أفعال الشخصية الإنسانية مهما كان عمقه وقوته . ويصبح العصاب عندئذ نمطاً من أنماط الحياة : فالإنسان يعيش على عصابه ومن خلال عصابه .

**ماذا يحدث في نهاية التحليل ؟** تزول الموشورات اللاشعورية . وينظر الإنسان الى الظروف على نحو مختلف كل الاختلاف . ويعيش الإنسان على معايير مختلفة كل الاختلاف عن تلك التي عرفها حتى ذلك الحين . إنه يعيش على معايير أخرى . وبدلاً من أن يشعر بأنه وحيد ، يشعر بأنه على صلة بالآخرين ؛ وبدلاً من أن يخاف ، يثق بذاته . وبدلاً من أن يكون غائصاً في ضروب تعويضه وكفنه وكبته وعقده ، يصبح أصيلاً مجدداً . وتنهار الواجهات التي كان يصونها من أجل حماية نفسه . ويكفّ عن التعلق بالطفالات .

ويرى المريض الى اي حد تتصف الآليات اللاشعورية بأنها لاشعورية . وهذا يعني أنها ليست في متناول الإرادة الواعية . وهذا يعني أيضاً أنها تغزو الشخصية دون أن تستاذن أيا كان . ويدرك المرء أن المريض الذي أنهى تحليله النفسي يكفّ عن الحكم على الآخرين حكماً أخلاقياً . وهو يكفّ على وجه الخصوص عن الحكم على الآخرين من خلال ذاته .

ولنتفكر مجدداً باختفاء الأنا العليا المرضية<sup>(١)</sup> . كانت هذه الأنا تثير ضروباً من الأخلاق المزيّفة والفضائل المزيّفة . وكانت تمثل أخلاقاً مغلقة ، وصلابة داخلية ، وتعلقاً بعهود من الوجود انصرمت . وكان الإنسان ، تحت ضغط الأنا العليا ، يعيش وفقاً لمعايير فرضها الآخرون ، الأبوان والمربون والأخلاق التقليدية والديانات المنظورة اليها من خلال الخوف والإثمية ، الخ . وكانت سيرته تسلك ، دون أن يعلم ذلك بوضوح ،

---

انظر فصل « عندما الشيطان يقود الرقص » .

خطوطاً تم تثبيتها بصورة نهائية . وكان سلوكه يحترم قوانين قديمة نابعة من طفولته ، واصبحت لاشعورية . ولكنه كان يعتقد أن سيرته حرة قررها هو ذاته !

وتنفجر الانا العليا عقب التحليل ، وتهاوى ، وتصبح غباراً . واعتقد ان « العينين تنفتحان » ، هنا على وجه الخصوص ، ويرى المرء مذعوراً كم كانت محدّدة سيرته التي كان يعتقد بانها حرة . وتحرّر الشخصية كلها في الوقت الذي تكفّ الانا العليا عن أن تقطر سمها .





## الفصل الخامس عشر

# الإنسان الآثم والإنسان المصاب بالحصص

اشعر دائما بأنني آثم ... ولكن أي خطأ كان بإمكانني أن ارتكبه  
ما دمت لم أكن حرا ؟  
وعندما ساكون حرا ، أعلم أنني لن أنجز أبدا فصلاً هداماً  
واحداً .

( مريخ )

الحصص وعاطفة الإثمية توأمان . إنهما مرتبطان ارتباطاً لا ينفصم .  
وقد رأينا ذلك من خلال حالات عديدة . وهما موجودان دائماً بمجرد  
وجود العصاب . إنهما يكوّنان قاعدة ، سواء كان العصاب قوياً  
أم ضعيفاً .

### أولاً - عاطفة الإثمية

تكلمت على عاطفة الإثمية في مؤلفي الأول . ولنتذكر مع ذلك الأعراض  
الرئيسية :

- إحساسات بالخطأ دائماً ؛
- خوف من النبذ واللوم والنقد ؛
- إحساسات ، متكررة او دائمة ، بالنبذ ؛
- عزاء بمجرد الاحساس بالصفح والقبول ؛
- بذل جميع الجهود للحصول على الاحساس بالصفح ؛
- حياة تبعا لرأي الغير على الاغلب ؛ كدر واجترار إذا كان هذا الرأي غير ملائم ؛ وعزاء عندما يكون ملائماً .
- إحساس دائم بضرورة تبرير السلوك ، للمرؤوسين او الرؤساء ؛
- حاجة دائمة الى البرهان على البراءة ؛
- تبني سلوكات تحمي من اللوم والنقد ؛
- حاجة الى إعجاب الآخرين والى تلقي دلائل خارجية للمودة او الحب ؛
- حصر او عدوانية بمجرد تلقي نصيحة او نقد ؛
- مشاعر الدونية والخجل ؛ وجل وتصلب الشخصية ؛
- استجابات ذات نمط ثابت لمعظم الظروف ؛ موقف يفالي في المرونة ، وموقف يفالي في التصلب ، ولطف مغال جدا ، وتهذيب مغال جدا ، وخضوع ، الخ .

**وتتصف عاطفة الإنمىة في الاغلب بانها لاشعورية بصورة عميقة .**  
ويمكن ان تتوافر جميع اعراضها لدى شخص ، ولكنه لن يكون له اي رد فعل على الإطلاق إذا قيل له إنه يعاني مشاعر الإنمىة . ومع ذلك ، فهو يلاحظ بعض الاعراض في سلوكه : ضروبا شتى من الكف ، وكل انواع الخجل ، وحاجة الى إتقان العمل تتصف بالحصر ، ووجلا ، الخ .

وعاطفة الإنمىة العميقة تولد الوسوس كذلك وضروب هوس التحقق التي تبتعد كثيرا عن السبب الحقيقي ( وغير المرئي ) . انظر حالة من حالاتها في فصل « جواز سفر الى اللانهاية » ، حالة بول .

وتتبر عاطفة الإثمية ، بالإضافة الى ذلك ، سلوكات شتى . وهذا امر منطقي . فثمة حصر بمجرد وجود عاطفة الإثمية . ومن الطبيعي إذن أن يفعل الشخص أي شيء حتى لا يحسّ بها . وهذا هو السبب عندئذ في أن سلوكات تبدو ، سلوكات تصبح ، على الأغلب ، أنماطاً في الحياة ذات مظهر « برّاق » ، إيجابي وسلبي على حد سواء .

وقبل أن أتكلّم على الحصر ، أود أن أحدّد هدف هذا الفصل . وسنرى الحصر ومشاعر الإثمية من خلال علاج بالتحليل النفسي ، وفي سلوكات الحياة الجارية في الوقت نفسه . وسيتيح ذلك إذن للكثيرين أن يكتشفوا أنفسهم فيها وأن يروا أنفسهم الى حد ما .

يضاف الى هذا أن من الضروري التأكيد بأن الحصر ليس ما يعتقده الناس بصورة عامة . فلا علاقة له ، في معظم الحالات ، بـ « أزمات » الحصر . والحصر ، الذي يتصف غالباً بأنه شعوري ، شبيه بمناخ عميق يركد في الشخصية .

## ثانياً - الحصر

الحصر بحيرة من ضروب المصائب ، بحيرة ذات مياه عكرة . ويظهر الحصر في أغلب الأحيان :

- عندما يوجد خطر داخلي ،
  - عندما يوجد نزاع إما بين الشعور واللاشعور ، وإما في اللاشعور .
  - عندما يعاني الشخص مازقاً شديداً ، دون أن يشعر بذلك على الغالب .
- فلنر ، قبل أن نمضي بعيداً ، بعض العموميات .

## ١ - الحصر الكلاسيكي

هذا النوع من الحصر شعوري على الغالب . والمقصود به انفعال قد يكون مادياً أو معنوياً ، مع أنه يتحدّد بفكرة خطر يقترب أو

بتوقع كارثة . ويمكن ان تختلف قوة هذا الحصر : فيبدأ من الانزعاج المعنوي مع افكار سوداء وقلق غامض ؛ وفي الطرف الآخر من التشكيلة ، نجد الحصر المرعب .

ويمكن للحصر ان يحدّد وحده عصاباً : وهذا هو **عصاب الحصر** ، الأكثر شهرة لدى عامة الناس . ويكفي إذن وصفه في تجلياته الرئيسية . ولكن من الضروري أن نقول مباشرة إن هذا العصاب ، عصاب الحصر ، هو الألم النفسي الأكبر والأكثر اتصافاً بصعوبة احتماله . وربما فضّل الشخص الذي يعاني عصاب الحصر أن تقطع ساقاه على استمرار هذا العذاب اللاإنساني .

و « الأزمات » هي الأسلوب الذي ينتهجه عصاب الحصر . ويتطور في بعض الأحيان نحو حالة مألوفة من الجنون . فماذا يقول الأشخاص الذين يعانون عصاب الحصر ؟

– اتول للنسي غالباً : لو كان ممكناً لأزمات حمري ان تستمر ، لما استطعت مقاومة الانتحار ...

والأزمات تعلن عن نفسها أو تحدث فجأة ، وعندئذ ، فإن المريض يخشى الأسوأ :

– إن ذلك لشبيه بكارثة تحوم فوق رأسي بقوة تصل الى حد تدميري . واعتقد انسي عاجز عن ان افعل اي شيء ، وانني سأصبح مريضاً طيلة حياتي ، وانني سأفقد عملي ، وانني سأصبح مجنوناً ... ثم ينقضي ذلك وكأنه كابوس ينتهي . وعندئذ ، يحدث لديّ إحساس لامتناه بانني احيا مجدداً .

وتلك هي المظاهر الجسدية أيضاً :

– أحمرّ واصفرّ ويسيل جسدي عرقاً ، ويحدث لدي تقلصات حشوية وهضمية . وتنفسّي مصاب بالارتباك الشديد . وقلبي ينبض بسرعة قصوى . وكل أعضائي ترتجف على الغالب ...

والمقصود هنا ارتعاش هيجاني . ويتبع الأزمة على الغالب وهن هام ناشئ من الإرهاق الهيجاني .

ولكن الحصر اكثر انتشاراً في بعض الأحيان :

- إنني متوتر دائماً وأتوقع « شيئاً ما » . أي شيء ؟ كل شيء ولا شيء . أصاب بالرعب في بعض الأحيان ، وأشعر أن كل شيء سيُصاب بالإغراق ، وأنتي لا أصلح لشيء ، وأن كل فرد يحكم عليّ حكماً سيئاً ، وأن كل فرد يحقد عليّ ، الخ .  
نحن هنا في مجال الحصر المرتبط بعاطفة الإثمية .

- حالتني شبيهة بحالة من يلاحقه دائماً احد او شيء من الأشياء ... وبحالة من يراقب « الناس » جميع أفعاله ... وبحالة من يوشك « الناس » أن يقولوا له : لس لك الحق في الراحة ، وليس لك الحق في أن تتوقف ، وعلبك أن تعمل دون هدنة ، وعلى كتفك تقع جميع مسؤوليات العالم ...

والأنا العليا تعمل هنا عملها .

ولتنتشر الى أن الحصر غير ذي صلة بدكاء الفرد ، ولا بإرادته ، ولا بمنزلة الموضوعية .

- أقول لنفسي غالباً : ماذا سيحدث لي ؟ أشعر وكأن خطراً ، غامضاً وشديداً في الوقت نفسه ، كان يحوم فوقى ... ومع ذلك ، فأنا غنيّ ولي منزلة رائعة مثينة ، وليس ثمة ، من الناحية العملية ، شيء أخشاه من المستقبل ، وصحتي جيدة ...  
لماذا إذن هذا القلق الدائم ؟ إنه لأمر يثير الجنون ...

والواقع انه لأمر يثير الجنون ، ولا سيما أن السطح لا يكون مقر الحصر إلا في حالات نادرة . فلا بد من البحث عن منشئه وبسببه في الأعماق اللاشعورية من الشخصية ، في تسع حالات من عشر .

وثمة كذلك حالات من الحصر عديدة جداً ، متموضعة في شيء شديد الخطر .

- ينتابني الخوف بمجرد أن أرى حبلًا ينجرّ على طاولة ... وأشعر باندفاعات مفاجئة تدفعني الى أن أشتق نفسي أو الى أن أختنق ولدي ... ومع ذلك أعلم أنني لن أفعلهما أبداً . ولكن خوفي هو من القوة بحيث لا بد لي من أن أخبئ الحل .

أو يقول أحدهم :

- أكابد حصر الجرائم ( وكان على المرأة أن تقول : رهاب الجرائم ) .

فإذا سعل شخص على بعد عشرة أمتار مني ، جريت لأغسل يدي . وإذا لمست زلجاً ؟ أنتظر حتى أستطيع غسل يديّ . ولا أجرو ، وأنا في حالة الانتظار ، أن المس وجي ولا أن أكل أي شيء . ويمتدّ حمري على زوجي . إنني أقول دائماً : « هل غسل يديه ؟ » . وعندئذ ، أستعمل خفية كل الحيل التي يمكن تخطيطها : أطلب إليه ، على سبيل المثال ، أن يجلب الفحم ، مع احتمال أن ألقى في سلة القمامة ما يبقى في سطل الفحم ، أو أطلب إليه أي عمل آخر يلزمه بأن يغسل يديه ... إنه لامر مفحك ، وأعلم ذلك ، ولكنني أقف مكتوفة اليدين بشأنه . إنني أفعل كل شيء لكي انخلص من هذا الحصر ... هذه المرأة تعاني الحصر ، وذلك أمر واضح ، ولكن هذا الحصر ليس سوى العرض الخارجي للمشاعر العميقة ، مشاعر الإثمية .

وعلى هذا النحو إنما يحاول الشخص ، في العديد من ضروب **الرهاب والوساوس** من النوع نفسه ، استخدام « طقوس سحرية » ضد حصره ، والواقع أنها ضد عاطفة الإثمية لديه . فينظر ، على سبيل المثال ، إلى صورة المسيح مئة مرة يومياً ، ويرسم إشارات الصليب في جيبه ، ويسعل بعنف لكي « يطرد الخطر » ، الخ . ولنقل مع ذلك إن المقصود أشخاص يعيشون حياتهم بصورة سوية تماماً ، ولكنهم يتألمون من عصاب عميق قليلاً أو كثيراً .

ولو فكرنا ، من جهة أخرى ، بمليارات الأشخاص الذين « يلمسون الخشب » ...

## ٢ - حصر الأعماق

هذا الحصر خفيّ ومنتشر . إنه ، في بعض الأحيان ، لاشعوري بصورة تامة .

فالفرد ، على سبيل المثال ، قد يعاني بعض مظاهر الحصر ، كالإسهال ، والحاجة المتكررة إلى البول ، والشراهة ، والتسرع دون داع ، والوجل المفاجيء ، وضربات القلب دون سبب ظاهر ، والتعرق دون سبب موضوعي ، الخ . ومع ذلك ، فالحصر الأساسي يظلّ لاشعورياً في

تسع حالات من عشر ، ولو ان هذه الأعراض شعورية . ولا يحس الشخص اي إحساس بأنه مصاب بالحصر او كان مصاباً بالحصر . وهذا امر طبيعي جداً اذا فكرنا بأن هذا النوع من الحصر ينشأ من مازق مطبور بعمق .

ها هي ذي بعض الأمثلة المأخوذة من الحياة العادية .

— عندما أظن أنني ارتكبت عملاً أخرق ، ينتابني انزعاج شديد خلال ساعات ، يسـل خلال أيام . وأتساءل : « هل ودعته بصورة مناسبة ؟ هل صافحته أم انني نسيت ذلك ؟ وهل حييته بلطف كاف ؟ عده الضروب من الاجترار تتتابني ، منذ سنين ، بعد كل زيارة ذات أهمية أقوم بها ... وأصبح على درجة كبيرة من التوتر بحيث لا أقاوم أن أتصل هاتفياً بحجة من الحجج . وعندئذ أؤدي لطفاً نموذجياً . وأبداً أدرك أنني أغتف له لكي أبيت إلى أي حد أتعسف بأنني طبع ، وكـم أدرب في أن أتزوى وأنا أسمع أن محدثي لا يتحدث عليّ مطلقاً ...

نحن هنا إذن أمام الاجتماع الكلاسيكي ، اجتماع الحصر وعاطفة الإنميمة .

١ ( يشعر الشخص بأنه آثم .

٢ ( يشعر بسرعة أنه منبوذ .

٣ ( إنه يبحث عن أوهى الأحداث التي يمكن أن تكون نقطة انطلاق لنقد ، أو لوم ، وجهه محدثه ، أو نقطة انطلاق لتعكير مزاج محدثه ، ويجترّ هذه الأحداث .

٤ ( فيظهر الحصر .

٥ ( ولكي يتخلص الشخص من الحصر ، يبدي سلوكاً يستدعي العطف والصفح .

٦ ( فيختفي الحصر .

ونحن نجد هنا آلية شائعة :

١ ( يظهر الحصر في الوقت الذي يبدو الإحساس بخطر أو بعدم الأمن ؛



٢ ) يبحث الشخص عن حماية نفسه من هذا الخطر وعن إيجاد ضرب من الأمن ؛

٣ ) يستخدم وسيلة أو سلوكاً من السلوكات ليستعيد هذا الأمن ؛

٤ ) وحينما يعثر على الأمن مجدداً يزول الاحساس الواعي بالحصـر . ولكن المؤكد أن الحصر اللاشعوري مستمر في وجوده لكي يبدو ثانية عندما تسنح له أوهى المناسبات .

فلتر بعض الحالات الأخرى انطلاقاً من هذا المثال .

### يقول أحد الرجال :

لا أحب شيئاً أكثر من التفاهم بين الجميع . وأكون سعيداً سعاداً عميقة عندما أستطيع أن أتصالح مع أحد الأشخاص . فأكون خالياً من الضغينة ...

هذا صحيح ، أو هذا باطل ... باطل إذا كان ثمة ضرب من عاطفة الإثمية . فماذا يحدث ؟ يحدث أن هذا الرجل لا يتحمل أن يكون على خصومة مع أحد . والخصومة تظهر لديه حصراً . إنها تعني أن « الآخر غاضب مني وينبذني » . فهو إذن سعيد عندما تتم المصالحة ، ولكن لا للأسباب التي يوردها . والواقع أنه غير سعيد ، بل في حالة من الانفراج ، لأن لديه انطباعاً بأن الآخر « صفح » عنه . فلا يمكن إذن لهذا الرجل أن يعاني الضغينة : لأن الضغينة لا تنفك ترعى خصومة محتملة ، الأمر الذي لا يتحملته ، ما دام الحصر يبدو مباشرة .

فنحن ، هنا أيضاً ، إزاء اجتماع الحصر ومشاعر الإثمية . وهل هذا الرجل متسامح حقاً ؟ كلا : إنه ، من الناحية اللاشعورية ، عدواني بعمق ، وبحسب أنه على حق دائماً ، الخ . ولكنه يلعب لعبة التسامح دون أن يعلم . إنه يبدو متسامحاً ، لأن هذا الموقف يتيح له أن يكون موضع « اعتبار » وموضع إعجاب بسبب « طبعه الكامل » (١) . وهو يتجنب إذن ، على هذا النحو ، أن يكون موضع تقدر ... وبالتالي يفلت من الحصر .

---

١ - انظر « كامل خوفاً من أن يكون غير كامل » فيما يلي من هذا الفصل .

هاكم ايضا بعض الامثلة الماخوذة من بين الامثلة الاكثر شيوعاً . إنها

تتيح لكثير من الأشخاص أن يحتازوا الشعور ببعض الآليات التي تتصف نسبياً بأنها عميقة الى درجة ليست قليلة ، وبأنها ، في جميع الاحوال منتشرة الى حد كبير . يضاف الى هذا أن الحصر وعاطفة الإثمية يتعاونان كذلك في هذه الامثلة .

### ثمة اشخاص يقولون ...

— أملك سيارة . وأعلم أنها لا تفقد زيتاً . ومع ذلك ، ففي كل يوم ، بل خلال مربيين في اليوم ، اتحقق من مستوى الزيت . إنه أمر أقوى مني . وإذا لم أنجز هذه العملية ، أشعر بأنني على غير ما يرام وأنا أقود سيارتي . وقد يقال لي إن ذلك يسبب خوفاً من إلتلاف المحرك ، ولكنني أشعر بأن الأمر غير ذلك على الإطلاق . نمة شيء في داخلي يقول لي : « أنت لم تفعل ما كان ينبغي أن تفعل ... » .

— أعيش وحيداً . ولدي بعض الدخول التي تتيح لي أن أفعل ما أرتب . فأسطيع إذن ، إذا رغبت ، أن أنهض من فراشي العاشرة صباحاً ، أو أنهض الخامسة . والحال أنني أنهض من فراشي في السادسة . ويندّر عليّ أن أظلّ في سريري وقتاً أطول . فأشعر بالإلم إذا نعمت بالراحة فترة أطول . وإذا نلت بعض اللحظات من الراحة ، خلال النهار ، أشعر بأنني أسأت صنعا . وأحسّ بأن أحداً سيلومني ...

— إذا كان صاحب البقالة الموجودة على الزاوية ذا مزاج سيء ، أقول مباشرة إنه يحقد عليّ . فأشعر عندئذ بأنني على غير ما يرام ، وأقلب الأمر على وجهه ، وأشرد . وأتصل على الغالب بالهاتف ، فأطلب منه قائمة كبيرة من الأغراض .

فلنقسم ، ونحن نردّد ما قلناه سابقاً ، هذه الآليات الى أربع نقاط رئيسة :

١ — ضرب من الإحساس بالالامن يظهر ، فيصعد الحصر إزاء هذا الظرف أو ذاك ؛

٢ — يبرز من اللاشعور ضرب من عاطفة الإثمية المت موضوعة ؛

٣ — يفعل الشخص « شيئاً ما » من أجل أن يجد إحساساً بالامن مجدداً ؛

٤ — فيختفي الحصر .

لنأخذ الحالة الأخيرة : حالة السيد وصاحب البقالة .

- ١ - يبدو أن صاحب البقالة ذو مزاج سيء ، أو إنه كذلك فعلاً . وهذا المزاج السيء « يحرّك » عاطفة الإثمية التي يعانيتها الشخص .
- ٢ - ويظهر ضرب من اللامن ( « هل صاحب البقالة يحقد عليّ ؟ » ) . ويعقبه الحصر مباشرة .

٣ - وسيحاول الشخص أن يجد الامن مجدداً . وبهتف لصاحب البقالة ليطلب قائمة كبيرة من الأغراض . أولاً ، لأن من المفروض أن يمنحه هذا الطلب « عرفان » صاحب البقالة بالجميل . والواقع أن هذا السيد يبحث عن « عطف » الأب . . . وصاحب البقالة على بعد ألف فرسخ من أن يشتبه بدوره الرمزي ! ويشعر الشخص بأنه « موضع اعتبار » . ثانياً ، لأن هذا الطلب يتيح له في الوقت نفسه أن يتحقق ، بالهاتف ، إذا كان صاحب البقالة ليس « غاضباً ابداً » منه ، أي إذا كان « أبوه » لن يقوم بخصائه .

- ٤ - ويشعر الشخص بأن الصفع عنه قد تحقق ( صفع الأب أو السلطة ) . فيبدو الامن مجدداً ، ويختفي الحصر .

نرى هنا اذن أمراً ذا أهمية . فالشخص المصاب بالحصر والإثمية يحتاج الى حماية مباشرة من حصره ومن إثميته . وثمة هنا امران لهما أهمية كبرى :

- ١ - بما أن عاطفة الإثمية والحصر دائمان ، فالحاجة الى الامن دائمة كذلك . ويتضح مباشرة أن هذا الشخص سيتبنى ، خلال حياته كلها في بعض الأحيان ، سلوكات واساليب في العيش تتيح له أن يفلت من حصره ، وأن لا يشعر بأنه آثم . فالخوف من السلطة سيتم إسقاطه على أي شخص . . .

- ٢ - اذا اصبحت آلية الامن بـ « الإخفاق » ، ازداد الحصر . فلو أن صاحب البقالة ، على سبيل المثال ، بدا غير لطيف خلال طلب الأغراض

بالحاتف ، لما أحسّ الشخص بالصفح ، ولا تأخذ حصره أيعاداً أكثر اتساعاً .

**فلا بد إذن من أن يطرح الإنسان على نفسه هذه الأسئلة ذات الأهمية:**

ما هي ضروب الأمن التي يستخدمها شخص معين ؟ على أي أمن يركز توازن هذا الشخص ؟ ما هي الوسائل المستخدمة للإفلات من الحصر ؟

لنتناول الآن مجدداً حالة سائق السيارة الذي يغالي في التحقق من زيت سيارته .

ما هو حصره ؟ يمكن الاعتقاد ، للوهلة الأولى ، بأنه يخشى أن يتلف سيارته . وذلك أمر لا يصمد مطلقاً ، للوهلة الثانية . ويمكن تحليل هذا المثال الى أربع نقاط :

١ - إذا لم أتحقق من زيت السيارة مرة واحدة في اليوم ، فلدي انطباع بأنني لست نظامياً ؛

٢ - إزاء هذا الانطباع بأنني لست نظامياً ، يظهر الحصر ؛

٣ - عليّ أن أبحث عن حماية وأمن من هذا الحصر ؛

٤ - فلا بد لي إذن من التحقق والتحقق مجدداً من مستوى زيت السيارة .

وثمة سؤال يطرح نفسه هنا : أمام من ينبغي على سائق السيارة هذا أن يكون نظامياً ؟ أمام شيء ما موجود في نفسه بالتأكيد . وهنا تقع مجدداً على الأنا العليا التي تكلمت عليها مطوّلاً في الفصل الحادي عشر « عندما الشيطان يقود الرقص » . فثمة ، لدى هذا الشخص ، شبكة من الإنمى اللاشعورية تلزمه دائماً بتبرير سلوكه لجميع الناس ، بدءاً من رجل الأمن الشرس الموجود في نفسه .

فهذا الشخص سائق السيارة مصاب إذن بهوس ووسواس لا يزالان ضعيفين . ونرى - مرة أخرى - أن هذا الهوس ليس سوى عرض يركز على مشاعر عميقة من الإنمى .



- أن يكون موضع نقد
- أن يكون موضع لوم
- أن يكون موضع حكم سيء
- أن لا يكون محبوباً
- أن يظهر غير كامل
- أن يبدو عدوانياً
- يحتفظ برقة لا مطعن فيها
- لا يكون عدوانياً ابداً ، وغير غاضب ابداً ، وغير خبيث
- لا يعارض ولا يعاكس
- يبدو طيباً ومتسامحاً ودبلوماسياً
- يبحث عن الاحساس بأنه محبوب ومقبول وغير ذي موضع للظمن ابداً ، وموضع الصفح دائماً
- أن لا يكون افضل الجميع
- أن لا يكون الاول بين الجميع
- أن يكون مخطئاً
- أن يحتفظ بشخصيته
- أن يكون عفويًا
- يكون على حق بأي ثمن
- يتجنب كل خطأ
- يحتفظ بهدوء مزيف وبمرح مزيف ، وبصلابة أو بالظهور بمظهر اللامبالي
- يعظم الإرادة والعقل الصلب ويحتقر الفرائز
- يسلك طريق « الواجب »
- يبقى على « حذر » نفسي امام الغير
- يسوّغ اعماله ويقدم تبريراً لها
- يتحقق الى درجة المبالغة من بعض الاعمال ( هوس ووساوس )
- يتملق الغير
- مازوخية
- يقلص حياته وحاجاته
- يخضع لرأي الغير خوفاً من إثارة الآخرين ( زهو )
- يصغر نفسه
- يعجب بنفسه
- يبقى في حالة الدونية أو الإخفاق
- يعظم التواضع
- أن يؤكد ذاته
- ( انظر « الخضاء » )

- يكون « خجولا »
- يبحث عن العطف والحماية
- يختار الوظائف الثانوية
- يكون لديه براهين دائمة ومبالغ فيها على المودة أو الحب
- يضبط سلوكه على سلوك الآخرين
- لا يؤكد ذاته ، وثمة رعب لديه من أن لا يعجب الآخرين
- أن يكون غير محبوب
- يكون دون جونا ، وثمة لديه خوف من النساء ومن السلطة
- يكون موضع اعتبار كل سلطة
- يكون لديه خضوع عدواني
- وتختث بالنسبة للرجال واسترجال بالنسبة للنساء
- وحاجة لاشعورية الى الإخفاق
- أن ينحصى ( انظر هذا الأمر ذا - ومازوخية وخضوع للسلطة
- والاهمية الكبيرة في الفصل الأخير ) - وجنسية مثلية كامنة
- وسيطرة عدوانية على الآخرين
- ( سادية )
- وغيرية مغالية وحاجة الى الألم
- الذي تضافى عليه المثالية ( احتقار الآخرين في الواقع )
- يفعل كل شيء للآخرين ولا شيء لنفسه
- وثمة لديه خوف من أن « يخدع »
- وحاجة الى أن « يخدع » الآخرين
- ( بعض رجال الأعمال )
- وإعجاب بالعدوانية ، وبالنية السيئة في بعض الأحيان
- وحاجة ملحة لتجاوز الآخرين
- واحتقار لضعف الآخرين (والواقع أنه احتقار لضعفه الذي يسقطه على الغير ) .

ونرى على هذا النحو ، ونحن نلاحظ هذا الجدول ، ان حياة ملايين من الأشخاص يلخصها بعض الاسطر ...

#### ٤ - كامل خوفا من ان يكون غير كامل .

بالرغم من انني تكلمت على « الاستكمالية » في مؤلفي الاول (١) ، اعتقد ان من الضروري ان اتناولها مجددا من زاوية مختلفة كل الاختلاف . والمقصود بالفعل آلية شائعة جدا ، آلية دفاع ضد الحصر . إنه دفاع اجتماعي : فمن المنطقي إذن ان تكون الاستكمالية رائجة رواج الصلات الانسانية .

ويفضل كل فرد ، بصورة طبيعية ، ان يكون محبوبا على ان يكون مكروها ، ويفضل ان يكون مقبولا في جماعة على ان يكون منبوذا .

يضاف الى هذا ان الخوف من العزلة والإهمال والانفصال عن الآخرين يتصف بأنه ربما كان اشد خوف يتسلط على الموجود الانساني .

وانطلاقا من هذا الحصر إنما ينمو الاستكمالي . والكلام ، في الحقيقة ، ينصب على حصر الطفل الذي يخشى ان يهمله أبواه ، وان يجد نفسه وحيدا في عالم عدائي وشديد الخطر .

وعاطفة الإنمية تمنح الإحساس العميق بـ « الخطيئة » . ويمكن للشخص الذي يعاني مشاعر الإنمية ان يوجه لنفسه اكبر ضروب اللوم ، هذا من جهة . ولكنه ، من جهة ثانية ، لا يتحمل ان يضع الغير ، ولو كان صديقا ، شيئا من الاشياء موضع الشك فيما يخصه . فثمة إذن ، في هذا المجال ، ضرب من التناقض الكبير يمكن فهمه مع ذلك بصورة جيّدة .

**فالشخص الذي يعاني مشاعر الإنمية تابع لراي الآخرين . إنه يمشي**

---

١ - انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .



**تبعا لرأي الآخرين .** ويكابد الحصر مباشرة إذا اعتقد بأن للناس رأيا غير مناسب فيه .

**يقول أحد الرجال :**

— إنه لغريب مع ذلك أن يجعلني أغوص في مثل هذا الضيق رأيي، يمكن أن يكون لدى أحد الناس فيّ ! ويستوي في ذلك أن يكون هذا الرأي رأي أحد المستخدمين عندي أو رأي رئيسي . وأحسّ عندئذ بأنني سأقدم على أي تفاهة كانت ، حتى أزيل هذا الانطباع بأنني موضع حكم سيء .

**ويقول شخص آخر :**

— أقع مربضا بمجرد أن يبدو ذكائي موضع شك .

**ولكن هذا الشخص ، الذي يرى الآن بوضوح أكبر ، يستأنف كلامه :**

— والحقيقة أن ما أرفع فيه يتجسد في أن أكون موضع إعجاب . فإذا لم أكن موضع إعجاب ، شعرت بالقلق وأنا أسألك لماذا لا استحق ذلك ، وما الشيء الذي بسببه لا استحقه ...

ويدلّ هذا الرجل على آلية ذات أهمية . إنه ، في الحقيقة ، لا يرغب في أن يكون موضع إعجاب ! بل يخاف أن يكون موضع احتقار . وسنرى السبب حالا .

وبما أن الشخص المصاب بمشاعر الإثمية يخشى أن يكون موضع نقد ولوم ، فإنه بالتأكيد سيبتل قصارى جهده لكيلا يكون موضع لوم . وسينمي لديه سلوكا يضعه في مأمن من كل نقد ، وبالتالي في مأمن من الحصر .

**ويحاول الشخص عندئذ أن يبدو للآخرين بمظهر هو من الكمال بحيث يصبح منبع متع الجانب به . فهو يقول في نفسه بصورة لاشعورية :**

— لا أرفع في أن أنزع فتاعي . فلو نزع فتاعي ، لراثنى الناس على ما اعتقد أنني عليه . وإذا راثنى الناس كما أنا ، فإنهم لن يحبوني أبدا ، وسينبلونني .

**وتستمر المحاكمة :**

— عليّ أن أبدو بمظهر حيث يصبح متمذرا أن أكون موضع تقديم .

ويقلت الشخص ، تدريجيا ، من الحصر بفضل مظهر الكمال لديه .  
وثمة آلاف ممكنة من صور الاستكمالية . وتتصف هذه الصور في  
بعض الأحيان بأنها غير متقنة ، وبأنها في منتهى الإلتقان أحيانا أخرى .  
فقد يبدو المرء ، على سبيل المثال ، مثقفاً بصورة كاملة ، ذكياً على أتم ما  
يكون الذكاء ، مهذباً الى أبعد حدود التهذيب ، لطيفاً في منتهى اللطف ،  
وأعني بذلك استبعاد كل عدوانية تعرّضه الى فقدان الاعتبار . ويمكن  
للمرء أن يبدو أنيسا كل الأنس ، علامة ( ويتظاهر بما لا يتصف به إن  
كان لا يتصف ) ، طيباً جداً ، متواضعاً جداً ، هادئاً جداً ، عطوفاً  
جداً ، الخ .

ويمكن ، أخيراً ، أن يبدو المرء على أكمل ما يكون في كل ما يرغب .  
والهدف ، وأكرّر ذلك ، أن لا يكون موضع نقد وأن يكون محبوباً .  
ومضمون ذلك : « انظروا كم أنا كامل ، إذن لا تحقدوا عليّ ، أحبوني ولا  
تنبؤوني ... » .

ومن المؤكد أن بالإمكان الإكثار من الأمثلة الى ما لا نهاية . فالاستكمالية  
تمثل جهازاً من الدفاع يتصف بأنه هائل أحيانا . إنها ، على الغالب ،  
حياة برمتها تنبني ، ثانية بعد ثانية ، بهدف أن يكون المرء موضع الاعتبار  
بأي وسيلة من الوسائل .

والاستكمالية ، بدورها ، تولد الحصر . فالخوف من النقد أو اللوم  
دائم . والحصر المنوط به دائم كذلك ، ويمكن لأوهى هفوة في السلوك  
أن تولد ضروب الحصر والاجترار النفسي . وهذا يعني أن الحصن مهدّد  
باستمرار ، وأن الملاح الذي يمسك الأجرّ ينبغي تجديده يوميا . وهذا  
يكلف كثيراً من الطاقة . ذلك أن الاستكمالية تولد إرهاقا انفعاليا يزداد  
شدة بمقدار ما يتصف بأنه لاشعوري . فالشخص الاستكمالي ، في  
المجتمع ، شخص يترصد دائماً ويراقب نفسه أبداً ، ولا يتسم على  
الاطلاق بأنه على سجيته . إنه يبحث ، بحثاً مستمراً لاشعورياً ، بأي

اسلوب يمكن أن يظهر بمظهر أكثر ما يكون اتصافا بأنه مناسب . فتحة ،  
بالتالي ، توقف لكل عفوية ، والشخصية المزيّفة دائمة ، مع ضروب الكف  
والحصر والتهيب ، الخ .

فلنكرّر إذن ان الاستكمالية هي الجهاز الدفاعي الأكثر استخداماً  
بصور مختلفة ، لأنها تحمي ضد حصر إنساني شديد ، حصر أن يكون  
المرء منبوذاً ومهملًا .

يضاف الى هذا ان الاستكمالية ، شأنها شأن كل عصاب ، لا تنشأ  
في يوم واحد . إنها تنمو على الغالب انطلاقاً من تربية تولد مشاعر  
الإثم . فلا شيء ، هنا كذلك ، على السطح ، والشفاء منوط بضروب  
من احتياز الشعور التي يمكن إنجازها في أثناء التحليل النفسي .

رأينا ، فيما سبق ، شتى حالات الاستكمالية . وها هي ذي حالة  
أخرى تدلف ، انطلاقاً من الاستكمالية ، نحو عقدة أوديب والمازوخية  
وحصر الخفاء ، وتلك اوضاع رائجة جداً بصورة عديدة ممكنة .

## مساعد ناجح

السيد ل ، في الخمسين من عمره ، متزوج ، طفل ، يعاني مشاعر  
الدونية ، والتهيب الذي يشلّ ، والتهيج ، والتعب الشديد ، والحصر .  
يقول السيد ل :

— انهكتي العمل في المكتب ، وأعمل كثيراً من الساعات الإضافية و ...

— هل هذه الساعات الإضافية ضرورية ؟

— آه أرجو ، ليست ضرورية مطلقاً ! وظيفتي وظيفتة ثقة . فأنا معاون مباشر للسيد ل  
ولكن ذلك ، بالتأكيد ، يجبرني على العودة متأخراً الى المنزل جداً . الامر الذي يجعل  
حباتي الزوجية لا تسير دائماً على أحسن ما يرام .

ثمة ، مع ذلك ، امر يشير الدهشة لدى السيد ل :

— ما لا أفهمه هو أنني متهيّج في عملي دائماً . هل هو التنبؤ ؟ لكنني لا اعتقد ذلك .  
فأنا دائماً في حال كأن شيطاناً يلاحقني . وعندئذ اتوزّع بين عشرة أعمال مختلفة ، ولا أنهي  
أياً منها ... على الأثر كما أتمنى ... ثم ، هذا الحصر الدائم على وجه التقريب ...

### فماذا لدينا حتى الآن ؟

ساعات إضافية — إنهاك — تهيّج وتوزّع — حصر ... أعني ليس  
ثمة لدينا شيء هام محدّد .

وبدأ التحليل بصورة طبيعية . وما تختلف السيد ل عن جلسة واحدة  
بالرغم من العمل الذي يرهقه .

ومع ذلك ، يقول السيد ل :

— عندما أبدأ شيئاً من الأشياء ، أقوم به بصورة مغلصة وإلى أبعد حدود الإخلاص .  
إنني أعاون معاوناً كاملاً . وذلك كما هو الشأن في المكتب : إنني اسل في الساعة المعتادة  
ولو كنت مريضاً .

والواقع أن السيد ل يصل دائماً قبل مديره بربع ساعة . فهل ذلك  
لكي يكون كل شيء جاهزاً قبل وصول الشخصية الرئيسية ؟ كلا ، على  
الاطلاق ، بل لكي يلاحظ المدير يومياً أن معاونه على رأس عمله باخلاص  
ودقة كاملين . فهل ذلك ضرب من التفاني ؟

لنر التتمة :

— إنني ، يقول السيد ل ، رجل يمكن الاعتماد عليه .

هذا صحيح ، ولكننا سنرى أن الدافعيات مزيفة ، وأن الحصر ليس  
موجوداً من أجل لا شيء ...

وشغرت وظيفة المدير يوماً من الأيام . وكلف السيد ل نفسه كثيراً  
من الجهد ... ولكن لا من أجل ذاته ، لا من أجل أن يحصل على هذه  
الوظيفة الجدير بها مع ذلك ، بل من أجل مرشح ممتاز آخر .

— هل تفهم ؟ قال السيد ل . صحتي لا تسمح لي أن أصبح مديراً عاماً . وفضلت  
أن يكون شخصاً آخر أبقي معاونه . وعندئذ دعمت ترشيحه إلى أبعد الحدود ...

وعلمت فيما بعد انه كان يدعم على وجه الخصوص هذا الترشيح عندما كان بإمكان المدير الجديد أن يعرف ذلك . فهل هذا ترشيح ؟ أم تملق ؟ ليس هذا ولا ذاك على الإطلاق .

ها هو ذا المدير الجديد ، إذن ، قد استقرّ في وظيفته . واستأنف السيد ل ، بالحماسة نفسها ، دوره بصفته معاوناً للمدير لا غنى عنه ، ناجحاً ، يقضّم عمل المدير ، الخ .

وقال السيد ل ، متشجعاً جداً ، في أحد الأيام ( وهذا يلخص كل شيء ... ) :

– انت تعلم ، فكرت كثيراً . حاولت أن افعل ذلك بإخلاص . ونهيت انني اشتغل ساعات إضافية لأنني لا اجرؤ على الانصراف في الساعة المحددة ...

– وهل ينصرف مديرك في الساعة المحددة ؟

– نعم ، دائماً . ولكنني أدبّر أمرى لكي يكون على علم بعملى في المساء . فانا اضع على مكتبه رسالة ، او كلمة ، او شيئاً ما من هذا النوع ... ولكن لماذا لا اجرؤ على الانصراف في الساعة المحددة ؟

– للسبب ذاته الذي يجعلك تصل ربع ساعة مبكراً في الصباح ...

**ماذا يحدث ؟**

**ما هو لاشعوري**

**ما هو ظاهري**

آلاف من « الوسائل » لكي يلاحظ الناس أن السيد ل مخلص ومتفان . فهو ، على سبيل المثال ، عندما يقول لمديره : « إنني ، عندما وصلت أمس الساعة السابعة ... » ، في حين أن المكاتب تفتح أبوابها الساعة التاسعة وأنه وصل الساعة الثامنة والنصف . ويعلم السيد ل أنه يكذب ، ولكن ذلك لا يمضي أكثر بعداً . وهو لا يعلم إلا بصورة غامضة جداً أنه يبحث عن أن « يرفع من شأن نفسه » .

مخلص

مذهب  
متواضع

عدوانية مكبوتة .  
شريطة أن يعلم الناس أنه متواضع ، كما  
هو الأمر بالنسبة للأخلاص ؛ الأمر الذي  
يمنحه الاحساس بأنه موضع إعجاب ،  
وبالتالي ، مقبول .  
مستقل بصورة فظة وعدائي .  
يتوارى كيما يتجنب الدخول في منافسة .  
ويتذلل حتى ينال الصفع .

« متعاون » جدا  
متوار وخجول

قال السيد ل ذات يوم :

— خمس سنوات انصرفت لم اطلب خلالها اي زيادة على اجري ... كانت زوجتي  
تدفعني الى طلب الزيادة ، وكنت اجيبها بأنني أحصل على ما يكفي مقابل ما اقدمته .  
ولكنني ارى الآن ان ذلك كان خدمة رائمة ! إن هذا لا يزال غامضاً جداً ... بيد أنني  
أحس بأن الأمر كما لو أنه ليس لي الحق بمرتبي ( المرتفع الى حد ما ) ، ، وأنتى لا أستحق  
دراهمي ... والحقيقة أنني أعمل كثيراً لأمنح نفسي الانطباع أنني ادّيت على نحو واسع  
مقابل ما يدفعونه لي في نهاية الشهر ...

نحن إذن في حالة من الاستكمالية ، مظاهرها هي التالية : أن يكون  
مساعداً متفانياً كل التفاني ، مخلصاً كل الاخلاص ، لا يمكن نقده في اي  
مجال ، الأمر الذي يتيح للسيد ل أن يفلت من الحصر ، حصر كونه  
منبوذاً ، وحصر المنافسة .

بيد أننا ، بالإضافة الى ذلك ، في وضع اوديبى ( انظر فيما بعد هذا  
المشكل ذا الاهمية الكبيرة جداً ) . وإذ يُظهر السيد ل نفسه كثير التفاني  
و « رجل ثقة » كثيراً ، فإنه يضع نفسه تحت الحماية العطوف ، حماية  
« أبيه » ( المدير ) . والسيد ل مصاب كذلك بـ **حصر الخضاء** ( انظر  
الفصل التالي ) . انه يخشى السلطة . وهو ، بموقفه ، يحاول الحصول  
على حسن التفاتهما ( حتى لا يكون موضع الخضاء ) . والمقصود ، في نهاية  
الأمر ، **مشكل من مشكلات المازوخية** ( وضع المرء نفسه في موضع أدنى ،  
وتصغير النفس ، والتجرد من الرجولة ، وتجنب المنافسة ، والخضوع ،

الخ ( تحت مظاهر براقة : إخلاص ودقة وعمل مثالي ، الخ .  
فالسيد ل إذن في حالة « الجندي الكامل » الذي سنراه فيما بعد ،  
والذي يخفي إخلاصه التام للوطن ولرؤسائه ( حصر الخصاص ذاته ... )  
ولكن من المؤكد أيضا ان السيد ل كان سيبقى ، لولا التحليل  
النفسي ، « مرؤوساً كاملاً » ، تزداد إصابته بالحصر ، حتى نهاية  
حياته ...

### ثالثا - البحيرة السوداء

يتضح إذن ان مشكل الحصر والإثمية مشكل رئيس . والحصر  
والإثمية هما المسؤولان الكبيران منذ ان يترك الوجود الانساني خطوط  
سيره ، وذلك ما يحدث منذ عهد الطفولة غالبا . ويتصف مشكل الحصر  
أيضا بأنه رئيس بالنسبة للآباء : إما لأنهم مصابون هم أنفسهم بالحصر ،  
ولا شيء أكثر اتصافا من الحصر بأنه ينتقل بالعدوى ؛ وإما لأن عليهم ان  
يعرفوا آليات الحصر الكبرى لدى الطفل والراشد . ذلك ان عدد الآباء  
المصابين بالعصاب كبير العدد اذا كان عدد الأطفال المصابين بالعصاب كبيرا  
جدا . فثمة في هذه المجال مشكل ذو أهمية قصوى ، مشكل من الاحتياط  
والوقاية .

بيد ان من الضروري ، من أجل ذلك ، ان ينتشر علم نفس الأعماق  
انتشاراً متزايداً . ولن يكون هذا الأمر قريبا ولا ريب : وبانتظار هذا  
الانتشار ، سيكون هناك أيضا كثير من الحيوانات الانسانية المحطمة .

### ١ - طرف الأنف ليس طرف العالم

يظل صحيحاً ما قلته في بداية هذا الكتاب . فلن يكون ثمة أي  
« نصيحة صغيرة » لمحاربة الحصر . ذلك ان الحصر ليس ، على الإطلاق ،  
زبداً سطحياً . وموقعه دائماً في أعماق الشخصية حتى ولو كان  
المقصود ازمة حصر : بالنظر الى أن هذه الازمة ليست سوى التعبير عن

اضطراب عميق . وتتصف بعض التقنيات ، كالاسترخاء واليوغا ، بأنها قيّمة على الغالب . ولن أتكلّم عليها . وبما أن العدو يختبئ غالباً في قعر اللاشعور ، فمن هناك انما ينبغي اقتلاعه .

كذلك فإن الطبيب يصف المهدّئات عندما يكون الحصر شديداً . وهو مصيب بالتاكيد . فربما كانت المهدّئات عقاراً من العقاقير الأكثر اتصافاً ، في الكيمياء الحديثة ، بأنها ثميّة .

ومن المعلوم أن المهدّئات غزت العالم . وذلك يحمل على القول في بعض الأحيان إن أولئك الذين يتناولونها بافراط يُظهرون ضرباً من « الجبن » أمام الحياة . وهذا قول عبث . فإن يكون ثمة خوف أمام الحياة ، نعم ، أما الجبن ، فلا . إن الجبن لا يعني شيئاً ، وهو ليس سوى كلمة جوفاء وتعبير عن عرض من الأعراض . ولا موضع لإدانة عرض . فذلك يعادل ما لو اطلقنا حكماً على الهواء . فالجبن يعني الخوف والهرب . ولكن ، من يرغب ، بمقتضى العقل ، في أن يكون خائفاً وهارباً ؟ الخوف والهرب يعنيان أن ثمة سبباً ، وأنه لا بد من البحث عنه .

وأكثر اتصافاً بالمنطق أن يقول المرء لنفسه : إنني خائف ومصاب بالحصر ، وجميع جهودي ينبغي أن تتجه صوب سبب هذا الخوف . وما أن يزول القناع عن هذا السبب حتى يزول خوفي (١) .

ذلك اننا ننسى في اغلب الأحيان أيضاً أن الدماغ ليس سوى عضو كغيره ، وأن له الحق تماماً ، هو أيضاً ، في أن يكون له تداخلات وأعطال في التيار .

وفي سماء العصاب السوداء ، يتصف الحصر بأنه ضرب من

---

(١) انظر فصل « احتياز الشعور » ، الفصل التاسع .



الماستودونت (\*) غير المرئي على الغالب ، لأنه لاشعوري ، ولكنه يؤثر تأثيراً متزايداً دون عائق (١) .

ويعرض الحصر مئة ألف وجه . وليس ثمة وجه واحد بينها واضحاً . وعندما يلتقي به موجود إنساني ، فانه ينهزم ويبحث عن حماية منه . وقد رأينا ذلك أيضاً . وعندئذ ينمّي الموجود الانساني مجموعة كاملة من الشخصيات المزيفة التي ، للوهلة الأولى ، يمكنها ، في بعض الأحيان ، أن تبدو أصيلة جداً ورائعة جداً . إن ذلك يشبه عندئذ ماء شديد الخطر . يختفي تحت حديقة مزهرة .

ومما يدعو الى الاطمئنان معرفتنا أن التحليل النفسي يفلح في استئصال معظم صور الحصر .

## ٢ - الحصر في أثناء التحليل النفسي

يسلك المريض في أثناء التحليل النفسي مثلما يفعل في حياته اليومية . ومع ذلك ، تتصف سلوكاته بأنها تتجمع وتبلور وتتألف في أثناء جلسات التحليل . ومن المؤكد أن بواعث الحصر ، خلال التحليل ، عديدة الى اقصى حد . والمريض ، من حيث المبدأ ، ينبغي أن يظهر كما هو . وعليه ان يتعرّى ، ويكفّ عن التمثيل ، ويحاول أن يكون على سجيته بكل ما لهذا المصطلح من معنى . ونرى الآن أن ذلك هو الباعث الأول للحصر الذي يتصف في بعض الأحيان بأنه شديد . ولنفترض ، بالفعل ، مريضاً يعاني حصرأ دائماً ، حصر فقدان الاعتبار ، والحكم السيء ، والنبذ ، الخ . فإن يكون الحصر جاهزاً في ميعاد الجلسات خلال جزء كبير من التحليل ، امر مفهوم بصورة جيدة جداً . وهذا المريض ، على سبيل المثال ، « سيفش »

---

\* - حيوان لبون متحجّر ، من العصر الحجري الثالث والعصر الحجري الرابع ، يشبه الغيل . والمقصود هنا شيء ذو حجم هائل (م) .

(١) - انظر « الطب النفسي الجسدي » في « الانتصارات المدهلة لعلم النفس الحديث » .

ويحاول أن يجعل « المحتل ينظر إليه » نظرة اعتبار . فيجانب ذاته ويرفض ، شعوريا أو لاشعوريا ، أن يظهر كما هو . وثمة ، في الوقت نفسه ، توتر يظهر لديه ، توتر تولده الرغبة الشعورية في أن يظهر كما هو ، والخوف اللاشعوري من أن يفقد اعتباره . وهناك مثال آخر : العداوة التي يحسّ بها المريض إزاء محتله ، تولد على الغالب ضروبا من الحصر الشديد جدا .

ويبدو الحصر أيضا في الوقت الذي تبدو فيه المقاومات . ويبدو الحصر كذلك عندما يتم الاقتراب من آليات الأمن العصابية أو عندما يجري مسنها ، أو عندما يتم الكشف عن بعض مظاهر شخصية المريض ، مظاهر يفضل أن تبقى مستورة .

ولكن الحصر يبدو أيضا - بصورة مفارقة - عندما تبدو أوائل ضروب الشفاء . وقد بينت ذلك من قبل . إنه صنف حقيقي من « حصر الحرية » . إنه انتقال من مرحلة الطفالة الى مرحلة الرشد ، والخروج من السجن نحو الحرية : حرية مجهولة ما تصدى لها المريض قط . ويفهم المرء تمام الفهم أن الحصر يبدو عندما يضطر المريض الى التخلي عن ضروب أمنه ، وملاجئته ، وعكازيه ، وآرائه المسبقة ، ودروعه ، وأثوابه القديمة . إنه عندئذ الحصر نفسه الذي يستولي على مراهق يترك منزل الأسرة الذي كان يحميه ، ولكنه الذي كان يقيد حريته ، لكي يخطو خطواته ، خطوات الرجل الراشد في حياة حرة وشديدة الخطر نسبيا .

### ٣ - الحلول الأكثر تواترا لمواجهة الحصر

ثمة ثلاثة حلول مستخدمة على نحو شائع لمواجهة الحصر :

(١) بذل جميع الجهود للاحتفاظ به مطمورا ، ومحاولة إيجاد نمط من الحياة يجعله منسياً ، وذلك ما رايناه وسنراه . وفي النسق ذاته من الأفكار ، يستخدم الشخص المصاب بالحصر مهدئات ، وينطلق في عمل عنيف ، ويرتاد السينما خمس مرات في الأسبوع ، ويسافر ،

ويخرج ، ويتسلى ، ويشرب الخمر ، الخ . وتعني هنا إذن كلمة « نسق » :  
فعل كل شيء لمنع الحصر من أن يتجلى .

ب ) يمكن أن يحاول الشخص المصاب بالعصاب أن يتسامى  
بالعصاب . فقد ينطلق على سبيل المثال ، تحت ضغط العصاب ، في  
مهنة فنية ، في نشاطات غيرية ، في رحلات كشف عظيمة ، في أسفار  
كبيرة ، الخ . وبناء عليه ، فإن من المسير دائماً تمييز ما يتم إنجازه تحت  
ضغط الحصر مما يتم إنجازه دون ضغطه .

ح ) يمكن اقتلاع الحصر ونزع البحيرة المسمومة التي يمثلها .  
وهنا إنما يتدخل التحليل النفسي .

## ٤ - هل تستطيع الإرادة أن تفعل شيئاً ضد الحصر؟

الإرادة عاجزة ، بصورة عامة ، عن مواجهة الحصر . وكل ما يستطيع  
المصاب بالحصر أن يفعل هو محاولة إقناع نفسه أن ليس ثمة أي داع  
لأن يكون مصاباً بالحصر . ولا جدوى من ذلك في تسع حالات من عشر .  
فالحصر يستمر شبيهاً على الوجه الدقة بما لو أن أي محاولة لم يكن قد  
تمّ القيام بها لمواجهة .

وهذا امر يمكن فهمه جيداً . فالإرادة والجهد ، الشعوري والإرادي ،  
يقعان في المستوى الشعوري . والحصر ، إياه ، يقع في المستوى  
اللاشعوري . فليس إذن بضرب الأرض بالقدم إنما نحرك كتلة من  
الصخر موجودة على عمق مئة قدم . ونصادف على الغالب ، من جهة  
أخرى ، أشخاصاً مصابين بالحصر أولي شخصية وإرادة قويتين . ومع  
ذلك ، لا يمكن لهاتين الخاصتين أن تفعل شيئاً ضد حصرهم للأسباب  
التي أتيت على ذكرها .

فما ينبغي إذن قوله وتكراره مئة مرة هو أن موقع الحصر في الأعماق  
دائماً لا في السطح أبداً . وهذا هو السبب في أن التحليل النفسي هو العلاج  
المثالي بصورة عامة .

ولكن من المؤكد أن المريض ، ما دام الاعتقاد سائداً بأن الإرادة يمكنها استئصال ضروب حصر الأعماق ، يجد نفسه يفوص في حالة من العزلة وعدم الفهم وصنوف التمرد الشديد ، إذ أن الوسط - بفعل الجهل أو الغباء أو عدم الفهم - يرهق الشخص المصاب بالحصر بنصائح تسبب الضرر أكثر مما تسبب النفع ، ولا تغلح إلا في جعل المريض يفوص في ضروب من الحصر والتشنج أكثر قوة أيضاً .

وفي هذا المجال إنما يواتي الحظ ، مرة أخرى كذلك ، تجار الأوهام و « النصائح الصغيرة » .

راينا من قبل الى اي حد تتصف اصناف الحصر بأنها متنوعة ، والى اي حد تتصف السلوكات الدفاعية المتبناة ضدها ، رغم انف المصاب ؛ بأنها عديدة . وراينا كذلك كيف أن الاعراض نفسها قد توجد في ضروب مختلفة من العصاب . فلا شيء ينبغي أن يتخذ على نحو صلب ، دقيق أو متوضع . فلنر الآن ما هي النقاط الرئيسة في تكون الحصر .



## الفصل السادس عشر

### مصادر الحصر الكبرى

#### أولا - الولادة والأعمار الاولى

إننا نمس هنا محركا من المحركات الرئيسة للحياة الانسانية . فكل إنسان ، وهذا أمر يعرفه الجميع ، يبحث عن سعادته او ، على الأقل ، عن وجود يتضمن أقل الصعوبات الممكنة . واي انسان ، في الحالة المثالية ، ليست لديه الرغبة الحنينية في جنة كل ما فيها دفاء وعذوبة وسلام ؟

ومن جهة أخرى ، ما اكثر الناس الذين يلاحقهم الخوف من الحياة مع كل ما يفترضه من انطواء على الذات ، كما لو ان الانسان يستعيد على نحو نفسي وضعية الجنين المنشئية ، او يلاحقهم الخوف من الموت مع النشاطات العديدة البارزة لكي يفلتوا منه !

**واساس المشكل بسيط .** ويظل مشكل الراشد هو مشكل الطفل الصغير : إما « العودة الى ماما » اذا كانت الحياة قاسية ، وإما « الانقطاع » و « الانفصال » عن ماما لإنجاز حياة شخصية ، حرة ومستقلة ، شريطة أن يكون هذا الاستقلال أصيلا وأن لا تصبح الحياة المغالية في الفردية هروبا أمام الحصر .

رأينا **حصر الولادة** في الفصل الثاني عشر . إنني اذكر به على نحو سريع : إن الجنين ، الذي يتصف بأن له حياة نفسية لاشعورية ، يسبح

في بطن الأم وتسبح عضوية الجنين في السعادة البالغة . ثم تحين لحظة الولادة : فتلقى عضوية الوليد بصورة عنيفة في عالم ذي وقائع هائلة . وذلك هو الخروج من رحم الأم . إن رحم الأم كان الجنة ، والولادة هي الجنة المفقودة . ويظهر بصورة مباشرة ضرب من الحنين العميق الى الأم ، والى الاشعور ، والى الموت ، والى الظلام الدافئ العذب الذي كان كل شيء ممنوحاً فيه ، دون أن يكون ثمة شيء مطلوباً . وذلك يسم الى الأبد حياة الانسان النفسية .

والمرء ، بصورة مباشرة ، يرى الأهمية الرئيسة لـ **رمز الأم** الذي يمكن إسقاطه على كل ما هو حفيّ ، وعلى كل ما يمنح العذوبة والسلام : المرأة ، والأرض الأم ، والوطن ، والكنيسة ، وبعض البلدان البعيدة ، وبعض المدن الحفيّة ، والموت المريح ، والنوم ، الخ .

ويمكن القول إن كل شيء يبدأ بداية حسنة منذ الدخول في الحياة ، ما دام ذلك يستعمل بـ « صدمة الولادة » !

وتتلقى إذن عضوية الوليد ، التي لا دفاع لديها ، صدمة عنيفة عند الولادة . إنها ، في رأي **وانك** ، التجربة الانسانية الأشد اتصافاً بإثارة **الحصر** . وذلك أمر مفهوم أحسن الفهم ، إذ أن عضوية الوليد تنتقل من وضع في منتهى السعادة الى وضع مؤلم . فثمة إذن انقطاع في التوازن والم نفسي وحصر . والاستعداد للحصر لدى الأطفال معروف . ومصدره، في رأي **وانك** ، صدمة الولادة . والطفولة برمتها ضرورية للوصول الى تجاوز هذه الصدمة . والمصابون بالعصاب ، من وجهة نظر **وانك** ، هم أولئك الذين ما استطاعوا إنجاز هذا العمل بنجاح ، والذين ظلّوا يغوصون في طفالات هي ، في الحقيقة ، الحاجة الدائمة لـ « العودة الى الأم » .

اليكم حلم أحد المرضى :

— تخاسمت مع زوجتي ، فغادرت المنزل ، ودخلت كنيسة كان فيها سرير واسع . وكانت قبة السرير من الخمل الأرجواني الدافئ ، والكنيسة مظلمة . وكان ثمة زنبق ينشر رائحة قوية . واضطجعت في السرير ونمت ...

والحلم يعني ، في الوضع **الراهن** ، وبناء على تداعيات الافكار لدى هذا المريض :

— كان المريض في مواجهة مع وقائع سن الرشد ومسؤولياته ( **تخاصم مع زوجته** ) ؛

هرب المريض من هذه الوقائع ، وقائع سن الرشد ( **غادر المنزل** ) ؛  
— دخل مكانا مغلقا حفيئا ذا قباب مظلمة ؛ وعاد الى « **أمننا** »  
الكنيسة التي استقبلته في « **حجرها** » ( **ودخل كنيسة** ) ؛

— وكان رحم الأم حفيئا ، دافئا ، ذا حشوة ( **سرير واسع** ، **قبة السرير من المخمل الأرجواني الدافئ** ) ؛

وجد في الكنيسة طفولته مجددا ، ووجد فيها كذلك الحفاوة غير المشروطة ، حفاوة الأم التي أصبحت هنا ضربا من « **مريم العذراء** » ( **الزئبق** ) ؛

— احتفى برحم الأم ، ونام في حضن الأم ، وعاد فأصبح وكأنه جنين سعيد بنبطة بالغة ( **اضطجعت في السرير ونمت . . .** ) .

## ثانيا - حصر الانفصال

نعلم ان شعور المرء بأنه منفصل ، ومنبوذ ، ومتروك ، ومنعزل ، حصر من اشد ضروب الحصر التي يمكن ان تسيطر على موجود إنساني . وراينا كذلك الى اي حد تبذل هذه الموجودات الانسانية كل جهد حتى تكون مقبولة ، ولكي لا تكون منفصلة ، ولكي لا تحس بأن الآخرين ينبذونها .

إن **رانك** وسع المشكل ، هنا كذلك . فشدد بصورة قوية على الولادة التي تمثل **انفصال** عضوية الطفل عن عضوية الأم .

**ومفهوم الانفصال ذو اهمية قصوى بالنسبة الى العضوية الانسانية والحياة النفسية الانسانية . والانفصال وحده مولد لضروب كثيرة من الحصر . ذلك ان ثمة فرقا كبيرا بين الحالات التالية :**



## الحالات السوية حالات الحصر

- انفصال المرء بصورة إرادية - شعور المرء بأنه منفصل عن سلوك دربه على نحو مستقل ، الآخرين ؛ شريطة أن يكون هذا الاستقلال أصيلاً ، لا تمرداً ولا يأساً ؛
- كونه وحيداً ؛ - شعوره بأنه وحيد ومهمل ؛
- انسحابه بصورة إرادية - شعوره بأن الآخرين يبتذونه .
- واصيلة .

ويتضح على هذا النحو أن المراحل السوية لنمو الشخصية ترسم :

- ثمة أول الأمر انفصال عضوية الطفل عن عضوية الأم ؛

- يكون الفطام صدمة ثانية أقل أهمية في ذاتها ؛

- ينبغي أن يصبح الانفصال عن الأم انفصلاً سيكولوجياً . وهذا هو الفوز بالاستقلال الذي ينبغي للطفل أن ينجزه تدريجياً . وهذا الفوز بالشخصية المستقلة عسير وبطيء جدا . والواقع أن الإغراء الغالب بـ « العودة الى وراء » ( صوب الأم ) تستحوذ على الطفل ثم على المراهق . فالمرء يدرك إذن أن كل مرحلة صوب الاستقلال ، وذلك من الولادة حتى الموت ، ينبغي أن يتم تصورها على أنها انفصال عن طور سابق من الحياة .

ولنشر هنا إشارة عابرة الى أن كثيراً من الأطفال والمراهقين والراشدين يشعرون بأنهم آثمون لانفصالهم عن أمهاتهم و « تركهم لهم » ، هؤلاء الأمهات اللواتي يسقطون عليهن غالباً حصرهم الخاص بأنهم « مهملون » . وعندئذ تظهر اضطرابات وضروب من العصاب مع ما يرتبط بها من فقدان الأمن ومن الحصر . وذلك ما يقع في الأغلب عندما يواجه المرء زواجاً على سبيل المثال .

## ثالثاً - مصابون بالحصر وآثمون لأنهم موجودون

ها هي جموع من الناس تتألى : جموع من الناس الذين يعيشون مع الاحساس الدائم بأنهم شيء زهيد ، أو بأنهم لا شيء . إنها جموع الناس الذين يشعرون بأنهم غير مقبولين إلا بشق النفس ، وبأنهم منفصلون عن الآخرين . ولديهم الانطباع بأنهم ليسوا في مكانهم أينما حلّوا . ويشعرون بالإثم ، وبأنهم في ضيق ومصابون بالحصر كلما اظهروا رأياً شخصياً ، وكلما عارضوا الغير ، سواء كان هذا الغير مرؤوساً أو رئيساً . إنهم يعيشون مع إحساسهم بأنهم اطفال في وسط سلطات عليا .

ولا يستطيعون أن يحبوا . وكيف يستطيعون ذلك ما داموا يعتقدون ان أحداً لا يمكنه أن يحبهم ؟ إنهم غائضون في مشاعر الدونية ، وفي حصر خفيّ ودائم . ويكابدون حرجاً عميقاً عندما ينظر اليهم الغير أو يصغي اليهم . ويحسّون إحساساً مستمراً بأنهم « مسحقون » . والطامئينة لا تعود الى نفوسهم على الغالب إلا عندما يسحقون الآخرين ، الخ .

إنهم يشبهون اطفالاً امام أبوين قويين كل القوة . وهذان الأبوان هما « الآخرون » ، أيا كانوا . ونحن ، هنا ، نلتقي بالمشاعر الأبدية ، مشاعر الإثمية والحصر ، التي تتوطن قلب الانسان ، ولكن ثمة ضرب من التربية العصابية التي ضخمتها في اغلب الأحيان . . .

## أقوال مرضى

تلتقي هذه الأقوال التقاء تاماً مع ما رأيناه فيما سبق . انها التعبير **التموضع** بالتأكيد لمشاعر **معتمة** تغزو لاشعور الفرد ووجوده برمتيهما . والتعبير عن الإثمية والحصر تعبير واحد دائماً ، بصورة عملية . ولكننا سنعيد فيما بعد هذه الأقوال ، أقوال المرضى ، الى السبب الرئيس : الى التربية التي منحها أبوان مصابان بالعصاب ، أو ، بالبحري ، الى **رد فعل الفرد** إزاء هذه التربية . وسنرى ، مرة أخرى كذلك ، أهمية وقاية الآباء ، نظراً للعدد الذي لا ينحصى من الحالات الممكنة .

واليكم ، اول الامر ، الصرخة الحقيقية من مريض ذكي ، « ناجج » .  
نشط ، صرخة تلخص كثيراً من الأمور :

— اميش كما لو كنت غير جدير بالعيش ، وكما لو كنت أما ولا أصلح لني . ولكن  
ليتي كنت أما لانني فعلت شيئاً !

إذن ، من الذي جعله أما ؟ من اجبره على ان يشعر بأنه آثم ؟  
فلنستمر في سرد اقوال تبين حاجة الى الإخفاق ، اي الحاجة الى  
السلام ، والحاجة الى ان لا يكون المرء مضطراً لأن يقول لنفسه :

ليس لي الحق في النجاح ، ولا الحق في ان اكون سعيداً ، ولا الحق في ان اكون على  
سجيتي ، ولا الحق في ان يكون لي شخصية ، الخ .

وقال مريض آخر :

— لم اسمع نط صوتي الخاص . وكنت اصغي دائماً لصوت الآخرين . وبدأت أدرك  
ذلك فقط . وكانت حياتي برمتها مرتكزة على رأي الآخرين . والسؤال التالي : « ماذا  
سيقول الناس عني ؟ » ، كان الامر المطلق لكل وجودي . ذاتي ؟ لا اعرفها . هل أنا حر ؟  
لا اعلم . ولكن ذلك كان لاشعوريا الى درجة كبيرة !

إليك الملاحظة الذكية جداً ، ملاحظة صبيّة تبنت الشخصية التي  
اقتضاها الأيوان ، خلال طفولتها كلها وخلال مراهقتها :

— كففت خلال سنين طويلة عن ان اكون ذكية ، وكنت ابدل فصاري جهدي لابدو غير  
ذكية ...

فلنستمر مع اقوال المرضى :

— خضعت دائماً حتى اتكيف مع خوفي ...

— مثلت دائماً ذلك الدور الذي كانوا ينتظرونه مني ...

— آثفت شخصية لا يمكن أبداً لأي شخص ان يواجه لها اي لوم ...

— قدّمت دائماً خدماتي خوفاً من ان اكون موضع استهجان ...

— كبت دائماً عفويتي وشخصيتي ، ومنعت نفسي دائماً من ان تكون عفوية . كنت  
خائفة ، ولكن كان لا بد لي من ان اميش ...

- ادركت للمرة الاولى في حياتي انني كنت اخفض قلومي بصورة فريزية الى حد الوقوف باستعداد امام رؤسائي . وكان زميلي يهزأ بصوت خافت ويحتقرنني ... وقلت في نفسي : « كم من الزمن انقضى وانت تفعلين ذلك ، دون أن تدركي ، أمام الرؤساء ، وأمام النساء ، وأمام جميع أولئك الذين تلتقين بهم ؟ »

- لا أجرؤ ابداً على أن أقول لا ، ولا أجرؤ أبداً على أن أقول نعم ، بل أقول دائماً « ربما » . إنني دائماً احذر الافتتاح على الآخرين حتى لا ينظروا إليّ شزراً . وإذا مدّ عشيق زوجتي يده إليّ مصافحاً ، مددت إليه يدي . يضاف الى هذا انني ربما أقول له شكراً على نفسه بمدّ يده إليّ ...

إنني دائماً آخر من يصعد الى حافلة . كنت أقول لنفسي إنني لا أحب الشغب ، وأكره النظافة ، وأحب اللطف فوق كل شيء . ولكنني ، في الحقيقة ، أعمل ذلك لأنني أخاف . وهكذا حاولت دائماً ، طيلة حياتي ، أن أقدمّ بسويات « نبيلة » لخوفي ...

- لدي عمّال دهان منذ ثمانية أيام . إنهم أصغر مني بكثير . أشعر بأنني ملزم أن أبرّر في أعينهم حضوري وكل ما أمرهم به ايضاً . وهذا شبيه بما لو انني كنت متوانياً وأنهم هم العمال العظام . وأقدم لهم لغائف التبغ ، ثم كأساً صغيراً من الخمر . ثم إنني أشفق عليهم للمبلغ الزهيد الذي يكسبونه ... وأرى الآن الى أي حد أحاول أن أجعلهم يغفرون لي حضوري ووجودي ...

- عندما أقف أمام شارة حمراء ويمرّ سائق سيارة في حدود الشارة الحمراء ، أستعمل منبه السيارة كمن يكون في حالة من الغضب الشديد . وأقول لنفسي إن النظام مصنوع لجميع الناس ، وإن كل شيء يسير على نحو أفضل لو أن كل فرد يحترمه . ولكنني أعلم الآن أن الواقع مختلف كل الاختلاف . والحقيقة أن العدوانية لن يكون لها وجود لو كان جميع الناس يحترمون الانظمة ، ولو كان جميع الناس متفاهمين ، ولو كان جميع الناس لطفاً ، وذلك سيتيح لي أن لا يكون لديّ أي خوف .

- قال لي أحدهم ذات يوم إنني كنت اتدلل أمام رئيسي . وكان من الممكن أن انفجر في وجهه غاضباً لأنني كنت اعتقد في نفسي أنني عامل عظيم يحترم التراب . ولكنني عندما سمعت خلال شهر لاحول فرض فكرة من الأفكار يبدو أن رئيسي يضمها مجرد وضع موضع الشك ، فأنني اتخلّيت عنها الآن ... وذلك ليس من الجبن في شيء على الإطلاق . لقد أعلنت الحرب بكثير من الاستشهادات . بيد أنني لا أجرؤ على المناقشة أبداً . فلماذا ؟

— تدبذبت أمام والديّ دائماً . وما كفت عن أن اتبنى موقفاً يروق لهما . وكنت  
أشعر أنني مصاب بالحصر كلما كان والدي يبدوان أنهما يشكّان فيّ . وبنتي الموقف ،  
على هذا النحو ، الذي كان يروق لوالديّ بصورة أفضل ، أصبحت دبلوماسياً ممتازاً ...  
( واخذ المريض يضحك ) : أنت ترى أن للمصاب فائدة مع ذلك ! ويتصرفي على هذا النحو ،  
خلال وجودي برمته ، أصبحت أفضل وسيط في معمل والدي ، إذ أنني لا أقول نعم أبداً ،  
ولا أقول لا أبداً ... ومن حسن الحظ أن أحداً لا يدرك أنني أتصرف على هذا النحو  
بفعل الحصر !

— في كل مرة أنكلم بين جماعة من الجماعات ، التي باستمرار نظرات سريعة صوب  
زوجتي كما لو أنه كان عليّ أن اطمئن على موافقتها ، وعلى أنني لا أنفقه بحماقات ،  
وأنني لست موضع استهجان . وأرى الآن إلى أي حد أسقط أمي على زوجتي . فما كنت  
حراً أمام والديّ أبداً . كانت باستمرار تقول لي : « افعل هذا ، ولا تفعل ذلك . لا تبدّد  
دراهمك . احذر ، الطقس بارد ... » وبالاختصار ، كانت دائماً ترهقني بوصاياها  
وبتدقيقاتها وتفرض عليّ حصرها وشخصيتها . أما أنا ، فقد كبت عداوتي لها زمناً طويلاً .  
وأصبحت سبباً لطيفاً وابناً باراً . ومنذ أن تزوجت ، تابعت كوني ابناً باراً وزوجاً صالحاً .  
كل ذلك بفعل الخوف ، وبسبب أنني لا أجرؤ أبداً أن أكون على سجيّتي .

— كانت أمي ، لسبب نائه ، تحرد خلال ثمانية أيام ... وكان ذلك يسبّب لي شروبا  
من الحصر يرافقها الانطباع بأنني مهمل . ولم أكن معها أعرف بأي رجل أرقص . وكنت  
أقول في نفسي : « كيف ينبغي أن أكون اليوم حتى لا أقع موقع استهجان منها ؟ » بيد  
أنها عندما كانت تحرد ، كان حسبي أن أتصرف تصرفاً تقياً أو تصرفاً فيه إحسان حتى  
أصبح معها مجدداً على أحسن ما يرام . ومثال ذلك : أن أذهب لحضور القدّاس ، أن  
أحسن إلى فقير ، أن أصلي ... وعندئذ باشرت هذا الطريق . وأصبحت سبباً تقياً  
جداً ، ومحسناً ، ووديعاً جداً ، ومتواضعاً جداً . كنت أذهب لحضور القدّاس يومياً .  
وكان لديّ الانطباع بأنني حسب الأصول وأنا أفعل ذلك . واكتسبت بالتدريج انطباعاً  
بأنني لست آمناً إلاّ عندما أخضع وأسحق نفسي ... (١)

والآن أقترح عليكم ، بعد أن اطلعتم على أقوال المرضى هذه ، أن تتروا  
مصدراً ذا أهمية كبيرة من مصادر حصر الطفولة والرشد .

---

(١) — انظر « الخفاء » في هذا الفصل .

## رابعاً - من الطفيلية الى الشخصية

لدى كثير من الأشخاص المصابين بالمصاب مشكلات ذات أهمية ، خاصة بـ الأم ، تنبع دائماً من اعماق اللاشعور . فالطفل ، في البدء ، لا شيء . إنه عضوية لاشعورية تعيش على بعض الفرائز . وهو طفيليّ - امه ومرتبطة بها ارتباطاً كاملاً .

والطفل لا شيء . ويصبح بالتدرج « شيئاً ما » . إنه يكتسب شخصية .

وهنا إنما يبدأ على الغالب كل شيء . فالأم هي التي تحتفي ، ولكنها التي يمكن أن تنبذ . إنها التي تحب ، ولكنها التي يمكن أن تحجب جها . وهي التي تدن ، ولكنها التي يمكن لها أن تعفو ببعض الشروط . إنها تحتاز على قوة اللانهاية . والأم امرأة إله ، تمنح الحياة والحب ، ولكنها قادرة على أن تستعيدها في أي لحظة .

وعندئذ ، من الضروري أن يواجه الطفل شخصيته بشخصية امه . ولا بد له من أن يتعلم السباحة . وهذا امر يتطلب إذن ، على الغالب ، أن لا تكون الأم ماء عكراً . والحال أن كثيراً من الأمهات مصابات بالمصاب ، أو يجهلن جهلاً مطبقاً آليات الحصر الطفولي . وذلك هو ما اقترح عليكم أن تطلعو عليه .

## ١ - ملعون لأنه سرق تفاحة

لا بد لنا من أن نكرّر القول ، قبل كل شيء ، إن من العبث أن نبحث عن « مسؤولين » . فلا أحد مسؤول عن الظروف ، ولا حيلة في ذلك لام أو أب اذا كانت هذه الظروف هي التي أرغمتها على أن يكونا مصابين بالمصاب ، مثلما ان لا أحد مسؤول عن كونه أصيب بالتيفويد أو الزكام . ومن اليسير جداً أن يبحث المرء عن كباش القداء . فالأب ( أو الأم ) المصاب بالمصاب حالة واقعية ، وهو في الوقت نفسه ،

ظرف تمييز **يجبر الطفل على أن « يستمر في العيش »** بوساطة العصاب .  
وتظل الحالة المثالية إذن أن يعرف المرء أنه مصاب بالعصاب ، وأن يقبل ذلك ، ثم أن يبذل كل الجهود لكي يتخلص منه ، وأن يتعلم في الوقت نفسه دوره العميق ( وبخاصة ما يتعلق بالأبوين ) . ذلك أن الأبوين هما ، دائماً ، موضع موازنة بما يمثلانه في لاشعور الطفل .

وبعد أن قلنا قولنا هذا ، إليكم حالة تربوية شائعة جداً ، تولد دائماً مزيجاً معقداً من الحصر والإثمية .

فلنتذكر أحد القوانين : **لا يتكون الطفل بفعل التربية في ذاتها ، بل بفعل رد فعله إزاء هذه التربية .**

وننقل الى الطفل قوانين ، وأوامر ، وأشياء مباحة وممنوعة ، يقوم إزاءها برد فعل : يقبل ، يرفض ، يعجب ، يوازن ، يحتقر ، يقلد ، يحاول أن يساوي وأن يتجاوز ، الخ .

وإذا كانت شخصية الأم ، إذ أنها هي موضوع حديثنا هنا ، شخصية سوية ، فإن جميع الفرص مؤاتية لكي تكون ردود فعل الطفل صحيحة ، ولكي تتفتح شخصيته فتتحا متناغماً . ولدى الطفل ، في هذه الحالة ، جميع الوسائل التي تتيح له أن يصبح ما هو عليه .

وهكذا تسود ، في المراحل الأولى من الحياة ، شخصية لا مثيل لها في ذاتها : « الأم » ، التي ينبغي أن تكون ضرباً من النزل .

## ٢ - عندما يكون النزل مغلقاً

هنا يتدخل تصوّر التربية ذاته ، تلك التربية التي تقدّمها أمهات مصابات بالعصاب . وهؤلاء الأمهات يشعرن سريعاً - بفعل عصابهن ذاته - أنهن مصابات بالإحباط وأن عيشهن منغص . إنهن ، في أغلب الأحيان ، لا ينتقلن تربية ، بل سيطرة . وهن بحاجة الى فرض وجهة نظرهن . ويرغبن في علامات خارجية من الخضوع الدائم . ويمنحن حبهن بشروط جائرة في بعض الأحيان . ويفرضن على الطفل ضروب

قلقهن وحصرهن ، وإحساساتهن الدائمة بالخطر ، واستبدادهن ، وامزجتهن ، وصنوف حردهن ، وأحقادهن ، وضغائتهن ، ويحتملن بصعوبة أن يكون للطفل شخصيته الخاصة . ويكابدن الحاجة الى أن يظهر لهن اولادهن انهم يحبونهن ويطيعونهن ويحترمونهن ، الخ .

وسواء كنا بصدد أم أم لا ، فتنح إزاء امرأة مصابة بالعصاب ، تعاني سلوكاً عصابياً كلاسيكياً .

ذلك هو موكب الأمهات المستبدات (مستبدات بالطف أو بالعدوانية) ، والأمهات اللواتي يخصين ويجردن من الرجولة والشخصية ، الخ . ولنستشهد الآن ببعض أقوال مرضى ، أقوال يمكنها أن تلخص حالات لا يحصى عددها .

— أمي ؟ لم اكن اعرف ما أفعل لأقع من نفسها موقع الرضى ...

— كنت اشعر دائماً بأنني آثم امام أمي ...

— كنت أحس بأقل هفوة على إنها خطيئة فادحة عندما تكون أمي موجودة ...

ولنتذكر أن الطفل بحاجة الى الحب بقدر ما هو بحاجة الى الخبز ، وانه بحاجة الى الشعور بأنه موضع الحفاوة كما هو عليه . بيد أننا ندرك مباشرة أن لا شيء على ما يرام ، اذا كانت هذه الحفاوة خاضعة لشروط عصابية .

### كيف يكون رد فعل الطفل إذا كانت الأم مصابة بالعصاب ؟

سيصطدم الطفل بتناقضات عميقة . فالأم بادىء ذي بدء ، لا تطابق الرمز الذي يصنعه الطفل لها . وبدلاً من أن يكون له أم تستقبله دون شرط ، فهو إزاء أم مصابة بالخوف ، تحب ثم تكفّ عن الحب ، أم تفرض الحب لتسحبه فيما بعد ، الخ . من هنا منشأ ردود فعل الطفل: حصر ثم رد فعل ضد هذا الحصر .

وعلى أي حال ، لا يمكن للطفل أن يكون عفويًا في الاتجاه « صوب أمه » . وهذا أمر واضح . إنه يلاحظ علامات خارجية من الحب ولكنه



لا يشعر بأنه محبوب . وهذا منطقي ، ما دامت القدرة على الحب تتأكل دائماً بفعل العصاب . وتلك عندئذ هي ضروب الحب الامومي المزيف الذي يتجلى ، مثلما قلنا سابقاً ، بوجوه من الاستبداد واللفظ المفرط ، والحصص المدقق ، والحاجة الى الاحتفاظ بالولد لنفسها وحدها ، بفعل الخوف اللاشعوري من أن « يكبر » ، وبفعل التعلق الجنسي اللاشعوري ، الخ .

وسيكون رد فعل الطفل ، أمام هذه « التربية » ، رد فعل سيئاً . إنه سيقوم برد فعل لكي يحمي نفسه . وسيشعر بأنه في حالة من فقدان الأمن . ولا بد له من البحث عن الأمن بأي ثمن .

### ويمكن للطفل ، لكي يجد ضرباً من الأمن مجدداً :

— أن يبذل كل جهد في سبيل إرضاء أمه ، وبالتالي أن يتجنب كل عمل يمكن أن يكون موضع استهجانها .

— أن يخضع ، مقيداً بيديه ورجليه ، لكل رغبات أمه ، ولجميع صنوف استبدادها ، ولنزواتها كافة . وتلك هي الآن مازوخية مصفّرة .

— أن يبذل التربية التي تُعطى له ، وأن ينمي سلوكاً دائماً من العدوانية والمراعاة والخضوع المزيف ، الخ .

— أن يكبت بعض الدوافع . ومن المؤكد أن «العداوة» ، بل والحقْد ، سيظهران سريعاً . وبناء عليه ، فإن هذا الطفل يجد نفسه أمام أم مقدّسة ، يُحرّم التمرد ضدها ، ويحرّم ، بالإضافة الى ذلك ، تنمية العداوة أو الحقْد .

— أن يشعر بالإثم : والمقصود هنا سلوك سنرى تفصيله في الصفحات التالية .

— أن يرفض بصورة لاشعورية كون أمه لا تطابق المثال الذي صنعه لها . وسبيل الطفل كل جهد من أجل أن تظلّ أمه ضرباً من « مريم العذراء » التي لا يمكن الطعن بها . وسيكون لديه نزعة الى أن ينظر

الى امه انها على حق ، بصورة آلية ، وانه على خطأ . والواقع انه سيرفض على نحو لاشعوري كون امه مصابة بالعصاب .

ولن تستطيع شخصية الطفل ، على اي حال ، ان تتصرف تصرفا سويا . ولن تقدر على ان تسلك الدرب الذي يتصف بأنه دربها . وعلينا ، بناءً عليه ، ان لا ننسى احتمال الإصابة بالعصاب بمجرد ان يكون تفتح الشخصية الصحيح معوقاً . وسنرى الآن كيف يحدث ذلك على الأغلب .

لماذا يتصرف كثير من الأشخاص كما لو أنهم كانوا آثمين ، وكما لو أنهم يجدون انفسهم مخطئين ؟ فأي ذنب اقترفوا حتى يكونوا آثمين ؟ ولماذا ؟ فهؤلاء الأشخاص لم يقترفوا ، بصورة موضوعية ، شيئاً معيباً الى مثل هذا الحد . وها هم يتصرفون كما لو أن العالم برمته كان يحقد عليهم ، وكما لو كان عليهم دائماً ان يبرّروا لكل شخص ما فعلوا .

كل يعلم ان إخافة الطفل يعني إخفاء أفعى في جيبه . والحال أن الخوف ، في الأوضاع التي تلي ، يتم تقطيره ، نقطة نقطة ، ويوما بعد يوم ، وعاما بعد عام . إنه خوف خفي . لاشعوري على الغالب ، يمس الياف الطفل الأكثر عمقاً ، ثم الياف المراهق فالراشد .

**ماذا يحدث إذا كان لدى الطفل انطباع بأن امه تسحب حبها له ؟**  
إنه الوضع الأكثر اتصافاً بأنه مثير للحصر بعمق . بالنسبة اليه . حتى ولو لم يدرك ذلك بصورة شعورية . والحصر الأشد الذي يمكن ان يستولي على طفل من الاطفال ينشأ من الاحساس بأنه مهمل ، إذن ، من الإحساس بفقدان كل أمن . والمقصود هنا ليس الإهمال المادي بل الإهمال السيكولوجي ، الذي يتصف بأنه اشد عمقا وخطورة بكثير .

فأي خوف إذن ينتشر به الطفل هنا ؟

### ٣ - الخوف من الوحدة

ما ان يشعر الانسان بأنه وحيد او « منفصل » حتى يستولي عليه

الحصر : ويستوي في ذلك ان يكون في الشهر السادس من عمره او ان يكون قد بلغ التسعين عاما . ونحن نعلم بأن لا شيء اشدّ إلماً في ضروب العصاب، على سبيل المثال ، من هذه المشاعر ، مشاعر النبذ .

وكل طفل لديه نزعة سوية الى ان يفرض نفسه في الحياة ، وان « يختبر » الوجود وفقاً لشخصيته . يضاف الى هذا ان كل طفل تقوده الحاجة الى الأمن والراحة . وحب الأم وحمايتها يمنحانه أمنه الأعظم .

**والأمن الأساسي بالنسبة الى الطفل** إذن هو ان يحتفظ بحب أمه . وحصره الأعظم ان يحسّ بأنه فقد هذا الحب ، وبأنه منبوذ من الناحية المعنوية .

فكيف يمكن لذلك ان يحدث؟ ذلك يتجلى عندما يعاقب الطفل على ذنوب او أخطاء ارتكبها ، او على التعبير عن شخصيته ، بكفّ الأم عن حبها له ، من نوع : « إذا اقترفت خطأ ، وإذا أبدت شخصيتك ، فاني لن أحبك بعدها » . ومضمون ذلك بالنسبة للطفل : سأدخلني عنك .

ماذا يحدث فيما بعد ؟ على الطفل : من الناحية المنطقية ، ان يكون بإمكانه ان يقول في نفسه : « اقترفت ذنبا . وعليّ أن اتحمل تبعته بكل عدل ، هذا هو القانون » . وبدلاً من ذلك ، فهو مضطر للتفكير على النحو التالي : « ارتكبت خطأ ، ومن أجل هذه الهفوة . لم تعد أمي تحبني ، وستبذلني » .

ها هي ايضا بعض من أقوال المرضى :

— كانت أمي تقول لي دائماً : « إذا عصيت ، لن أحبك بعد ذلك ... »  
او :

— في كل مرة كنت خبيثاً ، كانت أمي تحرد وكأنني كنت مجرماً ...  
او :

— إذا كنت لا تزال خبيثاً ، سأتركك في زاوية من زوايا أحد السوارع ، وسيهلك الرب الجوّاد كذلك (!) ، وسيأتي الشيطان (!) ليأخذك ...

( هذا امر ينافي الحبس السليم ، اليس كذلك ؟ ولكن الامر على هذا النحو ) .

أو :

سمعت امي ، حتى بلغت الخامسة عشرة من عمري ، تكرر قولها لي - أو كل موقفها كان يقول ذلك - : « لقد عصيت ، ولن أملك ثانية إلا عندما تطلب الصنع مني » ...  
( وهذا ينافي الحبس السليم ، اليس كذلك ؟ )

أو :

- كان عليّ أن احبى الجار تحية الصباح في يوم ، وعليّ أن لا انظر اليه في اليوم التالي . وذلك كله لأن والدتي كانت عاجزة عن التفاهم مع أي كان ، وباستمرار تختلف وتصالح . وإذا قلت صباح الخير للجار عندما كانت تحرّم عليّ ذلك لأنها كانت على خلاف معه ، فنلك كانت حكاية كاملة خلال عدة أيام . ويحدث الشيء نفسه في الحالة العكسية . وكان لديّ انطباع بأنني موزّع باستمرار بين قوى متناقضة ، وفي النهاية لا اعرف من كنت ولا ما كانت عليه شخصيتي . وكل ذلك يرافقه الاحساس بأنني مذنب دائماً أمام امي . وما كنت اتحمّل حردها الذي يدوم طويلاً . وكان لديّ في فترات حردها كثير من ضروب الحصر ، بل وكثير من الحقد أيضاً . فما كنت على سجيّتي أبداً . كان عليّ أن اكون مثلما كانت امي ترغب في أن اكون . وأعلم تمام العلم أن ضروب حردها كانت ، بالرغم من عداوتي لها ، تسبّب لي الحصر الى درجة انني كنت افعل أي شيء حتى اكون موضع استحسانها . إنني ادرك الآن الى أي حد كان ذلك كله لاشعوريا بصورة فظيمة ...

وموقف الام المصابة بالعصاب يُلخّص على الغالب ، وفقا لما أتينا على رؤيته ، كما يلي :

- إذا لم تمثل الدور الذي اقتضيه منك، وإذا خالفت قانوني ، وإذا كنت غير ما أرغب في أن تكون ، وإذا لم تفعل ما أريد أن تفعل ، سأنتحليّ عنك . وسيكون لديك الإحساس بأنك مذنب من الناحية الأخلاقية . ولن اغفر لك ، ولن اقبلك مجدداً إلا عندما تخضع ثانية لقانوني .

والمآل المنطقي إذن : عندما يرتكب الطفل خطيئة ( أو بالحري : خطأ ) فانه يشعر معنويا بأنه آثم ومهدّد بفقدان حب أمه ، وفقدان كل أمن في الوقت نفسه .

ولنشر إشارة عابرة الى أننا نجد هنا مجددا حالة الناس الاوائل الذين ذكرتهم اسفار التكوين في الديانات . فلنتذكر آدم الذي ارتكب خطأ زهيدا أمام اب كلي القدرة وكلي القوة ، والذي جرّ الإنسانية ، عقب ذلك ، الى إثميه فظيعة ...

**فلنلخص إذن : خطيئة الطفل - خطيئة « أخلاقية » - آثم - مهمل - مخفي - حصر .**

## ٤ - التراجع خوفاً

موضوع حديثنا ، بصورة عامة ، مناخ من التربية دائم .

فحصنا من قبل عدوانية الطفل . وتعني هذه العدوانية ، **السوية** لدى طفل **سوي** ، مجرد ان شخصية في حالة التكوّن تبحث عن فرض حياتها .

فماذا يحدث هنا ؟ بمجرد ان يدخل الطفل في تناقض مع امه ، يشعر شعوراً عميقاً بأنه آثم ومصاب بالحصر كما لو أنه لم يكن يملك الحق في ان يكون له شخصية . وهذا امر منطقي ، بما ان كل عمل شخصي ، وكل خطأ ، يجازى عليهما وكأنهما خطيئتان أخلاقيتان ، وينعاقب بالكف عن حبه !

والحقيقة ان الطفل يشعر بأنه آثم لانه يبدو على حقيقته . **فهو يشعر بالإثم لانه موجود .**

ويقول في نفسه بصورة لاشعورية :

- هل أشعر بأنني مهمل ومصاب بالحصر إذا كنت على سجلي ، وإذا كنت شخصياً ، وإذا ارتكبت أخطاء وخطيئات ؟ إذن ، لن أكون على سجلي !

ويكفّ الطفل عن ان يبدو على حقيقته . فيضع شخصيته في جيبه ويقل على كل شيء بقل ثلاثي الدورات . ذلك ان عدم إظهار شخصيته

افضل وسيلة لتجنب الاحتمال في ارتكاب الخطأ ، وافضل وسيلة ، في هذه الحالة ، لتجنب الشعور بالآثم .

ويستمر المنطق . فيشرع الطفل في تمثيل دور من الادوار ، لانه يرفض أن يشعر على نحو غير عادل بأن عيشه منغص وكأنه آثم اخلاقي ، وإن كان يجب العدل الموضوعي ويجب أن يُعاقب على خطيئته بعدل . فأن يُعاقب ، نعم ، اما أن يُهمل إهمالاً وجدانياً ، فلا .

وماذا يفعل الطفل عندئذ ؟ بما أنه مهمل ، وبما أن ثمة حقداً عليه ، وبما أنه « آثم » ، فانه يفعل كل شيء ليكون ثانية موضع صفح ومحبة . ولكن من الضروري أن يدرك المرء تماماً أن هذا النحو في التصرف يدوم ابداً ، إذ انه لا يكفّ عن معاناة حصر النبذ لاتفه الامور .

يفعل الطفل إذن كل شيء حتى لا يكون مذنباً ابداً ، ولكي لا يتألم من الحصر الذي ينشأ من ذلك . وعلى هذا النحو يستبعد شخصيته الاصلية ويمثل شخصية ليست شخصيته .

**اي دور سيمثل ؟ سيمثل اي دور حين يشعر بانه محبوب .**

أيرغبون في أن يكون خاضعاً ؟ إنه خاضع . أيرغبون في أن يكون عبقرياً ؟ إنه عبقرى . أيرغبون في أن يكون بهيمة ؟ إنه بهيمة . انيساً ؟ إنه كذلك . متمرداً ؟ إنه كذلك . مثالياً ؟ يصبح مثاليا . أيرغبون في أن ينجح نجاحاً باهراً في المدرسة ؟ إنه الاول في صفه .

ويصبح الطفل حرباء ، دبلوماسياً . ويخاثل ويتذبذب . ويبدل كل جهد لكي لا يدخل في تعارض أو تضاد . ويحدث له على الغالب أن يكذب باستمرار ، بالنظر الى أن شخصيته المزيّفة ، في ذاتها ، كذب دائم ، ويسقط على قدميه ببراعة فائقة .

ولكن من المؤكد انه ، في حقيقة ذاته وبصورة لاشعورية ، غير « راضٍ » . فنحن هنا في مظهر من مظاهر المازوخية : الخضوع للغير

خضوعاً كلياً ، ولكنه يحتفظ في اعماق ذاته بحاجة عنيفة الى الاستقلال .  
والطفل واقع دائماً بين توترين قوين : ما هو عليه واقعياً ، والشخصية  
التي عليه أن يظهرها .

وماذا تصبح العفوية ؟ إنها تصبح كل ما يرغب الآخرون في أن تصبح ،  
ولكنها في جميع الأحوال لا ترى . فتحة شلل في العفوية التي تختفي في  
شبكة من ضروب الحصر .

إنه إذن عصاب عميق يبدأ ، يرافقه انطباع بالإثم دائماً ، في حين أن  
لا شيء يسوّغه من الناحية الموضوعية .

وتستمر اللعبة الصغيرة . ولنفرض الآن – كما يحدث ذلك دائماً –  
أن اللعب يدوم سنين . فالطفل ثم المراهق يريان شخصيتهما تزداد  
شلالاً . وتكبت عدوانيتهما السوية ما دامت عقوبة هذه العدوانية هي  
الكفّ عن حبهما .

وتعتقد الأمور أيضاً . فكلما شعر الطفل والمراهق بأنهما مجرّدان  
من شخصيتهما ، أصبحا عدوانيين وعدائيين بصورة غير سوية . وكلما  
كبتا كل شيء ، شعرا بصورة مبهمة انهما آثمان .

وبالتدريج ، ينطبق فكاً كمناشة العصاب الواحد منهما على الآخر  
بقوة .

ويكون ممكناً وضع جميع هذه الحالات في معادلة : كون تصرف المرء  
تصرفاً شخصياً ← كونه على سجيته ← خطر ← حصر ←  
إنميمة .

من هنا منشأ ضرب من رد الفعل ، أي معادلة جديدة : لتتجنب  
التصرف الشخصي ← لنمثل ← لتتبنّ موقفاً يحول بيننا وبين  
الشعور بالإثم ويمنحنا الانطباع بأننا محبوبون .

وذلك عندئذ هو البحث اليائس عن الاحساس بأن الانسان محبوب ،  
بحث يتم في كل زمان ، وفي كل مكان ، وايا كان الباحث .

وتموت العفوية والأصالة والاستقلال . ويصبح رأي الغير كلب  
حارس ينبغي الاعتماد عليه دون انقطاع ، وينبغي التنسيق معه  
باستمرار . ونستطيع ، في الختام ، تلخيص جميع هذه الحالات في  
الجدول التالي :

ام مصابة بالمصائب	طفل
- حب مزيف وأمن مزيف ، بما أنهما يرتكزان على عصاب .	- حاجة للحب والأمن .
- تهديد بالكف عن الحب .	- ارتكاب خطيئة أو خطأ .
- الكف عن الحب .	- إحساس بأنه مهممل -
- صفح ؛ الحب المزيف والأمن المزيف مجدداً .	- خوف وعداوة وإثيمة .
	- خضوع ليجد الحب ثانية .

## هـ - « إنني عاجز عن أن أحقد على أحد » ( حالة جاك ) .

- انني عاجز عن أن أحقد على أحد ، قال جاك . وانهم تمام الفهم أن كثيرا من  
الناس حمقى أكثر مما هم خبيثاء . ولا أتذكر أنني غضبت أبدا إلا على أُمي عندما كنت  
صغيرا . ومن المؤكد أن لهذا الأسلوب في النظر الى الأمور محاذيره ؛ فالمرء يستسلم ،  
ويعفو عن كل شيء ، ولا يكون حذرا ... ولكنني وضعت مثالي كله في هذا التصور ، ذلك  
أنني مسيحي بعمق . ولكن ثمة مع ذلك شيء يؤعجنني ، من وجهة النظر المسيحية دائما ؛  
أن ذلك انما هو طيبي بالنسبة لي ولا يقتضي أي جهد مني ... والشئ الوحيد الذي  
يجعلني مطمئنا أنني اتألم لخيب الناس . ولكنني أقسمت أن لا أبغضهم . انني أعفو  
عن الجميع ...

وبالرغم ، مع ذلك ، من هذا « التطور » ( الأصيل ) فهو يتطلب قوة  
داخلية هائلة ) ، فان جاك يعاني الحصر ومشاعر الدونية وشتى



الاضطرابات التي تكون إقطاعة المصاب . ولا يبدو جاك ، مع ذلك ، عدوانيا ( أقل مما ينبغي أن يكون ! ) إذا نظرنا اليه من الخارج .

ويقرّر جاك ، بعد كل حساب ، مباشرة تحليل نفسي ، أمام مشاعر الدونية التي تحول بينه وبين التقدم في الحياة الاجتماعية . وبرزت بسرعة كبيرة مواد ذات أهمية . ولست قادراً بالتأكيد على أن اتناولها كلها ، ولكن اليكم بعضاً منها :

— كانت أمي مصابة بالمصاب . وما كنت أرى أبي أبداً على وجه التقريب : كان عسكرياً . وكانت أمي عصبية الى أقصى حد واستبدادية ... وذات نرق ، وأي نرق ! وعندما كنت لا أروق لها وأتجه صوبها ، كانت تقول لي : « لا تعد لتقبيلي ما دمت لم تصبح عاقلاً مجدداً ! » وكنت اطلب اليها ، اذا كتبت وظائف المدرسية ، أن تساعدني فيها ، وكنت اطرح عليها السؤال التالي : « هل أنت لا تزالين بعد غاضبة ؟ » وكانت تجيبني اجابة لا تتغير : « سئرى ذلك فيما بعد ، عندما اصفح منك ! » لقد بدأ ذلك عندما كان لي من العمر عشرة اعوام ، واستمر الى حين زواجي ، في الثالثة والعشرين من عمري . .

— وهل كان ذلك يحدث غالبا ؟

— ولكن ... كل أسبوع . وفي كل مرة ، خلال يومين أو ثلاثة أيام ، كانت أمي تردني ، الى أن يأتي اليوم الذي فيه تصفح عني اخيراً ... وبا للشيطان ! ذلك ما كان يريحني من صباه ! وكان لدي الانطباع بأنني مسخ صغير ، تخلّى عنه الآله والناس ، منبوذ كأنه « قتلر » في زاويته ، غير جدير بحب أم ! ولم تكن تحرم نفسها ، فضلا عن ذلك ، من أن تقول لي : « انك تستطيع على الأقل أن تحب أمك بصورة مناسبة ، بعد كل ما فعلته من أجلك ! » ...

— وماذا بعد ؟

— ثم ... حسن ، هذا كل شيء ! وكنت أبحث بإرتياب وتردد ، واتقرب ، وأخضع ، سائني في ذلك على وجه الدقة شأن « بنت محتقرة » صغيرة ، تلك كانت حالتي . الامر الذي أرفضني ، على هذا المتوال ، على أن أكرهها حيثئذ ، الا تصدق ذلك ؟

— ...

— الا تصدق ؟ ولكنني لم ادرك ذلك ، أنت تعلم ! قال لي صديق عندما كنت في الثامنة عشرة : « أمك ! إنها جمل رائع ! أنت تعلم ، إنني لو كنت مكانك لصرفتها بخشونة مع مظاهرها ، مظاهر الشهد غير المفهومة . ولست ، أنت ، سوى رجل ضعيف الشخصية » . وتمازكت ككلب مع هذا الصديق ...

وساد الصمت .

— لأنه كان على وجه الاحتمال قد سدّد تسديداً محكماً ؟ ... وأخيراً ، كل ذلك لا قيمة له ، إنه منسيّ ومغفور . وما يقلقني هو هذه « المقد من الدونية » التي تجعلني أمضي مغلوباً ...

## ٦- وضع جاك

خضع جاك ، خلال ثلاثة عشر عاماً ، الى الرغبات « الشهيدية » والسادية والنزوية ، رغبات أمه . ومن اليسر أن نحسب العدد الهائل من دقائق التمرد والكبت والحقد والحصر ، التي تراكمت خلال هذه الفترة .

ولن أقول شيئاً عن عواطف غشيان المحارم ، العواطف اللاشعورية الموجودة لدى الأم تجاه ابنها . ولنشر مع ذلك ( بصورة عامة ) الى أن الأم كانت ذات نزعات ذكرية عدوانية . وكانت تكره الرجال ... وتكره ابنها بصورة لاشعورية بوصفه صبيّاً . وكان عليها إذن تتصرف بحيث تجعل من ابنها « بنتاً » لا رجلاً . فقد كان على هذه الأم ، من جهة ، أن « تخصي » ابنها . وهي ، من جهة أخرى ، كانت تتوحد بابنها الذي كان جنسه المذكور يعوّض الجنس المؤنث الذي تأسف على اتصافها به . ويمكن القول ، على وجه التقريب ، إن قضيب ابنها كان قد أصبح إقطاعتها الخاصة بها ... شريطة أن يكون لها كليا . من هنا منشأ سحق الابن ، وخصائه النفسي ، ومنعه من أن يكون له شخصية ذات رجولة ، الخ .

ويتصف جاك بأنه ، بالتأكيد ، « محبوب سيء الحظ » . وتبدو القطيعة الوجدانية سريعاً بينه وبين أمه ، قطيعة لاشعورية يكبت

مظاهرها ... إذ أن الحصر يظهر منذ أن يعاني الإحساس بأن أمه تتخلى عنه . وبدلاً من أن « يقطع » جاك الروابط ، فإن عليه إذن أن « يعزّزها » : وهدفه دائماً أن يتجنب الحصر ... وبمساعدة كبت الكره .

### لنعبّر عما يمكن لجاك أن يقول في سن الرشد :

– فقدت بالتدريج إرادتي وشخصيتي . واختفت أناني وقد غزتها الانا العليا . وكان عليّ أن أتوحد بأمر لا يجنب نبذها لي . ولكنني كنت أكره هذا التوحد الذي كان يجعل مني « بنتاً محترقة » . وكان عضوي الذكر قد أصبح صفة شديد الخطر : صفة شخصية مذكورة كان محرّماً عليّ أن أظهرها . وكانت هذه الشخصية ، بالفعل ، على النقيض مما كانت تتعلّبه أُمي مني . وكان عليّ أن أبذل كل جهد لكي أفلت من الإحساس بأنني « طفل غير أهل » . « و« وديء العاشرة » ، ونموت أخرى تلاحقني عندما كنت أجرؤ – نادراً – أن أكون على سجيّتي بصورة تنصف بالرجولة . وكنت ملزماً بالوحد بأُمي ، وبأن أصبح ما كانت تريد أن أكون : أن أصبح مثلها ، وأن اأخلى عن شخصيتي . وكان عليّ أن أعترف كما لو أنني كنت لا أمتلك عضو الذكر : كان عليّ إذن أن أصبح شبيهاً بنت طيّعة . كل ذلك من أجل الحصول على مظهر من مظاهر الأمن والسلام ...

ونمى جاك ، بالتأكيد ، عدة نزعات إلى الخضوع ( لا يقول شيئاً ابداً ، يستسلم ، يعفو رغم معارضة الجميع ) . كذلك ايقن جاك بصورة لا شعورية أنه لن يكون محبوباً إلا : ( ١ ) إذا كان ما يقتضي الآخرون أن يكون ؛ ( ٢ ) إذا قمع كل نزعة تنصف بالرجولة . فنحن هنا في حالة رأيناها سابقاً : إنه يضع عضوه الذكر في الداخل مثل امرأة ، بدلاً من أن يجرؤ ، بصورة رمزية ونفسية ، على الاحتفاظ به نحو الخارج . وبدلاً من أن ينفذ إلى المجتمع كما ينفذ الرجل ، ترك المجتمع ينفذ إليه . فهو عاجز من الناحيتين الاجتماعية والجنسية .

ثمة كذلك عامل آخر يتدخل : لم تعد الأم هنا لكي تعفو ! ومعنى ذلك : بدلاً من أن يكون جاك موضعاً لحب أمه ( بوصفه مطيعاً ) ، فإنه موضع احتقار الآخرين ( بسبب هذا الخضوع ) . وبالرغم من ذلك ، لا يجرؤ على الدخول في منافسة ...

وغنيّ عن البيان أن ضرباً من العدوانية الهائلة ( واللاشعورية ) تغمر شخصية جاك ، عدوانية ستقدّم له عوناً ثميناً خلال التحليل . ولنشر ايضاً ، إشارة عابرة ، الى أن جاك يبرّر سلوكه بوساطة مثل رفيعة ( « وضعت كل مثالي في هذا التصور ، ذلك انني مسيحي بعمق » ... ) ، الامر الذي يبين أن مثالا من مثل السلام بأي ثمن يمكن وضعه في خدمة المازوخية كما يمكن وضعه في خدمة الاصاله .

## خامساً - مصادر الحصر الداخلية

إذا كان الحصر ينشأ من الاحساس العميق بخطر ، فان المرء يدرك بسهولة أن الخطر الاول موجود فينا . والحيوان ، في كل منا ، يجوس متنفساً بدوافعه البدئية التي تتصف بأن أكثرها فاعلية هي الدوافع العدوانية . ولنتذكر أن هذه الدوافع اللاشعورية تقتضي التحقق المباشر ، وأن كل مانع ، ينبغي استبعاده بمقتضى مبدأ « اللذة » (١) . والدرب الأكثر مباشرة ، بالنسبة للاشعور ، هو إزالة المانع دون أي إجراء آخر ، وهذه هي رغبة الموت التي رأيناها في الفصل الثاني عشر .

وتقتضي دوافع الحيوان ، من جهة ، إشباعاً فورياً . ومن جهة أخرى ، تصطدم هذه الدوافع على وجه العموم بسدود الأخلاق ، والأسلاك الشائكة للمحرمات ، وحصار القوانين المعروفة .

من هنا منشأ النزاع ، العنيف على وجه التقريب ، بين الدافع الذي يصعد من الكهوف وبين الغطاء الأخلاقي الذي يسعى الى الاحتفاظ به تحت الأرض . فالخطر بدا وكذلك التناقض العميق : والحصر يتفجر وكأنه مستنقع . وسيكون الحصر أشد بالتأكيد كلما كان الدافع قويا وكانت القوانين الأخلاقية مصبوعة بالإثمية .

ها هو ذا مثال ( لا يتجلى أبداً بهذه البساطة في الواقع ) .

---

(١) انظر التخطيطية الموجودة في الصفحة الاولى من الفصل الثاني عشر .

لنفرض ان ثمة رجلا يشعر بانجذاب نحو امرأة صديق . ولنفرض كذلك ان فكرة هذه الرغبة نفذت الى فكر هذا الرجل ( ويمكن لهذه الرغبة ان تكون مع ذلك لاشعورية بصورة تامة ، ومثلها ردود الفعل التي تعقبها ) . ويجهل الرجل في هذه الحال كل ما يحدث في ذاته .

الدافع : « أرغب في امرأة » ، دافع سوي . ولا يرتبك اللاشعور مطلقا من ان المرأة هي الآن لرجل « آخر » . ولا يعني لفظ « صديق » شيئا على الاطلاق ، بالنسبة الى اللاشعور ، اللهم مجرد مانع لتحقيق الدافع تحقيقا مباشرا . ويقوم اللاشعور برد فعل يستبعد المانع بكل بساطة ، كما يفعل على وجه الدقة إنسان فظ بدائي .

لنر المراحل الثلاث الممكنة لدى الانسان « المتعبد » من خلال هذا المثال :

**المرحلة الاولى :** الدافع الجنسي نحو المرأة متبوع مباشرة بالحاجة الى استبعاد المانع . وهذه الحاجة يمكن التعبير عنها بضرب من « تمنى الموت » ، موجه للصديق . ويواجه الدافع الجنسي وتمنى الموت سد الانا العليا القوية . ويحصل الكبت . وقد يكون كل شيء لاشعوريا بصورة تامة . فتمة حصر يمكن ان يتكوّن ، ولكنه يظلّ ( كذلك ) لاشعوريا بصورة تامة .

**المرحلة الثانية :** الدافع الجنسي يظهر الفكرة التالية : « لو مات صديقي لتمكنت ان احظى بامراته . وهذا الدافع يبلغ الانا العليا ويتجاوز السد ، ثم يبلغ الشعور . فيشعر الانسان بأنه مصاب بالحصر والإثم امام رغبة يحكم عليها بأنها « فظيعة » .

**المرحلة الثالثة ( الأكثر اتصافا بأنها سوية ) :** إذا الرجل استبعد الانا العليا ، صعد الدافع الى الشعور دونما صعوبة . فالرجل يقمع بصورة إرادية هذا الدافع الذي يتصف بأنه لا يتلاءم مع اخلاقه الفردية . وليس ثمة إثمية ولا حصر .

**ردود الفعل الممكنة لهذا الرجل :** كل شيء منوط بقوة الدافع وبالسدود التي تعترضه . ويمكن لهذا الرجل أن يشعر بأنه مصاب بالحصر دون أن يعلم السبب . ويمكن كذلك أن يشعر شعوراً غامضاً بالإثم أمام صديقه ، ويعاني الحاجة الى الصفع . وفي هذه الحالة ، يمكن أن يحيطه بالرعاية ، ويقدم له الهدايا ، ويكون لطيفاً جداً معه ، الخ ( رأينا الحالة ذاتها ) . ويمكن أيضاً أن يعاني الحاجة الى الاعتراف بـ « خطيئته » كما يشعر بـ « العزاء » أي كما يشعر بالغفران وبزوال الحصر .

## سادساً - العدوانية والحصر

العدوانية والعداوة مصدران قويان من مصادر الحصر . وتتصف العدوانية على الغالب بأنها كالسلاح المرتد الذي يعود فيسبب انتفاخاً في وجه من أطلقه . لماذا ؟

إذا كانت العدوانية تولد الحصر ، فذلك لأنها تظهر خطراً ، وذلك لأنها تهدد شيئاً ما . ولكن ما هو هذا التهديد ؟

من يقول عدوانية يقول عداوة . وهذا يعني أن الآخر يمكن أن يقوم برد فعل ، إما بالعدوانية أو الكره أو الاحتقار ، وإما بالخضوع أو اللامبالاة ، الخ .

وعلى أي حال ، إن العداوة تعني التنافس مع ما يترقب عليه من غالب ومظلوم .

ولكن ما الوضع إذا كان ثمة شخص يخاف التنافس كما يمكن أن نرى ذلك في أغلب الأحيان ؟ وإذا كان يخاف أن يكون منبوذاً ومحترقاً ومهملاً وموضع نقد ولوم ؟

فلنتفكر بالحالات الأربع الأكثر شيوعاً :

— شخص يخاف أن ينظر اليه الناس على أنه غير كامل . فالعدوانية

تمثل بالنسبة اليه « نقصاً » . وعدوانيته تعرضه الى خطر فقدان  
اعتباره . فيكبت او يقمع هذه العدوانية .

— طفل ، او مراهق ، يخاف الدخول في معارضة عدوانية مع ابيه  
او مع امه . ويخشى أن يعاقب على هذه المعارضة بالكف عن حبه  
( « إذا كنت خبيثاً ، كفوا عن حبي » ) .

— شخص عدواني يخاف عدوانية خصمه . فيعزز عداوته ( « بصرخ  
أفوى من الآخر » ) .

— العدوانية مكبوتة بفعل حصر الخصاء ( انظر « اوديب وحصر  
الخصاء » في الصفحات التالية ) .

وفي أغلب الاحيان ، يقول الشخص في نفسه : « إني عدائي ، إني  
مهدّد . فأمشي مهدّد . واتمرض الى خطر ان اكون منبوذاً » .

وهكذا يكبت هذا الشخص عدوانيته كيما يستبعد الخطر . وبدلاً  
من ان يبدو عدوانياً ، يبذل كل جهد في سبيل ان يبدو لطيفاً . ولتشر  
هنا الى ان ذلك لا علاقة له بمראה الصالون التساجبة ، بل المقصود  
آلية لاشعورية مخصصة للحماية من الحصر . والشخص ، من جهة  
اخرى ، مقتنع بأنه لطيف وانيس وغيري ، وبأنه ينظر الى خير الآخرين  
قبل خيره ، الخ ( انظر حالة ماري جان فيما يلي ) . ويبعد النزاع  
القوي ، عندئذ ، بين التبعية والاستقلال .

ومن جهة أخرى ، وذلك ما نراه في التحليل النفسي كما بينت من  
قبل ، فقد يبدو مريض ، عدواني بصورة لاشعورية ، ذا طاعة مثالية  
وتهذيب لا يتزعزع . إنه صورة من صور المقاومة (١) : فالمرضى يقاوم ،  
إذ أن ترك عدوانيته تخرج ، يمثل في ذهنه ، خطراً خطيراً . خطر ان  
يحتقره المحتل ويدينه .

---

انظر « الرضى مقاوم » في الفصل الرابع .

## حالة ماري جان

كانت ماري جان عاجزة عن أن تترك أمها أكثر من نصف ساعة . ولم تكن تتيج لنفسها غير نزهة قصيرة في حبتها . أما السينما والسهرات والاستجمام ، فقد كانت ممنوعة بالنسبة إليها . وأي انفصال عن أمها كان يولد لديها حصرًا لا يمكن احتماله . كانت تقول :

— عندما كنت أترك البيت ، كنت أتخيل كثيرًا من الأمور : سقوط أمي عن السلم ، واحترق البيت ، ومرض أمي وموتها دون أن أكون موجودة ، الخ . وعندما كنت أخرج لفترة طويلة على النصف ساعة ، كان ينتابني ضرب من الدمر . بل ما كنت أجرؤ على دخول البيت ، وكنت أقرب منه ، وأظفر إليه من بعيد لأرى « إن كان لم يحدث شيء » . وعندما كنت أضغ المفتاح في القفل ، كان الحمر يصعد متزايدًا . وكنت أصني لاسمع أمي تلهب وتجهد ... وعندئذ كان يبدو بالتدريج ضرب من الراحة ...

وكان المرء يلمح ، عندما يلاحظ ماري جان ويصفي إليها ، أن سلوكها تجاه أمها كان مجبولاً بطيبة قصوى ولطف لامتناه . وكانت ماري جان تمتني بأمها عناية لطيفة بصورة مستمرة . وتجنبها أوهى الصعوبات . وكان الألم الخفيف الذي يصيب أمها يجعلها كذلك تفرق في الحصر .

ويبدو بالتأكيد ، للوهلة الأولى ، أن هذا كله مرضيٌّ ومبالغ فيه . ويمكن الاعتقاد بأن ماري جان ظلت متعلقة بأمها بفعل ضرب من الإفراط في الحب . والحال أن ليس ثمة شيء من هذا ، والواقع مختلف كل الاختلاف ، بل الواقع هو العكس ...

## من كانت أم ماري جان ؟

أم ماري جان أم تضفي الإثمية . أم تحرد لاتفه الأمور ، وتذل شخصية ماري جان ، وتفتاظ كلما كانت ماري جان تدلي برأي شخصي ، وتنجز عملاً مستقلاً ، وتنظر في أن تسافر وحيدة ، الخ . ولكن لتتخيل أن هذه الألوان من « الإذلال لشخصية » ماري جان كانت قد استمرت منذ سنين ، ثانية بعد ثانية .



كيف كان رد فعل ماري جان ؟ امام هذا التجريد من الشخصية ، وامام هذه الام التي كانت تضفي عليها الإنمى لانته الامور ، من المؤكد ان رد فعل ماري جان كان لا بد من ان يتصف بعدوانية قوية . فالام تمنع تفتح شخصية ابنتها . إنها كانت إذن مانعا قويا . وكان لا بد لرد الفعل لدى لاشعور ماري جان من ان يكون ، ثانية بعد ثانية ، « استبعاد » الام ، الامر الذي يعني ان يتمنى موتها باستمرار .

ودامت هذه الحالة اللاشعورية زمنا طويلا بالتأكيد .

وبرزت إنمى عميقة لدى ماري جان . وكانت تفكر بصورة لاشعورية على الوجه التالي :

بالنظر لكل ما تمنيت لامي ، سأنحل وقد كل ما يمكن ان يحدث لها من سوء ، ما دمت قد تمنيت لها ...

ولا بد للعدوانية والحقن ، من الناحية المنطقية ، من ان يكونا قد بانا لدى ماري جان . ولكن هذه العدوانية كانت تمثل تهديدا لها . فاذا كانت الام تعاقب ابنتها على اوهى عمل شخصي تقوم به ، أدرك المرء جيدا انها ستكفّ كليا عن حب ابنتها عقابا على عدوانيتها . فنحن إذن ، على الدوام ، في الحالة نفسها : « لن اكون محبوبا إذا كنت خبيثا » .

فكان لا بد إذن لماري جان من ان تغفل من الحصر . وكان لا بد لها ، بصورة لاشعورية ، من ان تثير ضربا من الأمن ضد الحصر والإنمى اللذين كانا مستوطنين لديها . وعلى هذا النحو إنما أصبحت ماري جان تمنى بأمر عناية رقيقة . وكانت تخفي ، هي ايضا ، رشيشا تحت الازهار . ولكن الحصر ، مع ذلك ، كان يتجلى بضروب الذعر التي تنتاب ماري جان كلما كانت تترك امها اكثر من نصف ساعة ، إذ ان المحاكمة الداخلية كانت تظل دائما : « لو وجدت امي مريضة او ميتة ، لوقع وزر ذلك عليّ ما دمت قد تمنيت لها » .

## سابعاً - أوديب وحصر الغشاء

هذه الالفاظ الخاصة بالتحليل النفسي نزلت الى الشارع مع كل ما يفترضه ذلك من تشويه ، شأنها في ذلك شأن كلمة « عقدة » . ومع ذلك ، فان هذه المصطلحات تستر عدداً لا ينحصى من الحيات الفاشلة من النواحي الداخلية والجنسية والاجتماعية .

يضاف الى ذلك ان هذا المفهوم يبين أهمية عضو الذكر ورحم الانثى ، الأهمية الجنسية والاجتماعية على حد سواء .

والإحاطة بالمشكل أمر لا غنى عنه ، ولا سيما أن معرفته تتيح توضيح عدد كبير من السلوكات التي لا يمكن فهمها للوهلة الأولى .

والفهم العميق لهذه المشكلات ، فضلاً عن ذلك ، يتيح للأباء والمربين ان يتجنبوا الوقوع في غلطات كبيرة ، عديدة بقدر ما هي مؤذية . ذلك ان من غير المعقول ان يرغب أي كان في أن يجعل من ابنه أو من ابنته موجوداً مخصصاً .

تكلمت على « عقدة أوديب » في مؤلفي الأول (١) . ولكنني اتناول هنا هذه العقدة بالبحث مجدداً من زاوية مختلفة كل الاختلاف : زاوية مشاعر الإثمية والحصر التي تتصف بأنها مصدر عظيم من مصادر هذه العقدة .

ولكن لنلاحظ ، قبل كل شيء ، سلوكات موجودين انسانيين . ولن تكون هذه السلوكات غير نقاط صوى . فقد تتجمع وتتوافق وتتجلى بمظاهر تبدو متناقضة . وعلى أي حال ، فانها تنشأ من نقطة واحدة سنفحصها فيما بعد ، منطلقين من الموضوع الى العام .

---

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

## لنلاحظ سلوكات أحد الرجال :

- نمة صعوبات اجتماعية وجنسية ، أو عجز اجتماعي وجنسي ،  
أو الاثنان معا .
- خوف من النساء .
- كره النساء .
- مغالاة في الجاذبية إزاء النساء .
- خوف من الجنسية .
- كره الجنسية .
- خوف من الفرائز .
- خوف من « العفوية » .
- جنسية مغالية لا تشبع أبداً .
- ممارسة العادة السرية ، إما منعزلاً وإما مع شريكته .
- خوف من مسؤوليات الرجولة ، مع كل ضروب التعويض  
العدواني الذي يفترضه ذلك .
- تخنث إما مرئي وإما تمويهه سلوكات « عنيفة » .
- تبجح جنسي .
- حاجة الى جعل النساء قدرات في اعين رجال اخرين .
- كونه شبيهاً بـ « صبي صغير ودود » إزاء النساء .
- إحساس بالامن ، بالقرب من نساء متقدمات في السن على وجه  
الحصر .
- خوف من النساء المتقدمات في السن .
- خوف من الرجال .
- كره الرجال .

- تنافس شرس مع الرجال .
- خوف من السلطة ، مع كل ضروب التعويض الممكنة .
- حاجة الى ان تقبله السلطة وتجبّه ( رؤساء ، تجمعات ، جيوش ، الخ ) .
- خجل وعدوانية .
- خضوع دائم للسلطة .
- تمرد دائم ضد السلطة .
- دبلوماسية كبيرة وسهولة كبيرة في المخاطلة ، ومواهب خاصة في « السقوط على القدمين » .
- عاطفة قوية من الدونية .
- عاطفة من الإثنية ، منتشرة ودون باعث ظاهر .
- البحث عن الألم ، كالمغلاة في التقشف على سبيل المثال ، يبرّره على الغالب ببواعث تبدو موضوعية للوهلة الاولى .
- مازوخية .
- بعض صور التضحية والغيرية .
- بعض الانتماءات الى جماعات « اخوية » من الذكور ، كالجيش والكنيسة والسياسة ، الخ .
- بحث عن الإخفاق .
- حاجة مغالية الى التبعية يرافقها توتر ضدها .
- حاجة مغالية الى الاستقلال يرافقها توتر ضدها .
- جنسية مثلية كامنة أو صريحة .
- حاجة متصفة بالحصص الى تلقي دلائل الود الخارجية .
- بعض صور الرهاب أو الوسواس .
- مخاوف دائمة من تأكيد الشخصية .
- حاجة مغالية الى تأكيد شخصيته بأي ثمن ، حتى باكثر الأكاذيب بعداً عن الإلتقان .
- الخ .

## لنلاحظ سلوكات امرأة :

- امرأة طفل ، ذات نزوات تتجمع حول نفسها .
- مغالية في الفتنة إزاء الرجال .
- عدوانية وسلطوية ، استبداد كامن أو صريح .
- رفض الامومة رفضاً شعورياً أو لاشعورياً .
- استرجال ( جسم جاف ، متقلص ، وغير متفتح ) .
- رفض للتعاون مع الزوج رفضاً شعورياً أو لاشعورياً ، تنافس مع الزوج .
- رفض « الطاعة » للرجل .
- ممارسة العادة السرية ممارسة منعزلة او بملامسات الشريك .
- برودة جنسية .
- خضوع ومازوخية معنوية .
- مشاعر الدونية .
- مشاعر الإثمية ، مشاعر شائنة وبدون باعث ظاهر .
- البحث عن رجال متقدمين في السن .
- البحث عن رجال « يجعلونها قنرة » .
- حاجة مغالية الى التبعية يرافقها توتر ضدها .
- حاجة مغالية الى الاستقلال يرافقها توتر ضدها .
- جنسية مثلية كامنة او صريحة .
- خوف من توطيد شخصيتها .
- حاجة دائمة الى دلائل خارجية للمودة والحب .
- خجل .
- حاجة متصفة بالحصر الى ان يقبلها الآخرون .
- بعض صور التضحية والغيرية .
- بعض « الميل » نحو التبشير الديني .
- الخ .

## ١ - عقدة اوديب الكلاسيكية

عقدة اوديب مرتكزة على الفريضة (١) . إنها مشهورة جدا ، في صورتها الكلاسيكية والمتوضعة على الأقل . وسأقتصر على التذكير بتخطيطيتها .

**حالة الصبي الصغير :** إنه ، بوصفه منجذبا بامه ، يجد نفسه امام مانع قوي ، الاب . وتظهر الغيرة لديه . فهو يرغب في امتلاك امه وحده ، وينزع الى ردع ( « إقصاء » ) الاب . وتظهر العدوانية والإثمية . ويدخل الصبي الصغير في منافسة مع الاب . **فاذا انسجم الوضع** ، بحث الصبي عن تقليد ابيه من ناحية الرجولة ، وعن مساواته وتجاوزه . وهو يحاول انجذابه نحو امه ، في الوقت نفسه ، الى حماية تزداد رجولة حتى سن الرشد .

**حالة البنت :** إنها ، بوصفها منجذبة بالاب ، تدخل في منافسة مع امها التي تكون موضع غيرتها بوصفها منافسة . فتقف من امها موقف المعارضة العدوانية ( « أنت عجوز ... أنت عديمة الذوق في لباسك ... انت لا تروقين للرجال ... » ) . والعدوانية تولد الحصر ( الخوف من ان تتخلّى عنها الام ) والإثمية . وتتوحد البنت تدريجيا بالام ، وتتعلم على هذا النحو فن الإغراء . وبعد ان حاولت ازاحتها لتحل محلها قرب الاب ، فانها تصبح صديقتها وتوجه إغراءها نحن الرجال الآخرين وقد انجزت انوثتها كاملة .

## ٢ - حصر الخفاء الكلاسيكي

٢ - الخفاء ، من الناحية الكلاسيكية ، يدلّ على استئصال اعضاء الذكر الجنسية . وذلك يبدو بمعنى ان البنت لا يمكن ان تكون « مخصيّة » . وسنرى أن هذا غير صحيح . ويولد حصر الخفاء لدى الصبي ، على الغالب ، من كلام عبثي عندما يلاحظ الابوين ان الصبي

(١) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » .

الصغير يوجه اهتمامه الى جسمه ، او يمارس العادة السرية : « اذا لمسته بعد ، قطعوه » ، او : « اذا فعلت ذلك ( أي اذا مارست العادة السرية ) ( ١ ) ، أصبحت شبيهة ببنت » ، الخ .

ب - الاقوال الأخيرة تحمل على الافتراض أن البنت صبي « ينقصه شيء ما » . وإذا كانت هذه هي ذهنية البنت ، فانها تعدّ نفسها في الحال موجوداً مخصياً « ذات شق كبير في أسفل بطني » ، كما كانت قد قالت لى بنت صغيرة في العاشرة من عمرها ، يوماً من الأيام . فالبنت تعتقد في نفسها انها ناقصة ، وتنمّي مشاعر الدونية .

وعلى هذا النحو إنما ترغب بعض الأمهات ( نفسيات ) في الاحتياز على عضو الذكر الخاص بابنائهن . إنهن يأسفن على كونهن نساء **ويطالبن** بعضو الذكر ... الذي لا يمتلكنه . فعليهن إذن ، من الناحية الوجدانية ، أن يجدنه في مكان آخر ، وبالتناسب ، لدى الابن الذي يصبح أروع « زينة » قضيبية . ومضمون ذلك : ابني ، إنه أنا ، ويموّض عضو الذكر لابني أسفى على أنني لم امتلكه ، ويحدث لديّ الانطباع بأنني امتلك واحداً ! وكل ذلك يظلّ ، بالطبع ، لاشعورياً .

إنهن عندئذ يمجّدن الابن في جميع الاتجاهات : فهو الأجمل والأذكى والأقوى والأنشط ، الخ . وغنيّ عن البيان أن كل امرأة « تنظر بعين الحسد » الى ابنها تصبح منافسة شديدة الخطر على الشئاني « أم - ابن » . وتلك هي ، على أي حال ، ضروب التدليل التي تجرّد من الرجولة ، والسلطوية المتعلقة أو الاستبداد الصريح ...

وهكذا ، فان خصاء الابن يتحقّق على نحو تام .

ج - عندما ينجذب الصبي الصغير نحو أمه جنسياً ، فانه يخشى سحق أبيه المنافس . ويخشى في الوقت ذاته أن ينتزع أبوه رجولته

---

(١) انظر « الانتصارات الملهلة لعلم النفس الحديث » ، حيث عالجتنا عقدة أوديب ذات الاهمية الكبرى معالجة مفصلة ، وعالجنا ايضاً مشكل العادة السرية ، الترجمة العربية .

منه ، ويشوّهه ويخصيه عقوبة له . وترداد هذه الخشية بمقدار ما تلتقي عقلية الأيوين بما تضمنته الفقرة ( ٢ ) . وعندئذ يعتقد الصبي الصغير أن « ارتكاب الإثم يعني التمرّض الى خطر الخشاء » .

**والخلاصة :** لنعلم قبل كل شيء أن حصر الخشاء ( أي التشويه ) سوي جدا في ذاته . ذلك أن من المنطقي أن تنصبّ الوجدانية والحساسية على مناطق من الجسم « ترمز » الى ما نحن عليه . وحصر الخشاء ، **لدى الصبي** ، يتبلور في تجسيد شخصيته المذكورة : **عضوه الذكر** . ويتبلور ، لدى البنت ، في تجسيد شخصيتها المؤنثة : **رحمها** .

**وماذا بعد ؟** : يمكن لكلمة « خشاء » أن تؤخذ بالمعنى المادي للكلمة : فالصبي الصغير يعاني عندئذ خوفاً ماديا من أن يقطع عضوه الذكر ويمكن أن تؤخذ بالمعنى **الوجداني** : يخشى الصبي الصغير أن تشوّه شخصيته المذكورة . وتلك هي الحال عندما الآباء يضيقون الخناق على الصبي ، ويفزونه بحضور يغالي في المحبة ، أو يخصونه نفسيا بكل مظاهر الاستبداد الممكنة . وسنرى فيما بعد حالة المرأة المخصّنة .

### ٣ - الخشاء بصورة عامة

نحن نعلم الآن أن للأعضاء الجنسية دلالة مادية بقدر ما لها دلالة اجتماعية ووجدانية .

**بالنسبة لصبي :** امتلاك العضو الذكر يعني أن عليه أن يكون قادرا على الولوج بالمعنى الجنسي والاجتماعي على حد سواء . والمقصود بالمعنى الاجتماعي أن يبدي قدرة فعالة على النفوذ في المجتمع ، ويبدي عدوانية سوية متجهة نحو الخارج ، الخ .

**بالنسبة لبنت :** يتيح الرحم للمرأة أن « تنفتح » جنسيا واجتماعيا ، أي أن تنفتح على الغير ، وأن تمتلك القدرة على « الاستقبال » ، وأن تكون تلك التي يسكن إليها ، الخ .



ولنشر هنا الى ان على الرجل ايضا ان يتجه نحو الداخل ، فينمي خصائصه الانثوية اللاشعورية . كذلك فان على المرأة ان تنمي خصائصها المذكورة اللاشعورية ، وتصبح قادرة على العمل الموجه نحو الخارج . وهذه الامور ذات الاهمية كانت موضع معالجة فيما سبق .

إن الخصاء يعني إذن بالمعنى العام : فقدان المرء خصائص جنسه ، ومعاناة ضرب من التشوّه في شخصيته ، و « الانفصال » عن إمكاناته الطبيعية .

فهو يعني ، بالنسبة للرجل ، ان يكف عن ان يكون قادراً على « الولوج » ، وان يصبح مختثاً .

ويعني ، بالنسبة للمرأة ، ان تكف عن ان تكون « منفتحة » على العالم وعلى الرجل ، وان تصبح مسترجلة .

ولنشر كذلك الى ان من الضروري ان لا نركن ابداً الى المظاهر ، في هذا المجال اكثر من اي مجال آخر ! فالرجل المخصي نفسياً يمكن له ، على نحو جيد جداً ، ان يكون عاجزاً عن ولوج المجتمع ، ولكنه يظهر بمظهر الفحل . ويمكن لهذا الرجل المخصي نفسياً ان يعرض مظاهر من المغالاة في الذكورة ، وان يبدو عنيفاً ومفرطاً في ثقته بنفسه ، وان يجري وراء مغامرات جنسية مع عدد من النساء ... في حين انه يتصف ، في اعماق نفسه ، بأنه موجود ذليل ، وخاضع للسلطة ، ومازوخ في نهاية الامر .

كذلك يمكن لامرأة مخصية من الناحية النفسية ان تبدو بمظاهر فتانة تخفي ذكورة وحاجة الى السيطرة .

ومن المؤكد ان الوجدانية ، في جميع هذه الحالات ، تظل متوقفة في الماضي .

نتمة قاعدة عامة مفادها ان الخصاء ينبغي النظر اليه في المجال الجنسي وفي المجال الوجداني . والغلبة للأول تارة ، وطوراً للثاني ، كما سنرى .

والآن ، فلنتناول العقدة المتوضعة ولنوسمها .

## ٤ - الخفاء لدى الصبي

الفتى منجذب نحو امه . ويرغب في ان تكون له وحده : إما جنسيا  
او وجدانيا ، وإما بالأسلوبين في وقت واحد .

**فكل شيء منوط إذن بكثير من الظروف التي تتجلى في الوسط العائلي .**

ولنفرض ان ثمة فتى ذو رجولة قوية وان امه فتية وجميلة جدا .  
ويفهم المرء جيداً جداً ان هذا الفتى منجذب ، بصورة لاشعورية على  
الغالب ، بالمرأة الجميلة التي تتصف في الوقت نفسه بأنها امه . ويفهم  
المرء انه ، عندما يخرج معها ، فخور بها امام رفاقه الصغار ، شأنه في  
ذلك على وجه الدقة شأنه لو انه « كان يخرج » باحدى الفتيات . فاذا  
كان الوالد ، بالاضافة الى ذلك ، غير موجود ، كان يكون ضعيفاً او مختئاً  
او غائباً ، غزا الإحساس بـ « تكوين ثنائي رائع » مع امه لاشعور الفتى  
بصورة متزايدة ... وتمزّز الوضع الاوديبى .

ولنمرض الآن ان الام متقدمة في السن الى درجة ما ، وهي بشعة ،  
وحدها بالاضافة الى ذلك . ويبدو إذن ان ثمة استحالة في ان يكون  
الصبي منجذباً بامه . بيد ان الحالة الوجدانية تحدث ولو انه ليس للوضع  
الاوديبى ، هنا ، تأثير من الناحية الجنسية . وكل طفل يبحث عن الامن ،  
ويخشى قبل كل شيء فقدان الحب ورعاية ابويه . فاذا كانت الام طيبة  
وحفيدة ، كان للوضع الاوديبى تأثيره ايضا .

ومن الممكن ان نذكر افتراضات لا حصر لها . وعلى اي حال ، فان  
كل شيء منوط بالأسلوب الذي « يتجاوز » به الوضع الاوديبى صبي من  
الصبيان . فلنكرر مرة اخرى تذكيرنا بهذه العقدة ، عقدة اوديب : الحاجة  
الى العودة الى الام ، والحاجة الى ان تكون الام له ، والحاجة الى الاتحاد  
بالام للحصول على الامن والسلام .

ولكن شخصية الأب تتدخل هنا . ومن السوي ان يحسن الفتى  
سريعاً بضرب من فقدان الامن امام هذا الرئيس ، « رئيس القبيلة » ،

الذي : ٢ ) يستولي على كل السلطات ؛ ب ) يحتاز على صكوك ملكيته  
للأم ؛ ج ) يمثل ، في لاشعور الصبي ، ذكراً قويا ، وشمساً ، بل يمثل  
إلهاً .

وتبدو ضروب فقدان الأمن لدى الصبي . ويصبح مفهوم الخطيئة  
الأخلاقية ( الرغبة في غشيان المحارم ) متسلطاً على نحو خفيّ ، وكذلك  
الإحساس بالإثنية ( « أرغب في أن أسرق ماما من بابا ، إنني منافس أبي  
في حب أمي ، الخ ) .

وهنا أيضاً ، ثمة كثير من الأمور منوطة بالصبي ، بل وبالمناخ العام  
للأسرة ، وبذكاء كل فرد منها ، وبالممنوعات الجنسية والوجدانية التي  
تسودها ، وبالأراء المسبقة وبنوع الاخلاق ، الخ .

ومن المؤكد ان الصبي يتعرّض الى خطر التعلق بأمه ، التي تمثل  
أمنه الوحيد ، اذا كانت هذه الأم « طيبة بصورة فائنة » وكان الأب  
مستبداً وغيباً وظالماً . واليك مثالا آخر : اذا كانت الأم جميلة ، ولكنها  
قاسية ومتعالية ، واذا كان الأب لامعاً وجميلاً وموضع إعجاب وطاغياً ،  
شعر الفتى ، على نحو يترى له ، أن الجهتين تنبذانه . وسيعتقد في نفسه  
أن أبويه « يعاقبانه » بسبب « الخطيئة » التي ارتكبتها : سرقة أمه من  
أبيه مع مناخ يسوده غشيان المحارم بصورة عميقة . وسيشعر بأنه آثم  
« وكأنه قذر » . فاذا استمر الوضع ، كان المال شاباً يتصدّع من الحصر  
إمام العالم برمته رجالاً ونساءً — مع كل ضروب الأمن اللاشعورية ضد  
الحصر ، التي يفترضها ذلك .

فلنتذكر ، والحال هذه ، أن ليس ثمة ستة وثلاثون حلاً بالنسبة الى  
صبي . ثمة حلان في الواقع : إما أن يحقق دوره بوصفه رجلاً إذ يصبح  
نفاذاً بكل معنى من معاني الكلمة ، وإما أن يصبح سلبياً ونفوذاً مع كل ما  
ينشأ عن ذلك من أصداء جنسية واجتماعية .

وللغتي أنا ضعيفة . إنه يخشى ، في الوضع الأوديبى ، عقاب الأب ،  
ويخشى أن يذله الأب وينبذه ويعذّبه ويخصيه ، وأن يفقد على هذا

النحو شخصيته ، شخصية الذكر . وهو ، من الناحية النفسية ، مصاب بحصر فقدان عضوه ، عضو الذكر ، وما يمثل هذا العضو .

وامام هذا الوضع ، شتى ردود الفعل يمكن ان تظهر ، منها رد فعل شائع جدا : يكبت الصبي الصغير عداوته لآبيه . فيتخذ الموقف المعاكس . ويبدأ في « التراجع » خوفاً ، كيما لا يكون موضع عقاب ( خصاء ) . ويتسلل دون ان يرى ، ويظهر « واجهة » لا مطمئن فيها ، ويصبح ذا مودة جذيرة بكل المياليات . إنه يصبح لطيفاً مع آبيه ، يظهر له الاحترام ، أنيساً . إنه ، بمباراة أخرى ، يتخثث ، ويخضع ، ويضع نفسه تحت آبيه . كل ذلك لانه لا يجرؤ على الدخول في منافسة مع آبيه ، منافسة يشعر إزاءها بأنه آثم ويمتقد في نفسه بأنها تهدده . فيتعلق بآمه . ويظهر الخوف من الرجولة التي هي الأب هنا .

واذا امتدّ الوضع ، أمكن للصبي ان ينمي ضرباً من المازوخية الأخلاقية . فهو ، من جهة ، يخاف من آبيه خوفاً متصفاً بالحصر . إنه ينتقص من قيمة نفسه ، ويجعل من نفسه صبياً صغيراً جداً ، ويضع نفسه تحت آبيه .

ومن المحتمل ، في هذه الحالة ، ان ينبعث الأب مجدداً في كل سلطة . وفي المدرسة والتجهيز ، وامام اساتذته والصبيان الأكبر سناً ، يبدي الطفل ، ثم المراهق ، أنساً ولطفاً مهما كانت الظروف . وتنمو مشاعر الدونية . ويكبت ، في الوقت الذي يبعو انه خاضع ، عدوانية لاشعورية كبيرة .

ويصبح شعار هذا الصبي ، اللاشعوري : ان لا يكون ابداً موضع عقوبة أو نقد ؛ بذل جميع الجهود ليتجنب الخصاء ، كما لو انه كان يقول في نفسه : « ما دمت ممرّضاً الى خطر التشوّه والخصاء ، عليّ أن أفعل كما لو أنني محروم من عضو الذكر ؛ وعليّ أن أموت رجولتي ، وأن لا ادخل في منافسة مع رجل .

وتبدو جنسية مثلية خفية : فيضع الصبي نفسه في موضع « ادنى » من كل سلطة .

وسنرى ذلك من خلال بعض الامثلة الشائعة .

## الانسان المشوّه في الحياة الاجتماعية

راينا سابقا حالة رجل أصبح « معاونا كاملا » ذا إخلاص ومواظبة مثاليين ، وذلك حتى تنظر اليه السلطة ( رئيسه ) « نظرة اعتبار » . وهذه ، في الحقيقة ، حالة من حالات حصر الخصاص : فهذا الرجل يشوّه شخصيته ( إذ ظلّ معاونا ) ، ويضع نفسه تحت حماية أبيه الخيرة ( رئيسه ) بفضل كمال سلوكه . إنه يتجنب على هذا النحو احتمال خصائه . وإذا يهرب من المنافسة ويظلّ في ظل أبيه ، فانه لا يتعرض الى خطر النبذ والقهر والذل .

### اليكم مثالا آخر :

ها هو رجل ينخرط في الجيش لانه يعاني هذا الحصر ذاته ، حصر الخصاص . وأصبح فيه جنديا مثاليا ، يحترم رؤسائه احتراماً كاملاً ( إنه خاضع في الواقع ) . ويمجّز المرء عن ان يسجّل في تصرفه اقل هفوة . وهو يتجنب ، إذ يفعل ذلك ، كل منافسة ، ويتجنب الخطأ الذي يمكن ان ينشأ عنها . ويطمئن ، بفعل سيرته ، الى عطف أبيه ( رؤسائه اصحاب الرتب ) وحمايته . فتنة كل الفرص المؤاتية لكي يضمن المثالية هذا الجندي على الجيش و « الأخوة » في السلاح ، والوطن والعلم ، ولكي يكون موضع الثواب . ومن المحتمل ان يكون مقتنعا بصحة « مثاله » .. في حين انه لا يبحث إلا عن اليقين بأنه لن يكون مخصيّا .

ويمكن للرجال الذين يعانون حصر الخصاص ان يبحثوا عن تجمعات يفرض فيها الأخوة بالأعراف ، ويتماسك فيها الاعضاء « وكأنهم رجل واحد » . وتتيح لهم استقامتهم في « الأخوة » أن يشعروا ، هنا أيضا ، بأنهم تحت رعاية الأب ( التجمع ) الذي يطمنون الى أفضاله بسلوك ليس موضع لوم .

وعلى هذا النحو ( دون تعميم ! ) إنما يمكن لبعض التجمعات التي اضمغيت عليها المثالية ان تمثل الأب في حال وجود حصر الخصاص . والمثال الاخلاقي سيسوّغ الخضوع هنا أيضا .

ولنكرر ان علينا ان لا نعمّم أبداً ! ولكن الانسان « المخصي » يمكن ان يتخلّى عن الجنسية وعن المرأة بحجة نذر العفة والطهارة ، اي تطهير مشاعر الإنثية . وهو ، إذ يفعل ذلك ، يضع نفسه تحت حماية الاب ( السماوي ) حتى لا يخصيه ، اي حتى لا ينبذه الرب يوم « الحساب » .

وبما ان مشاعر الإنثية قوية لدى رجل من هذا النوع ، فانه سيضحي من اجل الآخرين ويفعل كل شيء من أجلهم ... ولكنه لن يفعل شيئاً من اجل نفسه ما دامت مشاعر الإنثية تمنحه إحساساً بأنه لا حق له بشيء ...

وسيكون لدى هذا الرجل نفسه في بعض الاحيان ميل الى البحث عن التضحية بذاته وعن الألم ، إذ انه يشعر بالإنثم وعليه أن يكفّر . وسيكون لديه ، هنا كذلك ، ميل الى « إضفاء المثالية » على تضحيته والى تبريرها بواسطة بواعث تبدو للوهلة الاولى فتانة .

واذا كان هذا الرجل متزوجاً ، كان كل تطفل لرجل آخر في حياته الزوجية يستثمره وكأنه خطر مباشر . وسيسوِّغ هذا الخطر بـ « الغيرة » . والواقع أن الامر على غير هذا النحو إطلاقاً . فهذا الرجل يسقط أمه على امراته ، ويسقط أباه على الرجل الذي ينفذ الى منزله . إنه يعاني الانطباع بصورة مباشرة انه شبيه بطفل بين أبويه ، وانه منبوذ ومستضعف ومتروك ومخصي .

وعلى اي حال ، يكتب هذا الرجل غرائزه حتى يصل الى كبت كل شخصيته ، شخصية الذكر . إنه لا يجرؤ على تأكيد ذاته ، ويعيش في الخوف الدائم من رأي الغير .

والام ، إياها ، تتجلى في النساء ، فتكتب الجنسية إزاء النساء « السويات » . ولا يمكن لهذا الرجل ان يستسلم لغرائزه ، إلا ، في بعض الاحيان ، مع نساء من مستوى وضع . فهؤلاء النساء يمثلن الام ... ولكن ليس ثمة اب يمكن ان يعاقبن . فالحامي يمثل ابا غير شديد الخطر ، ما دام يسمح بالاتصال بالام ، اي بالبقي .

فكل هجوم ، وكل نقد ، وكل لوم ، يحسّ به رجل مخصّيّ على انه تشويه وجرح عميق . والرجال المخصّيون من الناحية الوجدانية « يحاذون الجدران » ، حتى في ظل مظاهر من الرجولة المزيّفة في بعض الأحيان . ومن المؤكد أنهم لا يشعرون بذلك : فهم يعتقدون على الأكثر ، اعتقاداً مبهماً ، بأنهم يعانون الخجل او « عقدة الدونية » .

وخلاصة القول إن الرجل المخصّيّ يتوارى لدى أدنى تقطيب جبين يبدو على السلطة . إنه يبحث دائماً عن إضفاء المثالية على الواقع الذي يمثل خطراً دائماً بالنسبة له . ومن المؤكد انه يصبح دبلوماسياً ومنافقاً وكذاباً دون أن يدرك ذلك ، إذ أن عليه باستمرار ، لكيلا يشعر بأنه آثم ، أن يطمئن الى رأي الآخرين العطوف . ويمكن القول إنه مصاب بـ « عقدة الابن الطيب » ، أي : كونه لطيفاً وودوداً مع الناس جميعهم ، وكونه غير عدواني أبداً ، ويفعل كل شيء ليطمئن الى حماية الغير ، أي السلطة والاب .

ويتم ذلك في بعض الأحيان تحت مظاهر هي من الكمال والروعة بحيث يبدو متعذراً للوهلة الاولى أن يوجد فيها أدنى تصدّع . . .

## ه - الخفاء لدى البنت

البنت ، في الوضع الأوديبّي ، أقل اتصافاً من الصبي بأنها مهدّدة ، على وجه العموم . ومع ذلك ، يحدث ايضاً ، في بعض الأحيان ، أن « يتجمّد » الوضع الأوديبّي في اثناء السير على درب النمو . وتلك عندئذ هي الطفالة الجنسية بالنسبة للبنت . كذلك فان الصبي ، في هذه الحالة ، ذو ميل الى التخنث ، والبنت ذات ميل الى الاسترجال .

وندخل هنا في ضرب من المفارقة . فبالنظر الى أن العضو المذكور صفة للذكر ، يمكن الاعتقاد بأن حصر الخفاء غير موجود إلّا لدى الصبي . والحال انه موجود لدى البنت ايضاً . ولنتذكر أن الخصائص النسوية

هي **الانفتاح** بالمعنى الاجتماعي والمعنى الجنسي على حد سواء . فالمرأة استقبال ، قدرها ان **ينفذ** اليها الرجل . إنها كالوعاء الذي ينبغي على الحياة ان تملأه . ونمو **الرحم** يجب ان يتم من الناحية الجنسية ومن الناحية - ولنقل - الرمزية على حد سواء . والواقع ان طبيعة المرأة ينبغي ان تكتسب ، وهي تتفتح ، عذوبة واستقبالية .

ولنتذكر كذلك ، والحال هذه ، ان **الخصاء** يرادف نقص الامكانيات او بترها . وهنا إنما نرى ان رحم المرأة يقاسي العاقبة الجسدية والنفسية .

وتبقى الفتاة هزيلة وجافة بدلاً من أن تتفتح . يضاف الى هذا ان بعض الآباء المخشنين ، الذين يكرهون المرأة ، يبذلون كل الجهود لكي تكون البنت شبيهة بالصبي اكثر ما يمكن .

وفي جميع هذه الحالات **تنفلق** الفتاة بدلاً من أن تتفتح . وينمو الرحم نمواً سيئاً . والعادة الشهرية مؤلمة على الغالب ، بل إنها تنقطع في بعض الأحيان .

### **المرأة المخصية في الحياة الاجتماعية**

إنه ، على أي حال ، هو التوقف في التفتح النسوي والإخفاق . فالمرأة ، بوصفها استقرت في عمر وجداني طفالي ، تنفضن وتجف . وهي ، عندما تتزوج ، تختار رجلاً متخثناً . وتنتظر الى الزواج على أنه سيطرة وتنافس عدواني مع الزوج . وتنمي عقلها المعتمد على المحاكمات ، وتكبت إحساساتها العميقة . وما دامت غير « منفتحة » ، فهي ترفض ولوج الرجل . ويمتد رفضها الى الاجتماعي . وتصبح مسترجلة ، أي نافذة ومسيطرة . و « تختار » مهناً توافق رغبتها في ان تنفذ ، أي الذكورة . وعلينا ان نتجنب التعميم هنا ، شأننا في أي موضع آخر : فقد يكون هذا الاختيار اختياراً أصيلاً بصورة تامة !



وقد يكون **التطفل** محسوساً بأنه ضرب من « النفوذ » ، وتشويه الشخصية ، وهتك حرمتها . وهكذا إنما كانت تقول إحدى المريضات :

« عندما فتحت أمي إحدى خزانتي ، أتستج كما لو أنها كانت تهتك حرمة ما هو أكثر صميمية من ذاتي ... » .

والإثمية والحصر ناميان جدا . وتلك عندئذ هي الحاجة الدائمة الى أن يقبلها الآخرون ، وأن لا تكون منبوذة ، مثلما يبدو دائماً في مشاعر الإثمية .

وتعود البنت على أن تتهم نفسها بأنها سبب الشر إذا تعاملت مع أم مسترجلة وعدوانية . وتلك عندئذ هي ولادة المازوخية مع الميل الى الألم . ويتعلق الطفل بالأبوين . وإذا كان ثمة تعلق ب « أم عذو » ، ظهر الميل الى الألم مع استحالة أن تكون سعيدة ومحبوبة . ولا يمكن عندئذ للمرأة الصبية أن تنجح إلا في الشقاء .

وذلك هو السبب عندئذ في أننا نرى غالباً صبايا يحرمن أنفسهن من الغذاء ( فقدان الشهية النفسي ) . والصيام ، في الواقع ، وسيلة كاملة للتوبة وقصاص النفس . وثمة نساء شابات « يحتمين » بالمرض ، كالتدرن الرئوي على وجه الخصوص ، مع كل ما يقتضيه ذلك من « طمانينة الفكر » في الألم .

وبعضهن ينطلقن ، وقد أصبحن مازوخيات ، في كثير من المغامرات الجنسية ، مع الحاجة اللاشعورية الى التكفير . فنرى منهن على هذا النحو من يبحثن عن تدمير جمالهن والذبول والذل ، وعن الوصول في نهاية المطاف الى الإخفاق الأكثر اتصافاً بأنه كلي ، إن لم يكن الى أن يصبحن « لا شيء » بكل معاني الكلمة ...

## ثامناً - الموت من أجل الاستمرار في الحياة

مشاعر الدونية ، التي عثرنا عليها بوفرة في هذا المؤلف ، تجر على الغالب ، قليلاً أو كثيراً ، نفوس أصحابها المذبذبة في خط السير نفسه : **الخضوع وذل النفس والبحث عن المقوبة والعذاب والحاجة الى الإخفاق** ، وضروب أخرى من القرف من الذات . ويرافق ذلك ، بالطبع ، مظاهر عديدة أو صنوف من التعويض يمكن أن نموّهها .

وعلى هذا النحو نعثر على مظهر جديد من المشكل : المازوخية<sup>(١)</sup> . ولقد مسسنا المازوخية مساً خفيفاً مثات المرات ونحن ندرس بعض السلوكات . **والمازوخية** تجوس حول أنماط من الحياة تعني : « أريد أن أكون محبوباً بأي ثمن كان » . وهي تشمل الناس الذين يحطون من شأن أنفسهم حتى يقبلهم الغير . وهكذا ، فإن كل عاطفة عميقة للاثمية يحتمل أن تنصب ، كل برهة . في الحفر الواسعة . حفرة المازوخية . . .

### ١ - خطأ ينبغي تصحيحه :

والمقصود بالحري تحديد ينبغي رفعه . فعمامة الناس يعتقدون ان الموجود المازوخي يتميز بمرض وحيد يتمثل في البحث عن المتعة الجنسية من خلال العذاب ، من حيث هو مغلوب ، مضروب بالسوط ، ويعاني احتقار الشريك أو الشريكة ، من حيث هو موضع الإذلال . وانطلاقاً من هذا الواقع ، ثمة ميل الى الاعتقاد بأن المازوحيين نادرون نسبياً .

والحال ان مشكل المازوخية مختلف كل الاختلاف ، والسبب في ذلك :  
(١) ان المازوخية ليست بالضرورة ذات طبيعة جنسية . وكثير من

---

(١) انظر كذلك « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » حيث كنا قد نظرنا الى المازوخية من زاوية مختلفة كل الاختلاف .

المازوخيين يدون سلوكاً جنسياً مظهره سوي ؛ ب ) ان المازوخية منتشرة انتشار مشاعر الإثمية التي تلتصق المازوخية بها التصاق العلقه ؛ ج ) ان المازوخية ، على الاغلب ، اسلوب في التفكير والتصرف إزاء الغير ... وإزاء الذات ؛ د ) ان المازوخية دفاع ضد الحصر العميق على الغالب .

## ٢ - لنلاحظ مفعولات المازوخية

يمكن للسلوكات التالية ، شأنها شأن كثير من الامور التي رايناها سابقاً ، ان تتجمع وتتوافق وتتجلى بلمسات صغيرة او يقع كبيرة : ذلك ان المازوخية تعبّر عن نفسها من خلال سلوكات بارعة واعراض خطيرة على حد سواء .

اليكم إذن بعض الحالات المازوخية :

— يتصرف المازوخي بحيث يحصل على الفوائد او الامجاد بابرار تعاساته وصعوباته على وجه الحصر .

— يحسّ ، غالباً او دائماً ، بأنه لا اهمية له في رأي الغير : ولو ان مئة الف شخص يبرهنون على العكس ، ولو ان النجاح الشخصي يبدو انه يكذب هذه الحالة .

— يقبل بصورة عميقة ( ولا شعوريا على الغالب ) ان ينبذه الغير وبذلك ، كما لو ان الامر كان بديها ، وعلى الرغم من ضروب التمرد والعدوانية الخارجية .

— يكابد الإحساس الدائم بأنه لا شيء ، ولا يقدر على شيء ، ولا حق له في شيء : لا في النجاح ، ولا في السعادة ، ولا في الامجاد ، ولا في المكافآت . وعندما تحدث هذه الامور الأخيرة الإيجابية ، فانه ينظر اليها على انها خطأ او « فرصة » عابرة .

— ينتظر كل شيء من الآخرين ولا شيء من نفسه . فهو يناور ، بلباقة أو بفظافة ، حتى يتولى الغير كل شيء . وفي ذلك يتكرّر الامر نفسه : فاما أن تكون مناوراته مكشوفة ، وإما أن تتم بأعمال ، أو كلام ، أو سلوكات ، تمتدّ من « الخداع » الى بعض المهارات الباهرة .

— يبسط تعاساته ، لا دون « دافع » كما يظن الناس ، وانما ليثير شفقة الغير ، ويحس بأنه محبوب . ويمكن لذلك أن يغطي تشكيلة واسعة جداً : المبالغة في همومه ، واختراع الحوادث والعراقيل ، وتحويل مرض الى كارثة ، وممارسة التشويه الذاتي ، وإثارة العديد من الامراض النفسية الجسمية كالتدرن والتشنج والربو ، الخ ، ورعاية هذه الامراض لاشعوريا .

— يتعلق بكل شخص يبدى التعاطف ، ويبدل كل الجهود لكي يصبح هذا التعلق التصاقا .

— يعاني عداوة عنيفة لأولئك الذين لا يعترفون بالآلم المازوخي أو لا يلاحظونه . ومضمون ذلك : « ولكن ماذا افعل لكي ترثي لحالي ؟ » .

— يتصف بعدوانية عميقة تسترّها مظاهر الخضوع . وتلك هي اللعبة المزدوجة : الحاجة الى التبعية والحاجة الى الاستقلال ( انظر فيما سبق ) .

— يبرّر نفسه إزاء بعض الأعمال الشخصية . إنه يفكر أو يكرّر القول كثيراً : « اعدرني ... اسمح لنفسني أن ... » . ويصقّر من أهمية أعماله ونجاحاته كما لو أنها « لم تكن ذات أهمية » . ويتباهى بتأهيا كبيرا بجهود تمّ إنجازها . فنحن نلتقي هنا بـ **الاستكمالية** ، ( انظر بداية الفصل الخامس عشر ) .

— يخاف خوفاً عميقاً من تأكيد الذات ، ومن كونه عدوانياً ، ومن لغت الأنظار إليه ، ومن النجاح والتوفيق ، ومن أن تلقى عليه تبعات

يكون قادراً من الناحية الموضوعية على الاضطلاع بها . يستولي الذعر عليه منذ أن يراه الغير أو يسمعه .

— يعيش كما لو أنه ينتظر الكارثة باستمرار ، والإخفاق ، وضربات القدر ، والقصاص ، والعذاب .

— يرتعش داخليا أمام كل صورة من صور السلطة ( انظر « حصر الخساء » في هذا الفصل ) ، ويظهر بالتأكيد بمظهر المغالاة في الانس والتهذيب والخضوع أمام هذه السلطة ذاتها .

— يتصرف على نحو يجعل السلطة تخفي مخالبتها وتصبح لطيفة ، ويلجأ في ذلك على وجه الخصوص الى الوسائل السلبية ، كعرض تعاساته على سبيل المثال .

— يشعر بأنه « احسن حالا » وبأنه موضع صفح وقبول جديد بعد تلقي اللوم .

— يضفي المثالية على العذاب والذل والتواري والتفاني والغيرية والتضحية بالذات . إضفاء يقتصر على بعض الصور على الأقل ( احذر التعميم ) .

— يصاب بلذع حاد أو خفيّ أمام عدوانيته الخاصة ، ذعر ترافقه ، على وجه الاحتمال ، عقوبات ذاتية : تشنج وتعب مفاجيء وصداع ، الخ .

— يتعلق ، في النهاية ، تعلقاً قويا ، بهذا الإحساس التالي : « ليس لي اي أهمية ، وقدرتي الوحيد ان أمنى بالإخفاق ... » .

### ٣ — الثياب لا تصنع الراهب

من خلال هذا القليل من النقاط التي لا تحدّد المشكل إطلاقاً ، نرى الآن الى اي حد يمكن لبعض هذه المظاهر ان تغطّي واقعا مختلفا كل الاختلاف . وهنا إنما يفرض الحذر نفسه على نحو خطير جدا . والواقع

ان بعض الاعمال التي تبدو انها تصدر عن « قوة في النفس » ، يمكن ان تكون صادرة عن المازوخية الخالصة ... في حين ان بعض السلوكات يمكن التصريح بانها مازوخية مع انها تستند الى قوة داخلية وتحقيق للذات تحقيقاً تاماً .

وهذا ، من جهة أخرى ، هو ما سنتلمّحه ونحن نفحص بعض انماط الحياة التي « تدور حول » هذا المظهر الخارجي او ذلك .

## أ - حول الخلو من كل عيب

إننا نجد سلوكات رايناها سابقاً : ها هو ذا رجل يظهر كملاً حقيقياً في التواضع والطيبة والتسامح واحترام الآخرين ، الخ . هل يصدر هذا الكمال عن المازوخية أم عن قوة في النفس ؟ وهذا الرجل ، في الواقع ، يضع نفسه في موضع « أدنى » من الآخرين إن كان الكمال صادراً عن المازوخية . وهو يبحث ، بسلوكاته « الرائعة » ، عن الفوز بعطف الغير ، ويخشى ، أكثر ما يخشى ، أن يكون موضع احتقاره . فمحاكمته هي التالية : بما انه ليس لي أي أهمية ، وبما أنني غير جدير إلا بالنبد والاحتقار ، فإن عليّ أن اتصرّف بحيث أكون موضع إعجاب دائم » . وعلى هذا النحو إنما تسقط الاستكمالية في المازوخية .

ومع اننا ، من قبل ، راينا السلوكات التي تدور حول المحور نفسه ، فلنتذكر هذه السلوكات : الظرف المغالي ، والجاذبية المغالية ، واللفظ المغالي ، والاستعداد المغالي للخدمة ، الخ . والشخص ، هنا كذلك ، يضع نفسه في موضع « أدنى » من الآخر ، ومضمون هذا : « انظر كم احاول ان اكون لطيفاً معك ، أياً كنت ... » .

## ب - حول عظمة النفس

ينبغي - مع الاسف - ملاحظة ما يلي : كل ما يمس الغيرية موضع شبهة على الغالب . وهذا أمر سوي جداً ، ما دام كل موجود إنساني

يبحث عن امنه الداخلي قبل كل شيء . ولكن لتتذكر ان بإمكانه ان يفعل ذلك بعدد كبير من الوسائل ، تمضي من الانطواء على الذات الى الاعمال ، النبيلة بصورة مزينة ، الهادفة الى جذب الآخرين بالتعلق . ولكن بإمكانه ان يجد امنه من خلال مشاعر الإثمية . فهو عندئذ شبيه بمجرم يحس بالراحة عندما يوقفه رجال الامن او ترتسم المقصلة ... كذلك يمكن ان يشعر المازوخي بأنه موضع « الصفح » ( إذ انه يشعر بالإثم ) وهو يضحني بنفسه ، وهو يخفق ، وهو ينجز لحساب الآخرين « أعمالاً قذرة » .

ويمكن للمشكل ان يمضي بعيداً جداً ... فقد يفعل شخص مازوخي كل شيء للآخرين لانه يعتقد بأن لا حق له في ان يفعل شيئاً لنفسه . ويمكن ان « يبرّر » أعماله بكل المثل الممكنة . ولكن الأساس يظلّ مع ذلك : « ليس لي الحق في ان اكون انانيا ، بل ولا ان استريح ، ولا في ان افكر في نفسي ، ولا في التمتع باللهو ، ولا في ان أنسى شقاء العالم » . يضاف الى هذا ان المحاكمة اللاشعورية تستمر : « إنني آثم ، وأشعر بالخطيئة : فعليّ إذن ان اكون موضع الصفح ، وان اكفر ، وان اتطهر ... » .

وتلك ، عندئذ ، مفاهيم مزينة في التضحية ، مع كل ما ينشأ عنها : إخلاص كليّ للغير يرافقه نسيان مطلق للذات ... إنه ، في الواقع ، ضرب من الانتحار اللاشعوري .

اليكم ما كانت تقوله صبية مازوخية . وفي قولها ، نجد الحاجة الى الإخفاق ، والرغبة في أن تصبح حطاماً وفي أن تكون موضع النسيان والغفران .

... انني رخوة ولا وجود لي ... لا اضحك أبداً بصورة حقيقية ، ولا ابكي أبداً ، ولا اصدفاء لي . الناس لا يحبونني ، وهذا أمر غير ممكن ... بي رغبة في أن أجعل نفسي نعمة جداً لكي يحبوني ... انه غباء كبير مع ذلك ، ولكتي لا أفلح في أن أتصرف ... الاعمال ، والاسفار ، والدروس ، فراغ في حياتي ... فلأذهب الى الشيطان ، ولأقبر

نفسى وامت ... عندما يبدى لي احد الاشخاص تعاطفا ، أبكى ، ثم أراجع ، وأغلق نفسى كالحلزون ... اظن انك تحتقرني ... لا وسيلة لان اكون محبوبة ... بغى ... اتمنى ان اكون بغيتا ... بغى ... قو"اد ... وحل ... زهرة ذابلة ... انا ... لا أصلح لان اكون سوى مغلوبه ، موضوعة في سلة القمامة ... او ان اتعاطى الدعارة لصالح حام ... ان اكون موضع الصفع ... وأفعل أمورا حسنة للآخرين ... أرى نفسى في سجن ... واتحرك حركة دائرية طبيعية ... ثمة ضرب من السعادة ... أرى نفسى في دير ، أفعل أكثر الاعمال فذارة ...

### ح - إرادة جليدية

تحت مظاهر الخضوع ، يخفي المازوخي تصميماً بارداً . كان ثمة فتى يتمتم باستمرار عندما ينظر الى أمه التي كان أمامها وديعاً كالحمل :

- نعم ماما ، لا ماما ، ولكن نعم ، ولكن لا ، انج ، انج ، انج ...

ما معنى هذا اللفظ « انج » او « ا - ت - ج » ؟ لقد شرحه لي الفتى وعيناه تعبّزان عن تصميم ماكر بشراسة :

- اننى افعل كل ما ترغب حتى تتركنى بسلام . ولكننى اقول لها دائما « في نفسى » : « انت تستطيعين ان تجري ، انت تستطيعين ان تجري ، انت تستطيعين ان تجري ! » .

إننا رأينا ، مع ذلك ، هذا المشكل ونحن ندرس الإثمية الطفولية . فالطفل ، أمام أحد أبويه ، يخفي شخصيته الحقيقية ، ويشرع في تمثيل الدور الذي يقتضيه منه . وذلك من أجل الحصول على « السلام » أي ( ليشعر بأنه آمن ) . ومع ذلك ، فهو يحتفظ في أعماق أعماق ذاته بتصميم مفاده ان لا يتصرف إلا كما يشاء . ويصبح ضرباً من « المتفطرس المتواضع » .

والمازوخي يتصرف مع ذلك . إنه يفعل أي شيء لكي يكون محبوباً : فيخضع ، ويدلّ نفسه ، ويستجدي ، ويعرض شقاءه ، ويتصف بأنه مهذب ووديع ومتواضع . ولكن ، ثمة صوت لديه يصرّ باستمرار : « سأفعل كل ما تريدون أن أفعل ولكنكم لن تفوزوا بي ! » .



وعلى هذا النحو إنما يطيع المريض المازوخي ، في التحليل النفسي ، جميع القواعد ، وينجز كل ما يطلب اليه المحلل أن ينجزه ، ويصفي إصغاء جيداً لكل ما يقول الطبيب الممارس . . . ولكنه لا يتحرك قيد أنملة إلا بصعوبة . ومضمون ذلك : « إنني ، ظاهرياً ، كل ما تريد أن أكون ؛ أما داخلياً ، فليس ثمة من حيلة : إنك لن تفوز بي ! » وهذا الموقف يختلف عندما تكون العدوانية المستورة قد برزت .

#### د - حاجتان متناقضتان

يحتاج الشخص المازوخي ، من جهة ، حاجة عميقة الى أن يكون تابعاً ، إذ أنه عاجز عن فعل أي شيء بالاعتماد على ذاته . وهو ، من جهة أخرى ، يصون حاجات عنيفة الى الاستقلال . يضاف الى هذا أن الشخص المازوخي يكره الآخرين ، لأنه يشعر الى أي حد يتصف بأنه تابع لهم .

ويفهم المرء إذن ، على نحو جيد ، أن الحصر ينشأ من هذا التوتر بين الحاجات المتناقضة : التبعية للآخرين بهدف الحصول على دعمهم الكلي ، والرغبة في التحرر من هذه الحاجة . ولكن علينا أن لا ننسى أن من المحتمل ، إذا ما تحرر هذا الشخص بعنف وعدوانية ، أن يرى نفسه مهملًا . . . الأمر الذي لا يحتمله .

وهكذا نرى ، ونحن نقفل حلقة الحصر العميق ، الى أي حد تتيح المازوخية ، هي أيضاً ، إفلاتنا من الخوف من الغير حين تقدّم الأمن المزيف الذي يقوم على أن يصغر المرء نفسه لكي يتعظم ، وعلى أن يموت لكي يحاول الاستمرار في الحياة . . .

# ذيل

## الحقيقة ليست وقفاً على نخبة

هذا الحوار بين جامون وداكو يبني الإجابة عن بعض الاسئلة التي يودّ القارئ ، ولا ريب ، لو طرحها على المحلل النفسي ، ويبني بصورة خاصة إبراز العون الذي يقدمه علم النفس التحليلي الى أولئك الذين لا يستطيعون اللجوء اليه أيضا .

س ١ - الا تخشى أن يبعث كتابك ، لدى كثير من القراء ، غروبا جديدة من القلق النفسي لانه ، على وجه الدقة ، يترجم الى جمهور واسع ؟ ثمة الكثير من الاسر التي تعيش في حال من العصاب . فاذا تعرفت احدى الامهات المستبدات على صورتها في الاوصاف التي تعرضها ، فانها تتألم حين تحتاز الشعور بحالة كانت قد أخفتها عن نفسها حتى ذلك الوقت ... وهي تتألم دونما جدوى ، ما دامت عاجزة وحدها عن علاجها . من هنا منشأ مشاعر جديدة من الإنمية ، وربما تماظمت خطورة هذه الحالة التي تنصف الآن بانها حالة صعبة .

ج ١ - من المؤكد أن هذه الام الاستبدادية تتألم حين تدرك ، على نحو افضل ، حالتها الخاصة والاذى الذي سببته لوسطها . ولكن ليس كل الم يولد صدمة بالضرورة . ولن يصبح الألم كذلك إلا بقدر ما يظلّ « مجهولا » ، اي إلا بقدر ما يسقط الفرد ، وهو لا يجرؤ على مواجهة حصره ، هذا الخوف على حالات ليست ذات صلة بالحدث الداخلي او الخارجي الذي سبب هذا الحصر . فهذه الام المستبدّة ربما تكون ، على سبيل المثال ، مجرد امرأة تشك في انوثتها ، او ترفضها بصورة

لأشعورية . وهي تستخدم ولدها لتموض عدم رضاها هذا . ويبين هذا الكتاب لهذه المرأة :

- أنها ليست « آثمة » بالمعنى الذي تعتقده ؛
- أن للأعراض العصابية ، لديها وحولها ، دلالة إنسانية بصورة عميقة ، وأن ذلك ليس فظيماً وغير إنساني ؛
- أن ثمة مخرجاً لمثل هذه الحالات ؛
- أن ثمة أسلوباً إنسانياً لمواجهة المرء عصابه الخاص ويشفيه .

س ٢ — يوجّه كارل ياسبرز للتحليل النفسي ، الفرويدي في الحقيقة ، اعتراضاً يبدو لي ذا وزن . « يعود التحليل النفسي بصورة ضمنية الى الإبقاء بحالة مثالية ، ولا يقود دون شك الى تصور هذه الحالة ، يكون الإنسان فيها متحرراً من جميع التوترات وكل ضروب الإلزام — التي يمكنها وحدها أن توصله الى ذاته — ويكتسب طبيعة تعفيه من أن يكون انساناً كذلك ( الوضع الروحي في أيامنا هذه ، ص ١٨٤ ) .

ج ٢ — لنفكر بشكسبير التلميذ الذي يصارع قواعد اللغة الانجليزية، ثم بشكسبير الراشد الذي يناضل في تأليف هملت . فعمل المحلل تحليلاً نفسياً يقتصر ، مهما كانت آلامه ، على إعدادة لمواجهة العمل الحقيقي في حياة سن الرشد . واذا خضع للتحليل النفسي أحد الزوجين ، على سبيل المثال ، فذلك ، على وجه الدقة ، لكي يكون قادراً على مواجهة مشكلات الزواج الحقيقية مواجهة صحيحة ورشيدة ، تلك المشكلات التي كان قد اقتصر حتى ذلك الحين على تمويهها وكبتها . وقس على ذلك بالنسبة لكل قصور .

س ٣ — كتب جان بول سارتر في كتابه الوجود والعدم متحدنا عن اللواط الذي يرفض أن ينظر الى نفسه على انه شاذ من الناحية الجنسية ، مع انه يعترف بميله : « انه لا يريد أن ينظر اليه الآخرون على انه شيء . فلديه قدرة قوية وغامضة على أن يفهم أن شخصا لواطياً ليس لواطياً شبيهاً بهذه الطاولة انها طاولة ، وبهذا الرجل الاصب ان اصعب . ويبدو له ... أن الديمومة النفسية ، بذاتها ، تبرته من كل خطيئة ، وتكون له مستقبلاً غير متعين ، وتجعله يولد ولادة جديدة . وبهذا ذاته ، ألا يعترف بالخاصة الفريدة التي لا يمكن اختزالها ، خاصة الواقع الانساني ؟

ويبدو لي أن الامر لا يختلف في كل مرض نفسي . فانا اجعل من هذا الشخص موضوعا  
أعلق عليه لصيقة عصاب ، واجعله مفتريا في صورة سيكولوجية لنفسه ، صورة بالنسبة  
له ، وبالنسبة لوسطه ، حقيقته الوحيدة من الآن فصاعدا . وينسى الناس ، نسيانا  
تكتنفه بعض المغالاة ، أن المصاب بالعصاب شخص ، أي موجود لا يمكن لأي شيء أبدا أن  
يجعله مفتريا افتراضيا كاملا .

ج ٣ - سارتر على صواب الف مرة . فاللواطي ليس لواطيا (والمصاب  
بالعصاب ليس مصاباً بالعصاب ) كما الطالوة هي طالوة . والتحليل  
النفسي سيكون متعذراً لو لم يكن ثمة يقين ، في الأساس ، أن أي حالة  
إنسانية تظلّ ، بالتحريف ، مفتوحة دائماً ، وأن أي موجود إنساني  
يتصف بأنه يرجع بالقياس الى عيوبه ، كما يرجح ، من جهة أخرى ،  
بالقياس الى صفاته .

س ٤ - يزعمني التفكير بأن بلوغ الجدارة الانسانية بالنسبة لي منوط باختصاصي  
إذا كنت مصاباً بأي عصاب . انني أقبل أن تكون صحي ، بوصفي مريضاً ، منوطة بطبيب  
ممارس : ذلك أنني أعلم أن الموت هو الفعل الأكثر أهمية في حياتنا ولا شك ، ويمكن اذن  
للمرض ، بالحري ، أن يكون ذا معنى إنساني بعمق . بيد أن التحليل النفسي يبدو أنه  
لا يكفّ عن الإيحاء بأن المصاب بالعصاب لا يمكنه أن يصبح انساناً الا بواسطة المحلل  
النفسي .

ج ٤ - العصاب ، بوصفه كذلك ، ليس « فقدان » الجدارة الانسانية  
على الإطلاق .

فللعصاب ، بادئ ذي بدء ، معنى يتصف بأنه إنساني بعمق أكثر  
بكثير من أي مرض جسدي . والمصاب بالعصاب إنسان يسحقه حصره ،  
إنسان يبحث **بأي ثمن** عن الاستمرار في الحياة ، وعن البقاء متواصلاً  
مع الآخرين . فالعصاب يمثل دفاع المصاب به لكي لا « يموت » موتاً  
تاماً في نظر نفسه ، ولكي يقول أيضاً « أنا » مهما كان أسلوب قوله  
مشوهاً . والعصاب ، بالنسبة لمن يتقن سماعه ، إشارة استغاثة ،  
إشارة حقيقية .

وثمة كذلك سوء فهم فظيع عندما نتهم العصاب بـ « الانحطاط »

الانساني . فليس ثمة ، في البدء ، أي طرح لموضوع ضرب من التراجع في إمكاناتنا . وكلما كان العصاب قويا ، كان من الواجب ان نرى فيه علامة حيوية لا يمكن كبجها . وعندما يستمر العصاب و « يتكيس » ، يتخذ تدريجيا ، في هذا الحين فقط ، مظهر ورم سرطاني يُحتمل أن يدمر الشخصية كلها . ومن المثير للسخرية ، حتى هنا ، ان يطلق الانسان حكما . كتب كارل ياسبرز ، وهو طبيب للأمراض العقلية أصبح فيلسوفا ، حول موضوع المصابين بالفصام ، يقول : « ربما كانت التجربة الميتافيزائية الأكثر عمقا ، تلك التجربة التي يحتاز فيها الوجود ذلك الشعور بالمطلق ، غير ممكنة إلا في اللحظة التي تتصف فيها النفس بأنها من التصدع بحيث لا يمكنها بعد أن تنهض من دمارها . » ( من كتابه ستونديبرغ وغوغ ، ص ١٩٥ ) .

والحاجة الى المحلل النفسي تجسيد خاص لهذه الضرورة التي نحن فيها جميعا ، ضرورة الدخول في تواصل مع الآخر لكي يكون لنا وجود حقيقي . وكون هذا الآخر اختصاصيا ، امر ثانوي بصورة نسبية . فالمحلل النفسي ، قبل كل شيء ، إنسان قادر على سماع التمني الأكثر عمقا ، تمنى الفرد ، من خلال أعراضه العصابية ومن ورائها . ودوره ان يقود الفرد صوب ضروب من احتياز الشعور لا يمكن أن ينجزها وحده ، وشفاؤه مرتبط بها .

ومع ذلك ، لن يكون التحليل النفسي أبداً - من حيث المبدأ - موضع نصح لشخص ذي خلفية ذهانية . ويرى المرء الى أي حد يتصف تحديد ما نسميه « الحالات الحدية » بأنه صعب ، ولا سيما اننا نرى أحيانا بعض المرضى ، المصابين إصابة قوية في البدء ، يستعيدون اناهم في نهاية التحليل ، ولكن بعد أن يجتازوا فترة قصيرة من الدهان .

س ٥ - قال لي بعض الاصدقاء ، الذين كانوا يستقبلون في بعض الاحيان محللا نفسيا ذا شهرة ، كم كانت تصبح كل علاقة معه علاقة يكتنفها الالتباس . فقد كان لديهم الانطباع دائما بأنه كان يدرك بعض العوج خلف الحركات الأكثر بساطة ، والكلام الأكثر بعدا عن

الإيداء . فلنترف بأن التحليل النفسي لا يؤمن بالمقاصد الخالصة إلا إيماناً ضعيفاً . لقد اتجه في وقت مبكر إلى الكشف عن طفالة وجدانية لدى الشيوعي أو الكاثوليكي اللذين ارتدّا إلى المذهب الأرثوذكسي ، وعن جنسية مثلية كامنة في كل عروبة ، ومن تخطت جنسي وجداني لدى الميتافيزيائي ، الخ ، الخ .

ج ٥ - من المؤكد أن « علم النفس » يمكن أن يصبح ضرباً حقيقياً من الهوس . وعلى هذا النحو إنما يعجز بعض الذين تمودوا على « جماعات التدريب » عن حضور اجتماع ودي دون أن يشيروا « التوترات » وسرورات أخرى احتازوا الشعور بها في أثناء التدريب . والاجتماع ، منذئذ ، لم يعد يتصف بأي شيء طبيعي ولا عفوي ، وثمة افتعال لتوترات ما كان ممكناً أن تبرز أبداً على نحو آخر ... فإن يكون النضال ضد هذه الانحرافات شيء ضروري ، ذلك امر واضح أشد الوضوح .

ولكن التحليل النفسي ينضمّ لتوّه إلى تأكيد أعظم رجال الانسانية الروحانيين ، عندما يضع موضع التساؤل طهارة مقاصدنا العميقة . فهو يشير لنا على هذا النحو إلى أننا ما كان ممكناً لنا أن تكفّ أبداً عن أن نصبح أناساً .

س ٦ - وهكذا إذن يهدّد بعض التضخّم في السيكلوجي من لم يفهم الرمز الاساسي للتحليل النفسي فهما جيداً . وبعبارة أخرى ، ليس التحليل النفسي تزيّناً ، لا بوصفه علماً ولا بوصفه علاجاً .

افليس من المثير للاهتمام منذئذ ان تلفت الانتباه إلى وجود دروب أخرى غير التحليل النفسي لكي نبني حياة انسانية تكون جذيرة بهذا الاسم ، من أجل جميع أولئك الذين يتمنون أن يشارروا عملاً سيكولوجياً في الاعماق ، ولكنهم لا يستطيعون أن يطلبوا من اختصاصي لسبب من الاسباب ، مالي أو غير مالي ؟

ج ٦ - ينبغي تماماً أن نميّز تقنية التحليل النفسي من قصد التحليل النفسي . وتقنية التحليل النفسي ليست بالتأكيد في متناول كثير من الأشخاص الذين قد يكونون بحاجة إلى العون . ومن الخطر بمكان أن

يقصد المرء « تمثيل » دور عالم النفس بالنسبة لنفسه ، وبالنسبة للآخرين ، انطلاقاً من مفاهيم يفترفها من الكتب . ولكن القصد ، قصد التحليل النفسي ، يتطابق مع ضرب من وجهة النظر في المشكلات الانسانية . ومن المستحب ، بل مما لا غنى عنه ، ان ندخل جميعاً في وجهة النظر هذه .

ويمكن تعريف وجهة النظر هذه على النحو التالي : يعجز الوجود الانساني عن بلوغ ذاته إلاّ في نطاق الدخول في تواصل واقعي مع موجود آخر ، آخر يتقن « الإصغاء » الى رغبة الفرد الأكثر عمقاً ، و « سماعها » ، وقبولها ، تلك الرغبة التي تعبّر عن نفسها تعبيراً مشوّهاً بصورة مفرطة من خلال كلامه وسريته . وهذا هو السبب الذي من أجله كان كل تواصل يشجّع قبول الذات ويحلّ عقدة الحصر ، يلتقي بالمشروع الاساسي للتحليل النفسي .

وقد يكون يسيراً ان نبين ان شخصيات عظيمة - كفاندي ودستوفسكي وجان دو لاكروا - توصّلت الى ما كانت عليه لا بفضل ضرب من التحليل الذاتي بالتاكيد ، بل بفضل ضرب من التطهير الذي يوازي سيرورات التحليل النفسي . ومن الضروري ، في نهاية المطاف ، ان نضع أنفسنا موضع التساؤل ، وأن نقبلها كما هي امام ذواتنا وامام الآخرين وامام المطلق .

س ٧ - على المريض ، شاء ام أبى ، ان يتبنّى موقفاً من العصاب . لإغلاق العينين ومحاولة النسيان ، امر يتسم ايضا بأنه موقف . اليس ثمة موقف أكثر انصافاً بأنه ملائم ، بل ربما طريقة تتيح له ان يتخلّص من المأزق وحده ؟

ج ٧ - لا يخرج المرء من مستنقعائه الخاصة وحده ابداً . والاعتقاد بقدرته على ذلك مرتكز على خاصة مهجورة من خصائص الإرادة المزيّفة .. او على غطرسة طفولية . والوحدة التي تصيغ الرجال ليست انعزالاً ، شأنها ، على وجه الدقة ، شأن الصمت الذي لا يتصف بأنه من الخرس

في شيء . ولا وجود للوحدة الحقيقية إلا بالنسبة لمن كان قادراً على الحوار .

في مؤلف شهير بعنوان « التحليل الذاتي » ، حاول المحلل النفسي كارن هورني أن يبرهن على احتمال أن يكون بمقدور أحد المرضى أن يتخلص من المازق وحده ، بفعل ذاته ، وضمن بعض الحدود ، بالرغم من أن ذلك يكون أطول مدة ، وأقل وضوحاً ، وبفضل تداعي الأفكار الحر . ولكن الأمثلة التي ضربها لم تقنعني قط .

وأثر أن أقول : ( ١ ) إن المريض هو الذي ينبغي دائماً ، وفي كل حالة ، أن يجد بذاته حقيقة الخاصة ؛ ( ٢ ) ولكنه لن يستطيع تحطيم الحلقات المفرغة التي تورط فيها إلا - لكي نستعيد عبارة **مرو بونتي** - إذا ارتبط بشخص آخر بصلات وجود جديدة . فعليه أن يعيش ماضيه عيشاً جديداً وهو يراه في منظور تعايشه مع شخص آخر : ذلك أن ضروب احتياز الشعور ليست فعالة إلا إذا قادها التزام آخر . وبعبارة أخرى ، لا بد من جعل الإبرة التي تدور في خط واحد من الأسطوانة ، دورانا لا نهاية له ، تنزلق نحو خط جديد يوجد في نهايته شخص آخر ( ٣ ) وليس من الضروري أن يكون هذا الشخص الآخر هو المحلل النفسي .

وبصورة مشخصة : ينبغي أن يستلم المريض أول الأمر بأنه ليس عرضة لضربات قاضية لا مفر منها ، وبأن لحالته مخرجاً ولو أنه لا يرى ما يمكن أن يكون عليه المخرج حالياً . وعليه بعد ذلك أن يدخل في حوار مع محاور جدير بهذا الاسم . إن فرويد ذاته ظلّ طيلة فترة الإيضاح المأساوي لعصابه الخاص ، على صلة حميمة بمعلمه بروبر وصديقه فليس .

وتقوم المرحلة الأولى على « الجراءة » في أن نصيغ الأعراض ، التي تجعلنا نألم حالياً ، والتجارب الجارحة التي نتذكرها ، بصوت جهوري أمام موجود يحبنا بعمق ومن أجله . وقد تبدو هذه الأعراض مضحكة : كذعر الفرد بمجرد أن ينصب الحديث على الأرقام والحساب . ولكن



ليس من اليسير على المرء بالتأكيد أن يقصّ على شخص آخر - ولو أننا نقصّ به - هذه الحوادث الصغيرة التي تبدو مهينة جداً ، وأن يقصّها بتفصيلاتها . ومما لا ريب فيه أن من الأصعب علينا كذلك أن نقصّ بصدق ، ودون أن نخفي شيئاً ، تجربة جنسية معينة من طفولتنا لا تكفّ تلازمنا ، أو أن نقصّ مشهداً معيناً لا نزال نحفظ منه بذكرى بشعة ، للأبوين دخل فيها .

ومع ذلك ، لا بد لنا من أن نتفاهم : ليس الموضوع هنا موضوع طريقة أو تقنية . إنني أحاول على سبيل الحصر أن أوضح أن الحوار الانساني يمكن أن يقدم نفعاً حقيقياً منذ أن يبلغ ضرباً معيناً من الصدق . ومع ذلك ، إذا كان ممكناً ، في العادة ، أن نتنظر من الحوار تخفيفاً لآلامنا النفسية ، فانه لا يزيل المصاب ذاته . لقد استطاع باسكال أن يكتشف وحده أسس الهندسة الاقليدية . ومن الحماية أن يستنتج المرء من ذلك أن غالبية الأطفال قادرون على هذا الاكتشاف بدورهم . كذلك فإذا كانت ثمة عبقرية ، كمبقرية فرويد ، استطاعت أن تحلّ عصابها الخاص بفضل عمل شخصي وبفضل مجرد الحوار الانساني ، فذلك لا يعني أن الأمر ممكن للجميع .

والحقيقة أن ضرباً من الحوار الانساني يتيح معاً ، بمجرد أن يكون موقعه ذا عمق معين ، تخفيف الآلام ، ومواجهة الاضطرابات النفسية على وجه الخصوص ، بحيث تحتفظ الحياة بضرب من المعنى .

- س ٨ - في هذا المؤلف نفسه ، المؤلف الذي كنت قد تكلمت عليه فيما سبق ، كتب كارل ياسبيرز ايضاً : « عندما كانت ماعية الراي العام أكثر غنى وكان يقدم للأفراد سنداً ، كان الزواج أقل الصاعاً بالدلالة . أما الآن ، فإن الانسان ، إذا صح القول ، سقط ثانية في المكان الأضيّق من منشئه . وهنا ( في الزواج ) إنما ينبغي عليه أن يقرّر ما إذا كان يرغب في أن يظل إنساناً » .

ويبدو لي - وانجزاً على التأكيد بأن التجربة تؤكد ذلك - أن الحب الزوجي ( وبالتالي غير المشروط ) أسى فرصة مهياة لنا من أجل التغلب تدريجياً على هذه القوى

من الكره والفساد التي تعمل فينا جميعاً ، على وجه التقريب . تلك هي النتيجة التي توصل إليها المحلل النفسي دوبركو أيضاً في كتابه الرائع تكوين الرباط الجنسي ... ربما باستثناء الحالة التي يكون فيها الشريك « مصابين بالمعدن » الى حد يصبح متمرداً كل حوار حقيقي بينهما . فما رأيك في ذلك ؟

ج ٨ - تلك ، ربما ، هي لحظة التأكيد على ان الحوار ، الذي يجد الفرد حقيقته من خلاله ، لا يتألف من كلمات فقط . فالوان الصمت لدى المحلل ، في اثناء الجلسات على سبيل المثال ، تفعل فعلها بوصفها « كاشفاً » . والقول إن على المحلل النفسي أن يبقى حيادياً قول كلاسيكي . بيد ان الكلمة ، في نهاية المطاف ، ليست دقيقة جداً . ومن المؤكد انه يظلّ حيادياً في نطاق هذا المعنى ، معنى انه لا يصدر حمكاً قيمياً على الإطلاق ولا يقدم اي نصيحة ، ولكن صمته صمت فاعل على نحو فريد ومثقل بالدلالة . فلنفرض أن المريض يبدو عدوانياً ويلوم المحلل على صمته هذا . والمحلل ، بصمته ورفضه الاستجابة الى هذه الدعوة ، يوجهه ، إذا صح القول ، نداء الى المريض يطلب اليه ان يمضي الى ما وراء هذه الرغبة الاولى وان ينزل في ذاته بصورة اكثر عمقا .

وثمة شيء يحدث في العلاقة الزوجية الحقيقية . فمن المتعذر ان لا يلوح ما تحت الشعور في اثناء الحياة المشتركة ومن خلال آلاف الحركات الصغيرة في الحياة اليومية . والحفاوة بالآخر - مع الافتراض بأن هذا الآخر مستمر في حب زوجه بالرغم من كل شيء ، ومع الافتراض بأنه لا يطلق حكماً ويقبل جميع هذه المظاهر من العصبية قبولا لطيفاً ( اي هذه المظاهر من الخوف والحصص المكبوتين ) - اقول إن الحفاوة العميقة بالشريك ستفعل أيضاً فعلها بصفتها ضرباً من الكاشف . وسيقول الشريك بصورة لاشعورية : « إنه ، أو إنها ، يقبلني كما أنا ؛ فانا إذن لست المسخ الذي كنت اعتقد ، وبالتالي أستطيع تماماً ان أقبل نفسي هبة » . فنحن الآن في فجر تغير كلي . ومن هنا منشأ هذه الضروب من الثنائي الذي تقدم به العمر : ذلك انه لا بد من زمن طويل قبل ان يعم السلام وجود الوجود برمته .

هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى ، « تتصف الجنسية بأنها الوظيفة العاجزة عن الكذب » ، كما يقول شوارز . ومنئذ ، يتجلى المجال النفسي ، شريطة أن يكون المقصود علاقة أريد لها أن تكون نهائية ، على أنه المجال ذو الامتياز الذي يتعلم فيه كل من الزوجين معرفة الزوج الآخر وقوله .

ويمكن أخيراً أن نتذكر مثال دوستوفسكي ، مثال لاعب مدمن على القمار شفاه الحب الذي اعترف به امراته له .

س ٩ - أسمح لنفسي في الإلحاح : الواقع أن هذه الآراء إذا كانت صحيحة - كما اعتقد - ، وبالنظر الى أن « كوكبة الأفاقي » العائلية هي مصدر غالبية شروب العصاب ، فليس بالإمكان التقليل من أهمية هذه المدارس ، « مدارس الزواج » ، التي تتسع في أيامنا هذه اتساعاً كبيراً . ويمكن لهذه المدارس أن تجد الجزء الأساسي من برنامجها هنا .

ج ٩ - المهم ، أكثر بكثير من شفاء مريض من المرضي ، قطع هذه السلسلة اللامتناهية من الآلام التي ينزع كل عصاب الى أن يبدأها : أب فعال في صرامته يخنق شخصية ابنه ، وحين يصبح هذا الابن أباً فيما بعد يستقط مجدداً صراعه الخاص على أولاده ، وهكذا دواليك .

ولا بد ، لتحطيم هذه السلسلة من الآلام غير المجدية ، من أحد حلين : إما شفاء العصاب ، وهذا هو دور المحلل النفسي ، وإما أن يستطيع المصاب بالعصاب مواجهة اضطرابه والاضطلاع به ... بدلاً من أن يسقطه على وسطه ، وهنا إنما يتجلى الحب الزوجي الصادق على أنه في منتهى النجوع .

وإذا لم تجد السلام في اتحادها كثير من الزوجات ، فذلك لأن الأزواج والزوجات يظنون ، دون أن يدركوا الأمر غالباً ، على حب قوامه الهوى والعاطفة : لذلك لا يبلغ حوارهم ، اللفظي أو الحركي ، تلك الراقعات العميقة من الشخصية . ويتطلب أن يقبل أحد الزوجين نفسه ، وأن يقبل الزوج الآخر ، صبراً طويلاً . فالعلاقة بين الزوجين في البدء ، لا

حين يكونان معوقين سيكولوجيا فقط ، ليست أكثر صدقا من العلاقة بين المحلل والمحلل : فكم من الأزواج يبحثون عن امهاتهم في زوجاتهم ، والعكس بالعكس ! إننا ، من خطأ الى خطأ ، نمضي نحو الحقيقة ، ولا بد لنا دائماً من ان نمرّ بـ ليل ربما جعل كثيراً من ضروب الشجاعة فاترة .

س ١٠ - ما الدور الذي يمكن ان يكون للوسط في التبيين الجديد ، تبين الشخصية ، سواء خارج تقنيات التحليل النفسي أم بصور موازية لها ؟ وكيف تستطيع زوجة أو أخ ، أو كيف يستطيع الأبوان ، مساعدة عضو من اعضاء الأسرة مصاب برهاب الخلاء على سبيل المثال ؟

ج ١٠ - لكي يستطيع الوسط تقديم العون الى شخص يتعرض لصعوبات سيكولوجية ، عليه :

- ان يتخلّى عن الراي المسبق القديم الضار جداً : « إذا اردت استطعت ! » فمن الخطأ ان يكون بمقدور هذا الشخص ان ينشفي بمساعدة الارادة . ويستشهد الاختصاصيون بحالة صبيّة ارادت ان تتخلّص من ضرب من العادة السرية اللازمة بقوة الارادة ، وانتهى بها الأمر الى الإشراف على الجنون .

- ان لا يشعر بالإثم بسبب صعوبات الآخر . فالأم الاستبدادية على سبيل المثال مصدر لفقدان التوازن لدى الطفل بالتأكيد : هذا واقع . ولكن ، بين الواقع والخطيئة ، ثمة هوة فاصلة . والخلط ، من جهة أخرى ، الذي يتكرّر كثيراً ، بين الإثمية بالمعنى السيكولوجي للكلمة وبين الخطيئة بالمعنى الديني للمصطلح يكون سماً حقيقياً نفسياً . فاعتراف المرء بأنه مسؤول عن وضع من الأوضاع لا يعني ان يكره نفسه . « وإذا لم اقبل نفسي ، فلن استطيع بالتأكيد قبول الآخر كما هو ، وبالتالي لا استطيع ان أساعده » .

- ان يقبل اعضاء الوسط وضع انفسهم موضع التساؤل : والهدف ، دون شك ، تصحيح موقفهم ما أمكن لهم ان يفعلوا ذلك ، بل ،

والهدف ، على وجه الخصوص ، عدم نبذ المريض في عالم منززل ولا يعينهم .

فاذا أدركنا أن هذه الاعراض العصابية ليست سوى تعبير مشوه عن رغبة أعمق ، رغبة في التواصل الحقيقي ، استطعنا عندئذ ، بل عندئذ فقط ، عدم الدخول في لعبة المريض وقول الحقيقة له دون خبت ودون جرحه مع ذلك . ولكي يكون بإمكان الحقيقة أن تنقذ ، فلا بد من أن تقال بالحب وأن لا يحس فيها من تتوجّه اليه بأي أثر من الاحتقار . ونحن نكتشف على هذا النحو مبدأ التحليل النفسي .

س ١١ - في مقابلة إذاعية مع السيدة إيفرس ، محلّث نفسي أيضا ، مرّفت الرجل « السوي » بقدرته على « الخلق » : خلق أسرة ، أو مشروع ، أو عمل فني ، الخ . الا يمكن القول ، بالتبادل ، إن كل عمل خلاق ميّال الى التقليل من آثار النزاعات الطفالية لدينا ، التي اخفقتنا في مواجهتها ؟

ج ١١ - اتقن بودلير بلوغ عظمة فنية وإنسانية لا يفكر شخص في أيامنا هذه أن ينكرها عليه ، لانه - بصورة شعورية - التزم بجميع التبعات التي كان بالإمكان أن تجعل سيره متناقلا . كتب يقول :

أيها الراهب الخامل ! متى يمكنني إذن أن اجعل  
من المشهد الحي لتعاستي الخاصة  
عمل يديّ وحب عينيّ !

وان يتبع المرء أيضاً ، في رسائل فان غوغ الى اخيه ، جهد الفنان ، جهده العجيب ، لكي يتوصل الى اعظم ما يمكن من الصدق في مواجهة اضطراباته ذاتها ، أمر بليغ الاثرعلى نحو فريد . ذلك أن المشكل الاولي يكمن هنا : رؤية حصره كما يتجلّى . ولا شك أن أحد اكبر الاخطار التي تترصد المصابين إصابة ضعيفة بالعصاب على وجه الخصوص هو بعض التباهي بالنسبة للعصاب ذاته : شأنهم في ذلك بعض الشيء شأن أولئك الأشخاص الذين يستقرون في العذاب ويفقدونه بعد أن عانوا تعاسة

حقيقية . ويحكي كارل ياسبرز : « في كولون عام ١٩١٢ ، وفي هذا المعرض الذي كان المرء يرى فيه لوحات ، مختلفة المصادر ولكنها ذات رتبة غريبة ، متجمعة حول لوحات فان غوغ الرائعة ، أحسست بأن فان غوغ كان العظيم الوحيد ، والمجنون الحقيقي الوحيد ، والوحيد الذي كان مجنوناً رغم أنه ، بين كثير من الناس الذين كانوا يريدون الشهرة بأنهم مجانين ، في حين أنه لم يكن لديهم غير ضرب من المغالاة في الحس السليم » .

ولكي يمكن للرسم أن يكون محرراً لدى فنان من الفنانين المصابين بالعصاب إصابة قوية أو ضعيفة ، لا بد من أن يفلح الرسام في إلقاء حصره على لوحته بالمستوى الذي يحسه به حالياً .

كذلك ليس من النادر كثيراً أن ينساق بعض الذين يهتمون بـ « الحالات الاجتماعية » إلى الاعتراف بأنهم كانوا مدفوعين إلى هذا العمل بفعل صعوبات داخلية . والادعاء بأن هذه الاستعدادات هي استعدادات مزيفة يتصف بالنزعة التبسيطية . إنني اعتقد بأن أعمالهم قد تكون « خلاقة » وبالتالي ناجعة بالنسبة لهم : ولكن بشرط صريح مفاده أن يحاولوا ، بكل قواهم التي يتمتعون بها ، جعل « المشهد الحي لشقاؤهم الخاص عمل أيديهم وحب أعينهم » .

س ١٢ - هل يمكن أن تقدم « جماعات التدريب » ، التي تتكاثر تكاثراً متزايداً ، مونا سيكولوجياً إلى أولئك الذين يشتركون فيها ؟

ج ١٢ - هدف « جماعات التدريب » هذه أن تتيح للمشاركين فيها أن يدركوا ، وهم يعيشون هذا الواقع ، أن الجماعة وحدة تحرّضها دينامية حقيقية . فالمشارك فيها يتعلم الإصغاء إلى الآخر ، بدلاً من أن ينتظر حتى يفرغ المتحدث من كلامه كيما يكون بمقدوره أن يتكلم بدوره ، والإصغاء إلى ضربات نبض الجماعة ، والاعتراف بالنمط الذي يتصف به حضورنا اجتماعاً من الاجتماعات : حضور ميثال إلى التسلط ، حضور باهت ، الخ . وغنيّ عن البيان أن هذا كله رائع وضروري .

والخطر الذي ينبغي ان لا نقتل من اهميته يكمن في ان نلعب لعبة « من يتدرب على السحر » . فثمة توترات لا بد لها من أن ترتفع . وهذا التوتر القريب جدا من الحصر يحتمل ، إذا جانبنا الحذر ، أن يفجر بصورة مفاجئة ، لدى هذا « المشارك » أو ذاك ، صراعا عميقا كان قد احتجب حتى ذلك الحين . والحال ان « هذه » الجماعة عاجزة عن تقديم مخرج ، وعن تقديم علاج لهذا المشكل الداخلي الذي ظهر فجأة . وهذا هو السبب الذي من اجله ، مع ذلك ، يتجهون اتجاها متزايدا نحو اختيار المشاركين .

وثمة خطر آخر يكمن في ان المشاركين يتعلقون بالطريقة والبحث اكثر مما يتعلقون بالهدف المنشود . وكان هنري لوفيفر قد اوضح اخيراً ( صحيفة العالم ، ١٧ - ٢ - ١٩٦٥ ) ، فيما يخص القدرة الكلية للطريقة ، ان هذا هو فخ العلوم النفسية الاجتماعية الراهن (روايز ، الخ) . ويبدو لي ذلك صحيحا بالنسبة لـ « جماعات التدريب » : فالحياة ، مهما كان هذا التدريب ضروريا ، موجودة في مكان آخر .

س ١٢ - ظهور المرشدين من كل نوع ظاهرة خاصة بمصرنا : علماء نفس تقنيين ، وموجهين مهنيين ، ومربين في ميدان إعادة التربية ، ومرشدين في مجال الحياة الزوجية ، الخ ... دون ان نذكر الاطباء بينهم . ما رايك في دورهم بالنسبة للموضوع الذي نحن بصدده ؟

ج ١٢ - ما ان توغل الصراعات السيكولوجية بعض الشيء في العمق حتى تتجلى بالضرورة الى الخارج في اضطرابات على مستوى العلاقات ( إخفاق في المدرسة ، انفصال في الحياة الزوجية ، الخ ) ، بل وتتجلى في اضطرابات جسدية . ومن الواضح ان من الضروري محاولة تقليص هذه الاضطرابات بأسرع ما يمكن ، وعلى وجه الخصوص عندما يكون مستقبل الفرد أو الحياة الزوجية في خطر . وهنا إنما يجد المرشدون مكانهم .

ومما لا غنى عنه ان يكون مختلف هؤلاء المرشدين مزودين بتكوين في مجال التحليل النفسي بالمعنى الصحيح للمصطلح ، بسبب كونهم ، على وجه الدقة ، **يعملون على مستوى الاعراض المرضية** : وليس بإمكان المحتلل النفسي إلا ان يرتاح لمثل هذا التعاون . وثمة شرط مع ذلك . فللطبيب اسلوب في معالجة الاضطرابات الهضمية يدخل في ذهن المريض ان هذه القرحة المعدية ، على سبيل المثال ، هي السبب النهائي لجميع هذه الآلام ، في حين ان القرحة ربما كانت ذات علاقة بعوامل نفسية . وكما يقول الدكتور نخت : « ينبغي ان لا تقتصر ابدأ على ثلاثة فحوص كلاسيكية : تاريخ المرض والفحص السريري وبحوث المختبر ، بل علينا ان نضيف فحصاً رابعاً : **فحص شخصية المريض** » .

او لنفرض كذلك أبوين قدما يستشيران الموجه المهني ( او المرابي في مجال إعادة التربية ) في موضوع الاخفاقات المدرسية او الاضطرابات في الطبع ، كالكذب والسرقة ، الخ ، التي تصيب أطفالهما . فحين يستجيب المرشد بأسلوب معين لطلب الأبوين ، ويعدّ هذه الاخفاقات وهذه الاضطرابات على انها المشكل الحقيقي ، **لا على انها العرض لقرب من الاضطراب الأكثر عمقا** ، يجعل من نفسه متواطئاً مع الأبوين اللذين يحاولان ، بصورة غامضة ، إلقاء مسؤولياتهما على شخص ثالث . وهو ، من جهة أخرى ، قد يعرض الطفل الى ان يبتعد كذلك ، ابتعاداً يزداد بعض الشيء ، عن الدرب الوحيد الذي قد يجد فيه حقيقته . وقس على ذلك بالنسبة لكل مرشد .

ومع ذلك ، فان هذه الاضطرابات ، سواء كانت عضوية أم قصوراً في الطبع ، وسواء كان المصاب بها طفلاً أم أسرة تعاني صعوبات التفاهم ، تقتضي غالباً ، **وإن لم تكن سوى أعراض** ، تخفيفاً من وطأتها أو استئصال شأفتها بأسرع ما يمكن ، تجنباً لمواقب لا علاج لها : ذلك ان مستقبل الطفل أو مصير الأسرة يصبحان على الغالب عرضة للخطر . ولا بد من تقديم علاج مباشر ، ولو انه لا يعدو كونه علاجاً مؤقتاً . وللمرشدين التقنيين ، هنا ، دور كبير عليهم ان يؤدوه .

س ١٤ - هل ثمة حد للعمر في مباشرة تحليل نفسي ، والمسألة تعنيني من هذا الجانب : فقد يحدث ان يكون لرجال تقدم بهم العمر ( ستون عاماً وأكثر ) منازعة مع



القضاء لان انحرافاً جنسياً ( كإظهار الموروث ، الخ ) ، لا يزال حتى ذلك الحين مقموماً على وجه التقريب ، أصبح غير ممكن ضبطه . هل يمكن للتحليل النفسي أن يقدم إليهم عوناً حقيقياً ؟

ج ١٤ - غالبية المحللين النفسيين من ذوي الاتجاه الفرويدية الدقيق يرون أن نتائج التحليل النفسي في الجزء الثاني من الحياة ، أي منذ حوالي الخمسين من العمر ، نتائج غير مضمونة جداً .

والشيخوخة ، بالنسبة الى يونغ وبودوان ، ليست حياة منقوصة . فكما أن الطفولة والمراهقة تكونان عالمين متمايزين من سن الرشد ولهما معناه الخاص ، كذلك للشيخوخة دلالة خاصة ، والموت مجرد فعل . ولكن ، كما أن من العسير على الطفل أن ينتقل الى سن المراهقة وعلى المراهق أن يواجه مسؤوليات سن الرشد ، كذلك فإن الراشدين يبدون نفوراً عندما يكونون ملزمين بالدخول في سن الشيخوخة ويمضون نحو الموت .

وليس ثمة تفكير بانكار المظهر السلبي في الشيخوخة : فهذه التشوهات من كل نوع تجعل من الشيخوخة سيورة من الانحلال الخلوي . ولكن يونغ وبودوان يعتقدان بأن ثمة مظهراً إيجابياً الى جانب هذا المظهر السلبي ، وبأننا مدعوون ، في شيخوختنا ، الى الدخول في عالم جديد ، فوق الشبهات ، له ديناميته الخاصة ، شأنه في ذلك شأن دنيا الطفل . ومن خلال الرموز ، يعتقد علم النفس اليوناني بالقدرة على عقد حوار حقيقي مع شيخ ، ومساعدته ، على هذا النحو ، على إيجاد « الحكمة » .

ولا شيء ، ربما ، يمكن أن يحدد الدلالة لعلم نفس الاعماق ، مثلما تصوّره يونغ وبودوان ، أفضل من هذه الملاحظة لـ كاموس في كراساته : « إنه لمن الخطأ ، إذا كان للانسان نفس ، أن نعتقد بأنها وهبت لنا تامة في تكوينها . إنها تتكون هنا على مدى الحياة . وليست الحياة شيئاً آخر غير هذه الولادة الطويلة المعذبة . وعندما تكون النفس جاهزة ، اتمننا نحن والالام تكوينها ، فهذا هو الموت » .

الموت ، الذي يتصف بأنه ذروة الحياة .

# الفهرس

٩	: وجهة نظر انسانية النزعة ومسيحية	مقدمة
٣٣	: من علم النفس الى التحليل النفسي	الفصل الاول
٣٦	- شتى فروع علم النفس	
٣٨	- علم نفس السطح	
٤١	- سيكولوجيا الاعماق	
٤٩	- لماذا الشروع في تحليل نفسي ؟	
٦١	- بعض المسائل الاولى	
٧١	: الاتصالات الاولى بالمحلل النفسي	الفصل الثاني
٨٥	: البدايات الاولى في تحليل نفسي	الفصل الثالث
٩١	- بعض بدايات التحليل	
١٠٢	- من هو المحلل النفسي ؟	
١١١	: صوب منبع النهر	الفصل الرابع
١١٨	- القصة المرضية	
١٢٧	- غبطة البدء	
١٣٢	- مقاومة المريض	
١٣٥	- بعض الامثلة عن المقاومة	
١٤٣	: أنا موجود ، اذن أنا عدواني	الفصل الخامس
١٤٦	- الطفل والعدوانية	
١٥١	- وجوه العدوانية	
١٦٧	- ماذا تبرهن هذه الامثلة ؟	
١٧٣	: ملاك يمر	الفصل السادس
١٧٦	- لماذا هذه الضروب من الصمت ؟	
١٨١	- بعض ضروب الصمت المبارك	
١٨٣	- تدخلات المحلل النفسي	
١٩٣	- المفارقة النهائية	
١٩٥	: ذكريات الطفولة	الفصل السابع
١٩٦	- الماضي الابدي	

٢٠٣	— « كلية » الحياة	
٢٠٩	— الارباح في الطاقة	
٢٠٩	— الاسقاط	
٢١٦	— الطاقة المستردة	
	— هل ثمة انتزاع لبعض الذكريات من	
٢١٩	اللاشعور ؟	
٢٢٣	— اللجوء الى الخيال	
٢٣٢	— مزايا هذه الطريقة	
٢٣٧	: « محبوب » بقدر ما هو « مكروه »	<b>الفصل الثامن</b>
٢٤١	— ما هو التحويل ؟	
٢٥٣	— الانسان ، باحث عن المطلق	
٢٦١	: احتياز الشعور	<b>الفصل التاسع</b>
٢٦٥	— ممر صعب	
٢٧٠	— ردود فعل المريض	
٢٧٩	: الحرية والاغلال	<b>الفصل العاشر</b>
٢٨١	— « الانا » ملكة دولة صغيرة	
٢٩١	: عندما الشيطان يقود الرقص	<b>الفصل الحادي عشر</b>
٢٩٢	— الانا العليا السوية	
٢٩٦	— عندما يحتجب الشيطان	
٢٩٩	— بعض الامثلة اليومية	
	— من الاخلاق المعلقة الى الاخلاق	
٣٠٦	المفتوحة	
٣٠٩	: مستودع الفرائز	<b>الفصل الثاني عشر</b>
٣١١	— اللاشعور ذو المنشأ الفريزي	
٣١٥	غريزة اللذة	
٣١٦	غريزة الموت	
٣١٧	صوب الجنين	
٣٢٣	: جواز سفر الى الانهائية	<b>الفصل الثالث عشر</b>
٣٢٦	— ما هو اللاشعور الجمعي ؟	
٣٣١	— الانماط الاولى	
٣٣٩	— سخرية المأساة	
	— الجزء المؤنث من شخصية الذكر	

- ٣٤٩ والجزء المذكور من شخصية الانثى  
 ٣٦١ — من الشمس الى بعث الابطل  
 ٣٦٨ — الى نهاية العالم  
 ٣٧٠ — الام ، رحم كبير  
 ٣٧٥ — الماء  
 ٣٨١ — العلاج النفسي الرمزي  
 ٣٨٢ — من الحلم الليلي الى الحلم المعاش  
 ٣٨٦ — لنعد الى العلاج النفسي الرمزي  
 ٣٩٨ — اللاشعور الشخصي  
 ٣٩٩ — الكتب  
 ٤٠٤ — العقدة

#### ٤١٣ الفصل الرابع عشر : الانسان المصاب بالعصاب

- ٤١٧ — العصاب مرض  
 ٤٢٩ الفصل الخامس عشر : الانسان الآثم والانسان المصاب بالحصر  
 ٤٢٩ — عاطفة الإثمية  
 ٤٣١ — الحصر  
 ٤٣١ — الحصر الكلاسيكي  
 ٤٣٤ — حصر الاعماق  
 ٤٤٣ — كامل خوفي من أن يكون غير كامل  
 ٤٥٠ — البحيرة السوداء

#### ٤٥٧ الفصل الخامس عشر : مصادر الحصر الكبرى

- ٤٥٧ — الولادة والاعمار الاولى  
 ٤٥٩ — حصر الانفصال  
 ٤٦١ — مصاب بالحصر وآثم لانه موجود  
 ٤٦٥ — من الطفيلية الى الشخصية  
 ٤٧٩ — مصادر الحصر الداخلية  
 ٤٨١ — العدوانية والحصر  
 ٤٨٥ — اوديب وحصر الخشاء  
 ٤٩٣ — الخشاء لدى الصبي  
 ٤٩٨ — الخشاء لدى البنت  
 ٥٠١ — الموت من اجل الاستمرار في الحياة

#### ٥٠٩ : الحقيقة ليست وقفا على نخبة

ذيل